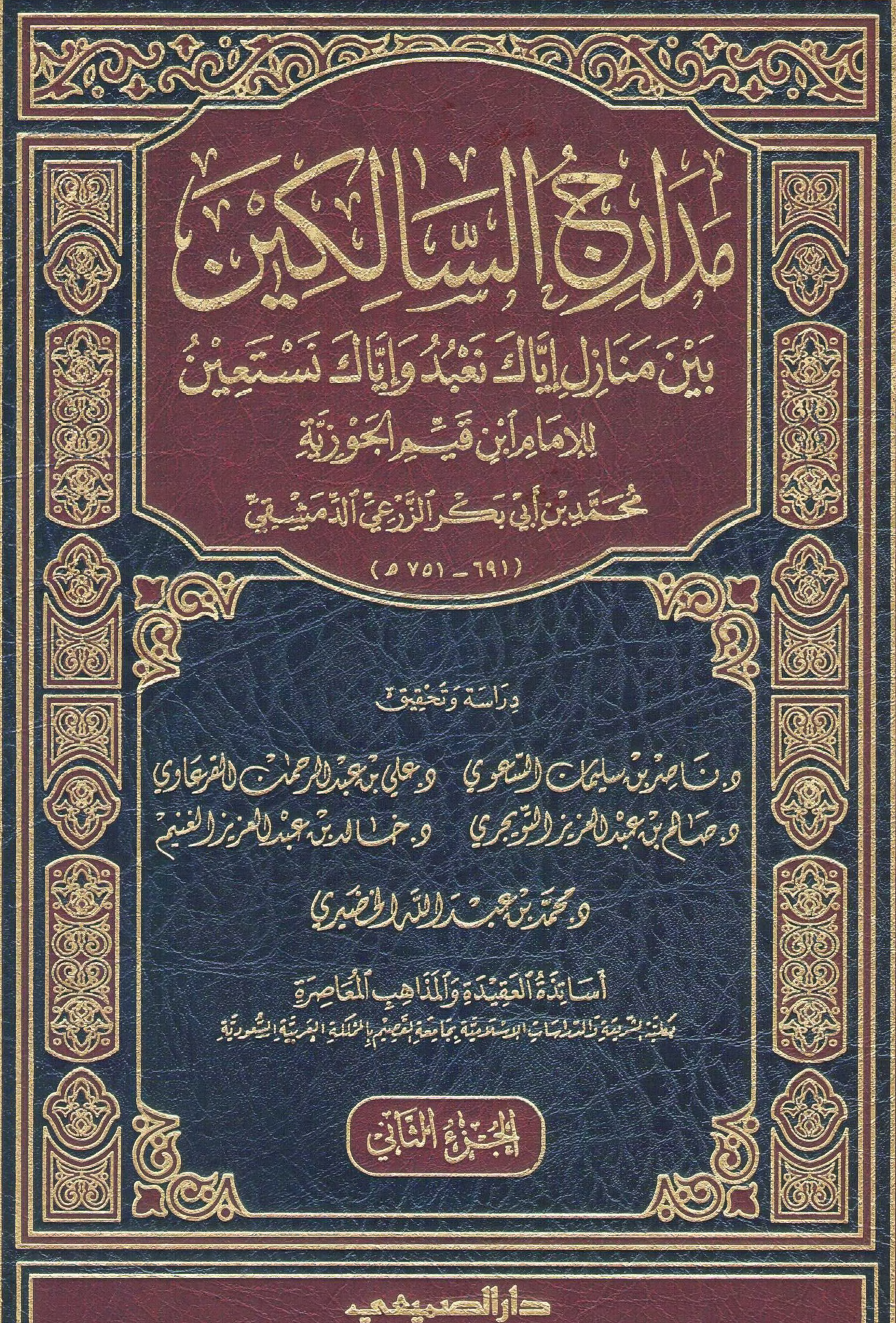

مدارج السالكين
بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين
للإمام ابن قيم الجوزية
محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
(٦٩١ - ٧٥١ هـ)
دراسة وتحقيق
د. ناصر بن سليمان السعوي
د. علي بن عبد الرحمن القرعاوي
د. صالح بن عبد العزيز التويجري
د. خالد بن عبد العزيز الغنيم
د. محمد بن عبد الله الخضيري
أساتذة العقيدة والمذاهب المعاصرة
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم بالمملكة العربية السعودية
الجزء الثاني
دار الصميعي
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ ـ ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض ـ شارع السويدي العام
ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (بن عثيمين) يرحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨



مدارج السالكين

بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين

للإمام ابن قيم الجوزية

محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

دراسة وتحقيق

د. علي بن عبد الرحمن القرعاوي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة

بجامعة القصيم بالمملكة العربية السعودية

الجزء الثاني

دار الصميعي

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – كلية أصول الدين – بالرياض

تمت مناقشة الأطروحة بتاريخ : ٢٢/ ٨/ ١٤٢٣هـ

وقد حصل الباحث علىٰ درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولىٰ



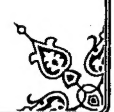
المقدمة

وتشمل :

١- خطة البحث .

٢- النسخ الخطية ورموزها .

٣- منهج التحقيق .



مقدمة الجزء الثانـي

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ سيد المرسلين ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فهذا هو الجزء الثاني من دراسة وتحقيق كتاب « مدارج السالكين » لابن القيم – رحمه الله – ، والذي يبدأ من قوله « فصل : و « الذنوب » تنقسم إلىٰ صغائر وكبائر . بنص القرآن والسنة » إلىٰ آخر منزلة « التهذيب والتصفية » .

وفي هذه المقدمة المختصرة لنصيبي من التحقيق سوف أقتصر علىٰ ذكر خطة البحث ، وموضوعات الدراسة ، والنسخ الخطية ، ورموزها التي اعتمدتها في هذا القسم ، ومنهج التحقيق الذي سرت عليه .

*** خطة البحث :**

قسمت العمل في هذا البحث إلىٰ مقدمة ، وقسمين :

أولاً : المقدمة ، وتشمل :

١- خطة البحث .

٢- النسخ الخطية ، ورموزها .

٣- منهجي في التحقيق .

ثانياً : القسم الأول : الدراسة ، وتتضمن :

موقف الإمام ابن القيم من الصوفية .

ثالثاً : القسم الثاني : التحقيق ، ويتضمن :

١- المقابلة بين النسخ الخطية ، وإثبات الفروق بينها .

٢- عزو الآيات القرآنية .

٣- تخريج الأحاديث النبوية .

٤- عزو الآثار .

٥- عزو النقول والأقوال والأبيات إلىٰ مصادرها .

٦- بيان معاني الكلمات الغريبة .

٧- بيان معاني المصطلحات .

٨- التعريف بالفرق والملل .

٩- التراجم للأعلام .

١٠- الخاتمة .

*** النسخ الخطية :**

بعد البحث والتحري وجدتُ للكتاب عدة نسخ خطية وهي كثيرة ، واقتصرت علىٰ عشر نسخ منها ؛ لأن النسخ التي زادت عليها فيها نقص كبير فلم أُجرِ عليها مقابلة ، والنسخ التي قابلت عليها هي :

النسخة الأولىٰ : نسخة سوريا ، وهي في معهد التراث العربي بحلب والنسخة الأصلية في المكتبة العثمانية بحلب وتحمل الرقم [٦٩٦] تصوف، وقد نقلت إلىٰ مكتبة الأسد في دمشق وتحمل الأرقام [٧١٠، ٧١١] ، و [١٥٤١٢، ١٥٤١٣] وهي التي اخترتها لتكون أصلاً للتحقيق تقابل عليها بقية

النسخ للأمور الآتية :

١ - أنها كتبت في حياة المؤلف .

٢ - أنها سليمة من الخرم والتصحيف إلا ما ندر .

٣ - أنها قُوبلت علىٰ نسخ أخرىٰ يدل علىٰ ذلك وجود الدائرة المنقوطة عند نهاية بعض المقاطع .

٤ - أنها تتفق مع نسخة « تشستربتي » والتي يُقدَّر أنها نسخت في القرن الثامن ، أي في العصر الذي عاش فيه المؤلف .

النسخة الثانية : نسخة « تشستربتي » وهي مصورة علىٰ فيلم في جامعة الإمام برقم [٣٦٢٧] ، ورمزت لها بالحرف (ش) .

النسخة الثالثة : نسخة أصلية في جامعة الإمام برقم [٨٧٨٧ ، ٨٧٨٨] ، ورمزت لها بالحرف (م) .

النسخة الرابعة : نسخة دار الكتب المصرية برقم [٨٧٤] تصوف ، وهي مصورة عن النسخة المخطوطة والمحفوظة بدار الكتب القومية ، ورمزت لها بالحرف (أ) .

النسخة الخامسة : نسخة في جامعة الإمام مصورة عن مكتبة أحمد الراشد في مدينة الغاط ، وهي برقم [١٠٨٧٤/ ف] ، ورمزت لها بالحرف (غ) .

النسخة السادسة : نسخة دار الكتب المصرية برقم [١٠٣] تصوف قوله ، ورمزت لها بالحرف (ق) .

النسخة السابعة : نسخة دار الكتب المصرية برقم [١٥٢٢] ، ورمزت لها

بالحرف (د) .

النسخة الثامنة : نسخة دار الكتب المصرية برقم [٢٠٥٣١] ، ورمزت لها بالحرف (ب) .

النسخة التاسعة : نسخة مكتبة حمود بن حسين الشغدلي بحائل رقمها [٦٤٩] ورقم الحفظ [١٣/ ٢/ ز] ، ورمزت لها بالحرف (ح٢) .

النسخة العاشرة : نسخة المعهد العلمي بحائل برقم [٨] ، ورمزت لها بالحرف (ح١) .

وقد قابلت جميع النسخ مع النسخة التي اعتمدتها وجعلتها أصلاً ، وأثبت جميع الفروق التي وجدت ، إضافة إلىٰ المقابلة مع النسخة المطبوعة ، وهي طبعة دار الكتاب العربي بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي ، رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية – رحمه الله – .

ومع أنه قابلها علىٰ بعض النسخ الخطية إلا أن فيها أخطاءً وأغلاطاً كثيرة ، تتمثل في سقط كلمات ، وحروف ، وتصحيفات أدت إلىٰ تغيير المعنىٰ . وقد رمزت لها بالحرف (ط) .

* منهجي في التحقيق :

١ – اعتمدت نسخة سوريا هي نسخة أصلية للكتاب للأسباب السابقة .

٢ – قابلت عليها جميع النسخ التسع إضافة إلىٰ المطبوع فأصبحت عشراً .

٣ – أي اختلاف في النسخ عن النسخة التي اعتمدتها أصلاً أثبته في الهامش مبتدئاً برمز النسخ ، وبعدها أذكر اللفظ . مثال : في أ ، د ، ق : كذا وكذا .

٤- إذا تبين لي أن كلمة في الأصل غير صحيحة وذلك بعد التأمل والنظر ذكرت الصحيح ، وقلت في الهامش : في الأصل: كذا ، وما أثبته من نسخة كذا وكذا ، ولعله هو الصحيح .

٥- إذا كان هناك سقط من أي نسخة من النسخ ذكرته في الهامش بين قوسين وبدأت به أولاً ، مثال : « قال » ساقطة من : م ، د .

٦- إذا كان السقط من أي نسخة من النسخ كثيراً – أكثر من كلمتين – جعلته بين معقوفين [ ] في الأصل ، وقلت في الهامش ما بين المعقوفين ساقط من : أ ، ب ، مثلاً .

٧- إذا كان السقط في الأصل ، واستقر لدي أنه من كلام ابن القيم – وهو قليل – جعلته بين معقوفين [ ] وقلت في الهامش ما بين المعقوفين سقط من الأصل ، وما أثبته من كذا وكذا .

٨- إذا كان الاختلاف في الجميع قلت : في (ط) والجميع كذا وكذا ، والمقصود جميع النسخ سوىٰ الأصل .

وإذا نقص من الاتفاق نسخة أو نسختان أو ثلاث قلت : في (ط) والجميع سوىٰ : أ ، م كذا وكذا ، وأحياناً يكون المطبوع من المستثنىٰ ، فأقول : في الجميع سوىٰ ط ، ش ، ق كذا وكذا ، وهذا كله خشية الإطالة وتكرار الرموز .

٩- ألفاظ التعظيم لله ، والصلاة علىٰ النبي ﷺ والترضي عن الصحابة لم أثبتها فروقاً بين النسخ ، وإنما اكتفيت بما كان في الأصل فقط .

١٠- جعلت متن المنازل بين قوسين صغيرين ، وميَّزته عن شرح ابن القيم

بخط أسود كبير ، وقابلته علىٰ متن المنازل المطبوع بمطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة ، وأثبت فروق المتن في الهامش عند الإحالة علىٰ موضعها من المنازل .

١١ - خرّجت الأحاديث ، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيتُ بذلك وربما أضيف مسند أحمد إليهما ، وإن لم يكن فيهما أو في أحدهما خرجته من غيرهما ما أمكن ، وذكرت ما وقفت عليه من كلام أهل العلم في الحديث تصحيحاً أو تضعيفاً ، وهذا كله عند أول ورود له فقط ، ثم أحيل إذا تكرر أخرىٰ إلىٰ الموضع الأول .

١٢ - ترجمت لجميع الأعلام من المشهورين ومن غيرهم ، وذلك لأن الشهرة نسبية .

١٣ - عرّفت كل منزلة من المنازل في بداية شرحها معتمداً في ذلك كتب الصوفية ومصنفاتهم ، ليتبين مراد القوم منها ودرجاتها عندهم.

١٤ - علقت علىٰ بعض المسائل في الكتاب التي تدعو الحاجة إليها .

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .

د. علي بن عبد الرحمن القرعاوي

القصيم — بريدة



وتتضمن :

موقف الإمام ابن القيم من الصوفية.







موقف الإمام ابن القيم من الصوفية

أولاً : تعريف الصوفية وبيان نشأتها :

تعريف الصوفية :

كلمة تصوف وصوفية اختلف في نسبتها ، هل هي راجعة إلىٰ شخص ، أو وصف ، أو مسلك؟ وعلىٰ هذا سأذكر من الأقوال ما اشتهر جعلُه سبباً لهذا الاسم.

القول الأول :

أن كلمة تصوف مشتقة من الصوف ، بمعنىٰ أنهم منسوبون إلىٰ لباسهم ، وهذا الذي يتفق مع اللغة ، وعليه أكثر المحققين ، وهو أليق وأقرب إلىٰ التواضع[1].

أو لأنهم آثروا الذبول والخمول والتواضع والتخفي ، حتىٰ كانوا كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية التي لا يلتفت إليها[2].

القول الثاني :

أنها نسبة إلىٰ الصُّفَّة التي كانت للمهاجرين الفقراء علىٰ عهد النبي ﷺ نسبوا إليها لمشاكلة الحال[3].

---

(١) انظر : اللمع للطوسي ٢٠ ، وعوارف المعارف للسهروردي ص ٦٠-٦٢ ، ومجموع الفتاوىٰ ١١/٦ ، ١٦ ، ١٩٥.

(٢) انظر : عوارف المعارف ٦٢.

(٣) انظر : عوارف المعارف ٦٢ ، ومجموع الفتاوىٰ ١١/٦.

والتحقيق أن هذا لا يستقيم ، لا مبنىٰ ولا معنىٰ.

أما من ناحية المبنىٰ : فالنسبة إلىٰ الصفة لا تجيء علىٰ نحو الصوفية ، وإنما تكون صُفِّيَّة[1].

وأما من ناحية المعنىٰ : فإن أهل الصُّفة لم يكونوا قادرين علىٰ الكسب ، ولو كان لهم سكن ، لكان حالهم كحال بقية الصحابة ، وإنما قعدوا في المسجد ضرورة ، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة[2].

القول الثالث :

أنها نسبة إلىٰ رجل لقب (صوفة) واسمه الغوث بن مُرّ ، فنسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلىٰ الله[3] ، وضعف هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية[4] ، وقال : «وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ ، فإنه ضعيف أيضاً ؛ لأن هؤلاء غير مشهورين ، ولا معروفين عند أكثر النساك ، ولأنه لو نُسب النُّساك إلىٰ هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين أولىٰ»[5]. هذه أشهر

(١) انظر : مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٣٦٩.

(٢) انظر : تلبيس إبليس لابن الجوزي ٢٠١.

(٣) انظر : المرجع السابق ص١٩٩-٢٠٠.

(٤) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية - شيخ الإسلام - أبو العباس الإمام العلامة، الحافظ الناقد ، الفقيه الزاهد ، صاحب التصانيف الجليلة الكثيرة ، ولد سنة ٦٦١هـ ، وتوفي سنة ٧٢٨هـ. ترجمته في: العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لابن عبد الهادي ، تذكرة الحفاظ للذهبي ٤/ ٩٦/ ١٤ ، البداية والنهاية ١٤/ ١٤١ ، شذرات الذهب ٦/ ٨٠.

(٥) الفتاوىٰ ١١/ ٦.

الأقوال ولعلها أقرب إلىٰ النسبة.

*** ومن جملة ما قيل في نسبتها :**

١ - أنها نسبة إلىٰ الصفاء ، وهذا بعيد من ناحية الاشتقاق اللغوي ؛ لأن النسبة إلىٰ الصفاء صفائية أو صفوية إن كان مقصوراً[1].

٢ - أنها نسبة إلىٰ صُوفانة - وهي بقلة رغباء ضعيفة - وهذا بعيد ؛ لأنه لو صح لقيل : صوفاني[2].

٣ - أنها نسبة إلىٰ صوفة القفا وهي الشعيرات النابتة في متأخره[3].

٤ - أنها ترجع إلىٰ كلمة (سوفيا) اليونانية وهي تعنىٰ الحكمة[4].

التصوف اصطلاحاً :

مما سبق في التعريف اللغوي يظهر نوع ارتباط بينه وبين التعريف الاصطلاحي ، ولعل أقرب واصف لذلك هو الطوسي[5] ؛ لأنه ذكر أن اللفظ تصوف وصوفية أطلق علىٰ أهله نسبة إلىٰ ردائهم ؛ ولأنهم جماع المعارف

---

(١) انظر : اللمع ٢٦ ، والقشيرية ٢٧٩ ، ومجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٣٦٩ ، ١١/ ٦.

(٢) انظر : لسان العرب ٧/ ٤٤٤ مادة صوف ، وحلية الأولياء ١/ ١٧ ، وتلبيس إبليس ٢٠١.

(٣) انظر : حلية الأولياء ١/ ١٧ ، وتلبيس إبليس ٢٠١.

(٤) انظر : المنقذ من الضلال للغزالي ٢١٤.

(٥) أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي شيخ الصوفية ، كان كثير التنقل في البلدان ، جمع علوم القوم ، ويعتبر من أقدم من صنف في التصوف ، وعنه أخذ السلمي صاحب الطبقات ، له كتاب اللمع ، وهو من أقدم مصادر الصوفية ، مات سنة ٣٧٨هـ.

ترجمته في : العبر ٢/ ١٥١ ، السير ١٦/ ٤٣٩ ، شذرات الذهب ٣/ ٩١.

والعلوم ، فلهم جميع الأحوال ، وتتغير أحوالهم هذه دائماً ، فلا يثبت عليهم اسم مطلقاً. ولهذا استحسن إطلاق اسم ردائهم عليهم للتعرف بهم»(١).

وقال معروف الكرخي(٢) : «التصوف هو الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق» (٣).

وقال أبو بكر الكتاني (٤) : «التصوف خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء» (٥).

وقال سهل التّسْتَري (٦) : «الصوفي من يرىٰ دمه هدراً وملكه مباحاً»(٧) ، وقال

---

(١) اللمع ٢١.

(٢) أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي ولد من أبوين نصرانيين ، أسلم علىٰ يد علي الرضا ابن موسىٰ الكاظم ، وكان من مواليه ، كان أستاذ سري السَّقطي ، وكان مشهوراً بالزهد والورع ، توفي سنة ٢٠٠هـ. ترجمته في طبقات الصوفية للسلمي ٨٣ ، حلية الأولياء ٨/ ٣٦٠ ، السير ٩/ ٣٣٩.

(٣) القشيرية ٢٨٠.

(٤) وهو أبو بكر : محمد بن علي بن جعفر البغدادي الكتاني صوفي صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز ، أصله من بغداد ، وأقام بمكة إلىٰ أن مات سنة ٣٢٢ هـ. ترجمته في : طبقات الصوفية ٢٨٢ ، حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٧ ، السير ١٤/ ٥٣٣.

(٥) القشيرية ٢٨١.

(٦) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسىٰ بن عبد الله التستري -الشيخ الزاهد ، من أكبر مشايخ الصوفية ، له مواعظ جيدة ، وكان ذا زهد وورع. توفي سنة ٢٨٣هـ.
ترجمته في : طبقات الصوفية ٢٠٦ ، تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٨٥ ، شذرات الذهب ٢/ ١٨٢.

(٧) انظر : القشيرية ٢٨١.

أبو الحسين النوري [1] : «الصوفية قوم صفت قلوبهم من الكدورات البشرية وآفات النفوس ، وتحرروا من شهواتهم حتىٰ صاروا في الصف الأول والدرجة العلياء مع الحق ، فلما تركوا كل ما سوىٰ الحق صاروا لا مالكين ، ولا مملوكين.

وقال : نعتُ الصوفي : السكون عند العدم ، والإيثار عند الوجود» [2].

هذا وقد وردت أقوال في التعريف الاصطلاحي كثيرة ، نخلُص منها إلىٰ القول بأن معظم التعريفات أخذت من شيوخ التصوف ، وهي وصف لتطور نشأة التصوف ، ووصفٍ تجاربهم ومواجيدهم يصعب حصرها ، إذ معظمها تجارب فردية ، وحَدَسٌ ذاتي يجمعها ما مضىٰ من الأقوال ؛ لأن مدارها علىٰ وصف السلوك العام من حيث المظهر ، والإخبار عن ما في الباطن ، كُلٌّ يصف نفسه والله يتولىٰ السرائر.

*** نشأة الصوفيـة :**

كما اختلفت الأقوال في أصل كلمة الصوفي ، كذلك وقع الاختلاف في تاريخ نشأة التصوف.

---

(١) أحمد بن محمد النوري ، خراساني الأصل ، ولد ونشأ ببغداد ، يعرف بابن البغوي ، لقي أحمد ابن أبي الحواري ، وصحب سرياً السقطي ، كان لطيف الكلام ، ومن أجل مشايخ الصوفية ، توفي سنة ٢٩٥هـ. ترجمته في : طبقات الصوفية للسلمي ١٦٤ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٩ ، والسير ١٤/ ٧٠.

(٢) القشيرية ٢٨١ ، والحركة الصوفية في الإسلام ، د. محمد أبو ريان ٢١.

فذهب ابن خلدون[١] إلىٰ أن نشأته كانت قبل سنة مائتين[٢] ، كما ذهب إلىٰ ذلك ابن الجوزي[٣] في كتابه تلبيس إبليس[٤] وتعقب ذلك شيخ الإسلام فقال : «إن نشأته كانت في أوائل القرن الثاني ، واشتهاره كان بعد القرن الثالث[٥] ، فقد نُقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالحسن البصري[٦] وغيره» ، وأول من بنىٰ دوَيرة للصوفية عبد الواحد بن زيد[٧] ، وعبد الواحد من

---

(١) أبو يزيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الأشبيلي برع في علوم كثيرة ، ومهر في الأدب ، وكان عاقلاً فصيحاً ، صادق اللهجة ، وقور المجلس ، عالي الهمة ، ولد سنة ٧٣٢هـ ، وتوفي سنة ٨٠٨هـ. ترجمته في :الإحاطة في أخبار غرناطة ٣/ ٤٩٧ ، شذرات الذهب ٧/ ٧٦ ، البدر الطالع ١/ ٣٣٧.

(٢) انظر : مقدمة ابن خلدون ٤٦٧.

(٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد المشهور بابن الجوزي ، ينتهي نسبه إلىٰ القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- ، الحافظ الواعظ، صاحب المصنفات المشهورة، ولد سنة ٥٠٩هـ ، وتوفي سنة ٥٩٧هـ. ترجمته في : ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٩٩ ، السير ٢١/ ٣٦٥ ، شذرات الذهب ٤/ ٣٢٩.

(٤) انظر : تلبيس إبليس ٢٠١.

(٥) مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٥.

(٦) أبو سعيد الحسن بن يسار البصري التابعي ، ولد بالمدينة سنة ٢١هـ ، وشب في كنف علي ابن أبي طالب ، كان إمام أهل البصرة في زمانه ، توفي سنة ١١٠هـ.
ترجمته في : التاريخ الكبير ٢/ ١٨٩ ، السير ٤/ ٥٦٣ ، تهذيب التهذيب ٢/ ٢٦٣.

(٧) أبو عبيدة عبدالواحد بن زيد البصري شيخ الصوفية وواعظهم ، حدث عن الحسن وعطاء ابن أبي رباح ، قال البخاري : تركوه ، وقال الجوزجاني : سيء المذهب ليس من معادن الصدق. مات بعد الخمسين ومائة. ترجمته في : التاريخ الكبير ٦/ ٦٢ ، السير ٧/ ١٧٨ ، ميزان الاعتدال ٢/ ٦٧٢.

أصحاب الحسن» [١].

ولكن الطوسي لا يرىٰ أن التصوف اسماً أحدثه البغداديون[٢]. هـذا وقـد ذكـر ابن الجوزي نبذة موجزة عن نشأة التصوف، وبداياته منذ أن كان زهـداً إلىٰ أن انتهىٰ بـه الأمر فأصبح رسوماً ومصطلحات[٣]، ثـم جاء أقـوام فتكلموا في الجوع والوسواس والخطرات كالحارث المحاسبي[٤].

وتبعهم آخرون فهذبوا المذهب وأفردوه بمصنفات[٥]. ولا يزال الأمر ينمو، وكل شيخ يتكلم عن وقائعه حتىٰ تشعبت الأقوال بالأقوام، ودخلت المفاسد علىٰ العقائد؛ فمن قول بالحلول إلىٰ قول بالاتحاد، وما يزال إبليس يخبطهم بفنون البدع.

ويمكن إعطاء معالم عامة للأطوار التي مرّ بها، فهو في النشئة والطور الأول يدور حول الكشف والمعرفة. وأحدث نزاعاً بين الفقهاء والصوفية، تلا

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٥-٦.

(٢) انظر: اللمع ٢٢.

(٣) انظر: تلبيس إبليس ١٩٩.

(٤) أبوعبدالله الحارث بن أسد المحاسبي الزاهد المشهور شيخ الصوفية، له كتب في الزهد، والأحوال، كان بينه وبين الإمام أحمد شيء لنظره في علم الكلام توفي سنة ٢٤٣هـ.
ترجمته في: حلية الأولياء ١/ ٧٣، والسير ١٢/ ١١٠، طبقات الصوفية ٥٧.

(٥) كالسنن للسلمي، واللمع للطوسي، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، وصفوة التصوف لمحمد بن طاهر المقدسي، والرسالة للقشيري، وجاء أبو حامد الغزالي فصنف لهم كتاب الإحياء.

ذلك تطور ثان أبرز ملامحه الرمز والتأويل والإشارة، وأسوأ معالمه في الطور الثالث حين أعلن غلاتهم القول بالحلول والاتحاد والوحدة [١].

ثانياً: أقسام الصوفية ومصادرها:

*** أقسام الصوفية:**

تعددت الأقوال في تقسيم الصوفية بتعدد منشأ القول، فذهب بعض المؤلفين إلىٰ تقسيمه باعتبار البدعة والسنة، فجعل منهم البدعي والسني [٢]، وهذا لا يمكن حصره إذ التصوف مذهب ينتحله أفراد من طوائف متعددة؛ بل قد يكون في الفرد الواحد أكثر من منهج ومسلك.

وقسّمهم شيخ الإسلام ابن تيمية إلىٰ ثلاثة أقسام هي: صوفية الحقائق وهم: السائرون علىٰ الكتاب والسنة، وصوفية الأرزاق وهم: من تجري عليهم العطاءات والوقوف، وصوفية الرسم وهم: المقتصرون علىٰ النسبة، فهمُّهم في اللباس والآداب الوضعية [٣].

ويظهر لي أن هذه الأوصاف لا تأخذ طبيعة الاستقرار والثبات في الأشخاص؛ لأنه قد يوجد شخص أو أشخاص تجتمع فيهم هذه الأوصاف أو بعضها، ومن ثم يصعب إدراج هؤلاء الأشخاص تحت أي من هذه الأقسام.

وهناك من يقسمهم إلىٰ معتدلين وهم من سار علىٰ الكتاب والسنة، وإلىٰ

---

(١) انظر: الحركة الصوفية في الإسلام ٦٤ - ٦٥، بتصرف.

(٢) وهذا ما ذهب إليه مصطفىٰ مراد في كتابه موقف الإمام ابن القيم من الصوفية ٨٥.

(٣) انظر: مجموع الفتاوىٰ ١١/ ١٩ - ٢٠.

غلاة وهم أهل الأهواء والبدع [1]، وهذا فيه توسيع للمصطلح ؛ فهل يصح أن يقال: إن أتباع السلف الصالح السائرين علىٰ الكتاب؛ والسنة صوفية؟ أو يقال: إن كل أهل الأهواء والبدع صوفية؟ هذا لا يستقيم لا علىٰ المعنىٰ اللغوي ، ولا علىٰ المعنىٰ الاصطلاحي.

وقد يفهم بعض القراء من بعض المؤلفات في الطرق الصوفية مفردة أنها أقسام ، وليست كذلك.فإنما هي طريقة تُمثل وصفاً لسيرة شيخ منهم [2].

ولعله من الصعب تحديد تقسيم فاصل لأقسام الصوفية.ومما يحسن في ذلك إرجاعه إلىٰ مدرستين أو اتجاهين هما : المدرسة العراقية في بغداد ، وأبرز من يمثل هذا الاتجاه أبو القاسم الجنيد.

أما المدرسة الثانية فهي الخرسانية ، ويمثلها أبو يزيد البسطامي.

ومما يعضد هذا ما يشير إليه ابن القيم وغيره في كتبهم [3].

* مصادر الصوفية :

لمصادر التلقي أهمية كبرىٰ في معتقد وسلوك من يصدر عنها ، وكلما كانت المصادر مستمدة من الكتاب والسنة ، كان السير عليها أقوم وأسلم.

وحين جاءت مصادر أهل والأهواء مضطربة متعارضة ، كان لذلك أثره

(١) انظر : موقف ابن القيم من الصوفية ، لمصطفىٰ مراد ٩١.

(٢) كالرفاعية والنقشبندية وغيرها ، وقد أشار إلىٰ ذلك د/ صابر طعيمة في كتابه الصوفية معتقداً ومسلكاً ٤٠.

(٣) المدارج ٢/ ٣٦٨ ، والحركة الصوفية في الإسلام ٧٠ وما بعدها.

السيء علىٰ من تأثر بها أو تتلمذ عليها، وحيث إن مصادر التلقي عند الصوفية ، والتي ينفردون بها عن غيرهم ترجع إلىٰ أوصاف غير ثابتة ، كما هو الكشف والذوق والوجد ، انعكس ذلك علىٰ صعوبة تحديدٍ دقيق لتعريف التصوف وأقسامه ومدارسه ، وحين يُشار إلىٰ انفرادهم بمصادر يختصون بها ، فإن هذا لا يعني أنهم لا يشاركون غيرهم في مصادرهم.ومن أبرز المحاور التي تدور عليها مصادرهم : الكشف والذوق والوجد ، وكل واحد من هذه يدخل تحته أقسام :

١ - الكشف :

وهو في اللغة : يدور علىٰ معان متعددة أقربها إلىٰ مرادهم الإظهار ، يقال : كشفه أي أظهره [١].

وفي الاصطلاح : الاطلاع علىٰ ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية ، والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً [٢].

وقيل : هو بيان ما يستتر علىٰ الفهم [٣].

ويدخل تحته الإلهام ، والفراسة ، والهواتف ، والرؤىٰ [٤] ، ومن زعمائه أبو حامد الغزالي ، وابن عربي [٥].

---

(١) انظر : لسان العرب ١٢/ ١٠٢ ، مادة كشف.

(٢) انظر : معجم مصطلحات الصوفية ، للحفني ٢٢٥.

(٣) انظر : اللمع ٢٤٩.

(٤) انظر : المصادر العامة للتلقي عند الصوفية ، لصادق سالم ص ٢٣٠ وما بعدها.

(٥) انظر : بغية المرتاد ، ١٩٨ ، والصفدية ١/ ٢٣٠.

٢ - الذوق :

وهو في اللغة : مصدر ذاق الشيء يذوقه ذوقاً [١].

وفي الاصطلاح : عرفه القشيري [٢] بقوله : «الذوق والشرب ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلي ونتائج الكشوفات [٣]. ووردت تعريفات مدارها علىٰ أنه ثمرة من ثمرات التجلي والكشوفات [٤].

وخلاصة التعاريف أن الذوق حال ليس له استقرار ، ونور مقذوف في القلب ناتج عن تجلي الله علىٰ قلوب أوليائه ، وله أنواع ودرجات وموضوعات ، وطرق استدعاء يطول الحديث عنها [٥].

٣ - الوجد :

الوجد لغة : يقال وجد المطلوب يجده ، والوجد : الغنىٰ ، وأوجده : أغناه [٦].

وفي الاصطلاح : اختلفت العبارات في تعريفه علىٰ أقوال منها :

---

(١) انظر : لسان العرب ٥/ ٧٠ ، مادة : ذوق.

(٢) أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة القشيري النيسابوري الفقيه الشافعي، والنحوي المفسر ، مؤلف الرسالة القشيرية ، توفي سنة ٤٦٥هـ. ترجمته في : السير ١٨/ ٢٢٧ ، البداية والنهاية ١٢/ ١١٤ ، طبقات المفسرين للداودي ١/ ٣٤٤.

(٣) انظر : القشيرية ٧٢.

(٤) انظر : اصطلاحات الصوفية للكاشاني ١٠٠.

(٥) انظر : المصادر العامة للتلقي عند الصوفية ٥٤٦ ، وما بعدها.

(٦) انظر : لسان العرب ١٥/ ٢١٩ ، مادة : وجد.

أ - أن الوجد لهيب ينشأ في الأسرار، ويسنح عن الشوق، فتضطرب الجوارح طرباً، أو حزناً، عند ذلك الوارد [١].

ب - وقيل: الوجد رفع الحجاب، ومشاهدة الرقيب، وحضور الفهم، وملاحظة الغيب، و محادثة السر، وإيناس المفقود، وهو فناؤك من حيث أنت [٢].

وله أنواع ودرجات وموضوعات، وطرق استدعاء يطول الحديث عنها [٣].

ثالثاً: أعلام الصوفية وشطحاتهم:

*** أعلام الصوفية:**

تقدم في التعريف والأقسام ما يدل علىٰ صعوبة التصنيف، إذ مهما اجتمع أشخاص في مصر أو طريقة إلا وظهر بينهم من الفروق والتفاوت ما يمنع اعتبار أحدٍ منهم أنموذجاً لفئة.

وما يمكن من جمع للمتجانسين فهو بحكم القواسم المشتركة وليست المطابقة المطلقة؛ لذا سوف يكون الاختيار اجتهادياً يُراد منه اجتماع الملامح العامة لفئة متقاربة في شخص واحد. وقد أُبعد في هذا البحث حشر عدد من زهاد الصحابة والسلف في عداد الصوفية [٤]، وأَقْتَصِر علىٰ النماذج التالية:

---

(١) انظر: التعرف للكلاباذي ١٣٤.

(٢) انظر: اللمع ٣٠٢.

(٣) انظر: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية ٦١٩ وما بعدها.

(٤) وممن ذهب إلىٰ ذلك محمد أبو ريان في كتابه الحركة الصوفية في الإسلام ٣٢.

١ - إبراهيم بن أدهم هو أبو إسحاق البلخي ، ولد في حدود المائة ، كان يُفضِّل المجاهدة العملية علىٰ الجانب النظري في التصوف ، له اجتهاد في العبادات ، حريصاً علىٰ الأكل من عمل يده ، عدّه السلمي[1] من أوائل الصوفية في الطبقة الأولىٰ مات سنة ١٦٢هـ[2] ، وممن يشاكله في الطبقة والسيرة ، معروف الكرخي وأبو سليمان الداراني وبشر الحافي وغيرهم[3].

٢ - أبو يزيد طيفور بن عيسىٰ البسطامي ولد سنة ١٨٨هـ ، كان معروفاً بالزهد والمجاهدة والاشتغال بالأحوال ، ونقل عنه القول بوحدة الوجود ، التقىٰ بشقيق البلخي ، وذي النون المصري ، والجنيد ، وتأثر به الشبلي ، وامتدحه الحلاج ، وشهد السهروردي بولايته ، وأشاد به الطوسي ، وله أقوال وشطحات تأولها الطوسي ، وجعلها بعض العلماء من أكبر البدع ، وأنها تدل علىٰ اعتقاد فاسد ، توفي سنة ٢٦١هـ[4].

وفي هذه الطبقة حمدون القصار، وذو النون المصري، والحكيم الترمذي ،

---

(١) أبو عبدالرحمن محمد بن الحسين بن محمد السلمي أحد مشائخ الصوفية ، وجامع علومهم ولد سنة ٣٢٥هـ ، أخذ التصوف عن السراج الطوسي وغيره ، توفي سنة ٤١٢هـ.
ترجمته في السير ١٧/ ٢٤٧ ، وطبقات الأولياء ٣١٣ ، وشذرات الذهب ٣/ ١٩٦.

(٢) انظر ترجمته في : طبقات الصوفية للسلمي ٢٦ ، حلية الأولياء ٧/ ٣٦٧ ، والقشيرية ٣٩١ ، والسير ٧/ ٣٨٧ ، وطبقات الأولياء لابن الملقن ٣٨.

(٣) انظر : الحركة الصوفية في الإسلام ٨٥ وما بعدها.

(٤) انظر ترجمته في : طبقات الصوفية للسلمي ٦٧ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٣ ، القشيرية ٣٩٥ ، والسير ١٣/ ٨٦.

وأبو بكر الشبلي ، وجعفر الخلدي ، وغيرهم [١].

٣ - ابن عربي : وهو أبوبكر محمد بن علي الطائي ، ولد في مدينة مرسية سنة ٥٦٠هـ ، اندفع إلىٰ التصوف بقوة بعد وفاة والده ، واعتزل الناس ولازم الأسفار ، تنقل بين الأمصار والأقاليم ، واستقر في دمشق ، وفيها انتهىٰ من تأليف كتابه الفتوحات المكية وفصوص الحكم ، له أساليب شاذة في المجاهدة والحياة الروحية ، ويُعد من فلاسفة الصوفية ، ورمي بالزندقة ، فقد كان زعيم القائلين بوحدة الوجود ، توفي سنة ٦٣٨هـ [٢] ، ويندرج في طبقته أمثال الحسين بن منصور الحلاج ، وشهاب الدين السهروردي الإشراقي المقتول ، وابن طفيل ، وابن سبعين وغيرهم [٣].

ومن أعلام الصوفية في العصر الحديث رفعت الجوهري ، ومحمد مصطفىٰ صفوة ، ومحمد سر الختم الميرغني ، وغيرهم [٤].

*** شطحات الصوفية :**

تعريف الشطح في اللغة : يقال شطح في السير أو القول إذا تباعد واسترسل ، والشطحة واحدة شطاحات ، إذ يقال لفلان الصوفي أحوال وشطحات [٥].

---

(١) انظر : الحركة الصوفية في الإسلام ١٤٣ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٤٨ ، والبداية والنهاية ١٣/ ١٦٧ ، ونفح الطيب للتلمساني ٢/ ١٦١.

(٣) انظر : الحركة الصوفية في الإسلام ١٨٧ وما بعدها.

(٤) انظر : الصوفية معتقداً ومسلكاً ، د/ صابر طعيمة ٤١ وما بعدها.

(٥) انظر : المعجم الوسيط ٤٨٢ مادة شطح.

وفي الاصطلاح : هو عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوىٰ[1].

وقيل : الشطح كلام يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوىٰ ، وإذاعته كشف للسِّر يسميه الصوفية شطح[2] ، ودافعه شدة الوجد ، أو طغيان حال السكر ، أو الغيبة والفناء عن الشعور ، أو الهذيان والهلوسة ومن نماذج الشطحات ما يلي :

١ - من شطحات أبي يزيد البسطامي قوله : «سبحاني سبحاني ما أعظم شاني» ، «طاعتك لي يا ربي أعظم من طاعتي لك» ، « لأن تراني مرة خير لك من أن ترىٰ ربك ألف مرة »[3] ، وهذه الأقوال تدل علىٰ القول بوحدة الوجود الذي تبلور فيما بعد علىٰ يد ابن عربي والحلاج وغيرهما.

٢ - ومن شطحات الحلاج[4] قوله : «وما آدم إلاك » أي ما آدم إلا أنت يا إلهي. وقوله: «هو هو» وهي عبارة عن محو الأنية تماماً بحيث يصبح كل شيء مستغرقاً في الله ، ومنها إشادته بفتوة إبليس وفرعون ، وقوله : «ما صحت الدعاوىٰ لأحد إلا لإبليس ، وأحمد ﷺ كشف له عن عين العين» ، وقوله :

---

(١) انظر : التعريفات ١٤٤.

(٢) انظر : اللمع ٣٤٦ ، ٣٧٥.

(٣) اللمع ٣٨٢ ، وتلبيس إبليس لابن الجوزي ٤١٧.

(٤) هو : الحسين بن منصور بن محمي الحلاج البيضاوي الفارسي - أبو مغيث - ولد سنة ٢٤٤هـ ، من مشاهير الصوفية ، صحب سهلاً التستري والجنيد ، له ثمانية وأربعون مؤلفاً غريبة الأسماء رمزية الأسلوب ، من أشهر القائلين بالحلول ، وقد قتل علىٰ الزندقة سنة ٣٠٩هـ. ترجمته في : طبقات الصوفية للسلمي ٣٠٧ ، والسير ١٤/ ٣١٣.

«أنا الحق» وما زال مصراً عليها حتىٰ أحرق[١].

٣ - ومن شطحات أبي سعيد الخراز[٢] قوله: «أكبر ذنبي إليه معرفتي إياه»[٣].

٤ - ومن شطحات الشبلي[٤] قوله لمن أراد أن يخرج من عنده : «مروا أنا معكم حيث ما كنتم وأنتم في رعايتي وكلاءتي» ، وقال : «إن محمداً يشفع في أمته ، وأشفع بعده في النار حتىٰ لا يبقىٰ فيها أحد»[٥] ، وغير ذلك من الشطحات التي ذكرت عنهم[٦].

---

(١) انظر : كتاب الحركة الصوفية لمحمد أبو ريان ٢٠٦ -٢٠٧ ، نقلاً عن الطواسين للحلاج.

(٢) أبو سعيد أحمد بن عيسىٰ ، الخراز من أهل بغداد من مشاهير الصوفية ، قيل إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء ، توفي سنة ٢٧٩هـ ، وقيل غير ذلك. ترجمته في : طبقات الصوفية للسلمي ٢٢٨ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٦ ، تاريخ بغداد ٤/ ٢٧٦.

(٣) انظر : تلبيس إبليس ٤٢١.

(٤) أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي البغدادي كان أبوه من حجاب الخلافة ، وهو حجابة أبي أحمد الموفق ، حضر الشبلي مجلس بعض الصالحين فتاب ، ثم صحب الجنيد وغيره ، كان فقيهاً عارفاً بمذهب مالك ، له ألفاظ وحكم ، وتمكن ، توفي سنة ٣٣٤هـ. ترجمته في : طبقات الصوفية ص٣٣٧ ، حلية الأولياء ١٠/ ٣٦٦ ، السيرة ١٥/ ٣٦٧ ، وانظر قوله في القشيرية ١١٧ ، فقد سئل عن الزهد فقال : أن تزهد فيما سوىٰ الله تعالىٰ.

(٥) تلبيس إبليس ٤٢٢.

(٦) فقد ذكر عدداً منها الطوسي في اللمع ٣٧٥ وما بعدها ، وكذلك ابن الجوزي في تلبيس إبليس ٤١٤ وما بعدها ، وانظر : الكشف عن حقيقة الصوفية لمحمود عبد الرؤوف ٤٢٣ وما بعدها ، والحركة الصوفية في الإسلام للدكتور محمد أبي ريان ١٥٦ ، وفضائح الصوفية لعبد الرحمن عبد الخالق وغيرها.

رابعاً : موقف ابن القيم من الصوفية :

من خلال القراءة في كتب الصوفية ، أو ما كتب عنهم ، يتبين صعوبة الحكم عليهم ، وذلك لما أحاط بالصوفية من أمور منها : وجود أعلام من أهل السنة متأثرين بهم ، وصدور أعمال من أعلامهم في المجاهدة ونصرة الحق ، يقابل ذلك غموض المصطلح الصوفي وانغلاق فهم المراد منه ، إلىٰ شطحات تجري علىٰ ألسنة بعضهم ،كل ذلك جعل الناس يتباينون في الحكم علىٰ بعضهم، وقد ذكر ابن القيم أن الناس في حكمهم علىٰ الصوفية ثلاث طوائف :

أحدها : حجبت عن محاسن هذه الطائفة ، ولطف نفوسهم ، وصدق معاملتهم ، فأهدروها لأجل شطحاتهم ، وأنكروها غاية الإنكار ، وأساؤوا الظن بها مطلقاً.

الطائفة الثانية : تجاهلت أخطاء هؤلاء وأغلاطهم ، وركزت نظرها علىٰ ما لدىٰ الصوفية من مزايا و محاسن ، من مثل صفاء القلوب ، وصحة العزائم ، وحسن المعاملات.

الطائفة الثالثة : هم أهل العدل والإنصاف ، الذين أعطوا كل ذي حق حقه ، وأنزلوا كل ذي منزل منزلته ، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول ، ولا المعلول السقيم بحكم الصحيح ؛ بل قبلوا ما يقبل ، وردوا ما يُرد[1].

وهذا التقويم الإجمالي جاءت مادته من خلال ملحوظاته واعتذاراته وردّه

---

(١) انظر : المدارج ٢/ ٣٩ - ٤٠.

لمسائل متعددة في المنهج الصوفي. ومن جملتها ما يلي :

١ - موقفه من مصادر التلقي عندهم :

مصدر التلقي له أهمية كبرىٰ ؛ إذ عليه تجري خطوات السالكين ، وبقدر ما فيه من استقامة واعتدال تكون حياتهم وسيرتهم ، وبقدر ما فيه من انحراف وشطط كذلك. وحيث سبق أن من مصادر الصوفية في التلقي : الكشف ، والذوق ، والوجد فقد انتقد ابن القيم ذلك بقوله : «وعامة من تزندق من السالكين فلإعراضه عن دواعي العلم ، وسيره علىٰ جادة الذوق والوجد ذاهبة به كل مذهب فهذه فتنة ، والفتنة به شديدة» [١].

وقال في موضع آخر: «والواجب أن يقع التحاكم في ذلك إلىٰ الله ورسوله، وإلىٰ حقائق الإيمان دون الذوق» [٢].

قال ذلك معلقاً علىٰ مصادرهم إذ يقول الهروي [٣] في منزلة العلم : «الدرجة الثانية علم خفي ينبت في الأسرار الظاهرة من الأبدان الزاكية : وهو علم يظهر الغائب» [٤].

---

(١) المدارج ١/ ١٥٨.

(٢) المدارج ١/ ٢٧٠.

(٣) أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي الحنبلي ، من مدينة هراة بخراسان، يلقب بشيخ الإسلام ، وخطيب العجم ، مؤلف كتاب منازل السائرين ، والفاروق في الصفات ، وعلل المقامات ، وذم الكلام ، توفي سنة ٤٨١هـ. وانظر ترجمته في : السير ١٨/ ٥١٣ ، ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٦٤ ، شذرات الذهب ٣/ ٣٦٥. وله ترجمة وافية في القسم الثالث من هذا الكتاب.

(٤) منازل السائرين ٦١.

وقال في العلم اللدني : «ليس بينه وبين الغيب حجاب» [١] ، والعلم اللدني هو ما يحصل بغير واسطة وإنما هو إلهام.

قال ابن القيم عن هذا الكلام : «وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة القوم ، وبين أهل الاستقامة منهم» [٢].

يُلمح من هذا الكلام أن الكلمة الواحدة يطلقها الصوفية يستدل بها المستقيم والزنديق.

ومن أقوالهم : «الأنس بنور الكشف حلَّ عنهم قيود العلم» [٣].

قال ابن القيم : «أحسن ما يُحمل عليه أن العلم يقيد صاحبه ، والمعرفة تطلقه ، ومن هنا تزندق من تزندق» [٤].

ومن أقوالهم في الوجد كمصدر : «وجدٌ تستفيق له الروح بلمع نور أزلي ، أو سماع نداء أولي» [٥] ، قال ابن القيم : «هذا الكلام محتمل ، فإن أراد به ما سمعه في نفسه من الخطاب ، فهو خطاب وهمي ، وإن ظنه أزلي ؛ فإياك والأوهام والغرور» [٦] ، وجملة القول إن الذوق والوجد والكشف لا يمكن أن تستقيم مصادر للتلقي ، لاحتمالها الخطأ والشطط باختلاف أحوال الناس ،

---

(١) منازل السائرين ٦٢.

(٢) المدارج ٢/ ٤٧٦.

(٣) منازل السائرين ٥٤.

(٤) المدارج ٢/ ٤٢٠.

(٥) منازل السائرين ٧٦.

(٦) المدارج ٣/ ٧٢.

فأين هذا المصدر من الوحي المعصوم الذي تكفل بحفظه الحي القيوم؟

٢ - موقفه من المصطلح الصوفي :

الالتزام بألفاظ الكتاب والسنة ضمانة من الانحراف والشطط ، وحين تفرقت الأهواء بأصحابها نشأت مصطلحات مبتدعة ، وتعارفت كل فرقة علىٰ ألفاظ تخصها ، ظاهرها يخالف باطنها ، ولأصحابها مرادات خصوا بها أنفسهم ، ولم يفصحوا بها لغيرهم ، إما شحاً بها علىٰ من يرونه دونهم ، أو خوفاً من جرأة غيرهم علىٰ تكفيرهم. وذلك كألفاظ الفناء ، والسكر والهيمان، والفرق ، والعطش ؛ مضاهاة لأهل الكلام في الألفاظ المحدثة ، كالجوهر والعرض والحدوث ، والقدم.ومن هذ الباب دخل عليهم الفساد والضلال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : «فطريقة السلف أنهم يراعون المعاني الصحيحة المعلومة بالشرع والعقل ، فيعبرون بها ما وجدوا إلىٰ ذلك سبيلاً ، ومن تكلم بما فيه معنىٰ باطل يخالف الكتاب والسنة ردّوا عليه ، ومن تكلم بلفظ مبتدع يحتمل حقاً وباطلاً نسبوه إلىٰ البدعة أيضاً ، وقالوا : إنما قابل بدعة ببدعة ، وردَّ باطلاً بباطل» (١).

والسلف حين ذموا هذه المصطلحات المبتدعة ليس لمجرد ألفاظها ، ولكن لما اشتملت عليه من المعاني الباطلة الفاسدة ، ولهذا قال ابن القيم معقباً علىٰ استعمالهم الألفاظ والمصطلحات الموهمة المحيرة : «لم يأت له ذكر في القرآن ولا في السنة ، ولا يعرفه إلا النادر من الناس ، ولا يتصوره

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٥٤.

أكثرهم إلا بصعوبة ومشقة ، ولو سمعه أكثر الخلق لما فهموه ، ولا عرفوا المراد منه إلا بترجمة...» إلىٰ قوله : « فصار المتأخرون أرباب هذه الاصطلاحات الحادثة بالألفاظ المجملة ، والمعاني المتشابهة أعرف بمقامات السالكين، ومنازل السائرين وغاياتهم من أعلم الخلق بالله بعد رسله، هذا من أعظم الباطل»[1].

ومن نماذج مصطلحاتهم ورموزهم قول الهروي في التوحيد :«...ونعت من ينعته لأحد»[2].

ولغموض هذه المصطلحات استغلها المغرضون لترويج باطلهم.

قال ابن القيم : ولكن الألفاظ مجملة ، وصادفت قلباً مشحونا بالاتحاد ، ولساناً فصيحاً متمكناً عن التعبير عن المراد ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[3] [النور : ٤٠].

٣ - موقفه من ترتيب المقامات والأحوال :

من معالم المنهج الصوفي رسم الطريق للسالك علىٰ هيئة مقامات وأحوال، تكلفوا فيها الاستدلال الإشاري من الكتاب والسنة ، وحصروا فيها مجاهدات المريدين والسالكين والواصلين ، وقد اشتهر عن متأخريهم[4] علىٰ

---

(١) انظر : المدارج ٣/ ٤٣٦.

(٢) منازل السائرين ١١٣.

(٣) المدارج ١/ ٢٦٥ ، وانظر في بيان صعوبة فك المصطلح الصوفي ، كتاب المعرفة الصوفية ، د/ ناجي جودة ص١٤٥ - ١٤٦.

(٤) كالهروي ، وأبي بكر الكتاني ، وأبي عبد الله النفري ، وغيرهم. انظر : المتواليات ، د/ يوسف زيدان ١٣١ - ١٣٢.

خلاف أئمتهم المتقدمين كسهل التستري وأبي طالب المكي ، والجنيد بن محمد وغيرهم، فقد جاء كلامهم مُفصّلاً جامعاً غير محصور بعدد للمقامات، وقد أشار إلىٰ ذلك ابن القيم[١] ، وقد يكون هناك تداخل بين المقامات من حيث كون كل منها كسب وموهبة وهي عند ابن القيم مُتلازمة[٢] ، فهو يرىٰ أن الترتيب الذي وضعه كل مرتب للمنازل لا يخلو من تحكم ودعوىٰ من غير مطابقة.. فقد يعرض له أعلىٰ المقامات والأحوال في بداية سيره ، فيحصل له ما لم يحصل بعدُ لسالكٍ في نهايته[٣] ، وهو بهذا يردُّ علىٰ مقالتهم وتأسيسهم أنها لا تصح النهايات إلا بصحة البدايات ، أما المخالفة العملية فإن ابن القيم لم يجرِ علىٰ تقسيمات الهروي للمقامات والأحوال في المنازل ، فقد قدم وأخر كما هو الحال في البصيرة والقصد ، والمحاسبة والتوبة ،[٤] يتجلىٰ ذلك في بيانه لتداخل المقامات والمنازل ، كما في الحزن والدهش والقلق والشوق والعطش ، والمشاهدة والمكاشفة[٥].

٤ - موقف ابن القيم من تعريف التوحيد عندهم :

كلام الصوفية في التوحيد يرجع إلىٰ مفهوم الفناء عندهم ، فهو المحور الجوهري الذي يدور عليه التصوف ، ويدندن حوله القوم.واللبس هنا دخل

---

(١) انظر : المدارج ١/ ١٣٨ - ١٣٩.

(٢) انظر : المدارج ١/ ١٣٣ - ١٣٦.

(٣) انظر : المدارج ١/ ١٣٨.

(٤) انظر : المدارج ١/ ١٢٣ ، ١٦٩.

(٥) انظر : المدارج ١/ ٥٠٥ ، ٣/ ٥١ ، ٦١ ، ٧٥ ، ٢٢١ ، ٢٣١.

عليهم من جهة التفريق بين الفناء عن الشهود والفناء عن الوجود ، وهو موطن اشتباه والتباس ، وقد يتخذه الملاحدة سنداً مما لا مجال للاعتذار عنه ، فأقوالهم تكون صريحة بالحلول أحياناً ، وبعضها أخف من ذلك ، وبين القولين درجات متفاوتة ؛ فحين يعرف الشبلي التوحيد بأنه إفراد القديم عن المحدث[١] عرفه ابن عربي بقوله : إن غاية العارفين أن يجعلوا حدود الكون بأسره هو الحد الذاتي لواجب الوجود ، وهذا مقام من يقول ما رأيت إلا الله ، فإن قيل له : فمن الرائي؟ قال : هو ، فإن قيل له : فمن القائل؟ قال : هو ، فإن قيل له : فمن السامع؟ قال : هو ، فإن قيل له : فكيف الآمر؟ قال : نسب تظهر فيه منه ، فما ثمَّ إلا هو ، وهو عين ثمَّ »[٢].

قال ابن القيم رداً علىٰ تعريف الشبلي للتوحيد : أن هذا الحد للتوحيد لا يدل علىٰ التوحيد الذي أنزلت به الكتب ، وأرسلت به الرسل ، وينجو به العبد من النار ؛ بل هو توحيد مشترك بين الفرق[٣].

وقال في الردِّ علىٰ مذهب ابن عربي في التوحيد : «إن حاصل مذهبهم بطلان التكليف ، وتعطيل صفات الله ، وتعطيل العبودية له[٤]» ، وذلك بناءً علىٰ أن الخلق هو الحق ، والحق هو الخلق فمن سيكلف من؟ كما هو صريح كلام

---

(١) انظر : اللمع ٣٠.

(٢) الفتوحات المكية ٣/ ٢٢٧.

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٤٤٤.

(٤) المدارج ١/ ١٦٦ ، ٢٦٤.

ابن عربي ، وحاصل مذهبهم أن عباد الأوثان ، وعباد الصلبان ، وعباد النيران ، وعباد الكواكب كلهم موحدون» [١].

ومن ضلالاتهم في هذا الباب عدم التفريق بين الحقيقة الشرعية ، والحقيقة الكونية ؛ فهم يشاهدون الحكم العام ، فكل من وافقه فهو مطيع ، وهنا يسقطون التكاليف ؛ إذ مراد الصوفية في الحقيقة هو الوصول إلىٰ مشاهدة الإرادة الكونية ، والفناء في توحيد الربوبية ، وقد نتج عن ذلك ظنهم أن كل ما قدّره الله وأراده، يستلزم محبته ورضاه، ولقد عدَّ ذلك ابن القيم كذباً وتناقضاً، وطياً لبساط الشرع واستسلاماً للقدر [٢] ، وخلُص إلىٰ القول بأن انقسام الكون في أعيانه وصفاته وأفعاله إلىٰ محبوب للرب مرضي له ، ومسخوط مبغوض له ، أمر معلوم بجميع أنواع الأدلة من العقل والنقل والفطرة والاعتبار، فمن سوىٰ بين ذلك كله فقد خالف فطرة الله التي فطر عباده عليها ، وخالف المعقول والمنقول ، وخرج عما جاءت به الرسل [٣].

٥ - موقفه من بعض المقامات والسلوك عندهم :

يُعدُّ السلوك ظلاً للاعتقاد إذ هو منطلقه وأصله ، فإذا كان الاعتقاد صحيحاً كان السلوك صحيحاً ، ولا يستقيم السلوك ممن انحرف عنده الاعتقاد ، ولئن اتخذه الصوفية سلماً للصعود عليه عبر مقامات ومنازل للتربية والتهذيب وبذل

---

(١) المدارج ٣/ ٥١٩ ، وانظر : الفتاوىٰ ٢/ ٢٤٤.

(٢) انظر : المدارج ١/ ٢٥١ بتصرف.

(٣) انظر : المدارج ١/ ٢٥٥.

الجهد والمعاناة ، فهي -علىٰ ما بلغت من دقة ونظام- متأثرة بمفهوم التوحيد عندهم ؛ لذا خف ميزان الرجاء ، وضعف جانب التوكل ، ولأجله عطلت الأسباب حتىٰ قال عنهم ابن القيم :«هم في الإرادة والسلوك نظير الجهمية والمعتزلة ، ومن سلك سبيلهم في باب الخبر عن أسماء الله وصفاته»[1].

وارتكبوا في سبيل استجلاب مواجيدهم ، واستدرار عواطفهم ، وتحريك مشاعرهم سماع الغناء ، حتىٰ أوقعهم ذلك في العشق والوله مما حدا بابن القيم بتأليف رسالة في ذم السماع وأهله والردِّ علىٰ من أباحه مع ما ضمنه في بعض كتبه[2].

وحيث تبيّن فيما مضىٰ تباين شطحات وانحرافات الصوفية كان موقف ابن القيم منها بحسب قُربها من الحق وبُعدها عنه ، وغير مستنكر أن يجتهد ابن القيم في تبرئة بعض أئمة الصوفية ، وحمل كلامهم علىٰ أحسن ما يمكن ، فإن ذلك راجع لعدله ، وإنصافه ، ولاطلاعه علىٰ السير الذاتية لكثير منهم.وهو مع ذلك جريءٌ في ردِّ ما لا يحتمله المقام.وهذا يتمشىٰ مع تقسيمه لموقف الناس من الصوفية ؛ إذ هناك من غلا في القبول جملة وتفصيلاً ، وهناك من غلا في الرد جملة وتفصيلاً.والعدل هو التفصيل فيما يقبل ويُرد ، فهو يُشيد بأئمة الطائفة ، ويعجبه تحذيرهم من شطحات غُلاتِهم إذ يقول : «وهذه الشطحات ونحوها هي التي حذّر منها سادات القوم ، وذموا عاقبتها وتبرءوا

---

(١) انظر : المدارج ٣/ ٤٣٦.

(٢) انظر : المدارج ١/ ٤٨١ وما بعدها ، وإغاثة اللهفان ١/ ٣٤٤ ، وما بعدها.

منها» (١) ، ويقول عن الجنيد :«فقد أعاذ الله من هو دون الجنيد من ذلك ، فضلاً عن سيد الطائفة وإمامها» (٢).

ومما يدل علىٰ تعظيمه لبعض أئمتهم قوله في معرض الرد عليهم : «ولولا أن الحق لله ورسوله ، وأنّ كل ما عدا الله ورسوله فمأخوذ من قوله ومتروك ، وهو عُرضة الوهم والخطأ ، لما اعترضنا علىٰ من لا نلحق غبارهم ، ولا نجري معهم في مضمارهم ، ونراهم فوقنا في مقامات الإيمان ، ومنازل السائرين كالنجوم الدراري. ومن كان عنده علم فليرشدنا إليه ، ومن رأىٰ في كلامنا زيفاً أو نقصاً وخطأً فليُهد إلينا الصواب» (٣). وإن كان الحكم علىٰ الأفراد يختلف عن الحكم علىٰ الطوائف ، فقد تكون الطائفة من حيث الجملة بدعية وينجو منها من هو في عداد أعلامها ، وبالعكس. والصوفية فرقةً وأشخاصاً أفردت فيها مصنفات(٤) وأُدْرِجَت فصولٌ ومباحث ضمن مؤلفات ورسائل علمية(٥) ، تجلّت

---

(١) المدارج ٢/ ٤٠.

(٢) المدارج ٢/ ٣٦٧.

(٣) المدارج ٢/ ١٣٧.

(٤) ككتاب التصوف المنشأ والمصادر لإحسان إلهىٰ ظهير ، وكتاب هذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل ، والصوفية معتقداً ومسلكاً د. صابر طعيمة ، والكشف عن حقيقة الصوفية لمحمود القاسم ، والحركة الصوفية في الإسلام د. محمد أبو ريان ، وغيرها.

(٥) كموقف الإمام ابن القيم من التصوف رسالة دكتوراه إعداد عبد الرؤوف خيري ، وموقف ابن تيمية من التصوف والصوفية د. أحمد محمد بناني ، وابن قيم الجوزية عصره ومنهجه د. عبد العظيم شرف الدين ، وموقف ابن القيم من الصوفية لمصطفىٰ مراد.

فيها مواقف العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، وغيرهما. وكانت هذه المؤلفات تأخذ منزع مؤلفيها ، ولهذا جاءت مختلفة في حكمها ، ويبقىٰ رأي الشيخين العلمين ثابتاً واضحاً في كتبهما ، وإن تعددت الأساليب في الاستشهاد بهما.

٦ - موقف ابن القيم من أعلام الصوفية :

من خلال ما سبق يتبين لنا موقف ابن القيم من أعلام الصوفية فهو يُجلُّ أئمتهم المتقدمين المستقيمين علىٰ الشرع ، ويعرض أقوالهم مستشهداً بها في غالب المنازل ، ويسميهم بأهل الاستقامة ، وأئمة الطريق[١] ، ويصف كلامهم بأنه قليل فيه بركة ، وكلام المتأخرين طويل قليل البركة[٢].

أما غلاتهم أهل الحلول والاتحاد ، فقد ردَّ علىٰ أقوالهم وكفرهم كابن عربي ، وابن سبعين ، والتلمساني وغيرهم ، فقد قال عند قول ابن عربي إن الوليَّ أعلىٰ درجة من الرسول قال : «فجعل هؤلاء الملاحدة أنفسهم وشيوخهم أعلىٰ في التلقي من الرسل بدرجتين»[٣] وقال عن التلمساني[٤]:

(١) انظر : المدارج ٣/ ١١٨ - ١١٩.

(٢) انظر : المدارج ١/ ١٣٩.

(٣) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٤٨.

(٤) أبو الربيع هو سليمان بن علي بن عبد الله التلمساني شاعر صوفي ، شرح منازل السائرين علىٰ منهج الصوفية ، والمواقف ، ونصوص الحكم ، وهو أحد زنادقة الصوفية ، نسب إلىٰ الحلول والاتحاد ، ولد سنة ٦١٠هـ وتوفي سنة ٦٩٠هـ.

ترجمته في : العبر ٣/ ٣٧٢ ، البداية والنهاية ١٣/ ٣٤٥ ، شذرات الذهب ٥/ ٤١٢.

«أشدهم في الاتحاد طريقة ، وأعظمهم فيه مبالغة وعناداً لأهل الحق»[١] ، «والفاتحة من أولها إلىٰ آخرها تبين بطلان قول هؤلاء الملاحدة وضلالهم»[٢].

٧ - موقف ابن القيم من الهروي :

لا يمكن تحديد موقف ابن القيم من الهروي إلا بتتبع أقواله في كتبه ، وخاصة في مدارج السالكين ، حيث اشتمل هذا الكتاب علىٰ مواقف مختلفة بحسب ما يقتضيه المقام ، فمنها ما هو صريح في الثناء والإشادة بالجهود كقوله: «وعصم الله أبا إسماعيل باعتصامه بطريقة السلف في ثبات الصفات»[٣].

وقوله : «إنه كان راسخاً في إثبات الصفات ونفي التعطيل ومعاداة أهله ، وله في ذلك كتب مثل ذم الكلام وغير ذلك ، مما يخالف طريقة المعطلة والحلولية والاتحادية»[٤].

وقوله :«وهذا الكلام من شيخ الإسلام يُبيّن مرتبته من السنة ، ومقداره في العلم ، وأنه بريء مما رماه به أعداؤه الجهمية من التشبيه والتمثيل علىٰ عادتهم في رمي أهل الحديث والسنة بذلك»[٥].

وقوله :«فسيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجهاد أهل البدع ،

---

(١) المدارج ١/ ٢٦٤.

(٢) المدارج ١/ ٦١.

(٣) المدارج ٢/ ٢٦٤.

(٤) المدارج ٣/ ٥٢١ ، وانظر : ١/ ٢٦٣.

(٥) المدارج ٢/ ٨٧.

لا يشق له فيها غبار ، وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله»[١].

ومنها ما يكون في المخالفة والاعتذار ، وحمل الكلام علىٰ أحسن محامله ما أمكن كقوله : «وإذا كانت بعض عباراته مجملة ، بحيث يتشبث بها طائفة الاتحادية والحلولية - فإن سنته المفصّلة مبطلة لظنهم»[٢]. وقوله عند قول الهروي : «غيبة العارف عن عيون الأحوال والشواهد» ، بعد كلام يناسب المقام قال : «وشيخ الإسلام براء من هؤلاء وشهودهم»[٣]. وقوله عند قول الهروي : «تنزيه الله عن الحدث» ، قال : «والقدر الذي فهمه الحلولية والاتحادية والمعطلة لا يخفىٰ علىٰ شيخ الإسلام الهروي ، وَمحَلُّه من العلم والمعرفة محله»[٤].

وحين يكون الخطأ صريحاً واضحاً فهنا يتجلّىٰ الصدع بالحق ، والموقف الذي لا مراء فيه ، والغيرة علىٰ الدين مهما كانت منزلة الأشخاص ، فحين قال الهروي عن التوحيد : «أنه اقتحام بحر الجحود» قال : «لقد خبط صاحب المنازل في هذا الموضع، وجاء بما يرغب عنه الكُمَّل من سادات السالكين»[٥]، وعند تعريف الهروي لتوحيد الخاصة قال ابن القيم : «فرحمة الله علىٰ أبي إسماعيل فتح للزنادقة باب الكفر والإلحاد» إلىٰ أن قال : «وغرّه سراب الفناء

---

(١) المدارج ٣/ ٣٩٤.

(٢) المدارج ٣/ ٥٢٠.

(٣) المدارج ٣/ ٢١٣.

(٤) المدارج ٣/ ٤٤٤.

(٥) المدارج ١/ ١٤٧.

فظن أنه لجة بحر المعرفة ، وغاية العارفين وبالغ في تحقيقه وإثباته فقاده قسراً إلىٰ ما ترىٰ»[١].

ووصف كلامه في التوحيد أنه من أبطل الباطل ، وأنه لا معنىٰ صحيح ولا لفظ مليح ؛ بل المعنىٰ أبطل من اللفظ ، واللفظ أقبح من المعنىٰ[٢] ، وقال عن أبياته التي فرح بها أهل الحلول : «إن فيها من الإجمال والحق والباطل والإلحاد ما لا يخفىٰ»[٣] ، وإن بعض عباراته توهم وحدة الوجود ؛ بل تفهم ذلك[٤] ، وقال :«وإنّ كلامه لا حصل له ، ولا كمال فيه ، وأنه لا يرضىٰ به الموحد ولا الملحد»[٥].

وبهذه الخلاصة ينتهي ميزان القِيَم ثباتاً وعدلاً ورحمة ، كما هي ضوابط الإنكار في الشريعة ، فحين يكون الهروي صريحاً في المخالفة يكون الردُّ الحاسم ، وحين تكون الكلمة مُغلقة أو محتملة يجتهد ابن القيم في حلها وربطها بسيرة الهروي الذاتية فيتبين المقام ، وحين يكون الأمر للاجتهاد فيه مجال ، ولإشراق الروح فيه متسع ، يعجب ابن القيم لذلك ويطرب[٦].

---

(١) المدارج ١/ ١٤٨.

(٢) انظر : المدارج ٣/ ٥١٨.

(٣) المدارج ٣/ ٥١٥.

(٤) انظر : المدارج ١/ ١٤٩.

(٥) المدارج ٣/ ٥١٦.

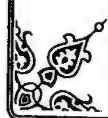
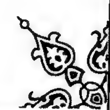
(٦) هذه نماذج مختصرة ، وقد خصص زميلنا الشيخ د. خالد الغنيم مبحثاً مستقلاً لمخالفات ابن القيم للهروي ، وذلك عند تحقيقه للقسم الرابع من هذا الكتاب.




القسم الثاني

تحقيق كتاب مدارج السالكين

من قوله : (فصل : والذنوب تنقسم إلىٰ صغائر وكبائر : بنص القرآن والسنة)
إلىٰ آخر منزلة : التهذيب والتصفية .



فصل
الذنوب: صغائر وكبائر

تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر

و«الذنوب» تنقسم إلىٰ صغائر وكبائر بنص القرآن والسنة ، وإجماع السلف[1] ، والاعتبار[2][3] . قال الله تعالىٰ : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ

---

(١) السلف في اللغة : الجماعة المتقدمون ، وسَلَفُ الرجل : آباؤه المتقدمون (لسان العرب ٦/ ٣٣٠ مادة : سَلَف) . والمراد بالسلف هنا : هم الصحابة الكرام ، والتابعون لهم بإحسان، وأتباعهم وأئمة الدين ممن شُهد له بالإمامة ، وعرف عظم شأنه في الدين ، وتلقىٰ الناس كلامهم خلفاً عن سلف . انظر : لوامع الأنوار للسفاريني ١/٢٠ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة ، وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف ، أن خير قرون هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة ، أن خيرها القرن الأول ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من غير وجه ، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة من علم وعمل وإيمان ، وعقل ودين وبيان وعبادة ، وأنهم أولىٰ بالبيان لكل مشكل هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم من الدين بالضرورة من دين الإسلام ، وأضله الله علىٰ علم... » . انظر : مجموع الفتاوىٰ ٤/ ١٥٨ .

وقد حدد الإمام ابن رجب - رحمه الله - إلىٰ أي زمن يطلق السلف فقال : «وفي زماننا تتعين كتابة كلام أئمة السلف المقتدىٰ بهم إلىٰ زمن الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد ، وليكن الإنسان في حذر مما حدث بعدهم ، فإنه حدث بعدهم حوادث كثيرة » .

انظر : بيان فضل علم السلف علىٰ علم الخلف ١٤٨ .

(٢) في الأصل وش : وبالاعتبار . والصحيح ما أثبته من باقي النسخ .

(٣) أطلق المؤلف (الاعتبار) مستدلاً به مع الكتاب والسنة والإجماع . والاعتبار في مورد

نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء : ٣١] ، وقال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾(١) [النجم : ٣٢] ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه

الاستدلال عند الأصوليين يطلق علىٰ معنيين :

الأول : يطلق الاعتبار ويراد به القياس الأصولي الذي هو : ردُّ فرع إلىٰ أصل لعلة جامعة .

انظر : شرح الكوكب المنير الفتوحي ٤/ ٦ .

لأن القياس مأخوذ من الاعتبار ؛ إذ أن مادة (عبر) في اللغة تفيد التجاوز من حال إلىٰ حال .

انظر : معجم مقاييس اللغة ٢/ ٢٠٩ ، والمعجم الوسيط ٥٨٠ .

وسمي القياس اعتباراً ؛ لأن فيه تأمل لحال الأصل ، ونقل وعبور به إلىٰ الفرع ، ولذلك استدلوا لحجتيه – أي القياس – بقوله تعالىٰ : ﴿**فاعتبروا يا أولي الألباب**﴾ [الحشر :٢]. انظر :روضة الناظر لابن قدامة ٣/ ٨١٩ ، والبحر المحيط في أصول الفقه للزركشي٥/ ٦ كما قال ثعلب– وهو من أئمة اللغة – : والاعتبار أن يعقل الإنسان فيعقل مثله . فقيل : أخبرنا عمن ردَّ حكم حادثة إلىٰ نظيرها أيكون معتبراً؟ قال : نعم هو مشهور في كلام العرب . انظر : البحر المحيط ٥/ ٦ .

والمعنىٰ الثاني للاعتبار هو : النظر والتأمل في مقاصد الشريعة ، أي أن مقاصد الشريعة تقتضي هذا القول . ومقاصد الشريعة هي : المعاني والحكم التي راعاها الشارع في التشريع عموماً وخصوصاً من أجل تحقيق مصالح العباد . انظر : مقاصد الشريعة الإسلامية للدكتور محمد اليوبي٣٧

قلت : وهذا الأخير أقرب إلىٰ مراد المؤلف .

(١) لمَّ : اللام والميم أصل صحيح يدل علىٰ اجتماع ومقارَبَة ومُضامَّه . والإلمام : المقاربة من المعصية من غير موافقة ، والإلمام : النزول . وقد ألم به أي نزل به .

انظر : معجم مقاييس اللغة ٢/ ٤٥٣ مادة (لمم) ، ولسان العرب ١٢/ ٣٣١ مادة (لمم) .

والإلمام واللمم : مقاربة الذنب وقيل اللَّمم : ما دون الكبائر من الذنوب . وقد سبق بيان ذلك . وابن القيم ـ رحمه الله ـ ذكر الأقوال في بيان اللمم ، ورجح قول الجمهور وهو أن اللمم صغائر الذنوب ، وسيأتي ذلك ٨٥٧.

قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلىٰ الجمعة ، ورمضان إلىٰ رمضان : مكفرات لما بينهن ، إذا اجتنبت الكبائر »[١] .

الرد على من قال : إن الذنوب كبائر فقط

وأما ما يحكىٰ عن أبي إسحاق الإسفراييني - رحمه الله - أنه قال : الذنوب كلها كبائر ، وليس فيها صغائر[٢] ، فليس مراده : أنها مستوية في الإثم ، بحيث يكون إثم النظر المحرم ، كإثم الوطء في الحرام . وإنما المراد : أنها بالنسبة إلىٰ عظمة من عُصي بها كلها كبائر[٣] ، وعلىٰ[٤] هذا فبعضها أكبر من بعض . ومع هذا فالأمر في ذلك لفظي لايرجع إلىٰ معنىٰ[٥] .

والذي جاء في لفظ الشارع ، تسمية ذلك « لمماً » و« محقرات » كما في الحديث : « إياكم ومحقرات الذنوب »[٦] ، وقد قيل : إن « اللمم » المذكور في

---

(١) رواه مسلم ١/ ٢٠٩ في كتاب الطهارة ، باب (الصلوات الخمس والجمعة إلىٰ الجمعة ...) ورقمه ٢٣٣ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٤٠٠ .

(٢) ذكره ابن حجر في الفتح ١٠/ ٤٠٩ .

(٣) كما قيل : لا تنظر إلىٰ صغر الذنب ولكن انظر من عصيت . تفسير القرطبي ٥/ ١٥٩ .

(٤) في غ أح٢ : ومع .

(٥) في الأصل وح١ ح٢ : معني بالياء وما أثبته من باقي النسخ .

(٦) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٣٣١ ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٤٥٦ . ورواه الطبراني في الكبير ٦/ ١٦٥ ، والأوسط ٧/ ٢١٩ ، والصغير ٢/ ١٢٩ . قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٩٠ : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ورجال أحدهما رجال الصحيح .

وقال الألباني : وهذا إسناد صحيح علىٰ شرط الشيخين . انظر : الصحيحة ١/ ١٢٩ .

الآية من الكبائر . حكاه البغوي [1] وغيره [2] .

قالوا : ومعنىٰ الاستثناء : أن يُلِمَّ بالكبيرة مرة ، ثم يتوب منها [3] ، ويقع فيها ثم ينتهي عنها ؛ لا يتخذها دأبه . وعلىٰ هذا يكون استثناء «اللمم» من الاجتناب إذ معناه : لا يصدر منهم ، ولا تقع [4] منهم الكبائر إلا لمماً .

والجمهور علىٰ أنه استثناء من الكبائر ، وهو منقطع [5] . أي لكن يقع منهم اللمم .

وحَسُنَ وقوع الانقطاع بعد الإيجاب - والغالب خلافه - أنه إنما يقع حيث يقع التفريع [6] . إذ في الإيجاب هذا معنىٰ النفي صريحاً . فالمعنىٰ : لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش ، فحسن استثناء اللمم .

ولعل هذا الذي شجع أبا إسحاق علىٰ أن قال : «الذنوب كلها كبائر» إذ

---

(١) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي محي السنة ، الإمام القدوة ، والحافظ المفسر ، توفي سنة ٥١٦ .

ترجمته في : السير ١٩/ ٤٣٩ ، البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٦ ، طبقات المفسرين ١/ ١٦١ .

(٢) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢ ، وتفسير الطبري ١١/ ٥٢٧ ، وتفسير ابن كثير ٦/ ٤٥٨ .

(٣) «منها» سقطت من الأصل وش .

(٤) في الأصل ، ش : يقع . والصحيح ما أثبته من باقي النسخ .

(٥) أي أن ما بعده ليس جزءاً من جنس المستثنىٰ منه ، ويقدر عند النحويين بلكن وقال الكوفيون بسوىٰ . انظر : شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك ١/ ٥٩٩ ، والنحو الوافي للدكتور عباس حسن ٢/ ٣١٨ .

(٦) في ط : التفريغ .

الأصل في الاستثناء الاتصال . ولاسيما وهو من موجب ؛ ولكن النصوص وإجماع السلف ، علىٰ انقسام الذنوب إلىٰ صغائر وكبائر .

ثم اختلفوا في فصلين . أحدهما في «اللمم» ما هو؟ والثاني : في «الكبائر» وهل لهما عدد يحصرها ، أو حد يحدها؟ فلنذكر شيئاً يتعلق بالفصلين .



فصل

تعريف اللمم عند السلف

فأما «اللمم» فقد روي عن جماعة من السلف : أنه الإلمام بالذنب مرة ، ثم لا يعود إليه ، وإن كان كبيراً .

قال البغوي [١] : هذا قول أبي هريرة، ومجاهد، والحسن، ورواية عطاء [٢] عن [٣] ابن عباس قال: وقال عبد الله [٤] بن عمرو بن العاص: «اللمم ما دون الشرك» [٥] .

---

(١) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢ ، وانظر : تفسير الطبري ١١/ ٥٢٧ .

(٢) عطاء بن أبي مسلم الخرساني ، ولد سنة ٥٠هـ ، كثير الرواية عن التابعين ، ولكنه يكثر الإرسال عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، توفي سنة ١٣٥هـ .
ترجمته في : السير ٦/ ١٤٠ ، تهذيب التهذيب ٧/ ٢١٥ ، شذرات الذهب ١/ ١٩٢ .

(٣) (عن) ساقطة من : ق .

(٤) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل القرشي ، الإمام الحبر العابد ، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه ، وله مناقب وفضائل ومقام راسخ في العلم والعمل ، توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ٦٣هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٥/ ٥ ، الحلية ١/ ٢٨٣ ، السير ٢/ ٧٩ ، الإصابة ٢/ ٣٤٣ .

(٥) رواه الطبري في تفسيره ١١/ ٥٢٨ ، وانظر : تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢ .

قال السدي(١) : قال أبو صالح (٢) : سُئلت عن قول الله عز وجل : «إلا اللمم» فقلت : «هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده» فذكرت (٣) ذلك لابن عباس فقال: « لقد أعانك عليها ملك كريم»(٤) .

والجمهور : علىٰ أن «اللمم» ما دون الكبائر . وهو أصح الروايتين عن ابن عباس ، كما في صحيح البخاري من حديث طاووس (٥) عنه قال : ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ : « **إن الله كتب علىٰ ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمني وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك ويكذبه**»(٦) .

---

(١) أبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة السدي القرشي مولاهم ، كان يقعد في سدة باب الجامع فسُمي السدي ، له أقوال في تفسير القرآن وقد اختلف في توثيقه . قال عنه الحافظ ابن حجر : صدوق يهم ، توفي سنة ٢١٧هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ١/ ٣٦١ ، السير ٥/ ٢٦٤ ، ميزان الاعتدال٢٣٦/ ١ ، تهذيب التهذيب٣١٣/ ١ .

(٢) أبو صالح ذكوان بن عبد الله السمَّان مولىٰ أم المؤمنين جويرية الغطفانية ، الإمام القدوة الحافظ الحجة ، كان من كبار العلماء في المدينة ، ولد في خلافة عمر وتوفي سنة ١٠١هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٣/ ٢٦٠ ، السير ٥/ ٣٦ ، تهذيب التهذيب ٣/ ٢١٩ .

(٣) في غ : فذكر ، وهو خطأ .

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٥٢ ، وانظر تفسير ابن كثير ٦/ ٤٥٩ ، الدر المنثور ٧/ ٦٥٧ .

(٥) أبو عبد الرحمن طاووس بين كيسان الفارسي اليمني الفقيه القدوة ، ثقة عابد ، كان أعلم أهل اليمن في زمانه ، وكان مستجاب الدعوة ، توفي سنة ١٠٦هـ .
ترجمته في : حلية الأولياء ٤/ ٣ ، السير ٥/ ٣٨ ، تهذيب التهذيب ٥/ ٨ .

(٦) رواه البخاري ١١/ ٢٦ في كتاب الاستئذان ، باب (زنىٰ الجوارح دون الفرج) ورقمه (٦٣٤٣) ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٢٧٦ .

ورواه مسلم [١] من حديث سهيل[٢] بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة . وفيه :« **والعينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطىٰ** » [٣] .

وقال الكلبي [٤] :«اللمم» علىٰ وجهين : كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً في الدنيا . ولا عذاباً في الآخرة . فذلك الذي تكفره [٥] الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش . والوجه الآخر : هو [٦] الذنب العظيم ، يلمُّ به المسلم

---

(١) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري الإمام الحافظ ، صاحب الصحيح ، كان ـ رحمه الله ـ من أوعية العلم توفي سنة ٢٦١هـ .

ترجمته في تاريخ بغداد ٣/ ١٠٠ ، السير ١٢/ ٥٥٧ ، تهذيب التهذيب ١٠/ ١٢٦ .

(٢) أبو يزيد سهيل بن ذكوان السمان المدني حدث عن أبيه وغيره ، وحدث عنه الأعمش والثوري وغيرهم ، قال عنه الإمام أحمد : ما أصلح حديثه . وقال الذهبي : كان من كبار الحفاظ ؛ لكنه مرض مرضاً غيّر من حفظه ، توفي سنة ١٤٠هـ . ترجمته في التاريخ الكبير ٤/ ١٠٤ ، السير ٥/ ٤٥٨ ، تهذيب التهذيب ٤/ ٢٦٣ .

(٣) رواه مسلم ٤/ ٢٠٤٧ في كتاب القدر باب (قدّر علىٰ ابن آدم حظه من الزنىٰ وغيره) ح٢٦٥٧ .

(٤) أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي الإمام الحافظ الحجة ، ولد سنة ١٧٠هـ . قال فيه النسائي : ثقة مأمون أحد الفقهاء . وقال أبو حاتم : كان أحد أئمة الدين فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً ، توفي سنة ٢٤٠هـ .

ترجمته في : تاريخ بغداد ٦/ ٦٥ ، السير ١٢/ ٧٢ ، ميزان الاعتدال ١/ ٢٩ .

(٥) في أ غ ح١ : تكفر .

(٦) (هو) ساقط من غ .

المرة بعد [١] المرة . فيتوب منه [٢] .

قال سعيد [٣] بن المسيب : هو ما ألم بالقلب . أي [٤] خطر عليه[٥] .

قال الحسين [٦] بن الفضل : «اللمم» النظر من غير تعمد . فهو مغفور . فإن أعاد النظر فليس بلمم [٧] وهو ذنب[٨] .

وقد روىٰ [٩] عطاء عن ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأيّ عبد لك لا ألمًّا» [١٠] .

---

(١) في ش : دون .

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٥٢-٢٥٣ ، والقرطبي في تفسيره ١٧/ ١٠٨ .

(٣) أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ القرشي المخزومي الإمام العلم ، عالم أهل المدينة وسيد التابعين في زمانه ، رأىٰ عدداً من الصحابة وسمع منهم ، وهو أحد الفقهاء السبعة . توفي سنة ٩٤هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٣/ ٥١٠ ، السير ٤/ ٢١٧ ، البداية والنهاية ٩/ ١٠٥ .

(٤) في ط أ زيادة : ما .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٥٣ ، وابن الجوزي في تفسيره ٨/ ٧٦ .

(٦) أبو علي الحسين بن الفضل بن عمير البجلي الكوفي النيسابوري العلامة المفسر الإمام اللغوي ، المحدث عالم عصره ، وكان ذا عبادة وصلاة ، توفي سنة ٢٨٢هـ .

ترجمته في : السير ١٣/ ٤١٤ ، لسان الميزان ٢/ ٣٠٧ ، شذرات الذهب ٢/ ١٧٨ .

(٧) (بلمم) ساقط من ش .

(٨) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٥٣ .

(٩) في ط ش : روي وهو خطأ .

(١٠) رواه ابن جرير في تفسيره ١١/ ٥٢٧ . والترمذي ٥/ ٣٩٦ في كتاب التفسير ، باب (ومن

وذهبت طائفة ثالثة إلىٰ [1] أن «اللمم» ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم . فالله لا يؤاخذهم به . وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين : «أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا . فأنزل الله هذه الآية» ، وهذا قول زيد بن ثابت [2] ، وزيد بن أسلم [3][4] .

والصحيح : قول الجمهور : إن اللمم هو [5] صغائر الذنوب ، كالنظرة ، والغمزة ، والقبلة ، ونحو ذلك . هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم . وهو قول أبي هريرة وعبدالله بن مسعود ، وابن عباس ،

سورة النجم) ورقمه ٣٢٨٤ وقال : حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق . والبغوي في شرح السنة ١٤/ ٣٨٧ ح٤١٩٠ . والحاكم في المستدرك ٢/ ٥١٠ وقال : صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ١١٥ : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

(١) (إلىٰ) ساقطة من أ .

(٢) زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري ، الصحابي الجليل ، والمقرئ الفرضي ، أسلم وهو ابن إحدىٰ عشرة سنة ، كان من كتاب الوحي لرسول الله ﷺ ، وأمره رسول الله ﷺ أن يتعلم لغة اليهود ليقرأ له كتبهم ، توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ٥١هـ وقيل ٥٥هـ .
ترجمته في : التاريخ الكبير ٣/ ٣٨٠ ، أسد الغابة ٢/ ١٢٦ ، السير ٢/ ٤٢٦ .

(٣) أبو عبد الله زيد بن أسلم العدوي العمري ، والده أسلم مولىٰ لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الإمام الحجة ، حدث عن والده وعبد الله بن عمر وجابر وغيرهم وحدث عنه مالك وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم توفي سنة ١٣٦هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٣/ ٣٨٧ ، الحلية ٣/ ٢٢١ ، السير ٣/ ٣٩٥ .

(٤) انظر أقوالهم في تفسير الطبري ١١/ ٥٢٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٥٢ .

(٥) (هو) ساقط من : غ .

ومسروق[١] ، والشعبي[٢] ولا ينافي هذا قول أبي هريرة ، وابن عباس في الرواية الأخرىٰ «إنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها» فإن «اللمم» إما أنه يتناول هذا وهذا، ويكون علىٰ وجهين كما قال الكلبي ، أو أن أبا هريرة ، وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة - ولم يصر عليها ، بل حصلت منه فلتة في عمره - باللمم . ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مرات[٣] عديدة . وهذا من فقه الصحابة - رضي الله عنهم - وغور علومهم . ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث . وإنما يخاف العَنَتَ علىٰ[٤] من اتخذ الذنب عادته ، وتكرر منه مراراً كثيرة . وفي ذلك آثار سلفية ، والاعتبار بالواقع[٥] يدل علىٰ هذا .

---

(١) أبو عائشة مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي الإمام القدوة ، عداده في كبار التابعين ومن المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ توفي سنة ٦٢هـ ، وقيل ٦٣هـ .

ترجمته في : التاريخ الكبير ٨/ ٣٥ ، الحلية ٢/ ٩٥ ، السير ٤/ ٦٣ ، الإصابة ٣/ ٤٦٩ .

(٢) عامر بن شراحيل بن عبدالله بن عبد ذي كبار الشعبي ، الإمام العلامة ، حدث عن عدد من الصحابة وكان فقيهاً محدثاً حافظاً ، توفي سنة ١٠٤هـ .

ترجمته في التاريخ الكبير ٦/ ٤٥٠ ، السير ٤/ ٢٩٤ ، تهذيب التهذيب ٥/ ٦٥ .

(٣) ط والجميع سوىٰ ش : مراراً .

(٤) (علىٰ) ساقطة من : ش .

(٥) في ق زيادة : فإنه .

ويذكر عن علي ﷺ[1] : أنه «رفع[2] إليه سارق . فأمر بقطع يده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، والله ما سرقت غير هذه المرة . فقال : كذبت . فلما قطعت يده قال: اصدقني ، كم لك بهذه[3]؟ فقال : كذا وكذا مرة . فقال : صدقت ، إن الله لا يؤاخذ عبده[4] بأول ذنب» أو كما قال[5] . فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم . فهو من جنسه ونظيره . فالقولان عن أبي هريرة ، وابن عباس ، متفقان غير مختلفين . والله أعلم .

وهذه اللفظة فيها معنىٰ المقاربة والإعتاب[6] بالفعل حيناً بعد حين . فإنه يقال : ألم بكذا ، إذا قاربه ولم يغشه ، ومن هذا سميت القبلة والغمزة لمماً ، لأنها تلم بما بعدها .

ويقال : فلان لا يزورنا إلا لماماً . أي حيناً بعد حين ، فمعنىٰ اللفظة ثابت

---

(١) أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي ، من أول من دخل في الإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، ورابع الخلفاء الراشدين ، مناقبه كثيرة ، قتل - رضي الله عنه - سنة ٤٠هـ .

(٢) في أ غ ق : دفع .

(٣) في ط : بهذه المرة .

(٤) (عبده) ساقط من الجمع سوىٰ ش .

(٥) لم أجده عن علي ، وإنما روىٰ البيهقي في السنن الكبرىٰ ٨/ ٤٧٩ : «أن عمر أُتي بسارق ، فقال : والله ما سرقت قط قبلها ، فقال : كذبت ما كان الله ليسلم عبداً عند أول ذنب ؛ فقطعه» ح١٧٢٧٧ .

(٦) في غ ح٢ : الاعتبار .

في الوجهين اللذين فسرت[1] الصحابة بهما الآية . وليس معنىٰ[2] الآية : ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ فإنهم لا يجتنبونه ، فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم ، وهذا محال . وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه . فإن سياق الكلام في تقسيم الناس إلىٰ محسن ومسيء ، وأن الله يجزي هذا بإساءته وهذا بإحسانه . ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . ومضمون هذا ؛ أنه لا يكون محسناً مجزياً بإحسانه ، ناجياً من عذاب الله ، إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش . فَحسُن حينئذ استثناء اللمم وإن لم يدخل في الكبائر . فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش .

وضابط الانقطاع : أن يكون له دخول في جنس المستثنىٰ منه ، وإن لم يدخل في نفسه ، ولم يتناوله لفظه . كقوله تعالىٰ : ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم : ٦٢] فإن السلام داخل في الكلام الذي هو جنس للغو[3] والسلام . وكذلك قوله : ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ : ٢٤ ، ٢٥] فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم . فكأنه قيل في الأول : لا يسمعون فيها شيئاً إلا سلاماً . وفي الثاني : لايذوقون

(١) في ط : فسَّر .

(٢) (معنىٰ) : ساقط من : غ .

(٣) في ط أ غ ح١ ح٢ : اللغو والسلام .

فيها شيئاً إلا حميماً وغساقاً . ونص علىٰ فرد من أفراد الجنس تصريحاً ، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص ، لا بطريق العموم الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد[1] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء : ١٥٧] ، فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس للعلم[2] والظن .

وأدق من هذا : دخول الانقطاع فيما يُفهمه الكلام بلازمه ، كقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء : ٢٢] إذ مفهوم هذا : أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما سلف[3] منه قبل التحريم ، فإنه عفو . وكذلك : ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء : ٢٣] وإن كان المراد به : ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله ، فحسن[4] أن يقال «إلا ما قد سلف» . فتأمل هذا فإنه من فقه العربية .

وأما قوله : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان : ٥٦] ، فهذا الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت . وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة . إذ لو تطرق

---

(١) في أ غ : التفريد .

(٢) في أ غ ح١ ح٢ ق : العلم .

(٣) في ط غ : إلا ما قد سلف .

(٤) في ق : فحش وهو خطأ .

إليه استثناء فرد من أفراده لكان أولىٰ بذكره من العدول عنه إلىٰ الاستثناء المنقطع. فجرىٰ هذا الاستثناء مجرىٰ التأكيد، والتنصيص علىٰ حفظ العموم. وهذا جارٍ في كل منقطع. فتأمله فإنه من أسرار العربية.

فقوله: «وما بالربع من أحد إلا الأواري[1]»[2][3]، يفهم منه لو وجدت فيها أحداً لاستثنيته ولم أعدل إلىٰ الأواري التي ليست بأحد.

وقريب من هذا لفظة «أو» في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] هو كالتنصيص علىٰ أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة. فإنها إن لم تزد قسوتها علىٰ الحجارة فهي كالحجارة في القسوة لا دونها. وإن[4] لم يزد عددهم علىٰ مائة ألف لم تنقص[5] عنها فذكر «أو»[6]

---

(١) في الجميع وط سوىٰ أ: أواري.

(٢) جزء من البيتين اللذين قالهما النابغة الذبياني وهما:

وقفت فيها أصيلانا أسائلها ... عيَّت جواباً وما بالرَّبع من أحد

إلا الأواري لأياً ما أبينها ... والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

انظر: ديوانه ص١٤-١٥.

(٣) الأُوار: بالضم: شدة حر الشمس ولفح النار ووهجها والعطش، وقيل: الدخان واللهب ورجلٌ أوراي: شديد العطش. انظر: لسان العرب ١/ ٢٦٠، والمعجم الوسيط ٣٢، مادة: أور.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: إنه.

(٥) في ط والجميع: ينقص.

(٦) (أو) ساقطة من الأصل وما أثبته من الجميع.

ههنا كالتنصيص على حفظ مائة الألف، وأنها ليست مما أريد بها المبالغة والله أعلم .

تعريف الكبيرة عند السلف

وأما الكبائر [١] : فاختلف السلف فيها اختلافاً لا يرجع إلى تباين وتضاد ، وأقوالهم متقاربة .

وفي الصحيحين من حديث الشعبي عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: **«الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس»** [٢] .

وفيهما عن عبد الرحمن [٣] بن أبي بكرة عن أبيه [٤] عن النبي ﷺ : «ألا

---

(١) **الكبيرة لغة** : مشتقة من الكبر وهو ضد الصغر . انظر : جمهرة اللغة ١/ ٢٧٥ .
قال ابن فارس : الكاف والباء والراء أصل صحيح يدل على خلاف الصغر . يقال : كبير ، وكُبَار ، وكُبَّارا ، والكِبْرُ : معظم الأمر . انظر : معجم مقاييس اللغة ٢/ ٤٣١ .
والكبيرة في الاصطلاح : هي كل ذنب ترتب عليه حد في الدنيا ، أو توعد عليه في الآخرة بلعنة أو غضب أو دخول نار أو عدم دخول الجنة ونحو ذلك .
وهذا التعريف هو المأثور عن السلف -رحمهم الله- وهو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ورجحه بعدة مرجحات . انظر مجموع الفتاوى ١/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥ كما رد شيخ الإسلام على بعض ما قيل في تعريف الكبائر. انظر المصدر نفسه ١١/ ٦٥٦ ـ ٦٥٧ .

(٢) رواه البخاري ١١/ ٥٥٥ في كتاب الأيمان والنذور ، باب (اليمين الغموس) ، ورقمه ٦٦٧٥ ومسلم ١/ ٩١ عن أنس في كتاب الإيمان ، باب (بيان الكبائر وأكبرها) ورقمه ٨٨ ، لكن بدل لفظ **«واليمين الغموس»** قال : **«وقول الزور»** . وأحمد في مسنده ٢/ ٢٠١ .

(٣) عبد الرحمن بن أبي بكرة الثقفي البصري - أبو بحر ويقال أبو حاتم- أول مولود في الإسلام بالبصرة وذلك سنة ١٤ هـ ، حدث عن أبيه وعن علي بن أبي طالب ، كان ثقة كبير القدر ، توفي سنة ٩٦هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير للبخاري ٥/ ٢٦٠ ، السير ٤/ ٣١٩ ، تهذيب التهذيب ٦/ ١٤٨ .

(٤)أبو بكرة نفيع بن الحارث وقيل ابن مسروح الثقفي الطائفي مولى النبي ﷺ ، تدلى في حصار

أنبئكم بأكبر الكبائر؟ » – **ثلاثاً** – قالوا : بلىٰ ، يا رسول الله . قال : « **الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين** – وجلس وكان متكئاً – فقال : **ألا وقول الزور** » ، فما زال يكررها حتىٰ قلنا : ليته سكت »[1] .

وفي الصحيح من حديث أبي وائل[2] عن عمرو[3] بن شراحبيل عن عبد الله ابن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم؟ قال : « **أن تجعل لله نداً وهو خلقك** » . قال : قلت : ثم أي؟ قال : « **أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك** » . قال : قلت : ثم أي؟ قال : « **أن تزاني بحليلة جارك** »[4] ، فأنزل الله

الطائف ببكرة ، وفرَّ إلىٰ النبي ﷺ ، وأسلم علىٰ يده . وأعلمه أنه عبدٌ فأعتقه ، روىٰ عن النبي ﷺ جملة من الأحاديث ، توفي سنة ٥١ ، وقيل ٥٢هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٨/ ١١٢ ، أسد الغابة ٤/ ٥٧٨ ، الإصابة ٣/ ٥٤٢ .

(١) رواه البخاري ٥/ ٢٦١ في كتاب الشهادات ، باب (ما قيل في شهادة الزور) ورقمه ٢٦٥٤ . ومسلم ١/ ٩١ في كتاب الإيمان ، باب (بيان الكبائر وأكبرها) ورقمه ٨٧ . وأحمد في مسنده ٥/ ٣٦ .

(٢) أبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي الكوفي أدرك النبي ﷺ ولم يره ، حدث عن عمر وعثمان وعلي وغيرهم ، وكان يروي عن أقرانه ، كان رأساً في العلم والعمل ، وقد قيل عنه أنه كان من أعلم أهل الكوفة بحديث ابن مسعود ، توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز .
ترجمته في : التاريخ الكبير ٤/ ٢٤٥ ، تاريخ بغداد ٩/ ٢٦٨ ، السير ٤/ ١٦١ .

(٣) أبو ميسرة عمرو بن شراحبيل الهمداني الكوفي حدث عن عمر وعثمان وعلي وغيرهم ذكره البخاري في التابعين ، ووثقه ابن معين وغيره ، وعده ابن حجر في الصحابة ، توفي سنة ٦٣هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٦/ ٣٤١ ، السير ٤/ ١٣٥ ، الإصابة ٣/ ١١٤ .

(٤) رواه البخاري ٨/ ٤٩٣ في كتاب التفسير ، باب ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ ورقمه ٤٧٦١ . ومسلم ١/ ٩١ في كتاب الإيمان ، باب (كون الشرك أقبح الذنوب ...) ورقمه

تعالىٰ تصديق قول النبي ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ [الفرقان : ٦٨] .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : «**اجتنبوا السبع الموبقات**» . قالوا : يا رسول الله ، وما هن؟ قال : «**الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»(١) .

وروىٰ شعبة (٢) ، عن سعد (٣) ، بن إبراهيم : سمعت حميد (٤) بن عبد الرحمن

٨٦، وأحمد في مسنده ١/ ٣٨٠ .

(١) رواه البخاري ٥/ ٣٩٣ في كتاب الوصايا، باب قوله تعالىٰ: ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامىٰ**﴾ ورقمه ٢٧٦٦ ، ومسلم ١/ ٩٢ في كتاب الإيمان ، باب (بيان الكبائر وأكبرها) ورقمه ٨٩.

(٢) أبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الواسطي الإمام الحافظ ، نزيل البصرة وعالمها وشيخها ، روىٰ عن كثير من المحدثين ، وروىٰ عنه خلق كثير ، وانتشر حديثه في الآفاق ، ولد سنة ٨٠هـ ، وتوفي سنة ١٦٠هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٤/ ٢٤٤ ، تاريخ بغداد ٩/ ٢٥٥ ، السير ٧/ ٢٠٢ .

(٣) أبو إسحاق سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري الإمام الحجة الفقيه قاضي المدينة ،قال عنه الإمام أحمد : كان ثقة فاضلاً ، توفي سنة ١٢٧هـ . وقيل ١٢٦هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٤/ ٥١ ، السير ٥/ ٤١٨ ، تهذيب التهذيب ٣/ ٤٦٣ .

(٤) أبو إبراهيم حميد بن عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري ويقال أبو عبد الرحمن ، خاله عثمان بن عفان فهو أخو أمه من الأم ، حدث عن خاله عثمان وعن أبيه وعن سعيد بن زيد وعن أبي هريرة وابن عباس وابن عمر وغيرهم ، توفي سنة ٩٥هـ .
ترجمته في : التاريخ الكبير ٢/ ٣٤٥ ، السير ٤/ ٢٩٣ ، البداية والنهاية ٩/ ١٤٧ .

يحدث عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال : «من أكبر الكبائر : أن يسب الرجل والديه » قالوا : وكيف يسب الرجل والديه؟ قال : «يسب أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه ، فيسب أمه»[١] .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن من أكبر الكبائر : استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم بغير الحق»[٢] .

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : «أكبر الكبائر : الشرك بالله . [والأمن من][٣] مكر الله ،[والقنوط من رحمة الله][٤] ، واليأس من روح الله»[٥] .

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ٢/ ١٤٤ . وأحمد في مسنده ٢/ ١٩٥ بلفظ : « من أكبر الذنب» ورواه البخاري ١٠/ ٤٠٣ في كتاب الأدب ، باب (لايسب الرجل والديه) ورقمه ٥٩٧٣ بلفظ : «أن يلعن الرجل والديه» . ورواه مسلم ١/ ٩٢ في كتاب الإيمان ، باب (بيان الكبائر وأكبرها) ورقمه ٩٠ بلفظ :« من الكبائر أن يشتم الرجل والديه ... » .

(٢) رواه أبو داود ٥/ ١٩٣ في كتاب الأدب ، باب (في الغيبة) ورقمه ٤٨٧٧ ، ورواه ابن أبي حاتم في التفسير ٣/ ٩٣٢ . وذكره ابن حجر في الفتح ١٠/ ٤١١ ، وقال : أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد . وقال الألباني : ضعيف . انظر : ضعيف سنن أبي داود ص٤٨١ .
وروىٰ أبو داود أيضاً نحوه ٥/ ١٩٣ في كتاب الأدب ، باب (في الغيبة) ورقمه ٤٨٧٦ ، والإمام أحمد في مسنده ١/ ١٩٠ عن سعيد بن زيد مرفوعاً : «إن من أربىٰ الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق» . قال الألباني : صحيح . انظر : صحيح سنن أبي داود ٣/ ٩٢٣ حديث رقم ٤٠٨١ .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من غ .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من : أ .

(٥) رواه ابن جرير في تفسيره ٤/ ٤٢ ، وذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤١٩ .

قال سعيد بن جبير : سأل رجل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن الكبائر : «أسبع هي [1]؟ قال هي [2] إلىٰ السبعمائة أقرب ، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار» [3] ، وقال : «كل شيء عُصي الله به فهو كبيرة . من عمل شيئاً منها فليستغفر الله . فإن الله لا يخلد في النار من الأمة إلا من كان راجعاً عن الإسلام ، أو جاحداً فريضة ، أو مكذباً بقدر [4]» [5] .

وقال عبدالله بن مسعود ﷺ : «ما نهىٰ الله عنه في سورة النساء من أولها إلىٰ قوله : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء : ٣١] فهو كبيرة » [6] . وقال علي [7] بن أبي طلحة : هي كل ذنب ختمه الله بنار ، أو غضب أو لعنة ، أو عذاب [8] .

---

(١) ط أ غ ح١ ح٢ د ق : هن .

(٢) (هي) : ساقطة من ش ، وفي ط ح١ ح٢ د ق : هن .

(٣) رواه الطبراني في تفسيره ٤/ ٤٤ ، وابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٩٣٤ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣/ ١٠٣٩ .

(٤) في ط ، أ ، غ ، ح١ : بالقدر .

(٥) روىٰ جزءاً منه ابن جرير في تفسيره ٤/ ٤٤ ، وذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤١٩ .

(٦) رواه ابن جرير في تفسيره ٤/ ٤٠-٤١ ، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٩٣٣ .

(٧) علي بن أبي طلحة ، اسم أبيه سالم بن المخارق الهاشمي – مولىٰ ابن عباس – أصله من الجزيرة وانتقل إلىٰ حمص ، روىٰ عن ابن عباس ولم يسمع منه فهو أخذ تفسير ابن عباس عن مجاهد ، قال فيه الإمام أحمد له أشياء منكرات ، مات سنة ١٤٣هـ .

ترجمته في: التاريخ الكبير ٦/ ٢٨١، ميزان الاعتدال ٣/ ١٣٤، تهذيب التهذيب ٧/ ٣٣٩ .

(٨) رواه ابن جرير في تفسيره ٤/ ٤٤ .

وقال الضحاك[١] : وهي ما أوعد الله عليه حداً في الدنيا ، أو عذاباً في الآخرة[٢] .

وقال الحسين[٣] بن الفضل: ما سماه الله في القرآن كبيراً ، أو عظيماً[٤] ، نحو قوله : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء : ٢] ، ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء : ٣١] ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان :١٣] ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف : ٢٨] ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور : ١٦] ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[الأحزاب : ٥٣] .

وقال سفيان[٥] الثوري : الكبائر ما كان فيه[٦] المظالم بينك وبين العباد . والصغائر : ما كان بينك وبين الله ؛ لأن الله كريم يعفو[٧] . واحتج بحديث يزيد

---

(١) الضحاك بن قيس بن خالد الفهري القرشي - أبو أمية - أو أبو أنيس ، سيد بني فهر في عصره وهو من صغار الصحابة ، ولد سنة ٥هـ ، وتوفي سنة ٦٤هـ . ترجمته في : السير ٣/ ٢٤١ ، البداية والنهاية ٨/ ٢٤٥ ، الإصابة ٢/ ١٩٧ .

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره ٤/ ٤٥ ، وذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤١٩ .

(٣) في ط : الحسن ، وهو خطأ .

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤١٩ ، ولكن قال : وقال الحسن بن الفضل . ولعله تصحيف .

(٥) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن رافع بن عبد الله الثوري شيخ الإسلام ، الإمام الحافظ ، أحد الأعلام وسيد العلماء العاملين في زمانه ولد سنة ٩٧هـ ، وتوفي سنة ١٦١هـ .

ترجمته في : التاريخ الكبير ٤/ ٩٢ ، حلية الأولياء ٦/ ٣٥٦ ، السير ٧/ ٢٢٩ .

(٦) في ط : ما كان فيه من المظالم .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤١٩ .

بن هارون[1] عن حميد الطويل[2] عن أنس[3] بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «ينادي مناد من قبل[4] [بطنان][5] العرش [يوم القيامة][6] يا أمة محمد ، إن الله عز وجل قد عفا عنكم جميعاً[7] المؤمنين والمؤمنات تواهبوا المظالم[8] ،

---

(١) أبو خالد يزيد بن هارون بن زاذي بن ثابت السلمي ، مولاهم الواسطي ، الإمام القدوة الحافظ، ولد سنة ١١٨هـ ، سمع من عاصم الأحول ويحيىٰ الأنصاري وحميد الطويل . قال الإمام أحمد : كان يزيد حافظاً متقناً ، توفي سنة ٢٠٦هـ .

ترجمته في : التاريخ الكبير ٨/ ٣٦٨ ، تاريخ بغداد ١٤/ ٣٣٧ ، السير ٩/ ٣٥٨ .

(٢) أبو عبيدة حميد بن أبي حميد الطويل البصري مولىٰ طلحة الطلحات ، ولد سنة ٦٨هـ ، سمع أنساً والحسن وغيرهما ، قال الذهبي : أجمعوا علىٰ الاحتجاج بحديثه إذا قال سمعت ، توفي سنة ١٤٢ ، وقيل ١٤٣هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٢/ ٣٤٨ ، السير ٦/ ١٦٣ ، ميزان الاعتدال ١/ ٣٤٨ .

(٣) أبو حمزة أنس بن مالك بن النضر الأنصاري خادم رسول الله ﷺ ، وكان من رواة الحديث وقد طال عمره وكثر ولده ، توفي سنة ٩٣هـ .

ترجمته في : السير ٣/ ٣٩٥ ، الإصابة ١/ ٨٤ ، تهذيب التهذيب ١/ ٣٧٦ .

(٤) (قبل) ساقطة من ش .

(٥) (بطنان) ساقطة من الأصل وما أثبته من الجميع والحديث .

بطنان : بطنان الشيء هو داخله وباطنه . انظر لسان العرب ١/ ٤٣٥ مادة (بطن) ، والصحاح ٥/ ٢٠٧٩ .

(٦) (يوم القيامة) ساقط من الأصل ، ش ، وما أثبته من الجميع ومن الحديث .

(٧) في ط والجميع : جميعكم .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : بينكم .

وادخلوا الجنة برحمتي»[1] .

قلت : مراد سفيان[2] أن الذنوب التي بين العبد وبين الله أسهل من أمر[3] مظالم العباد . فإنها تزول بالاستغفار ، والعفو والشفاعة وغيرها ، وأما مظالم العباد فلابد من استيفائها . وفي المعجم للطبراني[4] :« الظلم عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين : ديوان لا يغفر الله منه شيئاً . وهو الشرك بالله ، ثم قرأ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وهو مظالم العباد بعضهم بعضاً . وديوان لا يعبأ الله به شيئاً . وهو ظلم

---

(١) رواه البغوي في تفسيره ١/ ٤١٩ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ وقال العراقي : أخرجه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقرئ في كتاب التبصرة والتذكرة بلفظ : « ينادي مناد من بطنان العرش يوم القيامة يا أمة محمد إن الله تعالىٰ يقول : (ما كان لي قبلكم وهبته لكم ، وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتي) وإسناده ضعيف، المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ، بهامش إحياء علوم الدين ٣/ ٢٣٦-٢٣٧ . ورواه الطبراني في الأوسط ٥/ ٢٢٢ بلفظ : «ينادي مناد يا أهل الجمع تتاركوا المظالم بينكم وثوابكم عليّ » . ورواه أيضاً في الأوسط ٢/ ٨٧ عن أم هانئ بلفظ : «ينادي منادٍ يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعليّ الثواب» .

(٢) في ش زيادة : الثوري رضي الله عنه .

(٣) في ط والجميع : «أسهل أمراً من مظالم » .

(٤) سليمان بن أحمد بن مُضير اللخمي الشامي الطبراني - أبو القاسم - صاحب المعاجم الثلاثة الإمام الحافظ الثقة ، جمع وصنف ، وازدحم عليه المحدثون ورحلوا إليه من الأمصار ، ولد سنة ٢٦٠هـ ، وتوفي سنة ٣٦٠هـ .
ترجمته في السير ١٦/ ١١٩ ، البداية والنهاية ١١/ ٢٨٧ ، شذرات الذهب ٣/ ٣٠ .

العبد نفسه بينه وبين ربه»[1] .

ومعلوم أن هذا الديوان [2] مشتمل علىٰ الكبائر والصغائر ؛ لكن مستحقة

---

(١) لم أجده عند الطبراني بهذا اللفظ وإنما وجدته في المعجم الكبير ٦/ ٢٥٢ ، والمعجم الصغير ١/ ٧٩ ، بلفظ :« ذنب لا يغفر وذنب لا يترك وذنب يغفر . فأما الذنب الذي لا يغفر فالشرك بالله ، وأما الذي يغفر فذنب بينه وبين الله عز وجل ، وأما الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً » عن سلمان ـ رضي الله عنه ـ قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٤٨ : رواه الطبراني في الكبير والصغير وفيه يزيد بن سفيان بن عبد الله بن رواحة وهو ضعيف تكلم فيه ابن حبان وبقية رجاله ثقات .

ورواه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٢٤٠ ، والحاكم في مستدركه ٤/ ٦١٩ بلفظ :« الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة ... » الحديث . وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وقال الذهبي : صدقه ضعفوه ، وابن بانيوس فيه جهالة . وقال العراقي : أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة وفيه صدقة بن موسىٰ الدقيقي ضعفه ابن معين ، وله شاهد من حديث سلمان رواه الطبراني .

انظر : المغني بهامش الإحياء ٤/ ٢٣ . وروىٰ نحوه الطيالسي في مسنده ٢/ ٢٨٢ عن أنس ولفظه : « الظلم ثلاثة : فظلم لا يتركه الله وظلم يغفر وظلم لا يغفر ، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك لا يغفره الله ، وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد فيما بينه وبين ربه ، وأما الظلم الذي لا يتركه فيقتص الله بعضهم من بعض » .

قال الألباني - رحمه الله - في الصحيحة ٤/ ٥٦٠ :«أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده عن أنس مرفوعاً ... وهذا إسناد ضعيف من أجل يزيد الرقاشي ، فإنه ضعيف كما في التقريب ، والربيع هو ابن صبيح السعدي أبو بكر البصري صدوق سيء الحفظ ؛ لكن الحديث عندي حسن فإن له شاهداً من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها مرفوعاً به نحوه .

(٢) في ش زيادة : الذي لا يعبأ الله به .

أكرم الأكرمين . وما يعفو عنه من حقه ويهبه أضعاف أضعاف ما يستوفيه . فأمره أسهل من الديوان الذي لايترك منه شيئاً لعدله ، وإيصال كل حق إلىٰ صاحبه .

الرد على الأقوال المخالفة لقول السلف

وقال مالك بن مغول[1] : الكبائر ذنوب أهل البدع [2] ، والسيئات ذنوب أهل السنة[3] .

قلت : يريد أن البدعة من الكبائر ، وأنها أكبر من كبائر أهل السنة . فكبائر أهل السنة صغائر بالنسبة إلىٰ البدع . وهذا معنىٰ قول بعض السلف : البدعة أحب إلىٰ إبليس من المعصية ؛ لأن البدعة لا يتاب منها . والمعصية يتاب منها[4] .

---

(١) أبو عبد الله مالك بن مغول بن عاصم بن غزية بن خرشة البجلي الكوفي الإمام الثقة المحدث قال الذهبي : كان من سادة العلماء ، توفي سنة ١٥٩هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٧/ ٣١٤ ، السير ٧/ ١٧٤ ، تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٢ .

(٢) البدعة لغة : أصل البدع الاختراع علىٰ غير مثال سابق .

قال الجوهري: أبدعت الشيء: اخترعته لا علىٰ مثال، والله تعالىٰ بديع السماوات والأرض. والبَدِيع المُبتدِعُ والبديع المُبتَدعُ . الصحاح ٣/ ١١٨٣ مادة (بدع) .

والبدعة في الاصطلاح : عرفها الشاطبي بقوله : طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة ، يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه . انظر : الاعتصام ١/ ٣٧ .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤١٩ .

(٤) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ١٣٢ ، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٦ عن سفيان الثوري .

ومعنىٰ كلامه والله أعلم : أن صاحب البدعة يعتقد أنه علىٰ حق فيتعصب لبدعته ولا يتركها ، وصاحب المعصية يعتقد أنه علىٰ خطأ ، وأنه عاصٍ فسرعان ما يرجع ويتوب .

وقيل : الكبائر ذنوب العمد . والسيئات : الخطأ والنسيان . وما أكره عليه ، وحديث النفس ، المرفوعة عن هذه الأمة[١] .

قلت : هذا من[٢] أضعف الأقوال طرداً وعكساً . فإن الخطأ والنسيان والإكراه لا يدخل تحت جنس المعاصي ، حتىٰ يكون أحد قسميها .

والعمد نوعان : نوع كبائر ، ونوع صغائر ، ولعل صاحب هذا القول يرىٰ أن الذنوب كلها كبائر ، وأن الصغائر [٣] [ما عفا الله لهذه الأمة عنه ، ولم يدخل تحت التكليف وهذا غير صحيح ، فإن الكبائر والصغائر نوعان] تحت جنس المعصية . ويستحيل وجود النوع بدون جنسه .

وقيل : الكبائر ذنوب المستحلين ، مثل ذنب إبليس ، والصغائر [٤] ذنوب المستغفرين . مثل ذنب آدم ـ عليه السلام ـ[٥] .

قلت : أما المستحل ؛ فذنبه دائر بين الكفر والتأويل . فإنه إن كان عالماً بالتحريم فكافر ، وإن لم يكن عالماً به [٦] فمتأول أو مقلد ، وأما المستغفر فإن استغفاره الكامل يمحو كبائره وصغائره . فلا كبيرة مع الاستغفار .

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤٢٠ .

(٢) (من) : ساقط من م .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من : غ .

(٤) في الأصل ، ش ، م ، ب ، أ ، غ زيادة : (مثل) ، ولا يستقيم اللفظ بها .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤٢٠ .

(٦) (به) : ساقطة من م ، ح٢ .

فهذا الفرق ضعيف أيضاً . إلا أن يكون مراد صاحبه أن ما يفعله [١] المستحل من الذنب أعظم عقوبة مما يفعله المعترف بالتحريم ، النادم علىٰ الذنب المستغفر منه . وهذا صحيح .

وقال السدي : الكبائر ما نهىٰ الله عنه من الذنوب الكبار . والسيئات مقدماتها . وتوابعها مما يجتمع فيه الصالح والفاسق ، مثل النظرة واللمسة [٢] والقبلة وأشباهها [٣] ، واحتج بقول النبي ﷺ : « **العينان تزنيان ، واليدان تزنيان، والرجلان تزنيان ، ويصدق ذلك كله الفرج أو يكذبه** » [٤] .

وقيل [٥] الكبائر ما يستصغره العباد . والصغائر : ما يستعظمونه ، فيخافون مواقعته [٦] ، واحتج أرباب هذه المقالة بما روىٰ البخاري في صحيحه عن أنس -

---

(١) في أ ح٢ : ما يفعل .

(٢) في الأصل ، ش ، م : اللمة ، وهو خطأ وما أثبته من الأثر ، والباقي .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤٢٠ .

(٤) رواه أبو يعلىٰ في مسنده ١١/ ٣١٠ عن أبي هريرة ، ورواه أحمد في مسنده ١/ ٤١٢ عن ابن مسعود وفيه : « والفرج يزني» . ورواه كذلك أبو يعلىٰ في مسنده ٩/ ٢٤٦ ، والطبراني في الكبير ١٠/ ١٥٥ ، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٩٨ . قال الهيثمي في المجمع ٦/ ٢٥٦ رواه أحمد وأبو يعلىٰ وزاد : «واليدان تزنيان»، والبزار والطبراني وإسنادهما جيد . وقال الألباني: وهذا إسناد جيد . انظر : الإرواء ٨/ ٣٨ . قلت : والحديث له أصل في الصحيحين كما تقدم ص٨٥٥.

(٥) (وقيل) ساقطة من ق .

(٦) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤٢٠ .

رضي الله عنه ـ قال : «إنكم لتعملون أعمالاً ، هي أدق في أعينكم من الشعر ، كنا نعدها علىٰ عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»[١] .

قلت : أما قول السدي : «الكبائر ما نهىٰ الله عنه من الذنوب الكبار» ؛ فبيان للشيء بنفسه . فإن الذنوب الكبار هي الكبائر ، وإنما مراده أن المنهي عنه قسمان أحدهما : ما هو مشتمل علىٰ المفسدة بنفسه ، فنفس[٢] فعله منشأ المفسدة[٣] . فهذا كبيرة ، كقتل النفس ، والسرقة ، والقذف ، والزنا .

الثاني : ما كان من مقدمات ذلك ومباديه ، كالنظر واللمس ، والحديث والقبلة ، الذي هو[٤] مقدمة الزنا ، فهو من الصغائر . فالصغائر من جنس المقدمات . والكبائر من جنس المقاصد والغايات .

وأما من قال : « ما يستصغره العباد فهو كبائر . وما يستكبرونه فهو صغائر» فإن أراد أن الفرق راجع إلىٰ استكبارهم واستصغارهم ، فهو باطل ، فإن العبد يستصغر النظرة ويستكبر الفاحشة .

وإن أراد : أن استصغاره[٥] للذنب يكبِّره عند الله ، واستعظامه[٦] له يصغره

---

(١) رواه البخاري ١١/ ٣٢٩ ، كتاب الرقاق ، باب (ما يتقىٰ من محظورات الذنوب) ورقمه ٦٤٩٢ ، ورواه أحمد في مسنده ٣/ ١٥٧ .

(٢) في ط : ونفس .

(٣) في ق : للمفسدة .

(٤) (هو) ساقط من ح٢ .

(٥) في ط ، د ، م ، ب ، ق : استصغارهم ، واستعظامهم .

(٦) في ط ، د ، م ، ب ، ق : استصغارهم ، واستعظامهم .

عند الله فهذا صحيح . فإن العبد كلما صغرت ذنوبه عنده كبرت عند الله ، وكلما كبرت عنده صغرت ذنوبه [١] عند الله ، والحديث إنما يدل علىٰ هذا المعنىٰ ، فإن الصحابة - لعلو مرتبتهم عند الله وكمالهم - كانوا يعدون تلك الأعمال موبقات ، ومن بعدهم - لنقصان مرتبتهم عندهم [٢] ، وتفاوت ما بينهم - صارت تلك الأعمال في أعينهم أدق من الشعر .

وإذا أردت فهم هذا فانظر : هل كان في الصحابة من إذا سمع نص رسول الله ﷺ عارضه بقياسه ، أو ذوقه ، أو وجده ، أو عقله ، أو سياسته؟ وهل كان أحد منهم قط يقدم علىٰ نص رسول الله ﷺ عقلاً أو قياساً ، أو ذوقاً ، أو سياسة، أو تقليد مقلد؟ ولقد أكرم الله أعينهم وصانها أن تنظر إلىٰ وجه من هذا حاله ، أو يكون في زمانهم . ولقد حكم عمر بن الخطاب ﷺ علىٰ من قدم حكمه علىٰ نص الرسول ﷺ بالسيف ، وقال : «هذا حكمي فيه » [٣] ، فيا لله كيف لو رأىٰ ما رأينا ، وشاهد ما بُلينا به من تقديم رأي كل فلان وفلان علىٰ قول المعصوم ﷺ ومعاداة من اطرح آراءهم . وقدم عليها قول المعصوم؟ فالله المستعان . وهو الموعد [٤] .

---

(١) (ذنوبه) ساقطة من ط ، أ ، م ، ح١ ، ح٢ ، د ، ق .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : عنهم .

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٩٩٤ ، وذكره الواحدي في أسباب النزول ١٠٨ ، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣١ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وإليه المرجع .

وقيل : الكبائر : الشرك وما يؤدي إليه . والصغائر : ما عدا الشرك من ذنوب أهل التوحيد(١) .

واحتج أرباب هذه المقالة بقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] .

واحتجوا بقوله ﷺ - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالىٰ - : « **يا ابن آدم ، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة**»(٢) .

واحتجوا أيضاً بالحديث الذي روي مرفوعاً وموقوفاً : «**الظلم ثلاثة دواوين: ديوان لا يغفر الله منه شيئاً وهو الشرك ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً وهو ظلم العباد بعضهم بعضاً ، وديوان لا يعبأ الله به شيئاً وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه**» (٣) .

فهذا جملة ما احتج به أرباب هذه المقالة ، ولا حجة لهم في شيء منه .

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤٢٠ .

(٢) رواه الترمذي ٥/ ٥٤٨ في كتاب الدعوات ، باب (فضل التوبة والاستغفار) ورقمه ٣٥٤٠ عن أنس وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وروىٰ نحوه عن أبي ذر البخاري في خلق أفعال العباد ص٨٦ ، وأحمد في مسنده ٥/ ١٧٢ ، والدارمي في سننه ٢/ ٢٣٠ في كتاب الرقاق ، باب (إذا تقرب العبد إلىٰ الله) ح٢٧٩١ ، والحاكم في المستدرك ٤/ ٢٦٩ وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(٣) سبق تخريجه ص٨٧٠ .

أما الآية : فإن غايتها التفريق بين الشرك وغيره ؛ لأن الشرك لا يغفر إلا بالتوبة منه . وأما ما دون الشرك : فهو مردود [١] إلىٰ مشيئة [٢] الله ، وهذا يدل علىٰ أن المعاصي دون الشرك ، وهذا حق . فإن أراد أرباب هذا القول هذا : فلا نزاع فيه . وإن أرادوا أن كل ما دون الشرك : فهو صغيرة في نفسه فباطل .

فإن قيل : فإذا كان الشرك وغيره مما تأتي عليه التوبة ، فما وجه الفرق بين الشرك وما دونه؟ وهل هما في حق التائب ، أم غير التائب؟ أم أحدهما في حق التائب والآخر لغيره؟ وما الفرق بين هذه الآية وبين قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

فالجواب : أن كل واحدة من الآيتين لطائفة ، فآية النساء : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء :٤٨] هي لغير التائبين في القسمين .

والدليل عليه : أنه فرق بين الشرك وغيره في المغفرة . ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام : أن الشرك يغفر بالتوبة ، وإلا لم يصح إسلامُ كافرٍ أبداً ، وأيضاً فإنه خصص مغفرة ما دون الشرك بمن يشاء . ومغفرة الذنوب للتائبين عامة لا تخصيص فيها فتخصص وتقيد [٣] ، وهذا يدل علىٰ أنه حكم

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : موكول .

(٢) في ش : إلىٰ المشيئة .

(٣) في ط والجميع : فخصص وقيد .

غير التائب .

وأما آية الزمر : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فهي في حق التائب ؛ لأنه أطلق وعمّم . فلم يخصها بأحد ، ولم يقيدها بذنب ، ومن المعلوم بالضرورة : أن الكفر لا يغفره ، وكثير من الذنوب لا [١] يغفرها . فعلم أن هذا الإطلاق والتعميم في حق التائب . فكل من [٢] تاب من أي ذنب كان : غفر له .

وأما الحديث الآخر : «**لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، أتيتك بقرابها مغفرة**» [٣] ، فلا يدل هذا [٤] علىٰ أن ما عدا الشرك كله صغائر ؛ بل يدل علىٰ أن من لم يشرك بالله شيئاً فذنوبه مغفورة كائنة ما كانت . ولكن ينبغي أن يعلم ارتباط أعمال [٥] القلوب بأعمال الجوارح ، وتعلقها بها . وإلا لم يفهم مراد الرسول ﷺ ، ووقع [٦] الخبط والتخبيط [٧] .

فاعلم أن هذا النفي [٨] العام للشرك - أن لا يشرك بالله شيئاً البتة - لا يصدر

---

(١) في م ، ح٢ : يغفرها .

(٢) (من) ساقطة من ق .

(٣) سبق تخريجه ص ٨٧٧ .

(٤) (هذا) ساقطة من ط .

(٥) في غ ، ح٢ ، ط : إيمان .

(٦) في ط : ويقع الخلط .

(٧) في م : التخليط .

(٨) (النفي) ساقطة من ج .

من مصرٍّ علىٰ معصية أبداً ، ولا يمكن مدمن الكبيرة والمصر علىٰ الصغيرة أن يصفو له التوحيد [1] ، حتىٰ لا يشرك بالله شيئاً ، هذا من أعظم المحال . ولا يُلتفت إلىٰ جدلي لا حظ له في [2] أعمال القلوب ؛ بل قلبه كالحجر أو أقسىٰ ، يقول : وما المانع؟ وما وجه الإحالة؟ ولو فرض ذلك واقعاً لم يلزم منه محال لذاته!

فدع هذا القلب المفتون بجدله وجهله . واعلم أن الإصرار علىٰ المعصية يوجب من خوف القلب من غير الله ، ورجائه لغير الله ، وحبه لغير الله ، وذله لغير الله ، وتوكله علىٰ غير الله : ما يصير به منغمساً في بحار الشرك ، والحاكم في هذا ما يعلمه الإنسان من نفسه ، إن كان له عقل . فإن ذل المعصية لابد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفاً من غير الله . وذلك شرك ، ويورثه محبة لغير الله ، واستعانة بغيره في الأسباب التي توصله إلىٰ غرضه ، فيكون عمله لا بالله ولا

---

(١) التوحيد لغة : هو مصدر وحد يوحد توحيداً أي جعله واحداً فالواو ، والحاء ، والدال أصله واحد يدل علىٰ الانفراد ، والله الواحد الأحد : ذو الوحدانية والتوحُّد .

انظر : معجم مقاييس اللغة ٢/ ٦٢٣ ، مادة : وحد ، ولسان العرب ١٥/ ٢٣٣ .

التوحيد في الشرع : قال السفاريني : هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً . انظر : لوامع الأنوار . وقال الشيخ سليمان بن عبدالله آل الشيخ : هو الاعتقاد بأن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له ، وواحد في إلهيته وعبادته ، لا ند له ، انظر : تيسير العزيز الحميد ص٣٢ ، ٣٣ .

(٢) في ط : من .

له ، وهذا حقيقة الشرك .

نعم[١] يكون معه توحيد أبي جهل[٢] ، وعُبَّاد الأصنام . وهو توحيد الربوبية . وهو الاعتراف بأنه لا خالق إلا الله ، ولو أنجىٰ هذا التوحيد وحده ، لأنجىٰ عباد الأصنام ، والشأن في توحيد الإلهية ، الذي هو[٣] الفارق بين المشركين والموحدين .

والمقصود : أن من لم يشرك بالله شيئاً يستحيل أن يلقىٰ الله بقراب الأرض خطايا مصراً عليها ، غير تائب منها ، مع كمال توحيده الذي هو غاية الحب والخضوع[٤] ، والخوف والرجاء للرب تعالىٰ .

وأما حديث الدواوين : فإنما فيه أن حق الرب تبارك وتعالىٰ لا يؤوده[٥] أن يهبه ويسقطه . ولا يحتفل[٦] به ، ويعتني به كحقوق عباده . وليس معناه : أنه لا يؤاخذ به البتة ، أو أنه كله صغائر . وإنما معناه : أنه يقع فيه من المسامحة

---

(١) في ط : قد يكون .

(٢) عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي ، أشد الناس عداوة للنبي ﷺ في صدر الإسلام، كان يسمىٰ أبا الحكم فدعاه المسلمون أبا جهل ، قتله المسلمون يوم بدر . ترجمته في : الكامل لابن الأثير ٢/ ٤٩ ، ٨٨ ، الأعلام ٥/ ٨٧ .

(٣) (هو) ساقطة من أ ، م ، غ ، ب ، ح١ .

(٤) في ط زيادة : والذل .

(٥) لا يئوده : أي لا يثقله ولا يشق عليه . يقال : آوىٰ فلان علىٰ كذا قواه عليه وأعانه . انظر : تفسير البغوي ١/ ٢٤٠ ، والمعجم الوسيط ١٠ مادة : أدا .

(٦) لا يحتفل به : أي لا يبالي به، والحَفْل: المبالاة. انظر: لسان العرب ٣/ ٢٤٨ ، مادة : حفل .

والمساهلة والإسقاط والهبة ، ما لا يقع [1] مثله في حقوق الآدميين .

فظهر أنه لا حجة لهم في شيء مما احتجوا به . والله أعلم .

وقالت فرقة : الصغائر ما دون الحدين[2] ، والكبائر : ما تعلق بها أحد الدين[3] .

ومرادهم بالحدين : عقوبة الدنيا والآخرة ، فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة في الدنيا ، كالزنا والشرب [4] ، والسرقة والقذف . أو عليه وعيد في الآخرة ، كأكل مال اليتيم ، والشرب في آنية الفضة [5] ، وقتل الإنسان نفسه ، وخيانة [6] أمانته ، ونحو ذلك . فهو من الكبائر . وصدق ابن عباس رضي الله عنهما [7]: «هي إلىٰ السبعمائة أقرب منها إلىٰ السبع » [8] .

---

(١) في د : في مثله .

(٢) في م : الحد .

(٣) انظر : الفتاوىٰ ١١/ ٦٥٠ ، ٦٥٨ .

(٤) في ح١ ، م : الشراب ، وفي ط : وشرب الخمر .

(٥) في ط زيادة : والذهب .

(٦) في ط ، أ ، ب ، د ، ق : وخيانته أمانته .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : في قوله .

(٨) سبق تخريجه ص٨٦٧ .

فصل

الكبيرة قد يقترن بها قرائن تجعلها صغيرة والعكس

وههنا أمر ينبغي التفطن له ، وهو أن «الكبيرة» قد يقترن بها – من الحياء والخوف ، والاستعظام لها – ما يُلحقُها بالصغائر . وقد يقترن بالصغيرة – من قلة الحياء ، وعدم المبالاة ، وترك الخوف ، والاستهانة بها – ما يُلحقُها بالكبائر ؛ بل يجعلها في أعلىٰ رتبها .

وهذا أمر مرجعه إلىٰ ما يقوم بالقلب . وهو قدر زائد علىٰ مجرد الفعل . والإنسان يعرف ذلك[1] من نفسه وغيره[2] .

وأيضاً فإنه يعفىٰ للمُحب ، ولصاحب الإحسان العظيم ، ما لا يعفىٰ لغيره ، ويسامح بما لا يسامح به غيره .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : انظر إلىٰ موسىٰ – صلوات الله وسلامه عليه – رمىٰ الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها[3] ، وجر بلحية نبي مثله[4] ورأسه وهو هارون[5] ، ولطم عين ملك الموت ففقأها[6] ، وعاتب ربه ليلة الإسراء في محمد ﷺ ورفعه

---

(١) (ذلك) ساقط من : ح١ ، أ ، ب ، غ .

(٢) في ط ، د : ومن غيره .

(٣) يشير إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وألقىٰ الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ...﴾ [الأعراف: ١٥٠] .

(٤) في ش : بلحية أخيه .

(٥) يشير إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿قال ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ..﴾ [طه : ٩٤] .

(٦) يقصد ما رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ قال : « أرسل الله ملك الموت إلىٰ موسىٰ عليه السلام

عليه[1] ، وربه تبارك وتعالىٰ يحتمل له ذلك كله ، ويحبه ويكرمه ويدلله ؛ لأنه قام لله[2] المقامات العظيمة في مقابلة أعدىٰ عدوٍ له ، وصدع بأمره ، وعالج أمة[3] القبط وأمة بني إسرائيل أشد المعالجة . فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر .

وانظر إلىٰ يونس بن متىٰ حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسىٰ ﷺ غاضب ربه مرة ، فأخذه وسجنه في بطن الحوت[4] . ولم يحتمل له ما احتمل لموسىٰ . وفرقٌ بين من إذا أتىٰ بذنب[5] ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما

فلما جاءه صكه فرجع إلىٰ ربه فقال : أرسلتني إلىٰ عبد لا يريد الموت ...» الحديث رواه البخاري ٦/ ٤٤٠ في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (وفاة موسىٰ وذكره) ورقمه ٣٤٠٧ ، ومسلم ٤/ ١٨٤٢ في كتاب فضائل الأنبياء ، باب (من فضائل موسىٰ) ورقمه ٢٣٧٢ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٣١٥ .

(١) يشير إلىٰ قول موسىٰ - عليه الصلاة والسلام - لما قيل له : ما يبكيك؟ - وذلك حين رفع النبي ﷺ ليلة الإسراء - قال : « أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر من أمتي...» الحديث رواه البخاري ٧/ ٢٠١ في كتاب مناقب الأنصار ، باب (المعراج) ورقمه ٣٨٨٧ ، ومسلم ١٥٠-١٤٩/ ١ في كتاب الإيمان ، باب) الإسراء برسول الله ... (ورقمه ١٦٤ ، وأحمد في مسنده٢٠٩-٢٠٨/ ٤ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : تلك .

(٣) في ط ، ق ، أ ، ب ، غ ، ح١ ، ح٢ : أمتىٰ القبط وبني إسرائيل .

(٤) يقصد قوله تعالىٰ : ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادىٰ في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ [الأنبياء : ٨٧] . وقوله سبحانه : ﴿فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلىٰ يوم يبعثون﴾ [الصافات : ١٤٣-١٤٤] .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : واحد .

يشفع له ، وبين من إذا [1] أتىٰ بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع . كما قيل :

وإذا الحبيبُ أتىٰ بذَنبٍ واحِدٍ جَاءَت[2] محَاسنهُ بِأَلفِ[3] شَفيعِ[4]

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله . وتذكر به [5] إذا وقع في الشدائد . قال تعالىٰ عن ذي النون : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات : ١٤٣-١٤٤] ، [وفرعون لما] [6] لم تكن له سابقة خير تشفع له ولهذا لما قال : ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ [يونس : ٩٠] قال له جبريل: ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩١] .

وفي المسند عنه ﷺ: «**إن ما تذكرون من جلال الله - من التسبيح ، والتكبير، والتحميد - يتعاطفن حول العرش ، لهن دوي كدوي النحل . يُذكّرن بصاحبهن . أفلا يحب أحدكم أن يكون له من يُذكّر به؟**»[7] . ولهذا من رجحت

---

(١) (إذا) ساقطة من ش .

(٢) في ب : أتت .

(٣) في ش : بكل .

(٤) ذكره الصفدي في ترجمة عتيق بن محمد الوراق التميمي ولم ينسبه لأحد ، لكن قال المليح بدل الحبيب . انظر : الوافي بالوفيات ١٩/ ٢٩٧ .

(٥) في أ ، ب ، غ ، ح١ ، م : بصاحبها .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل ، ش . وما أثبته من الجميع والسياق يقتضيه .

(٧) رواه أحمد في مسنده ٤/ ٢٦٨ ، ٢٧١ عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - وابن ماجه في سننه ٢/ ١٢٥٢ في كتاب الأدب ، باب (فضل التسبيح) ح٣٨٠٩ ، والحاكم في المستدرك ١/ ٦٨٢ في كتاب الدعاء والتكبير ح١٨٥٥ ، وقال : " وهذا حديث علىٰ شرط مسلم ، ووافقه الذهبي . وصححه الألباني - رحمه الله - ، انظر : صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣٢٠ .

حسناته علىٰ سيئاته أفلح ولم يُعذب ، ووهبت[1] له سيئاته لأجل حسناته ، ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد ما لا يغفر لصاحب الإشراك ؛ لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضىٰ أن يغفر له . ويسامحه ما لا يسامح به المشرك . وكلما[2] كان توحيد العبد أعظم . كانت مغفرة الله له أتم . فمن لقيه لا يشرك به شيئاً البتة غفر له ذنوبه كلها ، كائنة ما كانت . ولم يُعذب بها .

ولسنا نقول : إنه[3] لا يدخل النار أحدٌ من أهل التوحيد ؛ بل كثير منهم يدخل بذنوبه . ويعذب علىٰ مقدار جرمه ، ثم يخرج منها ، ولا تنافي بين الأمرين [لمن أحاط علماً بما قدمناه][4] .

ونزيد[5] ههنا إيضاحاً لعظم هذا المقام وشدة[6] الحاجة إليه .

فصل لا إله إلا الله وما يقع في القلب منها

اعلم أن أشعة « لا إله إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه ، فلها نور . وتفاوت أهلها في ذلك النور - قوة ، وضعفاً - لا يحصيه إلا الله تعالىٰ .

فمن الناس : من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس .

---

(١) في ق : ذهبت .

(٢) في ح١ ، ح٢ : فكلما .

(٣) في ح١ ، أ ، ب ، غ : أن الله .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من أ ، ب ، غ ، ح١ .

(٥) في ق ، ح٢ : وتزيده .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ق : من شدة ... .

ومنهم : من نورها في قلبه كالكوكب الدري .

ومنهم : من نورها في قلبه كالمشعل العظيم .

وآخر : كالسراج المضيء [1] وآخر كالسراج الضعيف .

ولهذا تظهر [2] الأنوار يوم القيامة بإيمانهم ، وبين [3] أيديهم ، علىٰ هذا المقدار ، بحسب ما هو [4] في قلوبهم من نور هذه الكلمة ، علماً وعملاً ، ومعرفة ، وحالاً .

وكلما عظم نور [5] الكلمة واشتد : أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته [وشدته. حتىٰ إنه ربما وصل إلىٰ حال لا يصادف معها [6] شبهة ولا شهوة، ولا ذنباً ، إلا أحرقه . وهذا [7] حال الصادق في توحيده . الذي لم يشرك بالله شيئاً . فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها . فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم [8] من كل سارق لحسناته ؛ فلا ينال منها السارق إلا علىٰ غرَّةٍ

---

(١) (وآخر كالسراج المضيء) : ساقط من ش ، م ، ح١ .

(٢) في ق ، د : زيادة : هذه .

(٣) في ح٢ : وبأيديهم .

(٤) في ط ، ب ، د ، ق : ما في قلوبهم .

(٥) في ط ، غ ، ح١ ، ح٢ ، ب : زيادة : هذه .

(٦) (معها) ساقطة من جميع النسخ سوىٰ ش .

(٧) ح٢ ، د : وهذه .

(٨) في ح٢ ، د : بالرجوم .

وغفلة لابد منها للبشر . فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه ، أو حصّل أضعافه بكسبه ، فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس . ليس كمن فتح لهم خزانته [1] ، وولىٰ الباب ظهره] [2] .

وليس التوحيد مجرد [3] إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله ، وأن الله رب كل شيء ومليكه ، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون ؛ بل التوحيد [4] يتضمن - من محبة الله ، والخضوع له ، والذل له ، وكمال الانقياد لطاعته ، وإخلاص العبادة له ، وإرادة وجهه الأعلىٰ بجميع الأقوال والأعمال ، والمنع ، والعطاء ، والحب ، والبغض : ما يحول بين صاحبه [5] وبين الأسباب الداعية إلىٰ المعاصي ، والإصرار عليها . ومن عرف [6] هذا ؛ عرف [7] قول النبي ﷺ : « **إن الله حرم علىٰ النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغي [8] بذلك وجه الله** » [9] ، وقوله :

---

(١) في ق ، د : خزانة أعماله .

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من أ ، ب ، غ ، ح١ .

(٣) (مجرد) ساقطة من أ ، ب ، غ ، م ، ح١ .

(٤) في أ ، ب ، ع ، ح١ ، ح٢ ، غ : بل لابد من توحيد .

(٥) في أ ، ح١ ، ب ، غ : العبد .

(٦) (هذا عرف) ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح١ .

(٧) في ط ، د ، ق ، ح١ ، ح٢ ، غ زيادة : أن .

(٨)(ينبغي) ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح١ .

(٩) رواه البخاري بأطول من هذا من حديث عتبان بن مالك ١/ ٥١٩ في كتاب الصلاة ، باب (المساجد في البيوت) ورقمه ٤٢٥ . ورواه مسلم كذلك ١/ ٤٥٥ في كتاب المساجد ، باب (الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر) ورقم ٢٦٣. ورواه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٤٤٩ .

«لا يدخل النار من قال : لا إله إلا الله »[١] وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت علىٰ كثير من الناس ، حتىٰ ظنها بعضهم منسوخة . وظنها بعضهم[٢] قبل ورود الأوامر والنواهي ، واستقرار الشرع وحملها بعضهم علىٰ نار المشركين والكفار . وأول بعضهم الدخول بالخلود . وقال : المعنىٰ لا يدخلها خالداً ، [ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة][٣] .

والشارع - صلوات الله وسلامه عليه - لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط . فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام . فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم . وهم تحت الجاحدين لها[٤] في الدرك الأسفل من النار . فلا بد من قول القلب ، وقول اللسان ، وقول القلب : يتضمن من[٥] معرفتها ، والتصديق بها ، ومعرفة حقيقة ما تضمنته - من النفي والإثبات ، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله ، المختصة به ، التي يستحيل ثبوتها لغيره ، وقيام هذا المعنىٰ بالقلب : علماً ومعرفة ويقيناً ، وحالاً : ما يوجب

---

(١) رویٰ نحوه مسلم في صحيحه ١/ ٦١-٦٢ في كتاب الإيمان ، باب (الدليل علىٰ أن من مات علىٰ التوحيد دخل الجنة قطعاً) ورقمه ٣٣ ، والترمذي في سننه ٥/ ٢٣ في كتاب الإيمان ، باب (ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله) ورقمه ٢٦٣٨ .

(٢) في ط زيادة : قيلت .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من أ ، ب ، غ ، ح١ .

(٤) في غ ، ح١ : بها .

(٥) (من) ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح١ .

تحريم قائلها علىٰ النار . وكل قول رتب الشارع ما رتب [عليه][1] من الثواب ، فإنما هو القول التام . كقوله ﷺ : «**من قال في يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة، حطت عنه خطاياه - أو غفرت له[2] ذنوبه - ولو كانت مثل زبد البحر**»[3] ، وليس هذا مرتباً علىٰ مجرد القول اللساني[4] .

نعم من قالها بلسانه ، غافلاً عن معناها ، معرضاً عن تدبرها ، ولم يواطىٰء قلبهُ لسانه . ولا عرف قدرها وحقيقتها . راجياً مع ذلك ثوابها . حطت من خطاياه بحسب ما في قلبه . فإن الأعمال [لا تتفاضل بصورها وعددها][5] وإنما تتفاضل بتفاضل[6] ما في القلوب[7] . فتكون صورة العملين واحدة . وبينهما في[8] التفاضل

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وما أثبته من ط والجميع .

(٢) في ط ، أ ، ، ب ، م ، ح١ ، ح٢ ، غ : أو غفر الله .

(٣) رواه البخاري ١١/ ٢٠٦ في كتاب الدعوات ، باب (فضل التسبيح) ح ٦٤٠٥ . ومسلم ٤/ ٢٠٧١ في كتاب الذكر والدعاء ، باب (فضل التهليل والدعاء) ح٢٦٩١ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٠٢ .

(٤) في ط ، ح١ ، أ ، م ، غ : قول اللسان . وفي ح٢ : القول باللسان .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من أ ، ب ، غ ، ح١ .

(٦) (بتفاضل) ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح١ .

(٧) كما قال النبي ﷺ : «**إن الله لا ينظر إلىٰ أجسادكم ولا إلىٰ صوركم ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم**» الحديث رواه مسلم ٤/ ١٩٨٦-١٩٨٧ في كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله ... ، ح٢٥٦٤ .

(٨) في ج : من .

كما بين السماء والأرض . والرجلان يكون مقامهما في الصف واحداً ، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض .

وتأملْ حديث البطاقة[1] التي توضع في كفة ، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها[2] مد البصر ، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات ، فلا يعذب .

ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة . وكثير منهم يدخل النار بذنوبه ، ولكن السر الذي ثَقّل بطاقة ذلك الرجل ، وطاشت لأجله السجلات ؛ لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات ، انفردت بطاقته بالثقل والرزانة .

وإذا أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنىٰ . فانظر إلىٰ ذكر من قلبه ملآن بمحبتك ، وذكر من هو معرض عنك غافل ساه ، مشغول بغيرك ، قد انجذبت دواعي قلبه إلىٰ محبة غيرك ، وإيثاره عليك .

---

(١) المراد بحديث البطاقة قول النبي ﷺ : « إن الله سيُخلِّصُ رجلاً من أمتي علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة . . . » . الحديث رواه أحمد في مسنده ٢/ ٢١٣ ، والترمذي في سننه ٥/ ٢٤ في كتاب الإيمان ، باب (ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله) ح٢٦٣٩ وقال : حسن غريب ، وابن ماجه ٢/ ١٤٣٧ في كتاب الزهد ، باب (ما يرجىٰ من رحمة الله يوم القيامة) ح٤٣٠٠ ، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٦ في كتاب الإيمان وقال : هذا حديث صحيح لم يُخرّج في الصحيحين وهو علىٰ شرط مسلم ، ووافقه الذهبي . وقال الألباني : صحيح . انظر : الصحيحة - ١/ ٥٢ .

(٢) (منها) ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح١ .

هل يكون ذكرهما لك واحداً؟ أم هل يكون ولداك اللذان هما بهذه المثابة ، أو عبداك ، أو زوجتاك ، عندك سواء؟

وتأمل ما قام بقلب[1] قاتل المائة[2] [3] من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند[4] السياق عن السير إلىٰ القرية[5] . وحملته - وهو في تلك الحال[6] - علىٰ أن جعل ينوء بصدره وهو [7] يعالج سكرات الموت . فهذا أمر آخر ، وإيمان آخر ، ولا حرم[8] ، ألحق[9] بالقرية الصالحة . وجعل من أهلها .

وقريب من هذا : ما قام بقلب البغي التي رأت[10] ذلك[11] الكلب [وقد اشتد

---

(١) (بقلب) ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح١ .

(٢) في أ ، ب ، غ ، ح١ المائة نفس .

(٣) يقصد قوله ﷺ : « كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ، ثم خرج يسأل ... » الحديث رواه البخاري ٦/ ٥١٢ في كتاب الأنبياء ، باب (٥٤) ورقمه ٣٤٧٠ ، ومسلم ٤/ ٢١١٨ في كتاب التوبة ، باب (قبول توبة القاتل وإن كثر قتله) ح٢٧٦٦ .

(٤) في غ : عن .

(٥) في ق ، د : القرية الصالحة .

(٦) في ق ، د زيادة : إلىٰ أن أوفدته إلىٰ منازل الصالحين وألحقته بأهل الصلاح حتىٰ جعل ...

(٧) (وهو) ساقط من : ط ، أ ، ب ، ح١ ، د ، ق ، غ ، ش .

(٨) (حرم) ساقط ساقط أ ، ب ، غ ، ح١ ، وفي ط وش : ولا جرم .

(٩) في ط : أن ألحق .

(١٠) أ ، ب ، غ ، ح١ : سقت .

(١١) (ذلك) ساقطة : أ ، ب ، غ .

به العطش يأكل الثرىٰ - فقام بقلبها ذلك الوقت][1] مع عدم الآلة[2]، وعدم المعين وعدم من[3] ترائيه بعملها- ما حملها علىٰ أن غررت[4] بنفسها في نزول البئر، وملء الماء في خفها، ولم تعبأ بتعرضه[5] للتلف. وحملها له[6] بفيها. وهو ملآن، حتىٰ أمكنها الرقي في[7] البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه وطرده[8] فأمسكت له الخف بيدها حتىٰ شرب. من غير أن ترجو منه جزاءً ولا شكوراً. فأحرقت أنوار هذا القدر[9] ما تقدم منها من البغاء، فَغُفر لها[10].

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من أ، ب، غ، ح١.

(٢) في ح٢: الأدلة.

(٣) (من) ساقط من: ق.

(٤) في ش: عزرت.

(٥) في ط، ح٢، م: تعرضها.

(٦) في ط: وحملها خفها.

(٧) في ط: من البئر.

(٨) (طرده) ساقطة من ط.

(٩) في ط، ق، د، أ، ب، غ، ح١ زيادة: من التوحيد.

(١٠) يشير إلىٰ قول النبي ﷺ: «بينما كلب يُطيف بِرَكيَّةٍ كاد يقتله العطش إذ رأته بغيٌ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فسقته، فُغفر لها به» رواه البخاري ٦/ ٥١١ في كتاب الأنبياء، باب ٤٥، ح٣٤٦٧، ومسلم ٤/ ١٧٦١ في كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم، ح٢٢٤٥، وأحمد في مسنده ٢/ ٥١٠.

فهكذا حال[1] الأعمال والعمال عند الله ، والعامل[2] في غفلة من[3] هذا الإكسير الكيماوي[4] ، الذي إذا[5] وضع منه مثقال[6] علىٰ قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهباً . والله المستعان .

فإن قيل : قد ذكرتم : أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره . ويعفىٰ للولي عما لا يعفىٰ لسواه . وكذلك العالم أيضاً ، يغفر له ما لا يغفر للجاهل . كما روىٰ الطبراني بإسناد جيد - مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ - : **«إن الله إذا جمع الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، قال للعلماء : إني كنت أعبد بفتواكم . وقد علمت أنكم كنتم تخلطون كما يخلط الناس ، وإني لم أضع علمي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم . اذهبوا فقد غفرت لكم»** [7] ، هذا معنىٰ الحديث . وقد روي مسنداً ومرسلاً .

---

(١) (حال) ساقطة من : ط .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : والغافل .

(٣) في ب ، د ، أ ، غ : عن .

(٤) في ح١ : لو .

(٥) الإكسير : مادة مركبة كان الأقدمون يزعمون أنها تحول المعدن الرخيص إلىٰ ذهب . انظر : المعجم الوسيط ، ٢٢ .

(٦) في ط ، ش زيادة : ذرة .

(٧) رواه الطبراني في الصغير ١/ ٣٥٤ ، والأوسط ٤/ ٣٠٢ عن أبي موسىٰ الأشعري . قال : قال رسول الله ﷺ : **« يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يميز العلماء فيقول : يا معشر العلماء إني لم أضع فيكم علمي وأنا أريد أن أعذبكم اذهبوا فقد غفرت لكم »** . قال الهيثمي في المجمع ١/ ١٢٦ ، رواه الطبراني وفيه موسىٰ بن عقبة وهو ضعيف جداً ، وقال العراقي في المغني :

فهذا الذي ذكرتم صحيح . وهو مقتضي الحكمة والجود والإحسان ، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره؟ كقوله : ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب : ٣٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء :٧٤-٧٥] أي لولا تثبيتنا لك كدت تركن إليهم[(١)] بعض الشيء . ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات][(٢)]أي أضعفنا[(٣)] لك العذاب في الدنيا والآخرة. وقال تعالىٰ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[(٤)] [الحاقة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦] أي لو أتي بشيء من عند نفسه لأخذنا[(٥)]

رواه الطبراني من حديث أبي موسىٰ بسند ضعيف. المغني بهامش إحياء علوم الدين ١٣/ ١ ورواه في الكبير ٨٤/ ٢ عن ثعلبة بن الحكم ، قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله للعلماء يوم القيامة إذا قعد علىٰ كرسيه لقضاء عباده إني لم أجعل علمي وحكمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم علىٰ ما كان منكم ولا أبالي» . قال الهيثمي في المجمع ١٢٦/١ : رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون .

(١) (إليهم) ساقطة من أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ق .

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من ح٢ .

(٣) في ط والجميع : ضاعفنا .

(٤) الوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه . انظر : لسان العرب ١٥/ ٢٠٩ مادة : وتن .

(٥) في ط ، أ ، ب ، ق زيادة : منه .

بيمينه . وقطعنا نياط[١] قلبه وأهلكناه . وقد أعاذه[٢] الله من الركون إلىٰ أعدائه بذرة[٣] من قلبه . ومن التقول عليه سبحانه . وكم من راكن إلىٰ أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أقره[٤] ولم يعبأ به . كأرباب البدع كلهم ، المتقولين علىٰ أسمائه وصفاته ودينه .

وما ذكرتم في قصة يونس ـ عليه السلام ـ هو من هذا الباب ، فإنه لم يسامح بغضبه . وسجن لأجلها في بطن الحوت[٥] . ويكفي حال أبي البَشَر حيث[٦] لم يسامح بلقمة . وكانت سببَ إخراجِه من الجنة[٧] .

كلام نفيس فيمن خصه الله بالولاية والقرب

والجواب[٨] : أن هذا أيضاً حق . ولا تنافي بين الأمرين . فإن من كَمُلت عليه نعمة الله ، واختصه منها بما لم يختص به غيره ، وأعطاه[٩] منها ما حرمه

---

(١) النَّياطُ : جمعه أنوطه ونياط القلب عرق غليظ علق به القلب من الوتين ، انظر : لسان العرب ١٤/ ٣٢٩ مادة (نوط) .

(٢) في ق : أعاذنا وهو خطأ .

(٣) في أ ،ب ، ح١ : بذكره كذا ، وفي ح٢ ، م : بذكره .

(٤) في ط : أمهله .

(٥) كما قال تعالىٰ : ﴿فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلىٰ يوم يبعثون﴾ [الصافات : ٤٣ ، ٤٤] .

(٦) (حيث) ساقطة من أ ، ح٢ .

(٧) كما قال تعالىٰ : ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصىٰ آدم ربه فغوىٰ ... ﴾ [طه : ١٢١] .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش : فالجواب .

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق ، د : في إعطائه .

غيره . فحُبِيَ بالإنعام ، وخص بالإكرام ، وخص بمزيد التقريب ، وجعل في منزلة الولي الحبيب ، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص: بأن يراعي مرتبته من أدنىٰ مسوس[1] وقاطع. فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه ، واتخاذه لنفسه ، واصطفائه[2] علىٰ غيره . تكون[3] حقوق وليه وسيده عليه أتم ، ونعمه عليه أكمل . والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره . فهو إذا غفل أو أخل[4] بمقتضىٰ مرتبته نبه[5] بما لم ينبه عليه البعيد البراني ، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضاً . فيجتمع في حقه الأمران .

وإذا أردت معرفة اجتماعهما ، وعدم تناقضهما ، فالواقع شاهد به ، فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لم يسامح به من ليس في منزلتهم ، ويؤاخذهم[6] ويؤدبهم بما لم يؤاخذ[7] به غيرهم. وقد ذكرنا شواهد هذا، وهذا، ولا تناقض بين الأمرين .

وأنت إذا كان لك عبدان ، أو ولدان ، أو زوجتان . أحدهما : أحب إليك من

---

(١) في ط والجميع : مشوش .

(٢) في ق : واصطفاه به .

(٣) في ق : بل يكون .

(٤) في ط ، أ ، ب ، غ ، ح١ : وأخل .

(٥) (نبه) ساقطة من : أ ، غ ، ب ، م ، ح١ ، ق .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش ، د : ويأخذهم .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق : يأخذ .

الآخر ، وأقرب إلىٰ قلبك ، وأعز عليك : عاملته بهذين الأمرين . فاجتمع[1] في حقه المعاملتان بحسب قربه منك ، وحبك له ، وعزته عليك . فإذا نظرت إلىٰ كمال إحسانك إليه ، وإتمام نعمتك عليه ؛ اقتضت معاملته بما لا يعامل[2] به من دونه ، من التنبيه وعدم الإهمال . وإذا نظرت إلىٰ إحسانه و محبته لك ، وطاعته وخدمته ، وكمال عبوديته ونصحه ؛ وهبت له وسامحته . وعفوت عنه ، بما لا تفعله مع غيره . فالمعاملتان بحسب ما منك وما منه .

وقد ظهر اعتبار هذا المعنىٰ في الشرع ، حيث - جعل حد من - أنعم عليه بالتزوج إذا تعداه إلىٰ الزنا : الرجم[3] ، وحد من لم يُعطِه هذه النعمة الجلد[4] وكذلك ضاعف الحد علىٰ الحر الذي قد ملكه نفسه ، وأتم عليه نعمته ، ولم يجعله مملوكاً لغيره ، وجعل حد العبد المنقوص بالرق ، الذي لم تحصل[5] له

---

(١) في ط والجميع : واجتمع .

(٢) في ط ، ب ، د ، أ ، ح١ : لا تعامل .

(٣) كما ثبت في الحديث أن رجلاً من أسلم أتىٰ النبي ﷺ فحدثه أنه قد زنىٰ ، فشهد علىٰ نفسه أربع شهادات ، فأمر به رسول الله ﷺ ، فرجم وكان قد أحصن . رواه البخاري ١٢/ ١١٧ في كتاب الحدود ، باب (رجم المحصن) ح٦٨١٤ .

(٤) كما قال تعالىٰ : ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ... ﴾ الآية [النور : ٢] ، وثبت من حديث زيد بن خالد الجهني قال : «سمعت النبي ﷺ يأمر فيمن زنىٰ ولم يُحصن جلد مائة وتغريب عام » . رواه البخاري ١٢/ ١٥٦ في كتاب الحدود باب (البكران يجلدان وينفيان) ح٦٨٣١ .

(٥) في ط ، ح١ ، ح٢ ، غ ، ق ، د : يحصل .

هذه النعمة : نصف ذلك[١] .

فسبحان من بهرت حكمته في خلقه وأمره وجزائه عقول العالمين ، وشهدت بأنه أحكم الحاكمين .

لله سرٌّ تحت كلِّ لطيفة ... فأخو البصائر غائص يتعقَّل[٢][٣]



فصل

أجناس ما يُتاب منه

في أجناس ما يتاب منها[٤] ولا يستحق العبد اسم التائب حتىٰ يتخلص[٥] منها . وهي اثنا عشر جنساً مذكورة في كتاب الله تعالىٰ ، هي أجناس المحرمات : الكفر ، والشرك ، والنفاق ، والفسوق ، والعصيان ، والإثم ، والعدوان ، والفحشاء ، والمنكر ، والبغي ، والقول علىٰ الله بلا علم ، واتباع[٦] سبيلٍ غير سبيله .

---

(١) كما قال تعالىٰ : ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ... ﴾ إلىٰ قوله :﴿فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما علىٰ المحصنات من العذاب﴾ [النساء : ٢٥] .

(٢) في غ : يتعلق وفي ط : يتملق .

(٣) لم أقف له علىٰ قائل .

(٤) في ط ، ح١ ، ح٢ ، د ، ق : منه .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : يتخلص .

(٦) في ط ، ق ، ح٢ ، واتباع غير سبيل المؤمنين ، وفي د : واتباع سبيل غير المؤمنين ، وفي ح١ ، أ ، ب ، غ : واتباع سبيل غير سبيل المؤمنين .

فهذه الاثنا عشر جنساً عليها مدار كل ما حرم الله تعالىٰ ، وإليها انتهىٰ [١] العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد يكون في الرجل أكثرها [٢] وأقلها ، أو واحدة منها ، وقد يعلم بذلك [٣] . وقد لا يعلم .

فالتوبة النصوح [٤] : هي بالتخلص منها [٥] ، وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها .

ونحن نذكرها ، ونذكر ما اجتمعت فيه وما افترقت . لتتبين [٦] حدودها وحقائقها . والله الموفق لما وراء ذلك ، كما وفق له ولا حول ولا قوة إلا به [٧] وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب . والعبد أحوج شيءٍ إليه .

أنواع الكفر

فأما « الكفر » [٨] فنوعان : كفر أكبر ، وكفر أصغر .

---

(١) في ط والجميع : انتهاء .

(٢) في ق : أو أقلها .

(٣) في ط : ذلك .

(٤) والتوبة النصوح هي كما قال عمر بن الخطاب وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ : هي التوبة من الذنب لا تعود إليه أبداً . انظر : الدر المنثور ٨/ ٢٢٧ .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : والتحصن والتحرز من مواقعتها .

(٦) في أ ، ب : لتبين . وفي م ح٢ : لتبيين . وفي ق ، ش : لنبين .

(٧) في ط : بالله .

(٨) الكفر في اللغة : مأخوذ من قولهم كفر ؛ إذا غطىٰ وستر ، ولهذا سُمي الليل كافراً ؛ لأنه يغطي كل شيء بسواده ، والزراع كفار ؛ لأنهم يغطون الحب بالتراب . لسان العرب ١٢/ ١١٨ ، مادة: كفر . وكفر في الدين معناه : غطىٰ علىٰ قلبه بالرين عن الإيمان ، أو غطىٰ الحق بأقواله

فالكفر الأكبر : هو الموجب للخلود في النار .

والأصغر : موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود . كما في قوله تعالىٰ - وكان مما يتلىٰ ثم[1] نسخ[2] لفظه - «لا ترغبوا عن آبائكم . فإنه كفر بكم»[3] وقوله ﷺ في الحديث الصحيح : «اثنتان في أمتي ، هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة»[4] وقوله في السنن : «من أتىٰ امرأة في دبرها فقد كفر بما

وأفعاله . تفسير ابن عطية ١/ ١٥١ .

وأما الكفر في الاصطلاح : فهو علىٰ قسمين أكبر وأصغر كما أشار الإمام ابن القيم رحمه الله سواء كان عملياً أو اعتقادياً .

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : فنسخ .

(٢) النسخ في اللغة : إبطال الشيء وإقامة آخر مكانه ، وقيل : تبديل الشيء من الشيء وهو غيره . وقيل : نقل الشيء من مكان إلىٰ مكان وهو هو . انظر : لسان العرب ١٤/ ١٢١ مادة نسخ .

النسخ في الاصطلاح : عرفه السلف بما أشار إليه ابن القيم حين قال : ومراد عموم أو إطلاق أو غير ذلك . انظر : مجموع الفتاوىٰ ١٤/ ١٠١ . وقال ابن القيم : مراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ ، رفع الحكم بجملته تارة وهو اصطلاح المتأخرين ، ورفع دلالة العام والمطلق والظاهر تارة أخرىٰ . إما بتخصيص عام أو تقييد مطلق وحمله علىٰ المقيد وتفسيره وتبيينه ، حتىٰ إنهم يسمون ، الاستثناء والشرط والصفة ناسخاً لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر ... ومن تأمل كلامهم رأىٰ من ذلك فيه ما لا يحصىٰ ، وزال عنه إشكالات أوجبها حمل كلامهم علىٰ الاصطلاح الحادث المتأخر . انظر : إعلام الموقعين ١/ ٣٥ .

(٣) رواه عبدالرزاق في مصنفه ٥/ ٤٤١ ح٩٧٥٨ عن عمر والإمام أحمد في مسنده ١٠/ ٤٧ .

(٤) رواه مسلم ١/ ٨٢ في كتاب الإيمان ، باب (إطلاق اسم الكفر علىٰ الطعن في النسب والنياحة) ح٦٧ بلفظ (ثنتان في الناس) ، وأحمد في مسنده ٢/ ٤٤١ .

أنزل علىٰ محمد»[1] ، وفي الحديث الآخر : «من أتىٰ كاهناً أو عرافاً ، فصدقه بما يقول . فقد كفر بما أنزل الله علىٰ محمد»[2] ، وقوله : «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[3]، وهذا تأويل ابن عباس وعامة أصحابه[4]. في قوله تعالىٰ : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة : ٤٤] ، قال ابن عباس : «وليس بكفر ينقل عن الملة؛ بل إذا فعله فهو[5] به كفر[6] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٤٠٨ ، والدارمي في سننه ٢/ ٢٠٧ في كتاب الطهارة باب (من أتىٰ امرأة في دبرها) ح١١٤١ ، وأبو داود في سننه ٤/ ٢٢٥ في كتاب الطب باب (في الكاهن) ح ٣٩٠٤ ، وابن ماجه في سننه ١/ ٢٠٩ في كتاب الطهارة باب (النهي عن إتيان الحائض ح٦٣٩، والترمذي في سننه ١/ ٢٤٢ في كتاب الطهارة باب (ما جاء في كراهية إتيان الحائض) ح ١٣٥ وفيه زيادة « حائضاً أو كاهناً » وقال : لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث حكيم الأثرم عن أبي تميمة الهجيمي عن أبي هريرة . وقال الألباني في الإرواء : ٦٨/ ٧ صحيح .

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٤٢٩ ، والحاكم في المستدرك١/ ٤٩ في كتاب الإيمان وقال : صحيح علىٰ شرطهما ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وقال الألباني في صحيح الجامع٥/ ٢٢٣ : صحيح .

(٣) رواه البخاري١/ ٢١٧ في كتاب العلم ، باب الإنصات للعلماء ، ح١٢١ ، ومسلم١/ ٨١ في كتاب الإيمان ، باب بيان معنىٰ قول النبي : « لا ترجعوا بعدي كفاراً ... » ح٦٥ ، وأحمد في مسنده ١/ ٤٠٢ .

(٤) في ط ، ب ، أ ، غ ، ح١ : وعامة الصحابة .

(٥) (فهو) ساقطة من : ق .

(٦) في أ : كافر .

وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر»[١] وكذلك قال طاووس[٢] .

وقال[٣] عطاء : «هو كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق»[٤] .

ومنهم : من تأول الآية علىٰ ترك الحكم بما أنزل الله جاحداً له .

وهو قول عكرمة[٥] وهو تأويل مرجوح . فإن نفس جحوده كفر ، سواء حكم أو لم يحكم .

ومنهم : من تأولها علىٰ ترك الحكم بجميع ما أنزل الله . قال : ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام[٦] .

وهذا تأويل عبد العزيز الكناني[٧] . وهو أيضاً بعيد . إذ الوعيد علىٰ نفي الحكم بالمنزل[٨] . وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه .

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره ٤/ ٥٩٦ .

(٢) انظر : المرجع السابق ٤/ ٥٩٦ .

(٣) (وقال) ساقطة من : ح٢ .

(٤) انظر : تفسير ابن جرير ٤/ ٥٩٦ .

(٥) انظر : تفسير البغوي ٢/ ٤١ .

(٦) انظر : تفسير البغوي ٢/ ٤١ ، وتفسير القرطبي ٦/ ١٩٠ .

(٧) عبد العزيز بن يحيىٰ بن عبد العزيز الكناني المكي ، كان من أهل العلم والفضل ، صحب الشافعي وتفقه عليه ، قدم بغداد أيام المأمون وجرت بينه وبين بشر المريسي مناظرة في القرآن وينسب إليه كتاب الحيدة . توفي سنة ٢٤٠هـ .

ترجمته في : تاريخ بغداد ١٠/ ٤٤٩ ، تهذيب التهذيب ٦/ ٣٦٣ ، شذرات الذهب ٢/ ٩٥ .

(٨) في غ : بالنزول .

ومنهم : من تأولها علىٰ الحكم بمخالفة النص ، تعمداً من غير جهل به ولا خطأ في التأويل . حكاه البغوي عن العلماء عموماً[١] .

ومنهم : من تأولها علىٰ أهل الكتاب . وهو قول قتادة[٢] والضحاك وغيرهما[٣] . وهو بعيد[٤] ، خلاف ظاهر اللفظ . فلا يصار إليه .

ومنهم : من جعله كفراً ينقل عن الملة[٥] .

حكم الحاكم بغير ما أنزل الله

والصحيح : أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين ، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم . فإنه[٦] إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة ، وعدل عنه معصية[٧] ، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة . فهذا[٨] كفر

---

(١) انظر : تفسير البغوي ٢/ ٤١ .

(٢) أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي البصري، الحافظ قدوة المفسرين والمحدثين ، كان ضريراً وكان من أوعية العلم ، ويضرب به المثل في قوة الحفظ ، توفي سنة ١١٧هـ . ترجمته في : السير ٥/ ٢٦٩ ، البداية والنهاية ٩/ ٣٢٥ ، شذرات الذهب ١/ ١٥٣ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٤/ ٥٩٢ - ٥٩٣ .

(٤) في ط زيادة : وهو .

(٥) هذا هو قول الخوارج . انظر : الشريعة للآجري ٢٧ ، والتمهيد لابن عبد البر ١٧/ ١٦ ، وتفسير القرطبي ٦/ ١٩١ .

(٦) في أ : فإن اعتقد .

(٧) في ط : عصياناً .

(٨) في غ : فهو .

أصغر . وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخيَّر فيه. مع تيقنه أنه حكم الله تعالىٰ. فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه : فهذا مخطئ ، له حكم المخطئين(١) .

---

(١) الحكم بغير ما أنزل الله من المسائل التي تكلم فيها العلماء وبينوا الصُوَر التي يكون الحاكم فيها كافراً كفراً أكبر أو أصغر . فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - النصوص التي أمرت الرسول ﷺ وغيره بالحكم بما أنزل الله ثم قال : «وأمره أن يحكم بما أنزل الله ، وحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله ، وأخبره أن ذلك هو حكم الله ، ومن ابتغىٰ غيره فقد ابتغىٰ حكم الجاهلية وقال : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة : ٤٤] لا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله علىٰ رسوله فهو كافر ، فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر ؛ فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل ، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم ؛ بل كثير من المنتسبين إلىٰ الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله سبحانه وتعالىٰ كسوالف البادية وكأوامر المطاعين فيهم ، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة ، وهذا هو الكفر ، فإن كثيراً من الناس أسلموا ، ولكن مع هذا لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التي يأمر بها المُطاعون ، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز الحكم إلا بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك ؛ بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار وإلا كانوا جهالاً كمن تقدم أمرهم .
- إلىٰ قوله - : والمقصود أن الحكم بالعدل واجب مطلقاً في كل زمان ومكان علىٰ كل أحد ولكل أحد ، والحكم بما أنزل الله علىٰ محمد ﷺ هو عدل خاص ، وهو أكمل أنواع العدل وأحسنها ، والحكم به واجب علىٰ النبي ﷺ وكل من اتبعه ، ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر وهذا واجب علىٰ الأمة في كل ما تنازعت فيه من الأمور الاعتقادية والعملية قال تعالىٰ : ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ [البقرة ٢١٣] انظر : منهاج السنة ١٣١ - ١٣٠/ ٥ .
وانظر لمزيد من التفصيل في هذه المسألة : كتاب الصلاة للإمام ابن القيم ٥٧ ، ورسالة

والقصد : أن المعاصي كلها نوع من [1] الكفر الأصغر . فإنها ضد الشكر ، الذي هو العمل بالطاعة . فالسعي : إما شكر ، وإما كفر ، وإما ثالث . لا من هذا ولا من هذا . والله أعلم .

فصل

أنواع الكفر الأكبر

و«أما الكفر الأكبر» فخمسة أنواع : **كفر تكذيب ، وكفر استكبار وإباء مع التصديق ، وكفر إعراض ، وكفر شك ، وكفر نفاق**[2] .

كفر التكذيب

فأما كفر التكذيب : فهو اعتقاد كذب الرسول [3] وهذا القسم قليل في الكفار . فإن الله تعالىٰ أيد رسله ، وأعطاهم من البراهين والآيات علىٰ صدقهم ما أقام به الحجة . وأزال به المعذرة . قال تعالىٰ عن قوم [4] فرعون : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل : ١٤] وقال لرسوله ﷺ : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، وتحذير أهل الإيمان من الحكم بغير ما أنزل الرحمن لإسماعيل الخطيب الحسني ، وإزالة الستار عن الجواب المختار لهداية المحتار للشيخ العثيمين ٨٨ ، والحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه للدكتور عبدالرحمن المحمود .

(١) في ط : من نوع الكفر الأصغر ، وفي أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ح٢ : كلها نوعان الأكبر والأصغر .

(٢) انظر هذه الأقسام في تفسير البغوي ١/ ٤٨ .

(٣) في غ ، ط : الرسل .

(٤) في ط : عن فرعون وقومه .

وإن سُمي هذا [1] كفر تكذيب أيضاً فصحيح . إذ هو تكذيب باللسان .

كفر الإباء والاستكبار

وأما كفر [2] **الإباء والاستكبار** . فنحو كفر إبليس . فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله [3] بالإنكار . وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار . ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول ، وأنه جاء بالحق من عند الله ، ولم ينقد له إباءً واستكباراً ، وهو الغالب علىٰ كفر أعداء الرسل ، كما حكىٰ الله سبحانه عن فرعون وقومه : ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون : ٤٧] وقول الأمم لرُسُلِهم : ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم : ١٠] ، وقوله : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: ١١] وهو كفر اليهود كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة : ٨٩] وقال : ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة : ١٤٦] وهو كفر أبي طالب [4] أيضاً. فإنه صدقه ولم يشك في صدقه. ولكن أخذته الحمية، وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم ، ويشهد عليهم بالكفر .

كفر الإعراض

وأما **كفر الإعراض** : فأن [5] يُعرِضَ بسمعه وقلبه عن الرسول ، لايصدقه ولا

---

(١) في ق : بهذا .

(٢) (كفر) ساقطة من : غ .

(٣) في ق : ولا ما قابله .

(٤) أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم القرشي عم النبي ﷺ ، وكافله ومربيه ، دعاه النبي ﷺ إلىٰ الإسلام فامتنع خوفاً من أن تعيره العرب بتركه دين آبائه . مات علىٰ الشرك وذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات . انظر : البداية والنهاية ٣/ ١٢٠ - ١٢٣ ، الأعلام ٤/ ١٦٦ .

(٥) في ح٢ : فأنه .

يكذبه ؛ ولا يواليه ولا يعاديه . ولا يصغي إلىٰ ما جاء به البتة ، كما قال أحد بني عبد ياليل[1] للنبي ﷺ : «والله لا [2] أقول لك كلمة . إن كنت صادقاً ، فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك . وإن كنت كاذباً ، فأنت أحقر من أن أكلمك»[3] .

كفر الشك

وأما كفر الشك : فإنه لا يجزم بصدقه ولا بكذبه ؛ بل يشك في أمره . وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض [4] من النظر في آيات صدقه[5] جملة . فلا يسمعها ولا يلتفت إليها ، وأما مع التفاته إليها ، ونظره فيها ؛ فإنه لا يبقىٰ معه شك ؛ لأنها مستلزمة للصدق ، ولا سيما بمجموعها . فإن دلالتها علىٰ الصدق كدلالة الشمس علىٰ النهار[6] .

---

(١) عبد ياليل بن عمرو بن عمير الثقفي ، أحد ثلاثة إخوة من سادة ثقيف ، وفد عليهم النبي ﷺ بعد موت أبي طالب يلتمس منهم النصر ، فدعاهم إلىٰ الله وردوا عليه دعوته . وكان عبد ياليل بن عمرو أحد بني ثقيف الذين وفدوا علىٰ النبي ﷺ سنة تسع من الهجرة ، وأسلموا عنده : انظر : تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢/ ٣٤٤ ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/ ٦٢ ، ١٩٣ .

(٢) (لا) ساقطة من : ط .

(٣) السيرة النبوية ٢/ ٦٠ - ٦١ ، البداية والنهاية ٣/ ١٣٣ .

(٤) في المجموع سوىٰ ش ، ط : بالإعراض .

(٥) في ط : صدق الرسول ﷺ .

(٦) كما في الحديث الصحيح : « **ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ** ...» الحديث . رواه البخاري ٩/ ٣ في كتاب فضائل القرآن باب (كيف نزل الوحي ...) ح٤٩٨١ . ومسلم في ١/ ١٣٤ في كتاب الإيمان، (باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ) ح١٥٢ .

كفر النفاق

وأما كفر النفاق : فأن[1] يظهر بلسانه الإيمان ، وينطوي بقلبه علىٰ التكذيب. فهذا هو النفاق الأكبر . وسيأتي[2] أقسامه إن شاء الله تعالىٰ .

فصل

أنواع كفر الجحود

وكفر الجحود نوعان : كفر مطلق عام ، وكفر مقيد خاص .

فالمطلق : أن يجحد جملة ما أنزل[3] الله ، ورسالة[4] الرسول[5] .

والخاص المقيد: أن يجحد فرضاً من فروض الإسلام ، أو تحريم محرم[6] من محرماته ، أو صفةً وصف الله بها نفسه ، أو خبراً أخبر الله به . عمداً ، أو تقديماً لقول من خالفه عليه لغرض[7] من الأغراض .

وأما جحد ذلك جهلاً ، أو تأويلاً يُعذر فيه صاحبه ، فلا يكفر صاحبه به[8] ، كحديث الذي جحد قدرة الله عليه . وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح .

---

(١) في الجميع سوىٰ ش ، غ ، ق : فهو أن .

(٢) في ط ، أ ، ب ، د ، ح١ ، ح٢ ، ق زيادة : بيان .

(٣) في ط : أنزله .

(٤) في ط : وإرساله .

(٥) في ح١ : الرسل .

(٦) (محرم) ساقطة من : ق .

(٧) في الجميع سوىٰ ط : بغرض .

(٨) «به» ساقطة من : ش ، ح٢ .

ومع هذا[1] غفر الله له ، ورحمه لجهله[2][3] إذ[4] كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه . لم[5] يجحد قدرة الله علىٰ إعادته عناداً أو تكذيباً .

* * *

(١) في جميع النسخ عدا ش زيادة : فقد وفي ح١ ح٢ ، أ ، ب ، م ، ق د : فما تلافاه أن غفر .

(٢) في الجميع سوىٰ غ ، ط : بجهله .

(٣) رواه البخاري ٦/ ٤٩٤ في كتاب الأنبياء باب (ما ذكر عن بني إسرائيل) ح٣٤٥٢ ، ومسلم ٤/ ٢١١١ في كتاب التوبة باب (في سعة رحمة الله) ح٢٧٥٧ .
وأحمد في مسنده ١/ ٤ - ٥ ، ٥/ ٣٨٣ .

(٤) « إذ » ساقطة من : ق .

(٥) في ط : ولم .

فصل

أنواع الشرك

وأما الشرك [1] ، فهو نوعان : أكبر وأصغر .

فالأكبر : لا يغفره الله إلا بالتوبة منه . وهو أن يتخذ من دون الله نِداً ، يحبه كما يحب الله . وهو الشرك الذي تضمَّن تسوية آلهة المشركين برب العالمين . ولهذا قالوا لآلهتهم في النار ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء : ٩٧ ، ٩٨] . مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل

(١) الشرك في اللغة : يعني الخلط والضم والشِّرْكَة والشَّرِكَةُ سواء مخالطة الشريكين ، انظر : لسان العرب ٧/ ٩٩ ، مادة : شرك .

قال الراغب الأصفهاني : هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعداً عيناً كان ذلك الشيء أو معنىٰ كمشاركة الإنسان والفرس في الحيوانية . انظر : المفردات للراغب ٢٥٩ .

ومعنىٰ الشرك في الشرع : هو جعل شريك مع الله ، إما في حقوقه وإما في خصائصه ، وحقوقه هي : عبادته والتأله له وحده ، وأما خصائصه فهي التي اقتضتها ربوبيته من الخلق والرزق والإحياء والإماتة والنفع والضر ونحوها . انظر : الدين الخالص ١/ ٧٨ ، وحاشية كتاب التوحيد لابن قاسم ١٥ .

هذا من حيث الوقوع بمعنىٰ أن هناك من يجعل شريكاً مع الله في ربوبيته وهناك من يجعل شريكاً له في إلهيته . والشرك من جهة الإشراك ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام وهي ترجع إلىٰ أقسام التوحيد الثلاثة .

أما من جهة الحكم فهو قسمان : شرك أكبر وشرك أصغر وهو الذي ذكره ابن القيم هنا .

انظر : الفتاوىٰ ١/ ٩١ ، وتيسير العزيز الحميد ص٤٣ – ٤٥ .

شيء . وربه [1] ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق، ولا تميت ولا تحيي [2] وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر [3] مشركي العالم ؛ بل كلهم . يحبون معبوداتهم [4] ويعظمونها ويوالونها من دون الله . وكثير منهم - بل أكثرهم - يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله . ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده . ويغضبون لمنتقص معبودهم [5] وآلهتهم - من المشايخ - أعظم ما تغضبون [6] إذا انتقص أحدٌ رب العالمِين ، وإذا انتقصت [7] حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوديهم غضبوا غضب الليث إذا حرب [9] [8] ، وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها ؛ بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئاً رضوا عنه ، ولم تتنكر له قلوبهم . وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة ، وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده

---

(١) «وربه» ساقطة من : ش .

(٢) في ط : ولا تحي ولا تميت .

(٣) « أكثر» ساقطة من : ح٢ ، وفي ق : أكبر .

(٤) في ط والجميع : معبوديهم .

(٥) في ط : معبوديهم .

(٦) في ط ، أ ، ب ، ق ، د : مما يغضبون .

(٧) في ط أ ، ب ، ح١ ح٢ ، د : انتهكت .

(٨) في ط ، ب ، ش : حرد .

(٩) حَرِبَ الرَّجُلُ ، بالكسر يَحْرَبُ حَرْباً : اشتد غضبه . انظر : لسان العرب ٣/ ١٠١ ، مادة حرب .

من دون الله علىٰ لسانه[١] إن قام وإن قعد، وإن عثر وإن مرض وإن استوحش[٢]. فذكر إلهه ومعبوده من دون الله هو الغالب علىٰ قلبه ولسانه . هو لا ينكر ذلك ، ويزعم أنه باب حاجته إلىٰ الله ، وشفيعه [٣] عنده ، ووسيلته [٤] إليه .

---

(١) في ط زيادة : ديدناً له .

(٢) في الأصل ، غ : استوحىٰ . ولا يستقيم المعنىٰ بها وما أثبته من ط وباقي النسخ .

(٣) الشفيع : هو الساعي في الشفاعة . والشفاعة في اللغة : قال ابن فارس : الشين والفاء والعين أصل صحيح يدل علىٰ مقارنة الشيئين، والشفع خلاف الوتر. معجم مقاييس اللغة ٣/ ٢٠١ مادة: شفع . وشفع الوتر من العدد شفعاً : صيره زوجاً ، وشفع لي يشفع شفاعة وتشفّع : طلب ، يقال : شفع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع . والمُشفِّع الذي يقبل الشفاعة . والمُشفَّع الذي تقبل شفاعته . والشفاعة : كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره . والشافع : الطالب لغيره فيشفع به إلىٰ المطلوب . انظر : لسان العرب ٧/ ١٥٠ مادة (شفع) ، والنهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٨٥ .

والشفاعة شرعاً : عرفها ابن الأثير بقوله : هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم . النهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٨٥ . وعرفها السفاريني بقوله : هي سؤال الخير للغير . انظر: لوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٠٤ . وعرفها الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله – بقوله هي : التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة . انظر : شرح لمعة الاعتقاد ١٢٨ . وهذا التعريف أشمل من التعريفين السابقين؛ لأن الأول يحصر طلب الشفاعة بدرء المفاسد . والثاني يحصره بجلب المصالح. انظر: الشفاعة عند أهل السنة والرد علىٰ المخالفين فيها د. ناصر الجديع ١٥ .

(٤) الوسيلة : المنزلة عند الملك ، والدرجة والقربة ، ووسَّلَ إلىٰ الله توسيلاً : عمل عملاً تقرَّب به إلىٰ الله ، والواسل : الراغب إلىٰ الله . انظر : لسان العرب ١٥/ ٣٠١ مادة : وسل .

والوسيلة أو التوسل في الشرع : هي التقرب إلىٰ الله تعالىٰ بطاعته وعبادته واتباع أنبيائه ورسله وبكل عمل يحبه ويرضاه . قال تعالىٰ : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه

وهكذا كان عباد الأصنام سواء . وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم ، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم . فأولئك كانت آلهتهم من الحجر

الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾ [المائدة : ٣٥] .

قال ابن عباس : الوسيلة : القربة ، وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. انظر : تفسير الطبري ٤/ ٥٦٧ ، ٨/ ٩٧ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : « فابتغاء الوسيلة إلىٰ الله إنما يكون لمن توسل إلىٰ الله بالإيمان بمحمد واتباعه ... وهذا التوسل بالإيمان به وطاعته فرض علىٰ كل أحد في كل حال باطناً وظاهراً ، في حياة رسول الله ﷺ وبعد موته ، في مشهده ومغيبه لا يسقط التوسل بالإيمان به وبطاعته عن أحد من الخلق في حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه ولا بعذر من الأعذار . ولا طريق إلىٰ كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه إلا التوسل بالإيمان به وبطاعته» .

وقال أيضاً : «والوسيلة التي أمرنا الله أن نبغيها إليه هي التقرب إلىٰ الله بطاعته ، وهذا يدخل فيه كل ما أمرنا الله به ورسوله ، وهذه الوسيلة لا طريق لنا إليها إلا اتباع النبي ﷺ بالإيمان به وطاعته» انظر : قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص٥ ، ٨٥ .

ولقد قسَّم العلماء التوسل المشروع إلىٰ ثلاثة أقسام هي :

١ – توسل المؤمن إلىٰ الله تعالىٰ بذاته العَلِيّة وبأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ .

٢ – توسل المؤمن إلىٰ الله تعالىٰ بأعماله الصالحة .

٣ – توسل المؤمن إلىٰ الله تعالىٰ بدعاء أخيه المؤمن له .

وهناك توسل ممنوع محرم ، وهو تقرب العبد إلىٰ الله تعالىٰ بعمل مخالف لكتابه ، ومجانب لسنة نبيه ﷺ كالتوسل بذوات المخلوقين ، أو بالأماكن والأزمنة الفاضلة ، أو التوسل بجاه أحد من خلقه ، أو حرمته ، أو حقه أو بركته ، كما هو منتشر في كثير من بلدان المسلمين مع الأسف . بتصرف من : التوصل إلىٰ حقيقة التوسل لمحمد الرفاعي ص٢٢ ، ١٨٤ .

وغيرهم اتخذها [١] من البشر . قال تعالىٰ حاكياً عن أسلاف هؤلاء المشركين : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر : ٣] . [ثم شهد عليهم بالكفر والكذب . وأخبر أنه لا يهديهم فقال] [٢] : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر : ٣] .

فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً ، يزعم أنه يقربه إلىٰ الله . وما أعز من يخلص [٣] من هذا؟ بل ما أعز من لا يعادي من أنكره!

والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله ، وهذا عين الشرك . وقد أنكر الله عليهم ذلك [٤] في كتابه وأبطله . وأخبر أن الشفاعة كلها له ، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه . ورضي قوله وعمله [٥] . وهم أهل التوحيد ، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء . فإنه

---

(١) في ط : اتخذوها .

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من : أ ، ب ، غ ، ح٢ .

(٣) في د ، م ، ش ، ح٢ ق : تخلص .

(٤) « ذلك » ساقطة من : أ ، م ، د ، غ ، ب ، ح١ ، ق .

(٥) هذه شروط الشفاعة :

١ - إذن الله سبحانه للشافع أن يشفع ، كما قال تعالىٰ : ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه...﴾ [البقرة : ٢٥٥] وقال تعالىٰ : ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه ...﴾ [يونس : ٣] .

٢ - رضاه سبحانه عن المشفوع له كما قال تعالىٰ : ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضىٰ ... ﴾ [الأنبياء : ٢٨] وقال تعالىٰ : ﴿وكم من ملك في السموات والأرض لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضىٰ﴾ [النجم : ٢٦] .

يأذن سبحانه [١] في الشفاعة لهم لمن شاء ، حيث لم يتخذوهم [٢] شفعاء من دونه . فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له : صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعاً من دون الله [٣] .

الشفاعة المثبتة والمنفية

والشفاعة التي أثبتها الله ورسوله : هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وَحَّده[٤] ، والتي نفاها الله[٥] ؛ الشفاعة الشركية[٦] ، التي في قلوب المشركين ،

---

(١) في ط ، ب ، غ ، د ، م ، ح١ : فإنه يأذن سبحانه لمن شاء في الشفاعة لهم .

(٢) في ط : يتخذهم .

(٣) في ط زيادة : ربه ومولاه .

(٤) هذه هي الشفاعة المثبتة . فالأنبياء يشفعون ، والمؤمنون يشفعون ، والملائكة يشفعون ، والشهداء يشفعون ، وأولاد المؤمنين يشفعون ، والصيام والقرآن يشفعان . بهذا كله جاءت النصوص الشرعية . ونبينا محمد ﷺ هو صاحب الشفاعة العظمىٰ ، وذلك حين يبعث الخلائق يوم القيامة يطلبون منه الشفاعة لهم عند الله بأن يحاسبهم ويريحهم من ذلك الموقف. كما دل علىٰ ذلك الحديث الصحيح . رواه البخاري ٨/٣٩٥ في كتاب التفسير باب (ذرية من حملنا مع نوح ... (ح٤٧١٢ ، ومسلم ١/ ١٨٤ في كتاب الإيمان باب (أدنىٰ أهل الجنة منزلة) ح١٩٤ .

(٥) في ط زيادة : هي .

(٦) هذه هي الشفاعة المنفية ، وهي التي ادعاها المشركون لأصنامهم ومعبوداتهم ، وقد أبطلها الله عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه قال سبحانه : ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعاً﴾ [الزمر : ٤٣ ، ٤٤] وقال تعالىٰ : ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ [سبأ : ٢٢ ، ٢٣] .

المتخذين من دون الله شفعاء . فيعاملون بنقيض قصدهم من شفعائهم [١] ويفوز بها الموحدون .

فتأمل [٢] قول النبي ﷺ لأبي هريرة - وقد سأله - : من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال : « **أسعد الناس بشفاعتي : من قال لا إله إلا الله ، خالصاً** من قلبه» [٣] كيف جعل أعظم الأسباب التي تُنال بها شفاعته . تجريد التوحيد ، عكس ما عند المشركين : أن الشفاعة تنال باتخاذهم [٤] شفعاء ، وعبادتهم وموالاتهم من دون الله . فقَلَبَ النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب ، وأخبر أن سبب الشفاعة : هو تجريد التوحيد . فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع .

ومن جهل المشرك : اعتقاده أن من اتخذه [٥] ولياً أو شفيعاً : أنه [٦] يشفع له ، وينفعه عند الله . كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم . ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله . كما قال تعالىٰ في الفصل الأول : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ

---

(١) في ق : شفاعتهم .

(٢) في ط : وتأمل .

(٣) رواه البخاري ١/ ١٩٣ في كتاب العلم باب (الحرص علىٰ الحديث) ح٩٩ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٧٣ .

(٤) في ط زيادة : أولياءهم .

(٥) في د ، غ ، أ ، م ، ب ح١ ، ح٢ ، ق : اتخذ .

(٦) في أ : أن .

إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وبقي فصل ثالث، وهو أنه لا يرضىٰ من القول والعمل إلا التوحيد[1]، واتباع الرسول[2]. وعن[3] هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين. كما قال أبو العالية[4]: «كلمتان يُسأل عنهما الأولون والآخرون. ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟»[5].

فهذه ثلاثة[6] فصول[7] تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها: لا شفاعة إلا بإذنه. ولا يأذن إلا لمن رضي[8] قوله وعمله. ولا يرضىٰ من القول

---

(١) هذا من المعلوم يقيناً؛ لأن غير التوحيد لا يرضاه الله عز وجل ولا يقبله، فمن لم يكن موحداً لم يكن مرضياً عنه، وقد جعله بعضهم شرطاً ثالثاً من شروط الشفاعة، مع أنه داخل في شرط الرضا. انظر: الشفاعة عند أهل السنة والرد علىٰ المخالفين فيها ٧٧.

(٢) في غ: الرسل.

(٣) في د: عن.

(٤) أبو العالية رُفَيع بن مهران الرياحي الصبري الإمام الحافظ المفسر، أدرك زمن النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، حفظ القرآن وقرأه علىٰ أبي بن كعب، تصدر للعلم وبَعُد صيته. توفي سنة ٩٠هـ.

ترجمته في: التاريخ الكبير ٣/ ٣٢٦، حلية الأولياء ٢/ ٩٧، السير ٤/ ٢٠٧.

(٥) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية. انظر: مجموع الفتاوىٰ ١٥/ ١٠٥، وذكره ابن القيم عن قتادة في موضعين. في زاد المهاجر إلىٰ ربه ٢٤، وفي إغاثة اللهفان ١/ ١٣٧.

(٦) (ثلاثة) ساقطة من: ق.

(٧) في ح١ ح٢، أ، غ، ب م، ق: أصول.

(٨) في د: ارتضىٰ.

والعمل إلا بتوحيده [١] واتباع رسوله [٢] . فالله تعالىٰ لا يغفر شرك العادلين به غيره ، كما قال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام : ١] وأصح القولين : (أنهم) [٣] يعدلون به غيره في العبادة والموالاة والمحبة ، كما في الآية الأخرىٰ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ٩٧ ، ٩٨] وكما في آية البقرة : ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وترىٰ المشرك يكذّب حالُه وعملُه قولَه [٤] فإنه يقول : لانحبهم كحب الله ، ولا نسويهم بالله ، ثم يغضب لهم ولحرماتهم - إذا انتهكت - أعظم مما يغضب لله ، ويستبشر بذكرهم ، ويتبشبش [٥] بهم [٦] سيما إذا ذُكر عنهم ما ليس فيهم ؛ من إغاثة اللهفات ، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهم باب [٧]

---

(١) في ق ، أ ، د ، م ، ح٢ ب ، ح١ ط : توحيده ، وفي غ : التوحيد .

(٢) الإخلاص لله ، والمتابعة للرسول ﷺ هما شرطا قبول الأعمال كما قال تعالىٰ : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ [الكهف : ١١٠] .

(٣) « أنهم » ساقطة من : أ ، د ، غ ، ب ، ح١ ، ح٢ .

(٤) في الأصل والجميع سوىٰ ش ، ط : لقوله . وما أثبته من ش ، ط .

(٥) البَشُّ : فرح الصديق بالصديق ، واللطف في المسألة ، والإقبال عليه ، والبشاشة : طلاقة الوجه ، ورجل هَشٌّ بَشٌّ أي : طلق الوجه طيب . يقال : لقيته فتبشبش لي . والتبشبش في الأصل : التَّبَشُّشُ فاستثقل الجمع بين ثلاث شينات فقلبت إحداهن باء . الصحاح ٣/ ٩٩٦ ، مادة (بشش) ، انظر : لسان العرب ١/ ٤١٦ .

(٦) في الأصل والجميع سوىٰ ش : به ، ولا يستقيم المعنىٰ بها وما اثبته من ش .

(٧) في ط : الباب .

بين الله وبين عباده [١]، ترىٰ المشرك يفرح ويُسر ويحَِنُّ قلبه، وتهيج [٢] منه لواعج [٣] التعظيم والخضوع لهم والموالاة، وإذا ذكرت له [٤] الله وحده، وجردت توحيده لحقته وحشة، وضيق، وحرج ورماك بتنقص [٥] الآلهة [٦] التي له. وربما عاداك.

رأينا والله منهم هذا عياناً، ورمونا بعداوتهم. وبغوا لنا [٧] الغوائل، والله مخزيهم في الدنيا والآخرة. ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا، كما قال إخوانهم: عاب [٨] آلهتنا [٩]، فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلىٰ الله. وهكذا قال النصارىٰ للنبي ﷺ، لما قال لهم: « **إن المسيح عبد الله** » [١٠] قالوا:

---

(١) في ط: فإنك ترىٰ.

(٢) في د: وتعج.

(٣) اللاعج: الهوىٰ المحرق. يقال: هوىً لاعج، لحرقة الفؤاد من الحب.

واللعج: ألم الضرب، وكل محرق، ولعج الحب والحزن فؤاده: استمر في القلب. لسان العرب ١٢/ ٢٨٩، مادة (لعج).

(٤) ساقطة من: أ، ح ١.

(٥) في ط: بنقص.

(٦) في ط، ح١، أ، غ، د: الإلهية.

(٧) (لنا) ساقطة من: ب.

(٨) في غ: عبت.

(٩) في أ: آلهتهم.

(١٠) جزء من حديث رواه البخاري ٦/ ٤٧٤ بلفظ: «أن عيسىٰ عبد الله» في كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالىٰ: ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم** ﴾ ح٣٤٣٥، ورواه مسلم

تنقصت المسيح وعبته . وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثاناً[١]، ومساجد[٢] وأمر بزيارتها على الوجه الذي أذن الله فيه ورسوله، قالوا : تنقصت أصحابها .

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم ، حتى كأنهم قد[٣] تواصوا به ، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف : ١٧] .

وقد قطع الله سبحانه كل الأسباب التي تعلّق بها المشركون جميعاً[٤] ، قطعاً يعلم من تأمله وعرفه : أن من اتخذ من دون الله ولياً ، أو شفيعاً[٥] فهو ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ﴾ [العنكبوت: ٤١] فقال تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ : ٢٢ ، ٢٣] .

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له[٦] به من النفع . والنفع لا

١/ ٥٧ في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاًح٢٨ ، وأحمد في مسنده ١/ ٢٠٣ ، ٥/ ٢٩٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ .

(١) في ط والجميع زيادة : تعبد .

(٢) في ط زيادة : تقصد .

(٣) (قد) ساقطة من : أ .

(٤) في ق : جميعها .

(٥) في أ : وشفيعاً .

(٦) (له) ساقطة من : أ ، ح١ .

يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع . إما مالك لما يريد [١] عابده منه . فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك . فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً ، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده .

فنفىٰ سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً [٢] متنقلاً من الأعلىٰ إلىٰ ما دونه ، فنفىٰ المِلْكَ ، والشركة [٣] ، والمظاهرة ، والشفاعة ، التي يطلبها [٤] المشرك . وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك ، وهي الشفاعة بإذنه .

فكفىٰ بهذه الآية نوراً ، وبرهاناً ، ونجاة ، وتجريداً للتوحيد ، وقطعاً لأصول الشرك ومَوَادِّه [٥] لمن عقلها . والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ، ولكن أكثر الناس لا يشعر [٦] بدخول الواقع تحته ، وتضمنه له ، ويظن [٧] في نوع و [٨] قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً . وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم ، من هو مثلهم، وشر منهم [٩] ،

---

(١) في ب ، غ ، أ : يريده .

(٢) في ح١ : مرتباً .

(٣) في ق : الشركية .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش ، م : يظنها .

(٥) في ط : ومواداه .

(٦) في ط : يشعرون .

(٧) ط : يظنون .

(٨) في ط : وفي قوم .

(٩) في ط : أو شر منهم أو دونهم .

ودونهم . وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك ، ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : «إنما تنقض عرىٰ الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف[١] الجاهلية»[٢] .

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه : وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه . وهو لا يعرف : أنه هو[٣] الذي كان عليه [أهل][٤] الجاهلية ، أو نظيره . أو شر[٥] منه ، أو دونه . فينقض[٦] بذلك عرىٰ الإسلام[٧] . ويعود المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، والبدعة سنة ، والسنة بدعة . ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد . ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع . ومن له بصيرة وقلب حي يرىٰ ذلك عياناً، فالله[٨] المستعان .

---

(١) لا : ساقطة من الأصل والجميع سوىٰ غ ، ط .

(٢) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة ٤/ ٥٩٠ ، وروىٰ ابن سعد في الطبقات ٦/ ١٨٠ عن المستظل بن حصين البارقي ، قال سمعت عمر يقول : « قد علمت ورب الكعبة متىٰ تهلك العرب إذا ساسىٰ أمرهم من لم يصحب الرسول ولم يعالج أمر الجاهلية » ، ورواه كذلك الحاكم في مستدركه٤٧٥/ ٤ ، ح(٨٣١٨) ، والبيهقي في الشعب ٦٩/ ٦ح(٧٥٢٥) .

(٣) (هو) ساقطة من : أ ، ب ، ح١ ، د ، غ ، ح٢ ، م .

(٤) (أهل) ساقطة من الأصل ، ش . وما أثبته من ط وباقي النسخ .

(٥) في ش : أو أسوأ .

(٦) في ش : فينقص .

(٧) في ط زيادة : عن قلبه .

(٨) في ح١ ، د : والله .

فصل

أنواع الشرك الأصغر

وأما الشرك الأصغر : فكيسير الرياء، والتصنع للخلق[١]، والحلف بغير الله ، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» [٢] وقول الرجل للرجل : «ما شاء الله وشئت» و «هذا من الله ومنك» و «أنا بالله وبك» و «مالي إلا الله وأنت» و «أنا متوكل علىٰ الله وعليك» و «لولا أنت لم يكن كذا وكذا» وقد يكون هذا شركاً أكبر ، بحسب حال [٣] قائله ومقصده . وصح عن النبي ﷺ أنه قال لرجل قال له ما شاء الله وشئت : «**أجعلتني لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده**»[٤] وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ .

---

(١) كأن يطيل الصلاة لما يرىٰ من رؤية الناس له .

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٦٩ ، والترمذي ٤/ ١١٠ في كتاب الأيمان والنذور باب (ما جاء في كراهية الحلف بغير الله) ح١٥٣٣ وقال : هذا حديث حسن . وأبو داود ٣/ ٥٧٠ في كتاب الأيمان والنذور باب (في كراهية الحلف بالآباء) ح٣٢٥١ . والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٣٠ - ٣٣١ في كتاب الأيمان والنذور ح٧٨١٤ . وقال : حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني. انظر: الإرواء ٨/ ١٨٩ ح٢٥٦١ .

(٣) (حال) ساقطة من : ط .

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد ص٢٦٥ ح٧٨٤ ، وأحمد في مسنده ١/ ٢٢٤، ٢٨٣، بلفظ : « أجعلتني لله عدلاً » . وابن ماجه نحوه ١/ ٦٨٤ في الكفارات باب (النهي أن يقال : ما شاء الله وشئت) ح٢١١٧ . والطبراني في الكبير ١٢/ ٢٤٤ ح١٣٠٠٥ ، ١٣٠٠٦ .
وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٩٩ . وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار بهامش الأحياء ٣/ ٢٠٩ : أخرجه النسائي في الكبرىٰ بإسناد حسن . وحسنه الألباني . انظر : الصحيحة ١/ ٥٦ ح١٣٩ ، وصحيح سنن ابن ماجه ١/ ٣٦٢ ح١٧٢٠ .

من أنواع الشرك الأكبر

ومن أنواع الشرك : سجود المريد [١] للشيخ فإنه شرك من الساجد والمسجود له [٢] . والعجب أنهم يقولون : ليس هذا سجود ، وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ [٣] . فيقال لهؤلاء : ولو سميتموه ما سميتموه . فحقيقة السجود؛ وضع الرأس لمن يسجد [٤] له. وكذلك السجود للصنم ، وللشمس ، وللنجم ، وللحجر ، كله وضع الرأس قدامه .

ومن أنواعه : ركوع المتعممين[٥] بعضهم لبعض عند الملاقاة . وهذا سجود في اللغة[٦] . وبه فُسر قوله تعالىٰ : ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ [البقرة : ٥٨] أي منحنين ، وإلا فلا يمكن الدخول بالجبهة علىٰ الأرض . ومنه قول العرب :

---

(١) المريد عند الصوفية هو : من عزفت نفسه عن طيبات الدنيا ، وأعرض عن لذاتها ولتلذذه بوظائف العبادات . وعرف ابن عربي المريد بأنه : المتجرد عن إرادته وهو الذي ينظر إلىٰ شيخه فيكون عنده كالميت بين يدي المغسل . انظر : لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام لعبدالرزاق القاشاني ٢٨٧ - ٢٨٦/ ٢ .

(٢) لم يظهر لي معنىٰ لتسمية المسجود له مشركاً إذ هو مشركٌ فيما هو حق لله ، وأصدق اسم عليه أنه طاغوت إذا رضي .

(٣) في ط زيادة : احتراماً وتواضعاً .

(٤) في د ، ح١ ، ح٢ ، ق : سُجد .

(٥) ركوع المتعممين : ورد مثل هذا اللفظ في كتاب الوفيات لأبي المعالي السلامي ٢/ ٣٧٧ حيث قال : «وفي يوم الأربعاء ثامن رمضان توفي نقيب (المتعممين) شرف الدين أبو بكر عبدالكريم بن عبدالحميد المارديني الدمشقي ... » ولعل مراده من ذكر هذا الوصف أن هذا الفعل - الذي هو انحناء وخضوع - لا يصح أن يكون لغير الله .

(٦) انظر : لسان العرب ٦/ ١٧٥ مادة (سجد) .

سجدت الأشجار ، إذا أمالتها الرياح[١] .

ومن أنواعه : حلق الرأس للشيخ . فإنه تعبد لغير الله ، ولا يُتعبد بحلق الرأس إلا في النسك لله خاصة .

ومن أنواعه : التوبة للشيخ . فإنها شرك عظيم . فإن التوبة لا تكون إلا لله . كالصلاة والصيام ، والحج ، والنسك . فهي خالص حق الله .

وفي المسند : أن النبي ﷺ أُتي بأسير . فقال : اللهم إني أتوب إليك . ولا أتوب إلىٰ محمد . فقال رسول الله ﷺ : **«عرف الحق لأهله»**[٢] .

فالتوبة عبادة لا تنبغي إلا لله . كالسجود والصيام .

ومن أنواعه : النذر لغير الله . فإنه شرك . وهو أعظم من الحلف بغير الله . فإذا كان من حلف بغير الله فقد أشرك فكيف بمن نذر لغير الله؟ مع أن في السنن من حديث عقبة بن عامر ﷺ[٣] عن النبي ﷺ : **«النذر حلفة»**[٤] .

---

(١) في الجميع سوىٰ ش : آمالها الريح ، وفي ط : أمالتها الريح .

(٢) رواه أحمد في مسنده ٣/ ٤٣٥ ، والطبراني في الكبير ١/ ٢٨٦ ح٨٣٩ ، ٨٤٠ ، والحاكم في المستدرك ٤/ ٢٨٤ في كتاب التوبة والإنابة ح٧٦٥٤ ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبي بقوله : فيه ابن مصعب ، ضعيف . وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٩٩ : رواه أحمد والطبراني وفيه محمد بن مصعب وثقه أحمد ، وضعفه غيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح . وضعفه الألباني . انظر : ضعيف الجامع ٤/ ٣٠ ح٣٧٠٧ .

(٣) عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو الجهني البصري ، الإمام المقرئ ، صاحب النبي ﷺ ، كان عالماً مقرئاً فصيحاً فقيهاً فرضياً شاعراً كبير الشأن توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ٥٨هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٦/ ٤٣٠ ، أسد الغابة ٣/ ٥٥٠ ، السير ٢/ ٤٦٧ .

(٤) لم أجده بهذا اللفظ بل وجدته عند أحمد ٤/ ١٤٩ بلفظ : **«إنما النذر يمين وكفارته كفارة**

ومن أنواعه : الخوف من غير الله ، والتوكل علىٰ غير الله [١] ، والعمل لغير الله ، والإنابة والخضوع ، والذل لغير الله . وابتغاء الرزق من عند غيره ، وحمد غيره علىٰ ما أعطىٰ . والغُنْية بذلك عن حمده سبحانه ، والذم والسخط علىٰ ما لم يقسمه ، ولم يجر به القدر ، وإضافة نعمه إلىٰ غيره ، واعتقاد أن يكون في الكون ما لا يشاؤه .

ومن أنواعه : طلب الحوائج من الموتىٰ والاستغاثة بهم [٢] ، والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم . فإن الميت قد انقطع عمله . وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فضلا لمن [٣] استغاث به [٤] ، وسأله قضاء حاجته ، أو سأله أن يشفع له إلىٰ الله فيها . وهذا من جهله بالشافع المشفوع [٥] عنده ،

يمين» . والطبراني بنحوه في الكبير ١٧/ ٣١٣ ، ح٨٦٦ . ورواه مسلم في صحيحه ٣/ ١٢٦٥ في كتاب النذور باب (في كفارة النذر) ح١٦٤٥ ، بلفظ : «كفارة النذر كفارة يمين» . ورواه ابن ماجه ١/ ٦٨٧ في كتاب الكفارات باب (من نذر نذراً ولم يسمه) ح ٢١٢٧ بلفظ : «من نذر ولم يسمه فكفارته كفارة يمين » ، والترمذي ١٠/ ٦٤ في كتاب النذور والأيمان باب (في كفارة النذر إذا لم يسمه) ح١٥٢٨ . وأبو داود ٣/ ٦١٥ في كتابه الأيمان والنذور ، باب (من نذر نذراً) لم يسمه) ح٣٣٢٣، والنسائي ٧/ ٢٦ في كتاب النذور، باب (كفارة النذر) (ح٣٨٣٢) . وصححه الألباني . انظر : صحيح سنن ابن ماجه ١/ ٣٦٣-٣٦٤ ح١٧٣٠ .

(١) في غ : غيره .

(٢) في م ، ح١ ، ح٢ ، غ : والاستعانة .

(٣) في ط : عمن .

(٤) في غ : استعان به .

(٥) في ط زيادة : له .

كما تقدم[١] . فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه . والله لم يجعل استغاثته[٢] ، وسؤاله سبباً لإذنه . وإنما السبب لإذنه . كمال التوحيد . فجاء هذا المشرك بسبب يمنع [٣] إذنه ، وهو بمنزلة من استعان في حاجةٍ بما يمنع حصولها . وهذه حالة كل مشرك . والميت محتاج إلىٰ من يدعو له ، ويترحم عليه ، ويستغفر له ، كما أوصانا النبي ﷺ ، إذا زرنا قبور المسلمين «أن نترحم[٤] عليهم . ونسأل لهم العافية والمغفرة»[٥] .

فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة ، واستقضاء الحوائج[٦] ، والاستغاثة[٧] بهم .

---

(١) انظر : ص ٩١٧ .

(٢) في م ، ش ، د ، ح١ ، ق : استعانته .

(٣) في ش ، ب ، م ، ح١ ، غ ، ق : الأذن .

(٤) في د : يُترحم .

(٥) فعن سلمان بن بريدة عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلىٰ المقابر فكان قائلهم يقول : «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله للاحقون؟ أسأل الله لنا ولكم العافية» رواه مسلم ٢/ ٦٧١ في كتاب الجنائز ، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها ح (٩٧٥) .

وكذلك ما رواه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ٢/ ٦٦٩-٦٧١ وفيه قالت : قلت كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال : « قولي السلام علىٰ أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون» (ح٩٧٤) .

(٦) في ق : الحق .

(٧) في ق : والاستعانة .

وجعلوا قبورهم أوثاناً تُعبد . وسموا قصدها حجاً [١] . واتخذوا عندها الوقفة وحلقوا الرؤوس [٢] ، فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق ، وتغيير دينه ، ومعاداة أهل التوحيد ، ونسبة أهله إلىٰ التنقص بالأموات [٣] . وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك ، وأولياءه - الموحدين له الذين لم يشركوا به شيئاً - بذمهم وعيبهم ومعاداتهم ، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص . إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا . وأنهم أمروهم به . وأنهم يوالونهم عليه . و هؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان . وما أكثر المستجيبين لهم! ولله خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث يقول : ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم : ٣٥ ، ٣٦] .

وما نجا من شرك [٤] هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله ، وعادىٰ المشركين في الله ، وتقرب بمقتهم إلىٰ الله ، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده فجرد حبه لله ، وخوفه لله ، ورجاءه لله ، وذله لله ، وتوكله علىٰ الله ، واستغاثته بالله ، والتجائه إلىٰ الله ، واستعانته بالله . وأخلص قصده لله ، متبعاً لأمره ، تطلباً لمرضاته . إذا سأل سأل الله . وإذا استعان استعان بالله ، وإذا عمل عمل لله فهو لله . وبالله . ومع الله .

---

(١) «حجاً» ساقطة من : ش .

(٢) في ح١ ، ب ، ح٢ ، م ، غ ، ط : وحلق الرأس . وفي د ، ق : وحلق الرؤوس .

(٣) في ط والجميع : بالأموات .

(٤) «شرك» ساقطة من : ش .

والشرك أنواع كثيرة : لا يحصيها إلا الله .

ولو ذهبنا نذكر أنواعه لاتسع الكلام أعظم اتساع ، ولعل الله أن يساعد بوضع كتاب فيه ، وفي أقسامه ، وأسبابه ومباديه ، ومضرته ، وما يندفع به .

فإن العبد إذا نجا منه ومن التعطيل - وهما الداءان اللذان هلكت بهما الأمم - فما بعدهما هو [1] أيسر منهما . ومن [2] هلك بهما فبسبيل من هلك . ولا آسىٰ علىٰ الهالكين .

* * *

(١) (هو) ساقطة من ط .

(٢) في ط ، وجميع النسخ : وإن .

فصل

وأما النفاق: [١]

فالداء العضال [٢] الذي يكون الرجل ممتلئاً [٣] منه ، وهو لا يشعر . فإنه أمر النفاق خطر

(١) النفاق : النَّفَقُ : سَرَبٌ في الأرض له مخلص إلىٰ مكان ، وهو أيضاً : المسلك النافذ الذي يمكن الخروج منه . انظر : معجم مقاييس اللغة ٢/ ٥٧٢ مادة : نفق .
قال ابن منظور : «والنُّفَقَة والنَّافِقَاء : جحر الضب واليَرْبُوع ، وقيل : النُّفَقة والنافِقاء موضع يرققه اليربوع من جُحره ، فإذا أُتي من قبل القاصِعاء ضرب النافقاء برأسه فخرج ، ونَفِقَ اليربوع وانْتَفَقَ ونفَّقَ خرج منه . ومنه اشتقاق المنافق في الدين ، والنِّفَاقُ بالكسر فِعْلُ المنافق، والنِّفَاق : الدخول في الإسلام من وجه الخروج عنه من وجه آخر . انظر : لسان العرب ١٤/ ٢٤٢ مادة : نفق . قال الإمام ابن رجب ـ رحمه الله ـ : «والذي فسره به أهل العلم المعتبرون . أنَّ النفاق في اللغة هو من جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان خلافه . جامع العلوم والحكم» ٢/ ٤٨١ .
وفي الاصطلاح : «إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب» انظر : التعريفات ص٢٧١ .
والنفاق يقسم إلىٰ قسمين : أكبر وأصغر كما ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله .
قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في بيان أقسام النفاق : وهو في الشرع يقسم إلىٰ قسمين :
أحدهما : النفاق الأكبر ، وهو أن يظهر الإنسانُ الإيمانَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويبطن ما يُناقض ذلك كلَّه أو بعضه وهذا هو النفاق الذي كان علىٰ عهد النبي ﷺ ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم ، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار .
والثاني : النفاق الأصغر ، وهو نفاق العمل ، وهو أن يظهر الإنسانُ علانية صالحة ، ويبطن ما يخالف ذلك . انظر : جامع العلوم والحكم ٢/ ٤٨١ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش ، د زيادة : الباطن .

(٣) في غ : مملياً .

خفي[1] . خفي علىٰ الناس ، وكثيراً ما يخفىٰ علىٰ من تلبس به . فيزعم أنه مصلح وهو مفسد .

أنواع النفاق

وهو نوعان : أكبر ، وأصغر .

فالأكبر يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل . وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه[2] ورسله واليوم الآخر . وهو في الباطن منسلخ من ذلك[3] مكذب به لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله علىٰ بشر جعله رسولاً للناس ، يهديهم بإذنه ، وينذرهم بأسه ، ويخوفهم عقابه .

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين ، وكشف أسرارهم في القرآن ، وجلّىٰ لعباده أمورهم[4] . ليكونوا[5] منها ومن أهلها علىٰ حذر . وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول[6] البقرة : المؤمنين ، والكفار ، والمنافقين ... فذكر في المؤمنين أربع آيات . وفي الكفار آيتين . وفي المنافقين ثلاث عشرة آية . لكثرتهم ولعموم[7] الابتلاء بهم . وشدة فتنتهم علىٰ الإسلام وأهله . فإن بلية

---

(١) (خفي) ساقطة من ط .

(٢) (وكتبه) ساقطة من : م .

(٣) في ط زيادة : كله .

(٤) في ح١ : أمرهم .

(٥) في م ، ح٢ : منها .

(٦) في ط ، ح١ زيادة : سورة .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ : وعموم .

الإسلام بهم شديدة جداً فإنهم منتسبون (١) إليه ، وإلىٰ نصرته وموالاته ، وهم أعداؤه في الحقيقة . يخرجون عداوته في كل قالب . يظن الجاهل أنه عِلم وإصلاح . وهو غاية الجهل والإفساد .

فلله كم من معقل للإسلام (٢) هدموه! وكم من حِصن له قد قلعوا أساسه وخربوه! وكم من علم له قد طمسوه! وكم لواء له (٣) مرفوع قد وضعوه! وكم ضربوا بمعاول الشبهة (٤) في أصول غراسه ليقلعوها (٥)! وكم عمُّوا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها!

فلا يزال الإسلام (٦) منهم في محنة وبلية . ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية . ويزعمون أنهم بذلك مصلحون ، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف : ٨] .

اتفقوا علىٰ مفارقة الوحي . فهم علىٰ ترك الاهتداء به مجتمعون ، ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون : ٥٣] ، ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ

---

(١) في ط : لأنهم منسوبون .

(٢) في ط والجميع وسوىٰ أ : قد هدموه .

(٣) (له) ساقطة من ق .

(٤) في ط ، ق : الشبه . وفي غ ، ح١ ، ب : التشبيه .

(٥) في ح١ : ليقتلوها .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ زيادة : وأهله .

﴿إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام : ١١٢] ، ولأجل ذلك ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان : ٣٠] .

درست[1] معالم الإيمان[2] في قلوبهم فليسوا يعرفونها . ودثرت[3] معاهده عندهم فليسوا يعمرونها ، وأفلت كواكبه[4] من قلوبهم فليسوا يحبونها[5] ، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم[6] فليسوا يبصرونها . لم يقبلوا هدىٰ الله الذي أرسل به رسوله ، ولم يرفعوا به رأساً ، ولم يروا بالإعراض عنه إلىٰ آرائهم وأفكارهم بأساً . خلعوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة ، وعزلوها عن ولاية اليقين ، وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة . فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين[7] . نزلت عليهم نزول الضيف علىٰ أقوام لئام . فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام . وتلقوها من بعيد ، ولكن بالدفع في الصدور منها[8] والأعجاز . وقالوا : ما لك عندنا من عبور – وإن

---

(١) درست : أي امحّت وذهب أثرها . انظر : لسان العرب ٤/ ٣٢٩ . مادة : درس .

(٢) في ح٢ : القرآن .

(٣) دثرت : دثر الرَّسم ، أي : دَرَسَ . انظر : مختار الصحاح ٨٣ .

(٤) في ط زيادة : النيرة .

(٥) في د ، ح١ ، ح٢ : يحيونها .

(٦) في ب ، د ، غ ، ح١ ، ح٢ ، ق ، ط زيادة : أفكارهم .

(٧) الكمين : يقال : كَمُن في المكان كموناً : استخفىٰ في مكمن لا يفطن له .
والكمين : اللَّبس أو الغموض في الأمر لا يفطن لموضعه . انظر : لسان العرب ، ١٢/ ١٦٠ مادة (كمن) ، والمعجم الوسيط ٧٩٩ .

(٨) (منها) ساقطة من : ح٢ .

كان لابد - فعلىٰ سبيل المجاز[1] . أعدوا لدفعها أصناف العدد وضروب القوانين ، وقالوا - لما حلّت بساحتهم - : ما لنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئاً من اليقين . وعوامّهم قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا[2] المتأخرين . فإنهم أعلم بها من السلف الماضين ، وأقوم بطريق[3] الحجج والبراهين ، وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور . ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر ، ولكن صرفوا هممهم إلىٰ فعل المأمور وترك المحظور. فطريقة[4] المتأخرين: أعلم وأحكم . وطريقة السلف الماضين : أجهل ؛ لكنها أسلم[5] .

---

(١) في ط : الاجتياز .

(٢) في ط زيادة : من .

(٣) في ط والجميع : بطرائق .

(٤) في م ، ح٢ ، د ، ق : فطريق .

(٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : «ولا يجوز أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما يقوله بعض الأغبياء ، ممن لم يقدر قدر السلف ؛ بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها : من أن طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم ، وأحكم . فإن هؤلاء الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ، ومن حذا حذوهم علىٰ طريقة السلف إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث ، من غير فقه لذلك ، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم : ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ [البقرة : ٧٨] وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات ، وغرائب اللغات . فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر ، وقد كذبوا علىٰ طريقة السلف ، وضلوا في تصويب طريقة الخلف ، فجمعوا بين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف» . انظر : الحموية الكبرىٰ ضمن مجموع الفتاوىٰ ٥/ ٨ ، ٩ .

أنزلوا نصوص السنة والقرآن، منزلة الخليفة في هذا المكان، اسمه علىٰ[١] السكة[٢] [٣]، وفي الخطبة فوق المنابر مرفوع. والحكم النافذ لغيره. فحكمه غير مقبول ولا مسموع.

لبسوا ثياب أهل الإيمان، علىٰ قلوب أهل الزيغ والكفران[٤]، فالظواهر ظواهر الأنصار. والبواطن قد تحيزت إلىٰ الكفار، فألسنتهم ألسنة المسالمين. وقلوبهم قلوب المحاربين. يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

رأس ما لهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والختر[٥]. وعندهم العقل المعيشي: أن الفريقين عنهم راضون. وهم بينهم آمنون ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

قد نهكت[٦] أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة علىٰ إرادتهم[٧] ونيَّاتهم فأفسدتها.

---

(١) في ق: علىٰ السلف، وهو خطأ.

(٢) في غ، ب، م، ق: الخسران.

(٣) السكة: حديدة قد كتب عليها، يضرب عليها الدراهم وهي المنقوشة. انظر: لسان العرب ٦/ ٣١٠ مادة: سكك.

(٤) في ب، غ، ح١، ح٢، م، د زيادة: والغل والكفران.

(٥) الختر: الغدر، وقيل: هو الخديعة بعينها، وقيل: هو أسوأ الغدر وأقبحه، وقيل: الفساد يكون ذلك في الغدر وغيره. انظر: لسان العرب ٤/ ٢٣ مادة (ختر).

(٦) النهك: المبالغة في كل شيء. انظر: لسان العرب ١٤/ ٣٠٨، مادة (نهك).

(٧) في ق: آرائهم.

ففسادهم [1] قد ترامىٰ إلىٰ الهلاك ، فعجز عنه الأطباء العارفون ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] .

من عَلَقت مخالب شكوكهم [2] بأديم إيمانه [3] مَزَّقته كل التمزيق [4] . ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق . ومن دخلت شبهات تلبيسهم في مسامعه حالت [5] بين قلبه وبين التصديق . ففسادهم في الأرض كثير ، وأكثر الناس عنه غافلون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢] .

المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر ، مبخوس [6] حظه من المعقول ، والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفاراً . فهمه [7] في حمل المنقول وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة ، وما هو عندهم بمقبول [8] .

وأهل الاتباع عندهم سفهاء، فهم [9] في خلواتهم ومجالسهم بهم

---

(١) في ح٢ ، م : ففاسدهم .

(٢) في ح١ : شوكهم .

(٣) في ح٢ : إيمانهم .

(٤) في ط ، ق ، د ، : كل تمزيق . وفي ح٢ ، غ م ، ح١ ، ب : كل ممزق .

(٥) في ط ، ب ، غ ، ح١ ، ح٢ ، ق : حال .

(٦) مبخوس: البخس النقص. يقال: بخسه حقه أي نقصه. انظر: مختار الصحاح ١٧ مادة: بخس .

(٧) في غ : فهم .

(٨) في ق : المقبول .

(٩) (فهم) ساقطة من : غ .

يتطيرون[1] [2] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ١٣] .

لكل منهم وجهان . وجه يلقىٰ به المؤمنين ، وآخر[3] ينقلب به إلىٰ إخوانه من الملحدين . وله لسانان[4] . أحدهما يقبله بظاهره المسلمون ، والآخر يترجم به عن سره المكنون ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة : ١٤] .

قد أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاءً بأهلهما[5] واستحقاراً . وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين فرحاً بما عندهم من العلم - الذي لا ينفع -[6] استكباراً فتراهم أبداً بالمتمكسين بصريح الوحي يستهزئون ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة : ١٥] .

---

(١) في غ ، ح١ ، ح٢ ، م ، ب ، ق : يطترون .

(٢) يتطيرون : أي يتشاءمون، كما قال تعالىٰ عن قوم صالح ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك﴾ [النمل : ٤٧] أي تشاءمنا ، وقيل للشؤم طائرٌ وطَيرٌ وطِيرَةٌ ؛ لأن العرب كان من شأنها عِيافةُ الطير وزَجرها ، والتطير ببارحها ، ونعيق غُرابها ، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها ، فسمَّوا الشؤم طيراً وطائراً وطيرة لتشاؤمهم بها .

انظر : لسان العرب ٨/ ٢٤٠ مادة (طير) .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ : ووجه .

(٤) في ق : لسان .

(٥) في ش ، م : بعلمهما .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ : لا ينفع الاستكثار منه أشراً واستكباراً .

خرجوا في طلب التجارة البائرة [١] في [٢] الظلمات ، فركبوا مراكب الشبه والشكوك تجري بهم في موج الخيالات [٣] ، فلعبت بسُفنهم [٤] الريح العاصف ، فألقتها بين سفن الهالكين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة : ١٦] .

أضاءت لهم نار الإيمان ، فأبصروا في ضوئها مواضع [٥] الهدىٰ والضلال . ثم طفئ ذلك النور ، وبقيت نار تأجج [٦] ذات لهب واشتعال ، فهم بتلك النار معذبون . وفي تلك الظلمات يعمهون [٧] ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر [٨] . فهي لا تسمع منادي الإيمان ، وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمىٰ ، فهي لا تبصر حقائق القرآن ، وألسنتهم بها خرس

---

(١) البائرة : أي الكاسدة والهالكة . انظر : معجم مقاييس اللغة ١/ ١٦٤ ، لسان العرب ١/ ٥٣٥ مادة (بور) .

(٢) في ط والجميع : في بحار الظلمات .

(٣) في غ : في موج كالخيالات .

(٤) في ق : بسفينتهم .

(٥) في ط : مواقع .

(٦) تأجج : الأجج : تلهب النار ، وقد أجّت تؤج أجيجاً . انظر : مختار الصحاح ٣ مادة أجج .

(٧) في غ : يعمون .

(٨) وقر : الواو والقاف والراء : أصل يدل علىٰ ثقل في الشيء ، والوقر : الثقل في الأذن . انظر : معجم مقاييس اللغة ٢/ ٦٤١ .

عن الحق فهم به [1] لا ينطقون ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة : ١٨] .

صاب[2] عليهم صيِّب الوحي ، وفيه حياة القلوب والأرواح ، فلم يسمعوا منه إلا رعد التهديد والوعيد والتكاليف التي وضعت [3] عليهم بالمساء والصباح . فجعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وجدّوا في الهرب. والطلب في آثارهم والصياح . فنودي عليهم علىٰ رؤوس الأشهاد ، وكشفت أحوالهم [4] للمستبصرين ، وضرب لهم مثلان [5] بحسب حال الطائفتين منهم : المناظرين [6] ، والمقلدين [7] . فقيل : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَٰعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة : ١٩] . ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال ما في الصيب من بروق أنواره وضياء معانيه . وعجزت أسماعهم عن تلقي رعود وعوده وأوامره ونواهيه ، فقاموا عند ذلك حيارىٰ في أودية التيه[8] . لا ينتفع بسمعه السامع ،

---

(١) في م ، أ ، د ، ق : بها .

(٢) صوب : الصّوب نزول المطر يقال : صابه المطر أي مُطِر . والصيِّب : السحاب ذو الصوب انظر : مختار الصحاح ١٥٦ مادة صوب .

(٣) في ط ، د ، ح١ ، ح٢ ، ب ، م ، ق : وظِّفت .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ : حالهم .

(٥) في غ ، ح٢ : مثلاً .

(٦) في ح١ ، ح٢ ، ق ، د : الناظرين .

(٧) في غ : المقدمين .

(٨) التيه : يقال : تاه في الأرض يتيه تيهاً أي ذهب متحيراً. انظر: مختار الصحاح ٣٤، مادة: تيه.

ولا يهتدي ببصره البصير ، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة : ٢٠].

لهم علامات يعرفون بها مبينة في السنة والقرآن . بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان ، قام بهم - والله - الرياء ، وهو أقبح مقام قامه الإنسان ، وقعد بهم الكسل (١) عما أمروا به من أوامر الرحمن . فأصبح الإخلاص لذلك عليهم ثقيلاً ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء : ١٤٢] .

أحدهم كالشاة العائرة (٢) بين المغنمين تعير (٣) إلىٰ هذه مرة وإلىٰ هذه مرة ولا تستقر (٤) مع إحدىٰ الفئتين ، فهم واقفون بين الجمعين ، ينظرون أيهم أقوىٰ وأعز قبيلاً (٥) ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء : ١٤٣] .

---

(١) في غ : الكسلاء .

(٢) العائرة : المترددة الحائرة لا تدري أيهما تتبع ، وتعير : تتردد وتذهب . انظر : النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٢٨ ، ولسان العرب ٩/ ٤٩٢ مادة : عبر ، وفي الحديث : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلىٰ هذه مرة وإلىٰ هذه مرة » . رواه مسلم ٤/ ٢١٤٦ في كتاب صفات المنافقين ح ٢٧٨٤ ، والنسائي في سننه ٨/١٢٤ في كتاب الإيمان ، باب قتل المنافق ح ٥٠٣٧ .

(٣) في ط : تَيْعَر .

(٤) في ح١ : ولا يستقر .

(٥) في ط : قليلاً وفي غ : سبيلاً .

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن ، فإن كان لهم فتح من الله ، قالوا إنا كنا في البواطن معكم[١] ، وأقسموا علىٰ ذلك بالله جهد أيمانهم . وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة[٢] نصيب ، قالوا : ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا[٣] محكم . وأن النسب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم ، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين ، فلا تحتاج[٤] بعده دليلاً ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء : ١٤١] .

يُعجب السامع قول أحدهم[٥] ، لحلاوته ولينه . ويشهد الله علىٰ ما في قلبه من كذبه ومينه[٦] ، فتراه عند الحق نائماً ، وفي الباطل واقفاً[٧] علىٰ الأقدام . فخذ وصفهم من قول القدوس السلام : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة : ٢٠٤] .

أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد ، ونواهيهم

---

(١) في ق : الباطن ، وفي غ : إنا معكم ، وفي ط : ألم نكن معكم .

(٢) في الأصل بالنصرة . وما أثبته من باقي النسخ ولعله أقرب إلىٰ الصواب لغة .

(٣) في الأصل ، ش : بينكم ، وهو خطأ . وما أثبته من ط والجميع سوىٰ ش .

(٤) في ح٢ : يحتاج .

(٥) في ح١ : واحدهم .

(٦) المَيْن : الكذب . انظر : لسان العرب ١٣/ ٢٣٦ مادة (مين) .

(٧) (واقفاً) ساقطة من ط .

عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد، وأحدهم [١] تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة : ٢٠٥].

فهم جنس بعضه يشبه بعضاً. يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه، كم ذكَّرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه! وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه! فاسمعوا أيها المؤمنون : ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة : ٦٧].

إن حاكمتهم إلىٰ صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين. وإن دعوتهم إلىٰ حكم [٢] كتاب الله وسنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين. فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدىٰ أمداً بعيداً. ورأيتها معرضة عن الوحي إعراضاً شديداً ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء : ٦١].

فكيف لهم بالفلاح والهدىٰ! بعد ما أصيبوا في عقولهم وأديانهم؟ وأنىٰ لهم التخلص من الضلال والردىٰ! وقد اشتروا الكفر بإيمانهم؟ فما أخسر

---

(١) في ق : واحدهم.

(٢) (حكم) ساقطة من ق.

تجارتهم البائرة وقد[1] استبدلوا بالرحيق المختوم حريقاً ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء : ٦٢].

نشب[2] زقوم الشبه والشكوك في قلوبهم، فلا يجدون له مسيغاً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء : ٦٣].

تبّاً لهم، ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان! وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان، فالقوم في شأن وأتباع الرسول[3] في شأن. لقد أقسم الله جل جلاله في كتابه بنفسه المقدسة قسماً عظيماً، يعرف مضمونه أولو البصائر. فقلوبهم منه على وجل[4] إجلالاً له وتعظيماً فقال تعالى تحذيراً لأوليائه وتنبيهاً على حال هؤلاء وتفهيماً: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥].

تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يُعزم[5] عليه. لعلمه بأن[6] قلوب أهل

(١) (وقد) ساقطة من ق.

(٢) في ح٢ : نشبت.

(٣) في ح٢ : الرسل.

(٤) في ط، غ، ح١ : حذر.

(٥) في ب، أ، ح١، م، غ، ش، د، ط : يعترض، وفي ح٢، ق : يُعرض.

(٦) في ب، غ، ح١، ط : أن.

الإيمان لا تطمئن إليه . فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف ما لديه. وكذلك[١] أهل الريبة يكذبون ، ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون[٢] ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون : ٢] .

تبّاً لهم ! برزوا إلىٰ البيداء[٣] مع ركب الإيمان . فلما رأوا طول الطريق ، وبعد الشقة نكصوا علىٰ أعقابهم ورجعوا ، وظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش ولذة المنام في ديارهم .

فما متعوا به ، ولا بتلك النجعة[٤][٥] انتفعوا . فما هو إلا أن صاح بهم الصائح ، فقاموا عن موائد أطعمتهم والقوم جياع ما شبعوا . فكيف حالهم عند اللقاء؟ وقد عرفوا ثم أنكروا ، وعموا بعد ما عاينوا الحق وأبصروا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون : ٣] .

من صفات المنافقين

أحسن الناس أجساماً ، وأحلاهم[٦] لساناً ، وألطفهم بياناً ، وأخبثهم قلوباً ، وأضعفهم جناناً[٧] ، فهم كالخُشُب المسنّدة التي لا تمييز لها[٨] . وقد قلعت من

---

(١) في د : ولذلك .

(٢) في ط ، ح١ ، ح٢ ، ق : زيادة قد .

(٣) البيداء : هي الفلاة . انظر : المعجم الوسيط : ٧٨ مادة : بيد .

(٤) في ط ، غ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، ق : الهجعة .

(٥) النجعة : طلاب الكلأ في موضعه ، وفيه إشارة إلىٰ طلبه ولو كان بعيداً . انظر : مختار الصحاح ٢٧٠ مادة : نجع .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ : وأخلابهم .

(٧) الجنان : بالفتح هو القلب . انظر : مختار الصحاح ٤٨ مادة جنن .

(٨) في ط والجميع سوىٰ أ ، ش : لا ثمر لها .

مغارسها فتساندت إلىٰ حائط يقيمها ، لئلا يطأها السالكون ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون : ٤] .

يؤخّرون الصلاة عن وقتها الأول إلىٰ شَرَق [1] الموتىٰ ، فالصبح عند طلوع الشمس، والعصر عند الغروب، وينقرونها نقر الغراب . إذ هي صلاة الأبدان ، لا صلاة القلوب . ويلتفتون فيها التفات الثعلب ، إذ [2] يتيقن أنه مطرود مطلوب . ولا يشهدون الجماعة ؛ بل إن صلىٰ أحدهم ففي البيت أو الدكان . وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر ، وإذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان [3] . هذه معاملتهم للخلق . وتلك معاملتهم

---

(١) الشَرَق : الشجا والغصة . وقد شرق بريقه أي غص به . انظر : الصحاح ٤/ ١٥٠١ . مادة (شرق)١٥٠١ . وفي حديث ابن مسعود الذي رواه مسلم ١/ ٣٧٨ -٣٧٩ في كتاب المساجد، باب الندب إلىٰ وضع الأيدي علىٰ الركب في الركوع ... ، ح٥٣٤ . وفيه : «إنه ستكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عن ميقاتها ويخنقونها إلىٰ شَرَقِ الموتىٰ ....» الحديث.
والمراد بشرق الموتىٰ أحد معنيين :
الأول : أنه أراد به آخر النهار ؛ لأن الشمس في ذلك الوقت إنما تلبث قليلاً ثم تغيب .
الثاني : من قولهم شرق الميت بريقه إذا غص به .
والمعنىٰ الذي أراده هنا : أنهم يؤخرون الصلاة حتىٰ لم يبق في الوقت إلا بقدر ما بقي من نفس هذا الذي قد شرق بريقه عند الموت . انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٦٥ ، ولسان العرب ٧/ ٩٨ مادة (شرق) .

(٢) في ح١ ، ح٢ ، د ، ق : إذا .

(٣) يشير إلىٰ قول النبي ﷺ : «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن

للحق[1]، فخذ وصفهم من أول المطففين، وآخر ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١] .

فلا ينبئك عن أوصافهم مثل خبير ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة : ٧٣] فما أكثرهم! وهم الأقلون . وما أجبرهم! وهم الأذلون . وما أجهلهم[2]! وهم المتعلمون[3] وما أغرهم بالله! إذ هم بعظمته جاهلون ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة : ٥٦] .

إن أصاب أهل الكتاب والسنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمَّهم .

وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحّص به ذنوبهم ، ويكفِّر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرَّهم . وهذا يحقق إرثهم وإرث من عداهم ، ولا يستوي من موروثه الرسول ، ومن موروثهم : ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة : ٥٠ ، ٥١] وقال تعالىٰ في شأن السَّلَفين

كانت فيه خصلة من النفاق حتىٰ يدعها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر وإذا عاهد غدر» . رواه البخاري ١/ ٨٩ في كتاب الإيمان ، باب علامة المنافق (ح٣٤) وفي ٥/ ١٠٧ في كتاب المظالم ، باب إذا خاصم فجر (ح٢٤٥٩) . ومسلم ١/ ٧٨ في كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق (ح٥٨) ، وأحمد في مسنده (٢/ ١٨٩) .

(١) في ط والجميع سوىٰ م ، د : للخالق .

(٢) في ب ، د ، م : أجلهم .

(٣) في ط : المتعالمون .

المختلفين والحق لا يدفع [١] بمكابرة أهل الزيغ والتخليط، ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

كره الله طاعتهم [٢]، لخبث قلوبهم وفساد نياتهم. فثبطهم عنها وأقعدهم، وأبغض قربهم منه وجوارهم [٣] لميلهم إلىٰ أعدائه. فطردهم عنه وأبعدهم. وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم. وأشقاهم وما أسعدهم. وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم في الفلاح بعده، إلا أن يكونوا من التائبين. فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]، ثم ذكر حكمته في تثبيطهم وإقعادهم، وطردهم عن بابه وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم، وهو أحكم الحاكمين فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

ثقلت عليهم النصوص فكرهوها، وأعياهم [٤] حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها، وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها، وصالت عليهم

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش، أ: لا يندفع.

(٢) في ط، ح١، ح٢، ق: طاعاتهم.

(٣) في ط، ح١: وجواره.

(٤) في ب، م، غ، ح١، ح٢، د: أعياهم.

نصوص الكتاب والسنة فوضعوا لها قوانين ، ردوها بها ودفعوها . ولقد هتك الله أستارهم ، وكشف أسرارهم ، وضرب لعباده أمثالهم . وعلم [١] أنه كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم ، فذكر أوصافهم . لأوليائه ليكونوا منها علىٰ حذر ، وبينها لهم . فقال : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد : ٩] .

هذا شأن من ثقلت عليه النصوص ، فرآها حائلة بينه وبين بدعته وهواه . فهي في وجهه كالبنيان المرصوص . فباعها بمحصل من الكلام الباطل . واستبدل منها بالفصوص [٢] فأعقبهم ذلك أن أفسد عليهم إعلانهم إسرارهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾ [محمد : ٢٦-٢٨] .

أَسرُّوا سرائر النفاق . فأظهرها الله علىٰ صفحات الوجوه منهم ، وفلتات اللسان ، ووسمهم [٣] لأجلها بسيماء لا يخفون بها علىٰ أهل البصائر والإيمان ،

---

(١) في غ ، د ، م ، ب ، ح١ ، ح٢ : وأعلم .

(٢) لعله بهذا يشير إلىٰ كتاب فصوص الحكم لابن عربي ، وهو يتألف من سبعة وعشرين فصلاً ، والفصوص عرض لقضايا الكون كما يراها ابن عربي من خلال لغة رمزية تحكي عن رقائق الأنبياء وعلاقتها بحقائق الوجود . انظر : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ١/ ١٢٦١ والمتوليات للدكتور حسن زيدان ١٣٦ .

(٣) الوسم : الأثر والمعْلَم ، ووسمت الشيء وسماً أثَّرتُ فيه بسمة . واتسم الرجل جعل لنفسه سمة يعرف بها . معجم مقاييس اللغة ٢/ ٦٣١ ، مختار الصحاح ٣٠٠ .

وظنوا أنهم إذ (١) كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا (٢) على (٣) النقاد (٤) والناقد البصير قد كشفها لكم ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩، ٣٠].

فكيف بهم (٥) إذا جمعوا ليوم التلاق، وتجلى الله - جل جلاله - للعباد وقد (٦) كشف عن ساق؟ ودعوا إلى السجود فلا يستطيعون ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣].

أم كيف بهم إذا حشروا إلى جسر جهنم؟ (٧)، وهو أدق من الشعرة (٨) وأحدُّ

---

(١) في ق: إذا.

(٢) في ق: رجعوا.

(٣) في ط والجميع سوى ش، أ: على الصيارف والنقاد.

(٤) في ط، ب، ح١، ح٢، د، غ، ق زيادة: كيف.

(٥) (بهم) ساقطة من ط، ح١، ح٢، ب.

(٦) (وقد) ساقط من ح٢.

(٧) المراد به الصراط المضروب على متن جهنم كما قال النبي ﷺ: «ويضرب الصراط بين ظهري جهنم ...» جزء من حديث أبي هريرة رواه البخاري ١٣/ ٤١٩ في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ (ح٧٤٣٧).

قال ابن أبي العز على قول الطحاوي: «ونؤمن بالبعث ... والصراط» أي ونؤمن بالصراط وهو جسر على جهنم إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط» انظر: شرح الطحاوية ٤٦٩.

(٨) لم أجد حديثاً يدل على هذا الوصف وإنما ذكره ابن حجر في الفتح ١٣/ ٤٥٤ عن الفضيل

من الحُسام[1] .

وهو دحض مزلة[2]، مظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطئ الأقدام[3].

فقسمت بين الناس الأنوار ، وهم علىٰ قدر تفاوتها في المرور والذهاب ،

ابن عياض ثم قال : وهذا معضل لا يثبت وكذلك ذكره عن سعيد بن أبي هلال ثم قال : وهو مرسل أو معضل .

(١) ثبت هذا في حديث ابن مسعود الطويل وفيه : «الصراط كحد السيف دحض مزلة» .

رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٠٨ في كتاب التفسير ، تفسير سورة مريم ح٣٤٢٤ ، وقال صحيح علىٰ شرح الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ ووافقه الذهبي ، ورواه الطبراني في الكبير ٩/ ٤١٦ (ح٩٧٦٣) . وذكره الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٤٠ ، وقال رواه الطبراني من طرق ورجال أحدها رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني وهو ثقة ، وصححه الألباني .

انظر : شرح الطحاوية ٤٧٠ .

(٢) دحض مزلة : دحض : أي زلق يقال مكان دحض أي زلق ، وفلان داحض لا ثبات له ولا عزيمة في الأمور . انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣١٠ ، المعجم الوسيط ٢٧٣ . ثبت هذا في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ وفيه : قلنا يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «مدحضة مزلة عليه خطاطيف وكلاليب ومسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء ...»

رواه البخاري ١٣/ ٤٢٠ في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالىٰ : ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ (ح٧٤٣٩) ، ومسلم ١/ ١٦٧-١٧١ في كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية(ح١٨٣) .

(٣) كما في حديث ابن مسعود وفيه : «فيعطون نورهم علىٰ قدر أعمالهم وقال : فمنهم يعطىٰ نوره مثل الجبل بين يديه ، ومنهم يعطىٰ نوره فوق تلك ، ومنهم من يُعطىٰ نوره مثل النخلة بيمينه ومنهم من يعطىٰ دون ذلك بيمينه حتىٰ يكون آخر من يعطىٰ نوره علىٰ إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة إذا أضاء قدم قدمه وإذا أطفىٰء قام . قال : فيمر ويمرون علىٰ الصراط والصراط كحد السيف دحض مزلة ، فيقال لهم : امضوا علىٰ قدر نوركم ... » .

وأعطوا نوراً ظاهراً مع أهل الإسلام ، كما كانوا بينهم في هذه الدار ، يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام ، فلما توسطوا الجسر عصفت علىٰ أنوارهم أهوية النفاق ، فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح[1] ، فوقفوا حيارىٰ لا يستطيعون المرور . فضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب ؛ ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح ، باطنه - الذي يلي المؤمنين- فيه الرحمة ، وما يليهم من قبله[2] العذاب والنقمة . ينادون من تقدمهم من وفد الإيمان ، ومشاعل الركب تلوح علىٰ بعد كالنجوم ، وتبدو لناظر الإنسان ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] لنتمكن في هذا المضيق من العبور فقد طفئت أنوارها، ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور، ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد : ١٣] ، حيث قسمت الأنوار . فهيهات الوقوف لأحد في مثل هذا المضمار! كيف يلتمس[3] الوقوف في هذا المضيق؟ وهل[4] يلوي اليوم أحد علىٰ أحد في هذا الطريق[5]؟ فذكَّروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم في هذه الدار ، كما يذكِّر الغريب صاحب الوطن بصحبته له في الأسفار ﴿أَلَمْ نَكُن

---

(١) كما في حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ وفيه : «ويُعطىٰ كل إنسان منهم منافق أو مؤمن نوراً ثم يتبعونه، وعلىٰ جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله ثم يطفأ نور المنافقين ...» رواه مسلم ١/ ١٧٧ في كتاب الإيمان ، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها (ح١٩١) .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش ، ب : من قبلهم .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش ، غ : نلتمس .

(٤) في ط ، ح١ ، ح٢ ، د : فهل .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش ، م زيادة : وهل يلتفت اليوم رفيق إلىٰ رفيق؟

مَّعَكُمْ ﴾ [الحديد : ١٤] نصوم كما تصومون ، ونصلي كما تصلون . ونقرأ كما تقرءون ، ونتصدق كما تتصدقون ، ونحج كما تحجون؟ فما الذي فرق بيننا اليوم ، حتىٰ انفردتم دوننا (١) بالمرور؟ ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الحديد : ١٤](٢) ، كانت ظواهركم معنا ، وبواطنكم مع كل ملحد ، وكل ظلوم كفور ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد : ١٤ ، ١٥] .

لا تستطل أوصاف القوم فالمتروك - والله - أكثر من المذكور . كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم ، لكثرتهم علىٰ ظهر الأرض وفي أجواف القبور . فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات . وتتعطل (٣) بهم أسباب المعيشات (٤) ، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات سمع حذيفة ـ رضي الله عنه ـ رجلاً يقول : «اللهم اهلك المنافقين. فقال : يا ابن أخي، لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة [السالك](٥)»(٦) .

---

(١) في ب : عنا .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ زيادة : ولكنكم .

(٣) في ح١ ، ح٢ ، د ، ق : وتعطل .

(٤) في ب ، غ ، ح١ ، ط : المعايش .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل ، ش وما أثبته من ط وباقي النسخ .

(٦) روىٰ الإمام ابن بطة في كتاب الإبانة ٢/ ٦٩٨ عن أبي البختري قال : قال رجل : اللهم أهلك المنافقين ، فقال حذيفة : لو هلكوا ما أنصفتم من عدوكم ، وروىٰ عن الحسن والشعبي : لولا المنافقون لاستوحشتم في الطرقات .

تالله لقد قطع [١] خوف النفاق قلوب السابقين الأولين . ولعلمهم [٢] بدقِّه [٣] وجلِّه وتفاصيله وجمله . ساءت ظنونهم بأنفسهم [٤] حتىٰ خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين . قال عمر بن الخطاب لحذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ : «يا حذيفة نشدتك بالله ، هل سمَّاني لك رسول الله ﷺ منهم؟ فقال[٥]: لا . ولا أُزكي بعدك أحداً» [٦] .

قال ابن أبي مليكة[٧] : «أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه ، ما منهم أحد يقول إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل» ذكره البخاري[٨] وذكر عن الحسن رحمه الله: «ما أمنه إلا منافق . ولا خافه إلا

---

(١) في ق : قلح .

(٢) في ط ، ق : لعلمهم .

(٣) في ب ، ح١ ، أ ، غ ، ح٢ ، م ، د : بدقته .

(٤) في ب ، ع ، أ ، ق : بنفوسهم .

(٥) في ط ، ح١ : قال .

(٦) ذكر نحوه القرطبي في تفسيره ١/ ٢٠٠ .

(٧) هو عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة القرشي التيمي ، الإمام الحجة الحافظ ، حدث عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وابن عمر ، وابن عباس وغيرهم ، كان عالماً مفتياً ، صاحب حديث وإتقان ، ولي القضاء والأذان لابن الزبير ، وكان إمام الحرم وشيخه ، توفي سنة ١١٧هـ .
ترجمته في : السير ٥/ ٨٨ ، تهذيب التهذيب ٥/ ٣٠٦ ، شذرات الذهب ١/ ١٥٣ .

(٨) ذكره البخاري تعليقاً ١/ ١٠٩ في كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر . ووصله ابن حجر في تغليق التعليق ٢/ ٥٢ ، ورواه البخاري في التاريخ الكبير ٥/ ١٣٧ .

مؤمن»[١] . ولقد ذكر عن بعض الصحابة أنه كان يقول في دعائه : «اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق . قيل : وما خشوع النفاق؟ قال : أن يخشع البدن[٢] والقلب غير[٣] خاشع لله تعالىٰ»[٤] .

ولقد[٥] ملئت قلوب القوم إيماناً ويقيناً ، وخوفهم من النفاق شديد . فَهمُّهمْ[٦] لذلك ثقيل . وسواهم كثيرٌ منهم لا يجاوز إيمانهُم حناجرَهم ، وهم يدّعون أنه[٧]كإيمان جبريل وميكائيل .

زَرْعُ النفاقِ ينبت علىٰ ساقيتين : ساقية الكذب ، وساقية الرياء . ومخرجهما من عينين : عين ضعف البصيرة ، وعين ضعف العزيمة . فإذا تمت هذه الأركان الأربع : استحكم بنيان النفاق[٨] ؛ ولكنه بمدارج السيول علىٰ شفا جرف هار . فإذا سال سيل[٩] الحقائق ، وعاينوا[١٠] يوم تبلىٰ السرائر ، وكُشف

---

(١) ذكره البخاري تعليقاً ١/ ١٠٩ في كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله ...

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : : أن يُرىٰ البدن خاشعاً .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : وليس بخاشع .

(٤) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم ٢/ ٤٩٠ .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ : تالله لقد .

(٦) في ط ، ح١ ، ح٢ ، د ، ق : وهمهم .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : أن إيمانهم .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش : نبات النفاق وبنيانه .

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش : فإذا شاهدوا سبل .

(١٠) (وعاينوا) ساقطة من : ط ، ق ، د ، غ .

المستور ، وبُعثر ما في القبور ، وحُصِّل ما في الصدور . تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق ؛ أن حواصله التي حصَّلها كانت كالسراب ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور : ٣٩] . [قلوبهم عن الخيرات [١] لاهية ، وأجسادهم إليها ساعية ، والفاحشة في فجاجهم فاشية ، وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن [٢] سماعه قاسية ، وإذا حضوا الباطل وشهدوا الزور انفتحت [٣] أبصار [٤] قلوبهم ، وكانت آذانهم واعية .

فهذه - والله - أمارات النفاق [٥] فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية . إذا عاهدوا لم يفوا ، وإن وعدوا أخلفوا ، وإن قالوا لم ينصفوا ، وإن دعوا إلىٰ الطاعة وقفوا ، وإذا قيل لهم تعالوا إلىٰ ما أنزل الله صدفوا [٦] ، وإذا دعتهم أهواؤهم إلىٰ أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا . فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان ، والخزي والخسران ، فلا تثق بعهودهم ، ولا تطمئن إلىٰ وعودهم ، فإنهم فيها كاذبون ، وهم لما سواها مخالفون ، ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ

---

(١) في م ، ح٢ : الخير .

(٢) في د ، م ، ق : عند .

(٣) في ب زيادة : به .

(٤) (أبصار) ساقطة من : ب .

(٥) في ط : النفق .

(٦) صدفوا : أي أعرضوا . انظر : مختار الصحاح ١٥١ مادة : صدف .

ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [التوبة : ٧٥ - ٧٧][1] .

* * *

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل ش ، وما أثبته من ط وباقي النسخ .

فصل

أنواع الفسوق

وأما الفسوق[1]: فهو في كتاب الله نوعان: مفرد مطلق. ومقرون بالعصيان.

والمفرد نوعان أيضاً: فسوق كفر. يخرج عن الإسلام، وفسوق لا يخرج عن الإسلام. فالمقرون كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

والمفرد - الذي هو فسوق كفر - كقوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا

---

(١) الفسوق: والفسق مادة فسق. الخروج عن طريق الحق. قال ابن فارس: «الفاء والسين والقاف كلمة واحدة وهي الفسق وهو الخروج عن الطاعة» انظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٥٤. يقال فسق عن أمر ربه أي: خرج، والفسِّيق الدائم الفسق. انظر: الصحاح ٤/ ١٥٤٣.

قال ابن منظور: «الفسق: العصيان والترك لأمر الله - عز و جل - والخروج عن طريق الحق يقال فسق يفْسق ويفسُق فسقاً وفسوقاً، وفَسُقَ: أي فجر. وقيل: الفسوق الخروج عن الدين، وكذلك الميل إلى المعصية كما فسق إبليس عن أمر ربه أي جارَ ومالَ عن طاعته» انظر: لسان العرب ١٠/ ٢٦٢ مادة: فسق.

والفسوق اصطلاحاً: من شهد ولم يعمل واعتقد. للجرجاني، انظر: التعريفات ص١٨٧.

وقال المناوي: «هو الخروج عن الطاعة بارتكاب الذنب وإن قَلَّ، ولكن تُعورف فيما إذا كان كبيرة، وأكثر ما يقال عن الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأخلَّ بأحكامه، والفاسق أعمُّ من الكافر، والظالم أعمُّ من الفاسق». انظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ٥٥٧.

والإمام ابن القيم - رحمه الله - بين أقسام الفسوق في كتاب الله تعالى وذكر أنه نوعان مفرد مطلق ومقرون بالعصيان، وأنه فسق كفر يخرج من الملة. وفسق معصية لا يخرج من الملة.

وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة : ٢٦ ، ٢٧] . وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة : ٩٩] ، وقوله : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة : ٢٠] . فهذا كله فسوق كفر .

وأما الفسوق الذي لا يخرج عن الإسلام فكقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة : ٢٨٢] . وقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات : ٦] .

هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة [1] بن أبي معيط لما بعثه رسول الله ﷺ إلىٰ بني المصطلق بعد الوقعة مصدقاً . وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية . فلما سمع به [2] القوم تلقوه ، تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ . فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فهابهم فرجع من الطريق إلىٰ رسول الله ﷺ. فقال:

---

(١) الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو وهب الأموي ، وهو أخو أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنهم لأمه ، بعثه النبي ﷺ على صدقات بني المصطلق . ترجمته في : أسد الغابة ٤/ ٦٧٥ ، السير ٣/ ٤١٢ ، الإصابة ٣/ ٦٠١ .

(٢) في ط والجميع سوى ش ، أ ، ح٢ : سمع بمقدمه .

إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم ، وأرادوا قتلي . فغضب رسول الله ﷺ ، وهم أن يغزوهم . فبلغ القوم رجوعُه فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، سمعنا برسولك ، فخرجنا نتلقاه ونكرمه ، ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله ، فبدا له في الرجوع . فخشينا أنه إنما رَدّه من الطريق كتاب جاءه [1] منك لغضب غضبته علينا ، وإنا [2] نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله . فاتهمهم رسول الله ﷺ ، وبعث خالد بن الوليد [3] خفية في عسكر ، وأمره أن يخفي عليهم قدومه . وقال له : انظر . فإن رأيت منهم ما يدل علىٰ إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم ، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما يستعمل [4] في الكفار ، ففعل ذلك خالد ، ووافاهم . فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء ، فأخذ منهم صدقاتهم ، ولم ير منهم إلا الطاعة والخير فانصرف [5] إلىٰ رسول الله ﷺ وأخبره الخبر . فنزل : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ

---

(١) في ح١ : جاء .

(٢) في ق : ونحن .

(٣) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي ، قاتل مع المشركين في غزوة أحد . أسلم وهاجر إلى المدينة سنة ٨هـ وسماه رسول الله ﷺ بسيف الله ، احتبس أدرعه ولأمته في سبيل الله ، حارب أهل الردة ومسيلمة ، وشهد حروب الشام ، ولم يبق من جسده قيد شبر إلا وعليه طابع الشهداء . توفي بحمص سنة ٢١هـ .

ترجمته في : أسد الغابة ١/ ٥٨٦ ، السير ١/ ٣٦٦ ، الإصابة ١/ ٤١٢ .

(٤) في ط والجميع سوى أ : تستعمل .

(٥) في ط والجميع سوى ش ، أ : فرجع .

﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات : ٦]»[1] .

و«النبأ» هو الخبر الغائب عن المُخْبَر إذا كان له شأن . و«التبيين» طلب بيان حقيقته والإحاطة بها[2] علماً .

وههٰنا فائدة لطيفة ، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه وشهادته[3] جملة . وإنما أمر بالتبين[4] ، فإذا قامت قرائن وأدلة من خارج تدل[5] علىٰ صدقه عمل بدليل الصدق ، ولو أخبر به من أخبر . فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته . وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم ؛ بل كثير منهم يتحرىٰ الصدق غاية التحري ، وفسقه من جهات أخر . فمثل هذا لا يُرد خبره ولا شهادته ، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق ، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة . ولا سيما

---

(١) رواه أحمد مسنده ٤/ ٢٧٩ ، والطبراني في الكبير ٣/ ٢٧٤ (ح٣٣٩٥) ، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٠٩ رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات ، وقال السيوطي في التفسير ٧/ ٥٥٥ ، أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه بسند جيد . ثم ذكر الحديث .

وقال شعيب الأرنؤوط بعد ذكره لكلام الهيثمي : كذا قال مع أن ديناراً والد عيسى لم يوثقه غير ابن حبان على عادته في توثيق المجاهيل ولم يرو عنه غير ابنه عيسى . انظر : سير أعلام النبلاء ٣/ ٤١٤ . الهامش .

(٢) في غ : به .

(٣) في ط : ورد شهادته ، وفي ح٢ وتكذيب شهادته .

(٤) في ش : وإنما المراد التبين .

(٥) (تدل) ساقطة من : ش .

من فسقه من جهة الاعتقاد والرأي ، وهو متحرٍ للصدق . فهذا لا يرد خبره ولا شهادته .

وأما من فسقه من جهة الكذب : فإن كثر منه وتكرر ، بحيث يغلب كذبه علىٰ صدقه ، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته ؛ وإن ندر منه مرة أو مرتين[1] . في رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء[2] ، وهما روايتان عن الإمام أحمد - رحمه الله - .

والمقصود : ذكر الفسوق الذي لا يخرج إلىٰ الكفر .

والفسوق الذي تجب التوبة منه أعم من الفسق[3] الذي ترد به الرواية والشهادة .

أقسام الفسوق الذي تجب التوبة منه

وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه . وهو قسمان : فسق من جهة العمل . وفسق من جهة الاعتقاد[4] .

ففسق العمل نوعان : مقرون بالعصيان ومفرد .

فسق العمل نوعان

فالمقرون بالعصيان : هو ارتكاب ما نهىٰ الله عنه . والعصيان : هو عصيان أمره . كما قال تعالىٰ : ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم : ٦] ، وقال موسىٰ لأخيه هارون - عليهما السلام - : ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا

---

(١) في ط ، د : مرة ومرتين .

(٢) انظر : الإنصاف ١٢/ ٤٥ ، المغني ١٤/ ١٤٧ .

(٣) في د ، غ ، ب ، ح١ ، ق ، ط : الفسوق .

(٤) انظر : المغني ١٤/ ١٤٧ .

تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ [طه : ٩٢ ، ٩٣] .

وقال الشاعر :

أمرتك أمراً جازماً فعصيتني   فأصبحت مسلوب الإمارة نادماً(١)

فالفسق أخص بارتكاب النهي ، ولهذا يطلق عليه كثيراً . كقوله : ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ﴾ [البقرة : ٢٨٢]، والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم . ويطلق كل منهما علىٰ صاحبه . كقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف : ٥٠] ، فسمىٰ مخالفته للأمر فسقاً ، وقال : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه : ١٢١] فسمي ارتكابه للنهي معصية فهذا عند الإفراد ، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر ، والآخر لمخالفة النهي .

و«التقوىٰ» (٢) اتقاء مجموع الأمرين فيه (١) ، وبتحقيقها تصح التوبة من

---

(١) ينسب لفيروز بن الحصين كما في المستظرف ص١٧٥ ، ولعمرو بن قمئة بيت قريب منه وهو قوله :

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني   فجدُّك إذ لم تقبل النصح غائر

انظر : ديوانه : ٧٠ .

(٢) التقوى لغة : هي الاسم من قولهم اتقى . وهي مأخوذة من مادة وَقَى التي تدل على دفع شيء عن شيء بغيره . والوقاية ما يقي الشيء واتَق اللهَ توقهِ ، أي : اجعل بينك وبينه كالوقاية . انظر : معجم مقاييس اللغة ٢/ ٦٤١ مادة وقى . قال الجوهري : التقوى والتقى واحد والتقي : المتُقي وقد قالوا : ما أَتقَاه لله . انظر : الصحاح ٦/ ٢٥٢٧ .

واتقيتُ الشيء أَتَّقيه: حذرته و في القرآن: ﴿وآتاهم تقواهم﴾ [محمد: ١٧] أي جزاء تقواهم،

الفسوق والعصيان . بأن يعمل العبد بطاعة الله علىٰ نور من الله ، يرجو ثواب الله ، ويترك معصية الله ، علىٰ نور من الله ، يخاف عقاب الله .

فسق الاعتقاد

وفسق الاعتقاد : كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ، ويحرمون ما حرم الله ، ويوجبون ما أوجب(٢) ؛ ولكن ينفون كثيراً مما أثبت الله ورسوله ، جهلاً وتأويلاً(٣) ، وتقليداً للشيوخ .

وقيل : معناه : ألهمهم تقواهم ، وقوله تعالى : ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ [المدثر : ٥٦] أي هو أهل أن يتقى عقابه ، وأهل أن يعمل بما يؤدي إلى مغفرته . انظر : لسان العرب ١٥/ ٣٧٨ مادة (وقى) .

والتقوى اصطلاحاً : قال الراغب : التقوى في تعارف الشرع : هي حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك بعض المباحات . انظر : المفردات للراغب ٥٣٠ .

وقال الجرجاني : التقوى في الطاعة يراد بها الإخلاص وفي المعصية يراد بها الترك والحذر وقيل هي : الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته ، وصيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك ، وقيل : هي المحافظة على آداب الشريعة ، ومجانبة كل ما يبعد المرء عن الله تعالى ، وقيل : هي ترك حظوظ النفس ومباينة الهوى . انظر : التعريفات ٧٢-٧٣ .

ولقد عرفها السلف بعبارات متعددة ذكرها ابن رجب في جامع العلوم والحكم ١/ ٤٠٠ .

(١) (فيه) ساقطة من : ط ، د ، ب ، غ ، ح١ ، ح٢ ، ق .

(٢) في ط والجميع سوى ش ، أ ، م زيادة : الله .

(٣) التأويل : هو تفعيل من أوّل يُؤوّل تأويلاً وثلاثيه آل يؤول أي رجع وعاد . قال أبو عبيد : التأويل : المرجع والمصير مأخوذ من آل يؤول إلى كذا ، أي صار إليه . انظر : لسان العرب ١/ ٢٦٤-٢٦٥ مادة (أول) . وقال الجوهري : التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء وقد أوّلته تأويلاً وتأولته بمعنى . انظر : الصحاح ٤/ ١٦٢٧ .

التأويل في الاصطلاح : له ثلاث معانٍ ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – وهي:

ويثبتون ما لم [1] يثبته الله ورسوله كذلك .

وهؤلاء كالخوارج [2] المارقة ، وكثير من

الأول : التأويل بمعنى التفسير وهذا التأويل في اصطلاح جمهور المفسرين وغيرهم وهذا التأويل يعلمه الراسخون في العلم . كما قال تعالى : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ...** ﴾ الآية [آل عمران : ٧] وهو موافق لموقف من وقف من السلف على قوله (العلم) .

الثاني : حقيقة المعنى التي يؤول الكلام إليه وإن وافقت ظاهره . فتأويل الخبر هو الحقيقة ، وتأويل ما أخبر الله به من صفاته وأفعاله ، نفس ما هو عليه سبحانه ، وما هو موصوف به من الصفات العلى ، وتأويل الأمر هو نفس الأفعال المأمور بها ، وتأويل الوعد والوعيد هو نفس الموعود والمتوعد به . وهذان المعنيان هما معنى التأويل عند السلف .

الثالث : التأويل في اصطلاح كثير من المتأخرين هو : صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك ، فلا يكون معنى اللفظ الموافق لدلالة ظاهرة تأويلاً على اصطلاح هؤلاء ، وظنوا أن مراد الله تعالى بلفظ التأويل ذلك وأن للنصوص تأويلاً يخالف مدلولها لا يعلمه إلا الله ولا يعلمه المتأولون . انظر : الفتوى الحموية ضمن مجموع الفتاوى ٥/ ٣٥ ، ٣٦ ، وانظر الصواعق المرسلة لابن القيم ١/ ١٧٧ - ١٧٨ .

(١) (لم) ساقطة من ق .

(٢) **الخوارج** : إحدى الفرق الكبيرة المنتسبة إلى الإسلام . نشأت هذه الفرقة في عصر الصحابة ؛ بل وجد أولهم في زمن النبي ﷺ مثل ذو الخويصرة الذي قال للنبي ﷺ حين تقسيم الغنائم : اعدل فإنك لم تعدل . سموا بالخوارج لخروجهم على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ، ويجمعهم القول بالتبرؤ من عثمان وعلي - رضي الله عنهما - ، كما أجمعوا - عدا النجدات منهم - على تكفير مرتكب الكبيرة ، وتخليده في النار إذا مات مصراً عليها ، ويصل عدد فرقهم إلى عشرين فرقة ، ومن أسمائهم أيضاً الحرورية .

انظر : مقالات الإسلاميين ٨٦ وما بعدها ، الفرق بين الفرق ٧٢ وما بعدها ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٤٦ وما بعدها ، الملل والنحل ١/ ١١٤ وما بعدها .

الروافض[١]، والقدرية[٢]، والمعتزلة[٣]، وكثير من الجهمية[٤] الذين ليسوا غلاة

---

(١) الرافضة : سموا بذلك لأن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لما توجه لقتال هشام بن عبدالملك طعن عسكره في أبي بكر فمنعهم من ذلك فقالوا : تبرأ من الشيخين حتى نكون معك فقال : لا بل أتولاهما ، وأتبرأ ممن تبرأ منهما فقالوا : إذن نرفضك . فسميت الرافضة ، وقيل لأنهم طالبوا زيد بن علي بالتبرؤ ممن خالف علياً في إمامته فامتنع عن ذلك فرفضوه . وقيل سموا بذلك لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر . وهم يثبتون الإمامة عقلاً وأن إمامة علي وتقديمه ثابت نصاً ، وأن الأئمة معصومون ، وهم يقولون برجعة الأموات وأن الأمة ارتدت بتركها إمامة علي - رضي الله عنه - . وهم فرق كثيرة منهم من يصل إلى الكفر ومنهم دون ذلك .
انظر : مقالات الإسلاميين ١٦ وما بعدها ، الملل والنحل ١/ ١٥٥ ، تلبيس إبليس ٩٧ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٢ .

(٢) القدرية : هم القائلون بأن العبد يخلق فعل نفسه ، وأن أفعال العباد مقدورة لهم على جهة الاستقلال ، وكان متقدموهم ينكرون علم الله بالأشياء قبل وجودها ، ومنهم معبد الجهني ، وهم الذين كفرهم السلف ، وأما متأخروهم فهم يثبتون العلم وينازعون في مرتبة الخلق ، ومن أشهر فرقهم المعتزلة . انظر : الفرق بين الفرق ص٢٤ ، الملل والنحل ١/ ٤٣ ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨/ ٤٣٠ ، لوامع الأنوار البهية ١/ ٢٩٩ .

(٣) المعتزلة : هم أتباع واصل بن عطاء وعمر بن عبيد ، وسموا بذلك لاعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد مجلس الحسن البصري لقولهما بأن مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر ، ويجمع المعتزلة القول بنفي صفات الله تعالى ، وأن القرآن محدث ، وأن الله لا يُرى في الآخرة ، وأن الله ليس خالقاً لأفعال العباد ، ويسمون أيضاً القدرية والعدلية ، وتصل فرقهم إلى عشرين فرقة . انظر : مقالات الإسلاميين ١٥٥ وما بعدها ، والفرق بين الفرق ص٢٠-٢١ ، ١١٤-١١٦ ، الملل والنحل ١/ ٤٣ وما بعدها ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين٣٩ وما بعدها .

(٤) الجهمية : هم أتباع الجهم بن صفوان الذي قال إن العبد مجبور على فعله ، ولا قدرة له ولا اختيار ، ومن ضلالاته إنكار الصفات ، والقول بأن الجنة والنار تبيدان ، وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط ، والكفر هو الجهل فقط . انظر : مقالات الإسلاميين ١٣٢ ، والفرق بين الفرق ٢١١ ، الملل والنحل ١/ ٨٦ .

في التجهم .

وأما غالية الجهمية فكغلاة[1] الرافضة. ليس للطائفتين في الإسلام نصيب[2] . ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة[3] ، وقالوا : هم مباينون للملة .

وليس مقصودنا الكلام في أحكام هؤلاء . وإنما المقصود : تحقيق «التوبة» من هذه الأجناس العشرة .

فالتوبة من هذا الفسوق : بإثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله ، من غير تشبيه[4]

---

(١) في ش : وغلاة .

(٢) انظر : السنة لعبدالله بن الإمام أحمد ١/ ١٠٢ وما بعدها ، والشريعة للآجري ٢/ ٦٧٦ وما بعدها ، والفرق بين الفرق ٢١ ، ٢٣ .

(٣) حديث افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة . رواه أحمد في مسنده ٢/ ٣٣٢ ، وأبو داود ٥/ ٤ في كتاب السنة ، باب شرح السنة (ح٤٥٩٦) ، والترمذي ٥/ ٢٥ في كتاب الإيمان ، باب افتراق الأمم (ح٣٩٩١) وقال : حديث حسن صحيح ، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٧ في كتاب الإيمان وقال هذا حديث كثر في الأصول ، وفي كتاب العلم ١/ ٢١٧ وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، ورواه ابن حبان في صحيحه(٨/ ٤٨ ح٦٢١٤) قال الألباني في الصحيحة ١/ ١٢ صحيح . ولمزيد من التوسع في تخريج الحديث ، انظر كتاب صفة الغرباء للشيخ سليمان بن فهد العودة ، ٢٠ .

(٤) التشبيه لغة : الشين والباء والهاء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لوناً ووصفاً . معجم مقاييس اللغة ١/ ٦٣٩ مادة (شبه) .

والمراد به هنا : تشبيه الله ـ عز وجل ـ أو تشبيه صفاته بصفات المخلوقين .

قال ابن عثيمين – رحمه الله – : نسمع كثيراً من الكتب التي نقرؤها يقولون : تشبيه ؛ يعبرون

ولا تمثيل[١]، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه[٢] ونزهه عنه رسوله، من غير تحريف[٣]،

بالتشبيه وهم يقصدون التمثيل، فأيهما أولى أن نعبر بالتشبيه، أو نعبر بالتمثيل؟

نقول: بالتمثيل أولى.

أولاً: لأن القرآن عبَّر به ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١]، ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ [البقرة: ٢٢]... وما أشبه ذلك. وكل ما عبَّر به القرآن فهو أولى من غيره، لأننا لا نجد أفصح من القرآن، ولا أدل على المعنى المراد من القرآن، والله أعلم بما يريده من كلامه، فتكون موافقة القرآن هي الصواب، فنعبِّر بنفي التمثيل، وهكذا في كل مكان؛ فإن موافقة النص في اللفظ أولى من ذكر لفظ مرادف أو مقارب.

ثانياً: أن التشبيه عند بعض الناس يعني إثبات الصفات ولهذا يسمون أهل السنة: مشبهة، فإذا قلنا من غير تشبيه، وهذا الرجل لا يفهم من التشبيه إلا إثبات الصفات، صار كأننا نقول له من غير إثبات صفات، فصار معنى التشبيه يوهم معنىً مفاسداً، فلهذا كان العدل عنه أولى.

ثالثاً: أن نفي التشبيه على الإطلاق غير صحيح؛ لأنه ما من شيئين من الأعيان أو من الصفات إلا وبينهما اشتراك من بعض الوجوه، والاشتراك نوع تشابه، فلو نفيت التشبيه مطلقاً؛ لكنت نفيت كل ما يشترك فيه الخالق والمخلوق في شيء ما.

انظر: شرح الواسطية ١/ ١١١-١١٢.

(١) التمثيل لغة: مَثَّل، الميم والثاء واللام أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مثل هذا: أي نظيره. وربما قالوا: مثيل كشبيه. انظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٤٩٨ مادة (مثل).

والمراد به هنا: ذكر مماثل لله عز وجل أو لأسمائه وصفاته سبحانه.

قال ابن عثيمين - رحمه الله -: والتمثيل ذكر مماثل للشيء، وبينه وبين التكييف عموم وخصوص مطلق؛ لأن كل ممثل مكيف، وليس كل مكيف ممثلا؛ لأن التكييف ذكر كيفية غير مقرونة بمماثل. انظر: شرح الواسطية ١/ ١٠٢.

(٢) (عنه) ساقطة من: ش.

(٣) التحريف لغة: التغيير وإمالة الشيء عن وجهه، يقال: قلم محرّف أي عدل بأحد حرفيه عن الآخر. لسان العرب ٣/ ١٢٩ مادة (حرف).

ولا تعطيل[1] ، وتلقي النفي والإثبات من مشكاة الوحي . لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التي هي منشأ البدعة والضلالة .

شروط توبة الفاسق

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة : بمحض اتباع السنة ولا يكتفىٰ[2] منهم بذلك أيضاً حتىٰ[3] يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة . إذ التوبة من كل[4] ذنب هي بفعل ضده . ولهذا شرط الله في توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدىٰ : [البيان][5] ؛ لأن ذنبهم لما كان بالكتمان ، كانت توبتهم منه بالبيان . قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟

والمراد به هنا هو التغيير لألفاظ الأسماء والصفات أو معانيها، كقول الجهمية في قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه : ٥] أي استولى . وقوله : ﴿وجاء ربك﴾ [الفجر : ٢٢] أي أمره . انظر : التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية ٢٢ .

قال الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله – : فالتحريف : التغير وهو إما لفظي وإما معنوي ، والغالب أن التحريف اللفظي لا يقع ، وإذا وقع فإنما يقع من جاهل .

(١) التعطيل لغة : الإخلاء والتفريغ يقال : عطَّل الدار أي أخلاها ، ويقال : امرأة عطلاء أي لا حلي عليها . انظر : لسان العرب ٩/ ٢٧١ مادة (عطل) .

والمراد به هنا : إنكار ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات ، سواء كان كلياً أو جزئياً ، وسواء كان ذلك بتحريف أو بجحود . انظر : شرح الواسطية لابن عثيمين ١/ ٩١ .

(٢) في ش ، ب ، غ ، ط : يكتفي .

(٣) (حتى) ساقطة من : ق .

(٤) (كل) ساقطة من : ط .

(٥) (البيان) ساقطة من الأصل وفي غ البينات ، وما أثبته من باقي النسخ .

وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٥٩ ، ١٦٠] ، وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم ؛ لأن ذلك[1] كتم الحق ، وهذا كتمه ودعا إلىٰ خلافه ، فكل مبتدع كاتم ولا ينعكس[2] .

وشرط في توبة المنافق : الإخلاص ؛ لأن ذنبه بالرياء . فقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ [النساء :١٤٥و١٤٦] . ولذلك كان الصحيح من القولين : أن توبة القاذف : إكذابه نفسه ؛ لأنه ضد الذنب الذي ارتكبه ، وهتك به عرض المسلم المحصن . فلا تحصل التوبة منه إلا بإكذابه نفسه، لينتفي عن المقذوف العار الذي ألحقه به بالقذف، وهو مقصود التوبة[3].

وأما من قال: إن توبته أن يقول: استغفر الله من القذف، ويعترف بتحريمه[4]، فقول ضعيف ؛ لأن هذا لا مصلحة فيه[5] للمقذوف . ولا يحصل له به براءة عرضه مما قذفه به. فلا يحصل به مقصود التوبة من هذا الذنب. فإن فيه حقين: حقاً لله ، وهو تحريم القذف ؛ فتوبته منه باستغفاره واعترافه بتحريم القذف ،

---

(١) في ب ، د ، غ ، ح١ ، ق ، ط : ذاك .

(٢) في ح٢ : لا ينعكس .

(٣) انظر : المغني ١٤/ ١٩١ .

(٤) المرجع السابق ١٤/ ١٩٢ .

(٥) في د : منه .

وندمه عليه ، وعزمه على أن لا يعود . وحقاً للعبد ، وهو إلحاق العار به ، فتوبته منه بتكذيبه نفسه . فالتوبة من هذا الذنب بمجموع الأمرين .

فإن قيل : إذا كان صادقاً قد عاين الزنا ، فأخبر به ، فكيف يسوغ له تكذيب نفسه وقذفها بالذنب[1] ويكون ذلك من تمام توبته[2]؟

قيل : هذا هو الإشكال الذي قال صاحب هذا القول لأجله[3] إن توبته الاعتراف بتحريم القذف والاستغفار منه . وهو موضع يحتاج فيه إلى بيان الكذب الذي[4] حكم الله به على القاذف ، وأخبر أنه كاذب عنده . ولو كان خبره مطابقاً للواقع . فنقول :

أنواع الكذب

الكذب يراد به أمران :

أحدهما : الخبر غير[5] المطابق لمخبره . وهو نوعان : كذب عمد ، وكذب خطأ . فكذب العمد معروف ، وكذب الخطأ ككذب أبي السنابل[6] في فتواه للمتوفى عنها إذا وضعت حملها أنها لا تحل حتى تتم لها أربعة أشهر وعشراً

---

(١) في ط والجميع سوى أ : بالكذب .

(٢) انظر : المغني ١٤/ ١٩١-١٩٢ .

(٣) في ط والجميع سوى ش ، أ ، م ، زيادة : ما قال .

(٤) (الذي) ساقطة من : ش .

(٥) في الأصل والجميع سوى ش ، ط : الغير ، وما أثبته منهما .

(٦) أبو السنابل بن بعكك بن الحارث بن السباق بن عبدالدار القرشي العبدري ويقال اسمه حبة وقيل : عمرو بن مسلمة الفتح . قال البخاري : لا أعلم أنه عاش بعد النبي ﷺ .
ترجمته في : أسد الغابة ١/ ٤٣٩ ، ٣/ ٦٩٦ ، الإصابة ٤/ ٩٦ .

فقال النبي ﷺ : «كذب أبو السنابل»[١] . ومنه قوله ﷺ : «كذب من قالها»[٢] لمن قال : «حبط عمل عامر»[٣] . حيث قتل نفسه خطأ ، ومنه قول عبادة بن الصامت[٤] ﷺ : «كذب أبو محمد»[٥] حيث قال «الوتر واجب»[٦] ، فهذا كله

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٤٤٧ ، قال الهيثمي في المجمع ٥/ ٣ : رجاله رجال الصحيح. وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده ضعيف . مسند أحمد ٧/ ٣٠٦ الهامش ، وقصة سبيعة رواها البخاري ٩/ ٤٦٩ في كتاب الطلاق ، باب ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهم﴾ (ح٥٣١٨) لكن بدون لفظ «كذب أبو السنابل» . ومسلم كذلك ٢/ ١١٢٢ في كتاب الطلاق ، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها (ح١٤٨٤) .

(٢) رواه البخاري ٧/ ٤٦٣ في كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر (ح٤١٩٦) ، ومسلم ٣/ ١٤٢٧ في كتاب الجهاد ، باب غزوة خيبر (ح١٨٠٢) ، وأحمد في مسنده ٤/ ٤٦-٤٧ .

(٣) عامر بن سنان بن عبدالله بن بشير الأسلمي المعروف بابن الأكوع ، صحابي جليل ، خرج مع النبي ﷺ إلى خيبر وجعل يرتجز بأبيات ، وبارز مرحباً اليهودي فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر ، ورجع سيف عامر على ساقه فمات منه . ترجمته في : أسد الغابة ٣/ ٢٠ ، الإصابة ٢/ ٢٤١ .

(٤) عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم الأنصاري الخزرجي ، الصحابي الجليل ، أحد النقباء ليلة العقبة ومن أعيان البدريين ، شهد المشاهد كلها ، توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ٣٤هـ ، وقيل ٣٥هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٦/ ٩٢ ، أسد الغابة ٣/ ٥٦ ، السير ٢/ ٥ .

(٥) هو مسعود بن أوس بن أصرم بن زيد الأنصاري الخزرجي ، شهد ما بعد بدر من المشاهد مع رسول الله ﷺ وشهد فتح مصر ، وهو الذي زعم أن الوتر واجب ، فقيل لعبادة بن الصامت ذلك فقال : كذب أبو محمد ، توفي ـ رضي الله عنه ـ في خلافة عثمان .
ترجمته في : أسد الغابة ٤/ ٣٨١ ، الإصابة ٣/ ٣٨٩ .

(٦) رواه أبو داود ٢/ ١٣٠ في كتاب الصلاة ، باب فمن لم يوتر (ح١٤٢٠) .

من كذب الخطأ . ومعناه «أخطأ» قائل ذلك .

والثاني من أقسام الكذب : الخبر الذي لا يجوز الإخبار به ، وإن كان[1] مطابقاً لمخبره . كخبر القاذف المنفرد برؤية الزنا ، والإخبار به . فإنه كاذب في حكم الله تعالىٰ ، وإن كان خبره مطابقاً لمخبره . ولهذا قال تعالىٰ : ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور : ١٣] ، فحكم الله في مثل هذا : أن يعاقب عقوبة المفتري الكاذب ، وإن كان خبره مطابقاً . وعلىٰ هذا فلا تتحقق توبته حتىٰ يعترف بأنه كاذب عند الله ، كما أخبر الله به عنه . فإذا لم يعترف بأنه كاذبٌ وقد[2] جعله الله كاذباً ، فأي توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه؟

فصل

في توبة السارق إذا قطعت يده

واختلف في توبة السارق إذا قُطعت يده ، هل من شرطها : ضمان العين المسروقة لربها؟

وأجمعوا علىٰ أن من شرط صحة[3] توبته : أداءها إليه ، إذا كانت موجودة بعينها . وإنما اختلفوا إذا كانت تالفة . فقال الشافعي[4] وأحمد ـ رضي الله عنه ـ :

---

(١) في ط والجميع سوى ش ، أ : خبره .

(٢) (قد) ساقطة من غ ، ط .

(٣) (صحة) ساقطة من ق .

(٤) أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي أحد الأئمة الأربعة ، وإليه ينسب المذهب الشافعي ، ولد سنة ١٥٠هـ ، وتوفي سنة ٢٠٤هـ .
ترجمته في : التاريخ الكبير ١/ ٤٢ ، حلية الأولياء ٦/ ٦٣ ، السير ١٠/ ٥ .

من تمام توبته : ضمانها لمالكها ، ويلزمه ذلك موسراً كان أو معسراً[١] . وقال أبو حنيفة - رحمه الله -[٢] : إذا قطعت يده - وقد استهلك[٣] العين - لم يلزمه ضمانها[٤] ، ولا تتوقف صحة توبته علىٰ الضمان ؛ لأن قطع اليد هو مجموع الجزاء ، والتضمين عقوبة زائدة عليه ، فلا تشرع [٥] .

[٦] قالوا وهذا بخلاف ما إذا كانت العين قائمة [٧] . فإن صاحبها قد وجد عين ماله فلم يكن أخذها عقوبة ثانية ، بخلاف التضمين . فإنه غرامة ، وقد قطع طرفه فلا تجتمع [٨] عليه غرامة الطرف وغرامة المال .

قالوا : ولهذا لم يذكر الله تعالىٰ في عقوبة السارق والمحارب غير إقامة الحد عليهما . ولو كان الضمان لِمَا أتلفوه واجباً لذكره مع الحد ، ولما جعل مجموع جزاء المحاربين ما ذكره من العقوبة بأداة «إنما» التي هي عندكم

---

(١) انظر : المغني ١٢/ ٤٥٤ .

(٢) أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي الإمام الفقيه العالم الزاهد الورع العابد ، أحد الأئمة الأربعة، شهد له الأئمة بالفقه والذكاء ، مناقبه كثيرة ، وإليه ينسب المذهب الحنفي ، توفي سنة ١٥٠هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٨/ ٨١ ، تاريخ بغداد ١٣/ ٣٢٣ ، السير ٦/ ٣٩٠ .

(٣) في ط والجميع سوى ش ، أ : استهلكت .

(٤) انظر : المغني ١٢/ ٤٥٤ .

(٥) في ط والجميع سوى ش ، أ ، د : لا تشرع .

(٦) في ح١ ، ح٢ ، د ، ق ، ط : قال .

(٧) في ح٢ : باقية .

(٨) في د ، ب ، ق ، ط : تجمع .

للحصر . فقال : ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة : ٣٣] ، ومدلول هذا الكلام - عند من يجعل أداة « إنما » للحصر - أنه لا جزاء لهم غير ذلك .

قالوا : وقد روىٰ النسائي [١] - رحمه الله - في سننه من حديث عبدالرحمن ابن عوف[٢] عن النبي ﷺ : **«أنه قضىٰ في السارق إذا أقيم عليه الحد : أنه لا غرم عليه»** [٣] .

---

(١) أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر النسائي الإمام الحافظ ، صاحب السنن ، كان ركناً من أركان الحديث وكان ورعاً تقياً ، ولد بنيسان بلدة مشهورة بخرسان سنة ٢١٥هـ ، وتوفي بمكة سنة ٣٠٣هـ .

ترجمته في : السير ١٤/ ١٢٥ ، البداية والنهاية ١١/ ١٣١ ، تهذيب التهذيب ١/ ٣٦ .

(٢) أبو محمد عبدالرحمن بن عوف بن عبد عوف القرشي صحابي جليل وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، شهد بدراً والمشاهد ، كلها وكان قد هاجر الهجرتين ، توفي - رضي الله عنه - سنة ٣٢هـ . ترجمته في : الحلية ١/ ٩٨ ، السير ١/ ٦٨ ، الإصابة ٢/ ٤٠٨ .

(٣) رواه النسائي ٨/ ٩٣ في كتاب قطع السارق ، باب تعليق يد السارق في عنقه (ح٤٩٨٤) ، وقال : هذا مرسل وليس بثابت ، والبيهقي في شعب الإيمان ٨/ ٤٨١ في كتاب السرقة ، باب غرم السارق (ح١٧٢٨٣) ثم قال : وفي رواية أبي عبدالله : «لا يغرم صاحب السرقة» فهذا حديث مختلف فيه عن المُفَضَّل فروي عنه هكذا . وروي عنه عن يونس عن الزهري عن سعد . وروي عنه عن يونس عن سعد بن إبراهيم عن أخيه المسور ، فإن كان سعد هذا ابن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف فلا نعرف بالتواريخ له أخاً معروفاً بالرواية يقال له المسور ، ولا يثبت للمسور الذي ينسب إليه سعد بن محمد بن المسور بن إبراهيم سماع من جده

قالوا[1] : وهذا هو المستقر في فطر الناس ، وعليه عملهم : أنهم يقطعون السُّرَّاق ، ولا يغرمونهم ما أتلفوه من أموال الناس . وما رآه المؤمنون[2] حسناً فهو عند الله حسن[3] .

قالوا : ولأنها لو ثبتت في ذمته - بعد القطع - لكان قد ملكها ، إذ لا يجتمع لربها البدل والمُبدل . فثبوت[4] بدلها في ذمته يستلزم تقديرَ ملكها . وهو شبهة في إسقاط القطع .

وأصحاب القول الأول يقولون : هذه العين تعلّق بها حقّان ، حق لله ، وحق لمالكها . وهما حقان متغايران لمستحقين متباينين ، فلا يُبطل أحدهما الآخر

عبدالرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ ، ولا رؤية فهو منقطع .

ورواه الدارقطني في سننه وقال : إن صح إسناده كان مرسلاً .

انظر : التعليق المغني على سنن الدارقطني ٣/ ١٨٢-١٨٣ ، ورواه أبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٢٢ بلفظ : «لا يُغرَّم السارق بعد القطع» .

(١) في د ، ق : قال .

(٢) في ش : المسلمون .

(٣) رواه الطبراني في الكبير ٩/ ١١٨ موقوفاً على ابن مسعود ورواه أحمد في مسنده كذلك ١/ ٣٧٩ بلفظ «ما رأى المسلمون . . . » ، والطيالسي في مسنده ص٣٣ ، والحاكم في المستدرك ٣/ ٨٣ (ح٤٤٦٥) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي في المجمع ١/ ١٧٧ رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثقون . وقال الألباني في الضعيفة ٢/ ١٧ (ح٥٣٣) : لا أصل له مرفوع وإنما ورد موقوفاً على ابن مسعود .

(٤) في غ ، م ، ح١ ، ح٢ ، ب : وثبوت .

ويستوفيان[١] معاً ؛ لأن القطع حق لله[٢] ، والضمان حق[٣] للمالك ، ولهذا لا يسقط القطع بإسقاطه بعد الرفع إلىٰ الإمام ، ولو أسقط الضمان سقط .

قالوا[٤] : وهذا كما إذا أكره أمة غيره علىٰ الزنا لزمه الحد لحق الله ، والمهر لحق السيد ، وكذلك إذا أكره الحرة علىٰ الزنا أيضاً ؛ بل لو زنا بأمةٍ ثم قتلها ، لزمه حد الزنا وقيمتها لمالكها ، وهو نظير ما إذا سرقها ، ثم قتلها ، قطعت يده لسرقتها ، وضمنها لمالكها .

قالوا : وكذلك إذا قتل في الإحرام صيداً مملوكاً لمالكه . فعليه الجزاء لحق الله وقيمة الصيد لمالكه ، وكذلك لو[٥] غصب خمر ذمي وشربها ، لزمه الحد حقاً لله ، ولزمه عندكم ضمانها للذمي ، ولم يلزمه ضمان عند الجمهور ؛ لأنها ليست بمال ، فلا تُضمن بالإتلاف كالميتة .

قالوا : وأما قولكم : إن قطع اليد مجموع الجزاء . إن أردتم : أنه مجموع العقوبة فصحيح ، فإنه لم يبق عليه عقوبة ثانية ، ولكن الضمان ليس بعقوبة للسرقة ، ولهذا يجب في حق غير الجاني . كمن أتلف مال غيره خطأ أو إكراها أو في حال نومه ، أو أتلفه إتلافاً مأذوناً له فيه ، كالمضطر إلىٰ أكله ، أو

---

(١) في ط : بل يستوفيان .

(٢) في ح٢ : حق الله .

(٣) في ح٢ : حق المالك .

(٤) (قالوا) ساقطة من ط .

(٥) في ط والجميع سوى ش ، أ : إذا .

المضطر إلىٰ إلقائه في البحر لثقل[١] السفينة، ونحو ذلك. فليس الضمان من العقوبة في شيء.

وأما قولكم: إن الله تعالىٰ لم يذكر في القرآن تضمين السارق والمحارب، فهو لم ينفه أيضاً، وإنما سكت عنه. فحكمه مأخوذ من قواعد الشرع ونصوصه كقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وهذا قد اعتدىٰ بالإتلاف، فيعتدىٰ[٢] عليه بالتضمين. ولهذا أوجبنا رد العين إذا كانت قائمة، ولم يذكر في القرآن. وليس هذا من باب الزيادة علىٰ النص؛ بل من باب[٣] إعمال النصوص كلها. لا يعطل[٤] بعضها ويعمل بعضها[٥]، وكذلك الجواب عن قوله في المحارب: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣] أي عقوبتهم.

قالوا: وأما حديث عبدالرحمن بن عوف: منقطع[٦] لا يثبت. يرويه سعد ابن إبراهيم عن المسور[٧]. وقد طعن في الحديث

---

(١) في ط: لإنجاء.

(٢) في د: فنعتدي.

(٣) (باب) ساقطة من: د، م، غ، ب.

(٤) في ش: لا نعطل.

(٥) في م، ح، ط: ببعضها.

(٦) في ط والجميع سوى أ، ق: فمنقطع.

(٧) في المخطوط والمطبوع (منصور) ولعله تصحيف، وما أثبته من سند الحديث.

والمسور هو: المسور بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف الزهري، روايته عن جده

ابن المنذر[1] ، فقال : سعد بن إبراهيم مجهول [2] ، وقال ابن عبدالبر [3] : الحديث ليس بالقوي[4] .

وأما استقرار ذلك في فطر الناس فمن قال إنه مستقر في فطرهم : أن الغنيّ الواجد إذا سرق مال فقير محتاج أو يتيم ، وأتلفه ، وقطعت يده ، أنه لا يضمن مال هذا الفقير واليتيم ، مع تمكنه من الضمان ، وقدرته عليه ، وضرورة صاحبه وضعفه ، وهل المستقر في فطر الناس إلا عكس هذا؟

وأما قولكم : لو ثبت [5] في ذمته بعد القطع ، لكان قد ملكها فضعيف جداً ؛ لأنها بالإتلاف قد استقرت في ذمته . [ولهذا له المطالبة ببذلها اتفاقاً . وهذا

عبدالرحمن بن عوف مرسلة . توفي سنة ١٠٧هـ . ترجمته في : تهذيب التهذيب ١٠/ ١٤٩ ، تقريب التهذيب ٥٣٢ .

(١) أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام الفقيه المجتهد له تصانيف جيدة في الفقه ، وله تفسير كبير يشهد بإمامته في التأويل ، توفي سنة ٣١٨هـ. ترجمته في: ميزان الاعتدال ٣/ ٤٥٠، السير ١٤/ ٤٩٠، شذرات الذهب ٢/ ٢٨٠ .

(٢) انظر : المغني لابن قدامة ١٢/ ٤٥٤ .

(٣) أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر بن عاصم النمري الأندلسي القرطبي الإمام الحافظ صاحب التصانيف الفائقة ، كان في أصول الديانه على مذهب السلف ولم يدخل في علم الكلام ، توفي سنة ٤٦٣هـ . ترجمته في : السير ١٨/ ١٥٣ ، البداية والنهاية ١٢/ ١١١ ، الديباج المذهب ص٣٥٧ ، شذرات الذهب ٣/ ٣١٤ .

(٤) انظر : التمهيد ١٤/ ٣٨٣ .

(٥) في ش : ثبتت .

الاستقرار في ذمته][1] . لا يمنع القطع . فإنه يقطع بعد إتلافها ، واستقرارها في ذمته ، فكيف يزيل القطع ما ثبت في ذمته . ويكون مبرئاً له منه؟

وتوسط فقهاء المدينة - مالك[2] وغيره - بين القولين . فقالوا : إن كان له مال ضمنها بعد القطع ، وإن لم يكن له مال فلا ضمان عليه[3] .

وهذا استحسان حسن جداً. وما أقربه من محاسن الشرع، وأولاه بالقبول . والله أعلم .

فصل

بيان الإثم والعدوان

وأما « الإثم والعدوان » فهما قرينان[4] . قال الله تعالىٰ : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة : ٢] ، وكل منهما إذا أفرد تضمن الآخر . فكل إثم عدوان ، إذ هو فعل ما نهىٰ الله عنه ، أو ترك ما أمر الله به . فهو عدوان علىٰ أمره ونهيه ، وكل عدوان إثم ، فإنه يأثم به صاحبه ؛ ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما .

فـ« الإثم » ما كان محرم الجنس كالكذب ، والزنا ، وشرب الخمر ، ونحو

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ب .

(٢) أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ولد سنة ٩٣هـ وتوفي سنة ١٧٩هـ . ترجمته في : السير ٨/ ٤٨ ، البداية والنهاية ١٠/ ١٨٠ ، الرسالة المستطرفة ١١ .

(٣) انظر : بداية المجتهد ٢/ ٤٥٢ ، المغني ١٢/ ٤٥٤ ، وتفسير القرطبي ٦/ ١٦٥-١٦٦ .

(٤) في ق : قريبان .

ذلك ، و « العدوان » ما كان محرم القدر والزيادة .

فالعدوان [١] : تعدي ما أبيح منه إلىٰ القدر المحرم [٢] كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه ، إما أن تعتدي [٣] علىٰ ماله ، أو بدنه أو عرضه . فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلا داره ، وإذا أتلف عليه شيئاً أتلف عليه أضعافه ، وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها . فهذا كله عدوان وتَعَدٍّ للعدل .

وهذا [٤] نوعان : عدوان في حق الله ، وعدوان في حق العبد . فالعدوان في حق الله : كما إذا تعدىٰ ما أباح [٥] له من الوطء الحلال في الأزواج والمملوكات إلىٰ ما حرم عليه من سواهما . كما قال تعالىٰ : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)﴾ [المؤمنون : ٥-٧] وكذلك تعدي ما أبيح له من زوجته وأمته إلىٰ ما حرم الله عليه منها لوطئها [٦] في حيضها أو نفاسها [٧] أو في إحرام أحدهما أو صيامه الواجب . وكذلك كل ما أبيح له

---

(١) في غ ، ب : والعدوان .

(٢) في ط زيادة : والزيادة .

(٣) في ب ، غ : يتعدى .

(٤) في ط زيادة : العدوان .

(٥) في ط ، غ زيادة : الله .

(٦) في ط ، ق : كوطئها .

(٧) في ط زيادة : أو في غير موضع الحرث .

منه قدر معين ، فتعداه إلىٰ أكثر منه ؛ فهو من العدوان ، كمن [١] أبيح له إساغة الغصة بجرعة من خمر . فتناول الكأس كلها[٢] . أو أبيح له نظرة الخطبة[٣] ، والسموم ، والشهادة ، والمعاملة ، والمداواة [٤] ، فأطلق عنان طرفه في ميادين محاسن المنظور ، وأسام [٥] طرف ناظره في تلك الرياض والزهور . فتعدىٰ المباح إلىٰ القدر المحظور ، وحام حول الحمىٰ المحوط المحجور . فصار ذا بصر حائر [٦] ، وقلب عن مكانه طائر ، أرسل طرفه رائداً يأتيه بالخبر ، فخامر عليه وأقام[٧] ، فبعث القلب في آثاره[٨] . فلم يشعر إلا وهو أسير يحجل[٩] [١٠] في قيوده بين تلك الخيام ، فما أقلعت لحظات ناظره حتىٰ تشحط[١١] بينهن قتيلاً .

---

(١) في ق : فمن .

(٢) انظر : المغني ٣/ ٣٣٠ .

(٣) انظر : المغني ٩/ ٤٨٩-٤٩٠ .

(٤) انظر : المغني ٩/ ٤٩٨ .

(٥) سام : ذهب على وجهه حيث شاء ، وسام الشيء : لزمه ولم يبرح عنه ، وأسمت الإبل : إذا خليتها ترعى .

انظر : لسان العرب ٦/ ٤٤٠ ، والمعجم الوسيط ٤٦٥ ، مادة (سوم) .

(٦) في ط : حائر .

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة : في تلك الخيام .

(٨) في ش : آثارهم .

(٩) في ب ، د : محجل .

(١٠) حَجَل المقيد يحْجِل : نزا في مشيه . انظر : لسان العرب ٣/ ٦٤ مادة (حجل) .

(١١) التشحط : الاضطراب في الدم . انظر : لسان العرب ٧/ ٤٥ مادة (شحط) .

وما بردت[١] تنوشه[٢] سيوف تلك الجفون حتىٰ جدلنه[٣] [٤] تجديلاً . هذا خطر العدوان ، وما أمامه أعظم وأخطر ، وهذا فوت الحرمان؛ وما حرمه من فوات[٥] ثواب من غض طرفه لله أجل وأكبر[٦] . سافر الطرف في مفاوز محاسن المنظور إليه ، فلم يربح إلا أذىٰ السفر . وغرّر بنفسه في ركوب تلك البيد[٧] ، وما عرف[٨] أن راكبها علىٰ أعظم الخطر؟ يا لها[٩] سفرة لم يبلغ المسافر منها نواه[١٠]، ولم يضع فيها عن عاتقه عصاه ، حتىٰ قطع عليه فيها الطريق، وقعد له[١١]

---

(١) في ط والجميع سوى أ ، ش ، غ : برحت .

(٢) في ش : تنوصه .

(٣) في ط : جندلنه .

(٤) جدلنه : أي صرعنه . انظر : لسان العرب ٢/ ٢١١ مادة (جدل) .

(٥) (فوات) ساقطة من ش .

(٦) روى الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٢٦٤ عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أول مرة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها» . وذكره ابن كثير في تفسيره ٥/ ٨٦ ، وقال : وروي هذا مرفوعاً عن ابن عمر وحذيفة وعائشة - رضي الله عنهم -، ولكن في أسانيدها ضعف إلا أنها في الترغيب ومثله يتسامح فيه .

(٧) في ط ، د ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ح٢ ، ق : البيداء . والبيداء هي المفازة وجمعها بيد . انظر : لسان العرب ١/ ٥٤٨ مادة (بَيَد) .

(٨) في ب : وما علم .

(٩) في ط زيادة : من .

(١٠) في ط : ما نواه .

(١١) في ط والجميع سوى س زيادة : فيها .

الرصد علىٰ كل نقب ومضيق . لا يستطع الرجوع إلىٰ وطنه والإياب ، ولا له سبيل إلىٰ المرور والذهاب ، يرىٰ هجير [1] الهاجرة من بعيد ، فيظنه برد الشراب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور : ٣٩] ، وتيقن أنه كان مغروراً بلامع السراب . تالله ما استوت هذه الذِّلة ، وتلك اللَّذَّة في القيمة [2] فيشتريها بها العارف الخبير ، ولا تقاربا في المنفعة ، فيتحير [3] بينهما البصير ، ولكن علىٰ العيون غشاوة فلا تفرق بين مواطن السلامة ومواطن [4] العثور ، والقلوب تحت أغطية الغفلات ، راقدة فوق فرش الغرور ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج :٤٦] .

أمثلة للعدوان

ومن أمثلة العدوان : تجاوز ما أبيح من الميتة للضرورة إلىٰ ما لم يبح منها . إما بأن يشبع ؛ وإنما أبيح له سد الرمق ، علىٰ أحد القولين في مذهب أحمد ، والشافعي ، وأبي حنيفة [5] .

وأباح مالك له الشبع والتزود إذا احتاج إليه [6] . فإذا استغنىٰ عنها وأكلها واقياً لماله ، وبخلاً عن شراء المذكىٰ ونحوه ، كان تناولها عدواناً . قال تعالىٰ :

---

(١) الهجير : نصف النهار عند اشتداد الحر . انظر : مختار الصحاح ٢٨٨ مادة (هجر) .

(٢) في ح٢ : القيامة .

(٣) في ش ، د ، ح٢ ، م ، فيتخير ، وفي ب (فيتحيز) .

(٤) في ب ، غ ، ح١ ، ح٢ ، م ، د ، ق : مواضع .

(٥) انظر المغني ١٣/ ٣٣٠-٣٣١ ، والإنصاف ١٠/ ٣٧٠ .

(٦) انظر بداية المجتهد ١/ ٤٧٦ .

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٧٣] ، قال قتادة والحسن : لا يأكلها من غير اضطرار ، ولا يعدو شبعه [١] .

وقيل «غير باغ» غير طالبها ، وهو يجد غيرها «ولا عاد» أي : لا يتعدىٰ ما حد له منها . فيأكل حتىٰ يشبع ، ولكن سد الرمق [٢] .

وقال مقاتل : غير مستحلٍ لها ، ولا يتزود [٣] منها [٤] .

وقيل : لا يبغي بتجاوز [٥] الحد الذي حد له منها . ولا يتعدىٰ بتقصيره عن تناوله [٦] حتىٰ يهلك . فيكون قد تعدىٰ حد الله بمجاوزته أو التقصير عنه [٧] . فهذا آثم [٨] . قال مسروق -رحمه الله- : من اضطر إلىٰ الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل ولم يشرب حتىٰ مات دخل النار [٩] .

وهذا أصح القولين في الآية . وقال ابن عباس وأصحابه والشافعي «غير باغ» علىٰ السلطان «ولا عاد» في سفره . فلا يكون سفر [١٠] معصية . وبنوا علىٰ

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢/ ٩٢ ، وتفسير البغوي ١/ ١٤١ .

(٢) انظر تفسير البغوي ١/ ١٤١ .

(٣) في ق ، ط : متزود .

(٤) انظر : تفسير البغوي ١/ ١٤١ .

(٥) في غ : لا ينبغي تجاوز .

(٦) في ش : تناولها .

(٧) انظر : تفسير البغوي ١/ ١٤١ .

(٨) في ط زيادة : وهذا إثم .

(٩) انظر : تفسير البغوي ١/ ١٤١ .

(١٠) في الجميع سوى ش ، أ : سفره .

ذلك أن العاصي بسفره لا يترخص [١].

والقول الأول: أصح لعشرة أوجه. ليس هذا موضع ذكرها. إذ الآية لا تعرض فيها للسفر بنفي ولا إثبات، ولا للخروج علىٰ الإمام، ولا هي مختصة بذلك ولا سيقت له، وهي عامة في حق المقيم والمسافر، والبغي والعدوان فيها يرجعان إلىٰ الأكل المقصود بيانه [٢]، لا إلىٰ أمر خارج عنه لا تعلق له بالأكل، ولأن [٣] نظير هذا قوله تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ [المائدة: ٣] فهذا هو الباغي العادي. والمتجانف للإثم، المائل إلىٰ القدر الحرام من أكلها. وهذا هو الشرط الذي لا يباح له بدونه، ولأنها إنما أبيحت للضرورة، فتقدرت الإباحة بقدرها، وأعلمَهم أن الزيادة عليها بغي وعدوان وإثم، فلا تكون الإباحة للضرورة سبباً لحله. والله أعلم.

و«الإثم» و«العدوان» هما الإثم والبغي المذكوران [٤] في سورة الأعراف [٥] مع أن «البغي» غالب استعماله في حقوق العباد والاستطالة عليهم.

---

(١) انظر: تفسير البغوي ١/ ١٤١، وانظر تفسير الطبري ٢/ ٩١-٩٢.

(٢) في ط: بالنهي.

(٣) (ولأن) ساقطة من ش وفي غ: ولكن.

(٤) (المذكوران) ساقطة من أ، غ، ب.

(٥) قال تعالى: ﴿قل إنما حرَّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق ...﴾ الآية. [الأعراف: ٣٣].

وعلىٰ هذا فإذا قرن[1] بالعدوان كان «البغي» ظلمهم بمحرم[2] الجنس ، كالسرقة والكذب ، والبهت والابتداء بالأذىٰ . و«العدوان» تعدي الحق في استيفائه إلىٰ أكثر[3] منه ، فيكون البغي والعدوان في [حقهم كالإثم والعدوان][4] في حدود الله .

فههُنا أربعة أمور : حق الله وله حد ، وحق لعباده وله حد ، فالبغي والعدوان والظلم تجاوز الحدين إلىٰ ما وراءهما ، أو التقصير عنهما . فلا يصل إليهما .

فصل

تعريف الفحشاء والمنكر

وأما «الفحشاء والمنكر» فالفحشاء : صفة لموصوف قد حُذف تجريداً لقصد الصفة . وهي الفعلة الفحشاء ، والخصلة الفحشاء . وهي ما ظهر قبحها لكل أحد ، واستفحشه كل ذي عقل سليم. ولهذا فُسِّرا بالزنا واللواط، وسماه[5] الله «فاحشة» لتناهي قبحه[6] ، وكذلك القبيح من القول يسمىٰ فحشاً . وهو ما ظهر قبحه جداً من السب القبيح ، والقذف ونحوه .

وأما «المنكر» فصفة لموصوف محذوف أيضاً ، أي الفعل المنكر . وهو

---

(١) في ط : قرن البغي .

(٢) في م ، ح٢ ، غ : بمجرد .

(٣) في ط والجميع : أكبر .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل ، ش ، وما أثبته من ط والجميع ، وبه يتم المعنى .

(٥) في ط : وسماهما .

(٦) في ط : قبحهما .

الذي تنكره[١] العقول والفطر ، ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلىٰ حاسة الشم ، والمنظر القبيح [٢] إلىٰ العين ، والطعم المستكره إلىٰ الذوق ، والصوت المنكر[٣] إلىٰ الأذن. فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة، كما فحش[٤] إنكار الحواس له من هذه المدركات .

فالمنكر لها : ما لم تعرفه ولم تألفه . والقبيح المستكره لها : الذي تشتد نفرتها عنه هو الفاحشة . ولذلك قال ابن عباس : الفاحشة الزنا ، والمنكر ، ما لم يعرف في شريعة ولا سنة [٥] .

فتأمل تفريقه بين ما لم يعرف حسنه ولم يؤلف ، وبين ما استقر قبحه في الفطر والعقول .



فصل

القول على الله بلا علم

وأما «القول علىٰ الله بلا علم» فهو أشد هذه المحرمات تحريماً ، وأعظمها إثماً . ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من مراتب [٦] المحرمات التي اتفقت عليها

(١) في ط : تستنكره .

(٢) (القبيح) ساقطة من ق .

(٣) في ط : المستنكر .

(٤) في الأصل وش : فحشت ، والصحيح ما أثبته من الجميع لتناسبه لما بعده من قوله (إنكار) .

(٥) روى الطبري في تفسيره ١٠/ ١٤٥ عن عبدالله بن عون قال : الفحشاء : هو الزنا والمنكر : معاصي الله .

(٦) مراتب ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط .

الشرائع والأديان . ولا تباح بحال[١] ؛ بل لا تكون إلا محرمة ، وليست كالميتة ولحم الخنزير الذي يباح في حال دون حال .

فإن المحرمات نوعان : محرم لذاته لا يباح بحال ، ومحرم تحريمه[٢] عارض في وقت دون وقت . قال الله تعالىٰ في المحرم لذاته : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[٣] [الأعراف : ٣٣] ثم انتقل منه[٤] إلىٰ ما هو أعظم منه . فقال : ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ثم انتقل منه إلىٰ ما هو أعظم منه فقال : ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثماً . فإنه يتضمن الكذب علىٰ الله، ونسبته إلىٰ ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله ، ونفي ما أثبته ، وإثبات ما نفاه ، وتحقيق ما أبطله ، وإبطال ما أحقه[٥] ، وعداوة من[٦] والاه ، وموالاة من عاداه ، وحب ما أبغضه ، وبغض ما أحبه ، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله .

---

(١) روى الطبري في تفسيره ٣/ ٤٣٩ عن السدي قال : الفاحشة الزنا ورواه كذلك عن عطاء بن أبي رباح وعبدالله بن كثير . انظر : تفسير الطبري ٣/ ٦٣٤ . وروى الطبري كذلك في تفسيره ١٠/ ١٤٥ عن عبدالله بن عون قال : الفحشاء : هو الزنا والمنكر معاصي الله .

(٢) في ط : تحريماً عارضاً .

(٣) في ط والجميع سوى ش ، د زيادة : ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال .

(٤) (منه) ساقطة من ح٢ .

(٥) في ط : ما حققه .

(٦) في ق (ما) .

فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ، ولا أشد إثماً . وهو أصل الشرك والكفر ، وعليه أسست البدع والضلالات ، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول علىٰ الله بلا علم .

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها ، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض ، وحذروا فتنتهم أشد التحذير ، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش ، والظلم والعدوان . إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له[1] أشد . وقد أنكر تعالىٰ علىٰ من نسب إلىٰ دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله . فقال : ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل : ١١٦ ، ١١٧] .

فكيف بمن نسب إلىٰ أوصافه سبحانه وتعالىٰ ما لم يصف به نفسه؟ أو نفىٰ عنه منها ما وصف به نفسه؟

قال بعض السلف : ليحذر أحدكم أن يقول : أحل الله كذا ، وحرم الله كذا فيقول الله له[2] : كذبت . لم أحل هذا ، ولم أحرم هذا[3] .

يعني التحليل والتحريم بالرأي المجرد ، بلا برهان من الله ورسوله .

---

(١) (له) ساقطة من ق .

(٢) (له) ساقطة من ح١ ، ط .

(٣) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم ٢/ ١٥٥ عن الربيع بن خثيم ، وروى نحوه الطبراني في المعجم ٩/ ٢٣١ عن عبدالله بن مسعود ح٨٩٩٥ .

وأصل الشرك والكفر : هو القول علىٰ الله بلا علم . فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبوداً من دون الله يقربه إلىٰ الله ، ويشفع له عنده ويقضي حاجته بواسطته ، كما تكون الوسائط عند الملوك . فكل مشرك قائل علىٰ الله بلا علم دون العكس إذ القول علىٰ الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله ، فهو أعم من الشرك . والشرك فرد من أفراده .

ولهذا كان الكذب علىٰ رسول الله ﷺ موجباً لدخول النار ، واتخاذِ منزلة منها مُبوَّءُه[1] [2] ، وهو المنزل اللازم الذي لا يفارقه صاحبه . لأنه متضمن للقول علىٰ الله بلا علم بل صريح[3] الكذب عليه ؛ لأن ما يضاف[4] إلىٰ الرسول فهو مضاف إلىٰ المرسِل .

والقول علىٰ الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام : ٢١] .

فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس ، فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع .

---

(١) في ط : مبوءاً .

(٢) لقول النبي ﷺ : «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ...» .

رواه مسلم ٤/ ٢٢٩٨ في كتاب الزهد ، باب التثبت في الحديث (ح٣٠٠٤) .

وأحمد في مسنده ٣/ ١٢ ، ١٣ .

(٣) في في ط والجميع سوى ش ، ق : كصريح .

(٤) في ح١ ، ط : ما انضاف .

وأنىٰ بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة ، أو يظنها سنة ، فهو يدعو إليها ، ويحض عليها؟ فلا تنكشف لهذا ذنوبه التي تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة . وكثرة الاطلاع [١] عليها ، ودوام البحث عنها والتفتيش عليها . ولا ترىٰ صاحب بدعة كذلك أبداً .

فإن السنة - بالذات - تمحق البدعة ، ولاتقوم لها فإذا [٢] طلعت شمسُها في قلب العبد قطعت من قلبه ضبابَ كلِّ بدعة ، وأزالت ظلمةَ كلِّ ضلالة . إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس ، ولا يرىٰ العبد الفرق بين السنة والبدعة ويعينه علىٰ الخروج من ظلمها [٣] إلىٰ نور السنة ، إلا تجريد [٤] المتابعة ، والهجرة بقلبه كل وقت إلىٰ الله ، بالاستعانة والإخلاص ، وصدق اللجأ [٥] ، وإلىٰ رسوله ، بالحرص علىٰ الوصول إلىٰ أقواله وأعماله، وهديه وسنته «**فمن كانت هجرته إلىٰ الله روسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله**» [٦] ، ومن هاجر إلىٰ غير ذلك فهو حظه ونصيبه في الدينا والآخرة ، فالله [٧] المستعان .

---

(١) في أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط : اطلاعه .

(٢) في ط : وإذا .

(٣) في ط والجميع : ظلمتها .

(٤) (تجريد) ساقطة من ط .

(٥) في ح١ ، ح٢ ، ط زيادة : إلى الله والهجرة .

(٦) رواه البخاري١/ ١٣٥ في كتاب الإيمان ، باب (ما جاء إن الإعمال بالنية والحسبة)(ح٥٤) . ومسلم ٣/ ١٥١٥ ، ١٥١٦ ، باب (قول النبي ﷺ : إنما الأعمال بالنيات) (ح١٩٠٧) . وأحمد في مسنده ١/ ٢٥ .

(٧) في أ ، ب ، غ ، ط : والله .

فصل

ومن أحكام التوبة : أن من تعذر عليه أداء الحق الذي فرط فيه ، ولم[1] يمكنه تداركه ثم تاب . فكيف حُكْم توبتِهِ؟ وهذا يتصور في حق الله سبحانه ، وحقوق عباده .

في أحكام التوبة

فأما في حق الله : فكمن ترك الصلاة عمداً من غير عذر ، مع علمه بوجوبها وفرضها ، ثم تاب وندم ؛ فاختلف السلف في هذه المسألة .

فقالت طائفة : توبته بالندم ، والاشتغال بأداء الفرائض المستأنفة ، وقضاء الفرائض المتروكة . وهذا قول الأئمة الأربعة [2] وغيرهم [3] .

وقالت طائفة : توبة هذا [4] باستئناف العمل في المستقبل . ولا ينفعه تدارك ما مضىٰ بالقضاء ، ولا يقبل منه ، فلا يجب عليه ، وهذا قول أهل الظاهر ، وهو مروي عن جماعة من السلف .

وحجة الموجبين[5] قول النبي ﷺ : **«من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها»** [6] .

---

(١) في ح١ : ولا يمكنه .

(٢) (الأربعة) ساقطة من ش .

(٣) انظر المغني ٢/ ٤٨ ، ٤٩ .

(٤) في ط والجميع سوى ش ، ق : توبته .

(٥) في ط زيادة (للقضاء) .

(٦) رواه البخاري ٢/ ٧٠ في كتاب مواقيت الصلاة ، باب (من نسي صلاة فليصل إذا ذكر)

قالوا[١] : فإذا وجب القضاء علىٰ النائم والناسي ، مع عدم تفريطهما . فوجوبه علىٰ العامد[٢] المفرط أولىٰ .

قالوا : ولأنه كان يجب عليه أمران : الصلاة ، وإيقاعها في وقتها . فإذا ترك أحد الأمرين بقي عليه[٣] الآخر .

قالوا : ولأن القضاء ، إن قلنا يجب[٤] بالأمر الأول . فظاهر ، وإن قلنا يجب[٥] بأمر جديد ، فأمر النائم والناسي به تنبيه علىٰ العامد كما تقدم .

قالوا : ولأن مصلحة الفعل إن لم يمكن تداركها تدارك العبد[٦] منها ما أمكن، وقد فاتت مصلحة الفعل في الوقت ، فيتدارك ما أمكن منها ، وهو الفعل[٧] خارج الوقت .

قالوا : وقد قال النبي ﷺ : **«إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم»**[٨] . وهذا

(ح٥٩٧) . ومسلم ١/ ٤٧٧ في كتاب المساجد ، باب (قضاء الصلاة الفائتة) (ح٦٨٤) . وأحمد في مسنده ٣/ ١٠٠ .

(١) في د ، ق : قال .

(٢) في د ، ح١ ، ح٢ ، ط : والمفرط .

(٣) (عليه) ساقطة من ط .

(٤) في ط زيادة : عليه .

(٥) في ط زيادة : عليه .

(٦) في ط : وإن لم يكن العبد تداركها تدارك منها .

(٧) في ط زيادة : (في) .

(٨) جزء من حديث رواه البخاري ١٣/ ٢٥١ في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب (الاقتداء بسنن رسول الله . . .) (ح٧٢٨٨) . ومسلم ٢/ ٩٧٥ في كتاب الحج ، باب (فرض الحج مرة في العمر) (ح١٣٣٧) . وأحمد في مسنده ٢/ ٥٠٨ .

قد استطاع الإتيان بالمأمور خارج الوقت . وقد تعذر عليه الإتيان به في وقته . فيجب عليه الإتيان بالمستطاع .

مسائل تتعلق في تأخير الصلاة وغيرها عن وقتها

قالوا : وكيف يُظن بالشرع أنه يخفف عن هذا المتعمد المفرط العاصي لله ورسوله بترك الوجوب ، ويوجبه على المعذور بالنوم (١) والنسيان؟

قالوا : ولأن الصلاة خارج الوقت بدل عن الصلاة في الوقت ، والعبادة إذا كان لها بدل، وتعذر المُبدل: انتقل المُكلف إلىٰ بدله (٢) كالتيمم مع الوضوء ، وصلاة القاعد عند تعذر القيام ، والمضطجع عند تعذر القعود ، وإطعام العاجز عن الصيام - لكبر أو مرض غير مرجوٍّ (٣) - عن كل يوم مسكيناً ، ونظائر ذلك كثيرة في الشرع .

قالوا : ولأن الصلاة حق مؤقت ، فتأخيره عن وقته لا يسقط إلا بمبادرته خارج الوقت ، كديون الآدميين المؤجلة .

قالوا : ولأن غايته : أنه أثم بالتأخير . وهذا لا يُسقط القضاء عنه (٤) . كمن أخَّر الزكاة عن وقت وجوبها تأخيراً أثم (٥) به . أو أخر الحج تأخيراً أثم به .

قالوا : ولو ترك الجمعة (٦) حتىٰ صلاها الإمام عمداً ، عصىٰ بتأخيرها ولزمه

---

(١) في ط : أو النسيان .

(٢) في ط : البدل .

(٣) في ح٢ زيادة : برؤه . وفي ط : البُرْء .

(٤) (عنه) ساقطة من أ ، غ ، ب ، ح١ ، ط .

(٥) في ط : إثم .

(٦) في ق : الجماعة . وهو خطأ .

أن يصلي الظهر ، ونسبة الظهر إلىٰ الجمعة كنسبة صلاة الصبح بعد طلوع الشمس إلىٰ صلاتها قبل الطلوع .

قالوا : وقد أخر النبي ﷺ صلاة العصر يوم الأحزاب إلىٰ أن صلاها بعد غروب الشمس (١) . فدل علىٰ أن فعلها ممكنٌ خارج الوقت في العمد . سواء كان معذوراً به كهذا (٢) التأخير ، وكتأخير من أخرها من الصحابة يوم بني قريظة إلىٰ بعد غروب الشمس ، أو لم يكن معذوراً به ، كتأخير المفرط . فتأخيرهما إنما يختلف في الإثم وعدمه . لا (٣) وجوب التدارك بعد الترك .

قالوا : ولو كانت الصلاة خارج الوقت لا تصح ولا تجب (٤) ، لما أمر النبي ﷺ (٥) يوم بني قريظة بتأخير صلاة العصر إلىٰ أن يصلوها فيهم (٦) ، فأخّرها بعضُهم حتىٰ صلاّها فيهم بالليل . فلم يُعنِّفهم . ولم يُعنِّف من صلاّها في

---

(١) حديث تأخير النبي صلاة العصر يوم الأحزاب . رواه البخاري ٦/ ١٠٥ في كتاب الجهاد ، باب (الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة) (ح٢٩٣١) . ومسلم ١/ ٤٣٦ - ٤٣٧ في كتاب المساجد ، باب (التغليظ في تفويت صلاة العصر) (ح٦٢٧) . وأحمد في مسنده ١/ ١١٣ .

(٢) في د ، ح١ ، ح٢ : كذا .

(٣) في ط والجميع سوى ش ، غ زيادة : في .

(٤) (ولا تجب) ساقطة من ق .

(٥) في ط زيادة : الصحابة .

(٦) رواه البخاري ٧/ ٤٠٧-٤٠٨ في كتاب المغازي ، باب (مرجع النبي ﷺ من الأحزاب . . .) (ح٤١١٩) . ومسلم ٣/ ١٣٩١ في كتاب الجهاد ، باب (المبادرة بالغزو) (ح١٧٧٠) بلفظ : «لا يصلين أحد الظهر ...» .

الطريق لأجل اجتهاد [١] الفريقين .

قالوا : ولأن كل تائب له طريق إلىٰ التوبة . فكيف يُسدُّ [٢] علىٰ هذا طريق التوبة ، ويجعل إثم التضييع لازماً له ، وطائراً في عنقه؟ فهذا لا يليق بقواعد الشرع وحكمته ورحمته ، ومراعاته لمصالح العباد ، في المعاش والمعاد .

فهذا أقصىٰ ما يحتج به [٣] لهذه المقالة .

قال أصحاب القول الآخر : العبادة إذا أُمر بها علىٰ صفة معينة ، أو في وقت بعينه ، لم يكن المأمور ممتثلاً للأمر إلا إذا أوقعها علىٰ الوجه المأمور به من وصفها ووقتها ، وشرطها [فإيقاعها في وقتها المحدود لها شرعاً [٤] شرط في صحة التقيد بها والامتثال ، فانتفاء وقتها كانتفاء وصفها وشرطها] [٥] فلا يتناولها الأمر بدونه .

قالوا : وإخراجها عن وقتها كإخراجها عن استقبال القبلة مثلاً ، وكالسجود علىٰ الخد بدل الجبهة ، والبروك علىٰ الركبة بدل الركوع ونحوه .

قالوا : والعبادات التي جُعل لها ظرف من الزمان لا تصح إلا فيه ، كالعبادات التي جُعل لها ظروف [٦] من المكان. فلو أراد نقلها إلىٰ أمكنة أخرىٰ

---

(١) في ش ، أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط : لاجتهاد .

(٢) في أ ، ب ، غ ، ح١ ، ق ، ط : تُسد عن هذا .

(٣) في ق ، د ، زيادة : لصحة .

(٤) (شرعاً) ساقطة من أ ، غ .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من : ط .

(٦) في ط : ظرف .

غيرها ، لم تصح إلا في أمكنتها، ولا يقوم مكان [١] مقام مكان [٢] . كأمكنة المناسك - من عرفة ومزدلفة والجمار ، والسعي بين الصفا والمروة ، والطواف بالبيت - فنقل العبادة إلىٰ أزمنة غير أزمنتها التي جُعلت أوقاتاً لها شرعاً إلىٰ غيرها ، كنقلها عن أمكنتها التي جعلت لها شرعاً إلىٰ غيرها . لا فرق بينهما في [٣] الإثم .

قالوا : فنقل الصلاة المحدودة الوقت أولاً وآخراً عن زمنها إلىٰ زمن آخر ، كنقل الوقوف بعرفة عن زمنه إلىٰ آخر [٤] ونقل أشهر الحج عن زمنها إلىٰ زمن آخر .

قالوا : فأي فرق بين من نقل صوم رمضان إلىٰ شوال ، أو صلىٰ العصر نصف الليل ، وبين من حج في المحرم ووقف فيه؟ فكيف تصح صلاة هذا وصيامه دون حج هذا؟ وكلاهما مخالف لأمر الله تعالىٰ ، عاص آثم .

قالوا : فحقوق الله المؤقتة لا يقبلها [٥] في غير أوقاتها . فكما لا تقبل قبل دخول أوقاتها لا تقبل بعد خروج أوقاتها . فلو قال : أنا أصوم شوال عن رمضان [كان] [٦] كما لو قال : أنا أصوم شعبان الذي قبله عنه .

---

(١) (مكان) ساقط من ق .

(٢) في ط والجميع سوى ش ، ق زيادة : آخر .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : في الاعتداد وعدمه كما لا فرق بينهما .

(٤) في ط ، أ ، ب ، غ ، ح١ : إلى مزدلفة . وفي ح٢ ، ق ، د : إلى زمن آخر .

(٥) في ط زيادة : الله .

(٦) «كان» ساقطة من الأصل ، وما أثبته من ش ، أ ، ب ، ح١ ، غ ، ط ، والسياق يقتضيه .

قالوا : فالحق [1] الليلي لا يقبل بالنهار ، [والنهاري لا يقبل بالليل][2] ولهذا جاء في وصية الصديق لعمر - رضي الله عنهما - التي تلقاها بالقبول [هو وسائر الصحابة واعلم][3] أن لله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار . وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل» [4] .

قالوا : ولأنها إذا فات وقتها المحدود لها شرعاً لم تبق تلك العبادة بعينها . ولكنْ شيءٌ آخر غيرها . فإذا فُعلت العصرُ بعد غروب الشمس لم تكن عصراً ، فإن العصر صلاة هذا الوقت المحدود ، وهذه ليست عصراً . فلم يفعل مصليها العصر البتة، وإنما أتىٰ بأربع ركعات صورتها صورة صلاة العصر، لا أنها هي.

قالوا : وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : **«من ترك صلاة العصر حبط عمله»**[5].
وفي لفظ **«الذي تفوته صلاة العصر ، فكأنما وُتر أهله وماله»**[6] ، فلو كان له

---

(١) في ط : فإن الحق .

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من ش .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ح١ ، أ ، ب ، غ .

(٤) انظر : السنة للخلال ١/ ٢٧٥ ، ومصنف بن أبي شيبة ٧/ ٤٣٤ .

(٥) رواه البخاري ٢/ ٣١ في كتاب المواقيت ، باب (من ترك العصر) (ح٥٥٣) وأحمد في مسنده (٥/ ٣٤٩ ، ٣٥٠) ، والنسائي ١/ ٢٣٦ في كتاب الصلاة ، باب (من ترك صلاة العصر) (ح٤٧٤) .

(٦) رواه البخاري ٢/ ٣٠ في كتاب المواقيت ، باب (إثم من فاتته العصر) (ح٥٥٢) ومسلم ١/ ٤٣٥ في كتاب المساجد ، باب (التغليظ في تفويت صلاة العصر) (ح٦٢٦) ، وأحمد في مسنده ٢/ ٨ .

سبيل إلىٰ التدارك وفعلها صحيحة لم يحبط عمله ، ولم يوتر أهله وماله ، مع صحتها منه وقبولها ؛ لأن معصية التأخير عندكم لا تحقق الترك والفوات ، لاستدراكه بالفعل في الوقت الثاني .

قالوا : وهذه الصلاة مردودة بنص الشارع . فلا يسوغ أن يقال بقبولها وصحتها مع تصريحه بردها وإلغائها . كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ من حديث عائشة [1] ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»** [2] ، وفي لفظ : **«كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»** [3] .

وهذا عمل علىٰ خلاف أمره ، فيكون رداً ، و « الرد » بمعنىٰ المردود ، كالخلق بمعنىٰ المخلوق ، والضرب بمعنىٰ المضروب .

وإذا ثبت أن هذه الصلاة مردودة ، فليست بصحيحة ولا مقبولة .

قالوا : ولأن الوقت شرط في سقوط الإثم ، وامتثال الأمر . فكان شرطاً في

---

(١) أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ ، أفقه النساء على الإطلاق ، كان الصحابة يسألونها عما يُشكل عليهم ، وكان النبي ﷺ يحبها جداً . ولم ينكح بكراً غيرها . توفيت ـ رضي الله عنها ـ سنة ٥٧ أو ٥٨ هـ .

ترجمتها في : السير ١٢/ ١٣٥ ، البداية والنهاية ٨/ ٩٥ ، الإصابة ٤/ ٣٤٨ .

(٢) رواه البخاري ٥/ ٣٠١ في كتاب الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور . . (ح٢٦٩٧) ، ومسلم ٣/ ١٣٤٤ في كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ، (ح١٧١٨) . وأحمد في مسنده (٦/ ١٨٠ ، ٢٥٦) .

(٣) ذكره بهذا اللفظ ابن عبد البر في التمهيد ٢/ ٨٢ ، والقرطبي في التفسير ١/ ٣٥٨ ، وابن حجر في الفتح ١٣/ ٢٤٨ .

براءة الذمة والصحة ، كسائر شروطها - من الطهارة ، والاستقبال ، وستر العورة - فالأمر تناول الشروط تناولاً واحداً ، فكيف ساغ التفريق بينها مع استوائها في الوجوب ، والأمر ، والشرطية؟

قالوا : وليس مع المصحِّحين لها بعد الوقت لا نص ، ولا إجماع ، ولا قياس صحيح . وسنبطل جميع أقيستهم التي قاسوا عليها ، ونبيِّن فسادَها .

قالوا : وفي مسند الإمام أحمد وغيره من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : « من أفطر يوماً من رمضان لغير عذر ، لم يقضه عنه صيام الدهر » [1] ، فيكف يقال : يقضيه عنه يوم مثله؟

قالوا : ولأن صحة العبادة إن فسرت بموافقة الأمر ، فلا ريب أن هذه العبادة غير موافقة له ، فلا تكون صحيحة . وإن فسرت بسقوط القضاء [فإنما يُسقط القضاءَ] [2] ما وقع علىٰ الوجه المأمور به . وهذا لم يقع كذلك ، ولا سبيل إلىٰ

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٤٧٠ ، وأبو داود ٢/ ٧٨٨ - ٧٨٩ في كتاب الصوم ، باب (التغليظ في من أفطر عمداً) ح(٢٣٩٦) ، رواه الترمذي ٣/ ٩٢ في كتاب الصيام ، باب ما جاء في الإفطار عمداً (ح٧٢٣) ، وابن ماجه ١/ ٥٣٥ في كتاب الصيام ، باب (ما جاء في كفارة من أفطر يوماً من رمضان) ح (١٦٧٢) ، والدارمي في سننه ١/ ٣٤٣ في كتاب الصيام باب (من أفطر يوماً من رمضان متعمداً) ح(١٧٢١) ، وابن خزيمة في صحيحه ٣/ ٢٣٨ في كتاب الصيام باب (التغليظ في إفطار يوم من رمضان . . .) ح١٩٨٧ ، وذكره البخاري تعليقاً ٤/ ١٦٠ ، في كتاب الصيام باب (إذا جامع في رمضان) ووصله ابن حجر في تعليق التعليق ٣/ ١٧٠ ، وذكره في الفتح ٤/ ١٦١ وذكر فيه ثلاث علل ، وضعفه كذلك الأعظمي في تحقيقه لصحيح ابن خزيمة ٣/ ٢٣٨ الهامش و محققو مسند أحمد ١٦/ ١٠١ هامش (٤) .

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من ق .

وقوعه علىٰ الوجه المأمور به. فلا سبيل إلىٰ صحته. وإن فسرت بما أبرأ الذمّة. فهذه لم تبرئ الذمة من الإثم قطعاً ، ولم يثبت بدليل يجب المصير إليه إبراؤها للذمة من توجه المطالبة بالمأمور .

قالوا : ولأن الصحيح من العبادات : ما اعتبره الشارع ، ورضيه ، وقبله ، وهذا لا يعلم إلا بإخباره عن صحتها ، أو بموافقتها أمره ، وكلاهما منتف عن هذه العبادة فكيف يُحْكَمُ لها بالصحة؟

قالوا : فالصحة والفساد حكمان شرعيان مرجعهما إلىٰ الشارع . فالصحيح: ما شهد له بالصحة، أو علم أنه وافق أمره، أو كان[1] مماثلاً لما شهد له بالصحة. فيكون حكم المثل ، حكم [2] مثله . وهذه العبادة قد انتفىٰ عنها كل واحد من هذه الأمور .

ومن أفسد الاعتبار : اعتبارها بالتأخير المعذور به ، أو [3] المأذون فيه . وهو اعتبار الشيء بضده ، وقياسه علىٰ مُخَالِفه [4] في الحقيقة والشرع . وهو من أفسد القياس ، كما سيأتي .

قالوا : وأما استدلالكم بقول النبي ﷺ : «من نام عن صلاة ، أو نسيها . فليصلها إذا ذكرها»[5] فأوجب القضاء علىٰ المعذور ، فالمفرط أولىٰ . فهذه

---

(١) في ح٢ : « وكان » .

(٢) « حكم » ساقطة من أ ، ب ، ح١ ، غ ، ط .

(٣) « أو » ساقطة من ح١ ، وفي ح٢ : « إذ » .

(٤) في أ ، غ ، ح١ ، ح٢ ، د ، م ، ق : مخالفته .

(٥) سبق تخريجه ص٩٩٣.

الحجة إلىٰ أن تكون عليكم ، أقرب منها أن تكون لكم . فإن صاحب الشرع شرط في فعلها بعد الوقت ، أن يكون الترك عن نوم أو نسيان . والمعلق علىٰ الشرط عدم (١) عند عدمه ، فلم يبق معكم إلا مجرد قياس المفرط العاصي المستحق للعقوبة علىٰ من عذره الله ، ولم ينسب إلىٰ تفريط ولا معصية . كما ثبت عنه في الصحيح : « **ليس في النوم تفريط . إنما التفريط في اليقظة أن يؤخر صلاة حتىٰ يدخل وقت التي بعدها** » (٢) . وأي قياس في الدنيا أفسد من هذا القياس وأبطل؟

قالوا : وأيضاً فهذا لم يؤخر الصلاة عن وقتها ؛ بل وقتها المأمور به لمثله ، حين استيقظ وذكر . كما قال النبي ﷺ : « **من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها** » فإن ذلك وقتها . فإن الله يقول : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه : ١٤] وهذه اللام عند كثير من النحاة اللام الوقتية ، أي عند ذكري ، أو في وقت ذكري .

قالوا : والنبي ﷺ ما صلىٰ الصبح يوم الوادي (٣) بعد طلوع الشمس إلا في

---

(١) في ط : « يُعْدم » .

(٢) رواه مسلم ١/ ٤٧٢ في كتاب المساجد ، باب قضاء الصلاة الفائتة (ح٦٨١) ، وأحمد في مسنده ٥/ ٢٩٨ ، والترمذي ١/ ٣٣٤ في كتاب الصلاة ، باب (ما جاء في النوم عن الصلاة) (ح١٧٧) ، وأبو داود ١/ ٣٠٤ في كتاب الصلاة ، باب (في من نام عن الصلاة أو نسيها) (ح٤٣٧) ، والنسائي ١/ ٢٩٤ في كتاب المواقيت ، باب (فيمن نام عن صلاة) (ح٦١٥ ، ٦١٦) ، وابن ماجه ١/ ٢٢٨ ، في كتاب الصلاة ، باب (من نام عن الصلاة أو نسيها) (ح٦٩٢) .

(٣) رواه البخاري ٢/ ٦٦ في كتاب المواقيت ، باب الأذان بعد ذهاب الوقت (ح٥٩٥) ، ومسلم

وقتها حقيقة .

قالوا : والأوقات ثلاثة أنواع ؛ وقت للقادر المستيقظ الذاكر غير المعذور . فهي خمسة ، ووقت للذاكر المستيقظ المعذور وهي ثلاثة . فإن في حقه وقت الظهر والعصر واحد ، ووقت المغرب والعشاء واحد ، ووقت الفجر واحد . فالأوقات في حق هذا ثلاثة . وإذا أخر الظهر إلىٰ أن فعلها في وقت العصر فإنما صلاها في وقتها .

ووقت في حق غير المكلف بنوم أو نسيان . فهو غير محدود [1] البتة ؛ بل الوقت في حقه عند يقظته وذكره . لا وقت له إلا ذلك .

هذا الذي دل [2] عليه نصوص الشرع وقواعده ، وهذا المفرط المضيع خارج عنه هذه الأقسام ، وهو قسم رابع . فبأيِّها تُلحقونه؟

قالوا : وقد شرع الله سبحانه قضاء رمضان لمن أفطره لعذر من حيض ، أو سفر ، أو مرض ، ولم يشرعه قط لمن أفطره متعمداً من غير عذر ، لا بنص ولا بإيماء ، ولا تنبيه ، ولا تقتضيه قواعده . وإنما غاية ما معكم ؛ قياسه علىٰ المعذور مع اطراد قواعد الشرع علىٰ التفريق بينهما ؛ بل قد أخبر الشارع أن صيام الدهر لا يقضيه عن يوم يفطره بلا عذر فضلاً عن يوم مثله .

١/ ٤٧١ في كتاب المساجد ، باب قضاء الصلاة الفائتة ... (ح٦٨٠) ، وصلاة النبي ﷺ يوم الوادي هذه حين رجع من غزوة خيبر. انظر سيرة ابن هشام ٣/ ٣٥٥، وفتح الباري ٢/ ٦٧ .

(١) في غ : « يحدد » .

(٢) في أ : « يدل » وفي ط : « دلت » .

قالوا : وأما قولكم إنه كان يجب عليه أمران : العبادة ، وإيقاعها في وقتها . فإذا ترك أحدهما بقي عليه الآخر ، فهذا إنما ينفع فيما إذا لم يكن أحد الأمرين مرتبطاً بالآخر ارتباط الشَرْطِيّة ، كمن أُمر بالحج والزكاة . فتركَ أحدَهما : لم يَسْقُط عنه الآخر . أما إذا كان أحدهما شرطاً في الآخر ، وقد تعذر الإتيان بالشرط الذي لم يُؤمر بالمشروط إلا به ، فكيف يقال : إنه يُؤمر بالآخر بدونه ، ويصح منه بدون وصفه وشرطه؟ فأين أَمَره الله بذلك؟ وهل الكلام إلا فيه؟

قالوا : وإن قلنا إنما يجب القضاء بأمر جديد ، فلا أمر معكم بالقضاء في محل النزاع ، وقياسه علىٰ مواقع الإجماع ممتنع كما بيَّنَّاه . وإن قلنا : يجب بالأمر الأول ، فهذا فيما إذا كان القضاءُ نافعاً ، ومصلحته كمصلحة الأداء ، كقضاء المريض والمسافر والحائض للصوم ، وقضاء المغمىٰ عليه والنائم والناسي . أما إذا كان القضاءُ غيرَ مبرئٍ للذمة ، ولا هو معذور بتأخير الواجب عن وقته . فهذا لم يتناوله الأمر الأول ولا أمرٌ ثان . وإنما هو القياس الذي علم افتراق الأصل والفرع فيه في وصفٍ ظاهر التأثير ، مانع الإلحاق[1] .

قالوا : وأما قولكم : « إنه إذا لم يمكن تدارك مصلحة الفعل تدارك منها ما أمكن » فهذا إنما يفيد إذا لم يمكن[2] [3] حصول المصلحة موقوفاً[4] علىٰ شرط

(١) في ش ، د ، ق ، ط : « للإلحاق » .

(٢) في ح١ ، د : يكن .

(٣) في ح٢ زيادة : « به » .

(٤) « موقوفاً » ساقطة من أ ، ح١ ، غ ، ب ، ط .

تزول المصلحة بزواله ، والتدارك بعد فوات شرطه ، وخروجه عن الوجه[١] المأمور به ممتنع إلا بأمر آخر ؛ من التوبة ، وتكثير النوافل والحسنات . وأما تدارك غير هذا[٢] الفعل فكلاً ولما .

قالوا : وأما قوله ﷺ : « **إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم** »[٣] فقد أبعد النجعة من احتج به . فإن هذا إنما يدل علىٰ أن المكلف إذا عجز عن جملة المأمور به أتىٰ بما يقدر عليه منه - كمن عجز عن القيام في الصلاة ، أو عن إكمال غسل أعضاء الوضوء ، أو عن إكمال الفاتحة ، أو عن تمام الكفاية في الإنفاق الواجب ونحو ذلك- أتىٰ بما يقدر عليه ، وسقط[٤] عنه ما يعجز[٥] عنه . أما من ترك المأمور به حتىٰ خرج وقتُه عمداً وتفريطاً بلا عذر ، فلا يتناوله الحديث ، ولو كان الحديث[٦] متناولاً له لما توعده بإحباط عمله ، وتشبيهه[٧] بمن سُلب أهله وماله ، وبَقِيَ بلا أهل ولا مال .

قالوا : وأما قولكم : « إنه لا يُظن بالشرع تخفيفه عن هذا العامد المفرط

---

(١) في ش : « الوقت » .

(٢) « هذا » ساقطة من ش .

(٣) سبق تخريجه ص٩٩٤.

(٤) في أ ، ب ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ط : « ويسقط » .

(٥) في ط والجميع سوى ش : « ما عجز » .

(٦) « الحديث » ساقطة من ح٢ ، م .

(٧) في ش : وشبهه ، وفي ح٢ : « وتشبيههم » .

بعدم إيجاب القضاء[1] ، وتكليف المعذور به » ، فكلام بعيد عن التحقيق ، بَيِّن البطلان . فإن هذا المعذور ، إنما فعل ما أمر به في وقته كما تقدم . فهو في فعل ما أمر به كغير المعذور الذي صلىٰ في وقته . ونحن لم نسقط القضاء عن العامد المفرط تخفيفاً عنه ؛ بل لأنه غير نافع له، ولا مقبول منه، ولا مأمور به. فلا سبيل له إلىٰ تحصيل مصلحةِ ما تركه ، فأين التخفيف عنه؟

قالوا : وأما قولكم :« إن الصلاة خارج الوقت بدلٌ عن الصلاة في الوقت ، وإذا تعذر المُبْدَل انتقل إلىٰ بدله » فهل هذا إلا مجرد دعوىٰ؟ وهل وقع النزاع إلا في هذا؟ فما الدليل علىٰ أن صلاة هذا المفرط العامد بدل؟ ونحن نطالبكم بالأمر بها أولاً ، وبكونها مقبولة نافعة ثانياً ، وبكونها بدلاً ثالثاً ، ولا سبيل لكم إلىٰ إثبات شيء من ذلك البتة .

وإنما يعلم كون الشيء بدلاً بجعل الشارع له كذلك[2] ، كشرعه التيمم عند العجز عن استعمال الماء ، والإطعام عند العجز عن الصيام ، وبالعكس . كما في كفارة اليمين . فأين جعل الشرع قضاء هذا المفرِّط المضيع بدلاً عن فعله العبادة في الوقت وهو ذلك القياس[3] الذي قد تبيَّن فسادُه؟

قالوا : وأما قياسُكم فعلها خارجَ الوقت علىٰ صحة أداء ديون الآدميين بعد وقتها فمن هذا النمط ؛ لأن وقت الوجوب في حقه ليس بمحدود[4] الطرفين

---

(١) في ط زيادة : « عليه » .

(٢) في أ : « ذلك » .

(٣) في ط : « وهل ذلك إلا القياس . . . » .

(٤) في جميع النسخ ، ط : « محدود » .

كوقت الصلاة ، فالوجوب في حقه ليس مؤقتاً محدوداً ؛ بل هو علىٰ الفور ، كالزكاة والحج ، عند من يراه علىٰ الفور . فلا يتصور فيه إخراجٌ عن وقت محدود هو شرطٌ لفعله .

نعم أولىٰ الأوقات به : الوقت الأول علىٰ الفور ، وتأخيره عنه لا يوجب كونه قضاءً .

فإن قيل : فما تصنعون بقضاء رمضان؟ فإنه محدود علىٰ جهة التوسعة بما بين رمضانين ، ولا يجوز تأخيره مع القدرة إلىٰ رمضان آخر ، ومع هذا لو أَخَّره لزمه فعلَه ، وإطعام كل يوم مسكيناً . كما أفتىٰ به الصحابة -رضي الله عنهم-[١] . وهذا دليل علىٰ أن العبادة المؤقتة لا يُتعذر فعلها بعد خروج وقتها المحدود لها شرعاً .

قيل : قد فرَّق الشارع بين أيام رمضان نفسها[٢] وبين أيام القضاء . فجعل أيام رمضان محدودة الطرفين ، لا يجوز تقديمها ولا تأخيرها[٣] . وأطلق أيام قضائه . فقال سبحانه : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ

---

(١) روي هذا عن ابن عباس وأبي هريرة . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٤٢٢ عن ابن عباس . قال النووي في المجموع ٦/ ٣٦٤ : « إسناده صحيح » . وأخرجه الدارقطني في السنن عن أبي هريرة وقال : إسناده صحيح موقوف . انظر : التعليق المغني ٢/ ١٩٧ .

(٢) « نفسها » ساقطة من ش ، غ ، ط .

(٣) في ط والجميع سوى ش ، غ : « تقدمها ولا تأخرها » .

﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة : ١٨٣ ، ١٨٤] فأطلق العدة ولم يوقتها ، وهذا يدل على أنها تجيء في أي أيام كانت ، ولم يجئ نصٌ عن الله تعالى ولا عن رسوله ﷺ ولا إجماعٌ على تقييدها بأيام لا تجزئ في غيرها ، وليس في الباب إلا حديث عائشة : «كان يكون علي الصوم من رمضان ، **فلا أقضيه إلا في شعبان ، من الشغل برسول الله ﷺ**»[1] ، ومعلوم أن هذا ليس صريحاً[2] في التوقيت بما بين الرمضانين ، كتوقيت أيام رمضان بما[3] بين الهلالين . فاعتبار أحدهما بالآخر ممتنع ، وجمع بين ما فرق الله بينهما . فإنه جعل أيام رمضان محدودة بحد لا تتقدم عنه ولا تتأخر ، وأطلق أيام القضاء ، وأكد إطلاقها بقوله «أُخَر» وأفتى من أفتى من الصحابة بالإطعام لمن أخرها إلى رمضان آخر، جبراً لزيادة التأخير عن المدة التي بين الرمضانين ، ولا تخرج بذلك عن كونها قضاءً[4] ، وإن فعلت بعد رمضان آخر ، فحكمها في القضاء قبل رمضان وبعده واحد ، بخلاف أيام رمضان .

يوضح هذا : أنه لو أفطر يوماً من أيام رمضان عمداً بغير عذر لم يتمكن أن يقيم مقامه يوماً آخر مثله[5] البتة ، ولو أفطر يوماً من أيام القضاء قام

---

(١) رواه البخاري ٤/ ١٨٩ في كتاب الصوم ، باب (متى يقضي قضاء رمضان) (ح١٩٥٠) ومسلم ٢/ ٨٠٢ في كتاب الصيام ، باب قضاء رمضان في شعبان (ح١١٤٦) .

(٢) في د : « تصريحاً » .

(٣) « بما » ساقطة من أ .

(٤) في ط والجميع سوى م زيادة : « بل هي قضاء » .

(٥) « مثله » ساقطة من ش .

اليوم[1] الذي بعده مقامه .

وسِرُّ الفرق: أن المعذور لم يتعين في حقه أيام القضاء؛ بل هو مخُيّر فيها[2]، أيُّ يوم صامَه قام مقام الآخر، وأما غير المعذور فأيام الوجوب متعينة في حقه، لا يقوم غيرها مقامها .

قالوا : وأما من ترك الجمعة عمداً ، فإنما أوجبنا عليه الظهر ؛ لأن الواجب في هذا الوقت أحد[3] الصلاتين ولا بد ، إما الجمعة ، وإما الظهر . فإذا ترك الجمعة فوقت الظهر قائم . وهو مخاطب بوظيفة الوقت .

قالوا : ولا سيما عند من يجعل الجمعة بدلاً من الظهر . فإنه إذا فاته البدل رجع إلىٰ الأصل هذا إن[4] كان القضاء ثابتاً بالإجماع أو بالنص . وإن كان فيه خلاف ، أجبنا بالجواب المركب .

فنقول : إن كان ترك الجمعة مساوياً لترك الصلاة حتىٰ يخرج وقتها . فالحكم في[5] الصورتين[6] واحد. ولا فرق حينئذ، عملاً بما ذكرنا[7] من الدليل، وإن كان بينهما فرق مؤثر بطل الإلحاق . فامتنع القياس ، فعلىٰ التقديرين بطل

---

(١) « اليوم » ساقطة من ش .

(٢) في ش : « بينهما » .

(٣) في غ ، ب : « إحدى » .

(٤) في ط والجميع سوى ش ، غ : « وهذا إن » .

(٥) في ح١ : « بين » .

(٦) في ش : « الصلاتين » .

(٧) في أ : « بما ذكرناه » .

القياس .

قالوا : وأما تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الأحزاب إلىٰ غروب الشمس فللناس في هذا التأخير - هل هو منسوخ أم لا؟ - قولان .

فقال الجمهور - كأحمد والشافعي ومالك - : هذا كان قبل نزول صلاة الخوف ثم نسخ بصلاة الخوف[1] فكان[2] ذلك التأخير كتأخير[3] الجمع بين الصلاتين ، فلا يجوز اعتبار الترك المحرم به . ويكون الفرق بينهما كالفرق بين تأخير النائم والناسي ، وتأخير المفرط ؛ بل أولىٰ . فإن هذا التأخير حينئذ مأمور به ، فهو كتأخير المغرب ليلة جمع إلىٰ مزدلفة .

والقول[4] الثاني : أنه ليس بمنسوخ ؛ بل هو باق وللمقاتل تأخير الصلاة حال[5] اشتغاله بالحرب والمسايفة ، وفعلها عند تمكنه منها[6] ، وهذا[7] قول أبي حنيفة ويُذكر رواية عن أحمد .

وعلىٰ التقديرين : فلا يصح إلحاق العامد المفرط به . وكذلك تأخير الصحابة - رضي الله عنهم - العصر يوم بني قريظة ؛ فإنه كان تأخيراً مأموراً به

---

(١) انظر : المغني ٣/ ٢٩٨ .

(٢) في ط والجميع سوى ش : « وكان » .

(٣) في ط ، ح١ زيادة : « صلاة » .

(٤) في ط والجميع سوى ش : القول الثاني .

(٥) في ط والجميع سوى ش : حال القتال واشتغاله .

(٦) « منها » ساقطة من ش .

(٧) في أ : « وهو » .

عند طائفة من أهل العلم [١]، أو تأخيراً سائغاً للتأويل عند بعضهم. ولهذا لم يعنف النبي ﷺ من صلاها [٢] في الطريق في وقتها، ولا من أخرها إلىٰ الليل حتىٰ صلاها في بني قريظة؛ لأن هؤلاء تمسكوا بظاهر الأمر، وأولئك نظروا إلىٰ المعنىٰ والمراد منهم، وهو سرعة السير.

واختلف علماء الإسلام في تصويب أي الطائفتين.

فقالت فرقة [٣] لو كنا مع القوم لصلينا في الطريق مع الذين فهموا المراد، وعقلوا مقصود الأمر، فجمعوا بين إيقاع الصلاة في وقتها وبين المبادرة إلىٰ العدو ولم يفتهم مشهدهم، إذ المقدار الذي سبقهم به أولئك لحقوهم به، لما اشتغلوا بالصلاة وقت النزول [٤].

قالوا: فهؤلاء أفقه الطائفتين، جمعوا بين الامتثال والاجتهاد. والمبادرة إلىٰ الجهاد، مع فقه النفس.

وقالت طائفة: لو كنا معهم لأخرنا الصلاة مع الذين أخروها إلىٰ بني قريظة وهم [٥] الذين أصابوا حكم الله قطعاً. وكان هذا التأخير واجباً لأمر الرسول ﷺ [٦] به. فهو الطاعة لله ذلك اليوم خاصة، والله يأمر بما يشاء. فأمره بالتأخير في

---

(١) في ط والجميع زيادة :كأهل الظاهر.

(٢) في غ: «صلى».

(٣) في ط: «طائفة».

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة: «في بني قريظة».

(٥) في ط، ب، م، ح١: «فهم».

(٦) ط، ح١، ح٢، د: «رسول الله».

وجوب الطاعة ، كأمره بالتقديم . فهؤلاء كانوا أسعد بالنص ، وهم الذين فازوا بالأجرين . وإنما لم يعنِّف الآخرين ، لأجل التأويل والاجتهاد . فإنهم إنما قصدوا طاعة الله[1] ورسوله ، وهم أهل الأجر الواحد ، وهم [2] كالحاكم الذي يجتهد فيخطئ الحق .

والمقصود : أن إلحاق المفرط العاصي بالتأخير بهؤلاء في غاية الفساد .

قالوا : وأما قولكم إن [3] هذا تائب نادم . فكيف نسدُّ[4] عليه طريق التوبة ، ونجعل[5] إثمَ التضييع لازماً له وطائراً في عنقه؟ فمعاذ الله أن [6] نسُدَّ عليه باباً فتحه الله لعباده المذنبين كلهم ، ولم يغلقه عن أحد[7] إلىٰ حين موته ، أو إلىٰ وقت طلوع الشمس من مغربها . وإنما الشأن في طريق توبته وتحقيقها[8] ، هل يتعين لها القضاء أم يستأنف العمل؟ ويصير ما مضىٰ لا له ولا عليه . ويكون حكمه حكم الكافر إذا أسلم في استئناف العمل وقبول التوبة . فإن [9] ترك

---

(١) في د زيادة : « وطاعة » .

(٢) «وهم» ساقطة من ب ، ق .

(٣) « إن » ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٤) في ط والجميع سوى ش ، ق : « يُسد » .

(٥) في ط : « ويجُعل » .

(٦) « أن » ساقطة من: غ .

(٧) في م : « واحد » .

(٨) في أ : « وتحققها » .

(٩) في أ ، ب : « من » .

فريضة من فرائض الإسلام ، لا يزيد [1] علىٰ ترك الإسلام بجملته وفرائضه .

فإذا كانت توبة تارك الإسلام مقبولة صحيحة ، لا يشترط في صحتها إعادة ما فاته في حال [كفره] [2] - أصلياً كان أو مرتداً - كما أجمع عليه الصحابة - رضي الله عنهم- في ترك أمر المرتدين لما رجعوا إلىٰ الإسلام بالقضاء ؛ فقبول توبة تارك الصلاة ، وعدم توقفها علىٰ القضاء أولىٰ . والله أعلم .

فصل

مسائل تتعلق في حقوق العباد

وأما [3] حقوق العباد : فيتصور في مسائل :

إحداها : من غصب أموالاً . ثم تاب وتعذَّر عليه ردُّها [4] إلىٰ أصحابها ، أو إلىٰ [5] ورثتهم ، لجهله بهم ، أو لانقراضهم ، وبغير [6] ذلك ، فاختلف في توبة مثل هذا .

فقالت طائفة : لا توبة له إلا بأداء هذه المظالم إلىٰ أربابها . فإذا كان ذلك قد تعذر عليه [7] ، تعذرت عليه [8] التوبة ، والقصاص أمامه يوم القيامة بالحسنات

---

(١) في ش : « لا تزيد » .

(٢) في الأصل و ط والجميع سوى ش : « إسلامه » وما أثبته من ش وهو الذي يقتضيه السياق .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : « في » .

(٤) في ش : « أداؤها » .

(٥) في د : « وإلى » .

(٦) في ح١ : « أو غير » وط : « أو لغير » .

(٧) في ط زيادة : « فقد » .

(٨) « عليه » ساقطة من أ .

والسيئات ليس إلا .

قالوا : فإن هذا حق آدمي [١] لم يصل إليه . والله تعالىٰ لا يترك من حقوق عباده شيئاً ؛ بل يستوفيها لبعضهم من بعض ، ولا يجاوزُه ظلمُ ظالم ، فلا بد أن يأخذ للمظلوم حقَّه من ظالمه ، ولو لَطْمَة ، ولو كلمة ، ولو رمية بحجر [٢] .

قالوا : أقرب ما لهذا في تدارك الفارط منه ، أن يستكثر [٣] من الحسنات ، ليتمكن من الوفاء منها يوم لا يكون الوفاء بدينار ولا درهم [٤] ، فيتجر تجارة يمكنه الوفاء منها . ومن أنفع ما له ؛ الصبر علىٰ ظلم غيره له وأذاه ، وغيبته وقذفه . فلا يستوفي حقه في الدنيا ، ولا يقابله ليحيل خصمه عليه إذا أفلس من حسناته . فإنه كما يؤخذ منه ما عليه يستوفي أيضاً ماله ، وقد يتساويان [٥] . وقد يزيد أحدهما عن الآخر .

---

(١) في ح١ ، غ ، ب ، ط : «حق لآدمي» .

(٢) يدل عليه ما رواه مسلم ٤/ ١٩٩٧ في كتاب البر والصلة (ح٢٥٨١) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما المفلس؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : « إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيُعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » .

(٣) في أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط : « يكثر » .

(٤) في أ ، ب ، م ، ح١ ، د ، ق ، ط : « ولا بدرهم » .

(٥) في غ : « يستويان» .

ثم اختلف هؤلاء في حكم ما بيده من الأموال :

فقالت طائفة : يوقِفُ أمرَها ، ولا يتصرف فيها البتة .

وقالت طائفة : يدفعها إلىٰ الإمام أو نائبه، لأنه وكيل أربابها. فيحفظها لهم، ويكون حكمها حكم الأموال الضائعة .

وقالت طائفة أخرىٰ : بل باب التوبة مفتوح لهذا ، ولم يغلق (١) الله عنه ، ولا عن مذنب باب التوبة (٢) ، وتوبته أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها . فإذا كان يوم استيفاء الحقوق ، كان لهم الخيار ، بين أن يجيزوا ما فعل ، وتكون أجوُرها لهم ، وبين أن لا يجيزوه (٣) ويأخذوا من حسناته بقدر أموالهم فيكون (٤) ثواب تلك الصدقة له . إذ لا يُبطلُ الله سبحانه ثوابَها ، ولا يجمع لأربابها بين العوض والمُعَوّض (٥) فيُغرّمه إياها ، ويجعل أجرها لهم ، وقد غَرم من حسناته بقدرها (٦) .

وهذا مذهب جماعة من الصحابة - رضي الله عنهم - كما هو مروي عن ابن مسعود ، ومعاوية (٧) ، وحجاج بن

---

(١) في الجميع سوى ش : « يغلقه » .

(٢) « باب التوبة» ساقط من ط والجميع سوى ش ، ق .

(٣) في ط والجميع : «يجيزون » .

(٤) في ط والجميع سوى ش : « ويكون» .

(٥) في ش ، م ، ح٢ زيادة : « منه » .

(٦) انظر هذه المسألة في مجموع الفتاوى ٢٩/ ٣٢١ .

(٧) معاوية بن أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي، ولد بمكة وأسلم عام الفتح، كان من كتاب الوحي لرسول الله ﷺ ، كان والياً على دمشق زمن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وجعل عثمان ولاة أمصار الديار الشامية تابعين له ، وقع بينه وبين علي بن

الشاعر[1] . فقد اشترىٰ ابن مسعود[2] من رجل جارية ، ودخل يزن له الثمن ، فذهب رب الجارية ، فانتظره حتىٰ يئس من عوده . فتصدق بالثمن ، وقال : اللهم هذا عن رب الجارية . فإن رضي فالأجر له ، وإن أبىٰ فالأجر لي ، وله من حسناتي بقدره[3] ، و«غَلَّ رجل من الغنيمة ، ثم تاب . فجاء بما غَلّه إلىٰ أمير الجيش ، فأبىٰ أن يقبله منه ، وقال : كيف لي بإيصاله إلىٰ الجيش ، وقد تفرقوا؟ فأتىٰ حجاجُ بن الشاعر . فقال : يا هذا ، إن الله يعلم الجيش وأسماءهم وأنسابهم ، فادفع خمسه إلىٰ صاحب الخمس ، وتصدق بالباقي عنهم . فإن الله يوصل ذلك إليهم -أو كما قال- ففعل . فلما أخبر معاوية قال: لأن أكون أفتيك بذلك أحب إليَّ من نصف ملكي»[4] .

أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ خلاف بعد مقتل عثمان ، وقامت الحروب بينهما وبعد قتل علي ابن أبي طالب ومبايعة الحسن بن علي من بعده تنازل بالخلافة لمعاوية سنة ٤١هـ توفي في دمشق سنة ٦٠هـ ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ ترجمته في : التاريخ الكبير ٧/ ٣٢٦ ، أسد الغابة ٤/ ٤٣٣ ، السير ٣/ ١١٩ ، الإصابة ٣/ ٤١٢ .

(١) أبو محمد حجاج بن يوسف بن حجاج بن أبي يعقوب الثقفي البغدادي الحافظ ، أحد الأثبات قال ابن أبي حاتم : ثقة من الحفاظ فمن يحسن الحديث عنه وقال النسائي : ثقة . توفي سنة ٥٩هـ . ترجمته في : تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٠ ، السير ١٢/ ٣٠١ ، تهذيب التهذيب ٢/ ٢٠٩ .

(٢) في ط : «فقد روى أن ابن مسعود اشترى . . . » .

(٣) رواه البخاري تعليقاً ٩/ ٤٢٩ في كتاب الطلاق ، باب حكم المفقود في أهله وماله . وذكره الغزالي في الإحياء ٢/ ١٨٠ ، وانظر : مجموع الفتاوى ٢٩/ ٣٢١ .

(٤) رواه سعيد بن منصور في سننه ٢/ ٢٧٠ (ح٢٧٣٢) لكن قال : فمر ابن عبد الله بن الشاعر ، وذكر نحوه الغزالي في الإحياء ٢/ ١٨٠ .

في أحكام اللقطة

قالوا[1] : وكذلك اللقطة إذا لم يجد ربهَا، بعد تعريفها، ولم يُرد أن يتملكها، تصدق بها عنه، فإن ظهر مالكُها خيّره بين الأجر والضمان[2] .

قالوا : وهذا لأن المجهول في الشرع كالمعدوم . فإذا جُهل المالك صار بمنزلة المعدوم . وهذا مال لم يعلم له مالك معين ، ولا سبيل إلىٰ تعطيل الانتفاع[3] لما فيه من المفسدة والضرر بمالكه والفقراء[4] ، ومن[5] هو في يده ، أما المالك ، فلعدم وصول نفعه إليه ، وكذلك الفقراء . وأما من هو في يده ، فلعدم تمكنه من الخلاص من إثمه ، فيغرمه يوم القيامة من غير انتفاع به . ومثل هذا لا تبيحه شريعة ، فضلاً عن أن تأمر به وتوجبه . فإن الشرائع مبناها علىٰ تحصيل[6] المصالح بحسب الإمكان [وتكميلها . وتعطيل المفاسد بحسب الإمكان وتقليلها[7] . وتعطيل هذا المال ووقفه ومنعه عن الانتفاع به][8]

---

(١) في د ، ح٢ ، ق : « قال» .

(٢) لحديث زيد بن خالد الجهني - رضي الله عنه - أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن اللقطة فقال : «عرّفها سنة ثم اعرف وكاءها وعفاصها ، ثم استنفق بها ، فإن جاء ربُها فأدها إليه » . رواه البخاري ٥/ ٩١ في كتاب اللقطة ، باب إذا جاء صاحب اللقطة ردها إليه (ح٢٤٣٦) ، ومسلم ٣/ ١٣٤٦ - ١٣٤٩ في كتاب اللقطة (ح١٧٢٢) ، وأحمد في مسنده ٤/ ١١٦ - ١١٧ .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : « به » .

(٤) في ط : « وبالفقراء » .

(٥) في ط : « وبمن » .

(٦) « تحصيل » ساقطة من ط .

(٧) في ط : وتقيلها .

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من أ .

مفسدة محضة . لا مصلحة فيها[1] . فلا يصار إليه .

قالوا : وقد استقرت قواعد الشرع علىٰ أن الإذن العرفي كاللفظي[2] . فمن رأىٰ بمال غيره موتاً - وهو مما[3] يمكن استدراكه بذبحه - فذبحه إحساناً إلىٰ مالكه ونصحاً له ، فهو مأذون له فيه عرفاً ، وإلا[4] كان المالك سفيها . فإذا ذبحه لمصلحة مالكه لم يضمنه ؛ لأنه محسن و﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التوبة :٩١] وكذلك[5] إذا غصبه ظالم ، أو خاف عليه منه فصالحه عليه[6] ببعضه ، فيسلم[7] الباقي لمالكه ، وهو غائب عنه ، أو رآه آيلاً إلىٰ تلاف[8] محض ، فباعه وحفظ ثمنه له ، ونحو ذلك ، فإن هذا[9] كله مأذون فيه عرفاً من المالك . وقد باع عروة بن الجعد البارقي[10] - رضي الله عنه - وكيل

---

(١) أ ، ب زيادة : له .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٢٩/ ٢٠ .

(٣) « مما » ساقطة من ش .

(٤) في ط : « وإن » .

(٥) في د : « ولذلك » .

(٦) « عليه » ساقطة من ح٢ .

(٧) في ط والجميع سوى ش : « ليسلم » .

(٨) في ط : « تلف » ، وح١ ، أ ، ش ، ح٢ : « إتلاف » .

(٩) في ح٢ : « ذلك » .

(١٠) عروة بن الجعد وقيل ابن أبي الجعد البارقي ، صحابي جليل ، وهو الذي أرسله النبي ﷺ ليشتري له شاة بدينار ، فاشترى به شاتين . حضر فتوح الشام ونزلها ، سيره عثمان رضي الله عنه إلى الكوفة . ترجمته في : أسد الغابة ٣/ ٥٢٣ ، الإصابة ٢/ ٤٦٨ .

النبي ﷺ - ملك النبي ﷺ بغير استئذانه[١] لفظاً، واشترىٰ له ببعض ثمنه مثل ما وكله في شرائه بذلك الثمن كله. ثم جاءه[٢] بالثمن وبالمشترىٰ، فقبله النبي ودعا له[٣].

وأشكل هذا علىٰ بعض الفقهاء[٤]، وبناه علىٰ تصرف الفضولي[٥] فأُورد عليه أن الفضولي لا يَقبض ولا يُقبِض، وهذا قَبَض وأَقْبَض.

وبناه آخر[٦] علىٰ أنه كان وكيلاً مطلقاً في كل شيء، وهذا أفسد من الأول. فإنه لا يُعرف عن رسول الله ﷺ أنه وكَّل أحداً وكالة مطلقة البتة، ولا نقل ذلك عنه مسلم.

والصواب: أنه مبني علىٰ هذه القاعدة أن «الإذن العرفي كالإذن اللفظي» ومن رضي بالمشترىٰ وخروج[٧] ثمنه عن ملكه، فهو بأن يرضىٰ به ويحُصل له الثمن أشد رضاً.

---

(١) في ط: «إذنه».

(٢) في غ، م: «جاء».

(٣) رواه البخاري ٦/ ٦٣٢ في المناقب (ح٣٦٤٢)، وأحمد في مسنده ٤/ ٣٧٥، والترمذي ٣/ ٥٥٠ في البيوع (ح١٢٥٨)، وأبو داود ٣/ ٦٧٧ في البيوع، باب في المضارب يخالف (ح٣٣٨٤)، وابن ماجه ٢/ ٨٠٣ في الصدقات، باب الأمين يتجر فيه فيربح (ح٢٤٠٢).

(٤) انظر: المغني ٧/ ٣٩٩.

(٥) الفضولي: هو من لم يكن ولياً ولا أصيلاً ولا وكيلاً في العقد. التعريفات للجرجاني ص١٩٠.

(٦) في ط: «آخرون».

(٧) في ط والجميع سوى ش، د: خرج.

ونظير هذا : مريض عجز أصحابه -في السفر أو الحضر- عن استئذانه في إخراج شيء من ماله في علاجه ، وخيف عليه . فإنهم يخرجون من ماله ما هو مضطر إليه بدون استئذانه ، بناء على العرف في ذلك . ونظائر ذلك مما مصلحته وحسنه مستقر في فطر الخلق ، ولا تأتي شريعة بتحريمه [١] .

وإذا ثبت ذلك ، فمن المعلوم : أن صاحب هذا المال الذي قد حيل بينه وبينه أشد شيء رضاً [٢] بوصول نفعه الأخروي إليه ، وهو أكره شيء لتعطيله أو إبقائه مقطوعاً عن [٣] الانتفاع به دنيا وأخرى . وإذا وصل إليه ثواب ماله سرَّه ذلك أعظم من سروره بوصوله إليه في الدنيا ، فكيف يقال : مصلحة تعطيل هذا المال – عن انتفاع [٤] الميت والمساكين [٥] ومن هو بيده- أرجح من مصلحة إنفاقه شرعاً؟ بل أي مصلحة دينية أو دنيوية في هذا التعطيل؟ وهل هو إلا محض المفسدة؟

ولقد سئل شيخنا أبو العباس ابن تيمية – قدس الله روحه – سأله شيخٌ . فقال : هربت من أستاذي وأنا صغير إلى الآن لم أطلع له على خبر ، وأنا مملوك ، وقد خفت من الله عز وجل ، وأريد براءة ذمتي من حق أستاذي من

---

(١) في ط والجميع سوى د زيادة « كثير » .

(٢) في ط : « رضي » .

(٣) في ق : « من » .

(٤) في ش زيادة : « هذا » .

(٥) في ط زيادة : « به » .

رقبتي ، وقد سألت جماعة من المفتين . فقالوا لي: اذهب فاقعد في المستودع. فضحك شيخنا وقال : تصدق بقيمتك - أغلى[1] ما كانت - عن[2] سيدك ولا حاجة لك بالمستودع[3] عبثاً في غير مصلحة ، وإضراراً بك ، وتعطيلاً عن مصالحك ، ولا مصلحة لأستاذك في هذا ، ولا لك ولا للمسلمين . أو نحو هذا من الكلام .

فصل

حكم قبض المعاوضة المحرمة

المسألة الثانية : إذا عاوض غيره معاوضة محرمة ، وقبض العوض - كالزانية والمغنِّي ، وبائع الخمر ، وشاهد الزور ونحوهم - ثم تاب والعوض بيده .

فقالت طائفة : يرده إلىٰ مالكه . إذ هو عين ماله . ولم يقبضه بإذن الشارع . ولا حصل لربه في مقابلته نفع مباح .

وقالت طائفة : بل توبته بالتصدق به . ولا يدفعه إلىٰ من أخذه منه . وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية[4] . وهو أصوب القولين . فإنَّ قابضه إنما قبضه ببذل مالكه[5] له ، ورضاه ببذله . وقد استوفىٰ عوضه المحرم فكيف يجمع

---

(١) في أ ، ب ، م ، ح١ ، د ، ط : « أعلى » .

(٢) في م : « عند كف سيدك » .

(٣) في ط زيادة : « تقعد فيه » .

(٤) انظر : الاختيارات الفقهية لشيخ الإسلام ١٦٧ .

(٥) في الأصل : « ماله » وهو خطأ وما أثبته من الجميع وهو الذي يقتضيه السياق .

له[١] بين العوض والمعوض؟ وكيف يُرد عليه مالاً قد استعان به علىٰ معاصي الله ، ورضي بإخراجه[٢] فيما يستعين به عليها ثانياً وثالثاً؟ وهل هذا إلا محض إعانته علىٰ الإثم والعدوان؟ وهل يناسب هذا محاسن الشرع أن يُقضىٰ للزاني بكل ما دفعه إلىٰ من زنىٰ بها؟ [ويؤخذ منها ذلك طوعاً أو كرهاً ، فيعطاه وقد نال غرضه[٣]منها[٤] [٥] .

وهب أن هذا المال][٦] لم يملكه الآخذ . فملْكُ صاحبِه قد زال عنه بإعطائه لمن أخذه ، وقد سلَّم له ما في قبالته من النفع ، فكيف يقال : ملْكه باق عليه ، ويجب رده إليه؟ وهذا بخلاف أمره بالصدقة به [٧] . فإنه قد أخذه من وجه خبيث برضا صاحبه وبذله له ، فلم يطب له [٨]بذلك ، وصاحبه قد رضي بإخراجه عن ملكه [٩] ، وأن لا يعود إليه ، فكان أحق الوجوه به ، صرفه في المصلحة التي ينتفع بها من قبضه ويخفف عنه [١٠] الإثم ، ولا يُقَوّىٰ الفاجر به

---

(١) « له » ساقطة من م .

(٢) في الجميع سوى ش ، ط : « فيها » .

(٣) في غ ، أ ، ح ا ، ط : عوضه .

(٤) « منها » ساقطة من غ ، أ ، ح١ ، ط .

(٥) في ش زيادة : « وقد تابت » .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من م .

(٧) « به» ساقط من ش ، ق .

(٨) « فلم يطب له» ساقطة من ط .

(٩) في ط زيادة : « بذلك » .

(١٠) في ش : « عن » .

ويُعان [١] ، ويجمع له بين الأمرين .

وهكذا [٢] من اختلط ماله الحلال بالحرام ، وتعذر عليه تمييزه ، أن يتصدق بقدر الحرام ، ويطيب له [٣] باقي ماله . والله أعلم .

فصل

من غصب مالاً وتعذر رده لصاحبه

إذا غصب مالاً ومات ربُّه ، وتعذر ردُّه عليه . تعين عليه ردُّه إلىٰ [٤] وارثه . فإن مات الوارثُ ردَّه إلىٰ وارثِهِ ، وهلُمَّ جرّا ، فإن لم يرده إلىٰ ربه ، ولا إلىٰ أحد من [٥] ورثته ، فهل تكون المطالبة به في الآخرة للمَوْرُوث ، إذ هو ربه الأصلي ، وقد غصبه عليه ، أو للوارث الآخر [٦] إذ الحق قد انتقل إليه .

فيه قولان للفقهاء . وهما وجهان في مذهب الشافعي - رضي الله عنه- .

ويحتمل أن يقال : المطالبة للموروث ، ولكل واحد من الورثة . إذ كل منهم [٧] يستحقه ، ويجب عليه الدفع إليه [٨] . فقد ظلمه بترك إعطائه ما وجب

---

(١) في ش : « ولا يعان » .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : « توبة » .

(٣) « له » ساقطة من غ ، ط .

(٤) في ح١ : « على » .

(٥) « من » ساقطة من ط .

(٦) في ط والجميع سوى ش : « الأخير » .

(٧) في ب زيادة : « قد » وفي ط والجميع زيادة : « قد كان » .

(٨) « إليه » ساقطة من ش .

عليه دفعه إليه ، فيتوجه عليه المطالبة في الآخرة له .

فإن قيل : كيف [١] يتخلص بالتوبة من حقوق هؤلاء؟

قيل : طريق [٢] التوبة أن يتصدق عنهم بمال يجري منافع ثوابه عليهم بقدر ما فات كل واحد منهم من منفعة ذلك المال [٣] لو صار إليه ، متحرياً للممكن من ذلك . وهكذا لو تطاولت علىٰ المال سِنون ، وقد كان يمكن ربه أن ينميه بالربح . فتوبته بأن[٤] يخرج المال ومقدارَ ما فوّته [٥] من ربح ماله .

فإن كان قد ربح فيه بنفسه . فقيل : الربح كُله للمالك . وهو قول الشافعي وظاهر مذهب أحمد .

وقيل : كله للغاصب ، وهو مذهب مالك وأبي حنيفة[٦] . وكذلك لو أودعه مالاً فاتجر به وربح ، فربحه له دون مالكه عندهما [٧] ، وضمانه عليه . وفيها [٨] قول ثالث[٩]: أنهما شريكان في الربح. وهو[١٠] رواية عن أحمد - رحمه الله -،

---

(١) في ط والجميع سوى ش : « فكيف » .

(٢) في م : « طريقه » .

(٣) في غ : « الملك » .

(٤) في ح١ : « أن » .

(٥) في ش : « ما فاته » .

(٦) في ط : « مذهب أبي حنيفة ومالك رحمهما الله » .

(٧) في ش : « عنده » .

(٨) في ح٢ ، م : « وفيه » .

(٩) في ش زيادة : « وهو» .

(١٠) في ش : « وهي » .

واختيار شيخنا وهو أصح الأقوال . فتضم حصة المالك من الربح إلىٰ أصل المال ، ويتصدق بذلك .

وهكذا لو غصب ناقة أو شاةً منه ، فنتجت أولاداً . فقيل : أولادها كلها للمالك . فإن ماتت - أو شيء من النتاج - ردَّ أولادها وقيمة الأم ، وما مات من النتاج [1] . هذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عند أصحابه .

وقال مالك : إذا ماتت فربها بالخيار بين أخذ قيمتها يوم ماتت وترك نتاجها للغاصب ، وبين أخذ نتاجها وترك قيمتها ، وعلىٰ القول الثالث الراجح ، يكون عليه قيمتها وله نصف النتاج [2] .

فصل

هل في الذنوب ما لا تقبل فيه التوبة

اختلف الناس [3] : هل في الذنوب [4] ذنب لا تقبل توبته أم لا؟

فقال الجمهور : التوبة تأتي علىٰ كل ذنب . فكل ذنب يمكن التوبة منه وتقبل .

الخلاف في توبة القاتل

وقالت طائفة لا تقبل توبة القاتل [5] ، وهذا مذهب ابن عباس - رضي الله عنه -

---

(١) من النتاج « ساقطة من م » .

(٢) انظر هذه المسألة في مجموع الفتاوى ٣٠/ ٣٢٠-٣٢٣ .

(٣) « اختلف الناس » ساقط من م .

(٤) في ح٢ ، م « الذنب » .

(٥) في ط والجميع سوى ش : « لا توبة للقاتل » .

المعروف[1] عنه[2]، وإحدىٰ الروايتين عن أحمد . وقد ناظر ابن عباس في ذلك أصحابه ، فقالوا له[3] : «أليس قد قال الله تعالىٰ في القرآن[4] ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ - إلىٰ أن قال - إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان : ٦٨-٧٠] فقال : كانت هذه الآية في الجاهلية وذلك أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا. فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: إن الذي تدعو[5] إليه لحسن لو تخبرنا أنَّ لما عملنا[6] كفارة فنزل ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلىٰ قوله : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ [الفرقان : ٦٨-٧٠] ، فهذه في أولئك. وأما التي[7] في سورة النساء ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٩٣] ، فالرجل إذا عرف الإسلام وفرائضه[8] ثم قتل . فجزاؤه جهنم»[9] وقال

---

(١) «المعروف عنه» ساقط من ش .

(٢) انظر صحيح مسلم ٤/٢٣١٨ .

(٣) «له» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٤) في الجميع سوى م : «الفرقان» ، وفي ط : «سورة الفرقان» .

(٥) في ش : «تدعونا» .

(٦) في غ ، د ، ح١ ، أ : «علمناه» .

(٧) «التي» ساقطة من أ ، ب ، د ، غ ، ح١ ، م .

(٨) في ط : «شرائعه» .

(٩) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤٦٥، وروى نحوه مسلم ٤/ ٢٣١٨ في كتاب التفسير (ح٣٠٢٣)، وروى نحوه كذلك الطبري في تفسيره ٤/ ٢٢١ .

زيد بن ثابت : « لما نزلت التي في الفرقان ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ عجبنا من لينها ، فلبثنا سبعة أشهر ، ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة »[1]، وأراد بالغليظة : هذه الآية آية النساء[2] وباللينة: آية الفرقان. قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : « آية الفرقان مكية ، وآية النساء مدنية نزلت ولم ينسخها شيء »[3] .

قال هؤلاء : ولأن التوبة من قتل المؤمن عمداً متعذرة . إذ لا سبيل إليها إلا باستحلاله ، أو إعادة نفسه – التي فوتها عليه[4] إذ التوبة من حق الآدمي : لا[5] تصح إلا بأحدهما ، وكلاهما متعذر علىٰ القاتل . فكيف تصح توبته من حق آدمي لم يصل إليه ، ولم يستحله منه؟

ولا يرد عليهم هذا في المال إذا مات ربه ولم يوفه إياه ؛ لأنه يتمكن من إيصال نظيره إليه بالصدقة .

قالوا : ولا يرد علينا أن الشرك أعظم من القتل ، وتصح التوبة منه . فإن ذلك محض حق الله تعالىٰ ، فالتوبة[6] ممكنة . وأما حق الآدمي ، فالتوبة

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره في ١/ ٤٦٥ ، وروى نحوه الطبري في تفسيره ٤/ ٢٢٢-٢٢٣ .

(٢) في الجميع سوى س : « التي في النساء » وط: « التي في سورة النساء» .

(٣) روى البخاري ٨/ ٢٥٧ قوله : « نزلت ولم ينسخها شيء» في كتاب التفسير ، باب : ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾ (ح٤٥٩٠) .

ورواه الطبري في تفسيره ٤/ ٢٢١ وذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤٦٥ .

(٤) في ط والجميع سوى ش ، ق زيادة : « إلى جسده » .

(٥) في أ : « لم » .

(٦) في ط والجميع سوى ش زيادة : « منه » .

منه[1] موقوفة علىٰ أدائه[2] واستحلاله وقد تعذر .

واحتج الجمهور بقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، فهذه في حق التائب . وبقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [النساء : ٤٨] فهذه في حق غير التائب ؛ لأنه فرق بين الشرك وما دونه ، وعلق المغفرة بالمشيئة ، فخصص وعلق ، وفي التي قبلها عمم وأطلق .

واحتجوا بقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] فإذا تاب هذا القاتل وآمن وعمل صالحاً فالله[3] عز وجل غفار له .

قالوا : وقد صح عن النبي ﷺ حديث الذي قتل المائة، ثم تاب فنفعته توبته، وألحق بالقرية الصالحة التي خرج إليها[4] .

وصح عنه ﷺ من حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال ـ وحوله عصابة من أصحابه ـ : « **بايعوني علىٰ أن لاتشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا[5] ولا تقتلوا أولادكم . ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم**

---

(١) « منه » ساقطة من ط .

(٢) في ط زيادة : « إليه » .

(٣) في ط ، غ ، م ، ح١ ، أ : « فإن الله » .

(٤) سبق تخريجه ص ٨٩٢.

(٥) « ولا تزنوا » ساقطة من « م » .

وأرجلكم ولا تعصوني في معروف ، فمن وفّىٰ منكم فأجره علىٰ الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ، فعُوقب به في الدنيا . فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فهو إلىٰ الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه . فبايعناه علىٰ ذلك »(١) .

قالوا : وقد قال ﷺ - فيما يروي عن ربه تعالىٰ - : « ابن آدم ، لو لقيتني بقُراب الأرض خطايا . ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً . لقيتك بقرابها مغفرة »(٢) .

وقال ﷺ : « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة »(٣) وقال : «من كان آخر كلامه : لا إلٰه إلا الله دخل الجنة »(٤) ، وقال : «إن الله حرم علىٰ النار من قال لا إلٰه إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»(٥) ، وفي حديث الشفاعة : «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» وفيه يقول الله عز وجل : «وعزتي

---

(١) رواه البخاري ١/ ٦٤ في كتاب الإيمان ، باب (١١) ، (ح١٨) . ومسلم ٣/ ١٣٣٣ في كتاب الحدود ، باب الحدود كفارات لأهلها (ح١٧٠٩) ، وأحمد في مسنده ٥/ ٣١٤ .

(٢) سبق تخريجه ص ٨٧٧ .

(٣) رواه البخاري ٣/ ١١٠ في كتاب الجنائز ، باب ومن كان آخر كلامه لا إلٰه إلا الله (ح١٢٣٧) ، ومسلم ١/ ٩٤ في كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً (ح٩٣) ، وأحمد في مسنده ١/ ٣٨٢ .

(٤) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٢٣٣ بلفظ : « وجبت له الجنة » ، وأبو داود ٣/ ٤٨٦ في كتاب الجنائز ، باب في التلقين (ح٣١١٦) ، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٠٣ (ح١٢٩٩) وقال : «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي» . وقال الألباني : حسن . الإرواء ٣/ ١٤٩ .

(٥) سبق تخريجه ص ٨٨٨ .

وجلالي ، لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله»[1] . وأضعاف هذه النصوص كثيرة[2] ، فدل[3] على أنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد .

قالوا : وأما هذه الآية التي في النساء[4] ، فهي نظائر أمثالها من نصوص الوعيد كقوله تعالى : ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء : ١٤][5] .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء : ١٠]

وقوله ﷺ «من قتل نفسه بحديدة فحديدته يتوجأ[6] بها خالداً مخلداً في نار جهنم»[7] ونظائره كثيرة .

---

(١) جزء من حديث الشفاعة رواه البخاري ١٣/ ٤٧٣-٤٧٤ في كتاب التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة (ح٧٥١٠) ، ومسلم ١/ ١٨٣-١٨٤ في كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة (ح١٩٣) .

(٢) في ط : كثير .

(٣) في ط والجميع سوى ش : « تدل» .

(٤) في ش : في سورة النساء .

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة : وقوله : ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾ [الجن : ٢٣] .

(٦) الوجءُ : اللكز ، ووجأه باليد والسكين : ضربه ، لسان العرب ١٥/ ٢١٤ مادة وجأ . والنهاية في غريب الحديث ٥/ ١٥٢ .

(٧) جزء من حديث رواه البخاري ١٠/ ٢٤٧ في كتاب الطب ، باب شرب السم والدواء به (ح٥٧٧٨) ، ومسلم ١/ ١٠٣ - ١٠٤ في كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (ح١٠٩) ، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٥٤ .

وقد اختلف الناس في هذه النصوص علىٰ طرق .

أحدها : القول بظاهرها ، وتخليد أرباب هذه الجرائم في النار ، وهو قول الخوارج والمعتزلة [1] ثم اختلفوا .

فقالت الخوارج : هم كفار ؛ لأنه لا يخلد في النار إلا كافر .

وقالت المعتزلة : ليسوا بكفار ؛ بل فساق مخلدون في النار . هذا كله إذا لم يتوبوا [2] .

وقالت فرقة : بل هذا [3] الوعيد في حق المستحل لها ؛ لأنه كافر [4] .

وأما من فعلها يعتقد [5] تحريمها : لم [6] يلحقه هذا الوعيد - وعيد الخلود - وإن لحقه وعيد الدخول .

وقد أنكر الإمام أحمد - رضي الله عنه - هذا القول ، وقال : لو استحل ذلك ولم يفعله كان كافراً والنبي ﷺ إنما قال : من فعل كذا وكذا .

وقالت فرقة ثالثة : الاستدلال بهذه النصوص مبني علىٰ ثبوت العموم : وليس في اللغة ألفاظ عامة . ومن هٰهنا أنكر العموم من أنكره ، وقصدهم

---

(١) انظر : مقالات الإسلاميين للأشعري ٨٦ ، الملل والنحل ١/ ٤٥ ، ١١٤ ، مجموع الفتاوى ٧/ ٦٧٠ .

(٢) انظر : الفتاوى ٧/ ٤٨٢ ، ٤٨٤ ، ١٢/ ٤٧١

(٣) في « هذا » ساقطة من ش .

(٤) انظر : تفسير البغوي ١/ ٤٦٥ .

(٥) في ط ، ح٢ ، غ ، م ، د ، ح١ ، أ : معتقداً .

(٦) في ط : « فلا » .

تعطيل هذه الأدلة عن استدلال المعتزلة والخوارج بها ؛ لكن ذلك يستلزم تعطيل الشرع جملة؛ بل تعطيل عامة الأخبار. فهولاء [١] ردوا باطلاً بأبطل منه ، وبدعة بأقبح منها . وكانوا كمن رام [٢] يبني قصراً فَهَدَّ مصراً .

وقالت[٣] فرقة رابعة : في الكلام إضمار .

قالوا : والإضمار في كلامهم كثير معروف .

ثم اختلفوا في هذا المضمر . فقالت طائفة : بإضمار الشرط . والتقدير : فجزاؤه كذا ، إن جازاه ، أو إن شاء .

وقالت فرقة خامسة : بإضمار الاستثناء . والتقدير : فجزاؤه كذلك [٤] إلا أن يعفو ، وهذه دعوىٰ لا دليل في الكلام عليها البتة ؛ ولكن إثباتها بأمر خارج عن اللفظ .

وقالت فرقة سادسة : هذا وعيد . وإخلاف الوعيد لا يذم ؛ بل يمدح ، والله تعالىٰ يجوز عليه إخلاف الوعيد ، ولا يجوز عليه إخلاف[٥] الوعد . والفرق بينهما ، أن الوعيد حقُّه ، فإخلافه عفو وهبة وإسقاط ، وذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه ، والوعد حق[٦] عليه ، أوجبه علىٰ نفسه ، والله لا يخلف

---

(١) في ق : « ولهذا » .

(٢) في ط ، ش زيادة : « أن » .

(٣) في غ ، أ : « فقالت » .

(٤) في ط ، ب ، غ ، ح١ : « كذا» .

(٥) في ط : « خُلفُ » .

(٦) في أ : « حقه » .

الميعاد .

قالوا : ولهذا مدح به كعب بن زهير[1] رسول الله ﷺ ، حيث يقول :

نُبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول[2]

وتناظر في هذه المسألة أبو عمرو بن العلاء[3] ، وعمرو بن عبيد[4] فقال عمرو بن عبيد : يا أبا عمرو ، لا يخلف الله وعده[5] فقد[6] قال : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾

---

(١) كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني ، من فحول الشعراء من أهل نجد ، كان ممن اشتهر في الجاهلية ، ولما ظهر الإسلام هجا النبي ﷺ وأقام يشبب بنساء المسلمين، فأهدر النبي ﷺ دمه ، فجاءه كعب بعد ذلك مستأمناً وقد أسلم ، وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ....

فعفا عنه النبي ﷺ وخلع عليه بردته . ترجمته في: الشعر والشعراء ٨٠ ، أسد الغابة ٤/ ١٧٥ ، الإصابة ٣/ ٢٧٩ .

(٢) انظر : ديوان كعب بن زهير ١١٤ .

(٣) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان المازني النحوي القاري الثقة ، كان من أعلم الناس بالقرآن والعربية والشعر ، وكان مقدماً في عصره . توفي سنة ١٥٤هـ .
ترجمته في : السير ٦/ ٤٠٧ ، تهذيب التهذيب ١٢/ ١٧٨ ، بغية الوعاة ٢/ ٢٣١ .

(٤) أبو عثمان عمرو بن عبيد البصري صاحب واصل بن عطاء ، المعتزلي الزاهد ، أخذ عن الحسن البصري ثم اعتزله . قال ابن معين لا يكتب حديثه ، وقال النسائي متروك الحديث ، مات سنة ١٤٣هـ ، وقيل ١٤٤هـ . ترجمته في : تاريخ بغداد ١٢/ ١٦٢ ، السير ٦/ ١٠٤ ، ميزان الاعتدال ٣/ ٢٧٣ .

(٥) في ح٢ ، أ ، ب : وعيده .

(٦) في ط : « وقد » .

[النساء :٩٣] فقال له أبو عمرو : ويحك يا عمرو ، من العُجمة أتيت . إن العرب لا تعد إخلاف الوعيد ذماً ؛ بل جوداً وكرماً . أما سمعت قول الشاعر :

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي ولا يختشي من صولة[1] المتهدد

وإني وإن[2] أوعدته أو وعدته[3] لمخلف إيعادي ومنجز موعدي[4][5]

وقالت فرقة سابعة : هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضىٰ للعقوبة . ولا يلزم من وجود مقتضىٰ الحكم وجوده . فإن الحكم إنما تمّ[6] بوجود[7] مقتضيه وانتفاء مانعه ، وغاية هذه النصوص ؛ الإعلام بأن كذا سبب العقوبة[8] ومقتضٍ لها ، وقد قام الدليل علىٰ ذكر الموانع فبعضها بالإجماع وبعضها بالنص ، فالتوبة مانع بالإجماع ، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها ، والحسنات العظيمة الماحية مانعة ، والمصائب الكبار المكفرة مانعة ، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص ، ولا سبيل إلىٰ تعطيل هذه

---

(١) في ط والجميع سوى ش : «سطوة» .

(٢) « وإن » ساقطة من غ . والواو ساقطة من ط ، ، ح٢ ، ب ، ح١ ، أ .

(٣) في ب : « وعدته أو أوعدته » .

(٤) في غ : « وعدي » .

(٥) الأبيات لعامر بن الطفيل . انظر ديوانه ١٨٢ ، وقد ورد فيه الشطر الثاني :

ويأمن مني صولة المتهدد

(٦) في ط والجميع : « يتم » .

(٧) في غ : « بوجوده » .

(٨) في ط والجميع سوى ش : « للعقوبة » .

النصوص ، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين .

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات ، اعتباراً لمقتضىٰ [1] العقاب ومانعه ، وإعمالاً لأرجحهما [2] .

قالوا : وعلىٰ هذا بناء [3] مصالح الدارين ومفاسدهما . وعلىٰ هذا بناء الأحكام الشرعية ، والأحكام القدرية ، وهو مقتضىٰ الحكمة السارية في الوجود ، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقاً وأمراً . وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضداً ، يدافعه ويقاومه ويكون الحكم للأغلب منهما . فالقوة مقتضية للصحة والعافية ، وفساد الأخلاط ونفيها [4] مانع من عمل الطبيعة وفعل القوة ، والحكم للغالب منهما وكذلك قوىٰ الأدوية والأمراض ، والعبد يكون فيه مقتض للصحة ومقتض للعطب ، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه . فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له [5] .

ومن هٰهنا يعلم انقسام الخلق إلىٰ من [6] يدخل الجنة ، ولا يدخل النار وعكسه ، ومن يدخل النار ثم يخرج منها . ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من

---

(١) في ط : « بمقتضى » .

(٢) في ط والجميع سوى ش : « لأرجحها » .

(٣) في ح٢ ، م : « يبني » .

(٤) في ط ، ح١ ، ح٢ ، م ، د ، أ ، ق : « وبغيها» .

(٥) انظر في مسألة توبة القاتل : تفسير القرطبي ٥/ ٣٣٢-٣٣٥ ، والإنصاف بحاشية المقنع والشرح الكبير ٢٧/ ١٤٠-١٤١ .

(٦) في غ : « أن » .

مقتضىٰ المكث في سرعة الخروج وبطئه .

ومن له بصيرة منوّرة يرىٰ بها كل ما أخبر الله تعالىٰ به في كتابه من أمر المعاد وتفاصيله ، حتىٰ كأنه يشاهده رأي عين ، ويعلم أن هذا هو مقتضىٰ إلهيته سبحانه وربوبيته وعزته وحكمته [١] .

وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك ، ونسبة خلاف ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه ، فيكون نسبة ذلك إلىٰ بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلىٰ بصره . وهذا يقين الإيمان ، وهو الذي يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب .

وصاحب هذا المقام من الإيمان ، يستحيل إصراره علىٰ السيئات ، وإن وقعت منه [٢] وكثرت . فإنَّ ما معه [٣] من نور الإيمان يأمره [٤] بتجديد التوبة كل وقت ، والرجوع[٥] إلىٰ الله بعدد أنفاسه .

وهذا من أحب الخلق إلىٰ الله تعالىٰ . فهذه [٦] مجامع طرق الناس في نصوص الوعيد .

---

(١) في د ، ق : « وحكمه » .

(٢) « منه » ساقطة من : « ق » .

(٣) في ق : « مانعه » .

(٤) « يأمره » ساقطة من غ ، أ ، ح١ .

(٥) في ط ، غ ، ح١ ، أ ، ب : « بالرجوع » .

(٦) « فهذه » ساقطة من غ .

فصل

إذا تاب القاتل وسلّم نفسه

واختلفوا فيما[1] إذا تاب القاتل وسلم نفسه ، فقتل قصاصاً ، هل يبقىٰ عليه للمقتول يوم القيامة حق[2]؟

فقالت طائفة : لا يبقىٰ عليه شيء ؛ لأن القصاصَ حدُّه ، والحدود كفارة لأهلها، وقد استوفىٰ ورثة المقتول حق موروثهم، وهم قائمون مقامه في ذلك. فكأنه قد استوفاه بنفسه . إذ لا فرق بين استيفاء الرجل حقه بنفسه أو بنائبه ووكيله .

يوضح هذا : أنه أحد[3] الجنايتين ، فإذا استوفيت منه لم يبق عليه شيء ، كما لو جنىٰ علىٰ طرفه فاستقاد منه ، فإنه لا يبقىٰ له[4] عليه شيء .

وقالت طائفة : المقتول قد ظُلم، وفاتت عليه نفسه، ولم يستدرك ظلامته . والوارث إنما أدرك ثأر نفسه ، وشفىٰ غيظ نفسه[5] وأي منفعة حصلت للمقتول بذلك؟ وأي ظلامة استوفاها من القاتل[6]؟

قالوا : فالحقوق في القتل ثلاثة : حق الله ، وحق للمقتول ، وحق للوارث ،

---

(١) « فيما » ساقطة من ح٢ .

(٢) في ط ، ق : هل يبقى عليه يوم القيامة للمقتول حق؟

(٣) في غ : « إحدى » .

(٤) « له » ساقطة من أ .

(٥) في ، ب ، ح٢ ، غ ، م ، د ، ح١ ، أ : « وشفى غيظه » وفي ط :« وشفاء غيظه» .

(٦) انظر : هذه المسألة في الإنصاف بحاشية المقنع ٢٧/ ١٤٠-١٤١ .

فحق الله لا يزول إلا بالتوبة ، وحق الوارث قد استوفاه بالقتل ، وهو مخيّر بين ثلاثة أشياء : بين القصاص ، والعفو مجاناً ، أو إلىٰ مال . فلو أحلَّ ، أو أخذ منه مالاً لم يسقط حق المقتول [بذلك . فكذلك إذا اقتص منه ، لأنه أحد الطرق الثلاثة في استيفاء حقه . فكيف يسقط حق المقتول](١) بواحد منها دون الآخرين؟

قالوا : ولو قال القتيل : لا تقتلوه لأطالبه بحقي يوم القيامة . فقتلوه ، أكان يسقط حقه أولم(٢) يسقطه(٣)؟ فإن قلتم : يسقط . فباطل ؛ لأنه لم يرض بإسقاطه . وإن قلتم : لا يسقط . فكيف تسقطونه إذا اقتص منه ، مع عدم العلم برضا المقتول بإسقاط حقه؟

وهذه حجج كما ترىٰ في القوة ، لا تندفع إلا بأقوىٰ منها أو أمثالها(٤) .

فالصواب — والله أعلم — أن يقال إذا تاب القاتل من حق الله . وسلّم نفسه طوعاً إلىٰ الوارث يستوفي(٥) منه حق موروثه ؛ سقط عنه الحقان . وبقي حق الموروث لا يُضيعه الله، ويجعل من تمام مغفرته للقاتل، تعويض المقتول . فإن(٦)

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من م .

(٢) في ط والجميع سوى ح٢ ، م : ولم .

(٣) في ح٢ ، م : يسقط .

(٤) في ط : « بأمثالها » .

(٥) في ط : « ليستوفي » .

(٦) في ح٢ ، غ ، م ، ح١ ، ط ، أ : « لأن » .

مصيبته [١] لم تنجبر بقتل قاتله . والتوبة النصوح تهدم ما قبلها . فيعوض هذا عن مظلمته ، ولا يعاقب هذا لكمال توبته . وصار هذا كالكافر المحارب لله ورسوله [٢] إذا قتل مسلماً في الصف ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، فإن الله سبحانه يعوض [٣] الشهيد المقتول . ويغفر للكافر بإسلامه ، ولا يؤاخذه بقتل المسلم ظلماً . فإنَّ هدم التوبة لما قبلها كهدم الإسلام لما قبله .

وعلىٰ هذا إذا أسلم [٤] نفسه وانقاد ، فعفا عنه الولي ، وتاب القاتل توبة نصوحاً . فالله تعالىٰ يقبل توبته ، ويعوض المقتول .

فهذا الذي يمكن أن يصل إليه نظر العالم واجتهاده . والحكم بعد ذلك لله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النمل : ٧٨] .

* * *

---

(١) في م : « معصيته » .

(٢) في ط : « ولرسوله » .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : هذا .

(٤) في ط ، ح٢ ، د ، ح١ ، ش ، م ، أ ، ق : « سلم » .

فصل

مشاهد الخلق في المعصية

في مشاهد الخلق في المعصية ، وهي ثلاثة عشر [1] مشهداً :

مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة ، ومشهد اقتضاء رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة ، ومشهد الجبر ، ومشهد القدر ، ومشهد الحكمة ، ومشهد التوفيق والخذلان ، ومشهد التوحيد ، ومشهد الأسماء والصفات ، ومشهد الإيمان وتعدد شواهده [ومشهد الرحمة] [2] ، ومشهد العجز والضعف ، ومشهد الذل والافتقار ، ومشهد المحبة والعبودية .

فالأربعة الأُول [3] للمنحرفين. والثمانية البواقي لأهل الاستقامة. وأعلاها : المشهد العاشر .

وهذا الفصل من أجل الكتاب . وأنفعها لكل أحد ، وهو حقيق بأن تثنىٰ عليه الخناصر ، ولعلك لا تظفر به في كتاب سواه . إلا ما ذكرناه في كتابنا المسمىٰ : « سفر الهجرتين وطريق [4] السعادتين » [5] .

---

(١) في الأصل ، ش : «اثنا عشر» وما أثبته من ط وباقي النسخ ويتبين هذا أيضاً من خلال عرضه لهذه المشاهد .

(٢) (ومشهد الرحمة) ساقط من الأصل وش :«وما أثبته من ط وباقي النسخ» .

(٣) في الجميع سوى ش : «الأولى» .

(٤) في ح٢ ، غ ، م ، د ، ق ، ح١ ، أ ، ب : «في طريق» .

(٥) انظر : طريق الهجرتين ٢٧٨ وما بعدها .

فصل

مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة

فأما مشهد الحيوانية، وقضاء الشهوة: فمشهد الجهال، الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان، إلا في اعتدال القامة ونطق اللسان. ليس همهم[١] إلا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت إليها. فهؤلاء نفوسهم[٢] نفوس[٣] حيوانية، لم تترق عنها إلىٰ درجة الإنسانية، فضلاً عن درجة الملائكة. فهؤلاء حالهم أخس من أن تذكر. وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم علىٰ أخلاقها وطباعها[٤].

فمنهم[٥]: من نفسه كلبية. لو صادف جيفة تشبع ألف كلب لوقع عليها[٦]، وحماها من سائر الكلاب، ونبح[٧] كل كلب يدنو منها. فلا تقربها[٨] الكلاب إلا علىٰ كره منه وغلبة، ولا يسمح لكلب بشيء منها[٩]. وهمه شبع بطنه من أي

---

(١) في م، ش، د: «هممهم» وفي ح٢: «همتهم».

(٢) «نفوسهم» ساقطة من ق.

(٣) «نفوس» ساقطة من م.

(٤) في ح٢، م: «طبائعها».

(٥) في م: «ومنهم».

(٦) «عليها» ساقطة من غ.

(٧) في ش زيادة: «على».

(٨) في د: «يقربها».

(٩) في ح٢: «منها في شيء».

طعام اتفق ؛ ميتة أو ذكي[1] ، خبيث أو طيب . ولا يستحي من قبيح . إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث إن أطعمته بصبص[2] بذنبه ودار حولك . وإن منعته هرّك[3] ونبحك .

ومنهم : من نفسه حمارية ، لم تخلق إلا للكد والعلف . كلما زيد في علفه زيد في كده ، أبكم الحيوان ، وأقله بصيرة . ولهذا مثّل الله سبحانه وتعالىٰ به من حمَّله كتابه ، فلم يحمله[4] معرفة ولا فقهاً[5] ولا عملاً[6] ، ومثل بالكلب عالم السوء الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها ، وأخْلَد إلىٰ الأرض واتبع هواه[7] .

وفي هذين المثلين أسرار عظيمة . ليس هذا موضع ذكرها[8] .

---

(١) في ط والجميع : « مذكى » .

(٢) بصبص الكلب : حرك ذنبه طمعاً أو خوفاً . انظر : لسان العرب ١/ ٤٢١ مادة : بصبص .

(٣) في ش : « هرول » . وهرَّ الكلب : نبح وكشر عن أنيابه . وهرير الكلب : صوته دون النباح . انظر : لسان العرب ١٥/ ٧٢ مادة : هرر ، المعجم الوسيط ٩٨١ .

(٤) في ط والجميع سوى ش «يعرفه» .

(٥) في غ ، ح١ ، أ ، ب : « متفقهاً » .

(٦) كما قال تعالى : ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [الجمعة : ٥] .

(٧) كما قال تعالى : ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ...﴾ الآية [الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦] .

(٨) انظر : أعلام الموقعين ١/ ١٦٥-١٦٩ .

ومنهم : من نفسه سُبعية غضبية همّه[1] العدوان علىٰ الناس ، وقهرهم بما وصلت إليه قدرته طبيعية[2] مقتضاة ، وذلك[3] كتقاضي طبيعة السبع لما يصدر منه[4] .

ومنهم : من نفسه فأرية ، فاسق بطبعه ، مفسد لما جاوره ، تسبيحه بلسان الحال : سبحان من خلقه للفساد .

ومنهم : من نفسه علىٰ نفوس ذوات السموم والحُمَّات ، كالحية والعقرب وغيرهما . وهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينه . فيُدخل الرجل القبر ، والجمل القدر . والعين وحدها لم تفعل شيئاً . وإنما[5] النفس[6] الخبيثة السُمِّية تكيَّفت بكيفية غضبية ، مع شدة حسدٍ وإعجاب ، وقابلت المَعِين علىٰ غرة منه وغفلة ، وهو أعزل من سلاحه . فلدغته كالحية التي تنظر إلىٰ موضع مكشوف من بدن الإنسان فتنهشه[7] ، فإمّا عطب وإما أذىٰ . ولهذا لا يتوقف أذىٰ العائن علىٰ الرؤية والمشاهدة ؛ بل إذا وُصف له الشيء الغائب عنه وصل إليه أذاه .

---

(١) في ط والجميع سوى د : « همته » .

(٢) في ش : طبيعة وفي ط والباقي : « طبيعته » .

(٣) في ط والجميع سوى ش : « تتقاضي ذلك » .

(٤) في غ : « منهم » .

(٥) ح٢ ، م : « فإنما » .

(٦) في م : « النفوس » .

(٧) في ح٢ ، م ، د : « فنهشته » .

والذنب لجهل المعين وغفلته وغِرَّته عن[1] حمل سلاحه كل وقت . فالعائن[2] لا يؤثر في شاكي السلاح ، كالحية إذا قابلت درعاً سابغاً علىٰ جميع البدن ليس فيه موضع مكشوف . فحقٌّ علىٰ من أراد حفظ نفسه وحمايتها ؛ أن لا يزال متدرعاً متحصناً لابساً أداة الحرب ، مواظباً علىٰ أوراد التعوذات[3] ، والتحصنات[4] النبوية التي في السنة والتي في القرآن[5] .

وإذا عُرف الرجل[6] بالأذىٰ بالعين[7] : ساغ - بل وجب - حبسه وإفراده عن الناس ، ويطعم ويسقىٰ حتىٰ يموت . ذكر ذلك غير واحد من الفقهاء ، ولا ينبغي أن يكون في ذلك خلاف ؛ لأن هذا من نصيحة المسلمين ، ودفع الأذىٰ عنهم[8] . ولو قيل فيه غير ذلك لم يكن بعيداً من أصول الشرع .

فإن قيل : فهل تُقيدون منه إذا قتل بعينه؟

قيل : إن كان ذلك بغير اختياره ؛ بل غلب علىٰ نفسه لم يقتص منه . وعليه

---

(١) في غ ، م : « من » .

(٢) في ح٢ ، م : « العين » .

(٣) في ش : « المعوذات » .

(٤) في ط والجميع سوى ش ، د : « التحصينات » .

(٥) في ط : « التي في القرآن والتي في السنة » .

(٦) « الرجل » ساقطة من ق .

(٧) « بالعين » ساقطة من ش .

(٨) انظر : تفسير القرطبي ٩/ ٢٢٧ .

الدية ، وإن عمد[1] ذلك[2] وَقَدر علىٰ رده ، وعلم أنه يقتل به : ساغ للولي أن يقتله بمثل ما قتل به . فيَعِينَه إن شاء ، كما عان هو المقتول . وأما قتله بالسيف قصاصاً ؛ فلا . لأن هذا ليس مما[3] يقتل غالباً ، ولا هو مماثل لجنايته .

وسألت شيخنا أبا العباس ابن تيمية - قدس الله روحه - عن القتل[4] بالحال، هل يوجب القصاص؟

فقال : للولي أن يقتله بالحال . كما قتل به .

فإن قيل : فما الفرق بين هذا[5] وبين القتل بالسحر ، حيث توجبون القصاص به بالسيف[6] .

قلنا : الفرق من وجهين :

أحدهما : [أن السحر الذي يُقتل به][7] : هو السحر الذي يقتل مثلُه غالباً ، ولا ريب أن هذا كثير في السحر ، وفيه مقالات وأبواب معروفة للقتل عند أربابه[8] .

---

(١) في ط والجميع سوى ش : « تعمد » .

(٢) « ذلك » ساقطة من ط .

(٣) في أ ، ح٢ : « بما » .

(٤) في غ : « القتال » .

(٥) في ط والجميع سوى ش : « القتل بهذا » .

(٦) « بالسيف » ساقطة من ش .

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وش وما أثبته من ط وباقي النسخ والسياق يقتضيه .

(٨) في أ « أربابها » .

الثاني : أنه لا يمكن أن يُقتص منه بمثل ما فعل ، لكونه محرماً لحق الله ، فهو كما لو قتله باللواط وتجريع الخمر ، فإنه يقتص منه بالسيف .

وليس هذا موضع ذكر هذه المسائل ، وإنما ذكرت لما ذكرنا أن من النفوس البشرية ما هي علىٰ نفوس الحيوانات العادية وغيرها ، وهذا هو تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [1] [الأنعام : ٣٨] [2] .

وعلىٰ هذا [3] الشبه اعتماد [4] أهل التعبير للرؤيا في رؤية هذه الحيوانات في المنام عند الإنسان أو في داره [5] ، أو أنها تحاربه ، وهو كما اعتمدوه . وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك في المنام وقائع كثيرة ، فكان تأويلها مطابقاً لأقوام علىٰ طباع [6] تلك الحيوانات. وقد رأىٰ النبي ﷺ في قصة أحد «بقراً تنحر» [7] فكان

---

(١) في ط والجميع سوى ش الآية حتى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٦/ ٤٢٠ .

(٣) « هذا » ساقطة من غ .

(٤) في ح٢ ، م : « اعتمد » .

(٥) في ط : وفي داره .

(٦) في ش : « طبائع » وفي غ : « طباق » .

(٧) رواه البخاري ٧/ ٣٧٥ عن أبي موسى في كتاب المغازي ، باب من قُتل من المسلمين يوم أحد (ح٤٠٨١) ولكن بغير لفظة « تنحر » ، ومسلم كذلك ٤/ ١٧٧٩-١٧٨٠ ، باب رؤيا النبي ﷺ (ح٢٢٧٢) ، والدارمي في سننه ٢/ ٥٥ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ وفيه : «ورأيت بقراً ينحر» (ح٢١٦٥) ، وأحمد في مسنده كذلك ٣/ ٣٥١ بلفظ : « ورأيت بقراً منحرة » . قال

ما [١] أصيب من المؤمنين بنحر [٢] الكفار . فإن البقر أنفع الحيوان [٣] للأرض ، وبها صلاحها وفلاحها [٤] مع ما فيها من السكينة والمنافع والذِّل - بكسر الذال - [٥] ، ورأىٰ عمر بن الخطاب ﷺ كأن ديكاً نقره ثلاث نقرات [٦] ، فكان طعن أبي لؤلؤة [٧] له . والديك رجل أعظمي شرير .

ومن الناس من طبعه طبع خنزير ، يمر بالطيبات فلا يلوي عليها . فإذا قام

الهيثمي في المجمع ٦/ ١٠٧ : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » . وقال الألباني في الصحيحة ٣/ ٩١ (ح١١٠٠) : صحيح .

قال النووي - رحمه الله - : « قد جاء في غير مسلم زيادة في هذا الحديث : ورأيت بقراً تنحر . وبهذه الزيادة يتم تأويل الرؤيا بما ذكر» انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٣٢ .

(١) في ط : « من » .

(٢) في م : « بنحره » .

(٣) في ط : « الحيوانات » .

(٤) « فلاحها » ساقطة من م .

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة : « فإنها ذلول مذللة منقاده غير أبيه والجواميس كبارهم ورؤساؤهم» .

(٦) رواه مسلم ١/ ٣٩٦ في كتاب المساجد ، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً (ح٥٦٧) .

(٧) أبو لؤلؤة فيروز المجوسي الأصل رومي الدار ، قاتل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، كان غلاماً للمغيرة بن شعبة ، وكان نجاراً نقاشاً حداداً ، قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لما علم أن الذي طعنه أبو لؤلؤة : الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام .

ترجمته في : أسد الغابة ٣/ ٦٦٢ ، البداية والنهاية ٧/ ١٤١ ، وانظر : صحيح البخاري ٧/ ٦٠ ح٣٧٠٠ .

الإنسان عن رجعية قمَّه[1] ، وهكذا كثير من الناس ، يسمع منك ويرىٰ من المحاسن أضعاف أضعاف المساوئ ، فلا يتحفظها[2] ولا ينقلها ولا تناسبه . فإذا رأىٰ سقطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبه[3] ، فجعلها فاكهته ونقله .

[ومنهم من هو علىٰ طبيعة الطاووس ليس له إلا التطوس والتزين بالريش[4]. وما وراء ذلك[5] شيء][6] .

ومنهم من هو علىٰ طبيعة الجمل أحقد الحيوان ، وأغلظه كبداً .

ومنهم من هو علىٰ طبيعة الدُّب أبلم[7] خبيث ، وعلىٰ طبيعة القرد .

وأحمد طبائع الحيوانات : طبائع الخيل التي هي أشرف الحيوانات نفوساً، وأكرمها طباعاً[8] وكذلك الغنم . وكل من ألف ضرباً من ضروب هذه

---

(١) قمَّ الشيء قمّاً : كنسه ، والمِقَمة : المكْنِسَة ، والقُمامة : الكُناسة .
يقال : قمَّ بيته يقُمُه قماً إذا كنسه ، وقمَّ ما على المائدة يقُمُّه قمّاً : أكله فلم يدع منه شيئاً . انظر : لسان العرب ١١/ ٣٠٨ مادة : قمم .

(٢) في ط والجميع سوى ش : « يحفظها » .

(٣) في ط ، غ ، م ، ح١ ، ب ، أ : « يناسبها » .

(٤) في ط : « وليس » .

(٥) في ط زيادة : « من » .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من غ ، ح١ ، ش ، أ ، ب .

(٧) في ط ، ح٢ ، م ، أبكم . أبلم الرجل إذا ورمت شفتاه ، وأبلم الرجل : سكت . انظر : لسان العرب ١/ ٤٩٤ مادة : بلم ، المعجم الوسيط ٧٠ .

(٨) في ط ، غ ، ح١ ، ب ، أ : « طبعاً » .

الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه [١] فإن تغذىٰ بلحمه كان الشبه أقوىٰ . فإن الغاذي شبيه بالمغتذي .

ولهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير لما تورث [٢] آكلها [٣] من شبه نفوسها بها . والله أعلم .

والمقصود : أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوىٰ ميل [٤] نفوسهم [٥] وشهواتهم . لا يعرفون ما وراء ذلك البتة .

* * *

---

(١) يدل على ذلك قول النبي ﷺ : « رأس الكفر نحو المشرق ، والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدّادين أهل الوبر ، والسكينة في أهل الغنم » .
رواه البخاري ٦/ ٣٥٠ في كتاب بدء الخلق ، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال (ح٣٣٠١) ، ومسلم ١/ ٧٢ في كتاب الإيمان ، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ... (ح٥٢). الفدّادون : بالتشديد الذين تَعْلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم، وأحدهم : فدّاد . وقيل : هم المكثرون من الإبل . وقيل : هم الجمّالون والبقّارون والحمّارون والرُّعيان . وقيل: إنما هو « الفَدَادِين » مخففاً واحدها : فَدّان ، مشدد وهي البقر التي يحرث بها ، وأهلها أهل جفاء وغلظة . انظر : النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤١٩ .

(٢) في الجميع سوى ش ، ط : « يورث » .

(٣) في ش : « لما في أكلها » .

(٤) في ط : « مثل » .

(٥) في ش : « أنفسهم » .

فصل

مشهد رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة

المشهد الثاني : مشهد رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة كمشهد زنادقة الفلاسفة والأطباء[١] ، الذين يشهدون أن ذلك من لوازم الخلقة والطبيعة[٢] الإنسانية ، وأن تركيب الإنسان من الطبائع الأربع[٣] وامتزاجها واختلاطها ، كما يقتضي بغي بعضها على بعض ، وخروجه عن الاعتدال - بحسب اختلاف هذه الأخلاط - فكذلك تركيبه من البدن والنفس ، والطبيعة[٤] الحيوانية ، تتقاضاه أثر[٥] هذه الخلقة[٦] ، ورسول تلك الطبيعة . ولا تنقهر له[٧] إلا بقاهر ، إما من نفسه، وإما من خارج عنه. وأكثر النوع الإنساني ليس له قاهر من نفسه،

---

(١) الفلسفة تعني عند اليونانيين : الحكمة ، فالفيلسوف هو صاحب الحكمة ، والفلاسفة اسم يطلق على رواد المعرفة والحكمة ممن لهم اهتمام بالكون والطبيعة وعلاقتها بالإنسان ، ومن قدمائهم : أرسطو وأفلاطون ومن متأخريهم : الفارابي وابن سينا وغيرهما . وإذا قيل : زنادقة الفلاسفة فهم الذين ألحدوا في ذات الله ، وعطلوه عن أفعاله ، ونسبوها إلى الطبيعة . انظر : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ٩١ ، والتحفة المهدية ٤٦ ، والموسوعة الفلسفية ص٣٣٦-٣٣٨ .

(٢) و« الطبيعة » ساقطة من ط .

(٣) « الأربع » ساقطة من ق .

(٤) في ط زيادة : « والأخلاط » .

(٥) في ط : « آثار » .

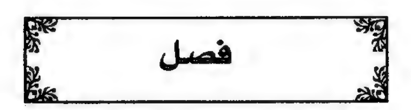
(٦) في ح٢ : « الخلطة » .

(٧) « له » ساقطة من ط ، والجميع سوى ش .

فاحتياجه إلىٰ قاهر فوقه[1] يدخله تحت سياسته[2] ، وإيالة ينتظم بها أمره ضرورية[3] ، كحاجته إلىٰ مصالحه من الطعام والشراب واللباس .

وعند هؤلاء : أن العاقل متىٰ كان له وازع من نفسه قاهر ، لم يحتج إلىٰ أمرِ غيره ونهيه وضبطه .

فمشهد هؤلاء : من حركات النفس الاختيارية ، الموجبة للجنايات ، كمشهدهم من حركات الطبيعة الاضطرارية ، الموجبة للتغيرات [4] ، وليس لهم مشهد وراء ذلك .



فصل

مشهد أصحاب الجبر

المشهد الثالث : مشهد أصحاب الجبر[5] : وهم الذين يشهدون أنهم مُجْبَرون[6] علىٰ أفعالهم ، وأنها واقعة بغير قدرتهم ؛ بل لا يشهدون أنها

---

(١) « فوقه » ساقطة من ش .

(٢) في ط : « سياسة » .

(٣) في ط : « ضرورة » .

(٤) في الجميع سوى ش ، ط : « للتغييرات » .

(٥) أصحاب الجبر ، أو الجبرية : سُمّوا بذلك نسبة إلى الجبر ؛ لأنهم يقولون : إن العبد مجبور على فعله ، فهو كالريشة في مهب الريح ، وكحركات المرتعش ، ليس له إرادة ولا قدرة على الفعل ، ومنهم من يقول له قدرة غير مؤثرة ، وأشهر فرقهم الغالية الجهمية .
انظر : مقالات الإسلاميين ٢٧٩ ، الفرق بين الفرق ٢١٠ ، اعتقادات فرق المسلمين ٦٨ ، الملل والنحل ١/ ٨٥ .

(٦) في ط والجميع سوى ش : « مجبورون » .

أفعالهم البتة .

ويقولون[١] : إن أحدهم غير فاعل في الحقيقة ولا قادر ، وأن الفاعل فيه[٢] غيره والمحرك له سواه[٣] . وأنه آلة محضة ، وحركاته بمنزلة هبوب الرياح[٤] وحركات الأشجار[٥] .

وهؤلاء إذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر ، وحملوا ذنوبهم عليه . وقد يغلون[٦] في ذلك ، حتىٰ يروا أفعالهم كلها طاعات . خيرها وشرها ، لموافقتها المشيئة[٧] والقدر .

ويقولون : كما أن موافقة الأمر طاعة ، فموافقة المشيئة طاعة . كما حكىٰ الله تعالىٰ عن المشركين إخوانهم ، أنهم جعلوا مشيئة الله تعالىٰ لأفعالهم دليلاً علىٰ أمره بها ورضاه بها[٨] [٩]، وهؤلاء شر من القدرية النفاة، وأشد[١٠] عداوة لله،

---

(١) في ط : يقولون .

(٢) « فيه » ساقطة من م .

(٣) في أ : « لسواه » .

(٤) في ح٢ : « الريح » .

(٥) انظر : مقالات الإسلاميين ٢٧٩ ، والملل والنحل ١/ ٨٧ .

(٦) في ق : « يغلوا » .

(٧) في ط والجميع سوى ش : « للمشيئة » .

(٨) « بها » ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٩) قال تعالى : ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء...﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

(١٠) في ط زيادة : « منهم » .

ومناقضة لكتبه ورسله ودينه. حتىٰ إن هؤلاء من يعتذر عن إبليس - لعنه الله -[1]، ويتوجع له ، ويقيم عذره بجهده . وينسب ربه تعالىٰ إلىٰ ظلمه بلسان الحال والمقال ، ويقول[2] : ما ذنبه ، وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه ، وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وإرادته[3] منه؟ ثم كيف يمكنه السجود ، وهو الذي منعه منه وحال بينه وبينه؟ وهل كان في ترك سجوده لغيرك[4] إلا محسناً؟ لكن

إذا كان المحبُّ قليلَ حظٍّ فما حسناتُه إلا ذنوبُ[5]

وهؤلاء أعداء الله حقاً ، وأولياء إبليس ، وأحباؤه[6] وإخوانه . وإذا ناح منهم نائح علىٰ إبليس ، رأيت من البكاء والحنين أمراً عجباً[7] . ورأيت من ظلم[8] الأقدار ، واتهام[9] الجبار ما يبدو علىٰ فلتات ألسنتهم ، وصفحات وجوههم ،

---

(١) « لعنه الله » ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٢) في ش : « ويقولون » .

(٣) في أ ، ب : « ومراده » .

(٤) في ط والجميع سوى ش : « السجود لغير الله » .

(٥) في فوات الوفيات ٩٧٥٠ منسوب لرجل يسمى منصور بن محمد بن علي ، وللشبلي بيت قريب من لفظه وهو قوله :

من لم يكن للوصال أهلاً فكل إحسانه ذنوب

(٦) « وأحباؤه » ساقطة من ش .

(٧) في الجميع سوى ط : « عجيباً » .

(٨) في ط : « ظلمهم » ، وفي ش : « تظليم » .

(٩) في ط : « واتهامهم » .

وتسمع من أحدهم من التظلم والتوجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه ، فهؤلاء هم [١] الذين قال فيهم شيخ الإسلام [٢] في تائيته :

ويدعىٰ خصوم الله يوم معادهم   إلىٰ النار طُراً فرقة القدرية [٣]

فصل

مشهد القدرية النفاة

المشهد الرابع: مشهد القدرية النفاة، يشهدون أن هذه الجنايات والذنوب، هم الذين أحدثوها ، وأنها واقعة بمشيئتهم دون مشيئة الله ، وأن الله لم يقدّر ذلك عليهم ، ولم يكتبه ، ولا شاءه [٤] ، ولا خلق أفعالهم ، وأنه لا يقدر أن يهدي أحداً ولا يضله إلا بمجرد البيان ، لا أنه [٥] يلهمه الهدىٰ والضلال ، والفجور والتقوىٰ ، فيجعل ذلك في قلبه .

ويشهدون أنه يكون في ملك الله ما لا يشاؤه ، وأنه يشاء ما لا يكون ، وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله .

فالمعاصي والذنوب خلقهم ، وموجب مشيئتهم ، لا أنها خلق الله ، ولا تتعلق بمشيئته . وهم لذلك مبخوسو الحظ جداً من الاستعانة بالله تعالىٰ

---

(١) « هم » ساقطة من م .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : « ابن تيمية » .

(٣) انظر : ديوان شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب محمد عبدالرحيم ، ٥٢ ، والعقود الدرية لابن عبد الهادي ٣٨٤ .

(٤) في ط : « ولا شاء » .

(٥) في ح١ ، م : « لأنه » .

والتوكل عليه ، والاعتصام به ، وسؤاله أن يهديهم ، وأن يثبت قلوبهم ، وأن لا يزيغها ، وأن يوفقهم لمرضاته ، ويجنبهم معصيته . إذ هذا كله واقع بهم ، وعين أفعالهم (١) ، ولا يدخل (٢) تحت مشيئة الرب تعالىٰ(٣) .

والشيطان قد رضي منهم بهذا القدر . فلا يؤزهم (٤) إلىٰ المعاصي ذلك الأزّ ، ولا يزعجهم إليها ذلك الإزعاج . وله في ذلك غرضان مهمان :

أحدهما : أن يقرر (٥) في قلوبهم صحة هذا المشهد (٦) وهذه العقيدة ، وأنكم تاركون (٧) للذنوب والكبائر التي (٨) يقع بها (٩) أهل السنة . فدل علىٰ أن الأمر مُفوّض إليكم ، وواقع بكم ، وأنكم العاصمون لأنفسكم ، المانعون لها من المعصية .

الغرض الثاني : أنه يَصطادُ علىٰ أيديهم الجهال . فإذا رأوهم أهل عبادة

---

(١) في ط والجميع سوى ش : عين أفعالهم .

(٢) في ط زيادة : « شيء منها » .

(٣) انظر : شرح الأصول الخمسة ، ٣٣٢ وما بعدها ، الفرق بين الفرق ص١١٤-١١٥ .

(٤) الأزُّ : التهيج والإغراء ، وأزّهُ يؤزُّهُ أزّاً : أغراه وهيّجه ، وفي القرآن : ﴿إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤُزُّهم أزّاً﴾ [مريم : ٨٣] . انظر : لسان العرب ١/ ١٣٣ مادة (أزز) .

(٥) في ط : « يقر » .

(٦) في ش : « الشبهة » .

(٧) في ط ، غ ، ح١ ، أ ، ب : « تاركون الذنوب » وفي ح٢ ، م : « تاركوا الذنوب » .

(٨) في د ، م : « تقع » .

(٩) في ط والجميع : « فيها » .

وزهادة ، وتورع عن المعاصي ، وتعظيم لها ، قالوا : هؤلاء هم [١] أهل الحق – والبدعة عنده آثر [٢] وأحب إليه من المعصية –[٣] فإذا ظفر بها منهم ، واصطاد الجهال علىٰ أيديهم ، كيف [٤] يأمرهم بالمعصية؟ بل ينهاهم عنها ويُقبِّحُها في أعينهم وقلوبهم . ولا يكشف هذه الحقائق إلا أرباب البصائر .

فصل

مشهد الحكمة

المشهد الخامس وهو أحد مشاهد أهل الاستقامة ، **مشهد الحكمة**[٥] .

وهو مشهد حكمة الله في تقديره علىٰ عبده ما [٦] يبغضه سبحانه ويكرهه ، ويلوم ويعاقب عليه . وأنه لو شاء لعصمه منه ، ولحال بينه وبينه . وأنه سبحانه لا يُعصىٰ قسراً [٧] ، وأنه لا يكون في العالم شيء إلا بمشيئته ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وهؤلاء يشهدون أن الله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا سدىٰ ،

---

(١) « هم » ساقطة من ح٢ ، غ ، م ، ط .

(٢) في ط ، ق : « والبدعة آثر عنده » .

(٣) كما قال سفيان الثوري – رحمه الله – : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية . والمعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها . حلية الأولياء ٧/ ٢٦ .

(٤) في ق : « فكيف » .

(٥) « مشهد الحكمة » ساقط من ب .

(٦) في ق : « بما » .

(٧) في ح٢ : « قهراً » .

وأنَّ[1] له الحكمة البالغة في كل ما قدّره وقضاه من خير وشر، وطاعة ومعصية. حكمة[2] باهرة، تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها، وتكلُّ[3] الألسن عن التعبير عنها.

فمصدر قضائه وَقَدرِه، لما يبغضه ويسخطه: اسمه «الحكيم» الذي بهرت حكمته الألباب، وقد قال تعالىٰ لملائكته - لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فأجابهم سبحانه بقوله[4]: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلله سبحانه في ظهور المعاصي والذنوب والجرائم، وترتب آثارها عليها[5] من الآيات والحكم، وأنواع التعرفات إلىٰ خلقه، وتنويع آياته، ودلائل ربوبيته ووحدانيته، وإلهيته، وحكمته، وعزته، وتمام ملكه، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، ما يشهده أولو البصائر عياناً[6] ببصائر قلوبهم، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾[7] [آل عمران: ١٩١] إن هي إلا حكمتك[8] الباهرة، وآياتك الظاهرة.

---

(١) في الجميع سوى ش: «وأنه».

(٢) في ط: «وحكمة».

(٣) كَلَّ يكلّ كَلاً: أعيا، وكللت من المشي: أعييت. وكَلَّ الرجل: إذا تعب.

انظر: لسان العرب ١٢/ ١٤٢ مادة كلل.

(٤) «فأجابهم سبحانه بقوله» ساقط من أ.

(٥) «عليها» ساقطة من ط.

(٦) «عياناً» ساقطة من ح٢، م.

(٧) الآية مكملة في ح٢، م.

(٨) في د: «لحكمتك».

وفي كل تحريكـــة وتسكينة أبداً شاهـــد

وفي كل شـــيء له آيـــة تدل علىٰ أنه واحـــد[1]

فكم من آية في الأرض بيِّنة ، دالّة علىٰ الله ، وعلىٰ[2] صدق رسله ، وعلىٰ أن لقاءه حق . كان سببُها معاصي بني آدم وذنوبهم ، كآيته في إغراق قوم نوح ، وعلوِّ الماء علىٰ رؤوس الجبال ، حتىٰ أغرق جميع أهل الأرض ، ونجّىٰ أولياءه ، وأهل معرفته وتوحيده . فكم في ذلك من آية وعبرة ، ودلالة باقية علىٰ مر الدهور[3] ! وكذلك إهلاك[4] قوم عاد وثمود .

وكم له[5] آية في فرعون وقومه من[6] حين[7] بعث موسىٰ إليهم - بل قبل مبعثه - إلىٰ حين إغراقهم ، لولا معاصيهم وكفرهم لم تظهر[8] تلك الآيات والعجائب .

وفي التــوراة أن الله تعــالىٰ قــال لموســىٰ : اذهــب إلىٰ فرعــون فــإني

---

(١) البيتان من شعر أبي العتاهية . انظر : ديوانه ١٢٢ ، وتاريخ بغداد ٦/ ٢٥٣ ، ونسبا أيضاً إلى لبيد بن ربيعة . انظر : ديوانه بشرح الطوسي ٢٨٠ ضمن المنسوب إليه وإلى غيره .

(٢) « وعلى » ساقطة من د .

(٣) في غ : « الدهر » .

(٤) في ش : « هلاك » .

(٥) في ط زيادة : « من » .

(٦) « من » ساقطة من ح١ .

(٧) « حين » ساقطة من ح١ ، م .

(٨) في د : « تظفر » .

سأقسي[١] قلبه ، وأمنعه عن[٢] الإيمان ؛ لأظهر آياتي وعجائبي بمصر . وكذلك فعل سبحانه ، فأظهر من آياته وعجائبه بسبب ذنوب فرعون وقومه ما أظهر .

وكذلك إظهاره سبحانه ما أظهر من جعل النار برداً وسلاماً علىٰ إبراهيم ، بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم ، وإلقائهم له في النار ، حتىٰ صارت تلك آية ، وحتىٰ نال إبراهيم ما[٣] نال من كمال الخُلَّة[٤][٥] .

وكذلك[٦] ما حصل للرسل من الكرامة والمنزلة والزلفىٰ عند الله تعالىٰ ، والوجاهة عنده ، بسبب صبرهم علىٰ أذىٰ قومهم ، وعلىٰ محاربتهم لهم ومعاداتهم .

وكذلك اتخاذ الله الشهداء والأولياء والأصفياء من بني آدم ، بسبب صبرهم علىٰ أذىٰ[٧] أهل المعاصي والظلم ومجاهداتهم في الله ، وتحملهم لأجله من

---

(١) في ح٢ ، م : « أقسي » .

(٢) في ح٢ ، م : « من » .

(٣) في ط زيادة : « بها » .

(٤) في ق : « الحكمة » .

(٥) الخُلَّة : بالضم الصداقة والمحبة التي تخللت القلب فصارت خِلاَلَه أي في بطنه ، والخليل الذي أصفى المودة وأصحَّها قال تعالى : ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ [النساء : ١٢٥] أي أحبه محبة تامة لا خلل فيها . انظر : لسان العرب ٤/ ٢٠٢ – ٢٠٣ مادة (خَلَل) .

قال ابن أبي العز : « الخلة كمال المحبة المستغرقة للمُحَب ، ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى كسائر صفاته . انظر : شرح العقيدة الطحاوية ٣٢٩ .

(٦) في ق : « ولذلك » .

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة : « بني آدم من » .

أعدائه ما هو بعينه وعلمه ، واستحقاقهم بذلك رفعةَ الدرجات .

إلىٰ غير ذلك من المصالح والحكم التي وُجدت [1] بسبب ظهور المعاصي والجرائم ، وكان من سببها ، تقدير ما يبغضه الله ويسخطه . وكان ذلك محض الحكمة ، لما يترتب عليه مما هو أحب إليه ، وآثر عنده من [2] فوته بتقدير عدم المعصية .

فحصول هذا المحبوب العظيم ، أحب إليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط ، فإن فواته وعدمه – وإن كان محبوباً له – ؛ لكنَّ حصول هذا المحبوب الذي لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض أحب إليه ، وفوات هذا المحبوب أكره إليه من فوات ذلك المكروه المسخوط . وكمال حكمته تقتضي [3] حصول أحب الأمرين إليه بفوات أدنىٰ المحبوبين ، وأن لا يعطل هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه . وفرض الذهن وجود هذا [4] بدون هذا ، كفرضه وجود المسببات بدون أسبابها ، والملزومات بدون لوازمها ، مما تمنعه حكمة الله ، وكمال قدرته وربوبيته .

ويكفي من هذا مثال واحد . وهو أنه لولا المعصية من أبي البَشَر – بأكل الشجرة [5] – لما ترتب علىٰ ذلك ما ترتب من وجود هذه المحبوبات العظام للرب

---

(١) « وجدت » ساقطة من غ .

(٢) « من » ساقطة من غ .

(٣) في ش : « يقتضي » .

(٤) « هذا ساقطة » من م .

(٥) في ط والجميع سوى ش : « بأكله من الشجرة » وفي د : « من الشجر » .

تعالىٰ، من امتحان خلقه وتكليفهم، وإرسال رسله، وإنزال كتبه، وإظهار آياته وعجائبه، وتنويعها وتصريفها، وإكرام أوليائه، وإهانة أعدائه، وظهور عدله وفضله، وعزته وانتقامه، وعفوه ومغفرته، وصفحه وحلمه[1]، وظهور من يعبده ويحبه، ويقوم بمراضيه بين أعدائه في دار الابتلاء والامتحان.

فلو قَدّر أن آدم لم يأكل من الشجرة، ولم يخرج من الجنة هو ولا أولاده[2]: لم يكن شيء من ذلك[3]، ولا ظهر من القوة إلىٰ الفعل ما كان كامناً في قلب إبليس، يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة، ولم يتميز خبيث الخلق من طيبه[4]، ولم[5] تَتِمّ المَمْلَكة، حيث لم يكن هناك إكرام وثواب، وعقوبة وإهانة، ودار سعادة وفضل، ودار شقاوة وعدل.

وكم في تسليط أوليائه علىٰ أعدائه، وتسليط أعدائه علىٰ أوليائه، والجمع بينهما في دار واحدة، وابتلاء بعضهم ببعض، من حكمة بالغة، ونعمة سابغة.

وكم في طيّها[6][7] من حصول محبوب للرب، وحمد له من أهل سمواته

---

(١) في د، غ: «وحكمه».

(٢) في ط، ب، أ، غ، ح١: «وأولاده».

(٣) في ط، غ، ب، أ، ح١: «تلك».

(٤) في ط: «طيبهم».

(٥) في غ: «ولا».

(٦) في ط: «فيها».

(٧) طوى: الطاء والواو والياء أصل صحيح يدل على إدراج شيء، حتى يدرج بعضه في بعض، وطيها: ضَمَّنَها ودَاخِلَها. انظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٨١ مادة: طوى، والمعجم الوسيط ٥٧٣.

وأرضه ، وخضوع له وتذلّل ، وتعبد وخشية وافتقار إليه ، وانكسار بين يديه ، أن لا يجعلهم من أعدائه . إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون [1] خذلان الله لهم ، وإعراضه عنهم ، ومقته لهم ، وما أعدّ [2] لهم [3] من العذاب ، وكل ذلك بمشيئته وإذنه [4] وتصرفه في مملكته . فأولياؤه من خشية خذلانه خاضعون مشفقون ، علىٰ أشدِّ وَجَل ، وأعظم مخافة ، وأتمّ انكسار .

فإذا رأتْ الملائكةُ إبليسَ وما جرىٰ له ، وهاروت وماروت ، وضعت رؤوسها بين يدي الرب تعالىٰ خضوعاً لعظمته ، واستكانة لعزته ، وخشية من إبعاده وطرده ، وتذلّلاً لهيبته ، وافتقاراً إلىٰ عصمته ورحمته ، وعلمت بذلك منَّتَه عليهم ، وإحسانَه إليهم ، وتخصيصَه لهم بفضله وكرامته .

وكذلك [5] أولياؤه المتقون ، إذ شاهدوا أحوالَ أعدائه ومقْته [6] لهم ، وغضبه عليهم ، وخذلانه لهم ، ازدادوا له [7] خضوعاً وذلاً ، وافتقاراً وانكساراً ، وبه استعانة وإليه إنابة ، وعليه توكّلاً ، وفيه رغبة ، ومنه [8] رهبة .

---

(١) « يشاهدون » ساقطة من غ .

(٢) في ب زيادة : « الله » .

(٣) « لهم » ساقطة من غ .

(٤) في الجميع سوى ش : « وإرادته » ، وفي ط : « بمشيئه وإرادته » .

(٥) في ق : « ولذلك » .

(٦) « ومقته » ساقطة من : م .

(٧) « له » ساقطة من ط .

(٨) في ط ، غ ، ح١ ، أ ، ق : « أنهم » .

وعلموا أنه لا ملجأ لهم منه [1] إلا إليه ، وأنهم لا يعيذهم من بأسه إلا هو ، ولا ينجيهم من سخطه إلا مرضاته ، فالفضل بيده أولاً وآخراً .

وهذه قطرة من بحر حكمته [المحيط [2] بخلقه وأمره [3] . والبصيرُ يطالع ببصيرته ما وراءه . فيُطلعه علىٰ عجائبَ من حكمته] [4] لا تبلغها العبارة ، ولا تنالها [5] الصفة .

وأما حظ العبد في نفسه ، وما يخصه من شهود هذه الحكمة ، فبحسب استعداده [6] ، وقوة بصيرته وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته ، ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية ، وكل مؤمن له من ذلك شرب معلوم ، ومقام لا يتعدّاه ولا يتخطّاه . والله الموفق والمعين .

* * *

---

(١) « منه » ساقطة من ق .

(٢) في ط والجميع سوى ش ، غ : « المحيطة » .

(٣) « وأمره » ساقطة من ط ، ح١ ، ب ، أ .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من غ .

(٥) « تنالها » ساقطة من ق .

(٦) في غ : « إعداده » .

فصل

مشهد انفراد الرب بالخلق والحكم

المشهد السادس : وهو أن يشهد انفراد الرب تعالىٰ بالخلق والحكم ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ، وأن الخلق مقهورون تحت قبضته ، وأنه ما من قلب إلا وهو بين أصابعه[1]. إن شاء أن يُقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه [2]. فالقلوب بيده. وهو مقلّبُها ومصرفُها[3] كيف شاء وكيف أراد ، وأنه [4] هو[5] الذي آتىٰ نفوس المؤمنين تقواها ، وهو الذي هداها وزكاها، وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها[6][7]، ومن يهده[8]

---

(١) في ش : « اصبعيه » وفي ط : « اصبعين من أصابعه ».

(٢) كما في حديث النواس بن سمعان - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه » ، رواه أحمد في مسنده ٤/ ١٨٢ ، وابن ماجه في سننه ١/ ٧٢ في المقدمة (ح١٩٩) ، وابن حبان في صحيحه ٢/ ١٤٦ -١٤٧ ح٩٣٩ ، والحاكم في مستدركه ٢/ ٣١٧ وصححه ووافقه الذهبي ، وابن أبي عاصم في السنة ١/ ٩٨ (ح٢١٩) ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١/ ٤٠ (ح١٦٥).

(٣) في ش : « ويصرفها ».

(٤) « أنه » : ساقطة من أ ، غ.

(٥) « هو » ساقطة من ح١ .

(٦) في غ : «وشقاها ».

(٧) كما قال تعالىٰ : ﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها﴾ [الشمس : ٧ ، ٨].

(٨) في د : « يهد » وفي ح٢ ، غ ، م « يهدي » .

الله فلا مضل له، ومن يضلل[1] فلا هادي له ، ويهدي من يشاء بفضله ورحمته ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته. وهذا فضله وعطاؤه ، وما فضل الكريم بممنون[2] ، وهذا عدله وقضاؤه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء : ٢٣].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : « الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده ، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده »[3].

وفي هذا المشهد : يتحقق للعبد مقام[4] (إياك نستعين) علماً وحالاً. فيثبت قدم العبد في توحيد[5] الربوبية ، ثم يرقىٰ منه صاعداً إلىٰ توحيد الإلهية. فإنه إذا تيقن أن الضُرَّ[6] والنفع ، والعطاء والمنع ، والهدىٰ والضلال ، والسعادة والشقاوة[7] كل ذلك بيد الله لا بيد غيره ، وأنه الذي يقلب القلوب ويصرفها كيف يشاء ، وأنه لا موفق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله[8] وتخلّىٰ عنه[9] ؛ اتخذه

---

(١) في د : « يضلله ».

(٢) في م زيادة : « به ».

(٣) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٦٢٣، والآجري في الشريعة ٢/ ٨٧٦ - ٨٧٧.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : «إياك نعبد ».

(٥) في غ : « توحيده ».

(٦) في ط : « الضرر ».

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : « الشقاء ».

(٨) في ط والجميع زيادة : « وأهانه » ، وفي ب : « أهانه الله ».

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : « وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها وأرقها وأصفاها وأشدها وألينها من اتخذه ».

وحده إلهاً معبوداً. فكان أحبَّ إليه من كل ما سواه ، وأخوفَ عنده [1] من كل ما سواه ، وأرجىٰ له من كل ما سواه. فتتقدم محبتُه في قلبه جميعَ المحابّ ، فتنساق المحابّ تبعاً لها كما ينساق الجيش تبعاً للسلطان. ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخاوف [2] ، فتنساق المخاوف كلها تبعاً لخوفه. ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء ، فينساق كلُّ [3] رجاء له [4] تبعاً لرجائه.

فهذا علامة [5] توحيد الإلهية [6] ، والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية [7][8].

---

(١) في ح٢ ، م : « له ».

(٢) في ط ، ح١ ، ح٢ ، أ ، ب ، غ : « المخوفات » وفي م : « المخلوقات ».

(٣) في غ : « كله ».

(٤) « له » ساقطة من ط ، أ ، غ ، ب ، ح١.

(٥) في غ : « علامات ».

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : « في هذا القلب ».

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : « أي باب توحيد الإلهية : هو توحيد الربوبية فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية ، ثم يرتقي إلىٰ توحيد الإلهية.

(٨) توحيد الربوبية والألوهية بينهما تلازم وتضمن ، وبيانه أن يقال :

توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية ، بمعنىٰ أن الإقرار بتوحيد الربوبية يوجب الإقرار بتوحيد الألوهية والقيام به ، فمن عرف أن الله ربه ، وخالقه ، ومدبر أموره ، وجب عليه أن يعبده وحده لا شريك له.

وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية بمعنىٰ أن توحيد الربوبية يدخل ضمن توحيد الألوهية ، فمن عبد الله وحده ، ولم يشرك به شيئاً ، فلابد أن يكون قد اعتقد أنه هو ربه وخالقه.

التلازم والتضمن بين توحيدَي الربوبية والألوهية

كما يدعو[1]، سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلىٰ النوع الآخر[2]، ويحتج عليهم[3] به، ويقررهم به. ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية.

وفي هذا المشهد يتحقق له مقام (إياك نعبد) قال[4] تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧] أي فمن أين[5] يُصرفون عن شهادة أن لا إله إلا هو[6] وعن عبادته وحده، وهم[7] يشهدون أنه

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «إن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالىٰ من الصفات، ونزهه عن كل ما يُنزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء، لم يكن موحداً بل ولا مؤمناً حتىٰ يشهد أن لا إله إلا الله، فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له» انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٢٦.

وقال ابن أبي العز: «وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس» انظر: شرح الطحاوية ٨٧.

(١) في ط زيادة: «الله».

(٢) أي يدعو الله سبحانه وتعالىٰ عباده بتوحيد الربوبية إلىٰ توحيد الإلهية كما قال تعالىٰ: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]

(٣) في غ: «عليه».

(٤) في ط زيادة: «الله».

(٥) في ط: «فأين».

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش: «الله».

(٧) «وهم» ساقطة من م.

لا رب[١] غيره ، ولا خالق[٢] سواه. وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون : ٨٤ ، ٨٥] فيعلمون[٣] أنه إذا كان[٤] وحده مالك الأرض ومن فيها ، وخالقهم[٥] وربهم ومليكهم ، فهو وحده إلههم ومعبودهم. فكما لا رب لهم غيره[٦] ، فهكذا لا إله لهم سواه ، ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون : ٨٦-٨٩]. وهكذا قوله في سورة النمل : ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل : ٥٩ ، ٦٠] إلىٰ آخر الآيات[٧].

---

(١) في ش : « أن لا رب ».

(٢) في ح١ : « وأنه لا خالق ».

(٣) في ط والجميع سوىٰ د : « فتعلمون ».

(٤) في ط زيادة : « هو ».

(٥) في ش : « وخالقها ».

(٦) في ش : « سواه ».

(٧) انظر الآيات من آية ٥٩ حتىٰ آية ٦٥.

يحتج عليهم بأنَّ منْ فعل هذا وحده ، فهو الإله[1] وحده ، فإن كان معه رب فعل هذا؛ فينبغي أن تعبدوه، وإن لم يكن معه رب فعل هذا؛ فكيف تجعلون[2] معه إلهاً آخراً؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية : أإله مع الله فعل هذا؟[3] حتىٰ يتم الدليل ، فلابد من الجواب بلا[4]. فإذا لم يكن معه إله[5] فعل كفعله ، فكيف تعبدون آلهة أخرىٰ سواه؟ فعُلم أن [6] إلهية ما سواه باطلة كما أنَّ ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنىٰ هل مع الله إله آخر؟[7] من غير أن يكون المعنىٰ فعل هذا[8] فقوله ضعيف لوجهين :

أحدهما: أنهم كانوا يقولون مع الله آلهة أخرىٰ. ولا ينكرون ذلك.

الثاني : أنه لا يتم الدليل ، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير ، أي فإذا كنتم تقولون : إنه ليس معه إله آخر فعل مثل ما

---

(١) في ط زيادة : « لهم ».

(٢) في غ : « تجعلونه ».

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٠/ ٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥.

(٤) « بلا » ساقطة من ق.

(٥) في أ زيادة : « آخر ».

(٦) « أن » ساقطة من ق.

(٧) انظر : تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٠٨ ، وتفسير الماوردي ٣/ ٢٠٧.

(٨) « هذا » ساقطة من الجميع سوىٰ ش ، ط.

فعل[1]، فكيف تجعلون معه إلهاً آخر لا يخلق شيئاً وهو عاجز؟ وهذا كقوله : ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2] [الرعد : ١٦]، وقوله : ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان : ١١]، وقوله : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل : ١٧]، وقوله : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل : ٢٠]، وقوله : ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان : ٣] وهو كثير في القرآن، وبه[3] تتم الحجةُ كما تبيَّن.

والمقصود : أن العبدَ يُحصِّل له هذا[4] المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب وجريانها عليه وعلىٰ الخليقة بتقدير العزيز الحكيم، وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو، ولا سبيل إلىٰ طاعته إلا بمعونته، ولا وصول إلىٰ مرضاته إلا بتوفيقه. فموارد الأمور كلها منه، ومصادرها إليه. وأزمة[5] التوفيق جميعها بيده[6] فلا مستعان للعباد إلا به[7]، ولا مُتَّكَل[8] إلا

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : «مثل فعله».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش الآية مكملة .

(٣) في غ : «فيه».

(٤) في ط زيادة : «في».

(٥) الأزْمُ : شدة العض بالفم كله، وأزمَ القوم : أمسكوا عن الكلام، وأزَمْت الحبل : أحكمت فتله وضَفْرَه. انظر : لسان العرب ١/ ١٣٦ مادة (أزم) .

(٦) في ط، ب، م، د، أ : «بيديه».

(٧) «إلا به» ساقطة من غ.

(٨) في ح١ : «متوكل».

عليه[١]، قال تعالىٰ عن[٢] شعيب خطيب الأنبياء: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].



فصل

مشهد التوفيق والخذلان

المشهد السابع: مشهد التوفيق والخذلان، وهو من تمام هذا المشهد وفروعه؛ ولكن أُفرد بالذكر لحاجة العبد إلىٰ شهوده وانتفاعه به. وقد أجمع العارفون بالله أن «التوفيق»[٣] أن لا يكلك الله إلىٰ نفسك[٤]، و «الخذلان»[٥] أن يُخلي بينك وبينها[٦]. فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه؛ بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا. فيعطيه ويرضيه، ويذكره ويشكره بتوفيقه له. ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه. فإن وفقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته. وهو المحمود في[٧] هذا وهذا، له أتم حمد[٨] وأكمله. ولم يمنع العبد شيئاً هو له.

---

(١) في ق زيادة: «كما».

(٢) «تعالىٰ عن» ساقطة من ط.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «هو».

(٤) في ط زيادة: «وأن».

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «وهو».

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش: «وبين نفسك».

(٧) في ط، أ، غ، ب، ح١: «علىٰ».

(٨) في ش: «الحمد».

وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه. وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله[1].

فمتىٰ شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، علم[2] ضرورته وفاقته[3] إلىٰ التوفيق[4] كل نفس وكل لحظة، وطرفة عين. وأن إيمانه وتوحيده بيد غيره[5] لو تخلىٰ عنه طرفة عين لثُلَّ[6] عرشه[7]، ولخَرَّت سماء إيمانه علىٰ الأرض. وأن الممسك له[8]، من يمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض إلا بإذنه فهِجِّيرىٰ[9] قلبه، ودأب لسانه: «يامقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك»[10]، و«يا مصرف

---

(١) في ش: «يضعه».

(٢) في ط زيادة: «شدة».

(٣) في ط والجميع: «حاجته».

(٤) في ط، ش زيادة: «في».

(٥) في ط، أ، غ، ح١، ب، ق: «بيده تعالىٰ».

(٦) ثُلَّ عرشه: هدم وذهب سلطانه. انظر: لسان العرب ٢/ ١٢٢ مادة ثلَلَ، والمعجم الوسيط ٩٩.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش: «عرش توحيده».

(٨) في ط زيادة: «هو».

(٩) الهِجِّيرىٰ: الدأب، والعادة. انظر: لسان العرب ١٥/ ٣٤ مادة: هجر.

(١٠) رواه أحمد في مسنده ٦/ ٢٩٤، والترمذي في سننه ٤/ ٤٤٨ - ٤٤٩ في كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (ح٢١٤٠) وقال: حديث حسن.

ورواه البخاري في الأدب المفرد ص٢٣١، باب دعوات النبي ﷺ (ح٦٨٤). وابن أبي عاصم في السنة ١/ ١٠٣-١٠٤ (ح٢٣٠). وقال الألباني: صحيح. انظر: ظلال الجنة في تخريج السنة ١/ ١٠٤.

القلوب صرف قلبي علىٰ طاعتك »[1] ودعواه « يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام. لا إله إلا أنت. برحمتك أستغيث. أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين ، ولا إلىٰ أحد من خلقك»[2].

---

(١) رواه مسلم ٤/ ٢٠٤٥ في كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالىٰ القلوب كيف شاء (ح٢٦٥٤) بلفظ : « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا علىٰ طاعتك ». وأحمد في مسنده ٢/ ١٦٨.

(٢) روىٰ بعضه النسائي في عمل اليوم والليلة ٣٨١ (ح٥٧٠) عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال النبي ﷺ لفاطمة : « ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به ، أو تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين» . والبيهقي كذلك في الأسماء والصفات ١٤٠. والحاكم في المستدرك ١/ ٧٣٠ (ح٢٠٠٠) وقال صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وذكره المنذري في الترغيب ١/ ١٥٧ وقال : رواه النسائي والبزار بإسناد صحيح. وذكره الهيثمي في المجمع ١٠/ ١١٧ وقال : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير عثمان ابن موهب وهو ثقة. والحديث صححه الألباني. انظر : الصحيحة ١/ ٥٣ (ح٢٢٧).

وروىٰ أنس بن مالك أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول : اللهم إني أسألك أن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك المنان بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام فقال النبي ﷺ : « لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطىٰ ».

رواه أحمد في مسنده ٣/ ١٢٠. وأبو داود ٢/ ١٦٧-١٦٨ في كتاب الوتر ، باب الدعاء (ح١٤٩٥). والترمذي ٥/ ٥٥٠ في كتاب الدعوات ، باب خلق الله مائة رحمة (ح٣٥٤٤). وقال : هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس وقد روي من غير هذا الوجه عن أنس. وابن ماجه ٢/ ١٢٦٨ في كتاب الدعاء ، باب اسم الله الأعظم (ح٣٨٥٨). والنسائي ٣/ ٥٢ في كتاب السهو ، باب الدعاء بعد الذكر (ح١٣٠٠). والحاكم في المستدرك ١/ ٦٨٣ (ح١٨٥٦) وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في

ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه ، كما يشهد ربوبيته وخلقه. فيسأله توفيقه مسألة المضطر ، ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف [1] ، ويلقي نفسه بين يديه ، طريحاً ببابه مستسلماً له ، ناكس الرأس بين يديه ، خاضعاً ذليلاً مستكيناً ، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

و «التوفيق» إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد ، بأن يجعله قادراً علىٰ فعل ما يرضيه ، مريداً له ، محباً له [2] ، مؤثراً له علىٰ غيره. ويُبَغِّض إليه ما يسخطه ، ويُكَرِّهه إليه. وهذا مجرد فعله ، والعبد محل له. قال تعالىٰ : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحجرات : ٧ ، ٨] فهو سبحانه عليم [3] بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له. حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله ، لا يمنعه أهله ، ولا يضعه عند غير أهله. وذكر هذا عُقيب قوله : ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ [الحجرات : ٧] ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال :

المجمع ١٠/ ١٥٦ وقال : رواه أحمد والطبراني في الصغير ورجال أحمد ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس وإن كان ثقة. وقال الألباني : إسناده صحيح. انظر : مشكاة المصابيح ٢/ ٧٠٨ - ٧٠٩ (ح٢٢٩٠).

(١) الملهوف : المظلوم. ينادي ويستغيث. لسان العرب ١٢/ ٣٤٤ ، مادة : لهف.

(٢) « له » ساقطة من أ ، ح٢.

(٣) «فهو سبحانه عليم » ساقطة من ق.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات : ٧]. يقول سبحانه : لم تكن[1] محبتكم للإيمان وإرادته[2] وتزيينه في قلوبكم : منكم ؛ ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك. فآثرتموه ورضيتموه، فكذلك[3] لا تقدموا بين يدي[4] الله ورسوله[5]، ولا تقولوا حتىٰ يقول، ولا تفعلوا حتىٰ يأمر. فالذي حبَّبَ إليكم الإيمان [أعلم بمصالح عباده وما يصلحهم[6] منكم، وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان، فلم[7] يكن الإيمان][8] بمشورتكم وتوفيق[9] أنفسكم، ولا تقدّمتم به عليها. فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه، فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون ؛ لشَقَّ عليكم ذلك، ولهلكتم[10] وفسدَتْ مصالحكم وأنتم لا تشعرون. ولا تظنوا أن نفوسكم تريد بكم[11] الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان. فلولا أني حبَّبْته إليكم وزيَّنْتهُ في قلوبكم،

---

(١) في أ، ب، ح٢، ح١، غ : « لم يكن ».

(٢) في ط : « وإرادتكم له ».

(٣) في ط، أ، غ، ب، ح١ : « فلذلك ».

(٤) « يدي » ساقطة من غ.

(٥) في ط، ح١، ح٢، ب، ق : « يدي رسولي ».

(٦) « وما يصلحهم » ساقطة من ط، ح٢، غ، أ، ح١، م، د.

(٧) في ش : « ولم ».

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من ق.

(٩) في م : « ولا توفيق ».

(١٠) « ولهلكتم » ساقطة من ب.

(١١) في ط : « لكم ».

وكرَّهْتُ إليكم ضدَّه لما وقع منكم. ولا [1] سمحت به نفوسكم [2].

وقد ضُرِبَ للتوفيق والخذلان مثل : مَلِكٌ أرسل إلىٰ أهل بلدة [3] من بلاده رسولاً. وكتب معه [4] كتاباً يُعلمهم أن العدو مُصَبِّحُهم عن قريب ومجتاحهم ، ومخرب البلد ومهلك من فيها. وأرسل إليهم أموالاً ومراكبَ وزاداً وعدة وأدلة ، وقال : ارتحلوا إليّ [5] مع هؤلاء الأدلة. وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه ، ثم قال لجماعة من مماليكه : اذهبوا إلىٰ فلان ، فخذوا بيده واحملوه ولا تذروه يقعد ، واذهبوا إلىٰ فلان كذلك وإلىٰ فلان ، وذروا من عداهم ؛ فإنهم لا يصلحون أن يساكنوني في بلدي. فذهب خواصُّ الملك [6] إلىٰ من أُمروا بحملهم ؛ فلم يتركوهم يَقِرُّون ؛ بل حملوهم حملاً ، وساقوهم سوقاً إلىٰ الملك ؛ فاجتاح العدوُّ من بقي في المدينة وقتلهم ، وأسر من أسر.

فهل يُعد المِلك ظالماً لهؤلاء ، أم عادلاً فيهم؟ نعم خَصَّ أولئك بإحسانه وعنايته ، وحرمها من عداهم ، إذ لا تجب [7] عليه التسوية بينهم في فضله

---

(١) « ولا » ساقطة من غ ، وفي ش : « ولما ».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : « أنفسكم ».

(٣) في ط ، ح١ ، غ ، ب ، أ : « بلد ».

(٤) في ط زيادة : « إليهم ».

(٥) « إليَّ » ساقطة من ط.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : « مماليكه ».

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : « لا يحب ».

وإكرامه ؛ بل ذلك فضله وإكرامه [1] يؤتيه من يشاء.

وقد فسرت القدرية الجبرية « التوفيق » بأنه خلق الطاعة و« الخذلان»[2] خلق المعصية [3].

ولكن بنوا ذلك علىٰ أصولهم الفاسدة من إنكار الأسباب والحكم ، وردوا الأمر إلىٰ محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة.

وقابلهم القدرية النفاة ففسروا « التوفيق » بالبيان العام ، والهدي العام ، والتمكن من الطاعة والاقتدار[4] عليها. وتهيئة أسبابها[5]. وهذا حاصل لكل كافر ومشرك بلغته الحجة ، وتمكن من الإيمان.

فالتوفيق عندهم : أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين ، إذ الإقدار والتمكين ، والدلالة والبيان قد عم به الفريقين. ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم ، والكفار بخذلان امتنع به الإيمان منهم ، ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلماً.

والتزموا لهذا الأصل لوازم ، قامت بها عليهم سوق الشناعة بين العقلاء ، ولم يجدوا بدًّا من التزامها. فظهر فسادُ مذهبهم ، وتناقضه [6] ، لمن أحاط به

---

(١) «وإكرامه» ساقط من ط والجميع.

(٢) في ط زيادة : « بأنه ».

(٣) انظر : الفرق بين الفِرَق ٢١١ ، الملل والنحل ١/ ٨٧.

(٤) في ط ، ح٢ ، أ ، ب ، ح١ ، م ، غ : « والإقبال ».

(٥) انظر : المغني في أبواب التوحيد والعدل ٢/ ٣٤٠ ، والملل والنحل ١/ ٤٥.

(٦) في ط ، ح٢ ، م : « تناقض قولهم ». وفي أ ح١ ، د ، غ ، ب ، ق : « أقوالهم ».

علماً ، وتصوره حق تصوره ، وعلم أنه من أبطل مذهب في العالم وأرواه.

وهدىٰ الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم. فلم يرضوا بطريق هؤلاء ، ولا بطريق هؤلاء ، وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم ، فأثبتوا القضاء والقدر ، وعموم مشيئة الله للكائنات ، وأثبتوا الأسباب والحكم ، والغايات والمصالح. ونزهوا الله عز وجل أن يكون في ملكه ما لا يشاء ، أو[1] أن يقدر خلقه علىٰ ما لا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته ، وأن[2] يكون شيء من أفعالهم واقعاً بغير اختياره وبدون مشيئته. ومن قال ذلك فلم يعرف ربه ، ولم يُثبت له كمال الربوبية. ونزهوه — مع ذلك — عن[3] العبث وفعل القبيح[4] ، وأن يخلق شيئاً سدىٰ ، وأن

---

(١) « أو » ساقطة من م.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : « أو أن ».

(٣) في م : « من ».

(٤) أول من اشتهر عنه البحث في مسألة التحسين والتقبيح هو الجهم بن صفوان الذي وضع قاعدته المشهورة « إيجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع » انظر : الملل والنحل ١/ ٨٨. وقال : إن العقل يوجب ما في الأشياء من صلاح وفساد وحسن وقبح ، وهو يعقل هذا قبل نزول الوحي وبعد ذلك يأتي الوحي مصدقاً لما قال به العقل من حسن بعض الأشياء وقبح بعضها ، وقد أخذت المعتزلة بهذا القول وبنوا عليه أصلهم ، وزادوا عليه شرحاً وبياناً واستدلالاً ، والكرامية أخذت هذا القول عن المعتزلة. انظر : القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة للمحمود ص١٧٠-١٧١.

ولقد وقع الخلاف في هذه المسألة بين أهل السنة وغيرهم علىٰ أقوال :

القول الأول : من يقول بالحسن والقبح ، ويجعل ذلك صفات ذاتية للفعل لازمة له ولا =

= يجعل الشرع إلا كاشفاً عن تلك الصفات لا سبباً لشيء من الصفات. وهذا هو قول المعتزلة. فهؤلاء يجعلون الذي يُحسِّن ويقبِّح هو العقل ... انظر : مجموع الفتاوىٰ ٨/ ٤٣١، ١١/ ٦٧٧.

القول الثاني : أن الأفعال لم تشتمل علىٰ صفات هي أحكام ولا علىٰ صفات هي علل للأحكام ؛ بل القادر أمر بأحد المتماثلين دون الآخر لمحض الإرادة لا لحكمة ولا لرعاية مصلحة في الخلق والأمر... فهم يقولون: إن الذي يجعله حسناً أو قبيحاً هو ورود الشرع به، وهذا قول الأشاعرة ومن وافقهم.

انظر : الإرشاد للجويني ٢٥٨ ، مجموع الفتاوىٰ ٨/ ٤٣٢-٤٣٣ ، ١١/ ٦٧٧.

القول الثالث : أن الفعل يكون سيئاً وشراً وقبيحاً قبل مجيء الرسل ؛ لكن العقوبة تستحق بمجيء الرسل. وعلىٰ هذا عامة السلف وأكثر المسلمين ، فهم لا ينفون دور العقل في التحسين والتقبيح ، ولا يجعلونه من ناحية الشرع فقط ، ويوضح هذا شيخ الإسلام حيث قَسّم الأفعال إلىٰ ثلاثة أنواع :

أحدها : أن يكون الفعل مشتملاً علىٰ مصلحة أو مفسدة ، ولم يرد الشرع بذلك كما يُعلم أن العدل مشتملٌ علىٰ مصلحة العالم ، والظلم مشتملٌ علىٰ فسادهم ، فهذا النوع هو حسنٌ وقبيح. وقد يعلم بالعقل والشرع قبح ذلك لا أنه أثبت للفعل صفة لم تكن ؛ لكن لا يلزم من حصول هذا القبح أن يكون فاعله معاقباً في الآخرة إذا لم يرد الشرع بذلك ، وهذا ما غلط فيه القائلون بالتحسين والتقبيح ؛ فإنهم قالوا : إن العباد يعاقبون علىٰ أفعالهم القبيحة ولو لم يبعث الله إليهم رسولاً ، وهذا خلاف النص قال تعالىٰ : ﴿وما كنا معذبين حتىٰ نبعث رسولاً﴾ [الإسراء : ١٥].

النوع الثاني : أن الشارع إذا أمر بشيء صار حسناً وإذا نهىٰ عن شيء صار قبيحاً ، واكتسب الفعلُ صفة الحسن والقبح بخطاب الشارع.

النوع الثالث : أن يأمر الشارع بشيء ليمتحن العبد ، هل يطيعه أم يعصيه ، ولا يكون المراد فعل المأمور به ، كما أمر إبراهيم بذبح ابنه: ﴿فلما أسلما وتلّه للجبين﴾ [الصافات: ١٠٣]

تخلو أفعاله عن حكم بالغة ، لأجْلِها أوْجَدها ، وأسباب بها[1] سَبَّبها ، وغايات جُعلت طرقاً ووسائل إليها ، وأن له في كل ما خلقه وقضاه حكمة بالغة. وتلك الحكمة صفة له قائمة به ، ليست مخلوقة كما تقول القدرية النفاة للقدر والحكمة في الحقيقة.

وأهل[2] الصراط المستقيم : بريئون من الطائفتين ، إلا من حق تتضمنه مقالاتهم. فإنهم يوافقونهم عليه ، ويجمعون حق كل منهما[3] إلىٰ حق الأخرىٰ[4] ، ولا يبطلون ما معهم من الحق لما قالوه من الباطل. فهم شهداء الله علىٰ الطوائف ، أمناء[5] عليهم ، حكامٌ بينهم ، حاكمون عليهم. ولا يحكم

حصل المقصود ، ففداه بالذبح ، وكذلك حديث أبرص وأقرع وأعمىٰ ، فلما أجاب الأعمىٰ قال الملك : « **أمسك عليك مالك ، فإنما ابتليتم ، فرضي عنك وسخط علىٰ صاحبيك** » ، فالحكمة منشؤها من نفس الأمر لامن نفس المأمور به.

وهذا النوع والذي قبله لم يفهمه المعتزلة ، وزعمت أن الحسن والقبح لا يكون إلا لما هو متصف بذلك بدون أمر الشارع ، والأشعرية ادعوا أن جميع الشريعة من قسم الامتحان ، وأن الأفعال ليست صفة ، لا قبل الشرع ولا بالشرع. وأما الحكماء والجمهور فأثبتوا الأقسام الثلاثة وهو الصواب.

انظر : مجموع الفتاوىٰ ٨/ ٤٣٤ – ٤٣٦.

(١) في ش : « لها ».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : « فأهل ».

(٣) في ش : « منها ».

(٤) في ح١ : « الآخر ».

(٥) في ط : « وأمناؤه ».

عليهم منهم أحد[1]. يكشفون أحوال الطوائف، ولا يكشفهم إلا من كشف[2] عن معرفة ما جاءت به الرسل[3]، وعرف الفرق بينه وبين غيره، ولم يلتبس عليه. وهؤلاء أفراد العالم ونخبته وخلاصته، ليسوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، ولا من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبراً؛ بل ممن هو[4] علىٰ بينة من ربه وبصيرة في إيمانه، ومعرفة بما عند الناس. والله الموفق المعين[5].

فصل

مشهد الأسماء والصفات

المشهد الثامن: مشهد الأسماء والصفات وهو من أجلِّ المشاهد. وهو أعلىٰ مما قبله وأوسع.

والمَطْلَع علىٰ هذا المشهد: معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنىٰ، والصفات العلىٰ، وارتباطه بها وأن[6] العالم -بما فيه- من بعض آثارها ومقتضاها[7]، وهذا من أجل المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة. فإن أسماءه[8]

---

(١) في ق: «أحد منهم».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «له».

(٣) في ط، أ، غ، ح١، ب: «ما جاء به الرسول».

(٤) في ط: «هم».

(٥) «المعين» ساقط من ط والجميع سوىٰ ش.

(٦) في ط زيادة: «كان».

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش: «مقتضياتها».

(٨) في ش: أسمائه سبحانه.

الحسنىٰ [1] أوصاف مدح وكمال [2].

وكل صفة لها مقتضىٰ وفعل : إما لازم وإما متعد. ولذلك الفعل تعلق بمفعول[3] هو من لوازمه. وهذا في خلقه وأمره ، وثوابه وعقابه. كل ذلك آثار الأسماء الحسنىٰ وموجباتها[4].

---

(١) « الحسنىٰ » ساقطة من ط والجميع وفي ش : « سبحانه ».

(٢) من الإيمان بأسماء الله سبحانه الإيمان بأنها أعلام وأوصاف ، فهي أعلام باعتبار دلالتها علىٰ ذات الله ، وهي أوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني ، فأسماؤه سبحانه اتفقت في دلالتها علىٰ ذاته مع تنوع معانيها ، فهي مترادفة من حيث دلالتها علىٰ ذات الله عز وجل ، ومتباينة فيما تتضمنه من الصفات لدلالة كل اسم منها علىٰ معنىٰ خاص ، وإثبات هذه الأسماء بمعانيها دالٌّ علىٰ صفات الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه.

انظر : التدمرية لشيخ الإسلام ص١٠٠-١٠١ ، وبدائع الفوائد لابن القيم ١/ ١٦٢ ، والقواعد المثلىٰ للشيخ ابن عثيمين ٨ ، أسماء الله الحسنىٰ لعبدالله الغصن ص٥٣-٥٤.

(٣) في ق : « بمفعوله ».

(٤) من الإيمان بأسماء الله عز وجل الإيمان بما يتعلق بها من آثار ، وهذه الآثار ليست عامة في جميع الأسماء ، فإن أسماء الله تعالىٰ إن دلت علىٰ وصف متعد تضمنت ثلاثة أمور : إثبات الاسم ، وإثبات الصفة التي تضمنها لله عز وجل ، وإثبات أثر ذلك الاسم وهو الحكم والمقتضىٰ.

مثال ذلك اسم (الرحيم) ، فيثبت الاسم وما تضمنه من صفة الرحمة والأثر المتعلق بها.

قال ابن القيم - رحمه الله - : « فانظر إلىٰ ما في الوجود من آثار رحمته الخاصة والعامة ، فبرحمته أرسل إلينا رسوله ﷺ ، وأنزل علينا كتابه ، وعلّمنا من الجهالة ، وهدانا من الضلالة ، وبصّرنا من العمىٰ ، وأرشدنا من الغيّ ، وبرحمته ، عرفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرفنا به أنه ربنا ومولانا ، وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم ، وأرشدنا لصالح ديننا ودنيانا ، وبرحمته

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها ، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال ، وتعطيل الأفعال عن المفعولات ، كما أنه[١] يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله ، وأفعاله عن صفاته ، وصفاته عن أسمائه. وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإذا كانت أوصافه صفات كمال ، وأفعاله حكماً ومصالح ، وأسماؤه حسنىٰ ، ففرض تعطيلها عن[٢] موجباتها مستحيل في حقّه. ولهذا ينكر سبحانه علىٰ من عَطَّله عن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وأنه[٣] نسبه إلىٰ ما لا يليق به بل[٤] تنزه عنه ، وأن ذلك حكم سيىء ممن حكم به عليه ، وأنَّ من نسبه إلىٰ ذلك فما قَدّره حق قدره ، ولا عَظّمه حق تعظيمه ، كما قال تعالىٰ في حق منكري النبوات[٥] وإرسال

أطلع الشمس والقمر ، وجعل الليل والنهار ...» . انظر : مختصر الصواعق المرسلة للموصلي ٢/ ٣١٧.

وإن دلت علىٰ غير متعد تضمنت أمرين. . إثبات الاسم له عز وجل ، وإثبات الصفة التي تضمنها هذا الاسم.

مثال ذلك : اسم (الحي) يتضمن إثبات الاسم لله تعالىٰ وما تضمنه من صفة الحياة لله عز وجل. انظر : القواعد المثلىٰ للشيخ ابن عثيمين ص١٠-١١.

(١) « أنه » ساقطة من ش.

(٢) في م : « من ».

(٣) في ط زيادة : « بذلك ».

(٤) في ط : « وإلىٰ ما يتنزه ».

(٥) في ط ، ح٢ ، م ، غ ، ب ، ح١ ، أ : « النبوة ».

الرسل ، وإنزال الكتب : ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام : ٩١] وقال في [1] منكري المعاد والثواب والعقاب : ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر : ٦٧] وقال في حق من جوّز عليه التسوية بين المختلفين ، كالأبرار والفجار ، والمؤمنين والكفار : ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية : ٢١]. فأخبر أن حكم شيء لا يليق به ، تأباه أسماؤه وصفاته. وقال سبحانه : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [2] [المؤمنون: ١١٥ ، ١١٦]. عن هذا الظن والحسبان ، الذي تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن كثير [3] ينفي [4] عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته ، إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضاها [5].

فاسمه «الحميد ، المجيد» يمنع ترك الإنسان سدىً مهملاً معطلاً ، لا يؤمر ولا يُنهىٰ. ولا يُثاب ولا يُعاقَب. وكذلك اسمه « الحكيم » يأبىٰ ذلك. وكذلك

---

(١) في ط والجميع زيادة : « حق ».

(٢) في الجميع سوىٰ ط وش الآية مكملة.

(٣) في ط : « كثيرة ».

(٤) في ط زيادة : « فيها ».

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : « مقتضياتها ».

اسمه « الملك » ، واسمه الحي يمنع أن يكون مُعطّلاً عن [١] الفعل ، بل حقيقة «الحياة» الفعل. فكل حي فعال. وكونه سبحانه « خالقاً قيّوماً »من موجبات حياته ومقتضاها [٢] ، واسمه «السميع البصير» يوجب مسموعاً ومرئياً ، واسم [٣] «الخالق» يقتضي مخلوقاً ، وكذا [٤] «الرازق» [٥] واسم [٦] «الملك» يقتضي مملكة [٧] وتصرّفاً وتدبيراً ، وإعطاءً ومنعاً، وإحساناً وعدلاً ، وثواباً وعقاباً. واسم «البر ، المحسن ، والمعطي ، المنان» ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها.

إذا عُرف هذا. فمن أسمائه سبحانه « الغفار ، التواب ، العفو » فلابد لهذه الأسماء من متعلقات ، ولابد من جناية تُغفرَ ، وتوبة تُقبَل ، وجرائم يُعْفَىٰ عنها. ولابدَ لاسمه « الحليم » [٨] من متعلق يظهر فيه حلمُه [٩]. إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم « الخالق ، الرازق ، المُعْطِي ، المانع » للمخلوق والمرزوق والمعطىٰ والممنوع. وهذه الأسماء كلها حسنىٰ.

---

(١) في ط : « من ».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : « مقتضياتها ».

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : « واسمه ».

(٤) في ط ، أ ، ب ، غ ، ح١ : «وكذلك ».

(٥) في ط ، ح٢ ، غ ، ب ، م ، ش ، ح١ ، ق : « الرزاق ».

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : « واسمه ».

(٧) في غ ، م : « مملكته ».

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش : « الحكيم ».

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش : « حكمه ».

والرب تعالىٰ يحب[1] ذاته وأوصافه وأسماءه. فهو عفوٌّ يحب العفو، ويحب المغفرة ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال[2]. فكان[3] تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه، من موجب أسمائه وصفاته. وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك، وما يحمد به نفسه، ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه، ما هو[4] من موجبات كماله ومقتضىٰ حمده.

وهو[5] سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما.

ومن آثارهما: مغفرة الزلات وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة علىٰ الجنايات. [6]مع كمال القدرة علىٰ استيفاء الحق، والعلم منه

---

(١) في الجميع سوىٰ ش، ط: «تحب».

(٢) كما في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده، حين يتوب إليه، من أحدكم كان علىٰ راحلته بأرض فلاة. فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها. فأتىٰ شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده. فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح». رواه مسلم ٤/ ٢١٠٤ - ٢١٠٥ في كتاب التوبة، باب في الحض علىٰ التوبة والفرح بها (ح٢٧٤٧).

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش: «وكان».

(٤) في ش: «مما هو».

(٥) في أ، ب زيادة: «أنه».

(٦) في أ، ح١، غ، ب بزيادة: «هذا».

سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها. فحلمه [1] بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح ـ صلىٰ الله علىٰ نبينا وعليه وسلم ـ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] أي فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك، لست كمن يغفر عجزاً، ويسامح [2] جهلاً بقدر الحق؛ بل أنت عليم بحقك، قادر علىٰ استيفائه، حكيم في الأخذ به.

فمن تأمل سريان [3] آثار الأسماء والصفات في العالم [4]، وفي الأمر، تبيَّن له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها: هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال. وغاياتها أيضاً: مقتضىٰ حمده ومجده، كما هو مقتضىٰ ربوبيته وإلهيته.

فله في كل ما قضىٰ [5] وقدَّره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرف [6] إلىٰ عباده [7] بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له، وذكرهم له [8]، وشكرهم

---

(١) في م: «وحكمه».

(٢) في ح١: «أو يسامح».

(٣) في ش: «باب».

(٤) في غ: «العلم».

(٥) في ط، أ، ب، ح١، ح٢، د، م: «ما قضاه».

(٦) في ط، غ، أ، ب، ح١: «التعرفات».

(٧) في ش: «عبيده».

(٨) «له» ساقطة من ح٢.

له[1] ، وتعبدهم له بأسمائه الحسنىٰ. إذ كل اسم فله تعبد مختص به ، علماً ومعرفة وحالاً. وأكمل الناس عبودية ، المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر ، فلا تحجبه[2] عبودية اسم عن عبودية[3] آخر[4] ، كمن يحجبه التعبد باسمه « القدير » عن التعبد باسمه « الحليم الرحيم » أو يحجبه عبودية اسمه « المعطي » عن عبودية اسمه « المانع » أو عبودية اسمه « الرحيم والعفو والغفور » عن اسمه « المنتقم » أو[5] التعبد بأسماء « التودد ، والبر ، واللطف ، والإحسان» عن أسماء «العدل ، والجبروت ، والكبرياء ، والعظمة»[6] ونحو ذلك.

وهذه[7] طريقة الكُمّل من السائرين إلىٰ الله تعالىٰ ، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن.

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ، ودعاء الثناء ، ودعاء التعبد ، وهو سبحانه يدعو عباده إلىٰ أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ، ويثنوا عليه بها ، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

---

(١) « له » ساقطة من غ.

(٢) في ح٢ ، غ ، ب ، م ، د ، ح١ : « يحجبه ».

(٣) في ط والجميع سوىٰ غ زيادة : « اسم ».

(٤) في ش : « أخرىٰ ».

(٥) « أو » ساقطة من ح١.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : « الكبرياء ».

(٧) في أ زيادة : « عبودية ».

وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته. فهو « عليم » يحب كل عليم، « جواد »[1] يحب كل جواد، « وتر » يحب الوتر، « جميل » يحب الجمال، «عفو » يحب العفو وأهله، « حَيِيٌّ » يحب الحياء وأهله، « بَرٌّ » يحب الأبرار، «شكور » يحب الشاكرين، « صبور » يحب الصابرين، « حليم » يحب أهل الحلم. فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح: خلق من يغفر له، ويتوب عليه ويعفو عنه. وقَدّر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له، ليترتب عليه المحبوب له المرضي له. فتوسطه كتوسط الأسباب المكروهة المفضية إلىٰ المحبوب.

فربما كان مكروهُ النفوسِ[2] إلىٰ محبوبها سبباً ما مثلهُ سببُ[3]

والأسباب – مع مسبباتها – أربعة أنواع: محبوب يفضي إلىٰ محبوب. ومكروه يفضي إلىٰ محبوب، وهذان النوعان عليهما مدار أقضيته وأقداره[4] بالنسبة إلىٰ ما يحبه ويكرهه[5].

الثالث: مكروه يفضي إلىٰ مكروه. والرابع: محبوب يفضي إلىٰ مكروه. وهذان النوعان ممتنعان في حقه سبحانه، إذ الغايات المطلوبة من قضائه

---

(١) في الجميع سوىٰ ق: « وجواد ».

(٢) في ط: « العباد ».

(٣) البيت للبحتري. انظر: ديوانه ١/ ١٧١ لكن قال: مكروه الأمور.

(٤) في ش: « وقدره ».

(٥) في ط: « وما يكرهه ».

وقدره - التي خلق[1] ما خلق وقضىٰ[2] ما قضىٰ[3] لأجل حصولها - لا تكون إلا محبوبة للرب مرضية له. والأسباب الموصلة إليها منقسمة إلىٰ محبوب له ومكروه له.

فالطاعات والتوحيد : أسباب محبوبة له ، موصلة إلىٰ الإحسان والثواب المحبوب له أيضاً. والشرك والمعاصي : أسباب مسخوطة له ، موصلة إلىٰ العدل المحبوب له ، وإن كان الفضل أحب إليه من العدل. فاجتماع الفضل والعدل[4] أحب إليه من انفراد أحدهما[5] لما فيهما من كمال الملك والحمد ، وتنوع الثناء ، وكمال القدرة.

فإن قيل : كان يمكن حصول هذا المحبوب من غير توسط المكروه.

قيل : هذا سؤال باطل ؛ لأن وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع. والذي يقدِّر[6] الذهنُ وجوده شيءٌ آخر غير هذا المطلوب المحبوب للرب. وحكم الذهن عليه بأنه محبوب للرب حكم بلا علم ، بل قد يكون مبغوضاً للرب تعالىٰ لمنافاته حكمته ؛ فإذا حكم الذهن عليه بأنه محبوب له ، كان نسبة له إلىٰ ما لا يليق به ، ويتعالىٰ عنه.

---

(١) في ط ، غ ، ب ، ح١ ، أ : « الذي ما خلق ».

(٢) في ط : « ولا ».

(٣) في ط : « إلا ».

(٤) في ط : « العدل والفضل ».

(٥) في ط زيادة : « عن الآخر ».

(٦) في ط زيادة : « في ».

فَلْيُعْطِ اللبيبُ هذا الموضعَ حقَّه من التأمل. فإنه مزَّلةُ أقدام ، ومضلَّةُ أفهام. ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقلّ الخلافُ. وهذا المشهدُ أجلّ من أن يحيط به كتاب أو يستوعبه خطاب ، وإنما أشرنا منه [1] إلىٰ أدنىٰ إشارة ، تُطلع علىٰ ما وراءها. والله الموفق المعين [2].

* * *

(١) « منه » ساقطة من م ، وفي ط : « إليه ».

(٢) « المعين » ساقطة من: أ ، ح١ ، ب ، غ.

فصل

مشهد زيادة الإيمان

المشهد التاسع : مشهد زيادة الإيمان وتعدد شواهده ، وهذا من ألطف المشاهد ، وأخصها بأهل المعرفة. ولعل سامعه يبادر إلىٰ إنكاره ، ويقول : كيف تُشهد[١] زيادة الإيمان من الذنوب والمعاصي؟ ولا سيما من[٢] ذنوب العبد ومعاصيه. وهل[٣] ذلك إلا منقص الإيمان[٤] ، فإنه بإجماع السلف : يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية[٥].

---

(١) في ط والجميع سوىٰ د : يشهد.

(٢) « من » ساقطة من غ.

(٣) في ح١ : « فإن ذلك ».

(٤) في ط ، أ ، غ ، ب ، د ، ش ، ق : « للإيمان ».

(٥) القول بزيادة الإيمان ونقصانه هو مذهب أهل السنة والجماعة. وقد تواتر بذلك النقل عنهم قال أبو هريرة – رضي الله عنه – : « الإيمان يزداد وينقص » رواه الآجري في الشريعة ٢/ ٥٨٢. وكان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يقول لأصحابه : « هلموا نزدد إيماناً فيذكرون الله عز وجل »رواه الآجري في الشريعة ١/ ٥٨٤-٥٨٥.

وقال عُمير بن حبيب : « الإيمان يزيد وينقص. قيل له : ما زيادته ونقصانه؟ قال : إذا ذكرنا الله عز وجل وحمدناه ، وخشيناه فذلك زيادته ، فإذا غفلنا وضيعنا فذلك نقصانه » رواه الآجري في الشريعة ١/ ٥٨٤.

وقال سفيان الثوري – رحمه الله – : «خالفنا المرجئة في ثلاث : نحن نقول الإيمان قول وعمل ، وهم يقولون : قول بلا عمل ، ونحن نقول : يزيد وينقص ، وهم يقولون لا يزيد ولاينقص ، ونحن نقول مؤمنون بالإقرار ، وهم يقولون نحن مؤمنون عند الله». ذكره البغوي في شرح السنة ١/ ٤١.

فاعلم أن هذا حاصل من التفات العارف إلىٰ الذنوب والمعاصي منه ومن غيره، وإلىٰ ترتب آثارها عليها(١). وترتب هذه الآثار(٢) عَلَم من أعلام النبوة،

ولقد روىٰ اللالكائي - رحمه الله - في كتاب السنة بسنده عن البخاري - رحمه الله - أنه قال: «لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص». انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١/ ١٧٣-١٧٤، وانظر فتح الباري ١/ ٤٧.

وحكىٰ البغوي - رحمه الله - اتفاق الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء السنة علىٰ أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. انظر: شرح السنة ١/ ٣٨-٣٩.

ولقد استدل أهل السنة والجماعة علىٰ قولهم بأدلة عديدة من الكتاب والسنة.

من الكتاب: قوله تعالىٰ: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ...﴾ الأنفال: ٢. وقوله تعالىٰ: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ [التوبة: ١٢٤]. وغير ذلك من الآيات. ومن السنة: قوله ﷺ: ﴿من رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان﴾ رواه مسلم ١/ ٦٩ في كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (ح٤٩). وقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن».

رواه البخاري ٥/ ١١٩ في كتاب المظالم، باب النُّهبىٰ بغير إذن صاحبه (ح٢٤٧٥).

ومسلم ١/ ٧٦ في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي (ح٥٧).

وقوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً».

رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٢٥٠، والترمذي ٣/ ٤٥٧ في كتاب الرضاع، باب (ما جاء في حق المرأة علىٰ زوجها) ح(١١٦٢) وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني. انظر الصحيحة ١/ ١٦٧ (ح٢٨٤).

(١) في ش: «عليه».

(٢) في ط والجميع زيادة: «عليها».

وبرهان من براهين صدق الرسل ، وصحة ما جاءوا به. فإن الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم وبواطنهم في معاشهم ومعادهم ، ونهوهم عما فيه فساد ظواهرهم وبواطنهم في المعاش والمعاد ، وأخبروهم عن الله سبحانه أنه يحب كذا وكذا [ويثبت عليه كذا وكذا](١) وأنه يبغض كيت وكيت ، ويعاقب عليه بكيت وكيت ، وأنه إذا أطيع بما أمر به ؛ شكر عليه بالإمداد والزيادة والنعم ، في القلوب والأبدان والأموال. ووجد العبد زيادته وقوته في حاله كلها، وأنه إذا خُولف أمره ونهيه، ترتب عليه من النقص ، والفساد ، والضعف ، والذل ، والمهانة ، والحقارة ، وضيق العيش ، وتنكد الحياة ما ترتب ، كما قال تعالىٰ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل : ٩٧] وقال : ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ [النحل : ٣٠] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾ [هود : ٣] وقال تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه : ١٢٤] ، وفسرت المعيشة الضنك : بعذاب القبر(٢). والصحيح : أنها في الدنيا ، وفي البرزخ. فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله ، فله من(٣) ضيق الصدر ، ونكد

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من غ ، ح١ ، ب ، أ.

(٢) انظر : تفسير الطبري ٨/ ٤٧١-٤٧٢ ، تفسير القرطبي ١١/ ٢٥٩.

(٣) « من » ساقطة من غ.

العيش، وكثرة الخوف، وشدة الحرص والتعب على الدنيا، والتحسُّر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام -التي في خلال ذلك- ما لا يشعر به القلب، لسكرته، وانغماسه في المسكر[١]. فهو لا يصحو ساعة إلا[٢] شعر بهذا الألم، فبادر إلى إزالته بسكر ثان. فهو هكذا[٣] مدة حياته. وأي معيشة[٤] أضيق من هذه[٥] لو كان للقلب شعور؟

فقلوب أهل البدع والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي؛ في جحيم قبل الجحيم[٦]، وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] هذا في دورهم الثلاث ليس مختصاً بالدار الآخرة، وإن كان تمامه وكماله وظهوره لهما[٧] إنما هو [في][٨] الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك[٩] قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]، وقال تعالى:

---

(١) في ط والجميع سوى ش: «السكر».

(٢) في ط والجميع زيادة: «أحس وشعر».

(٣) في غ: «كذا».

(٤) في ط، ق، ب، م، ح١، أ: «عيشة» وفي غ: «عيش».

(٥) في ب: «هذا».

(٦) في ط: «الأكبر».

(٧) «لهما» ساقطة من ط والجميع سوى ش.

(٨) «في» ساقطة من الأصل وما أثبته من الجميع والسياق: «يقتضيه».

(٩) في ق زيادة: «كما».

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٧١ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل : ٧١ ، ٧٢].

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ ؛ ولكن يمنع من(١) الإحساس به ؛ الاستغراق في سكرة الشهوات ، وطرح ذلك عن القلب ، وعدم التفكير فيه.

والعبد قد يصيبه ألم حسي فيطرحه عن قلبه ، ويقطع(٢) التفاته عنه ، ويجعل إقباله علىٰ غيره ، لئلا يشعر به جملة. فلو زال عنه ذلك الالتفات ، لصاح من شدة الألم. فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟!

وقد جعل الله تعالىٰ للحسنات والطاعات آثاراً محبوبة لذيذة طيبة. لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة ، لا نسبة لها إليها(٣) ، وجعل للسيئات والمعاصي آلاماً وآثاراً مكروهة ، وحزازات(٤) تَربىٰ علىٰ لذة تناولها بأضعاف مضاعفة. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : «إن للحسنة نوراً في القلب ، وضياءً في الوجه ، وقوة في البدن ، وزيادة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سواداً في الوجه ، وظلمة في القلب ، ووهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضةً في قلوب الخلق»(٥) وهذا يعرفه صاحب البصيرة ،

---

(١) «من» ساقطة من ح٢ ، م.

(٢) في ق : «ويطرح».

(٣) في أ ، ب زيادة : «وقد».

(٤) في ش : «وحزازاً».

(٥) ذكره شيخ الإسلام في مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٦٣٠. وروىٰ نحوه أبو نعيم عن أنس. انظر : حلية الأولياء ٢/ ١٦٠ ، ١٦١.

ويشهده من نفسه ومن غيره.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر. قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله[1]. ولهذا قال ﴿ما أصابك﴾ ولم يقل: ما أصبت.

فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة فبسبب[2] الذنوب، ومخالفة أوامر الرب تعالىٰ، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال؛ أمر مشهود في العالم لا ينكره ذو عقل سليم؛ بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وشهود العبد[3] هذا في نفسه وفي غيره، وتأمله ومطالعته؛ مما يقوّي إيمانه بما جاءت به الرسل، وبالثواب والعقاب. فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم، ومثوبات وعقوبات عاجلة، دالة علىٰ ما هو أعظم منها لمن كانت له بصيرة. كما قال لي[4] بعض الناس:

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٤/ ١٧٨-١٧٩، وتفسير البغوي ١/ ٤٥٤.

(٢) في ط: «فسببه».

(٣) «العبد» ساقطة من م.

(٤) «لي» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش.

إذا صدر مني ذنب ولم أبادره ، ولم أتداركه بالتوبة : انتظرت أثره السيء. فإذا أصابني - أو فوقه أو دونه - كما حسبت. يكون هجيراي [أشهد أن لا إله إلا الله][١] وأشهد أن محمداً رسول الله ، ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته. فإن الصادق متىٰ أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا. فجعلت كلما [٢] فعلت شيئاً من ذلك حصل لك ما قال من المكروه ، لم [٣] تزدد إلا علماً بصدقه وبصيرة فيه. وليس هذا [٤] لكل أحد ؛ بل أكثر الناس ترين[٥] الذنوب علىٰ قلبه. فلا يشهد شيئاً من ذلك ، ولا يشعر به البتة.

وإنما يكون هذا لقلب [٦] فيه نور الإيمان ، وأهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه [٧]. فهو يشاهد هذا وهذا ، ويرىٰ حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح ، فيرىٰ نفسه كراكب البحر عند هيجان الريح[٨] ، وتقلب

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من غ ، ح١ ، أ ، ب ، د ، ق.

(٢) في غ : « كما ».

(٣) في ح٢ : « ولم ».

(٤) في ش زيادة : « كله ».

(٥) الرَّيْنُ : قال ابن فارس : « الراء والياء والنون أصل يدل علىٰ غطاء وستر ، والرين : الطبع والدنس. يقال : ران علىٰ قلبه ذنبُه يرين ريناً أي : «غلب ».

انظر : معجم مقاييس اللغة ١/ ٥٠٣ ، والصحاح ٥/ ٢١٢٩ مادة : رين.

(٦) في الجميع سوىٰ ش : « القلب ».

(٧) في أ ، ب : « عليه ».

(٨) في ط والجميع : « الرياح ».

السفينة وتكفئها ؛ ولا سيما إذا انكسرت به ، وبقي على لوح تلعب به الرياح. فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب ، إذا أريد به الخير ، وإن أريد به غير ذلك فقلبه في وادٍ آخر.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد ؛ انتفع بمطالعة تاريخ العالم ، وأحوال الأمم ، ومجريات[1] الخلق ؛ بل انتفع بما جريات[2] أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس، وفهم حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد : ٣٣] وقوله : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[3]﴾[آل عمران : ١٨] ، فكل ما تراه في الوجود من شر وألم ، وعقوبة ، وجدب وخوف[4] ، ونقص - في نفسك وفي غيرك - فهو من قيام الرب تعالى بالقسط ، وهو عدل الله وقسطه ، وإن أجراه على يد[5] ظالم. فالمُسلِط له أعدل العادلين ، كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا[6]﴾[الإسراء : ٥].

---

(١) في د : « وما جرايات ».

(٢) في د : « بما جرايات ».

(٣) « العزيز الحكيم » ساقطة من ح٢ ، د.

(٤) « وخوف » ساقطة من ط ، غ ، ب ، أ ، ح١.

(٥) في م ، د : « يدي ».

(٦) ﴿ وكان وعداً مفعولاً ﴾ ساقطة من ط والجميع سوى ش.

فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات. فإن تداركها من سَقْي بالأدوية المقاومة لها وإلا قهرت القوةَ الإيمانية ، وكان الهلاك. كما قال بعض السلف «المعاصي بريد الكفر ، كما أن الحمىٰ بريد الموت»(١).

فشهود العبد نقصَ حاله إذا عصىٰ ربه ، وتَغَيُّرَ(٢) القلوب عليه ، وجفولَها(٣) منه(٤) ، وانسداد الأبواب في وجهه ، وتوعُّرَ المسالك عليه ، وهوانه علىٰ أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه ، وتطلّب(٥) سبب(٦) ذلك حتىٰ يعلم من أين أُتي؟ ووقوعه(٧) علىٰ السبب الموجب لذلك ؛ مما يقوي إيمانه. فإن أقلع وباشر الأسباب التي تفضي به إلىٰ ضد هذه الحال ، رأىٰ العز بعد الذل ، والغنىٰ بعد الفقر ، والسرور بعد الحزن ، والأمن بعد الخوف ، والقوة في قلبه - بعد ضعفه ووهنه - ازداد إيماناً مع إيمانه(٨). فتقوىٰ شواهد الإيمان في قلبه،

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٢٩ عن أبي حفص عمرو النيسابوري.

(٢) في ح١ : تغيرت.

(٣) جفولها : شرودُها ونفورها منه. انظر : المعجم ١٢٧ مادة : جفل.

(٤) « منه » ساقطة من م.

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش ، غ : « تطلبه ».

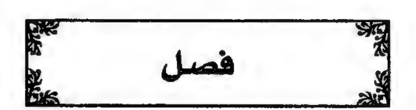
(٦) « سبب » ساقطة من ط.

(٧) في الأصل « وقوعه » وما أثبته من ط والجميع والسياق يقتضيه.

(٨) كما في الحديث : «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، وإن زاد زادت حتىٰ يعلو قلبه ذاك الرين الذي ذكر الله عز وجل في القرآن الكريم: ﴿كلا بل ران علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ [المطففين : ١٤] ».

وبراهينه وأدلته في حال معصيته وطاعته. فهذا من الذين [قال الله فيهم][1] : ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الزمر : ٣٥].

وصاحب هذا المشهد متىٰ تَبَصَّر فيه ، وأعطاه حقَّه ، صار من أطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها. فنفعه الله في نفسه ، ونفع به من شاء من خلقه[2].



فصل

مشهد الرحمة

المشهد العاشر : مشهد الرحمة. فإن العبد إذا وقع في الذنب خرج من قلبه تلك[3] الغلظة والقسوة، والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمن صدر منه ذنب، حتىٰ لو قدر عليه لأهلكه ، وربما دعا الله عليه[4] أن يهلكه ويأخذه ، غضباً منه لله[5] ، وحرصاً علىٰ أن لا يُعصىٰ ، فلا يجد في قلبه رحمة للمذنبين

رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٢٩٧. والترمذي ٥/ ٤٣٤ في كتاب التفسير ، باب ومن سورة ويل للمطففين (ح٣٣٣٤) وقال : هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه ٢/ ١٤١٨ في كتاب الزهد ، باب ذكر الذنوب (ح٤٢٤٤). والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٦٢ في كتاب التفسير (ح٣٩٠٨) وقال : حديث علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ١٤٦ (ح٣٤٢٢) : حسن.

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل ، ش ، وما أثبته من ط وباقي النسخ.

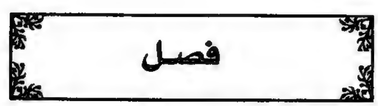
(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : « والله أعلم ».

(٣) « تلك » ساقطة من غ.

(٤) « عليه » ساقطة من أ.

(٥) « لله » ساقطة من ق.

الخطّائين[1] ، ولا يراهم إلا بِعَينِ الاحتقار والازدراء ، ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم ، والعيب لهم والذم. فإذا جرت عليه المقادير وخُلّي ونفسه استغاث بالله[2] والتجأ إليه ، وتململ بين يديه تململ السليم[3] ودعاه[4] دعاء المضطر. فتبدلت تلك الغلظة علىٰ المذنبين رقة[5] ، وتلك القساوة علىٰ الخطائين[6] رحمة[7] ، مع قيامه بحدود الله. وتَبَدّل دعاؤه عليهم دعاءً لهم ، وجعل لهم وظيفة من عمره ، يسأل الله فيها[8] أن يغفر لهم فما أنفعه له من مشهد! وما أعظم جدواه عليه[9].



فصل

مشهد العجز والضعف

فيورثه ذلك: المشهد الحادي عشر، وهو مشهد العجز والضعف، وأنه[10]

---

(١) في « ط » : الخاطئين ».

(٢) في ط : « الله ».

(٣) السليم : الملدوغ أو الجريح الذي أشرف علىٰ الهلاك ، ويوصف بالسليم تفاؤلاً بشفائه.
انظر: لسان العرب ٦/ ٣٤٤ - ٣٤٥ مادة : « سلم ».

(٤) في غ : « دعا ».

(٥) في ق : « رأفة ».

(٦) في ط : « الخاطئين ».

(٧) في ط ، ق ، ح١ ، د ، م ، أ ، ب زيادة : « وليناً ».

(٨) « فيها » ساقطة من ط وفي غ : « فيه ».

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : « والله أعلم ».

(١٠) « أنه » ساقطة من غ.

أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضعف[١] ، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه. فيشهد قلبه كريشةٍ ملقاة بأرض فلاة[٢] تُسيِّرها[٣] الرياح ، يميناً وشمالاً. ويشهد نفسه كراكب سفينة في البحر تَهِيج بها الرياح ، وتتلاعب بها الأمواج ، ترفعها تارة ، وتخفضها[٤] أخرىٰ ، تجري عليه أحكام القدر. وهو كالآلة طريحاً بين يدي وليه ، ملقىٰ ببابه ، واضعاً خده علىٰ ثرىٰ أعتابه ، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم ، وآثارهما ومقتضياتهما. فالهلاك أدنىٰ إليه من شراك نعله ، كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع ، لا يردهم[٥] عنها إلا الراعي ، فلو تخلّىٰ عنها طرفة عين لتقاسموها[٦] أعضاءً.

وهكذا حال العبد ملقىٰ بين[٧] الله وبين أعدائه، من شياطين الإنس والجن، فإن حماه منهم وكفّهم عنه ، لم يجدوا إليه سبيلاً ، وإن تخلّىٰ عنه ، ووكله إلىٰ نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم ؛ بل هو نصيب من ظفر به منهم.

وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقاً ، ويعرف ربه. وهذا أحد التأويلات

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : « وأضعفه ».

(٢) في ح٢ ، م زيادة : « فهي ».

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : « تُقلِّبها ».

(٤) في ط ، ق ، ب ، أ ، غ ، ح١ زيادة : « تارة ».

(٥) في ط : « لا يردها ».

(٦) في ق : « لقاسموها ».

(٧) في ح١ زيادة : « يدي ».

للكلام المشهور : « من عرف نفسه عرف ربه »[١] وليس[٢] حديثاً عن رسول الله ﷺ[٣] وإنما[٤] هو أثر إسرائيلي بغير هذا اللفظ أيضاً : « يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك » وفيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن[٥] من عرف نفسه بالضعف ، عرف ربه بالقوة. ومن عرفها بالعجز ، عرف ربه بالقدرة. ومن عرفها بالذل ، عرف ربه بالعز. ومن عرفها بالجهل، عرف ربه بالعلم. فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق، والحمد[٦] والثناء، والمجد والغنىٰ. والعبد فقير ناقص محتاج ، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه ؛ ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله[٧].

التأويل الثاني: أن من نظر إلىٰ نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة

---

(١) قال شيخ الإسلام : « ومن الأقوال المشهورة عند الناس : من عرف نفسه عرف ربه». انظر : درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٤٧.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : « هذا ».

(٣) قال العجلوني : وقال النووي ليس بثابت ، وقال أبو المظفر بن السمعاني في القواطع : إنه لا يُعرف مرفوعاً ، وإنما يحكي عن يحيىٰ بن معاذ الرازي ، يعني من قوله. . . .

وللحافظ السيوطي مؤلف لطيف سماه «القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه». انظر : كشف الخفا ومزيل الإلباس ٢/ ٣٤٣.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : إنما.

(٥) في ق : « أنه ».

(٦) « والحمد » ساقطة من ب.

(٧) انظر : الفتاوىٰ ٩/ ٢٩٧.

والإرادة والكلام والمشيئة والحياة، عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولىٰ به. فمعطي الكمال أحق بالكمال. فكيف يكون العبد حياً متكلماً سميعاً بصيراً مريداً عالماً، يفعل باختياره، ومن خلقه وأوجده لا يكون أولىٰ بذلك منه؟ فهذا من أعظم المحال. بل من جعل العبد متكلماً أولىٰ أن يكون هو متكلماً، ومن جعله حياً عليماً سميعاً بصيراً فاعلاً قادراً، أولىٰ أن يكون كذلك.

فالتأويل الأول من باب الضد، وهذا من باب الأولوية.

والتأويل الثالث: أن هذا من باب النفي. أي كما أنك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك، ولا تعرف [1]حقيقتها، ولاماهيتها ولا كيفيتها. فكيف تعرف حقيقة[2] ربك وكيفية صفاته[3].

والمقصود أن في[4] هذا المشهد يَعْرِفُ العبد أنه عاجز ضعيف، فتزول عنه رعونات[5] الدعاوىٰ، والإضافات إلىٰ نفسه، ويعلم أنه ليس له من الأمر شيء [وليس بيده شيء][6]، إن[7] هو إلا محض القهر والعجز والضعف.

---

(١) في ط والجميع: «فلا».

(٢) «حقيقة» ساقطة من ط.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٤٧، ٤٨.

(٤) «في» ساقطة من ط، غ.

(٥) الرعونة: الحمق والاسترخاء، والأرعن: الأهوج. انظر: لسان العرب ٥/ ٢٥٠ مادة رعن.

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من ط.

(٧) في ش: «إنما».

فصل

مشهد الذل والانكسار لله

فحينئذ يطلع منه على[1] المشهد الثاني عشر، وهو مشهد الذل، والانكسار، والخضوع، والافتقار للرب جل جلاله. فيشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة، ضرورة تامة ، وافتقاراً تاماً إلىٰ ربه وليه ، ومن بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته. وهذه الحال[2] التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها ، وإنما تدرك بالحصول. فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شيء. بحيث يرىٰ نفسه كالإناء المرضوض[3] تحت الأرجل ، الذي لا شيء فيه ، ولا به ولا منه ، ولا فيه منفعة ، ولا يرغب في مثله. وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيّمه. فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير ، ويرىٰ أنه لا يستحق منه قليلاً ولا كثيراً[4]. فأي خير ناله من الله تعالىٰ استكثره علىٰ نفسه. وعلم أن قدره دونه، وأن رحمة ربه[5] اقتضت ذكره به ، وسياقته[6] إليه. واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه ، ورآها[7] - ولو ساوت

---

(١) « منه » ساقطة من د.

(٢) في ح٢ : « الحالة ».

(٣) المرضوض : الرضُّ الدقُّ ، دون تنعيم وكل شيء رضضته فقد كسرته. انظر : مختار الصحاح ١٠٣ ، والمعجم الوسيط ٣٥٠ مادة : رضض.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : « لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً ».

(٥) في ط زيادة : « هي التي ».

(٦) في ش : « وساقته ».

(٧) في ح٢ ، م زيادة : « قليلة ».

طاعات[١] الثقلين - من أقل ما ينبغي لربه عليه، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه. فإن الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كلَّه.

فما أقرب الخير[٢] من هذا القلب المكسور! وما أدنىٰ النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه. وذرة من هذا ونَفَس منه أحبُّ إلىٰ الله من طاعات أمثال الجبال من المدِلّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم. وأحب القلوب إلىٰ الله تعالىٰ، قلبٌ قد تمكنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذِّلة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه تعالىٰ. لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلاً من الله تعالىٰ.

قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلىٰ يوم اللقاء. فهذا[٣] سجود القلب.

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه. وإذا[٤] سجد القلب لله -هذه السجدة العظمىٰ- سجدت معه جميع الجوارح، وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم، وخشع الصوت والجوارح كلها، وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده علىٰ عتبة العبودية، ناظراً بقلبه إلىٰ ربه ووليه نظر الذليل إلىٰ العزيز الرحيم. فلا يُرىٰ إلا متملقاً لربه، خاضعاً له، ذليلاً

---

(١) في ش: «طاعة».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: «الجبر».

(٣) في أ، ح٢، م «هذا».

(٤) في ش: «فإذا».

مستكيناً[1] مستعطفاً له ، يسأله عطفَه ورحمتهَ. فهو يترضّىٰ[2] ربه كما يترضىٰ المحبُّ الكاملُ المحبةِ محبوبَه المالك له. الذي لا غنىٰ له عنه ، ولا بد له منه. فليس له همّ غير استرضائه واستعطافه ؛ لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا في قربه[3] ورضاه عنه[4] ، يقول: كيف أُغضب مَنْ حياتي في رضاه، وكيف أعدل عمّنْ[5] سعادتي وفلاحي وفوزي ، في قربه وحبه وذكره؟

وصاحب هذا المشهد : يشهد نفسه كرجل كان[6] في كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس ، ويُزيِّنه أحسن الزينة[7] ، ويُرَقِّيه[8] درجات الكمال أتم ترقية[9]. وهو القَيِّم بمصالحه كلها فبعثه أبوه في حاجة له[10]. فخرج عليه في طريقه[11] عدو ، فأسره وكتفه وشده[12] وثاقاً ، ثم ذهب به إلىٰ بلاد

---

(١) « مستكيناً » ساقطة من ط ، غ ، د ، ح١ ، أ ، ب ، ق.

(٢) في غ : « يرتضي ».

(٣) في ش زيادة : « منه ».

(٤) في ط والجميع زيادة : « ومحبته له ».

(٥) في غ : « عن ».

(٦) « كان » ساقطة من ش.

(٧) في ط والجميع : « ويربيه أحسن تربية ».

(٨) في ط : « علىٰ ».

(٩) في أ : « رقية ».

(١٠) « له » ساقطة من ق.

(١١) في ش : « الطريق ».

(١٢) في ش : « وشدّ ».

الأعداء فسامه سوء[١] العذاب، وعامله بضد ما كان[٢] أبوه يعامله به. فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفينة بعد الفينة[٣]. فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأىٰ حاله، وتذكر[٤] ما كان فيه[٥][٦] فبينا[٧] هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب، ويريد نحره في آخر الأمر، إذْ حانت منه التفاتة إلىٰ نحو ديار أبيه فرأىٰ أباه منه[٨] قريباً، فسعىٰ إليه، وألقىٰ نفسه عليه[٩]، يستغيث: يا أبتاه، يا أبتاه[١٠] انظر إلىٰ ولدك وما هو فيه، ودموعه تستبق[١١] علىٰ خدّيه، قد اعتنقه والتزمه. وعدوه في طلبه، حتىٰ وقف علىٰ رأسه، وهو ملتزم لوالده ممسك له[١٢]. فهل تقول: إن والده يسلمه مع هذه الحال إلىٰ عدوه، ويخلي بينه وبينه؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده[١٣]، والوالدة

---

(١) «سوء» ساقطة من ق.

(٢) في غ، ح١: «ما يكون».

(٣) في ش، م، ح٢: «اللفتة بعد اللفتة».

(٤) في ط: ويتذكر.

(٥) في ط والجميع: «عليه».

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «وكل ما كان فيه».

(٧) في ط: «بينما».

(٨) «منه» ساقطة من: ح٢، م.

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: وانطرح بين يديه.

(١٠) في ط، غ زيادة: يا أبتاه.

(١١) في ش: «تسبق».

(١٢) في ط: «به».

(١٣) في ط زيادة: «ومن».

بولدها[١] إذا فرَّ[٢] إليه ، وهرب من عدوه إليه ، وألقىٰ نفسه[٣] طريحاً ببابه ، يمرِّغ خدَّه في ثرىٰ أعتابه باكياً بين يديه ، يقول : يارب ، يا رب ، ارحم من لا راحم له سواك [ولا ولي له سواك][٤] ، ولا ناصر له سواك ، ولا مؤوي له سواك ، ولا مغيث له سواك. مسكينك وفقيرك وسائلك ومؤملك ومرتجيك[٥] ، لا ملجا له ولا منجا له منك إلا إليك ، أنت ملاذه ، وبك معاذه[٦].

يا مَنْ ألـوذُ به فيمـا أؤمّلُـه ... ومَـنْ أعوذُ به مما أُحـاذرُهُ
لا يجبرُ الناسُ عظْماً أنت كاسرُه ... ولا يُهيضون عظْماً أنت جابِرُه[٧]

---

(١) وفي الحديث عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : قدم علىٰ النبي ﷺ سبي ، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي ، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا النبي ﷺ : «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قلنا : لا. وهي تقدر علىٰ أن لا تطرحه. فقال : «الله أرحم بعباده من هذه بولدها» .
رواه البخاري ١٠/ ٤٢٦ في كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (ح٥٩٩٩).
ومسلم ٤/ ٢١٠٩ في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (ح٢٧٥٤).

(٢) في ط زيادة «عبدٌ».

(٣) في ط : «بنفسه».

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من ط والجميع سوىٰ ش.

(٥) في ط والجميع سوىٰ غ : «ومرجيك».

(٦) في ط : «أنت معاذه وبك ملاذه».

(٧) البيتان لأبي الطيب المتنبي. انظر : ديوانه المسمىٰ بالتبيان في شرح الديوان ٢/ ١٢٢ ، وقد أورد ابن القيم هذين البيتين في شفاء العليل ٢/ ٦٥٨ ناسياً أيهما للمتنبي ، ثم قال : «ولو قال ذلك في ربه وفاطره ، لكان أسعد به من مخلوق مثله» .

فإذا استبصر في هذا المشهد، تمكن [1] من قلبه. وباشره وذاق طعمه وحلاوته وترقىٰ [2] منه إلىٰ:

المشهد الثالث عشر وهو الغاية التي شمّر إليها السالكون، وأمَّها القاصدون ولَحظَ إليها العاملون وهو مشهد العبودية والمحبة، والشوق إلىٰ لقائه، والابتهاج [3]، والفرح والسرور به، فتقرُّ به عينه، ويسكن إليه قلبه. وتطمئن إليه جوارحه، ويستولي ذكره علىٰ لسان محبه وقلبه، فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية وإرادة [4] التقرب إليه [5] ومرضاته، مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات، مكان حركاتها بالمعاصي. وقد امتلأ قلبه من محبته، ولهج لسانهُ بذكره، وانقادت الجوارح لطاعته. فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يعبر عنه.

وكذلك أوردهما ابن كثير في ترجمته للمتنبي، ثم قال: وقد بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه الله - أنه كان ينكر علىٰ المتنبي هذه المبالغة في مخلوق ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله سبحانه وتعالىٰ، ثم قال: وأخبرني العلامة شمس الدين ابن القيم - رحمه الله - أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع. انظر: البداية والنهاية ١١/ ٢٧٥.

(١) في ط، وق: «وتمكن».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش، د: «ترقىٰ».

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «به».

(٤) في ط: «وإرادات».

(٥) في ط والجميع زيادة: و«إلىٰ».

ويُحكىٰ عن بعض العارفين [1] ، قال : دخلت علىٰ الله من أبواب الطاعات كلها ، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام. فلم أتمكن من الدخول ، حتىٰ جئت باب الذل والافتقار ، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه. ولا مزاحم فيه ولا معوق [فما هو][2] إلا أن وضعت قدمي في عتبته ، فإذا هو قد أخذ بيدي وأدخلني عليه.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية.

وقال بعض العارفين : لا طريق أقرب إلىٰ الله[3] من العبودية ، ولا حجاب أغلظ من الدعوىٰ. ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عمل واجتهاد ، ولا يضر مع الذل والافتقار بطالة [4]. يعني بعد فعل الفرائض.

والقصد : أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله علىٰ الله ، وترميه علىٰ طريق المحبة. فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق. وإن كانت[5] طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة ، ولكن الذي يفتح[6] منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ، ورؤيتها

---

(١) في ط زيادة : «أنه».

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وما أثبته من ط والجميع.

(٣) في ش : «لا طريق إلىٰ الله أقرب».

(٤) عزاه في صفة الصفوة إلىٰ سهل بن عبدالله ٤/ ٦٥.

(٥) في ط : «كان».

(٦) في ب زيادة : «له».

بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم ، بحيث يشاهدها ضَيْعَةً وعجزاً ، وتفريطاً وذنباً وخطيئةً ، نوع آخر وفتح آخر. والسالك بهذا [١] الطريق غريب في الناس ، هم [٢] في واد وهو في واد ، وهي تسمىٰ طريقة [٣] الطير ، يسبق النائمُ فيها علىٰ فراشه السعاة. فيصبح وقد قطع [٤] الركب. بينا هو يحدثك [٥] وإذا به قد سبق الطرف وفات السعاة. فالله المستعان ، وهو خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله [٦] ، وفرحه بتوبة عبده. فإنه سبحانه يحب التوابين ، ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله.

فكلما طالع العبد مننه [٧] سبحانه [٨] قبل الذنب ، وفي حال مواقعة الذنب وبعد الذنب [٩] وبره به [١٠] وحلمه عنه ، وإحسانه إليه ، هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلىٰ لقائه. فإن القلوب مجبولة علىٰ حب من أحسن إليها ،

---

(١) في ط : «بهذه».

(٢) في ط : «وهم».

(٣) في ط والجميع : «طريق».

(٤) في ط زيادة : «الطريق وسبق».

(٥) في ح٢ : «يحادثك».

(٦) في ط والجميع زيادة : «له».

(٧) في ط : «منن ربه».

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : «عليه».

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش : «مواقعته وبعده».

(١٠) «به» ساقطة من ق.

وأي إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي ؛ وهو يمده بنعمه ، ويعامله بألطافه ، ويسبل عليه ستره ، ويحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له أدنىٰ عثرة ، ينالون منه بها بغيتهم ، ويردهم عنه ، ويحول بينهم وبينه؟ وهو في ذلك كله بِعَيْنِه ، يراه ويطلع عليه. فالسماء تستأذن ربها أن تحصبه ، والأرض تستأذنه أن تخسف به ، والبحر يستأذنه أن يغرقه ، كما في مسند الإمام أحمد رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه : أن يغرق ابن آدم. والملائكة تستأذنه : أن تعاجله وتهلكه. والرب تعالىٰ يقول : دعوا عبدي. فأنا أعلم به ، إذ أنشأته من الأرض. إن كان عبدكم فشأنكم به ، وإن كان عبدي فمني وإليّ. عبدي وعزتي وجلالي إن أتاني ليلاً قبلته. وإن أتاني نهاراً قبلته ، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً. وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً. وإن مشىٰ إليّ هرولت إليه ، وإن استغفرني غفرت له ، وإن استقالني أقلته ، وإن تاب إليّ تبت عليه. من أعظم مني جوداً وكرماً ، وأنا الجواد الكريم؟ عبيدي يبيتون يبارزونني بالعظائم ، وأنا أكلؤهم في مضاجعهم ، وأحرسهم علىٰ فرشهم. من أقبل إليّ تلقيته من بعيد ، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد ، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد ، ومن أراد مرادي أردت ما يريد. أهل ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيادتي. وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي. إن تابوا إليّ فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب ، لأطهرهم من المعايب»[1].

---

(١) لم أعثر علىٰ هذ الحديث بهذا الطول ولا بهذا اللفظ عند الإمام أحمد ، وإنما ورد مختصراً

ولنقتصر علىٰ هذا القدر من ذكر «التوبة» وأحكامها وثمراتها. فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفرط الحاجة والضرورة إلىٰ معرفتها، ومعرفة أحكامها، وتفاصيلها ومسائلها. والله الموفق لمراعاة ذلك[1]، والقيام به عملاً وحالاً، كما وفق له علماً ومعرفة فما خاب من توكل عليه، ولاذ به ولجأ إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

بلفظ: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات علىٰ الأرض يستأذن الله في أن ينفضخ عليهم فيكفه الله عز وجل». انظر: المسند ١/ ٤٣. ورواه ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٤٠-٤١، وقال: العوام ضعيف، والشيخ مجهول. وقال محقق المسند ١/ ٣٩٥: إسناده ضعيف لجهالة الشيخ الذي روىٰ عنه العوام بن حوشب، وأبو صالح مولىٰ عمر مجهول أيضاً. وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ١٨/ ١٩-٢٠ ناسباً إياه إلىٰ الإمام أحمد وإسحاق ابن راهويه وقال: «وفي إسناده رجل مبهم».

(١) في ش: «لرعاية ذلك».

فصل

منزلة الإنابة

فقد علمت أن من نزل في منزل التوبة وقام في مقامها، نزل في جميع منازل الإسلام، وأن[1] التوبة الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها. ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل، تبييناً لحقائقها وخواصها وشروطها.

أدلة الإنابة

فإذا استقرت قدمه في منزل[2] التوبة نزل بعده منزل الإنابة[3]، وقد أمر به[4] تعالىٰ في كتابه. وأثنىٰ علىٰ خليله به[5]، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة. فقال ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ

---

(١) في ط، ب، غ، ح١، أ: «فإن».

(٢) في غ: «منزلة».

(٣) الإنابة في اللغة: الرجوع. يقال: أناب فلان إلىٰ الشيء رجع إليه مرة بعد أخرىٰ، وأناب العبد إلىٰ الله: رجع إليه وتاب. انظر: المعجم الوسيط ٩٦١ مادة: ناب.
والإنابة عند الصوفية أقسام:
فإنابة العامة: الرجوع من المخالفة إلىٰ الموافقة فلا يجدك حيث نهاك.
أما إنابة الخاصة: فهي أن لا يختلج في قلبك إرادة شيء، لعلمك بأنه لا يقع إلا ما أراد الله وقوعه. وأما إنابة خاصة الخاصة: فهي أن لا يرىٰ معه سواه. ومن أقسامها: إنابة خلاصة خاصة الخاصة. ومنها: إنابة صفاء خلاصة خاصة الخاصة. والإنابة من نتائج المعرفة.
انظر: لطائف الأعلام ١/٢٤٨-٢٤٩، ومعجم مصطلحات الصوفية ٢٦، وطبقات الصوفية للسلمي ٥٨.

(٤) (به) ساقطة من: ق، وفي أ، ب، غ، ح١: «بها»، وفي ط: «وقد أمر الله تعالىٰ بها».

(٥) في ط، أ، ب، غ، ح١: «بها».

كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾(١) [ق : ٦-٨]

وقال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر : ١٣]، وقال تعالىٰ : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾(٢). [الروم : ٣٠، ٣١]. (منيبين)(٣) منصوب علىٰ الحال من الضمير المستكن في قوله : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأن هذا الخطاب له ولأمته. أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه(٤)، نظيره : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق : ١]، ويجوز أن يكون(٥) حالاً من المفعول في قوله : ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾، أي فطرهم منيبين إليه(٦)، فلو خُلُّوا وفطرَهم لما عدلت عن الإنابة إليه، ولكنها تحُوَّل وتُغيَّر عما فطرت عليه. كما قال ﷺ : «ما من مولود إلا يولد علىٰ هذه(٧) الملة حتىٰ يعرب

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : لم تكتب الآيات كاملة.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : لم تكتب الآيات كاملة.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش، ط : فمنيبين.

(٤) انظر : إعراب القرآن للزجاج ٤/ ١٨٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٧٢، وتفسير القرطبي ١٤/ ٣٢.

(٥) في ش : «الأمر».

(٦) «إليه» ساقطة من أ.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : «علىٰ الفطرة» وفي رواية : «علىٰ الملة».

عنه لسانه»(١) وقال عن نبيه داود - عليه السلام - : ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾ [ص : ٢٤] ، وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة. فقال : ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [ق : ٣١ - ٣٤] ، وأخبر سبحانه أن البشرىٰ منه إنما هي لأهل الإنابة. فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر : ١٧].

و«الإنابة» إنابتان :

أقسام الإنابة

إنابة لربوبيته ، وهي إنابة المخلوقات كلها. يشترك فيها المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم : ٣٣]. فهذا عام في حق(٢) كل داع أصابه ضر. كما هو الواقع. وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام ؛ بل تجامع الشرك والكفر. كما قال تعالىٰ في حق هؤلاء(٣) : ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم : ٣٣ ، ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية : إنابة أوليائه ، وهي إنابة لإلهيته(٤) ، إنابة عبودية و محبة.

---

(١) رواه البخاري ٣/ ٢١٩ في كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي هل يصلىٰ عليه (ح٢٦٥٨).
ومسلم ٤/ ٢٠٤٧ في كتاب القدر ، باب معنىٰ كل مولود يولد علىٰ الفطرة (ح٢٦٥٨).
وأحمد في مسنده ٢/ ٣١٥ ، ٣٤٦.

(٢) «حق» ساقطة من أ.

(٣) في ش : «حق ثمود».

(٤) في ح٢ ، م ، غ : «الإلهية».

وهي تتضمن أربعة أمور : محبته ، والخضوع له ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة [1] ، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور [2] علىٰ ذلك [3].

وفي اللفظة معنىٰ الإسراع والرجوع والتقدم ، فـ« المنيب »[4] إلىٰ الله : المسرع إلىٰ مرضاته ، الراجع إليه كل وقت ، المتقدم إلىٰ محابه.

قال صاحب المنازل :

«الإنَابَةُ [في اللغة : الرّجُوعُ ، وَهِي هَاهُنَا الرُّجُوعُ إلىٰ الحقِّ.

و][5] هيَ ثَلاَثَةُ أَشْيَاءَ [6] : الرّجُوعُ إلىٰ الحَقِّ إصْلاحاً ، كَمَا رَجَعَ إلَيْهِ اعْتذَاراً. والرّجُوعُ إلَيهِ وَفَاءً ، كَمَا رَجَعَ إلَيهِ عَهْداً ، والرُّجُوعُ إلَيهِ حَالاً ، كَمَا رَجَع [7] إلَيهِ إجَابَةً»[8].

لما كان التائب قد رجع إلىٰ الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته ، كان من تتمة ذلك ، رجوعه إليه بالاجتهاد ، والنصح في طاعاته [9] كما قال تعالىٰ :

---

(١) في ط ، غ : «الأربع».

(٢) في ش : «تدور».

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٠/ ٦٢٤ - ٦٢٥.

(٤) في ط : «والمنيب».

(٥) ما بين المعقوفين ليس في المنازل.

(٦) في ش : «أقسام».

(٧) في ط : «رجعت».

(٨) انظر : منازل السائرين ١٢.

(٩) في ط ، ب ، أ ، غ ، د ، ح١ : «طاعته».

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان : ٧٠]، وقال : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ﴾ [البقرة : ١٦٠] فلا تنفع توبة وبطالة، فلا بد من توبة وعمل صالح؛ ترك لما يكره، وفعل لما يحب، تخل[1] عن معصيته. وتحل[2] بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك فرجعت إليه بالدخول تحت عهده[3] أولاً[4]. فعليك الرجوع[5] بالوفاء بما عاهدته[6] عليه ثانياً. والدين كله، عهد ووفاء. فإن الله أخذ عهده علىٰ جميع المكلفين بطاعته. فأخذ عهده علىٰ أنبيائه ورسله علىٰ لسان ملائكته أو منه إلىٰ الرسول بلا واسطة كما كلم موسىٰ، وأخذ عهده علىٰ الأمم بواسطة الرسل، وأخذ عهده علىٰ الجهال بواسطة العلماء، فأخذ عهده علىٰ هؤلاء بالتعليم[7]، وعلىٰ هؤلاء بالتعلم[8]. ومدح الموفِين بعهده، وأخبرهم[9] بما لهم عنده من

---

(١) في غ : «وتخل».

(٢) في د، م، أ، غ، ب، ح١، ق : «تحلٍّ».

(٣) «عهده» ساقطة من ق.

(٤) كما قال تعالىٰ : ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم علىٰ أنفسهم ألست بربكم قالوا بلىٰ شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ [الأعراف : ١٧٢].

(٥) في ط والجميع : «بالرجوع».

(٦) في ح٢، م : «عاهدت».

(٧) في د : «بالتعلم».

(٨) في أ : «بالتعليم».

(٩) في ط : «وأخبر».

الأجر ، فقال : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] وقال : ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] ، وقال : ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١] وقال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ﴾ [البقرة : ١٧٧].

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة ، وعهودهم مع الخلق.

وأخبر النبي ﷺ : أن [من][1] علامات النفاق : الغدر بعد العهد[2]. فما[3] أناب إلىٰ الله من خان عهده وغدر به. كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده. فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

وقوله : «وَالرُّجُوعُ إِلَيهِ حَالاً. كَمَا رَجَعْتَ إِلَيهِ إِجَابَةً».

أي هو سبحانه قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولاً ، فلا بد من الإجابة حالاً تصدق به المقال ، فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها[4]. وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله. فكما[5] رجعت إليه[6] إجابة بالمقال ،

---

(١) «من» ساقطة من الأصل وش ، وما أثبته من ط والجميع ، والسياق يقتضيه.

(٢) كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وهو في الصحيحين ، وتقدم تخريجه ٩٤٦.

(٣) في ق : «فمن».

(٤) في ق ، ح٢ ، م ، أ : «وتكذبها».

(٥) في غ : «فلما».

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : «إلىٰ الله».

فارجع إليه إجابة بالحال. قال الحسن ـ رحمه الله ـ «ابن آدم؟ لك قول وعمل، وعملك أولىٰ بك من قولك، ولك سريرة وعلانية وسريرتك أملك بك من علانيتك»[1].

* * *

(١) رواه الإمام أحمد في الزهد ٣٤٣، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٩/ ٢٨٣.

فصل

الأشياء التي يستقيم بها الرجوع إليه إصلاحاً

قال: « وإنَّمَا يَستقيمُ الرُّجُوعُ إلَيهِ إصلاَحاً بثَلاَثَةِ أَشياءَ: بِالخُروجِ مِنَ التَّبِعَاتِ، وَالتَّوجُّعِ للعَثَراتِ، وَاستِدْرَاكِ الفَائِتَاتِ»[1].

الخروج[2] من التبعات: هو بالتوبة من الذنوب التي بين العبد وبين الله تعالىٰ، وأداء الحقوق التي عليه للخلق. والتوجع للعثرات يحتمل شيئين:

أحدهما: أن يتوجع لعثرته إذا عثر، فيتوجع قلبه وينصدع، فهذا[3] دليل علىٰ إنابته إلىٰ الله. بخلاف من لا[4] يتألم قلبه، ولا ينصدع من عثرته، فإنه دليل[5] فساد قلبه وموته.

الثاني: أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر، حتىٰ كأنه هو الذي[6] عثر بها ولا يشمت به، فهو دليل علىٰ رقة قلبه وإنابته.

واستدراك الفائتات: هو[7] استدراك[8] ما فاته من طاعة وقربة بأمثالها، أو

(١) انظر: منازل السائرين ١٣.

(٢) في ط: «والخروج».

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش: «وهذا».

(٤) في ح٢، م، د: «ولم».

(٥) في ط زيادة: «علىٰ».

(٦) «الذي» ساقطة من الجميع سوىٰ ش، ط.

(٧) في م، ح: «وهو».

(٨) في د: «استدرك».

خير منها[1] ولا سيما في بقية عمره، وعند قرب رحيله إلىٰ الله. فبقية عمر المؤمن لا قيمة لها. يستدرك بها ما فات. ويحيىٰ به ما أمات.

فصل

الأشياء التي يستقيم بها الرجوع إليه وفاءً

قال: «وَإِنَّما يَستقيمُ الرُّجُوعُ إِلَيهِ وَفَاءً[2] بِثَلاثَةِ أشياءَ: بِالخَلاَصِ مِنْ لَذَّةِ الذَّنبِ وَبِتَرْكِ الاستِهَانَةِ بِأَهْلِ الغَفْلَةِ، تَخوفاً عَلَيهِم، مَعَ الرَّجَاءِ لنفسِك، وَبِالاستِقصَاءِ فِي رُؤيَةِ عِلَّةِ الخِدمةِ»[3].

إذا صفت له الإنابة إلىٰ ربه، تخلص من الفكرة في لذة الذنب، وأعاد[4] مكانها ألماً وتوجعاً لذكره، والفكرة فيه. فما دامت لَذَّةُ الفكر[5] فيه موجودة في قلبه، فإنابته غيرُ صافية.

فإن قيل: أيَّ الحالين أعلىٰ؟ حال من يجد لذة الذنب في قلبه، فهو يجاهدها لله، ويتركها من خوفه و محبته وإجلاله، أو حال من ماتت لذة الذنب في قلبه، وصار مكانها ألماً وتوجعاً وطمأنينة إلىٰ ربه، وسكوناً إليه، والتِذاذاً بحبه، وتنعّماً بذكره؟.

---

(١) في م: «وخير منها».

(٢) في ط والجميع: «عهداً».

(٣) منازل السائرين ص١٣ لكن قال: «علل الخدمة».

(٤) في ط والجميع: «وعاد».

(٥) في ط، ب، ح١، غ، أ: «الفكرة».

قيل : حال هذا أرفع وأكمل[1] ، وغاية صاحب[2] المجاهدة : أن يجاهد نفسه حتىٰ يصل إلىٰ مقام هذا[3] ومنزلته ، ولكنه تاليه[4] في المنزلة والقرب ، ومنوط به.

فإن قيل : فأين أجر مجاهدة صاحب اللذة ، وتركه محابَّه لله ، وإيثاره رضا الله علىٰ هواه؟ وبهذا[5] كان النوع الإنساني أفضل من النوع الملكي عند أهل السنة[6] وكانوا خير البرية. والمطمئن قد استراح من[7] هذه المجاهدة وعُوفي

---

(١) في ط ، ق : أكمل وأرفع.

(٢) في ح١ ، ش : زيادة : هذه.

(٣) في م : هذه.

(٤) في ط : يتلوه.

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : ألم.

(٦) في ب ، غ ، أ ، ح١ : ولهذا.

(٧) مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر من المسائل التي تكلم فيها السلف - رحمهم الله - بل ثبت أن الصحابة - رضي الله عنهم - تكلموا فيها ، فمن ذلك ما قاله عبدالله بن سلام - رضي الله عنه - : «إن أكرم خلقه علىٰ الله أبو القاسم ﷺ فقيل له : يرحمك الله فأين الملائكة؟ فقال: يا ابن أخي هل تدري ما الملائكة؟ إنما الملائكة خلق كخلق السماء والأرض والرياح والسحاب وسائر الخلق الذي لا يعصي الله شيئاً. . . » الحديث. رواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٦١٢-٦١٣ وصححه ووافقه الذهبي.

ومن ذلك ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال : «لقد قالت الملائكة يا ربنا ، منا الملائكة المقربون ، ومنا حملة العرش ، ومنا الكرام الكاتبون ، ونحن نسبح الليل والنهار ولا نفتر ، خلقت بني آدم فجعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. فقال : لن أفعل ، ثم عادوا فاجتهدوا المسألة ، فقال : لن أفعل ، ثم عادوا فاجتهدوا المسألة بمثل ذلك ، فقال : =

= لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي ، كمن قلت له كن فكان» رواه الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في رده على المريسي ٣٧.

قال ابن كثير : «وأحسن ما يستدل به في هذه المسألة ما رواه عثمان بن سعيد الدارمي عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً وهو أصح» البداية والنهاية ١/ ٤٩. وقال الألباني عنه : «إسناده صحيح». انظر : شرح الطحاوية ٣٤٢.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «وكنت أحسب أن القول فيها محدث حتى رأيتها أثرية سلفية صحابية ، فانبعثت الهمة إلى تحقيق القول فيها» انظر : مجموع الفتاوى ٤/ ٣٥٧.

ومما تقدم يتبين ضعف ما ذهب إليه تاج الدين الفزاري حيث قال : «اعلم أن هذه المسألة من بدع علم الكلام التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة ولا من بعدهم من أعلام الأمة...». ذكر ذلك عنه ابن أبي العز في شرحه للطحاوية ٣٣٩.

ولا خلاف في أن الكفرة والمنافقين غير داخلين في المفاضلة ، فهؤلاء أضل من الأنعام كما قال تعالى : ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل . .﴾ [الأعراف : ١٧٩] ، ولا يعنى بالمفاضلة التفضيل بين حقيقة البشر وحقيقة الملائكة ، وإنما المفاضلة بين صالحي البشر والملائكة. انظر : عالم الملائكة الأبرار للأشقر ص٨٦-٨٧.

وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - تكلم في هذه المسألة وذكر في سياق عرضه لها أن المشهور عن جماعة من المنتسبين إلى السنة القول بأن الأنبياء وصالح البشر أفضل من الملائكة ، وأن المعتزلة قالوا بتفضيل الملائكة على البشر ، وأن أتباع الأشعري فيها على قولين : منهم من يرى تفضيل الأنبياء والأولياء ، ومنهم من يقف ولا يقطع بشيء ؛ بل ذكر أن بعض متأخريهم مال إلى قول المعتزلة. وبعد ذكره لأقوالهم ذكر أدلة كل قول وناقشها.

انظر : مجموع الفتاوى ٤/ ٣٤٣ - ٣٩٢.

أما ابن أبي العز الحنفي فقد ذكر أقوال الطوائف والفرق على نحو ما ذكره شيخ الإسلام ، وأضاف إليها رأي الشيعة الذين يرون تفضيل الأئمة على جميع الملائكة وقد كان متردداً في الكلام على هذه المسألة. =

منها ، فبينهما من التفاوت ما بين درجة المعافىٰ والمبتلىٰ.

قيل : النفس لها ثلاثة أحوال : الأمر بالذنب ، ثم اللوم عليه والندم منه ، ثم الطمأنينة إلىٰ ربها والإقبال بكلِّيتها عليه ، وهذه الحال أعلىٰ أحوالها. وأرفعها وهي التي يشمر إليها المجاهد ، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو

= ثم ذكر بعد ذلك أن أبا حنيفة توقف في الجواب عن هذه المسألة ، وأن الطحاوي لم يعرض لهذه المسألة بنفي ولا إثبات ، ولعله يكون قد ترك الكلام فيها قصداً ، ثم قال : وهذا هو الحق فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين ، وليس علينا أن نعتقد أي الفريقين أفضل ، فإن هذا لو كان من الواجب لبيِّن لنا نصاً. . . فالسكوت عن هذه المسألة نفياً وإثباتاً والحالة هذه أولىٰ. ولا يقال : إن هذه المسألة نظير غيرها من المسائل المستنبطة من الكتاب والسنة ؛ لأن الأدلة هنا متكافئة.

وذكر السفاريني عن الإمام أحمد - رحمه الله - أنه قال : يخطئ من فضل الملائكة ، وقال : كل مؤمن أفضل من الملائكة. انظر : لوامع الأنوار ٢/ ٣٩٩.

قلت : ولعل الصواب في هذه المسألة هو ما ذكره شيخ الإسلام حيث أنه فصل في ذلك فقال : إن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية ، والملائكة أفضل باعتبار البداية ، فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلىٰ منزهين عما يلابسه بنو آدم ، مستغرقون في عبادة الرب ، ولا ريب أن هذه الأحوال أكمل من أحوال البشر. وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير صالحوا البشر أكمل من حال الملائكة. انظر : مجموع الفتاوىٰ ٤/ ٣٤٣.

قال ابن القيم : وبهذا التفضيل يتبين سر التفضيل وتتفق أدلة الفريقين ، ويصالح كل منهم حقه. انظر : بدائع الفوائد ٣/ ١٦٣.

ولمزيد من البحث في هذه المسألة انظر : مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ٤/ ٣٤٣ وما بعدها و ١٠/ ٣٠٠-٣٠١ و ١١/ ٩٤-٩٦ ، وشرح الطحاوية ٣٣٧ وما بعدها ، ولوامع الأنوار البهية ٢/ ٣٦٨ وما بعدها.

لتشميره إلىٰ درجة الطمأنينة إلىٰ الله ، فهو بمنزلة مرتكب[١] القفار ، والمهَامِه[٢] ، والأهوال ليصل إلىٰ البيت فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به. والآخر[٣] بمنزلة من هو مشغول به طائفاً وقائماً وراكعاً وساجداً ، ليس له التفات إلىٰ غيره. فهذا مشغول بالغاية ، وذاك بالوسيلة ، وكل له أجر. ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بَوْن.

وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان ، فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه في ذات الله تعالىٰ ، وإن كان أكثر عملاً ، فقدر عمل المطمئن المنيب بجملته وكيفيته أعظم ، وإن كان هذا المجاهد أكثر عملاً[٤] ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل[٥] ، وفيهم من هو أكثر صياماً وحجاً وقراءة وصلاة منه، ولكن بأمر آخر قام بقلبه[٦] ، حتى إن أفضل الصحابة[٧] يسابقه ولا يراه إلا أمامه[٨] .

---

(١) في أ ، ب ، من ارتكب ، وفي ط : راكب.

(٢) المهَامِه : جمع مَهْمَه ، وهي المفازة البعيدة الأطراف. انظر : الصحاح ٦/ ٢٢٥٠.

(٣) في الأصل : المتأخر. وما أثبته من ط والجميع. والسياق يقتضيه.

(٤) في ح١ زيادة : «هو».

(٥) في ط : زيادة : «وقد كان».

(٦) ذكره الغزالي في الإحياء ١/ ٣٥ ، وقال العراقي فيه : أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ولم أجده مرفوعاً.

(٧) في ط : والجميع سوىٰ ش زيادة : «كان».

(٨) لعله يشير إلىٰ ما رواه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين قال : أمرنا رسول الله ﷺ

ولكن عبودية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون [1] أشق، ولا يلزم من مشقتها تفضيلها في الدرجة، فأفضل الأعمال، الإيمان بالله، والجهاد أشق منه، وهو تاليه في الدرجة [2]، ودرجة الصديقين أعلى من درجة المجاهدين والشهداء [3]. وفي مسند الإمام أحمد - رحمه الله - من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ عنده ذكر [4] الشهداء فقال: «إن أكثر شهداء أمتي لأصحاب الفُرُش، ورُبَّ قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته» [5].

يوماً أن نتصدق. فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك»؟ قلت: مثله. قال وأتى أبو بكر - رضي الله عنه - بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك»؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت لا أسابقك إلى شيء أبداً. الحديث رواه أبو داود ٢/ ٣١٢ في كتاب الزكاة باب (في الرخصة في ذلك) ح١٦٧٨، والترمذي ٥/ ٦١٤ في كتاب المناقب باب (في مناقب أبي بكر وعمر) ح٣٦٧٥ قال: هذا حديث حسن صحيح. والحاكم في المستدرك ١/ ٥٧٤ في كتاب الزكاة ح١٥١٠ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال الألباني: حسن. انظر: صحيح أبي داود ١/ ٣١٥ ح١٤٧٢.

(١) في ب، غ، م، ح١، أ: «يكون».

(٢) يدل لذلك ما رواه أبوهريرة أن رسول الله ﷺ سُئل: أي العمل أفضل. قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور» رواه البخاري ١/ ٧٧ في كتاب الإيمان باب (من قال إن الإيمان هو العمل) ح٢٦.

(٣) كما قال تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ [النساء: ٦٩].

(٤) (عنده) ساقطة من: ط.

(٥) رواه أحمد في مسنده ١/ ٣٩٧.

فصل

من علامات الإنابـة

ومن علامات الإنابة : ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك[١] باب الرجاء لنفسك ، فترجو لنفسك الرحمة ، وتخشىٰ علىٰ أهل الغفلة النقمة[٢] ؛ ولكن ارج لهم الرحمة واخش علىٰ نفسك النقمة. فإن كنت لابد مستهيناً بهم[٣] ماقتاً لهم ، لانكشاف أحوالهم لك ، ورؤية ما هم عليه ، فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم ، وكن لهم أرجىٰ[٤] لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف : لن تفقه كل الفقه حتىٰ تمقت الخلق[٥] في ذات الله ، ثم تقبل[٦] علىٰ[٧] نفسك فتكون لها أشد مقتاً[٨].

قال الهيثمي في المجمع ٥/ ٣٠٢ رواه أحمد هكذا ولم أره ذكره ابن مسعود ، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف ، والظاهر أنه مرسل ورجاله ثقات ، وقال ابن حجر في الفتح ١٠/ ١٩٤ : الضمير في قوله : «إنه» لابن مسعود فإن أحمد خرجه في مسند ابن مسعود ورجال سنده موثوقون. وقال الألباني : ضعيف. انظر : ضعيف الجامع ٢/ ٣٤.

(١) في ح ا : «فتح».

(٢) «النقمة» ساقطة من : م.

(٣) في ح٢ ، م : «لهم».

(٤) في ط : «وكن أرجىٰ لهم».

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : «الناس» .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : «ترجع».

(٧) في ط : «إلىٰ».

(٨) رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢١١ عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

وهذا الكلام لا يَعلمُ[١] معناه إلا الفقيهُ في دين الله تعالىٰ. فإن من[٢] شهد حقيقة الخلق، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم؛ بل تفريطهم، وإضاعتهم لحق الله، وإقبالهم[٣] علىٰ غيره، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن- من هذا العاجل الفاني- لم يجد بدّاً من مقتهم، ولم[٤] يمكنه غير ذلك البتة، ولكن إذا رجع إلىٰ نفسه وحاله وتقصيره، وكان علىٰ بصيرة من ذلك، كان لنفسه أشد مقتاً واستهانة. فهذا هو الفقيه.

وأما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة، فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس. ولعل أكثرها - أو كلها - أن تكون حظاً لنفسك وأنت لا تشعر.

فلا إله إلا الله، كم في النفوس من علل وأغراض، وحظوظ تمنع الأعمال، أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه، وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر البتة، وهو غير خالص لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقاً، وهو خالص لوجه الله. ولا يميز هذا من هذا[٥] إلا أهلُ البصائر، وأطباءُ القلوب، العالمون[٦] بأدوائها وعللها.

---

(١) في الجميع سوىٰ ش: لا يفهم. وفي ط: لا يفقه.

(٢) «من» ساقطة من: ح١، غ.

(٣) في ش: «وإقبالها».

(٤) في ط، ب، ح١، غ، أ: «ولا».

(٥) (من هذا) ساقطة من: ط.

(٦) في غ: العاملون.

فبين العمل وبين القلب مسافة. وفي تلك المسافة قُطّاع تمنع وصولَ العمل إلىٰ القلب. فيكون الرجل كثير العمل، وما وصل منه إلىٰ قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا و رغبة[1] في الآخرة، ولا نور يُفرِّقُ به بين أولياء الله وأعدائه، وبين[2] الحق والباطل، ولا قوة في أمره. فلو وصل أثر الأعمال إلىٰ قلبه لاستنار وأشرق، ورأىٰ الحق والباطل، وميَّز بين أولياء الله وأعدائه، وأوجب[3] له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة. وعليها قُطَّاع تمنع وصول العمل إليه، من كبر وإعجاب وإدلال[4]، ورؤية العمل، ونسيان المِنَّة، وعلل خفية لو اسْتقصِي[5] في طلبها لرئي[6] العجب. ومن رحمة الله تعالىٰ، سترها علىٰ أكثر العمال، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور الهمة.

---

(١) في ش: ولا رغبة.

(٢) في م، ح٢: ولا بين.

(٣) في ش، ح٢، م: فأوجب.

(٤) أَدَلَّ عليه: وثق بمحبته فأفرط عليه، ودَلّ يدلُّ إذا مَنَّ بعطائه، والدَّلَّة: المنَّة، والأَدَلُّ: المنان بعمله. انظر: لسان العرب ٤/ ٣٩٣ مادة دلل.

(٥) في ط والجميع: استقصىٰ.

(٦) في ط والجميع: لرأىٰ.

ولهذا لما ظهرت «رعاية»[1] أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، واشتغل بها العباد عطلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة. والطبيب الحاذق يعلم كيف يُطب[2] النفوس، فلا يعمر قصراً ويهدم مصراً.

* * *

---

(١) يعني كتاب الرعاية لحقوق الله عز وجل وهو كتاب مطبوع. انظر: كشف الظنون ١/ ٩٠٨، والأعلام ٢/ ١٥٣.

(٢) في ط: يطبب.

فصل

الأشياء التي يستقيم بها الرجوع إلى الله حالاً

قال : «وإِنَّما يَستَقِيمُ الرّجُوعُ إِلَيهِ حَالاً بِثَلاثَةِ أَشياءَ : بِالإِيَاسِ[1] مِنْ عَمَلِكَ ، وَبِمُعَايَنَةِ اضطِرَارِكَ ، وَشَيْمِ بَرقِ لُطفِهِ[2] بِكَ»[3].

الإياس من العملِ يُفسر بشيئين :

أحدهما : أنه إذا نظر بعين الحقيقة إلىٰ الفاعل الحق ، والمحرِّك الأول ، وأنه لولا مشيئته لما كان منك فعل. فمشيئته أوجبت فعلك ، لا مشيئتُك - بقي بلا فعل - فهاهنا تنفع مشاهدة القدر ، والفناء عن رؤية الأعمال.

والثاني : أن تيأس من النجاة بعملك. وترىٰ النجاة إنما هي برحمته ، وعفوه[4] وفضله ، كما في الصحيح عن النبي ﷺ[5] : «لن ينجي أحداً منكم عمله» . قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[6] فالمعنىٰ الأول يتعلق ببداية الفعل، والثاني بغايته ومآله.

---

(١) في ش : باليأس.

(٢) في ح٢ : لطف ربك.

(٣) انظر : منازل السائرين ١٣.

(٤) في ط : وعمله.

(٥) في ط : زيادة : أنه قال.

(٦) رواه البخاري ١١/ ٢٩٤ في كتاب الرقاق باب (القصد والمداومة علىٰ العمل) ح٦٤٦٣ ومسلم ٤/ ٢١٦٩ في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ح٢٨١٦ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٤٨٢.

وأما معاينة الاضطرار : فإنه إذا يئس [١] من عمله بداية ، والنجاة به [٢] نهاية [شهد اضطراره إلىٰ الله ؛ بل] [٣] شهد به في كل ذرة منه ضرورة تامة إليه. وليست ضرورته من هذه الجهة وحدها ؛ بل من جميع الجهات. وجهات ضرورته لا تنحصر بعدد ، ولا لها سبب ، بل هو مضطر إليه بالذات ، كما أن الله غني بالذات. فالغنىٰ [٤] وصف ذاتي للرب ، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتي للعبد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنىٰ أبداً وصف له ذاتي [٥]

وأما شيم برق لطفه [٦] بك : فإنه إذا تحقق له قوة ضرورية. وأيس من عمله والنجاة به ، نظر إلىٰ ألطاف الله ، وشام [٧] برقها. وعلم أن كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له ، لطف من الله به ، ومنة منَّ بها عليه ، وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه. إذ هو المحسن بالسبب والمسبب ، والأمر له من قبل ومن بعد ، وهو الأول والآخر. لا إله غيره ، ولا رب سواه.

---

(١) في ط : أيس.

(٢) في ط : زيادة : وأيس من النجاة.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من : ط.

(٤) في ط : فإن الغنىٰ.

(٥) انظر : ديوان شيخ الإسلام ابن تيمية ٧٤ ، وانظر: العقود الدرية لابن عبد الهادي ص٣٩١.

(٦) في ح٢ : لطف ربك.

(٧) شام برقها : نظر إليها ، وتطلَّع نحوها. انظر : الصحاح ٥/ ٩٦٣ مادة : شيم.

فصل

منزلة التذكر

ثم ينزل القلب[1] منزلة «التذكر»[2] وهو قرين الإنابة. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] وقال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨] وهو من خواص أولي الألباب. كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩][3].

و«التذكر»[4] و«التفكر» منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق[5] الإيمان والإحسان. فالعارف[6] لا يزال يعود بتفكره علىٰ تذكره، وبتذكره علىٰ تفكره، حتىٰ يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم. قال الحسن البصري رضي الله عنه: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر علىٰ التفكر، وبالتفكر علىٰ التذكر، ويناطقون

---

(١) في ط، ب، غ، ح١، د: منزل.

(٢) التذكر عند الصوفية: هو وجدان ما حصل بالتفكر، فهو فوقه. وتذكر الناسي هو ما يحصل له في البداية من تذكير ما يسمعه ممن يستجلبون قلوب الناس، أما تذكير الذاكر فهو ما يرسل الله به أنبياءه من الأمر والنهي والوعد والوعيد، وما يلهم أولياءه من إقامة حجته، وإظهار مقدرته. انظر: لطائف الإعلام ١/ ٣١٨ - ٣١٩.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: وقال تعالىٰ: ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(٤) في ب: فالتذكر.

(٥) في أ زيادة: القرآن.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش: والعارف.

القلوب حتىٰ نطقت»[1].

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

«التَّذَكُّرُ فَوْقَ التَّفَكُّرِ ؛ لأَنَّ التَّفَكُّرَ طَلَبٌ ، وَالتَّذَكُّرَ وُجُودٌ»[2].

يريد أن التفكر التماس الغايات من مباديها. كما قال : «التفكر تلمس البصيرة لاستدراك[3] البغية»[4].

وأما قوله «التذكر وجود» ؛ لأنه[5] يكون فيما قد حصل بالتفكر ، ثم غاب عنه بالنسيان. فإذا تذكّره وجدَه وظفر به[6].

و«التذكُّر» تفعّل من الذكر. وهو ضد النسيان : وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب. واختير له بناء التفعّل ، لحصوله بعد مُهْلة وتدريج[7] ، كالتبصر والتفهم والتعلم.

فمنزلة «التذكر» من «التفكر» منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء ٤/ ٤٢٥ ، وشيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة ١/ ٢١٠.

(٢) انظر : منازل السائرين ١٥ وابن القيم ـ رحمه الله ـ شرح هذه المنازل علىٰ غير ترتيب الهروي لها ؛ لأن الذي بعد منزلة الإنابة هي منزلة التفكر. وقد تحدث عنها فيما سبق بعد منزلة اليقظة.

(٣) في الأصل والجميع : واستدراك. وما أثبته من المطبوع ومن المنازل.

(٤) انظر : منازل السائرين ١٣.

(٥) في ط : فلأنه.

(٦) في ط ، ق ، غ ، ب ، ح٢ ، م ، ح١ : فظفر.

(٧) في ط : تدرّج.

عليه. ولهذا كانت آيات الله المتلوّة والمشهودة ذكرىٰ. كما قال في المتلـوة : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ [غافر : ٥٣، ٥٤] وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة : ٤٨] ، وقال في آياته المشهودة : ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق : ٦-٨].

فـ «التبصرة» آلة البصر[١] ، و «التذكرة» آلة الذكر[٢]. وقُرن بينهما وجعلا[٣] لأهل الإنابة ، لأنه[٤] إذا أناب إلىٰ الله أبصر مواقع الآيات والعبر ، فاستدل بها علىٰ ما هي آيات له ، فزال عنه الإعراض بالإنابة ، والعمىٰ بالتبصرة[٥] ، والغفلة بالتذكرة ؛ لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدْلُول في القَلب بعد غفلته عنها. فترتَّبتْ[٦] المنازل الثلاثة أحسن ترتُّبٍ[٧] ، ثم إن كُلاً منها[٨]

---

(١) في ش : التبصر.

(٢) في ش : والذكرىٰ آلة التذكر.

(٣) في ط : وجعلهما.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : لأن العبد.

(٥) في غ : البصيرة.

(٦) في ط ، ح٢ ، م : فترتيب.

(٧) في ط ، ح٢ ، م : ترتيب.

(٨) في ح٢ ، م ، د ، ب ، ح١ ، غ : فهما.

يمدُّ صاحبه [١] ويقوّيه ويثمره.

وقال تعالىٰ في آياته المشهودة : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق : ٣٦ ، ٣٧].

والناس ثلاثة : **رجل قلبه ميت** ، فذلك الذي لا قلب له. فهذا ليست [٢] هذه الآية [٣] ذكرىٰ في حقه.

الثاني : رجل له قلب حي مستعد ؛ لكنه غير مستمع للآيات المتلوة ، التي يخبر بها [٤] عن الآيات المشهودة : إما لعدم ورودها ، أو لوصولها إليه ، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب ، ليس حاضراً. فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرىٰ ، مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث : رجل حي القلب مستعد. تُلِيتْ عليه الآيات ، فأصغىٰ بسمعه ، وألقىٰ السمع وأحضر قلبه ، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه. فهو شاهد القلب ، ملقِ السمع. فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتْلوَّة والمشهودة.

فالأول [٥]: بمنزلة الأعمىٰ الذي لا يبصر.

(١) في ش : صاحبها.

(٢) في ح٢ ، م : ليس.

(٣) في غ : الآيات.

(٤) في ط زيادة : الله.

(٥) في ق : الأولىٰ.

والثـاني : بمنزلـة البـصير الطـامح ببـصره [١] إلىٰ غـير جهـة المنظـور إليـه ، فكلاهما لا يراه.

والثالث : بمنزلة البصير [٢] الذي قد حَدَّق إلىٰ جهة المنظور ، وأتبعه بصره ، وقابله علىٰ توسط من البعد والقرب. فهذا هو [٣] الذي يراه. فسبحان من جعل كلامه شفاءً لما في الصدور. فإن قيل : فما موقعُ «أو» مِنْ هـذا النظم علىٰ ما قرّرت؟

قيـل : فيهـا سر لطيـف ، ولـسنا نقـول : إنهـا بمعنـىٰ الـواو [٤] ، كـما يقولـه ظاهرية [٥] النحاة.

فـاعلم [٦] أن الرجـل قـد يكـون لـه قلـب وقـاد [٧] ، مـليء باسـتخراج العـبر ، واستنباط الحكـم. فهـذا قلبه يوقعه علىٰ التـذكر والاعتبـار. فـإذا سـمع الآيات كانت له نوراً علىٰ نور. وهؤلاء أكمل خلق الله تعالىٰ ، وأعظمهم إيماناً وبصيرة. حتىٰ كـأن الـذي أخبرهم بـه الرسـول قـد كـان [٨] مـشاهداً لهـم ؛ لكـن لم يـشعروا

---

(١) (ببصره) ساقطة من : ش.

(٢) في غ : البصيرة.

(٣) (هو) ساقطة من : غ.

(٤) في غ : أو.

(٥) (ظاهرية) ساقطة من : ح١ ، أ.

(٦) في م ، ح٢ : واعلم.

(٧) في غ : وقد.

(٨) (قد كان) ساقط من ط والجميع سوىٰ ش.

بتفاصيله وأنواعه. حتىٰ قيل: إن مثل حال الصديق مع النبي ﷺ، كمثل رجلين دخلا داراً [١]، فرأىٰ أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته، والآخر وقعت يده علىٰ ما في الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته. لكن علم أن فيها أموراً عظيمة، لم يدرك بصره تفاصيلها، ثم خرجا. فسأله عما رأىٰ في الدار؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه، لما عنده من شواهده. وهذه أعلىٰ درجات الصِّدِّيقية [٢]. ولا يُستبعد [٣] أن يَمُنَّ اللهُ [٤] المنانُ [٥] علىٰ عبد [٦] بمثل هذا الإيمان. فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان [٧].

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة، ازداد بها نوراً إلىٰ نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقىٰ السمع وشهد قلبه ولم يغب، حصل له التذكر أيضاً: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها، وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون [٨]،

---

(١) في غ، ب، ح١، د، أ، م: دارين.

(٢) في أ: الصديقين.

(٣) في ط والجميع سوىٰ د: تستبعد.

(٤) في أ: أن الله يَمُنّ.

(٥) (المنان) ساقطة من: أ.

(٦) في ق: عبده.

(٧) في ح١: حساب.

(٨) كما قال تعالىٰ: ﴿والسابقون السابقون. أولئك المقربون. في جنات النعيم...﴾ [الواقعة: ١٠-١٢].

وأصحاب يمين[1]، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما. حتىٰ إن شراب أحد النوعين الصرف يطيب به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجاً. قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦] فكل[2] مؤمن يرىٰ هذا. ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون[3].

قال صاحب المنازل ـ يرحمه الله ـ:

ابنية التذكر

«أَبنِيَةُ التَّذَكُّرِ ثَلاثَةٌ: الانتِفَاعُ[4] بالعِظَةِ، والاستِبصَارُ[5] لِلعبرةِ، وَالظَّفَرُ بِثَمرَةِ الفِكْرةِ»[6].

الانتفاع بالعظة: هو أن يقدح في القلب قادح الخوف والرجاء. فيتحرك للعمل، طلبا للخلاص من الخوف[7]، ورغبة في حصول المرجوّ.

والعظة هي الأمر والنهي، المقرون[8] بالترغيب والترهيب.

---

(١) كما قال تعالىٰ: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين. في سدر مخضود...﴾ [الواقعة: ٢٧-٢٨].

(٢) في ش: وكل.

(٣) في ط زيادة: آخر.

(٤) في م: انتفاع.

(٥) في ط والاستبصار بالعبرة وفي طبعة المنازل: واستبصار العبرة.

(٦) انظر: المنازل ١٥.

(٧) في ق: المخوف.

(٨) في الجميع سوىٰ ش، ط: المعروف.

أنواع الموعظة

والعظة نوعان : عظة بالمسموع ، وعظة بالمشهود.

فالعظة[١] بالمسموع : الانتفاع بما يسمعه من الهدىٰ والرشد ، والنصائح التي جاءت علىٰ يد[٢] الرسل[٣] ، وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد في مصالح الدين والدنيا.

والعظة بالمشهود : الانتفاع بما يراه ويشهده في العالم من مواقع العبر ، وأحكام القدر ، ومجاريه[٤]، وما يشاهده من آيات الله الدالة علىٰ صدق رسله.

وأما الاستبصار للعبرة[٥] : فهو زيادة البصيرة[٦] عما كانت عليه في منزل التفكر بقوة الاستحضار ؛ لأن التذكر يصقل[٧] المعاني التي حصلت بالتفكر في مواقع الآيات والعبر. فهو يظفر بها بالتفكر ، وتنصقل له وتنجلي بالتذكر. فيقوي العزم علىٰ السير بحسب قوة الاستبصار ؛ لأنه[٨] يوجب تحديد النظر فيما يحرك الطلب[٩] إذ الطلب فرع الشعور. وكلما[١٠] قوي الشعور بالمحبوب اشتدَّ

---

(١) في د : والعظة.

(٢) في ط : علىٰ اللسان.

(٣) في ط زيادة : وما أوحي إليهم.

(٤) ومجاريه ساقطة من : ش.

(٥) في ح١ ، ب ، غ ، أ ، د : للعبر ، وفي ط : استبصار العبرة.

(٦) في ق ، ب ، ح١ ، د ، أ : البصر.

(٧) في ط ، ب ، أ ، ح١ ، غ ، ح٢ ، م : يعتقل.

(٨) في ق : ولأنه.

(٩) في ط : المطلب.

(١٠) في ط والجميع سوىٰ ش : فكلما.

سفرُ القلب إليه. وكلما اشتغل الفكر به ازداد الشعور[1] والبصيرة به[2] والذكر[3].

وأما الظفر بثمرة الفكرة، فهذا موضع لطيف.

ثمار الفكرة

وللفكرة ثمرتان: حصول المطلوب تماما بحسب الإمكان، والعمل بموجبه رعاية لحقه.

فإن العقل[4] حال التفكر كان قد كَلَّ[5] بأعماله في تحصيل[6] المطلوب. فلما حصلت له المعاني وتخمَّرت في القلب، واستراح العقل؛ عاد فتذكر ما كان حصّله وطالعه، فابتهج به، وفرح به، وصحح في هذا المنزل ما كان فاته في منزل التفكر؛ لأنه قد أشرف عليه من[7] مقام التذكر، الذي هو أعلىٰ منه. فأخذ حينئذ في الثمرة مقصوده. وهي العمل بموجبه مراعاة لحقه. فإن العمل الصالح: هو ثمرة العلم النافع، الذي هو ثمرة التفكر.

وإذا أردت فهم هذا بمثال حسِّي. فطالبُ المال ما دام جاداً في طلبه، فهو في كلال وتعب. حتىٰ إذا ظفر به استراح من كد الطلب، وقدم من سفر

---

(١) في ط زيادة: به.

(٢) في ط زيادة: فيه.

(٣) في ط: والتذكر له.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش، ق: القلب.

(٥) كَلَّ: يقال: كلّ الرجل والبعير من المشي يكِلُّ: أي أعيا. انظر: مختار الصحاح ٢٤٠ مادة كلل.

(٦) في ق: تحصل.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش: في.

التجارة، وطالع[1] ما حصله وأبصره، وصحح في هذه[2] الحال ما عساه غلط[3] فيه في حال اشتغاله بالطلب. فإذا صح له، وبردت غنيمته له، أخذ في صرف المال في وجوه الانتفاع المطلوبة منه[4].

فصل

الأشياء التي تحصل بها منفعة الموعظة والوعيد

قال: «**وإنَّمَا يَنتَفِعُ بِالعِظَةِ بَعْدَ حُصُولِ ثَلاثَةِ أَشياءَ: شِدَّةُ الافتِقَارِ إِلَيهَا، وَالعَمَىٰ عَن عَيبِ الوَاعِظِ، وَتَذَكُّر الوَعدِ وَالوَعِيدِ**»[5].

إنما يشتد افتقار العبد إلىٰ العظة - وهي الترغيب والترهيب - إذا ضعف تذكره وإنابته[6]، وإلا فمتىٰ قويت إنابته وتذكره، لم تشتد حاجته إلىٰ[7] الترغيب والترهيب، ولكن[8] الحاجة منه شديدة إلىٰ معرفة الأمر النهي.

والعظة يراد بها أمران: الأمر والنهي المقرون[9] [بالرغبة والرهبة، ونفس

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش: فطالع.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: هذا.

(٣) في ق، ب، ح١، م، أ، د، غ: غلطه.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: والله أعلم.

(٥) انظر: المنازل ص١٥ وفيها: وبذكر الوعد والوعيد.

(٦) في ط: وضعفت إنابته وتذكره.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: التذكير.

(٨) في ط زيادة: تكون.

(٩) في ط: المقرونان.

الرغبـة والرهبـة. فالمنيـب المتـذكر ؛ شـديد الحاجـة إلىٰ الأمـر والنهـي ، والمعـرض الغافـل شـديد الحاجـة إلىٰ الترغيـب والترهيـب ، والمعـارض المنكر[1] : شديد الحاجة إلىٰ المجادلة.

فجاءت هـذه الثلاثـة في حق هـؤلاء الثلاثـة في قولـه : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحـل: ١٢٥][2] ، وأطلـق[3] الحكمـة ، ولم يقيـدها بوصـف الحسنة إذ كلهـا حسنة ، ووصـف الحسن لهـا ذاتي[4]. وأمـا الموعظـة فقيَّـدها بوصـف الإحسان ، إذ لـيس كـل موعظة حسنة. وكذلك الجدال[5] قد يكون بالتي هي أحسن ، وقـد يكـون بغير ذلك وهذا يحتمل أن يرجع إلىٰ حال المجادل من[6] غلظتـه ، ولِينِـهِ ، وحدّتـه ، ورِفْقه. فيكون مأمورا بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن.

وأن[7] يكون صفة لما يجادل به ، مـن الحجـج والبراهـين ، والكلـمات التـي هـي أحـسن شيء وأبيْنـه[8] ، وأدلـه عـلىٰ المقـصود ، وأوصـله إلىٰ المطلـوب.

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : المتكبر.

(٢) في ط : ما بين المعقوفين ساقط من م ، غ.

(٣) في ط : أطلق.

(٤) لأنها وحي الله الذي أنزله علىٰ رسوله ﷺ. انظر : تفسير الطبري ٧/ ٦٦٣.

(٥) في ط : الجدل.

(٦) (من) ساقط من : ط ، ب ، أ ، ح٢ ، غ.

(٧) في ط : ويحتمل أن يكون.

(٨) في أ : ألينه.

والتحقيق : أن الآية تتناول النوعين.

وأما[1] ما ذكره بعض المتأخرين[2] : أن هذا إشارة إلىٰ أنواع القياسات ، فالحكمة هي طريقة[3] البرهان ، والموعظة الحسنة[4] طريقة الخطابة ، والمجادلة بالتي هي أحسن طريقة الجدل.

فالأول : بذكر المقدمات البرهانية لمن لا يرضىٰ إلا بالبرهان ، ولا ينقاد إلا له ، وهم خواص الناس.

والثاني : بذكر المقدمات الخطابية ، التي تثير رغبة ورهبة لمن يقنع بالخطابة ، وهم الجمهور.

والثالث : بذكر المقدمات الجدلية للمعارض الذي يندفع بالجدل - وهم المخالفون- فتنزيل القرآن علىٰ قوانين أهل المنطق اليوناني واصطلاحهم. وذلك باطل قطعاً من وجوه عديدة[5][6]. ليس هذا موضع ذكرها. وإنما ذكر هذا

---

(١) في د : أما.

(٢) ولعل أشهر من يظهر لديه هذا التقسيم هو أبو الوليد ابن رشد في كتابه فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، انظر : ص٣٠-٣١.

(٣) في ح١ : طريق.

(٤) في ط زيادة : هي.

(٥) «عديدة» ساقطة من : م.

(٦) وهذا يؤكده حاصل ما توصل إليه الفلاسفة الذين خاضوا في الإلهيات وكثر انحرافهم وضلالهم ، حيث أنكروا معاد الأبدان وقالوا بقدم العالم ، وعطلوا الخالق إلىٰ غيرها من أنواع الضلالات ، حيث كانوا أجرأ علىٰ القرآن يؤولونه ويبتعدون بمعانيه عن متعارف اللغة

استطرادا لذكر العظة. وأن[1] المنيب المتذكر لا تشتد حاجته إليها كحاجة الغافل المعرض ، فإنه شديد الحاجة جداً[2] إلىٰ العظة ، ليتذكر ما قد نسيه ، فينتفع بالتذكر.

وأما العمىٰ عن عيب الواعظ : فإنه إذا اشتغل به حرم الانتفاع بموعظته ؛ لأن النفوس مجبولة علىٰ عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به. وهذا بمنزلة من يصف له الطبيب دواء لمرض به مثله ، والطبيب معرض عنه غير ملتفت إليه ؛ بل الطبيب المذكور عندهم ، أحسن حالا من هذا الواعظ المخالف لما يعظ به ؛ لأنه قد يقوم عنده دواء آخر[3] مقام هذا الدواء. وقد يرىٰ أن به قوة علىٰ ترك التداوي. وقد يقْنع بعمل الطبيعة وغير ذلك ، بخلاف هذا الواعظ. فإن ما يعظ به طريق معين للنجاة لا يقوم غيرها مقامها ، ولا بد منها. ولأجل هذه النفرة قال شعيب ـ صلىٰ الله علىٰ نبينا وعليه وسلم ـ لقومه : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود : ٨٨] وقال بعض السلف : إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهي ، فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له ،

والدين ، ولقد تكلف الفارابي وتحمل في التوفيق بين آراء أفلاطون وأرسطو والتي ألف من أجلها رسالته المشهورة (الجمع بين رأي الحكمين) وما هذا إلا إنموذج لتنزيل القرآن علىٰ نموذج المنطق وقانون الفلسفة.

(١) في غ : وإنما ، وفي ح١ : والمنيب.

(٢) «جداً» ساقطة من ش ، م ، ح٢.

(٣) في ط ، ق : دواء آخر عنده.

المؤتمرين به. وإذا نهيت عن شيء، فكن أول المنتهين عنه[١].

وقد قيل:

يا أيها الرجلُ المعلِّمُ غيرَه ... هلاَّ لنفسك كان ذا التعليمُ

تصفُ الدواءَ لذي السّقام من الضّنىٰ ... ومن الضَّنىٰ تمُسي[٢] وأنت سقيمُ

لا تَنْهَ عن خُلُق وتأْتيَ مثلَه ... عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ[٣]

وابدأ[٤] بنفسك فانهَها عن غيِّها ... فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ

فهناك يقبلُ ما تقول ويقتدَىٰ ... بالقول منك وينفع التعليمُ[٤]

فالعمىٰ عن عيب الواعظ: من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشيته والحذر[٦] منه. ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به، وخافه ورجاه. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣] وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١٠] وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا

---

(١) روي عن الحسن نحوه. انظر: حلية الأولياء ٢/ ١٥٤.

(٢) في ط: ذميم.

(٣) في ط: ابدأ.

(٤) الأبيات الثلاثة الأخيرة في ديوان أبي الأسود الدؤلي، ضمن مستدرك الديوان، ص١٦٥-١٦٦.

(٥) في م: تمشي.

(٦) في غ: بالحذر.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا (٤٥)﴾[1] [النازعات : ٤٢-٤٥] وأصرح من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق : ٤٥] ، فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره : شرط في[2] الانتفاع بالعظات والآيات والعبر. يستحيل حصوله بدونه.

الأشياء التي تستبصر بها العبرة

قال : «وَإِنَّما تُسْتبصَرُ العِبْرَةُ بِثَلاَثَةِ أَشْيَاءَ : بِحيَاةِ العَقْلِ ، وَمَعْرِفَةِ الأَيَّامِ ، وَالسَّلاَمَةِ مِنَ الأَغْرَاضِ[3]»[4].

وإنما تميز[5] العبرة وترىٰ وتتحقق بحياة العقل. والعبرة هي الاعتبار ، وحقيقتها[6] : العبور من حكم الشيء إلىٰ حكم مثله. فإذا رأىٰ من قد أصابته محنة وبلاء لسبب ارتكبه ، علم أنّ حكم من ارتكب ذلك السبب كحكمه.

وحياة العقل : هي صحة الإدراك ، وقوة الفهم وجودته ، وتحقيق[7] الانتفاع بالشيء والتضرر به، وهو نور[8] يخص الله به من يشاء من خلقه. وبحسب[9]

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : لم تذكر الآيات كاملة.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : في.

(٣) في ش ، ح٢ ، م : الاعتراض.

(٤) انظر : المنازل ١٥.

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : إنما تتميز. وفي ش : إنما تتم.

(٦) في غ : حقيقة.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : تحقق.

(٨) في غ : نوع.

(٩) في ب ، ح١ ، غ : بحسب.

تفاوت الناس في قوة ذلك النور وضعفه، ووجوده وعدمه، يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم، ونسبته إلىٰ القلب كنسبة النور الباصر إلىٰ العين.

اسم الله الأعظم

ومن[1] تجريبات السالكين، التي جربوها فألْفَوهَا صحيحة: أن من أدمن من قول[2]: «يا حي ياقيوم لا إله إلا أنت» أورثه ذلك حياة القلب والعقل.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- شديد اللهج بها[3] جداً. وقال لي يوما: لهذين الاسمين وهما «الحي القيوم» تأثير عظيم في حياة القلب. وكان يشير إلىٰ أنهما الاسم الأعظم[4]. وسمعته يقول: من واظب علىٰ

---

(١) في ب، ح١، غ: من.

(٢) «من قول» ساقطة من ط ب، غ، ح١، أ.

(٣) في ح١: بهذا.

(٤) الذي وقفت عليه من كلام شيخ الإسلام - رحمه الله - أنه يرىٰ أن الاسم الأعظم هو اسم (الحي) فقط. انظر: مجموع الفتاوىٰ ١٨/ ٣١١. والاسم الأعظم لله تعالىٰ، اختلف أهل العلم في تعيينه من عدمه، والقائلون بتعيينه اختلفوا، ونُقِلتْ عنهم أقوال كثيرة أوصلها ابن حجر في الفتح ١١/ ٢٢٤-٢٢٥ إلىٰ أربعة عشر قولاً، وزاد علىٰ ذلك السيوطي في الدر المنظم في الاسم الأعظم (ضمن الحاوي للفتاوىٰ) ١/ ٣٩٤-٣٩٧ وقال الشوكاني في تحفة الذاكرين ص٥٢ أنها نحو من أربعين قولاً؛ لكن من أشهر هذه الأقوال وأقواها وأصحها قولان:

القول الأول: إن اسم الله الأعظم (الله) وممن قال به الإمام الطحاوي في مشكل الآثار، وابن العربي في أحكام القرآن ٢/ ٧٩٨، ٨٠٥، والسفاريني في لوامع الأنوار ١/ ٣٥، والمباركفوري في تحفة الأحوذي ٩/ ٤٤٦ وغيرهم.

أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر «ياحي ياقيوم. لا إله إلا أنت. برحمتك أستغيث» حصلت له حياة القلب. ولم يمت قلبه.

ومَنْ عَلِمَ عبوديات الأسماء الحسنىٰ والدعاء بها، وسرَّ[1] ارتباطها بالخلق والأمر، وبمطالب العبد وحاجاته[2]، عرف ذلك وتحققه. فإن كل مطلوب

وقد رجح هذا القول الشيخ عبد الله الغصن وذكر له عدة مرجحات. انظر: أسماء الله الحسنىٰ للغصن ص٩٦-٩٨.

القول الثاني: أن اسم الله الأعظم هو (الحي القيوم) وممن قال به الإمام ابن القيم - رحمه الله -. انظر: القصيدة النونية ٣٣، ومختصر الصواعق المرسلة للموصلي ١/ ١٠١، وزاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٢٠٤.

وقد سألت الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - عن الاسم الأعظم لله تعالىٰ فرجح أنه (الحي القيوم). وقد اعتنىٰ في تحقيق هذه المسألة الدكتور عبدالله بن عمر الدميجي فألف كتاباً ذكر فيه أقوال أهل العلم وأدلتهم، ورجح أنه لايمكن تحديد الاسم الأعظم وتعيينه حيث قال: فالذي يترجح عندي - والله أعلم - هو أن الجزم بتحديد الاسم الأعظم وتعيينه علىٰ وجه قطعي من الأمور المتعذرة؛ لأن العلم به من الأمور الموقوفة علىٰ الوحي السماوي لا مجال للاجتهاد فيه، وما ورد عن النبي ﷺ في هذا الموضوع مما يمكن الاحتجاج به، ليس صريحاً في تعيينه، وما روي عمن تقدم من العلماء في تحديده إنما هو اجتهاد وفهم في فهم هذه النصوص الواردة. انظر: كتاب الاسم الأعظم ص١٦١-١٦٢. ومن أراد مزيداً من البحث فليرجع إلىٰ فتح الباري ١١/ ٢٢٤ وما بعدها، الدر المنظم في الاسم الأعظم (ضمن الحاوي للفتاوي١/ ٣٩٤ وما بعدها) أسماء الله الحسنىٰ للغصن ٩٠ وما بعدها، اسم الله الأعظم للدميجي ٩٣ وما بعدها.

(١) في غ: وأسر.

(٢) في غ: وحاجته.

يسأل بالاسم[1] المناسب له. فتأمل أدعية القرآن والحديث النبوي[2] تجدها كذلك.

وأما معرفة الأيام: فيُحتمل أن يريد به أيامه التىٰ تخصّه، وما يلحقه[3] فيها من الزيادة والنقصان، ويعلم قِصَرَها، وأنها أنفاس معدودة منصرمة، كل نَفَس منها يقابله آلاف آلاف من السنين في دار البقاء. فليس لهذه الأيام الخالية نسبة قط [4] إلىٰ أيام البقاء. والعبد يساوق[5] زمنه، وفي مدة عمره[6] إلىٰ النعيم أو إلىٰ الجحيم. وهي كمدة المنام لمن له عقل حي وقلب واع. فما أولاه أن لا يصرف منها نفسا إلا في أحب الأمور إلىٰ الله، فلو صرفه[7] فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطا، فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه؟ فكيف [8] فيما يمقته عليه ربه؟ فالله المستعان [9].

---

(١) «الاسم»: ساقط من ط، غ، ب، أ، ح١.

(٢) في ط، ب، غ، أ، ح١: والأحاديث النبوية.

(٣) في م، ح٢: تلحقه.

(٤) في ط: قط نسبة.

(٥) في ب، ح١، غ، أ: يساق وفي ط: منساق.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش: العمر.

(٧) في ق: صرفها.

(٨) في ط زيادة: إذا صرفه.

(٩) في ط زيادة: ولا قوة إلا به.

ويحتمل أن يريد بالأيام : أيام الله التي أمر رسله بتذكير أممهم بها [١]. كما قال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم : ٥] وقد فسرت «أيام الله» بنعمه ، وفسرت بنقمة من أهل الكفر والمعاصي. فالأول تفسير ابن عباس وأبي بن[٢] كعب ومجاهد[٣] والثاني : تفسير مقاتل[٤][٥].

والصواب : أن أيامه تعم النوعين. وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه ، ونعمه التي ساقها إلىٰ أوليائه. وسميت هذه[٦] النعم والنقم الكبار المتحدَّث[٧] بها «أياماً» لأنها ظرف لها. تقول العرب : فلان عالم بأيام العرب ، وأيام الناس. أي بالوقائع التي كانت في تلك الأيام. فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد الاستبصار للعبرة[٨] وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته. قال الله تعالىٰ :

---

(١) «بها» ساقطة من الأصل وش وما أثبته من ط وباقي النسخ والسياق يقتضي ذلك.

(٢) «ابن» ساقطة من : د.

(٣) انظر : تفسير البغوي ٧/ ٤١٨ ، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٣٥.

(٤) انظر : تفسير البغوي ٣/ ٢٦.

(٥) أبو الحسن: مقاتل بن سليمان البلخي المفسر ، يروي عن مجاهد وابن بريدة وعطاء وغيرهم، قال الشافعي: الناس عيال في التفسير عليه. وقال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة ، وقال الذهبي : أجمعوا علىٰ تركه. مات سنة ١٥٠هـ.

ترجمته في : السير ٧/ ٢٠١ ، تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٧٩ ، شذرات الذهب ١/ ٢٢٧.

(٦) في غ : هذا.

(٧) في ق : والمتحدث.

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش : استبصار العبر.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١]. ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الإعراض[1] ، وهي متابعة الهوىٰ والانقياد لداعي النفس الأمارة[2] ، فإن اتباع الهوىٰ يطمس نور العقل ، ويعمي بصيرة القلب[3] ، ويصد عن اتباع الحق ، ويضل عن الطريق[4] المستقيم[5] ، فلا تحصل[6] بصيرة العبرة معه ألبتة. والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره. فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح ، والقبيح - في صورة الحسن ، فالتبس عليه الحق بالباطل. فأنىٰ له الانتفاع بالتذكر ، أو بالتفكر ، أو بالعظة.

فصل

الأشياء التي تجتنى بها ثمرة الفكرة

قال : «وإِنَّمَا تُجتَنىٰ ثَمرةُ الفِكرةِ بِثلاثَةِ أَشْياءَ : بِقِصَرِ الأَمَل ، وَالتَّأَمُّلِ في القُرآنِ. وَقِلَّةِ الخِلطَةِ ، والتَّمنِّي ، والتَّعلُّقِ بِغَيرِ الله ، وَالشِّبعِ وَالمَنَامِ»[7].

يعنىٰ : أن في منزل «التذكر» تجتنى ثمرة «الفكرة» لأنه أعلىٰ منها. وكل

---

(١) في ط ، ق ، ب ، ح١ ، د ، غ ، أ ، م : الأغراض.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : بالسوء.

(٣) في هامش الأصل زيادة : ويصم آذان القلب عن وعي الحكمة ، وسماع الموعظة ، ورؤية الآيات المعتبرة الموضوعة للعبرة والبصيرة.

(٤) في ب ، ش ، غ ، أ : الصراط.

(٥) كما قال تعالىٰ : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله علىٰ علم وختم علىٰ سمعه وقلبه وجعل علىٰ بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ [الجاثية : ٢٣].

(٦) في ح٢ ، م ، ش : يحصل.

(٧) انظر : المنازل ١٥.

مقام تجتنىٰ[1] ثمرته في الذي هو أعلىٰ منه. ولا سيما علىٰ ما قرره في خطبة كتابه[2] «كل مقام يصحح ما قبله»[3].

ثم ذكر أن هذه الثمرة تجتنىٰ بثلاثة أشياء : **أحدها** : قصر الأمل ، **والثاني** : تدبر القرآن ، **والثالث** : تجنّب مفسدات القلب الخمسة.

فأما قصر الأمل : فهو العلم بقرب الرحيل ، وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهو من أنفع الأمور للقلب. فإنه يبعثه علىٰ مغافصة[4] [5] الأيام ، وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب ، ومبادرة طيِّ صحائف الأعمال. ويثير ساكن عزماته إلىٰ دار البقاء ، ويحثه علىٰ قضاء جهاز سفره ، وتدارك الفارط ، ويزهِّده في الدنيا ، ويرغِّبه في الآخرة. فيقوم بقلبه - إذا[6] داوم مطالعة قصر الأمل - شاهدٌ من شواهد اليقين. يريه فناءَ الدنيا ، وسرعَةَ انقضائها ، وقلّة مَا بقي منها ، وأنها قد ترحَّلتْ مُدْبرة. ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها[7]. وأنها

---

(١) في م ، ح٢ : يجتنىٰ.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : أن.

(٣) انظر : المنازل ٣٠ حيث قال : «وعندي أن العبد لا يصح له مقام حتىٰ يرتفع عنه ، ثم يشرف عليه فيصححه».

(٤) في ط : معافصة.

(٥) غافص الرجل مغافصة : أخذه علىٰ غرة. لسان العرب ١٠/ ٩٤ مادة : غفص.

(٦) في ق : إلىٰ.

(٧) جزء من خطبة لعتبة بن غزوان رواها مسلم ٤/ ٢٢٧٨ في كتاب الزهد (ح٢٩٦٧) ، وأحمد في مسنده ٤/ ١٧٤ ، والحاكم في المستدرك ٣/ ٢٩٢.

لم يبق منها إلا كما بقي[١] من يوم صارت شمسه على رءوس الجبال. ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مُقْبلة. وقد جاء أشراطها وأعلامها[٢]، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحب[٣] له يتلقاه، فكل[٤] منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعاً.

ويكفي في قصر[٥] الأمل[٦] : ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾[٧] [المؤمنون: ١١٢-١١٤]، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾

---

(١) في غ: يبقىٰ.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: وعلاماتها.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش: صاحبه.

(٤) في ق: وكل.

(٥) في ش: قصور.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: قوله تعالىٰ.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش: الآيات ناقصة.

يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ ﴾[1] [طه : ١٠٢ - ١٠٤] ، وخطب النبي ﷺ يوماً أصحابه [2] والشمس علىٰ رءوس الجبال فقال : «إنه لم يبق من الدنيا فيما مضىٰ منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضىٰ منه» [3] ، ومر رسول الله ﷺ ببعض أصحابه. وهم يعالجون خِصًّا [4] لهم قد وهىٰ ، وهم [5] يصلحونه ، فقال : «ما هذا؟ » قالوا : خصٌّ لنا قد وَهَىٰ فنحن نعالجه. فقال : « ما أرىٰ الأمر إلا أعجل من هذا» [6].

وقصر الأمل بناؤه علىٰ أمرين : تيقن زوال الدنيا ومفارقتها ، وتيقن [7] لقاء

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : أصحابه يوماً.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش الآيات ناقصة.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٣/ ١٩ ، والترمذي ٤/ ٤٨٣ في كتاب الفتن ، باب ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن (ح٢١٩١) وقال : حسن صحيح.

(٤) الخِصُّ : بيت يعمل من الخشب والقصب ، وجمعه خصاص ، وأخصاص ، سُمي بذلك لما فيه من الخصاص وهي الفرج والأنقاب.
انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٧ ، ولسان العرب ٤/ ١١٠ مادة : خصص.

(٥) في ط والجميع «فهم».

(٦) رواه أحمد في مسنده ٢/ ١٦١ ، وأبو داود ٥/ ٤٠١-٤٠٢ في كتاب الأدب ، باب ما جاء في البناء (ح٥٢٣٦) ، والترمذي ٤/ ٥٦٨ في كتاب الزهد ، باب ما جاء في قصر الأمل ، (ح٢٣٣٣) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه ٢/ ١٣٩٣ في كتاب الزهد ، باب في البناء والخراب ، (ح٤١٦٠). وصححه الألباني. انظر : صحيح سنن أبي داود ٣/ ٩٨٣.

(٧) في غ : ويتيقن.

الآخرة وبقائها ودوامها. ثم يقايس بين الأمرين ويُؤْثر أولاهما بالإيثار .

فصل

معنى التأمل في القرآن

وأما التأمل في القرآن : فهو تحديق ناظر القلب إلىٰ معانيه. وجمع الفكر[1] علىٰ تدبره وتعقله[2]. وهو المقصود بإنزاله ، لا مجرد تلاوته بلا تفهم[3] ولا تدبر.

قال الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص : ٢٩]. وقال تعالىٰ : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد : ٢٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون : ٦٨] وقال تعالىٰ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف : ٣] ، وقال الحسن : نزل القرآن ليُتدبَّر ويُعمَل به ، فاتخذوا[4] تلاوته عملاً[5].

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده ، وأقرب إلىٰ نجاته ، من تدبر

---

(١) في ح ١ : الفكرة.

(٢) في غ : تعلقه.

(٣) في ط والجميع : بلا فهم.

(٤) في ح١ : فاتخذتم.

(٥) جاء عن الحسن أنه قال : إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل ، وجعلتم الليل جملا ، فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله ، وإنَّ من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم ، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار. ونحوه عن ابن مسعود قال : «أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً ... » انظر قوت القلوب ١/ ١١٥ ، والإحياء ١/ ٣٨٤ـ٣٨٥.

القرآن ، وإطالة التأمل[1] ، وجمع الفكر[2] علىٰ معاني آياته. فإنها تطلع العبد علىٰ معالم الخير والشر بحذافيرهما ، وعلىٰ طرقاتهما[3] ، وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وَتتُلُّ[4][5] في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه ، وتشيد بنيانه ، وتوطد أركانه ، وتريه صورة الدنيا والآخرة ، والجنة والنار في قلبه. وتحضره بين الأمم ، وتريه أيام الله فيهم ، وتبصره مواقع العبر ، وتشهده عدل الله وفضله ، وتعرفه ذاته ، وأسماءه وصفاته وأفعاله ، وما يحبه وما يبغضه ، وصراطه الموصل إليه ، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه ، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها ، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم ، وأحوالهم، وسيماهم[6]، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه ، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة : تعرفه الرب المدعو إليه ، وطريق الوصول إليه ، وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

---

(١) في ط زيادة : فيه.

(٢) في ح١ : الفكرة.

(٣) في أ : طرقهما.

(٤) في غ ، أ ، ح١ ، ب ، د : تثل.

(٥) التلُّ : الصَّبُّ. يقال : تَل يتُلُّ إذا صَبَّ. انظر : لسان العرب ٢/ ٤٥ مادة : تلل.

(٦) في ق : وسيما.

وتعرفه في مقابل[١] ذلك ثلاثة أخرىٰ : ما يدعو إليه الشيطان ، والطريق الموصلة إليه ، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ، ضرورية[٢] للعبد معرفتها ، ومشاهدتها ومطالعتها. فتشهده الآخرة حتىٰ كأنه فيها ، وتغيبه عن الدنيا حتىٰ كأنه ليس فيها ، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه[٣] العالم. فتريه الحق حقاً، والباطل باطلاً ، وتعطيه فرقانا ونورا يفرق به بين الهدىٰ والضلال ، والغي والرشاد. وتعطيه قوة في قلبه ، وحياة وسعة وانشراحاً وبهجة وسروراً. فيصير في شأن الناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائرة علىٰ التوحيد وبراهينه ، والعلم بالله وماله من أوصاف الكمال ، وما يتنزه[٤] عنه من سمات النقص ، وعلىٰ الإيمان بالرسل ، وذكر براهين صدقهم ، وأدلة صحة نبوتهم ، والتعريف بحقوقهم ، وحقوق مرسلهم[٥]. وعلىٰ الإيمان بملائكته ، وهم رسله في خلقه وأمره ، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته ، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي ، وما يختص بالنوع الإنسانيّ منهم ، من[٦] حين يستقر في رحم أمه إلىٰ

---

(١) في ح١ : مقابلة.

(٢) في ط : ضروري.

(٣) «فيه» ساقطة من غ.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : ينزه.

(٥) في هامش الأصل : وما يجب ويجوز ويستحيل للحق وللخلق.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : من.

أن [1] يـوافي ربـه ويقـدم عليـه. وعـلىٰ الإيـمان بـاليوم الآخـر ومـا أعـد الله فيـه لأوليائه من دار النعيم المطلق ، التىٰ لا يشوبها[2] ألم ولا نكد ولاتنغيص[3]. وما أعد[4] لأعدائه من دار العقاب الوبيل ، التىٰ لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح. وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأَبْينه[5]. وعلىٰ تفاصيل الأمر والنهي ، والشرع والقدر ، والحلال والحرام ، والمواعظ والعبر ، والقصص والأمثال ، والأسباب والحكم ، والمبادئ والغايات ، في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلىٰ ربه بالوعد الجميل ، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل ، وتحثه علىٰ التضمر[6] والتخفف للقاء اليوم الثقيل ، وتَهْديه في ظلم الآراء والمذاهب إلىٰ سواء السبيل، وتَصدُّه عن اقتحام طرق[7] البدع والأضاليل ، وتبعثه علىٰ الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل ، وتبصره بحدود الحلال والحرام ، وتَقِفُه[8] عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل.

---

(١) في ط ، غ ، ب ، أ ، ح١ : يوم.

(٢) في ط : لا يشعرون فيها بألم.

(٣) في ط : وتنغيص.

(٤) في ح زيادة : الله.

(٥) في الأصل : علىٰ ، وما أثبته من الجميع والسياق يقتضيه.

(٦) الضُّمْرُ من الرجال : الضامر البطن ، وقيل : المُهَضَّمُ البطن اللطيف الجسم. ويُضمرُ الشيء : يُضْعِفُه ويقلله. انظر : لسان العرب ٨/ ٨٤ ، ٨٥ ، مادة : ضمر.

(٧) في ح١ : طريق.

(٨) في ط والجميع توقفه.

وتثبِّت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته، وونىٰ في سيره: تقدم الركب وفاتك[1]، فاللحاقَ اللحاق، والرحيلَ الرحيل. وتحدو[2] به وتسير أمامه سير الدليل. وكلما خرج عليه كمين[3] من كمائن العدو، أو قاطع[4] من قُطّاع الطرق[5] نادته: الحذر الحذرَ! فاعتصم بالله، واستعن به[6] وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره[7]، وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرناه[8] من الحكم والفوائد.

وبالجملة: فهو أعظم الكنوز، طلسمه[9] الغوص بالفكر إلىٰ قرار معانيه:

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: الدليل.

(٢) في ط: تخذوا.

(٣) يقال: كَمَن فلان إذا استخفىٰ في مكْمَن لا يفطن له، والكمين في الحرب الذين يكْمُنون.
انظر: لسان العرب ١٢/ ١٦٠، ١٦١ مادة (كمن).

(٤) في أ، ب، م: وقاطع.

(٥) في ط والجميع: الطريق.

(٦) «به» ساقطة م، ح٢.

(٧) «وتدبره» ساقطة من أ.

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش: ما ذكرنا.

(٩) طَلْسم الرجل: كرَّه وجهه وقطبه، والطَلْسَم لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز والأحاجي، يقال: فك طلسمه أو طلاسمه: وضحه وفسّره.
انظر: لسان العرب ٨/ ١٨٣ مادة «طلسم»، المعجم الوسيط ٥٦٢.

نـزه فـؤادك عـن سـوىٰ روضـاته ... فرياضـه حـلٌّ لكـل منـزَّه

والفهـم طلَّـسْمٌ لكنـز علومـه ... فاقـصد إلىٰ الطِّلَّسْم تحْـظَ بكنـزه

لا تخش مـن بـدع لهـم وحـوادث ... مـا دمت فِي كنف الكتاب وحـرزه

مـن كـان حارسـه الكتـاب ودرعـه ... لم يخش مـن طعـن العـدو ووخـزه[1]

لا تخش مـن شبهاتهم واحمـل إذا ... مـا قابلتْـك بنـصره وبعـزِّه

والله مـا هـاب امـرؤ شـبهاتهم ... إلا لـضعف القلـب منـه وعجـزه

يـا ويـح تـيس ضـالع[2] [3] يبغـي مسا ... بقـة الهزبـر[4] بعـدوه وبجمـزه

ودخـان زبـل[5] يرتقـي للـشمس يسـ ... ـتر عينهـا لمـا سرىٰ في أزه[6]

وجبـان قلـب أعـزل قـد رام يأسـ ... ـر فارساً شـاكي السـلاح بهـزه[7]

---

(١) في ح٢ ، م ، د : ووكزه.

(٢) في غ : ضائع.

(٣) الضالع : الأعرج الذي يغمز في مشيه . انظر : لسان العرب ٨/ ٢٥٦ مادة : «ضلع».

(٤) الهزبر : الأسد الضخم ، الكاسر. انظر : المعجم الوسيط ٩٨٤.

(٥) الزبل : السِّرْجين وما أشبهه. انظر : المعجم الوسيط ص٣٨٨ مادة : «زبل».

(٦) في ح٢ البيت هكذا :

ودخان زبل يرتقي في سيره ... للشمس يميناً إذ سرىٰ في أزِّه

(٧) لم أقف لها علىٰ قائل ولعلها من نظم ابن القيم.

فصل

مفسدات القلب الخمسة

وأما مفسدات القلب الخمسة : فهي التي أشار[1] إليها :

من كثرة الخلطة ، والتمني ، والتعلق بغير الله ، والشبع ، والمنام.

فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب.

فنذكر آثارها التي اشتركت فيها ، وما يميز[2] به كل واحد منها.

اعلم[3] أن القلب يسير إلىٰ الله ، والدار الآخرة ، ويكشف عن طريق الحق ونهجه ، وآفات النفس والعمل ، وقطاع الطريق ، بنوره وحياته وقوته ، وصحته وعزمه ، وسلامة سمعه وبصره ، وغيبة الشواغل والقواطع عنه. وهذه الخمسة تطفيٰء نوره ، وتغور[4] عين بصيرته ، وتُثقل سمعه ، إن لم تصمه وتبكمه[5] ، وتضعف قواه كلها ، وتوهن صحته وتفتر عزيمته ، وتوقف همته ، وتنكسه إلىٰ ورائه. ومن لا شعور له بهذا فميت القلب :

.... وما لجرح بميت إيلام[6].

---

(١) «أشار» ساقطة من ح٢.

(٢) في ط والجميع سوىٰ د : تميز.

(٣) في م ، ح٢ : واعلم.

(٤) في ط ، غ ، ح٢ ، ح١ ، د ، ب ، م ، أ : تعور.

(٥) «وتبكمه» ساقط من م.

(٦) هذا عجز بيت قاله المتنبي ، وصدره : من يهن يسهل الهوان عليه. انظر : شرح ديوان المتنبيٰ ٤/ ٢١٧.

فهي عائقة له عن نيل كماله. قاطعة له عن الوصول الىٰ ما خلق لـه. وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذّته في الوصول إليه.

فإنه لا نعيم له[1]، ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله و محبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلىٰ لقائه. فهذه جنته العاجلة. كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنه الآجلة. فله جنتان: لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولىٰ.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة[2].

وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات. أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا. إنهم لفي عيش طيب[3].

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا[4] وما ذاقوا أطيب ما فيها. قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه[5] - أو نحو هذا من الكلام.

---

(١) «له» ساقطة من: م.

(٢) انظر: الرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقي (١/ ٦٩).

(٣) ذكره ابن تيمية عن بعض الشيوخ. انظر: السلوك ضمن مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٦٤٧.

(٤) في أ: منها.

(٥) انظر: حلية الأولياء ٢/ ٣٥٨، ٨/ ١٦٧.

وكل من له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقاً.

وهذه الأشياء الخمسة: قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، محدثة[1] له أمراضاً وعللاً، إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

المفسد الأول: كثرة الخُلطة

فأما ما تؤثره[2] **كثرة الخُلطة**: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتىٰ يسود، ويوجب له تشتُّتاً وتفرُّقاً، وهمّاً وغمّاً، وضعْفاً، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسيم[3] فكره في أودية[4] مطالبهم وإراداتهم. فماذا يبقىٰ منه لله والدار الآخرة؟

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة[5]، وأحلّت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان علىٰ[6] أبي طالب[7] عند الوفاة أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتىٰ حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

---

(١) في ط: ومحدثة.

(٢) في ب، د: ثورته.

(٣) في ط: وتقسُّم.

(٤) في د: أدوية.

(٥) «وعطلت من منحه» ساقطة من ح٢.

(٦) في الجميع سوىٰ ش، ط زيادة: ابن. وهو خطأ.

(٧) في الجميع سوىٰ ش، ط زيادة: رضي الله عنه.

وهـذه الخلطـة التي تكـون علىٰ نـوع مـودة في الدنيـا ، وقضاء وطر بعضهم من بعض ، تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة ، يعض[1] المخالـط[2] عليها[3] يديه ندماً كما قال تعالىٰ : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[4] [الفرقان : ٢٧-٢٩] ، وقال تعالىٰ : ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف : ٦٧] وقال إبراهيم[5] خليله[6] عليه السلام لقومه : ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت : ٢٥] ، وهذا شأن كل مشتركين في غرض. يتوادون ما داموا متساعدين[7] علىٰ حصوله ، فإذا انقطع ذلك الغرض ، أعقب ندامة وحزناً وألماً[8] [وانقلبت تلك المودة بغضاً ، ولعنة ، وذماً ، من بعضهم لبعض ،

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : ويعض.

(٢) في ط : المخلط.

(٣) في أ : علىٰ.

(٤) باقي الآية ساقط من ط ، غ ، ب ، أ ، ح١.

(٥) «إبراهيم» ساقطة من ش.

(٦) في ط ، ق : وقال خليله إبراهيم لقومه.

(٧) في ب زيادة : له .

(٨) في ش : خزياً.

لما انقلب ذلك الغرض حزناً[1]][2] وعذاباً، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه، إذا أخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين علىٰ باطل، متوادين عليه: لا بد أن تنقلب مودتهما بغضاً وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير - كالجمعة والجماعات[3] والأعياد والحج، وتعليم[4] العلم، والجهاد، والنصيحة - ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات.

فإذا[5] دعت الحاجة إلىٰ خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر علىٰ أذاهم، فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن[6] أذى[7] يعقبه عز[8] ومحبة له[9] وتعظيم، وثناء عليه منهم، ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له[10]، ومقت،

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من أ.

(٢) «وألماً» ساقطة من ش.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش: الجماعة.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش: وتعلّم.

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش، غ: فإن.

(٦) في ح٢، م: ولكنه.

(٧) في ط: أذىٰ.

(٨) في ش: عزة.

(٩) «له» ساقطة من م، ح٢.

(١٠) «له» ساقطة من ق.

وذم منهم ، ومن المؤمنين ، ومن رب العالمين.

فالصبر علىٰ أذاهم خير وأحسن عاقبة ، وأحمد مآلاً [1] ، وإن دعت الحاجة إلىٰ خلطتهم في فضول المباحات، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه ، ويشجع [2] نفسه ويقوي قلبه ، ولا يلتفِتْ إلىٰ الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك ، بأن [3] هذا رياء و محبة لإظهار علمك وحالك ، ونحو ذلك ، فليحاربه ، وليستعن [4] بالله ، ويؤثر فيهم [5] من الخير ما أمكنه.

فإن [6] عجّزته [7] المقادير عن ذلك ، فليَسُلّ قلبه من بينهم كسَلِّ الشعرة من العجين ، وليكن فيهم حاضراً غائباً ، قريباً بعيداً ، نائماً يقظاناً. ينظر إليهم ولا

---

(١) كما قال النبي ﷺ : «المؤمن الذي يخالط الناس ، ويصبر علىٰ أذاهم ، أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم».

رواه أحمد في مسنده ٢/ ٤٣ ، والبخاري في الأدب المفرد ص ١٤٠-١٤١ (ح ٣٩٠) ، وابن ماجه ٢/ ١٣٣٨ في كتاب الفتن باب (الصبر علىٰ البلاء) (ح ٤٠٣٢) ، والترمذي ٤/ ٦٦٢ - ٦٦٣ في كتاب صفة القيامة ، باب (٥٥) (ح ٢٥٠٧) لكن بلفظ : المسلم الذي يخالط. . . . وصححه الألباني ، انظر : الصحيحة ٢/ ٦٥٢ (ح ٩٣٩). وقال محققو المسند : إسناده صحيح ، رجاله ثقات رجال الشيخين. مسند أحمد ٩/ ٦٤ هامش ٢.

(٢) في أ ، ح١ ، ب ، غ : يشجع.

(٣) في د : فإن.

(٤) في ط : وليستغن.

(٥) في ح٢ زيادة : في المجلس.

(٦) في ح٢ ، م : فإذا.

(٧) في ط ، أ ، غ ، ح١ ، ح٢ ، م : أعجزته.

يبصرهم ، ويسمع كلامهم ولا يعيه[١] ؛ لأنه قد أخذ قلبه من بينهم ، ورَقَىٰ[٢] به إلىٰ الملأ الأعلىٰ ، يُسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه علىٰ النفوس ، وإنه ليسير علىٰ من يسره الله عليه[٣] . فبين العبد وبينه أن يصدق الله [٤] ، ويديم اللجأ إليه ، ويلقي نفسه علىٰ بابه طريحاً ذليلاً ، ولا يعين علىٰ هذا إلا المحبة الصادقة[٥] ، والذكر الدائم بالقلب واللسان ، وتجنب المفسدات الأربع[٦] الباقية الآتي ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ، ومادة قوية[٧] من الله ، وعزيمة صادقة ، وفراغ من التعلق بغير الله[٨].



فصل

المفسد الثاني: التمنِّي

المفسد الثاني : من مفسدات القلب : ركوبه **بحر التمنِّي** ، وهو بحر لا ساحل له. وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم ، [٩] إن المنىٰ رأس أموال

(١) في م : ينظر إليهم ولا يسمع كلامهم ولا يعيه.

(٢) في م : رقىٰ.

(٣) «عليه» ساقطة من ش.

(٤) في أ : ربه.

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : محبة صادقة.

(٦) في الأصل والجميع سوىٰ ق : الأربعة ، وما أثبته منهما.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : قوة.

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : والله تعالىٰ أعلم.

(٩) في ط زيادة : كما قيل.

المفاليس. وبضاعةُ ركابه مواعيدُ الشياطين، وخيالات المحال والبهتان. فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه كما يُتلاعب[1] بالجيفة، وهي بضاعة[2] كل نفس مهينة، خسيسة سفلية. ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية. فاعتاضت[3] عنها بالأماني الذهنية. وكل بحسب حاله، من متمنّ للقدرة والسلطان، أو للضرب[4] فى الأرض والطواف في البلدان[5]، أو للأموال[6] والأثمان، أو للنسوان[7]، والمردان فيمثل المتمني صورة مطلوبة في نفسه وقد فاز بوصلها[8]، والْتذَّ بالظفر بها. فبينا هو[9] على هذه الحال، إذ[10] استيقظ فإذا يده والحصير. وصاحب الهمة العلية[11] أمانيه حائمة حول العلم والإيمان. والعمل الذى يقربه من ربه[12] ويدنيه من جواره.

---

(١) في ط، أ، غ، ح١، ح٢، ب: يتلاعب الكلاب.

(٢) في ط: بطاعة.

(٣) في ط: بل اعتاضت، وفي ح٢، م، غ، أ، ح١، ب: واعتاضت.

(٤) في غ: وللضرب.

(٥) في ط والجميع: التطواف.

(٦) في ق: وللأموال.

(٧) في ق: وللنسوان.

(٨) في ط، غ، ب، ح١، أ: بوصولها.

(٩) في ش: هم.

(١٠) في ب، غ، د، ش، ح٢، م: إذا.

(١١) في ح٢: العالية.

(١٢) في ط والجميع سوى ش: إلى الله.

فأماني هذا إيمان ونور[1]. وأماني أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النبي ﷺ متمني الخير. وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أن لي مالا لعملت[2] بعمل فلان الذي يتقي في ماله ربه، ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه. وقال: «**هما في الأجر سواء**»[3].

وتمنى[4] ﷺ في[5] حجة الوداع: أنه لو كان تمتع وحل ولم يَسُقِ الهدي، وكان قد قرن[6]. فأعطاه الله[7] ثواب القران بفعله، وثواب التمتع الذي تمناه بأُمْنيته، فجمع له بين الأجرين.

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: وحكمة.

(٢) في م زيادة: فيه.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤/ ٢٣٠، وابن ماجه ٢/ ١٤١٣ في كتاب الزهد، باب النية (ح٤٢٢٨)، والترمذي ٤/ ٥٦٢ في كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر (ح٢٣٢٥). وصححه الألباني. انظر: صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤١٣ (ح٣٤٠٥).
وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح. انظر: شرح السنة ١٤/ ٢٩٠ هامش ١.

(٤) في ب زيادة: النبي.

(٥) «في» ساقطة من غ.

(٦) رواه البخاري ٣/ ٥٠٤ في كتاب الحج، باب تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت، ح١٦٥١، ومسلم ٢/ ٨٨٦ في كتاب الحج، باب صحة النبي ﷺ، ح١٢١٨، وأحمد في مسنده ١/ ٢٥٣.

(٧) «الله» ساقطة من ش.

فصل

المفسد الثالث :
التعلق بغير الله

المفسد الثالث من مفسدات القلب : التعلق بغير الله. وهـذا أعظـم مفسداته على الإطلاق. فليس عليه أضر من ذلك ، ولا أقطع [له عن الله وأحجب](1) لـه عن مصالحه وسعادته منه ، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله(2) إلى من(3) تعلق بـه ، وخذله من جهة من(4) تعلق به ، وفاته تحصيل مقصوده من الله بتعلقه بغيره ، والتفاته إلى سواه(5). فلا على نصيبه من الله حصل (6) ، ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل. قال تعالى ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم : ٨١ ، ٨٢] وقـال تعالى : ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس : ٧٤ ، ٧٥].

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله. فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه ، أعظم مما حصل له ممن تعلق به. وهو معرّض للزوال والفوات.

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ط.

(٢) «الله» ساقطة من ش.

(٣) في ط : ما.

(٤) في ط : ما.

(٥) في ح١ : إلى ما سواه.

(٦) «حصل» ساقطة من ح١.

ومثل المتعلق بغير الله : كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت ، أوهن البيوت.

وبالجملة : فأساس الشرك وقاعدته التي بنىٰ عليها : التعلق بغير الله. ولصاحبه الذم[١] والخذلان ، كما قال تعالىٰ : ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء : ٢٢] ، [مذموماً لا حامد لك مخذولاً][٢] لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذي قهر بباطل. وقد يكون مذموماً منصوراً. كالذي قهر وتسلط بباطل[٣]. وقد يكون محموداً منصوراً كالذي تمكن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة ، لا محمود ولا منصور.

المفسد الرابع : الطعام

المفسد الرابع من مفسدات القلب : الطعام ، والمفسد له من ذلك نوعان :

أحدهما : ما يفسده[٤] لعينه وذاته كالمحرمات.

وهي نوعان :

- **محرمات لحق الله** ، كالميتة والدم ولحم الخنزير[٥] ، وذي الناب من

---

(١) في ح١ : الذل.

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من ح٢.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : عليه.

(٤) في ش : ما يفسد.

(٥) كما قال تعالىٰ : ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله. . .﴾ [البقرة : ١٧٣].

السباع والمخلب من الطير[1].

- ومحرمات لحق العباد، كالمسروق والمغصوب والمنهوب. وما أخذ بغير رضىٰ صاحبه، إما قهراً وإما حياء وتذمماً.

والثاني : ما يفسده بقدره : وتعدي حده، كالإسراف في الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات. ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها، حتىٰ يظفر بها. فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذي بثقلها. وقوّىٰ عليه مواد الشهوة، وطرق مجاري الشيطان ووسعها، فإنه يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم. فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها. ومن أكل كثيرا شرب كثيراً. فنام كثيراً. فخسر كثيراً. وفي الحديث المشهور : «ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه[2]. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه. فإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه »[3].

---

(١) كما روىٰ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : «نهىٰ رسول الله ﷺ : عن كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير» .

أخرجه مسلم ٣/ ١٥٣٤ في كتاب الصيد، باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير (ح١٩٣٤)، وأحمد في مسنده ١/ ٢٤٤.

(٢) في ق : بطن.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤/ ١٣٢، وابن ماجه ٢/ ١١١١ في كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل (ح٣٣٤٩)، والترمذي ٤٠/ ٥٩٠ في كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل (ح٢٣٨٠) وقال : حسن صحيح، والحاكم في المستدرك ٤/ ١٣٥ في كتاب الأطعمة

ويحكىٰ أن إبليس[1] عرض ليحيىٰ بن زكريا عليهما السلام فقال له [2] : هل نلت[3] مني شيئاً قط؟ قال : لا. إلا أنه قدم إليك الطعام ليلة فشهيته إليك حتىٰ شبعت منه. فنمت عن وردك. فقال: [4] لله عليَّ أن لا أشبع من طعام أبداً. فقال[5] : وأنا ، لله عليَّ أن لا أنصح رجلاً[6] أبداً.

(ح٧١٣٩) بلفظ : «ما وعىٰ ابن آدم وعاءً. . . » وسكت عنه. وقال الذهبي صحيح. وصححه الألباني. انظر : الإرواء ٧/ ٤١ (ح١٩٨٣).

(١) في ط زيادة : لعنه الله.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : يحيى.

(٣) «نلت» ساقطة من ق.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : يحيىٰ.

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : إبليس.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : آدمياً.

فصل

المفسد الخامس: كثرة النوم

المفسد الخامس: كثرة النوم، فإنه يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل.

ومنه المكروه جداً. ومنه الضار غير النافع للبدن.

وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه. ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره. ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه. وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه، وكثر ضرره ولا سيما نوم العصر. والنوم[1] أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح[2] وطلوع الشمس. فإنه وقت غنيمة، وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة. حتىٰ[3] لو ساروا طول[4] ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتىٰ تطلع الشمس. فإنه أول النهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة[5] ومنه ينشأ النهار. وينسحب حكم جميعه علىٰ حكم تلك الحصة.

---

(١) في أ: ونوم.

(٢) في ب: الفجر.

(٣) «حتىٰ» ساقطة من أ.

(٤) في غ: أطول.

(٥) ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: «اللهم بارك لأمتي في بكورها» رواه أحمد في مسنده ٣/ ٤١٦، وأبو داود ٣/ ٨٠٧٩ في كتاب الجهاد، باب في الابتكار في السفر (ح٢٦٠٦)، وابن ماجه ٢/ ٧٥٢ في كتاب التجارات، باب ما يرجىٰ من البركة في البكور (ح٢٢٣٦)،

فينبغي أن يكون نومها[١] كنوم المضطر.

وبالجملة **فأعدل النوم وأنفعه** : نوم نصف الليل[٢] ، وسدسه الأخير. وهو مقدار ثمان ساعات. وهذا أعدل النوم عند الأطباء. فما[٣] زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافاً بحسبه.

ومن النوم الذي لا ينفع أيضاً : النوم أول الليل ، عقيب غروب الشمس ، حتىٰ تذهب فحمة العشاء. وكان نبي[٤] الله ﷺ يكرهه[٥]. فهو مكروه شرعاً وطبعاً.

وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات ، فمدافعته وهجره مطلقاً[٦] مورث لآفات أخرىٰ عظام : من سوء المزاج ويبسه[٧] ، وانحراف النفس ، وجفاف

والترمذي ٣/ ٥٠٨ في كتاب البيوع باب ما جاء في التبكير في التجارة ح (١٢١٢) ، والطيالسي في مسنده (٦/ ١٧٥) ح(١٢٤٦) وصححه الألباني. انظر : صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٢١)ح(١٨١٨) .

(١) في ش : نوماً.

(٢) في ط والجميع زيادة : الأول.

(٣) في ط : وما زاد.

(٤) في ط رسول الله.

(٥) فعن أبي برزة « أن رسول الله ﷺ :كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها » . رواه البخاري ٢/ ٤٩ في كتاب الصلاة ، باب ما يكره في النوم قبل العشاء (ح٥٦٨) وروىٰ أحمد في مسنده ٦/ ٢٦٤ عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما نام رسول الله ﷺ قبل العشاء ولا سهر بعدها».

(٦) «مطلقاً» ساقطة من ط ومن الجميع.

(٧) «ويبسه» ساقطة من أ.

الرطوبات[١]، المعينة علىٰ الفهم والعمل. ويورث أمراضاً متلفة، لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها. وما قام الوجود إلا بالعدل. فمن اعتصم به[٢] فقد أخذ بحظه من مجامع الخير. والله المستعان.

* * *

(١) في ق: الرطوبة.

(٢) في ب: بالله.

فصل

منزلة الاعتصام

ثم ينزل القلب منزل[1] «الاعتصام»[2] ، وهو نوعان :

اعتصام بالله ، واعتصام بحبل الله . قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران :١٠٣] وقال : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج : ٧٨] .

والاعتصام افتعال من العصمة . وهو التمسك بما يعصمك ، ويمنعك من المحذور والمخوف[3] . فالعصمة[4] : الحمية . والاعتصام : الاحتماء . ومنه سميت القلاع : العواصم لمنعها وحمايتها[5] .

---

(١) في ب : منزلة .

(٢) الاعتصام عند الصوفية : هو أحد أبواب البدايات . وهو الاحتماء أي: الاحتماء إلىٰ الله ، وقد يطلق ويراد به الاستخذاء ، ويراد به المحافظة علىٰ الطاعة ومراقبة الأمر ، وهو علىٰ مراتب .

فهو للعامة : يعني المحافظة علىٰ الطاعة مراقبة الأمر لله .

أما الخاصة: فهو الاحتماء بإرادته عن إرادتهم بانقطاع أنفسهم عن غرض الإرادة فلا يبقىٰ لهم إرادة . أما خاصة الخاصة فهو احتماء العبد بهوية الحق عن رؤية إنية يضيفها إلىٰ نفسه أو إلىٰ غيره من الخلق .

وهو لخلاصة خاصة الخاصة احتماء بتأدية الحق له تضييع حقوق الربوبية وهو الوقوع تحت قهر سلطان التجليات . انظر : لطائف الإعلام ١/ ٢٢٠-٢٢١ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٨ .

(٣) في ط : والمخوف .

(٤) في غ ، ب ، ح١ ، أ : والعصمة .

(٥) انظر : لسان العرب ٩/ ٢٤٤ مادة : عصم .

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية ، علىٰ الاعتصام بالله ، والاعتصام بحبله ، ولا نجاة إلا لمن استمسك[١] بهاتين العصمتين .

فأما الاعتصام بحبله : فإنه يعصم من الضلالة ، والاعتصام به : يعصم من الهلكة . فإن السائر الىٰ الله كالسائر علىٰ طريق نحو مقصده ، فهو محتاج إلىٰ هداية الطريق . والسلامة فيها[٢] . فلا يصل إلىٰ مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له . فالدليل كفيل يعصمه[٣] الضلالة ، وأن يهديه إلىٰ الطريق ، والعدة والقوة والسلاح[٤] بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها .

والاعتصام[٥] بحبل الله: يوجب له الهداية واتباع الدليل. والاعتصام بالله ، يوجب له القوة والعدة والسلاح[٦] ، والمادة التي يسلم[٧] بها فىٰ طريقه . ولهذا اختلفت[٨] عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله ، بعد إشارتهم[٩] كلهم إلىٰ هذا المعنىٰ .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : تمسك .

(٢) في ب : منها .

(٣) في ط ، م ، ح٢ ، ش : بعصمته من .

(٤) في ط زيادة : التي .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : فالاعتصام .

(٦) «والسلاح» ساقطة من م ، ح٢ .

(٧) في ط ، أ ، ب ، غ ، م ، ح٢ : يستلئم .

(٨) في غ : اختلف .

(٩) في ب إشاراتهم .

فقال ابن عباس : تمسكوا بدين الله[١] .

وقال ابن مسعود : هو الجماعة[٢] . وقال : عليكم بالجماعة . فإنها حبل الله الذي أمر به ، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة[٣] .

وقال[٤] مجاهد وعطاء : بعهد الله[٥] . وقال قتادة والسدي وكثير من المفسرين[٦] هو القرآن[٧] .

قال ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ : إن هذا القرآن هو[٨] حبل الله ، وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، وعصمة من تمسك به ، ونجاة من تبعه[٩] . وقال

---

(١) انظر : تفسير البغوي ١/ ٣٣٣ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٣/ ٣٧٨ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٣٣ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٣/ ٣٨٠ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٣٣ .

(٤) في ق : قال .

(٥) انظر : تفسير الطبري ٣/ ٣٧٩ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٣٣ .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : أهل التفسير .

(٧) انظر : تفسير الطبري ٣/ ٣٧٨ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٣٣ .

(٨) «هو» ساقطة من ق .

(٩) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٠/ ٤٨٢ ، ٤٨٣ عن ابن مسعود مرفوعاً ، ورواه الحاكم في المستدرك ١/ ٧٤١-٧٤٢ وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بصالح بن عمر . وقال الذهبي : علىٰ شرط مسلم . وذكره البغوي في تفسيره ١/ ٣٣٣ ، وعزاه ابن كثير في تفسيره ٢/ ٨٤ لابن مردويه مرفوعاً . وذكره المنذري في الترغيب. ٢/ ٣٥٤ وذكره الهيثمي في المجمع ٧/ ١٦٤ وقال : رواه الطبراني وفيه مسلم بن إبراهيم الهجري وهو متروك ، ورواه الدارمي في سننه ٢/ ٣١٠ موقوفاً علىٰ ابن مسعود (ح٢٣١٨) .

علي بن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ في القرآن : «هو حبل الله المتين . وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تلتبس[1] به الألسن ، ولايشبع منه العلماء»[2] . وقال مقاتل : بأمر الله وطاعته ، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى[3] .

وفي الموطأ[4] من حديث مالك عن سهيل بن صالح عن أبيه[5] عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً . يرضى لكم : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تُناصِحوا من ولاه الله أمركم . ويسخط لكم: قيل وقال ،

---

(١) في ط والجميع سوى ش ، د : تختلف .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٠/ ٤٨٢ (ح١٠٠٥٦) ، والدارمي في سننه ٢/ ٣١٢ ، ٣١٣ (ح٣٣٣٤) ، والبزار في مسنده ٣/ ٧١ ، ٧٢ (ح٨٣٦) ، والترمذي في سننه ٥/ ١٧٢ ، ١٧٣ في كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل القرآن (ح٢٩٠٦) وقال : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول ، وفي الحارث مقال ، ورواه البغوي في شرح السنة٤/ ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، وروى جزءاً منه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٩١ ، وذكره الهيثمي في المجمع ٧/ ١٦٤ ، ١٦٥ وقال : رواه الطبراني وفيه عمر بن واقد وهو متروك . وقال محققو المسند ٢/ ١١٢ : إسناده ضعيف لضعف الحارث بن عبدالله الأعور ، ثم هو منقطع .

قال ابن كثير في فضائل القرآن : وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي ﷺ وقد وهم بعضهم رفعه ، وهو كلام حسن . انظر : شرح السنة ٤/ ٤٣٩ هامش ١ .

(٣) انظر : تفسير البغوي ١/ ٣٣٣ .

(٤) رواه مالك في الموطأ ٢/ ٩٩٠ في كتاب الكلام، باب ما جاء في إضاعة المال وذي الوجهين.

(٥) «أبيه» ساقطة من غ .

وإضاعة المال، وكثرة السؤال» رواه مسلم [1] في الصحيح [2].

قال صاحب المنازل:

الاعتصام بحبل الله

«الاعتِصَامُ بِحَبلِ الله: هُوَ المحَافَظَةُ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، مُرَاقِباً لأَمرِهِ» [3].

ويريد بمراقبة الأمر: القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحبها. لا لمجرد العادة، أو لعلة باعثة سوىٰ امتثال الأمر. كما قال طلق بن حبيب [4] - رضي الله عنه - في التقوىٰ: هىٰ العمل بطاعة الله، علىٰ نور من الله [ترجو ثواب الله] [5]، وترك معصية الله، علىٰ نور من الله، تخاف عقاب الله [6].

وهذا هو الإيمان والاحتساب، المشار إليه في كلام النبي ﷺ كقوله: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً. ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له» [7] فالصيام والقيام: هو الطاعة، و الإيمان: مراقبة الأمر. وإخلاص الباعث:

---

(١) رواه مسلم ٣/ ١٣٤٠ في كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (ح١٧١٥)، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٦٧.

(٢) «الصحيح» ساقطة من م، ح٢.

(٣) انظر: المنازل ١٦.

(٤) طلق بن حبيب الغزي البصري العابد الثقة، كان يقول بالإرجاء، قال العجلي: كان من أعبد أهل زمانه، توفي بعد التسعين وقبل المائة. ترجمته في: الحلية ٣/ ٦٣، السير ٤/ ٦٠١، البداية والنهاية ٩/ ١٠٦، تهذيب التهذيب ٥/ ٣١.

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وش و، ما أثبته من الأثر وباقي النسخ.

(٦) انظر: الحلية ٣/ ٦٤.

(٧) رواه مسلم ١/ ٥٢٣ في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح =

هو أن يكـون الإيـمان الآمر ، لا شيء سـواه : و الاحتساب : رجاء ثـواب الله .
فالاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل .

* * *

= (ح٧٦٠) ، والبخاري ٤/ ١١٥ في كتاب الصوم ، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية (ح١٩٠١) لكن بتقديم قيام ليلة القدر علىٰ صيام رمضان ، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٤١ .

فصل

الاعتصام بالله

وأما الاعتصام به [١] : فهو التوكل عليه ، والامتناع به ، والاحتماء به ، وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه ، ويعصمه ويدفع عنه ، فإن ثمرة الاعتصام به : هو الدفع عن العبد . والله يدفع [٢] عن الذين آمنوا . فيدفع عن عبده المؤمن به [٣] إذا اعتصم به كل سبب يفضي [٤] إلىٰ العطب ، ويحميه منه [٥] . فيدفع عنه الشبهات والشهوات ، وكيدَ عدوِّه الباطنَ والظاهرَ [٦] ، وشرَّ نفسه . ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها ، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه ، فينعقد [٧] في حقه أسباب العطب . فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها . ويدفع عنه قَدَرَه بقَدَرِه ، وإرادته بإرادتِه ، ويُعيذُه به منه .

* * *

---

(١) «به» ساقطة من م .

(٢) في ط ، ح٢ : يدافع .

(٣) «به» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٤) في ط ، م زيادة : به .

(٥) في م ، ح٢ : عنه .

(٦) في ط : الظاهر والباطن .

(٧) في ط ، أ ، ب ، غ ، ح١ : فتفقد .

فصل

وأما[1] صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ فقال :

«الاعتِصَامُ بالله[2] التَّرَقِّي عَن كُلِّ مَوهُومٍ»[3] .

الموهوم عنده ما سوىٰ الله . والترقي عنه[4] الصعود من شهود نفعه وضره، وعطائه ومنعه وتأثيره ، إلىٰ الله . وهذا[5] إشارة إلىٰ الفناء[6] . ومراده : الصعود عن شهود ما سوىٰ الله إلىٰ الله . والكمال في ذلك ، الصعود عن إرادة ما سواه[7] إلىٰ إرادته .

والاتحادي[8] يفسره بالصعود عن وجود ما سواه إلىٰ وجوده . بحيث لا

---

(١) «وأما» ساقطة من ق .

(٢) في ش زيادة هو .

(٣) انظر : المنازل ص١٦ .

(٤) في ق : عنده .

(٥) في ط ، ح١ ، ب ، غ ، أ : وهذه .

(٦) الفناء : هو سقوط الأوصاف المذمومة ، وهو ضد البقاء الذي يعني وجود الأوصاف المحمودة ، وهو الاستغراق في المشاهدة والذهول عن الغير ، وقيل : هو تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية دون الذات . وخلاصته : الزوال والاضمحلال . وهو عند الطائفة مراتب فمنه : فناء عن إرادة السوىٰ ، وفناء عن شهود السوىٰ ، وفناء عن وجود السوىٰ .
انظر : معجم مصطلحات الصوفية ٢٠٧ ، التعرف لمذهب التصوف ١٤٢ ، لطائف الإعلام ٢/ ٢١٧ ، التعريفات ١٩٢ .

(٧) في ط : ما سوىٰ الله .

(٨) يعني بالاتحادي العفيف التلمساني . انظر : قوله في شرحه لمنازل السائرين ١/ ٩٤ .

يرىٰ لغيره وجودا البتة ، ويرىٰ وجود كل موجود ، هو وجوده فلا وجود لغيره إلا في الوهم الكاذب عنده .

اعتصام العامّة

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ درجَاتٍ : اعتِصَامُ العَامَّةِ بِالخَبَرِ استِسْلاَماً ، وَإِذْعَاناً ، بِتَصدِيقِ الوَعدِ وَالوعِيدِ ، وَتَعظِيمِ الأَمرِ والنَّهيِ . وَتَأْسِيسِ المعَامَلَةِ عَلَىٰ اليَقِين وَالإنصَافِ»[1] .

يعني أن العامة اعتصموا بالخبر الوارد عن الله، استسلاماً من غير منازعة، بل إيماناً واستسلاماً . وانقادوا إلىٰ تعظيم الأمر والنهي والإذعان لهما ، والتصديق بالوعد والوعيد . وأسَّسوا معاملتهم علىٰ اليقين ، لا علىٰ الشك والتردد وسلوك طريق[2] الاحتياط . كما قال القائل :

زعم المنجِّمُ والطبيبُ كلاهما ... لا تبعث الأجسادُ قلتُ : إليكُما
إن صحَّ قولُكما فلستُ بخاسرٍ ... أو صحَّ قولي فالخسارُ عليكُما[3]

فهذه[4] طريقة[5] أهل الرَّيب والشك . يقومون بالأمر والنهي احتياطاً وهذه الطريقة[6] لا تنجي من عذاب الله ، ولا يحصل[7] لصاحبها السعادة ، ولا توصله

---

(١) المنازل ١٦ وفيها زيادة : «وهو الاعتصام بحبل الله» .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : طريقة .

(٣) البيتان لأبي العلاء المعري . انظر : اللزوميات ولزوم ما لا يلزم ٢٠٦ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش ، د : هذه .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش ، م : طريق .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش ، م : الطريق .

(٧) في ط ، ش ، ق : تحصل .

إلىٰ المأْمَن . وأما الإنصاف الذي أسَّسوا معاملتهم عليه؛ فهو الإنصاف في معاملتهم لله ولخلقه . فأما الإنصاف في معاملة الله ، فأن يعطي العبودية حقها ، وأن لا ينازع ربه صفات إلهيته التي لا تليق[1] بالعبد ، ولا تنبغي[2] له : من العظمة والكبرياء والجبروت[3] .

ومن إنصافه لربه : أن لا يشكر سواه علىٰ نعمه وينساه ، ولا يستعين بها علىٰ معاصيه ، ولا يحمد علىٰ رزقه غيره ، ولا يعبد سواه . كما في الأثر الإلهي «إني والجن والإنس في نبإٍ عظيم : أخلق ويعبد غيري . وأرزق ويشكر سواي»[4] .

وفي أثر آخر : «ابن آدم : ما أنصفتني ، خيري إليك نازل ، وشرك إلي صاعد . أتحبب إليك بالنعم ، وأنا غني عنك[5] . وتتبغض إلي بالمعاصي وأنت

---

(١) في الأصل : يليق ، وما أثبته من الجميع ، ط والسياق يقتضي ذلك .

(٢) في الأصل : ينبغي ، وما أثبته من الجميع ، ط والسياق يقتضي ذلك .

(٣) في الأصل والجميع : الجبرية وهو خطأ وما أثبته من المطبوع .

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٤/ ١٣٤ عن أبي الدرداء ، وذكره الديلمي في الفردوس ٣/ ١٦٦ ، والألباني في الضعيفة ٥/ ٣٩٣ (ح٢٣٧١) ، وروىٰ الإمام أحمد في كتاب الزهد ١٠٧ نحوه عن الحسن قال : قال الله عز وجل : «يا بني آدم خلقتك وتعبد غيري ، وتدعو إلي وتفر مني ، وتذكر بي وتنساني ، هذا أظلم الظلم في الأرض . قال ثم تلا الحسن : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان :١٣] ، ورواه الأصفهاني في الحلية ٢/ ١٤٨ عن الحسن كذلك .

(٥) في ط : وأنا عنك غني .

فقير إليَّ . ولا يزال الملك الكريم ، يعرج إليَّ منك بعمل قبيح» [1] .

وفي أثر آخر :«يا ابن آدم . ما من يوم جديد ، إلا يأتيك من عندي رزق جديد ، وتأتي عنك الملائكة بعمل قبيح . تأكل رزقي وتعصيني . وتدعوني فأستجيب لك ، وتسألني فأعطيك ، وأنا أدعوك إلىٰ جنتي فتأبىٰ ذلك . وما هذا من الإنصاف»[2] .

وأما الإنصاف في حق العبيد : فأن يعاملهم مثل ما يحب أن يعاملوه به .

ولعمر الله هذا الدين ولو أنه اعتصام العامة [3] ، هو اعتصام خاصة الخاصة في الحقيقة . ولكن الشيخ[4] ـ رحمه الله ـ ممن رفع له علم الفناء فشمر إليه . فلا تأخذه فيه لومة لائم . ولا يرىٰ مقاما أجل منه .

* * *

(١) رواه الأصفهاني في الحلية ٤/ ٢٧ عن بكار بن وهب بن منبه قال : قرأت في بعض الكتب الإلهية فوجدت الله يقول : « يا ابن آدم . . . » .

ورویٰ جزءاً منه كذلك في الحلية ٢/ ٣٧٧ عن مالك بن دينار قال : قرأت في بعض الكتب إن الله عز وجل يقول : «يا ابن آدم خيري ينزل عليك . . . . » .

(٢) هذا الأثر معناه قريب من الأثرين السابقين .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : هذا الذي ذكر أنه اعتصام العامة ...

(٤) يعني الهروي رحمه الله .

فصل

«[1] واعتِصَامُ الخَاصَّةِ : بالانقِطَاعِ . وَهُوَ صَوْنُ الإرَادَةِ قَبضاً ، وإسبَالُ الخَلقِ عَلىٰ[2] الخَلقِ بَسْطاً ، وَرَفضُ العَلائِقِ عَزماً ، وَهُوَ التَّمَسُّكُ بِالعُروَةِ الوُثقَىٰ»[3] .

اعتصام الخاصة

يريد انقطاع النفس عن أغراضها من هذه الوجوه الثلاثة . فيصون إرادته ، ويقبضها عما سوىٰ الله سبحانه . وهذا شبيه بحال أبي يزيد ـ رحمه الله ـ فيما أخبر به عن نفسه لما قيل له : ما تريد؟ فقال : أريد أن لا أريد[4] .

الثاني : إسبال الخلق علىٰ الخلق بسطاً . وهذا حقيقة التصوف[5] . فإنه كما قال بعض العارفين[6] : التصوف خلق . فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف[7] .

---

(١) في ط والجميع زيادة : قال .

(٢) في الأصل وط : عن . وما أثبته من الجميع ومن نسخة المنازل .

(٣) انظر : المنازل ١٦ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٢١٨ .

(٥) الصوفية أو أهل التصوف : اختلف في اشتقاق لفظ الصوفية علىٰ أقوال كثيرة لعل أرجحها أنها نسبة إلىٰ لبس الصوف ، وقد كانت بداية التصوف عبارة عن التمسك بالأخلاق والزهد في الدنيا لعبادة الله عز وجل إلىٰ أن أصبح عقائد باطلة ، كالحلول والاتحاد ، وترك الواجبات ، وفعل المحرمات . انظر : تلبيس إبليس لابن الجوزي ١٦١ وما بعدها ، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص ٧٢وما بعدها ، التصوف المنشأ والمصدر لإحسان إلهي ظهير ص ٢٠وما بعدها .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : أبو بكر الكتاني .

(٧) انظر : الرسالة القشيرية ٢٤٢ .

فإن حسن الخلق وتزكية النفس بمكارم الأخلاق، يدل علىٰ سعة قلب صاحبه، وكرم نفسه وسجيته. وفي هذا الوصف، يكف الأذىٰ، ويحمل الأذىٰ، ويوجد الراحة، ويدير خده الأيسر لمن لطمه علىٰ الأيمن[١]، ويعطي رداءه لمن سلبه قميصه، ويمشي ميلين مع من سخره ميلاً. وهذا علامة انقطاعه عن حظوظ نفسه وأغراضها.

وأما رفض[٢] العلائق عزماً: فهو العزم التام علىٰ رفض العلائق، وتركها في ظاهره وباطنه.

والأصل هو قطع علائق الباطن. فمتىٰ قطعها لم تضره علائق الظاهر. فمتىٰ كان المال في يدك[٣]، وليس في قلبك لم يضرك ولو كثر. ومتىٰ كان في قلبك ضرَّ[٤]، ولو لم يكن في يديك[٥] منه شيء.

قيل للإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: أيكون الرجل زاهداً، ومعه ألف دينار؟ قال: نعم علىٰ شريطة[٦] أن لا يفرح إذا زادت[٧] ولا يحزن إذا نقصت[٨]. ولهذا

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش: لطم الأيمن.

(٢) في الأصل: قبض. وهو خطأ وما أثبته من الجميع، ط.

(٣) في أ زيادة: منه شيء.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش: ضرك.

(٥) في ط والجميع: يدك.

(٦) في ح١: بشرط.

(٧) في م: زيدت.

(٨) قال ابن رجب: وسئل بعضهم – أظنه الإمام أحمد – عمن معه مال: هل يكون زاهداً؟ قال: إن كان لايفرح بزيادته ولا يحزن بنقصه أو كما قال. انظر: جامع العلوم والحكم ٢/ ١٨٣.

كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال[1] .

وإنما يُحمد قطع العلائق الظاهرة في موضعين[2] : حيث يخاف منها ضرراً في دينه ، أو حيث لا يكون فيها مصلحة راجحة . والكمال من ذلك : قطع العلائق التىٰ تصير[3] كلاليب علىٰ الصراط تمنعه من العبور . وهي كلاليب الشهوات والشبهات ، ولا يضره ما تعلق به بعدها .

* * *

(١) في الجميع سوىٰ ش زيادة : وقيل لسفيان الثوري : أيكون ذو المال زاهداً؟ قال : نعم . إن كان إذا زيد في ماله شكر ، وإن نقص شكر وصبر . وانظر الحلية ٦/ ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

(٢) في أ : نوعين .

(٣) «تصير» ساقطة من ق .

فصل

اعتصام خاصة الخاصة

قال : «واعتِصَامُ خَاصَّةِ الخَاصَّةِ : بالاتِّصَالِ . وَهُوَ شُهُودُ الحَقِّ تَفرِيداً . بَعْدَ الاستِخْذَاءِ(١) لَهُ تَعظِيماً ، وَالاشتِغَالِ بِهِ قُرْباً»(٢) .

لما كان ذلك الانقطاع موصلا إلىٰ هذا الاتصال ، كان ذلك للمتوسطين . وهذا عنده لأهل الوصول .

ويعني بشهود الحق تفريداً : أن يشهد الحق سبحانه وحده منفرداً . ولا شيء معه ، وذلك لفناء الشاهد في المشهود(٣) ، والحوالة في ذلك عند القوم : علىٰ الكشف(٤) .

---

(١) الاستخذاء : هو الخضوع والانقياد، واستخذيت: خضعت. انظر : لسان العرب ٤/ ٤٢ مادة : «خذأ» . والاستخذاء عند الصوفية : يطلق ويراد به القرب : وهو هبة من الله لعبده وملخصه عندهم : أنه القرب برفع الوسائط التي بارتفاعها يكمل للعبد حقيقة التعظيم لربه . انظر : لطائف الإعلام ١/ ١٩٧ . والاستخذاء هكذا في المنازل ، وفي نسخ المدارج كلها الاستحذاء ، وابن القيم شرح هذه اللفظة ولعله اطلع علىٰ نسخة أخرىٰ للمنازل مع أن الأقرب هو ما ذكر في المنازل هنا ، والله أعلم .

(٢) انظر : المنازل ١٦ وفيها زيادة : «وهو الاعتصام بالله» .

(٣) في «ط» : الشهود .

(٤) الكشف : هو عبارة عن كشف النفس لما غاب عن الحواس إدراكه ، والاطلاع علىٰ ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية بحيث يرتفع الغيب كما هو في المرئيات ، سواء كان ذلك بفكر أو حدس ، أو سانح أو غيرها .

انظر : معجم مصطلحات الصوفية ٢٢٥، لطائف الإعلام ٢/ ٣٣٣ ، التعريفات ص ٢١٠ .

وقد تقدم أن هذا ليس بكمال وأن[1] الكمال : أن يفنىٰ بمراده عن مراد نفسه . وأما فناؤه بشهوده عن شهود ما سواه[2] : فدون[3] هذا الفناء في الرتبة كما تقدم[4] .

وأما قوله : «بَعدَ الاستِحذَاءِ له تعظِيماً» فالشيخ ـ رحمه الله ـ لكثرة لهجه بالاستعارات ، عبر عن معنىٰ لطيف عظيم بلفظة «الاستحذاء» التي هي استفعال من المحاذاة . وهي المقابلة التي لا يبقىٰ فيها جزء من المحاذي خارجا عما حاذاه؛ بل قد واجهه وقابله بكليته وجميع أجزائه ، ومراده بذلك : القرب ، وارتفاع الوسائط المانعة منه ، ولا ريب أن العبد يقرب من ربه ، والرب يقرب من عبده[5] . فأما قرب العبد : فكقوله تعالىٰ : ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩﴾ [العلق :١٩] وقوله في الأثر الإلهي : «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً» [6] وكقوله : «وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه . ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع

---

(١) في ش : وإنما وفي ح٢ ، م : فإن .

(٢) في ق : شهوده وما سواه .

(٣) في ش : فالآن .

(٤) انظر : المدارج ١/ ١٥٤ وما بعدها .

(٥) في أ : منه .

(٦) جزء من حديث رواه البخاري ١٣/ ٣٨٤ في كتاب التوحيد باب ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ ح٧٤٠٥، ومسلم ٤/ ٢٠٦١ في كتاب الدعاء والتوبة، باب الحث علىٰ ذكر الله (ح٢٦٧٥) ، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٥١ ، ٤١٣ .

به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع . وبي يبصر . وبي يبطش . وبي يمشي»(١) ، وفي الحديث الصحيح : «أقرب ما يكون الرب من عبده : في جوف الليل الأخير»(٢) . [وفي الحديث أيضا : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»(٣)](٤) . وفي الحديث الصحيح - لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبي ﷺ في السفر فقال : «يا أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً . إن الذي(٥)

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري ١١/ ٣٤٠ عن أبي هريرة في كتاب الرقاق ، باب التواضع ، (ح٦٥٠٢) ، وأحمد في مسنده ٦/ ٢٥٦ بنحوه عن عائشة ، والطبراني في الكبير ٨/ ٢٤٤ عن أبي أمامة الباهلي . وآخره : «فبي يسمع ...» يذكرها ابن القيم وشيخه ابن تيمية كثيراً كما في الفتاوى ٥/ ١١و١٠/ ٥٨ ويذكر أنها من رواية البخاري وذكرها ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٥٢ نقلاً عن الطوفي ولم يعزها لأحد . انظر السلسلة الصحيحة للألباني ٤/ ١٨٣ ، ١٩١ .

(٢) رواه الترمذي ٥/ ٥٦٩ ، ٥٦٠ ، في كتاب الدعوات ، باب (١١٩) (ح٣٥٧٩) وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه ، والنسائي ١/ ٢٧٩ - ٢٨٠ في كتاب المواقيت باب النهي عن الصلاة بعد العصر ، (ح٥٧٢) ، وابن خزيمة في صحيحه ٢/ ١٨٢ (ح١١٤٧) ، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٥٣ (ح١١٦٢) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وقال الألباني : صحيح . انظر : صحيح الترغيب ١/ ٢٥٧ .

(٣) رواه مسلم ١/ ٣٥٠ في كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود ، ح(٤٨٢) ، وأحمد في مسنده ٢/ ٤٢١ ، وأبو داود ١/ ٥٤٥ في كتاب الصلاة ، باب في الدعاء في الركوع والسجود (ح٨٧٥) ، والنسائي ٢/ ٢٢٦ في كتاب التطبيق ، باب أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل ، (ح١١٣٧) .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من أ .

(٥) في الأصل : الذين وهو خطأ .

تدعونه سميع قريب . أقرب إلىٰ أحدكم من عنق راحلته»[١] .

فعبر الشيخ - رحمه الله - عن طلب القرب منه ، ورفض الوسائط الحائلة بينه وبين القرب المطلوب الذي لا تقر عيون عابديه وأوليائه إلا به :

- بالاستحذاء - وحقيقته[٢] : موافاة العبد إلىٰ حضرته وقدامه ، وبين يديه ، عكس حال من نبذه وراءه ظهرياً وأعرض عنه ونأىٰ[٣] بجانبه ، بمنزلة من ولىٰ المطاع ظهره . ومال بشقه عنه .

وهذا أمر[٤] لا يدرك معناه إلا بوجوده وذوقه . وأحسن ما يعبر عنه ، بالعبارة[٥] النبوية المحمدية ، وأقرب عبارات القوم عنه[٦] : أنه التقرب[٧] برفع الوسائط التىٰ بارتفاعها يحصل للعبد[٨] حقيقة التعظيم . فلذلك قال «الاستحذاء له تعظيماً» .

---

(١) رواه البخاري ١١/ ٥٠٠ في كتاب القدر ، باب لا حول ولا قوة إلا بالله (ح٦٦١٠) ، ومسلم ٤/ ٢٠٧٦ في كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ، (ح٢٧٠٤) ، وأحمد في مسنده ٤/ ٤٠٢ .

(٢) في غ ، د : وحقيقة .

(٣) في أ : ونادىٰ .

(٤) في ط : الأمر .

(٥) في ب : العبارات .

(٦) «عنه» ساقطة من ط والجميع سوىٰ : ش .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : التقريب .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش : للعبد .

ومن أراد فهم هذا - كما ينبغي - فعليه بفهم اسمه تعالىٰ «الباطن» وفهم اسمه «القريب» مع امتلاء القلب بحبه، ولهج اللسان بذكره. ومن هٰهنا يؤخذ العبد إلىٰ الفناء الذي كان مشمراً إليه، عاملاً عليه.

فإن كان مشمراً إلىٰ الفناء المتوسط، وهو الفناء عن شهود السوىٰ، لم يبق في قلبه شهود[1] لغيره ألبتة، بل تضمحل الرسوم[2] وتَفْنىٰ الإشارات[3] ويفنىٰ من لم يكن، ويبقىٰ من لم يزل. وفي هذا المقام يجيب داعي الفناء طوعاً ورغبة لا كرهاً[4]؛ لأن هذا المقام امتزج فيه الحب بالتعظيم مع القرب، وهو منتهىٰ سفر الطالبين لمقام الفناء.

وإن كان[5] مشمراً للفناء العالي، وهو الفناء عن إرادة السوىٰ: لم يبق في

---

(١) في الأصل وش: ويعبد، وما أثبته من باقي النسخ.

(٢) الرسم هو الخُلُق والصفات، والرسوم هي الآثار وكل ما سوىٰ الله آثاره. وهذا معنىٰ قولهم: نعت يجري في الأبد بما يجري في الأزل، واصطلح أهل الطريق علىٰ أن كل ما سوىٰ الله من الأغيار، وعالم الخلق رسوم. انظر: معجم مصطلحات الصوفية ١١٢، لطائف الإعلام ١/ ٤٨٩، التعرف ص١٠٦، ١٦٤، التعريفات ١٢٤.

(٣) الإشارات: الإشارة هي الإخبار من غير الاستعانة إلىٰ التعبير باللسان، وقيل: ما يخفىٰ عن المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه. وتفردت به الصوفية؛ لأن مشاهدات القلوب، ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها علىٰ التحقيق، بل تُعلم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نزل تلك الأحوال وحلَّ تلك المقامات.

انظر: معجم مصطلحات الصوفية ص١٦، ١٧، التعرف ١٠٠.

(٤) «لا كرهاً» ساقطة من: أ.

(٥) في ط زيادة: «العبد» وفي، أ، ب، ح١، ح٢، د، غ زيادة: «هذا».

قلبه مراد يزاحم مراده الديني الشرعي النبوي القرآني . بل يتحد المرادان فيصير عين مراد الرب هو[1] عين[2] مراد العبد . وهذا حقيقة المحبة الخالصة . وفيها يكون الاتحاد الصحيح ، وهو الاتحاد في المراد ، لا في المريد ، ولا في الإرادة .

فتدبر هذا الفرقان في هذا الموضع الذي[3] طالما زلت فيه أقدام السالكين. وضلت فيه أفهام الواجدين[4] .

وفي هذا المقام حقيقة ، يفنىٰ من لم يكن إرادةً وإيثاراً ، ومحبة وتعظيماً وخوفاً ورجاء وتوكلاً ، ويبقىٰ من لم يزل . وفيه ترتفع الوسائط بين الرب والعبد حقيقة، ويحصل[5] له الاستحذاء المذكور مقرونا بغاية الحب ، وغاية التعظيم .

وفي هذا المقام : يجيب داعي الفناء في المحبة طوعاً واختياراً لا كرهاً؛ بل ينجذب إليه انجذاب قلب المحب وروحه ، الذي قد ملأت المحبة قلبه .

---

(١) (هو) ساقطة من الأصل وش وما أثبته من باقي النسخ ولا يستقيم المعنىٰ إلا بها .

(٢) عين ساقطة من ط .

(٣) «الذي» ساقطة من : م .

(٤) الواجدين : الوَجْد هو ضد الفقد ، فمن لا فقد له فلا وجد له ، وهو ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع . وقيل : هو انقطاع الأوصاف عند سمت الذات بالسرور ، وهو من خواص أهل البدايات ، إذ هو عجز الروح عن احتمال غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذكر ، وقيل : هو الغيبة عن الأوصاف بشهود الحق ، وهو عند أصحاب الطريق درجات ومراتب .

انظر : معجم مصطلحات الصوفية ٢٦٤ ، لطائف الإعلام ٢/ ٣٨١ ، التعريفات ٢٧٨ .

(٥) في ح٢ : «ويجعل» .

بحيث لم يبق فيه جزء فارغ منها، إلىٰ محبوبه الذي هو أكمل محبوب، وأجمله[1]، وأحقه بالحب.

وهذا[2] أوجبه الحب الكامل الممتزج بالتعظيم والإجلال والقرب، ومحو ما سوىٰ مراد المحبوب من القلب. بحيث لم يبق في القلب إلا المحبوب ومراده، وهذا حقيقة الاعتصام به وبحبله. والله المستعان.

وأما قوله: «والاشتِغَالِ بِهِ قُرْباً» أي يشغله قرب الحق عن كل ما سواه، وهذا حقيقة القرب. ألا ترىٰ أن القريب من السلطان جدّاً، المقبل عليه، المكلم له، لا يشتغل بشيء سواه البتة؟ فعلىٰ قدر القرب من الله يكون اشتغال العبد به[3].

* * *

---

(١) في ط: «أجله».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «الفناء».

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «والله أعلم».

فصل

منزلة الفرار

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «**الفرار**» [1] .

قال تعالىٰ : ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات : ٥٠] ، **وحقيقة الفرار** : الهرب من شيء إلىٰ شيء . وهو نوعان : فرار السعداء . وفرار الأشقياء .

ففرار السعداء : الفرار إلىٰ الله تعالىٰ .

وفرار الأشقياء : الفرار منه لا إليه . وأما الفرار منه إليه : ففرار أوليائه . قال ابن عباس رضي الله عنهما : فيْ قوله تعالىٰ : ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فروا منه إليه ، واعملوا بطاعته[2] . وقال سهل بن عبدالله : فروا مما سوىٰ الله إلىٰ الله [3] . وقال آخرون : اهربوا من عذاب الله إلىٰ ثوابه بالإيمان والطاعة [4] .

وقال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

---

(١) الفرار : الهرب . ويقال : فرّ إليه أي لجأ إليه . انظر : المعجم الوسيط ٦٨٠ مادة : فرَّ والفرار هو الهرب عما يُبعد عن الحق إلىٰ ما يُقرب إليه .

وهو عند الصوفية أقسام : ففرار العامة : من علمهم بآداب الخدمة إلىٰ العمل بها . وفرار **الخاصة** : عن حظوظ الأنفس ، لا رجاء ولا خوف عقاب . **وخاصة الخاصة** : فرار عن الاشتغال بما سوىٰ الحق ، ثم بالفرار عن رؤية فرارهم بأنفسهم لمشاهدتهم قيومية الحق .

انظر : لطائف الإعلام ٢/ ٢٠٩ - ٢١٠ ، ومعجم مصطلحات الصوفية ٢٠٤ .

(٢) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٢٣٤ .

(٣) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٢٣٤ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١١/ ٤٧٣ ، وتفسير القرطبي ١٧/ ٥٣ .

فرار العامة

«هُوَ الهَرَبُ مِمَّا لَمْ يَكُنْ إلىٰ مَنْ لَمْ يَزَلْ . وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ :

فِرَارُ العَامَّةِ مِنَ الجَهلِ إلىٰ العِلمِ عَقداً وَسَعياً ، وَمِنَ الكَسَلِ إلىٰ التَّشمِيرِ جِدّاً وَعَزماً، وَمِنَ الضِّيقِ إلىٰ السَّعَةِ ثِقَةً وَرَجَاءً»[1] .

يريد بما لم يكن «الخلق» وما[2] لم يزل «الحق» .

أنواع الجهل

وقوله : «فِرَارُ العَامَّةِ مِنَ الجَهلِ إلىٰ العِلمِ عَقداً وَسَعْياً» .

الجهل نوعان : عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل[3] بموجبه ومقتضاه ، فكلاهما[4] جهل لغة وعرفاً وشرعاً وحقيقة . قال موسىٰ : ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧] لما قال له قومه ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أي[5] المستهزئين . وقال يوسف الصديق : ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] أي من[6] مرتكبي[7] ما حرمت عليهم . وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ [النساء :١٧] . قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ما عصىٰ الله به فهو جهالة[8] ، وقال غيره :

---

(١) انظر : المنازل ١٧ ، لكن قال : «إلىٰ ما لم يزل ... » .

(٢) في ط والجميع : «وبما» .

(٣) في د : «العلم» .

(٤) في ش : «وكلاهما» .

(٥) في ط زيادة : «من» .

(٦) «من» ساقطة من ق ، م .

(٧) في أ : «المرتكبين» .

(٨) انظر : تفسير الطبري ٣/ ٦٤٠ ، وتفسير القرطبي ٥/ ٩٢ .

أجمع الصحابة علىٰ[١] أن كل من عصىٰ الله فهو جاهل[٢][٣][٤] :

ألا لا يجهَلَـنْ أحَـدٌ علينـا فنجهل فوق جَهْـلِ الجاهلينا[٥]

وسمىٰ عدم مراعاة العلم جهلاً ، إما لأنه لم[٦] ينتفع به . فنزل منزلة الجاهل[٧] ، وإما لجهله بسوء ما يجني[٨] عواقب فعله .

فالفرار المذكور[٩] : الفرار من الجهلين ، من الجهل بالعلم إلىٰ تحصيله اعتقاداً ومعرفة وبصيرة ، والفرار[١٠] من جهل العمل إلىٰ السعي النافع ، والعمل الصالح قصداً وسعياً .

قوله[١١] : «**وَمِنَ الكَسَلِ إلىٰ التَّشْمِيرِ جِدّاً وَعَزماً**» . أي يفر من إجابة داعي الكسل إلىٰ داعي العمل ، والتشمير بالجد[١٢] والاجتهاد .

---

(١) «علىٰ» ساقطة من : ط ، ح١ ، غ ، أ ، ب .

(٢) في م ، ح٢ : «أن كل ما عُصي الله به فهو جهالة» .

(٣) انظر : تفسير البغوي ١/ ٤٠٧ .

(٤) في ط ، الجميع سوىٰ ش زيادة : «وقال الشاعر» .

(٥) هذا البيت لعمرو بن كلثوم ، انظر : ديوانه ٧٨ ، شرح المعلقات السبع ١٢٧ .

(٦) في م ، ح٢ : «لا» .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : «الجهل» .

(٨) في ط والجميع : «تجني» .

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : «هو» .

(١٠) «الفرار» ساقطة من : ط .

(١١) في ح٢ ، م : «قال» .

(١٢) في أ ، غ ، ح١ : «من الجد» .

و «الجد»[١] هو ها هنا[٢] صدق العزم[٣] ، وإخلاصه ، من شوائب الفتور ، ووعود[٤] التسويف والتهاون . وهو تجنب[٥] السين وسوف . وعسىٰ ، ولعل ، فهو[٦] أضر شيء علىٰ العبد . وهي شجرة ثمرها[٧] الحسرات[٨] والندامات .

الفرق بين الجد والعزم

والفرق بين الجد والعزم : أن «العزم» صدق الإرادة واستجماعها ، و «الجد» صدق العمل وبذل الجهد فيه . وقد أمر الله سبحانه بتلقي أوامره بالعزم والجد . فقال : ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقره :٦٣] ، وقال : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف : ١٤٥] وقال : ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم : ١٢] أي : بجد واجتهاد وعزم ، لا كمن يأخذ ما أُمر به بتردد وفتور .

وقوله : «وَمِنَ الضِّيقِ إلىٰ السَّعَةِ ثقةً وَرَجَاءً» .

يريد هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم ، والأحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه ، وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق

---

(١) «والجد» ساقطة من : ح٢ .

(٢) في ط : «ههنا هو» .

(٣) في ط : «العمل» .

(٤) في ح١ : «ووعد» .

(٥) في ط ، غ ، ح٢ ، م ، ب : «تحت» .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : «فهي» .

(٧) في د : «ثمرتها» .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش : «الخسران» .

بأسباب مصالحه ومصالح من يتعلق به ، وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعدوه . يهرب[1] من ضيق صدره بذلك كله إلىٰ سعة فضاء الثقة بالله ، وصدق التوكل عليه ، وحسن الرجاء لجميل صُنْعه به[2] ، وتوقّع المرجوِّ من لطفه وبره . ومن أحسن كلام العامة قولهم : لا هَمَّ مع الله . قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] . قال الربيع ابن خُثَيْم[3] : يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق علىٰ الناس[4] . وقال أبو العالية : مخرجاً من كل شدة[5][6] .

وقال الحسن : مخرجاً مما نهاه عنه[7] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق : ٣][8] ومن يثق به في نوائبه ومهماته . يكفيه كل ما أهمَّه .

---

(١) في ق : «ويهرب» .

(٢) «به» ساقطة من : ق .

(٣) الربيع بن خُثَيم بن عائذ الثوري الكوفي ، الإمام القدوة العابد ، أدرك زمن النبي ﷺ ، وكان قليل الرواية كثير الشأن ، يُعد من عقلاء الرجال ، وله كلمات في الزهد مأثورة ، توفي سنة ٦٥هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٣/ ٢٦٩ ، حلية الأولياء ٢/ ١٠٥ ، السير ٤/ ٢٥٨ ، تهذيب التهذيب ٣/ ٢٤٢ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١٢/ ١٣١ .

(٥) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٣٥٧ .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : «وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة ، ولمضايق الدنيا والآخرة ، فإن الله يجعل للمتقي من كل ما ضاق علىٰ الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجاً» .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٧ ، وانظر : تفسير الحسن البصري ٢/ ٣٥٢ .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : «أي كافي من يثق» .

والحسب[1] الكافي ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران :١٧٣ ، التوبه :٥٩] كافينا الله .

وكلما كان العبد حسن الظن بالله ، حسن الرجاء له ، صادق التوكل عليه ، فإن الله لا يخيِّب أملَه فيه البتة ، فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل[2] ، ولا يضيع عمل عامل . وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة . فإنه لا أشرح للصدر[3] ، ولا أوسع له -بعد الإيمان- من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به .



فصل

فرار الخاصة

قال : «وَفِرَارُ الخَاصَّةِ مِنَ الخَبَرِ إِلىٰ الشُّهُودِ ، وَمِنَ الرُّسُومِ إِلىٰ الأُصُولِ ، وَمِنَ الحظُوظِ[4] إِلىٰ التَّجرِيدِ[5]»[6] .

---

(١) في ش : « الحسيب » .

(٢) في ق : « مؤمل » .

(٣) في غ : « للعبد » .

(٤) الحظوظ : هي حظوظ النفس ولا تجتمع مع الحقوق؛ لأنهما ضدان لا يجتمعان ، فإذا ظهرت الحقوق غابت الحظوظ ، وإذا ظهرت الحظوظ غابت الحقوق ، ولهذا قيل : الغيبة أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها . انظر : التعرف لمذهب التصوف ١٣٦ ، معجم مصطلحات الصوفية ٧٨ .

(٥) التجريد : هو أن يتجرد الإنسان بظاهره عن الأعواض وبباطنه عن الأعراض ، فهو يفعل ما يفعل لله لا لعلة ولا لسبب ، ويتجرد بسره عن ملاحظة المقامات . وهو خلو قلب العبد وسره عن ما سوىٰ الله . انظر: لطائف الإعلام ١/ ٣١١، التعرف لمذهب التصوف ص١٣١، معجم مصطلحات الصوفية ٤١ .

(٦) انظر : المنازل ١٧ .

يعني أنهم لا يرضون أن يكون إيمانهم عن مجرد خبر[1]، حتىٰ يترقوا منه إلىٰ مشاهدة المخبر عنه. فيطلبون الترقي من علم اليقين بالخبر، إلىٰ عين اليقين بالشهود كما طلب إبراهيم[2] الخليل - صلوات الله وسلامه علىٰ نبينا وعليه - ذلك من ربه. إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فطلب[3] إبراهيم عليه السلام أن يكون اليقين عياناً، والمعلوم مشاهداً. وهذا هو المعنىٰ الذي عبر عنه النبي ﷺ بالشك فيٰ قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»[4] حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[5] وهو ﷺ لم يشك ولا إبراهيم[6] حاشاهما من ذلك، وإنما عبر عن هذا المعنىٰ بهذه العبارة. هذا[7] أحد الأقوال في الحديث[8].

---

(١) في أ: «خبره».

(٢) «إبراهيم» ساقطة من: ش، د.

(٣) في ق: «وطلب».

(٤) جزء من حديث رواه البخاري ٦/ ٤١٠-٤١١، في كتاب الأنبياء باب (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) ح٣٣٧٢، ومسلم، ١/ ١٣٣ في كتاب الإيمان باب (زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة) ح١٥١، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٢٦.

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش: الآية ناقصة.

(٦) «ولا» ساقطة من: ق.

(٧) في أ: «وهو».

(٨) انظر: تفسير البغوي ١/ ٢٤٨، فتح الباري ٦/ ٤١٢.

وفيه قول ثان : أنه علىٰ وجه النفي . أي لم يشك إبراهيم حيث قال ما قال ، ولم نشك نحن [1] .

وهذا القول صحيح أيضاً أي لو كان ما طلبه للشك لكنا نحن أحق به منه؛ لكن لم [2] يطلب ما طلب شكاً ، وإنما طلبه [3] طمأنينة .

فالمراتب ثلاث [4] علم [5] يقين يحصل عن الخبر. ثم يتجلّىٰ [6] حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر ، حتىٰ يصير العلم به عين يقين . ثم يباشره ويلابسه فيصير [7] حق يقين . فعِلمُنا بالجنة والنار الآن [8] علم يقين ، فإذا أزلفت الجنة للمتقين في الموقف ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وشاهدوهما [9] عياناً ، كان ذلك عين يقين . كما قال تعالىٰ : ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر : ٦ ، ٧] ، فإذا [10] دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار

---

(١) انظر : تفسير البغوي ١/ ٢٤٨ ، فتح الباري ٦/ ٤١٢ .

(٢) في أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، م : « لا يطلب » .

(٣) في ط : « طلب ما طلب » .

(٤) في الأصل والجميع سوىٰ ش : ثلاثة وما أثبته من ط وش وهو الصحيح .

(٥) في ح١ : « علم اليقين » .

(٦) في ط ، م ، أ ، ح٢ : « تتجلىٰ » .

(٧) في م ، ح٢ : « تصير » .

(٨) « الآن » ساقطة من : ح١ .

(٩) في غ : « وشاهدوها » .

(١٠) في أ : « ثم إذا » .

النار، فذلك حق اليقين. وسنزيد ذلك[١] إيضاحاً إن شاء الله [٢] إذا انتهينا إليه[٣].

وأما قوله: «وَمِنَ الرُّسُومِ إِلَىٰ الأُصُولِ [٤]».

[٥]يريد بالرسوم: ظواهر العلم والعمل.

وبالأصول[٦]: حقائق الإيمان ومعاملات القلوب، وأذواق الإيمان وارداته[٧]. فيفر من إحكام العلم والعمل إلىٰ خشوع السر[٨] للعرفان. فإن أرباب العزائم في السير لا يقنعون برسوم الأعمال وظواهرها، ولا يعتدون منها [٩] إلا بأرواحها وحقائقها، وما يثبته لهم التعرف الإلهي [وهو نصيبهم من

---

(١) في د: «لذلك».

(٢) «إن شاء الله» ساقطة من: ش.

(٣) انظر: شرحه لمنزلة المكاشفة، والمشاهدة والمعاينة، والمعرفة في القسم الأخير من المدارج.

(٤) في ح٢: «الوصول».

(٥) في ط زيادة: «فإنه».

(٦) في ح٢: «وبالوصول».

(٧) في غ: «وإراداته».

(٨) السرُّ: لطيفة مودعة في القلب كالروح في البدن، ونور روحاني هو آلة النفس، وقيل: هو بعد القلب، وقيل: هو الروح، وقيل: هو ألطف منها وأعلىٰ، ويطلق لفظ السر علىٰ ما يكون مصوناً مكتوفاً بين العبد والحق سبحانه في الأحوال.

انظر: لطائف الإعلام ٢/ ١٤ - ١٨، معجم مصطلحات الصوفية ١٢٩ - ١٣٠، الرسالة القشيرية ٨٨.

(٩) في ح٢، م زيادة: والنهىٰ».

الأمـر[١] .

والتعـرف[٢] الإلهي][٣] لا يقتضي مفارقة الأمـر . كـما يظـن قطاع الطريـق وزنادقة[٤] الصوفية[٥]؛ بل يستخرج منهم حقائق الأمر ، وأسرار العبودية ، وروح المعاملة . فحظهم من الأمر ، حظ العالم بمراد المتكلم من كلامه ، تصريحاً وإيماء ، وتنبيها وإشارة . وحظّ غيرهم منه ، حظّ التالي له حفظاً ، بلا فهم ولا معرفة لمراده . وهؤلاء أحوج شيء إلىٰ الأمر؛ لأنهم لم يصلوا إلىٰ تلك التعرفات[٦] والحقائق إلا به . فالمحافظة[٧] عليه[٨] لهم علماً ومعرفةً وعملاً

---

(١) في ح٢ ، م ، زيادة : « والنهىٰ » .

(٢) « التعرف الإلهي » ساقط من : ح٢ ، م .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من : أ .

(٤) الزندقة : هي من الوثنية ، أو من قال بالنور والظلمة ، أو من لا يؤمن بالآخرة والربوبية ، أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان ، والجاحد المعطل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وفي المنتسبين إلىٰ الإسلام من عامة الطوائف منافقون كثيرون في الخاصة والعامة ويسمون الزنادقة ... وهؤلاء يكثرون في المتفلسفة من المنجمين ونحوهم . أما زنادقة الصوفية فهم الذين غلوا في الشطحات حتىٰ خرجوا عن الإسلام ، وعطلوا الأمر والنهي ، جرياً وراء الحقيقة الكونية .

انظر : لسان العرب ١٠/ ١٤٧ ، مختار الصحاح ٢٦٧ ، ترتيب القاموس المحيط ٢/ ٤٨١ ، قواعد الأديان لشيخ الإسلام ٩٦، قضية التكفير لسعيد القحطاني ١٦، صون المنطق ١٨٤ .

(٥) في ش : التصوف .

(٦) في ش التعريفات وفي غ : الغرفات .

(٧) في ح٢ ، م : المحافظات .

(٨) في أ : عليهم .

وحالاً ضرورية ، لا عوض لهم عنه ألبتة .

وهذا القدر هو الذي فات الزنادقة ، قطاع[١] الطريق من المنتسبين إلىٰ طريق القوم. فإنهم لما علموا أن حقائق هذه الأوامر هي المطلوبة وأرواحها[٢]، لا صورها وأشباحها ورسومها، قالوا : نجمع هِمَمَنا علىٰ مقاصدها وحقائقها، ولا حاجة لنا إلىٰ رسومها وظواهرها؛ بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة ، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره ، وغرهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الأعمال وظواهرها ، دون مراعاة حقائقها ومقاصدها وأرواحها . فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك ، وهممهم أعلىٰ ، وأنهم المشتغلون باللب وأولئك بالقشر . فتركب من تقصير هؤلاء وعدوان هؤلاء تعطيل جملة[٣] الأمر[٤] ، هؤلاء عطّلوا سره[٥] ومقصوده وحقيقته . وهؤلاء عطّلوا رسمه وصورته . وظنوا[٦] أنهم يصلون إلىٰ حقيقته ، من غير رسمه وظاهره ، فلم يصلوا إلا إلىٰ الكفر والزندقة . وجحد[٧] ما عُلم بالضرورة مجيء

(١) في ط والجميع : وقطاع .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : أرواحها .

(٣) في ط : وجملة .

(٤) في ط زيادة : أن .

(٥) « سره » ساقطة من ق ، وفي غ : الأمر .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : فظنوا .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : وجحدوا .

الرسول[١] به . فهؤلاء كفار زنادقة منافقون . وأولئك مقصرون غير كاملين . والقائمون بهذا وهذا [٢]الذين يرون أن [٣]الأمر متوجه إلىٰ قلوبهم قبل جوارحهم ، وأن علىٰ القلب عبودية في الأمر كما علىٰ الجوارح ، وأن تعطيل عبودية القلب بمنزلة تعطيل عبودية الجوراح ، وأن كمال العبودية قيام كل من الملك وجنوده بعبوديته؛ فهؤلاء خواص أهل الإيمان، وأهل العلم والعرفان .



فصل

قوله : «وَمِنَ الحُظُوظ إِلىٰ التَّجرِيدِ» .

يريد الفرار من حظوظ النفوس[٤] علىٰ اختلاف مراتبها . فإنه لا يعرفها إلا المعتنون بمعرفة الله ومراده ، وحقه علىٰ عبده ، ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتهما[٥] ، ورب مطالب عالية لقوم من العباد هي حظوظ لقوم آخرين ، يستغفرون الله منها ، ويفرّون إليه منها . يرونها حائلة بينهم وبين مطلوبهم .

وبالجملة فالحظّ : ما سوىٰ مراد الله الدينيّ منك ، كائناً ما كان ، وهو ما بين[٦] حظٍّ محرمٍ إلىٰ مكروهٍ إلىٰ مباحٍ إلىٰ مستحبٍّ ، غيره أحب إلىٰ الله منه .

---

(١) في ط : الرسل .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : هم .

(٣) « أن » ساقط من غ ، أ ، ح١ ، ب .

(٤) في ب ، أ ، م : النفس .

(٥) في ش : وآفاتها .

(٦) في ط ، ب ، غ ، ح٢ ، م ، ح١ ، أ : ما يبرح .

ولا يتميز هذا إلا في مقام الرسوخ في العلم بالله وأمره ، وبالنفس وصفاتها وأحوالها .

فهناك تتبين له الحظوظ من الحقوق . ويفر من الحظ(١) إلىٰ التجريد . وأكثر الناس لا يصلح لهم هذا ، لأنهم إنما يعبدون الله علىٰ الحظوظ وعلىٰ مرادهم منه . وأما تجريد عبادته علىٰ مراده من عبده :

فتلك منزلةٌ لم يُعطَها أحدٌ ... سوىٰ نبيٍّ وصدّيقٍ من البَشَر
والزهدُ زهْدك فيها ليس زهدك في ... ما قد أبيح لنا في مُحكم السُّور
والصدقُ صدقُك في تجريدها وكذا الـ ... إخلاص تخليصُها إن كنت ذا بصر
كذا توكّلُ أربابِ البصائر في ... تجريدِ أعمالهم من ذلك الكَدَر
كذاك توبتُهم منها فهُمْ أبدًا ... في توبة أو يَصِيُروا داخل الحُفَرِ(٢)

وبالجملة فصاحب هذا التجريد : لا يقنع من الله بأمر يسكن إليه دون الله ، ولا يفرح بما حصل له دون الله ، ولا يأسىٰ علىٰ ما فاته سوىٰ الله ، ولا يستغني برتبة شريفة ، وإن عظمت عنده أو عند الناس؛ فلا يستغني إلا بالله ، ولا يفتقر إلا إلىٰ الله(٣) ، ولا يفرح إلا بموافقته لمرضاة الله ، ولا يحزن إلا علىٰ ما فاته من الله ، ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله ، واحتجاب الله عنه . فكلّه بالله ،

---

(١) في ق : الخطأ .

(٢) لم أقف علىٰ قائل هذه الأبيات ، ولعلها من نظم ابن القيم رحمه الله .

(٣) في ق : بالله .

وكلّه لله ، وكلّه مع الله ، وسيره دائما إلىٰ الله ، قد رُفعَ له علمٌ[١] فشمّر إليه . وتجرّد له[٢] مطلوبهُ فعمل عليه . تناديه الحظوظُ : إليَّ ، وهو يقول : إنما أريد من إذا حصل لي ، حصل[٣] كل شيء ، وإذا فاتني فاتني كل شيء . فهو مع الله مجرد عن خلقه ، ومع خلقه مجرد عن نفسه ، ومع الأمر مجرد عن حظه ، وأعني الحظ المزاحم للأمر . وأما الحظ المُعِينُ علىٰ الأمر ، فإنه لا يحطه تناوله عن[٤] مرتبته ، ولا يُسقطه من عين ربه . وهذا أيضا موضع غلط فيه من غلط[٥] من الشيوخ. فظنوا أن إرادة الحظ نقص في الإرادة .

والتحقيق فيه : أن الحظ نوعان . حظ يزاحم الأمر ، وحظ يؤازر الأمر فينفذه . فالأول هو المذموم ، والثاني ممدوح ، وتناوله من تمام العبودية . فهذا لون وهذا لون .

* * *

(١) في ط : علمه .

(٢) في غ : إليه .

(٣) في ط زيادة : لي .

(٤) في ح١ : عنه .

(٥) « من غلط » ساقط من غ .

فصل

فرار خاصة الخاصة

قال : «وَفِرَارُ خَاصَّةِ الخَاصَّةِ؛ مِمَّا دُونَ الحَقِّ إِلَىٰ الحَقِّ ، ثُمَّ مِن شُهُودِ الفِرَارِ إِلَىٰ الحَقِّ ، ثُمَّ الفِرَارُ[1] مِنْ شُهُودِ الفِرَارِ»[2] .

هذا علىٰ قاعدته في جعل الفناء عن الشهود غاية السالكين ، فيفر أولا من الخلق إلىٰ الحق ، ويشهد بهذا الفرار انفراد مشهوده الذي فر إليه؛ لكن بقيت عليه بقيّة ، وهي شهود فراره ، فيعدله إحساسًا بالخلق . فيفرّ ثانيا من شهود فراره . فتنقطع النسب كلها بينه وبين الخلق بهذا الفرار الثاني[3] ، فلا يبقىٰ فيه بقية إلا ملاحظة فراره من شهود فراره ، فيفر من شهود الفرار . فتنقطع حينئذ النسب كلها . وقد تقدم الكلام علىٰ هذا[4]، وأنه ليس أعلىٰ المقامات والرتب ، ولا هو غاية الكمال . وأن فوقه ما هو أعلىٰ منه مقاما وأشرف منزلاً ، وهو أن يشهد فراره ، وأنه بالله من[5] الله إلىٰ الله . فيشهد أنه فرَّ به[6] مِنْه إليه . ويعطي كل مشهد حقَّه من العبودية ، وهذا حَالُ الكُمَّلِ . فالله[7] المستعان .

* * *

(١) في المنازل : ثم الفرار من الفرار إلىٰ الحق .

(٢) انظر : المنازل ١٧ .

(٣) « الثاني » ساقطة من ش .

(٤) انظر ص ١٢٠٦ .

(٥) في م ، ح٢ : ومن .

(٦) «به» ساقطة من ح٢ .

(٧) في ط ، أ ، غ ، ح١ ، ب : والله

فصل

منزلة الرياضة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ : «منزلة : الرياضة»[١] .

هي تمرين النفس علىٰ الصدق والإخلاص .

قال صاحب « المنازل » - رحمه الله - : «**هِيَ تَمْرِينُ النَّفْسِ عَلَىٰ قَبُولِ الصِّدقِ**»[٢] .

وهذا يراد به أمران : تمرينها علىٰ قبول الصدق إذا عرضه عليها[٣] في أقواله وأفعاله وإرادته[٤] . فإذا عرض عليها الصدق قبلته وانقادتْ له ، وأذعنت له .

والثاني : قبول الحق ممن عرضه عليه . قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر : ٣٣] فلا يكفي صدقك؛ بل لا بد من صدقك وتصديقك للصادقين[٥] . فكثير من الناس يصدق ، ولكن يمنعه من التصديق كبر أو حسد ، أو غير ذلك .

---

(١) الرياضة عند الصوفية : تهذيب الأخلاق النفسية بمجاهدة النفس بترك مألوفاتها . لتزكو بترك المألوفات ، ورفع العادات ، ومخالفة المرادات والأهواء المرديات ، ورياضة النفس عن الالتفات إلىٰ ما سوىٰ الحق ، وأعظم أركانها المداومة علىٰ الذكر .

انظر : لطائف الإعلام ١/ ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، معجم مصطلحات الصوفية ١١٦ ، رشح الزلال ٩٨ .

(٢) انظر : المنازل ١٧ .

(٣) في ح٢ : عليه .

(٤) في ق ، ب : وإراداته .

(٥) في م : الصادقين .

رياضة العامة

قال : «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ : رِيَاضَةُ العَامَّةِ ؛ وَهِيَ تَهذِيبُ الأَخلاَقِ بِالعِلمِ ، وَتَصْفِيَةُ الأَعمَالِ بِالإِخلاَصِ ، وَتَوفِيرُ الحُقُوقِ فِي المُعَامَلَةِ»[١] .

أما تهذيب الأخلاق بالعلم : فالمراد به إصلاحها وتصفيتها بموجب العلم . فلا يتحرك بحركة ظاهرة أو باطنة[٢] إلا بمقتضىٰ العلم ، فتكون حركات ظاهرة وباطنة موزونة بميزان الشرع .

وأما تصفية الأعمال بالإخلاص : فهو تجريدها عن أن يشوبها باعث لغير الله . وهو[٣] عبارة عن توحيد المراد ، وتجريد الباعث إليه .

وأما توفير الحقوق في المعاملة : فهو أن تعطي ما أُمرت به[٤] من حق الله وحقوق العباد كاملاً موفّراً . قد نصحت فيه صاحب الحق غاية النصح ، وأرضيته كل الرضىٰ ، ففزت بحمده لك وشكره .

ولما كانت هذه الثلاثة شاقة علىٰ النفس جداً؛ كان تكلفها[٥] رياضة ، فإذا اعتادها صارت خُلقاً .

رياضة الخاصة

قال : «وَرِيَاضَةُ الخاصَّةِ : حَسمُ التَّفَرُّقِ ، وَقَطعُ الالتِفَاتِ إِلَىٰ المَقَامِ الذِي جَاوَزَهُ ، وَإِبقَاءُ العِلمِ يَجرِي مَجرَاه»[٦] .

---

(١) انظر : المنازل ١٧ .

(٢) في غ : وباطنه .

(٣) في ط ، ح١ ، أ ، م ، غ ، ح٢ ، ب : وهي .

(٤) « به » ساقطة من الجميع سوىٰ ش ، ب ، ط .

(٥) في د : تكليفها .

(٦) انظر : المنازل ١٨ .

يريد بحسم التفرق : قطع ما يفرق قلبك عن الله بالجمعية [1]عليه ، والإقبال عليه[2] بكليتك ، حاضراً معه بقلبك كله ، لا تلتفت إلىٰ غيره .

وأما قطع الالتفات إلىٰ المقام الذي جاوزه ، فهو ألا يشتغل باستحسان علوم ذلك المقام ولذته واستحسانه؛ بل يلهىٰ عنه معرضا مقبلاً علىٰ الله ، طالباً للزيادة ، خائفاً أن يكون ذلك المقام له[3] حجاباً يقف عنده عن السير . فهمته حفظه . ليس له همة ولا قوة [4]أن ينهض إلىٰ ما فوقه . ومن لم تكن همته التقدم فهو في تأخر ولا يشعر . فإنه لا وقوف في الطبيعة ، ولا في السير؛ بل[5] إما إلىٰ قدام ، وإما إلىٰ وراء . فالسالك الصادق لا ينظر إلىٰ ورائه ، ولا يسمع النداء إلا من أمامه لا من ورائه .

وأما إبقاء العلم يجري مجراه ، فالذهاب مع داعي العلم أين ذهب[6] به ، والجري معه في تيَّاره أين جرىٰ .

---

(١) الجمعية : اجتماع الهمم في التوجه إلىٰ الله تعالىٰ ، والاشتغال به عما سواه ، وضد ذلك التفرقة .

والجمع : الاشتغال بشهود الله عما سواه ، والتفرقة هي الاشتغال عن الله بما سواه .

انظر : معجم مصطلحات الصوفية ٦٧ ، لطائف الإعلام ١/ ٣٩٢ .

(٢) في ط والجميع : ولإقبال بكليتك عليه .

(٣) « له » ساقطة من أ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : قوة ولا همة .

(٥) « بل » ساقطة من ح٢ .

(٦) في ح٢ ، م : يذهب .

وحقيقة ذلك : الاستسلام للعلم ، وأن لا يعارضه[١] بجمعية ، ولا ذوق[٢] ولا حال[٣] . بل امض معه حيث ذهب . فالواجب تسليط العلم علىٰ الحال . وتحكيمه عليه ، وأن لا يعارض به .

وهذا صعب جداً إلا علىٰ الصادقين [٤]أرباب العزائم . فلذلك كان من أنواع الرياضة .

ومتىٰ تمرَّنت النفس عليه وتعوّدته صار خُلُقاً . وكثير من السالكين إذا لاحت له بارقة[٥] ، أو غلبه حال أو ذوق : خلّىٰ العلم وراء ظهره ، ونبذه وراءه

---

(١) في ط : تعارضه .

(٢) الذوق : يطلق ويراد به أول مبادئ التجليات ، ويشير القوم إلىٰ أنه علم لا ينال إلا لمن كان خالي القلب عن جميع العلائق والعوائق ، فهو نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه ، يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره . انظر : لطائف الإعلام ١/ ٤٧١ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٠٤ ، التعريفات ١٢٠ .

(٣) الحال : هو ما يرد علىٰ القلب من غير تأمل ولا اجتلاب ، وقيل : هو تغير الأوصاف علىٰ العبد ، وقيل : هو كاسمه كلما حَلَّ بالقلب حال عنه ، سُمي بذلك لتحوله وزواله بخلاف المقام فهو من الإقامة والاستقرار ، ولهذا قال بعضهم : هو نازلة تنزل بالقلب فلا تدوم . انظر : لطائف الإعلام ١/ ٤٠٣ ، معجم مصطلحات الصوفية ٧٣ ، التعريفات ٩٤ .

(٤) في ط زيادة : من .

(٥) البرق : واحد بروق السحاب وهو الذي يلمع في الغيم ، انظر : لسان العرب ١/ ٣٨١ مادة : برق، وعند الصوفية : أول ما يبدو للعبد من اللوامع النورية ، فيدعوه إلىٰ الدخول في حضرة القرب من الرب للسير إلىٰ الله . انظر : لطائف الإعلام ١/ ٢٧٦-٢٧٧ ، ومعجم مصطلحات الصوفية ٤٢ .

ظهرياً، وحكَّم عليه الحال . هذا حال أكثر السالكين . وهي حال أهل الانحراف الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً . ولهذا عظمت وصية أهل الاستقامة من الشيوخ بالعلم والتمسك به .



فصل

رياضة خاصة الخاصة

قال : « وَرِيَاضَةُ خَاصَّةِ الخَاصَّةِ : تجرِيدُ الشُّهُودِ ، وَالصُّعُودُ إلىٰ الجَمْعِ ، وَرَفضُ المعارَضَاتِ ، وَقَطْعُ المُعاوَضَاتِ »[1] .

أما تجريد الشهود فنوعان :

أحدهما : تجريده عن الالتفات إلىٰ غيره .

والثاني : تجريده عن رؤيته وشهوده .

وأما الصعود إلىٰ الجمع : فيعني به الصعود عن معاني التفرقة إلىٰ الجمع الذاتي . وهذا يحتمل أمرين :

أحدهما : أن يصعد عن تفرقة الأفعال إلىٰ وحدة مصدرها .

والثاني : أن يصعد عن علائق الأسماء والصفات إلىٰ الذات . فإن شهود الذات بدون علائق الأسماء والصفات عندهم هو حضرة[2] الجمع . وهذا موضع مزلة أقدام، ومضلة أفهام، لا بد من تحقيقه . فنقول :

التفرقة تفرقتان : تفرقة في المفعولات، وتفرقة في معاني الأسماء

---

(١) المنازل ١٨ .

(٢) في ح٢ ، م : حضر .

والصفات .

والجمع جمعان : جمع في الحكم الكوني ، وجمع ذاتي .

فالجمع في الحكم الكوني : اجتماع المفعولات كلها في القضاء والقدر والحكم .

والجمع الذاتي : اجتماع الأسماء والصفات في الذات .

فالذات[1] واحدة جامعة للأسماء والصفات .

والقضاء [2] والقدر : جامع لجميع المقضيات[3] والمقدورات ، والشهود مترتب[4] علىٰ هذا[5] .

فشهود اجتماع الكائنات في قضائه وقدره - وإن كان حقاً - فهو لا يعطي إيماناً فضلاً عن أن يكون أعلىٰ مقامات الإحسان . والفناء في هذا الشهود؛ غايته فناء في توحيد الربوبية الذي لا ينفع وحده ، ولا بد منه .

وشهود اجتماع الأسماء والصفات ، في وحدة الذات ، شهود صحيح . وهو شهود[6] مطابق للحق في نفسه .

---

(١) في ش : والذات .

(٢) « القضاء » ساقطة من ط .

(٣) في ط ، ش : المقتضيات .

(٤) في ش ، ح٢ : مرتب .

(٥) في ط زيادة : وهذا .

(٦) « وهو شهود » ساقطة من ش .

وأما الصعود من[1] شهود تفرقة الأسماء والصفات، وعلائقها إلىٰ وحدة الذات المجردة، فغايته أن يكون صاحبه معذوراً لضيق قلبه [عن تفرقة الأسماء ومعاني الصفات، وغلبة المشهود [2]علىٰ قلبه][3]، وأما أن يكون[4] محموداً في شهوده ذاتاً مجردة عن كل اسم وصفة وعن علائقها فكلا ولما.

وأي إيمان يعطي ذلك؟ وأي معرفة؟ وإنما هو سلب ونفي في الشهود، كالسلب والنفي في العلم والاعتقاد. فنسبته إلىٰ الشهود، كنسبة نفي الجهمية وسلبهم إلىٰ الأخبار، لكن الفرق بينهما: أن ذلك السلب في العلم والاعتقاد، مخالف للحق الثابت في نفس الأمر، وكذبٌ علىٰ الله، ونفيٌ لما يستحقه من صفات كماله، ونعوت جلاله، ومعاني أسمائه الحسنىٰ.

وأما هذا السلب ففي الشعور به للصعود منه إلىٰ الجمع الذاتي، مع الإيمان به، والاعتراف بثبوته. فهذا لون وذاك لون.

والكمال في[5] شهود الأمر علىٰ ما هو عليه، فيشهد[6] الذات موصوفة بصفات الجلال، منعوتة بنعوت الكمال. وكلما كثر شهوده لمعاني الأسماء والصفات كان أكمل.

---

(١) في ط، ح١، ب، أ، غ: عن.

(٢) في ش، ح٢، م، د: الشهود.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من: ط، غ، أ، ح١، ب.

(٤) «يكون» ساقطة من: غ.

(٥) «في» ساقط من ط والجميع سوىٰ ش.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش: ويشهد.

نعم قد يعذر في الفناء في الذات المجردة، لقوة الوارد، وضعف المحل[١] عن شهود معاني الأسماء والصفات.

فتأمل هذا الموضع، وأعطه حقه، ولا يصدنك عن تحقيقه[٢] ما يحيل عليه أرباب الفناء من الكشف والذوق، فإنا لا ننكره ونقرُّ به[٣]؛ لكن[٤] الشأن في مرتبته. وبالله التوفيق.

وأما رفض المعارضات: فيحتمل أمرين.

أحدهما: ما يعارض شهوده [٥] الجمعي من التفرقات، وهو مراده.

والثاني: رفض[٦] ما يعارض إرادته من الإرادات، وما يعارض مراد الله من المرادات. وهذا أكمل من الأول، وأعلىٰ منه.

وأما قطع المعاوضات: فهو تجريد المعاملة عن إرادة المعاوضة؛ بل تجردها[٧] لذاته، وأنه أهل أن يعبد، ولو لم يحصل لعابده عوض منه. فإنه يستحق أن يعبد لذاته لا لعلة، ولا لعرض[٨] ولا لمطلوب. وهذا أيضا موضع

(١) في أ: المورود.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: تحقيق ذلك.

(٣) بل نقر به.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش: ولكن.

(٥) في غ، ق: شهود.

(٦) «رفض» ساقطة من ط، ب، غ، أ، ح١.

(٧) في ط، والجميع سوىٰ ب: يجردها.

(٨) في ط، والجميع سوىٰ ش: لعوض.

لابدّ من تجريده .

فيقال : ملاحظة المعاوضة ضرورية للعامل ، وإنما[١] الشأن في ملاحظة الأعواض وتباينها . فالمحب الصادق الذي قد تجرد عن ملاحظة عوض ، قد لاحظ أعظم الأعواض ، وشمر إليها . وهىٰ قربه من الله ووصوله إليه ، واشتغاله به عما سواه ، والتنعم بحبه ولذة الشوق إلىٰ لقائه ، فهذه أعواض لا بد للخاصة منها . وهي من أجل مقاصدهم وأعواضهم[٢] . ولا يقدح[٣] في مقاماتهم ، وتجريد عبودياتهم؛ بل أكملهم عبودية أشدهم التفاتاً إلىٰ هذه الأعواض .

نعم طلب الأعواض المنفصلة المخلوقة - من الجاه ، والمال ، والرياسة ، والملك - أو طلب[٤] الحور العين ، والقصور والولدان ، ونحو ذلك بالنسبة إلىٰ تلك الأعواض التي يطلبها[٥] الخاصة معلولة ، وهذا لا شك فيه إذا تجرد طلبهم لها .

أما إذا كان مطلوبهم الأعظم الذاتي ، هو قربه والوصول إليه ، والتنعم بحبه، والشوق إلىٰ لقائه، وانضاف إلىٰ هذا طلبهم لثوابه المخلوق المنفصل ،

---

(١) في غ : وإنه .

(٢) في ط : أغراضهم .

(٣) في ط : ولا تقدح .

(٤) في غ ، م : وطلب .

(٥) في ط ، ب ، ق : تطلبها .

فلا علة في هذه العبودية بوجه ما، ولا نقص وقد قال النبي ﷺ: «حولها ندندن»[١] يعني الجنة.

وقال: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس. فإنه وسط الجنة وأعلىٰ الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[٢].

ومعلوم أن هذا[٣] مسكن خاصة الخاصة، وسادات العارفين. فسؤالهم إياه ليس علة في عبوديتهم، ولا قدحا[٤] فيها.

وقد استوفينا ذكر هذا الموضع في (كتاب سفر الهجرتين) عند الكلام علىٰ علل المقامات[٥].

ويحتمل أن يريد الشيخ - رحمه الله - بقطع المعاوضات: أن تشهد[٦] أن الله ما أعطاك شيئا معاوضة؛ بل إنما أعطاك تفضلا وإحساناً، لا لعوض يرجوه منك،

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٣/ ٤٧٤، وأبو داود ١/ ٥٠١ في كتاب الصلاة، باب (في تحقيق الصلاة) ح٧٩٢، وابن ماجه ١/ ٢٩٥ في كتاب الصلاة، باب (ما يقال في التشهد والصلاة علىٰ النبي ﷺ) ح٩١٠، وابن خزيمة في صحيحه ١/ ٣٥٨-٣٥٩، وصححه الألباني. انظر: صحيح سنن أبي داود ١/ ١٥٠.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري ٦/ ١١ في كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ح٢٧٩٠، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٣٥.

(٣) في م: وهذه.

(٤) في ق: قادحاً.

(٥) انظر: طريق الهجرتين ٤١٧ وما بعدها.

(٦) في ق: يشهد.

كما يكون من[١] عطاء العبد للعبد؛ لكن[٢] وإنما نتكلم فيما من العبد، مما يؤمر بالتجريد[٣] عنه، كتجرده عن التفرقة والمعاوضة. وهو[٤] أَلْيَقُ المعنيين بكلامه. والله أعلم.

* * *

(١) «من» ساقط من ط.

(٢) «لكن» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش، ق.

(٣) في ط: بالتجرد.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش: وهذا.

فصل

منزلة السماع

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «السماع»(١) .

وهو اسم مصدر كالنبات . وقد أمر الله به في كتابه ، وأثنىٰ علىٰ أهله ، وأخبر أن البشرىٰ لهم ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ﴾ [المائده : ١٠٨] وقال : ﴿ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ [التغابن : ١٦] ، وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ [النساء : ٤٦] ، وقال : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾ [الزمر : ١٧-١٨]، وقال : ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] ، وقال : ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائده : ٨٣] .

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلاً علىٰ علم الخير فيهم ، وعدم ذلك التسليم علىٰ عدم الخير فيهم . فقال : ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ

(١) السماع عند الصوفية : حقيقة الانتباه لكل بحسب نصيبه، فهو حادٍ يحدو بكل أحد إلىٰ وطنه.
أي ينتبه كل أحد منه إلىٰ المقصود الخاص ، وسماع العامة : تنبيههم علىٰ امتثال الأوامر .
وسماع الخاصة : شهودهم الحق تعالىٰ في كل مسموع ومصور؛ لأنهم لايسمعون إلا بالحق ، وفي الحق ، وللحق ، ومن الحق .
انظر : لطائف الإعلام ٢/ ٢٧ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٣٣ ، ١٣٤ .

أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] .

وأخبر عن أعدائه : أنهم هجروا السماع ونهوا عنه . فقال : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ [فصلت : ٢٦] .

فالسماع رسول الإيمان إلىٰ القلب ، وداعيه ومعلمه . وكم في القرآن من قوله : ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ وقال : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

فالسماع أصل العقل ، وأساس الإيمان الذي انبنىٰ عليه ، وهو رائده وجليسه ووزيره . ولكن الشأن كل الشأن في المسموع ، وفيه وقع خبط[1] الناس واختلافهم ، وغلط من غلط منهم[2] .

وحقيقة «السماع » تنبيه القلب علىٰ معاني المسموع ، وتحريكه عنها طلباً وهرباً وحبّاً وبغْضاً ، فهو حادٍ يحدو بكل أحد إلىٰ وطنه ومألفِه .

وأصحاب السماع ، منهم من يسمع بطبعه ونفسه وهواه ، فهذا حظّه من مسموعه ، ما وافق طبعَه .

ومنهم : من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله ، فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته .

ومنهم : من يسمع بالله ، لا يسمع بغيره . كما في الحديث الإلهي الصحيح:

---

(١) الخبط : السير علىٰ غير هدىٰ . انظر : لسان العرب ٤/ ١٦ ، مادة : خبط .

(٢) في ط ، ق : وغلط فهم من غلط .

«فبي يسمع . وبي يبصر»[1] وهذا أعلىٰ سماعاً ، وأصح من كل أحد .

والكلام في «السماع» - مدحاً وذماً - يحتاج [2][3] إلىٰ معرفة صورة المسموع ، وحقيقته وسببه ، والباعث عليه ، وثمرته وغايته . فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر «السماع» ويتميز النافع منه والضار ، والحق والباطل . والممدوح والمذموم .

فأما «المسموع» فعلىٰ ثلاثة أضرب :

أنواع السماع

أحدها[4] : **مسموع يحبه الله ويرضاه** ، وأمر به عباده ، وأثنىٰ علىٰ أهله ، ورضي عنهم به .

الثاني : مسموع يبغضه الله[5] **ويكرهه** ، ونهىٰ عنه ، ومدح المعرضين عنه .

الثالث : مسموع مباح مأذون فيه ، لا يحبه ولا يبغضه ، ولا مدح صاحبه ولا ذمه ، فحكمه حكم سائر المباحات ، من المناظر ، والمشام ، والمطعومات ، والملبوسات المباحة. فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال علىٰ الله ما لا يعلم، وحرم ما أحل الله . ومن جعله ديناً وقربة يتقرب به إلىٰ الله، فقد كذب علىٰ الله،

---

(١) سبق تخريجه ص ١١٩٨.

(٢) في غ : لا يحتاج .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : فيه .

(٤) في ط : أحدهما .

(٥) «الله» سقطت من الأصل والجميع سوىٰ ش ، ح٢ ، م .

وشرع ديناً لم [1] يأذن به الله . وضاهىٰ بذلك المشركين .

فصل

السماع الذي مدحه الله في كتابه

فأما النوع الأول : فهو السماع الذي مدحه[2] في كتابه ، وأمر به وأثنىٰ علىٰ أصحابه[3] ، وذم المعرضين عنه ولعنهم ، وجعلهم أضل من الأنعام [4] ، وهم القائلون في النار : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] وهو سماع آياته المتلوة التي أنزلها علىٰ رسوله ﷺ ، فهذا السماع أساس الإيمان الذي[5] عليه بناؤه. وهو علىٰ ثلاثة أنواع: سماع إدراك بحاسة الأذن، وسماع فهم وعقل ، وسماع[6] إجابة وقبول ، والثلاثة في القرآن .

أنواع السماع الممدوح

فأما سماع الإدراك : ففي قوله تعالىٰ حكاية عن مُؤْمِنيّ الجنّ قولهم : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ [الجن: ١، ٢] وقولهم[7]: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٣٠] فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان

(١) «لم» ساقطة من : ق .

(٢) في ط ، م ، ح٢ زيادة : الله .

(٣) في أ : أهله .

(٤) في ط زيادة سبيلا .

(٥) في ط زيادة : يقوم .

(٦) في ط : وسماع فهم وإجابة

(٧) في ط ، ح١ ، ح٢ ، غ ، م ، أ : قوله .

والإجابة .

وأما سماع الفهم : فهو المنفي عن أهل الإعراض والغفلة ، بقوله تعالىٰ : ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [الروم: ٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر :٢٢](١) .

فالتخصيص هاهنا لإسماع الفهم والعقل ، وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة ، لا تخصيص فيه . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقياداً لأفْهَمَهُمْ ، وإلا فُهُم قد سمعوا سمع الإدراك ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي ولو أفْهَمَهُمْ لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموه(٢)؛ لأن في قلوبهم من داعي التولي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه .

وأما سماع(٣) القبول والإجابة : ففي قوله تعالىٰ حكاية عن عباده المؤمنين أنهم قالوا : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور :٥١] ، فإن هذا سماع قبول وإجابة ، مثمر للطاعة .

والتحقيق : أنه متضمن للأنواع الثلاثة ، وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه وأجابوا(٤) له .

---

(١) آخر الآية ساقط من الجميع سوىٰ ش ، ط .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : فهموا .

(٣) في الجميع سوىٰ ش ، ط : سمع .

(٤) ط : واستجابوا .

ومن سمعِ القبول : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبه : ٤٧][1] ، أي : قابلون منهم مستجيبون لهم . هذا أصح القولين في الآية[2] .

وأما قول من قال : عيون لهم وجواسيس ، فضعيف . فإنه سبحانه أخبر عن حكمته في تثبيطهم عن الخروج ، بأن خروجهم يوجب الخَبَال والفساد ، والسعي بين العسكر بالفتنة ، وفي العسكر من يقبل منهم ، ويستجيب لهم . فكان في إقعادهم عنهم لطفاً بهم ورحمة ، حتىٰ لا يقعوا في عنت القبول من منهم .

أما اشتمال العسكر علىٰ جواسيس وعيون لهم ، فلا تعلق له بحكمة التثبيط والإقعاد ، ومعلوم أن جواسيسهم وعيونهم منهم . وهو سبحانه قد أخبر أنه أقعدهم لئلا يسْعَوا بالفساد في العسكر ، ويبغوهم[3] الفتنة ، وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم ، وإقعاد جواسيسهم وعيونهم .

وأيضاً فإن الجواسيس إنما تسمىٰ «عيوناً» ، هذا المعروف في الاستعمال لا تسمىٰ سماعين .

وأيضاً فإن هذا نظير قوله تعالىٰ في إخوانهم من[4] اليهود : ﴿سَمَّاعُونَ

---

(١) أول الآية ساقط من ط والجميع سوىٰ ش .

(٢) هذا القول هو الذي رجحه ابن كثير في تفسيره ٣/ ٤٠٦ ، وانظر أقوال المفسرين لهذه الآية في تفسير الطبري ٦/ ٣٨٤ .

(٣) في ط : ولئلا يبغوهم .

(٤) «من» ساقطة من ط .

لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ [المائده : ٤٢] أي : قابلون له .

والمقصود : أن سماع خاصة الخاصة المقربين ، هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة : إدراكاً ، وفهماً ، وتدبراً ، وإجابة . وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنىٰ عليهم ، وأمر به أولياءه ، فهو هذا السماع .

وهو سماع الآيات [لا سماع الأبيات](١) وسماع القرآن، لا سماع(٢) الشيطان. وسماع كلام رب الأرض والسماء ، لا سماع قصائد الشعراء . وسماع المراشد ، لا سماع القصائد . وسماع الأنبياء والمرسلين والمؤمنين(٣) ، لا سماع المغنين والمطربين .

فهذا السماع حادٍ يحدو القلوب إلىٰ جوار علام الغيوب ، وسائق يسوق الأرواح إلىٰ ديار الأفراح ، ومحرك يثير ساكن العزمات إلىٰ أعلىٰ المقامات وأرفع الدرجات ، ومناد ينادي للإيمان ، ودليل يدل(٤) الركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح ، من قبل فالق الإصباح «حي علىٰ الفلاح ، حي علىٰ الفلاح» .

فلن(٥) تعدم من(٦) هذا السماع إرشاداً لحجة، وتبصرةً لعبرة، وتذكرةً لمعرفة ،

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وما أثبته من ط والجميع والسياق يقتضيه .

(٢) في ط زيادة : مزامير .

(٣)«المؤمنين» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٤) في ط : يسير بالركب .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : فلم يعدم .

(٦) في ط زيادة : اختار .

وفكرةً في آية ، ودلالةً علىٰ رشد ، وردًّا عن[1] ضلالة ، وإرشاداً من غيّ ، وبصيرة من عمىٰ، وأمراً بمصلحة، ونهياً عن مضرة ومفسدة ، وهدايةً إلىٰ نور ، وإخراجاً من ظلمة ، وزجراً عن هوىٰ ، وحثاً علىٰ تُقىٰ ، وجلاءً لبصيرة ، وحياةً لقلب، وغذاءً ودواءً وشفاءً ، وعصمة ونجاةً، وكشفَ شبهة، وإيضاحَ برهان ، وتحقيقَ حق ، وإبطالَ باطل .

ونحن نرضىٰ بحكم أهل الذوق في سماع الأبيات والقصائد ، ونناشدهم بالذي أنزل القرآن هدىٰ وشفاء ونوراً[2] وحياة هل وجدوا ذلك - أو شيئاً منه - في الدف والمزمار؟ ونغمة الشادن[3] ومطربات الألحان؟ والغناء المشتمل علىٰ تهييج الحب المطلق الذي يشترك فيه محب الرحمن ، ومحب الأوطان ، ومحب الإخوان[4] ، ومحب العلم والعرفان ، ومحب الأموال والأثمان ، ومحب النِّسْوان ، ومحبّ[5] المردان ، ومحبّ الصلبان . فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب إلىٰ شيء[6] ساكنه، ويزعج قاطنه[7] . فيثور وجْدُه، ويبدو شوقُه[8] ،

---

(١) في ط ، أ ، ح١ ، غ ، ب : علىٰ .

(٢) «ونوراً» ساقطة من ش .

(٣) في الأصل والجميع سوىٰ ح٢ ، م ، ط : الشاهد ، وما أثبته منهما وهو الأقرب إلىٰ سياق الكلام؛ لأن الشادن هو المغني .

(٤) «ومحب الإخوان» ساقطة من ش .

(٥) «محب» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٦) في ط : لشيء .

(٧) القاطن : المقيم بالمكان . انظر: لسان العرب ١١/ ٢٣١ مادة : قطن .

(٨) الشوق : هو هيجان القلب عند ذكر المحبوب ، والفرق بين الشوق والاشتياق أن الشوق

فيتحرك علىٰ حسب ما في قلبه من الحب والشوق والوجد بذلك المحبوب كائناً ما كان . ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقاً في السماع ، وحالاً ووجداً وبكاء .

ويا لله العجب! أي إيمان ونور ، وبصيرة وهدىٰ ، ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات ، لعل أكثرها قيلت فيما يهوىٰ من محرم[1] يبغضه الله ورسوله ، ويعاقب عليه ، من تغزل[2][3] وتشبّب[4] بمن لا يحل له من ذكر أو أنثىٰ؟ فإن غالب التغزُّل والتّشبيب : إنما هو في الصور[5] المحرمة .

ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه فىٰ امرأته ، وأمته وأمِّ أولاده[6] ، مع أن هذا واقع لكنه كالشعرة[7] في جلد الثور[8] ، فكيف يقع لمن له أدنىٰ بصيرة

يسكن باللقاء ، والاشتياق لا يزول باللقاء ، بل يزيد ويتضاعف .

انظر : معجم مصطلحات الصوفية ١٣٧ ، والتعريفات ١٤٦ .

(١) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق : فيما هو .

(٢) في ط : من غزل وتشبيب .

(٣) الغَزَلُ : حديث الفتيان والفتيات ، وقيل: اللهو من النساء ، وفي المثل : وهو أغزل من امرئ القيس . انظر : لسان العرب ١٠/ ٦٥ مادة : غزل .

(٤) التشبيب : ترقيق الشعر بذكر النساء ، وهو من تشبيب النار ، وتشبَّبَ بالمرأة : قال فيها الغزل والنَّسيب . انظر : لسان العرب ٧/ ١٢ مادة : شبب .

(٥) في د : الصورة .

(٦) في ط : أم ولده .

(٧) في ط زيادة : البيضاء .

(٨) في ط زيادة : الأسود .

وحياة قلب ، أن يتقرب إلىٰ الله ، ويزداد إيماناً وقرباً منه وكرامة عليه ، بالتذاذ ما[1] هو بغيض إليه ، مقيت عنده ، يمقت قائله وقابله[2] والراضي به؟ وتترقىٰ به الحال حتىٰ يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع ، وسنة نبيه ﷺ .

يا لله! إن هذا القلب مخسوف به ، ممكور به منكوس ، لم يصلح[3] لحقائق القرآن وأذواق معانيه ، ومطالعة أسراره فتولاّه[4] بقرآن الشيطان ، كما في معجم الطبراني وغيره - مرفوعاً وموقوفاً - : **«إن الشيطان قال : يا رب ، اجعل لي قرآناً . قال : قرآنك الشعر . قال : اجعل لي كتاباً . قال : كتابك الوشم . قال : اجعل لي مؤذناً . قال : مؤذنك المزمار . قال : اجعل لي بيتاً . قال : بيتك الحمام . قال : اجعل لي مصائد . قال : مصائدك النساء . قال : اجعل لي طعاماً . قال : طعامك ما لم يذكر عليه اسمي»**[5] .

---

(١) في ط : بالتذاذه بما هو .

(٢)«قابله» ساقطة من ط .

(٣) في ش : لم يتسع .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : فبلاه وفي ش : فتلاه .

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٤٥ عن أبي أمامة ح٧٨٣٧ . قال الهيثمي في المجمع ٨/ ١١٩ رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف ، ورواه أيضاً في الكبير ١١/ ١٠٣ عن ابن عباس ح١١١٨١ . وقال الهيثمي في المجمع ١/ ١١٤ ، ورواه الطبراني في الكبير وفيه يحيىٰ بن صالح الأيلي ضعفه العقيلي . ورواه كذلك أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٧٨ وقال : هذا حديث غريب من حديث عبيد بن عمير ، وإسماعيل بن أمية تفرد به عن

. . . .

* * *

يحيىٰ بن صالح الأيلي . وذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٧ ، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٧ : إذا اجتمع في خبرٍ عبدالله وعلي بن يزيد والقاسم أبوعبدالرحمن لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملت أيديهم ، وقال محمد عفيفي محقق إغاثة اللهفان : حديث موضوع فيه عبدالله بن زمر ، وعلي بن يزيد ، والقاسم أبو عبد الرحمن .

وقال الألباني في الضعيفة ٤/ ٦٧ منكر ، أخرجه ابن الجوزي في ذم الهوىٰ من طريق الطبراني . . . وقد ثبت من الحديث قوله : «وطعامك ما لم يذكر اسم الله عليه» . وانظر: الصحيحة ٢/ ٣٣٣ ح٧٠٨ .

فصل

السماع الذي يبغضه الله ويكرهه

ما يبغضه الله[١] ويكرهه ويمدح المعرض عنه . وهو سماع كل ما يضر[٢] العبد في قلبه ودينه ، كسماع الباطل كله ، إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به ، بعلمه[٣] بحسن ضده . فإن الضد يظهر حسنه[٤] الضد . كما قيل :

وإذا سمعتُ إلىٰ حديثِك زَادَني حبًّا له سمعي حديثَ سِواكا[٥]

وكسماع اللغو الذي مدح الله[٦] التاركين لسماعه ، والمعرضين عنه[٧] بقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [القصص : ٥٥] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] . قال محمد بن الحنفية[٨] : هو

(١) اسم الجلالة «الله» سقط من الأصل والجميع سوىٰ ط ، ش ، د .

(٢) في الأصل والجميع :«ما يضره» وما أثبته من المطبوع والسياق يقتضيه .

(٣) في ط : وقصد أن يُعلم به حسن ضده .

(٤)«حسنه» ساقطة من : ب .

(٥) لم أقف علىٰ من ذكره .

(٦) اسم الجلالة «الله» ساقطة من : ط ، ح٢ ، غ ، م ، أ ، ب .

(٧) في م : له .

(٨) أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي المعروف بابن الحنفية وهو أخو الحسن والحسين لأبيهما - رضي الله عنهم - ، ونسب إلىٰ أمه خولة بنت جعفر الحنفية تميزاً له عنهما ، كان واسع العلم ، ورعاً شجاعاً ، وكان المختار الثقفي مؤسس فرقة الكيسانية ، يدعو الناس إلىٰ إمامته ، ويزعم أنه المهدي وقد تبرأ منه - رضي الله عنه - ، توفي سنة ٨١هـ . ترجمته في : السير ٤/ ١١٠ ، البداية والنهاية ٩/ ٤٠ ، تهذيب التهذيب ٩/ ٣٥٤ . وانظر : الملل والنحل ١/ ١٤٧ وما بعدها .

الغناء[1] . وقال الحسن أو غيره : أكرموا نفوسهم عن سماعه[2] .

قال ابن مسعود - رحمه الله - : «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»[3] . وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته ، فإنه ما اعتاده أحد إلا ونافق[4] قلبه وهو لا يشعر . ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره[5] في قلبه ،

---

(١) انظر : تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧٨ ، والدر المنثور للسيوطي ٦/ ٢٨٣ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٩/ ٤٢١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧٨ .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً علىٰ ابن مسعود ، في ذم الملاهي ٧٣ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٢٧٨ - ٢٧٩ ، وقال : وقد روي هذا مسنداً بإسناد غير قوي ، وفي السنن الكبرىٰ ١٠/ ٣٧٧ في كتاب الشهادات باب الرجل يغني فيتخذ الغناء صنعة . . . .

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٢ - ٣٧٣ وهو صحيح عن ابن مسعود .

وقد روي عن ابن مسعود مرفوعاً ورواه أبو داود في سننه ٥/ ٢٢٣ في كتاب الأدب باب كراهية الغناء والزمر ح٤٩٢٧ ، والبيهقي في السنن الكبرىٰ ١٠/ ٣٧٧-٣٧٨ في كتاب الشهادات ، باب الرجل يغني فيتخذ الغناء صنعة ، ح٢١٠٠٨ ، وأبو الحسين ابن المنادي كما في إغاثة اللهفان لابن القيم ١/ ٣٧٣ .

قال ابن القيم : وفي رفعه نظر . والموقوف أصح . وقال الغزالي كما في الإحياء ٢/ ٣٨٦ ، ورفعه بعضهم إلىٰ رسول الله ﷺ وهو غير صحيح .

وقال العراقي : والمرفوع غير صحيح؛ لأن في إسناده من لم يُسم انظر : المغني عن حمل الأسفار بهامش إحياء علوم الدين ٢/ ٣٨٦ ، وضعفه الألباني . انظر : الضعيفة ٥/ ٤٥٠ ضعيف .

(٤) في ط : نافق .

(٥) في ش : لا يضره .

فإنه ما اجتمع في قلب عبد قط محبة الغناء، ومحبة القرآن إلا وطردت[١] إحداهما الأخرىٰ. وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن علىٰ أهل الغناء وسماعه، وتبرّمهم به، وصياحهم بالقارئ إذا طوّل عليهم، وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرأه، فلا تتحرك له[٢] ولا تطرب، ولا تهيج منها بواعث الطلب. فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله، كيف تخشع منهم الأصوات، وتهدأ الحركات[٣]، وتسكن القلوب وتطمئن[٤]، ويقع البكاء والوجد، والحركة الظاهرة والباطنة، والسماحة بالأثمان والثياب، وطيب السهر، وتمني طول الليل. فإن لم يكن هذا نفاقا فهو آخية[٥] النفاق وأساسه:

تُلي الكتاب فأطرقوا لا خيفةً   لكنه إطراق ساهٍ لاهي
وأتىٰ الغناء فكالذّباب تراقصُوا[٦]   والله ما رقصوا من أجل[٧] الله
دفٌّ ومزمار ونغمةُ شادنٍ[٨]   فمتىٰ عهدتَ[٩] عبادةً بملاهي؟

---

(١) في ط: طردت.

(٢) «له» ساقطة من ط والجميع سوىٰ: ش.

(٣) في ق زيادة: به.

(٤) «وتطمئن» ساقطة من: ش.

(٥) الآخِيَّة: بالمد والتشديد الأواخي وهو: عُود يُعرَض في الحائط ويدفن طرفاه فيه، ويصير وسطه كالعروة تُشدُّ إليه الدابة. انظر: لسان العرب ١/ ٩٢ مادة: أخا.

(٦) في غ: فكالحمير تناهقوا.

(٧) في د، ح٢: لجل.

(٨) في الأصل والجميع سوىٰ غ، م، ح٢، شاهد. وما أثبته منهما ومن كتابه مدارج السالكين.

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش: شهدت.

ثَقُلَ الكتابُ عليهم لما رأوا تقييدَه بأوامر ونواهي
وعليهمُ خفَّ الغنا لما رأوا إطلاقَه في اللهو دون مناهي[1]
يا فرقة ما ضرَّ دينَ محمد وجنىٰ عليه وملَّه إلا هي[2][3]

وكيف يكون السماع الذي يسمعه العبد بطبعه وهواه، أنفع له من الذي يسمعه بالله ولله وعن الله، فإن زعموا أنهم يسمعون هذا السماع الغنائي الشعري كذلك، فهذا غاية اللبس علىٰ القوم. فإنه إنما[4] يسمع بالله ولله وعن الله ما يحبه الله[5] ويرضاه. ولهذا قلنا: إنه لا يتحرر الكلام في هذه المسألة إلا بعد معرفة صورة المسموع وحقيقته ومرتبته، فقد جعل الله لكل شيء قدراً،

---

(١) في ق: ملاهي.

(٢) في د، ط زيادة أبيات بعد هذه الأبيات وهي:

سمعوا له رعداً وبرقاً إذ حوىٰ زجراً وتخويفاً بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن شهواتها يا ويحها المتناهي
وأتىٰ السماع موافقاً أغراضها فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه
أين المساعد للهوىٰ من قاطع أسبابه عند الجهول الساهي
إن لم يكن خمر الجسوم فإنه خمر العقول مماثل ومضاهي
فانظر إلىٰ النشوان عند شرابه وانظر إلىٰ النشوان عند تلاهي
وانظر إلىٰ تمزيق ذا أثوابه من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي
فاحكم بأي الخمرتين أحق بالـ ـتحريم والتأثيم عند الله

(٣) ذكرها ابن القيم في إغاثة اللهفان ١/ ٣٤٦ وفي مسألة السماع ص١٠٧-١٠٨ ولم أقف علىٰ من ذكرها ولعلها من نظم ابن القيم.

(٤) «إنما» ساقطة من: غ.

(٥) «الله» ساقطة من الجميع سوىٰ ش، ط.

ولن يجعل الله من شربه ونصيبه[1] وذوقه ووجده من سماع الآيات البينات ، كمن نصيبه وشربه وذوقه ووجده من سماع الغناء والأبيات .

الرد على من أجاز السماع المحرم

ومن أعجب العجائب : استدلال من استدل علىٰ أن هذا السماع من طريق القوم[2] ، أو أنه[3] مباح : بكونه مستلذا طيباً ، تلذه النفوس ، وتستروح إليه . وأن الطفل يسكن إلىٰ الصوت الطيب ، والجمل يقاسي تعب السير ومشقة الحمولة ، فيهون عليه بالحداء[4] ، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله علىٰ صاحبه ، وزيادة فىٰ خلقه ، وبأن الله ذم الصوت الفظيع ، فقال : ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان : ١٩][5] ، وبأن الله وصف نعيم[6] الجنة فقال فيه[7] : ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم : ١٥] بأن ذلك هو السماع الطيب ، فكيف يكون حراماً وهو في الجنة؟ وبأن الله تعالىٰ ما أذن لشيء[8] كإذنه -أي كاستماعه لنبي حسن الصوت يتغنىٰ[9] بالقرآن[10] وبأن أبا موسىٰ

---

(١) في ح٢ : نهيه .

(٢) انظر : الرسالة القشيرية ٣٣٨ ، والإحياء ٢/ ٣٦٦-٣٦٧ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : وأنه .

(٤) في ح٢ : الحذاء .

(٥) في ط : طبعاً .

(٦) في ط زيادة : أهل .

(٧) في ق : فيهم .

(٨) في ش : لنبي .

(٩) التغني : تحسين القراءة وترقيقها . انظر : النهاية لابن الأثير ٣/ ٣٩١ .

(١٠) رواه البخاري ٩/ ٦٨ في كتاب فضائل القرآن ، باب من لم يتغن بالقرآن ح٥٢٤ ، ومسلم

الأشعري[1] - رضي الله عنه - استمع النبي ﷺ إلىٰ صوته، وأثنىٰ عليه بحسن الصوت، وقال: «لقد أوتي هذا[2] مزماراً من مزامير آل داود»[3].

فقال له أبو موسىٰ: «لو أعلم[4] أنك استمعت لحبرته[5] لك تحبيراً»[6]. أي زينته لك وحسنته. وبقوله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[7].

١/ ٥٤٥ في كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، ح٧٩٢، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٧١.

(١) هو عبدالله بن قيس بن مسلم بن حضَّار بن حرب المعروف بأبي موسىٰ الأشعري، صحابي مشهور، ولي البصرة لعمر، والكوفة لعثمان، وهو أحد المحكمين، ثم اعتزل الفتنة، كان حسن الصوت بالقرآن، توفي سنة ٥٠هـ. ترجمته في: السير ٢/ ٣٨٠، الإصابة ٢/ ٣٥١، تهذيب التهذيب ٥/ ٣٦٢.

(٢) «هذا» ساقطة من: ش.

(٣) رواه البخاري ٩/ ٩٢ في كتاب فضائل القرآن باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، ح٥٠٤٨، ومسلم ١/ ٥٤٦ في كتاب صلاة المسافرين باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ح٧٩٣، وأحمد في مسنده ٥/ ٣٥٩.

(٤) في ط، ح٢، غ، م، ب، ح١، أ: علمت.

(٥) التحبير: تحسين الصوت وتحزينه يقال حبرت تحبيراً إذا حسنته. انظر: النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٢٧.

(٦) قول أبي موسىٰ هذا رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٥٨، وذكره الغزالي في الإحياء ١/ ٣٩٢. وانظر فتح الباري ٩/ ٩٢.

(٧) رواه أحمد في مسنده ٤/ ٢٨٣، وأبو داود ٢/ ١٥٥ في كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، ح١٤٦٤، والنسائي ٢/ ١٧٩ في كتاب الافتتاح باب تزيين القرآن بالصوت ح١٠١٥، وابن ماجه في كتاب الصلاة باب في حسن الصوت بالقرآن ح١٣٤٢ والدارمي

وبقوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[1] والصحيح: أنه من التغني وهو[2] تحسين الصوت به[3]. وبذلك فسره[4] أحمد - رحمه الله - فقال: يحسنه بصوته ما استطاع[5].

وبأن النبي ﷺ أقر عائشة - رضي الله عنها - علىٰ غناء القينتين يوم العيد[6] وقال لأبي بكر: «دعهما. فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا أهل الإسلام»[7].

في سننه ٢/ ٣٤٠ في كتاب فضائل القرآن باب التغني بالقرآن ح٣٥٠٣.

ورواه البخاري تعليقاً ١٣/ ٥١٨ في كتاب التوحيد، ورواه موصولاً في كتاب خلق أفعال العباد ص٥٩، ٥٠. قال ابن حجر في الفتح ١٣/ ٥١٩ هذا الحديث من الأحاديث التي علقها البخاري ولم يصلها في موضع من كتابه وقد أخرجه في كتاب خلق أفعال العباد من رواية عبدالرحمن بن عوسجه عن البراء.

وقال الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١/ ٢٢٤: صحيح.

(١) رواه البخاري ١٣/ ٥٠١ في كتاب التوحيد باب قول الله تعالىٰ: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به...﴾ الآية ح٧٥٢٧، وأحمد في مسنده ١/ ١٧٢، وأبو داود ٢/ ١٥٥-١٥٦ في كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في التلاوة ح١٤٦٩.

(٢) في ط زيادة: بمعنىٰ.

(٣) «به» ساقطة من ط، غ، ح٢، ح١، م، ب، أ.

(٤) في ط زيادة: الإمام.

(٥) انظر: مسائل الإمام أحمد ص٨١.

(٦) في ب: في العيد.

(٧) رواه البخاري ٢/ ٤٤٠ في كتاب العيدين باب الحراب والدرق يوم العيد، ح٩٤٩، وفي باب سنة العيدين لأهل الإسلام، ح٩٥١، ومسلم ٢/ ٦٠٧ في كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه أيام العيد ح٨٩٢، وأحمد في مسنده ٦/ ١٣٤.

وبأنه ﷺ أذن في العرس في الغناء وسماه : لهواً [١] وقد سمع رسول الله ﷺ الحداء . وأذن فيه [٢] .

وكان يسمع إنشاد [٣] الصحابة ، وكانوا [٤] يرتجزون بين يديه في حفر الخندق :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً [٥]

ودخل مكة والمرتجز يرتجز [٦] بين يديه بشعر

---

(١) يشير إلىٰ ما رواه البخاري ٩/ ٢٢٥ عن عائشة - رضي الله عنها- أنها زفت امرأة إلىٰ رجل من الأنصار فقال نبي الله ﷺ : « **يا عائشة ما كان معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو** » كتاب النكاح ، باب النسوة اللاتي يهدين المرأة إلىٰ زوجها . . . ، ح٥١٦٢ ، ورواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٠٠ - ٢٠١ ، ح٢٧٤٩ .

(٢) يشير إلىٰ ما رواه البخاري ١٠/ ٥٥٢ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رسول الله ﷺ في سفر ، وكان معه غلام له أسود يقال له أنجشة يحدو فقال له رسول الله ﷺ : « **ويحك يا أنجشة ! رويدك بالقوارير** » كتاب الأدب ، باب ماجاء في قول الرجل : ويحك ح٦١٦١ ، ورواه مسلم في كتاب الفضائل باب رحمة النبي ﷺ للنساء ح٢٣٢٣ ، وأحمد في مسنده ٣/ ٢٢٧ .

(٣) في ط ، ح١ ، غ ، ب ، ق : أنساً والصحابة .

(٤) في ط : وهم .

(٥) رواه البخاري ٧/ ٣٩٢ في كتاب المغازي باب غزوة الخندق وهي الأحزاب ، ح٤٠٩٩ ، ومسلم ٣/ ١٤٣١-١٤٣٢ في كتاب الجهاد باب غزوة الأحزاب وهي الخندق ح١٨٠٥ ، وأحمد في مسنده ٣/ ١٧٠ .

(٦) «يرتجز» ساقطة من ح٢ .

عبد الله بن رواحة[١][٢] . وحدا به الحادي في منصرفه من خيبر . فجعل يقول :

والله لولا الله ما اهتدينــا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينـا

فأنزلَنْ سكينـةً علينـــا وثبِّت الأقدامَ إن لاَقينْا

إن الأُولا[٣] قد بَغَوا علينا إذا أرادوا فتنـــةً أَبَينـــا

ونحن إن صِيحَ بنا أتينـا [٤]

فدعا لقائله[٥] .

---

(١) أبو محمد عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الأنصاري الخزرجي صحابي جليل شهد العقبة مع السبعين من الأنصار ، وكان أحد النقباء الإثني عشر ، يُعد من الأمراء والشعراء الراجزين ، وكان أحد الأمراء في غزوة مؤتة واستشهد فيها وكان ذلك سنة ٨هـ .

ترجمته في: حلية الأولياء ١/ ١١٨، أسد الغابة ٣/ ١٣٠، السير ١/ ٢٣٠، الإصابة ٢/ ٢٩٨

(٢) رواه الترمذي ٥/ ١٣٩ في كتاب الأدب باب ما جاء في إنشاد الشعر ح٢٨٤٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، والنسائي ٥/ ٢٠٢-٢٠٣ في كتاب المناسك باب إنشاد الشعر في الحرم والسعي بين يدي الإمام ح٢٨٧٣ .

قال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٣٠ رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

وقال الألباني : صحيح . انظر : مختصر الشمائل المحمدية ١٣١ .

(٣) في ط : الذين .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة :

وبالصيــاح عوَّلو علينا ونحن عن فضلك ما استغنينا

وقد نسبت هذه الأبيات لعامر بن الأكوع في (منح المدح) أو شعراء الصحابة ممن مدح الرسول ﷺ أو رثاه لابن سيد الناس ، ٢١٠ ، وقد وردت في ديوان عبدالله بن رواحة ١٣٩ .

(٥) رواه البخاري باختلاف يسير ٧/ ٤٦٣ في كتاب المغازي باب غزوة خيبر ح٤١٩٦ ، ومسلم ٣/ ١٤٢٧-١٤٢٨ في كتاب الجهاد والسير باب غزوة خيبر ح١٨٠٢، وأحمد في مسنده ٤/ ٤٦-٤٧ .

وسمع قصيدة كعب بن زهير . وأجازه بردة [1][2] .

واستنشد الأسود [3] بن سريع قصائد حمد بها ربه [4] .

واستنشد من شعر أمية بن أبي الصلت[5] مائة قافية [6] .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : ببردة .

(٢) رواه الطبراني في الكبير ١٩/ ١٧٦-١٧٩ ورواه ابن هشام في السيرة ٤/ ١٤٦ ورواه الحاكم في المستدرك ٣/ ٦٧٠-٦٧٤ ح٦٤٧٧-٦٤٧٩ وقال : حديث محمد بن فليح عن موسىٰ ابن عقبة وحديث الحجاج بن ذي الرقيبة فإنهما صحيحان . وقال الذهبي في التلخيص : قال الحاكم هذا وحديث ابن ذي الرقيبة صحيحان. انظر : التلخيص بهامش المستدرك ٣/ ٦٧٣. وقال الهيثمي في المجمع ٩/ ٣٩٤ رواه الطبراني ورجاله إلىٰ ابن إسحاق ثقات .

(٣) الأسود بن سريع بن حمير بن عبادة التميمي السعدي ، الشاعر المشهور ، غزا مع النبي ﷺ أربع غزوات تو في سنة ٤٢هـ وقيل : لما قُتل عثمان ركب الأسود سفينة وحمل معه أهله وعياله فانطلق فما رؤي بعد . ترجمته في : أسد الغابة ١/ ١٠٣ ، الإصابة ١/ ٥٩ .

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد ص٢٨٩ ح٨٦٢ ، وأحمد في مسنده ٣/ ٤٣٥ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٤٦ ، والحاكم في المستدرك ٣/ ٧١٢ ح٦٥٧٥ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وحسنه الألباني . انظر : صحيح الأدب المفرد ٣٢٠ .

(٥) أمية بن عبدالله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي ، شاعر جاهلي ، عاش في الطائف ، ثم عاش في أقصىٰ اليمن ، قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله تعالىٰ ، ورغب عن عبادة الأصنام ، وكان يخبر بأن نبياً سيبعث وقد أظل زمانه ، وكان يؤمل أن يكون ذلك النبي ، فلما بلغه خروج النبي ﷺ كفر به حسداً له ، مات سنة ٥هـ .

ترجمته في : الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٠٠ ، الأغاني ٤/ ١٢٠ ، الأعلام ٢/ ٢٣ .

(٦) رواه مسلم ٤/ ١٧٦٧ في كتاب الشعر ح٢٢٥٥ ، والبخاري في الأدب المفرد ص٢٦٩ ح٨٠١ .

وأنشده الأعشىٰ[1] شيئاً من شعره فسمعه[2].

وصدّق لبيداً[3] في قوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل[4].

ودعا لحسان[5] «أن يؤيده الله بروح القدس مادام ينافح عنه»[6] وكان يعجبه[7]

---

(١) هو عبدالله بن الأعور المازني الأعشىٰ، أتىٰ النبي ﷺ فأنشده من شعره وفيه: «وهن شر غالب لمن غلب. فجعل النبي ﷺ يقول: وهن شر غالب لمن غلب» قيل إنه عاش إلىٰ خلافة بني مروان. ترجمته في: أسد الغابة ١/ ١٢٢، الإصابة ٢/ ٢٦٧

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٢٠٢، وابن الأثير في أسد الغابة ١/ ١٢٢. قال الهيثمي في المجمع ٤/ ٣٣٢ رواه عبدالله بن أحمد ورجاله ثقات.

(٣) أبو عقيل لبيد بن ربيعة بن مالك العامري أحد الشعراء الفرسان في الجاهلية، من أهل عالية نجد، وهو أحد أصحاب المعلقات، أدرك الإسلام وأسلم، ويقال إنه ما قال في الإسلام إلا بيتاً واحداً، توفي سنة ٤١هـ -رضي الله عنه-.

ترجمته في: الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٦٧، الإصابة ٣/ ٣٠٧، الأعلام ٥/ ٢٤٠.

(٤) رواه البخاري ١٠/ ٥٣٧ في كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر، ح٦١٤٧. ومسلم ٤/ ١٧٦٨ في كتاب الشعر ح٢٢٥٦، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٤٨.

(٥) أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري الخزرجي الصحابي المشهور، أحد المخضرمين، شاعر النبي ﷺ، فقد كان ينافح عنه بشعره، توفي - رضي الله عنه - سنة ٥٤هـ. ترجمته في: التاريخ الكبير ٣/ ٢٩، أسد الغابة ١/ ٤٨٢، الإصابة ١/ ٣٢٥.

(٦) رواه البخاري ٦/ ٣٠٤ في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ح٣٢١٢، ومسلم ٤/ ١٩٣٢-١٩٣٣ في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت ح٢٤٨٥، وأحمد في مسنده ٥/ ٢٢٢.

(٧) في أ زيادة: من.

شعره . وقال له : «اهجهم . وروح القدس معك»[١] .

وأنشدته عائشة ـ رضي الله عنها ـ قول أبي كبير الهذلي[٢] :

ومبرأ من كل[٣] غُبَّر[٤] حيضة ... وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلىٰ أسرَّةِ وجهه ... برقَتْ كبرق العارض المتهلِّل[٥]

وقالت : «أنت أحق بهذا البيت» فُسِّر بقولها[٦] .

وبأن ابن عمر ﷺ رخص فيه ، وعبدالله بن جعفر[٧][٨] وأهل المدينة . وبأن

---

(١) رواه البخاري ٦/ ٣٠٤ في كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ح٣٢١٣ بلفظ : «وجبريل معك» . ومسلم ٤/ ١٩٣٣ في كتاب فضائل الصحابة باب فضائل حسان ح٢٤٨٦ ، وأحمد في مسنده ٤/ ٢٩٩ .

(٢) هو عامر بن الحليس الهذلي من بني سهل بن هذيل ، شاعر فحل من شعراء الجاهلية أدرك الإسلام وأسلم ، وطلب من النبي ﷺ أن يحل له الزنا ، فقال له النبي ﷺ : «أتحب أن يؤتىٰ إليك مثل ذلك؟» قال : لا . قال : «فارض لأخيك ما ترض لنفسك» قال : «فادع الله أن يذهب عني ذلك» . ترجمته في : الشعر والشعراء ٤٤٦ ، أسد الغابة ٥/ ٢٦٢ ، الإصابة ، ٤/ ١٦٥ .

(٣) غُبَّرُ : كُل شيء بقيته وآخره ، وقد غلب ذلك علىٰ بقية اللبن في الضرع وبقية دم الحيض . انظر : لسان العرب ١٠/ ٧ مادة : غبر .

(٤) في غ ، أ ، ب ، ح١ : عيب محيضة .

(٥) انظر : ديوانه ص٩٣-٩٤ .

(٦) انظر : حلية الأولياء ٢/ ٤٦ ، وتاريخ بغداد ١٣/ ٢٥٣ .

(٧) أبو جعفر عبدالله بن جعفر بن أبي طالب القرشي الهاشمي عداده في صغار الصحابة ، ولد بأرض الحبشة ، واستشهد أبوه يوم مؤتة فكفله النبي ﷺ ، ونشأ في حجره ، بايع النبي ﷺ وهو ابن سبع سنين ، كان من أسخىٰ الناس ، توفي رضي الله عنه سنة ٨٠هـ .
ترجمته في: التاريخ الكبير ٧/ ١٤٢، أسد الغابة ٣/ ٩٤، السير ٣/ ٤٥٦، الإصابة ٢/ ٢٨٠ .

(٨) انظر الرسالة القشيرية ٣٣٧ .

كذا وكذا وليًّا لله حضروه وسمعوه ، فمن حرمه فقد قدح في هؤلاء[1] السادة القدوة الأعلام[2] .

وبأن الإجماع منعقد علىٰ إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية ، فلذة سماع صوت الآدمي أولىٰ بالإباحة ، أو مساوية .

وبأن السماع[3] يحدو روح السامع وقلبه إلىٰ نحو محبوبه . فإن كان محبوبه حراماً كان السماع معيناً له علىٰ الحرام . وإن كان مباحاً كان السماع في حقه مباحاً . وإن كانت محبته رحمانية كان السماع في حقه قربة وطاعة؛ لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيجها[4] .

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن . والشم بالروائح الطيبة ، والفم بالطعوم الطيبة . فإذا[5] كان هذا حراماً كانت جميع هذه[6] اللذات والإدراكات محرمة .

---

(١) في الجميع سوىٰ ش ، ط : هذه .

(٢) نسب الصوفية السماع إلىٰ بعض الصحابة - رضي الله عنهم - ومنهم عبدالله بن جعفر ، وابن الزبير ، والمغيرة ، وغيرهم ممن جاء بعدهم . انظر : قوت القلوب ٣/ ٢٣٩ ، القشيرية ٣٣٧ وما بعدها ، والإحياء ٢/ ٣٦٤ وما بعدها .

(٣) في م ، ح٢ زيادة : حادٍ .

(٤) في ش : ويقر بها .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : فإن .

(٦) هذه ساقطة من غ .

فالجواب : أن هذا[١] حيدة عن المقصود ، وروغان عن محل النزاع . وتعلق[٢] بما لا تعلق به[٣] . فإن جهة كون الشيء مستلذًا للحاسة ملائماً لها ، لا يدل علىٰ إباحته ولا تحريمه ، ولا كراهته ولا استحبابه . فإن هذه اللذة تكون في[٤] الأحكام الخمسة : تكون فيٰ الحرام ، والواجب ، والمكروه ، والمستحب ، والمباح . فكيف يستدل بها علىٰ الإباحة من يعرف شروط الدليل ، ومواقع الاستدلال؟

وهل هذا إلا بمنزلة من استدل علىٰ إباحة الزنا بما يجد به[٥] فاعله[٦] من اللذة ، وأن لذته لا ينكرها ذو[٧] طبع سليم . وهل يستدل بوجود اللذة والملاءمة علىٰ حل اللذيذ[٨] الملائم أحد؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات؟ وهل أصوات المعازف التي صح عن النبي ﷺ تحريمها ، وأن في أمته من سيستحلها بأصح إسناد[٩].

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : هذه .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : فتعلق وفي ق : يتعلق .

(٣) في ط : متعلق .

(٤) في ط : فيما فيه .

(٥) في ط : يجده .

(٦) في غ : العبد .

(٧) في ط ، ب ، ح١ ، أ : من له .

(٨) في م : اللذائذ .

(٩) يشير إلىٰ قول النبي ﷺ : «ليكونن أقوام يستحلون الحِرَ والخمر والمعازف . . . » الحديث

وأجمع[1] أهل العلم علىٰ تحريم بعضها . وقال جمهورهم : بتحريم جملتها - إلا لذيذة تلذ للسمع - [2] وهل في التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل علىٰ حكمه : من إباحة ، أو تحريم؟

وأعجب من هذا : الاستدلال علىٰ الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب . وهو زيادة نعمة منه [3]لصاحبه [4] .

فيقال : والصورة الحسنة الجميلة ، أليست زيادة في النعمة ، والله خالقها ، ومعطي حسنها؟ أفيدل ذلك علىٰ إباحة التمتع بها ، والالتذاذ بها[5] علىٰ الإطلاق [6]؟

وهل هذا إلا مذهب أهل الإباحة الجارين مع رسوم الطبيعة [7]؟

وهل في ذم الله لصوت الحمار ، ما يدل علىٰ إباحة الأصوات المطربات

رواه البخاري ١٠/ ٥١ في كتاب الأشربة ، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه ، ح٥٥٩٠ ، وأبو داود ٤/ ٣١٩ في كتاب اللباس ، باب ما جاء في الخمر ح٤٠٣٩ ، والطبراني في الكبير ٣/ ٢٨٢ ، ح٣٤١٧ .

(١) في ب : أجمع .

(٢) في ط ، ح٢ ، ح١ ، أ ، غ ، م ، ب : تلذ السمع .

(٣) في : ح٢ ، م : من الله .

(٤) انظر : القشيرية ٣٣٨ ، الإحياء ٢/ ٣٦٦ وما بعدها .

(٥) «بها» ساقطة من : ح١ ، ح٢ ، د ، أ ، ب ، م ، ق .

(٦) في ط : علىٰ الإطلاق بها .

(٧) فيه إشارة إلىٰ أصحاب الشهوات البهيمية الإباحية ، فالطبيعة هي الاندفاع مع الغرائز دون الشريعة والعقل ، فهم يميلون مع شهوات النفس دون نظر في الأحكام المتعلقة بها .

بالنغمات الموزونات ، والألحان اللذيذات [١] ، من الصور المستحسنات ، بأنواع القصائد المستحسنات [٢] بالدفوف [٣] والشبابات [٤] [٥] [هذا وأبيك إحدىٰ المضحكات والمعجبات] [٦] .

وأعجب من هذا : الاستدلال علىٰ الإباحة [٧] بسماع أهل الجنة . وما أجدر صاحبه أن يستدل علىٰ إباحة الخمر بأن في الجنة خمراً . وعلىٰ [٨] حل لبس [٩] الحرير بأن لباس أهلها حرير . وعلىٰ حل أواني الذهب والفضة والتحلي بها [١٠] للرجال بكون ذلك ثابتاً [١١] في الجنة .

---

(١) في ب : المطربات .

(٢) في ط : المنغمات .

(٣) الدفوف : جمع دُفٍّ وهو آلة طرب ينقر عليها . انظر : المعجم الوسيط ٢٨٩ .

(٤) الشبابات : مأخوذة من شبَّبَ في المرأة أي تغزل بها والتشبيب هو ذكر النساء في الشعر .
انظر: لسان العرب ٧/ ١٢-١٣ مادة : شبب .

(٥) في ق زيادة : الهذينات .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من ط . ولعل الفقي استوحش من ذكرها عن ابن القيم لنكارتها ولا يوجد لها محل إن ثبتت إلا علىٰ ما يجري علىٰ ألسنة العرب من ألفاظ يطلقونها ولا يريدون حقيقتها كقولهم : تربت يداك فهي دعاء بالفقر ولا يريدون حقيقتها .

(٧) «علىٰ الإباحة» ساقط من : ش .

(٨) في د : أو .

(٩) في ط : لباس .

(١٠) في ط : بهما .

(١١) في ط زيادة : وجود النعيم به .

فإن قال : قد قام الدليل علىٰ تحريم هذا ، ولم يقم علىٰ تحريم السماع .

قيل : هذا الآن[1] استدلال آخر ، غير الاستدلال بإباحته لأهل الجنة . فعلم أن استدلالك[2] بإباحته لأهل الجنة : استدلال باطل ، لا يرضىٰ به محصل .

وأما قولك[3] : «لم يقم دليل علىٰ تحريم السماع» .

فيقال لك : أي السماعات تعني؟ وأي المسموعات تريد؟ فالسماعات والمسموعات ، منها المحرم ، والمكروه ، والمباح ، والواجب ، والمستحب . فعين نوعاً يقع الكلام فيه نفياً وإثباتاً .

فإن قلت : سماع القصائد . قيل لك : أي القصائد تعني؟ ما مُدِحَ الله به[4] ، ورسوله ، وكتابه[5] ، وهُجِيَ به أعداؤه؟ ، فهذه[6] لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويتدارسونها . وهي التي سمعها رسول الله ﷺ وأصحابه[7] ،

---

(١) «الآن» ساقطة من ط .

(٢) في ط : استدلالكم .

(٣) في غ ، ط : قولكم .

(٤) في ط : ما مُدح به الله . . .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : ودينه .

(٦) في الأصل وش : هذا ، وما أثبته من الجميع وهو مقتضىٰ السياق .

(٧) يشير إلىٰ ما رواه أحمد في مسنده ٥/ ١٠٥ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال : «كنا نجلس إلىٰ رسول الله ﷺ فكانوا يتناشدون الأشعار ، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية ورسول الله ﷺ ساكت فربما تبسم» الحديث .

وأثاب عليها[1]، وحرض حساناً عليها[2]. وهي التي غرت أصحاب السماع الشيطاني، فقالوا: تلك قصائد، وسماعنا قصائد، فنعم إذن، والسنة كلام، والبدعة كلام، والتسبيح كلام، والغيبة كلام[3][4]، والقذفُ كلام، ولكن هل سمع رسول الله ﷺ وأصحابه سماعكم هذا الشيطاني المشتمل علىٰ أكثر من مائة[5] مفسدة مذكورة في غير هذا الموضع[6]. وقد أشرنا فيما تقدم إلىٰ بعضها[7].

ونظير هذا: ما غرّهم من استحسانه ﷺ الصوت الحسن بالقرآن، وأذنه فيه وإذنه له[8]، ومحبة الله له[9].

ورواه الترمذي ٥/ ١٤٠ في كتاب الأدب باب ما جاء في إنشاد الشعر، ح٢٨٥٠ وقال: حديث حسن صحيح.

قال الألباني في مختصر الشمائل ١٣٢: في إسناده شريك وهو سيء الحفظ.. لكن تابعه زهير وهو ابن معاوية عند النسائي في «السهو» فصح الحديث ولله الحمد.

(١) سبق تخريج سماع النبي ﷺ لقصيدة كعب بن زهير وأجازه بردة ص١٢٤٩.

(٢) سبق تخريجه ص ١٢٥٠.

(٣)«كلام» ساقطة من ش.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: والدعاء كلام.

(٥)«مائة» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش.

(٦) انظر: ما ذكره في كتابه الكبير الكلام علىٰ مسألة السماع، وكتابه إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٤-٣٧٥.

(٧) انظر ص ١٢٤٠.

(٨) في ط: وأذنه له وإذنه فيه...

(٩) سبق تخريجه ص ١٢٣٨، ١٢٣٩.

فنقلوا هذا الاستحسان إلىٰ صوت النسوان والمردان وغيرهم [١] ، بالغناء المقرون بالمعازف والشادن [٢] ، وذكر القد والنهد والخصر ، ووصف العيون وفعلها ، والشعر الأسود ، ومحاسن الشباب ، وتوريد الخدود ، وذكر الوصل والصد ، والتجني والهجران ، والعتاب والاستعطاف ، والاشتياق والقلق والفراق ، وما جرىٰ هذا المجرىٰ . مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر ، بما لا نسبة بينهما . وأي نسبة [٣] سكر يوم ونحوه ، إلىٰ سكرة العشق التي لايستفيق[٤] صاحبها إلا في عسكر الهالكين ، سليباً حزيناً [٥] ، وأسيراً قتيلاً؟

وهل تقاس سكرة الشراب إلىٰ سكرة[٦] الأرواح بالسماع؟ وهل يُظن[٧] بحكيم أن يحرم سكراً لمفسدة فيه معلومة ، ويبيح سكراً مفسدته[٨] أضعاف أضعاف مفسدة الشراب؟ حاشا أحكم الحاكمين .

فإن نازعوا في سكر السماع ، وتأثيره في العقول والأرواح : خرجوا عن الذوق والحس . فظهرت[٩] مكابرة القوم . فكيف يحمي الطبيب المريض عما

---

(١) في ش : وغيره .

(٢) في الأصل والجميع سوىٰ م ، ح٢ : الشاهد ، وما أثبته منهما وهو الأقرب للسياق .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : لمفسدة .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : الدهر .

(٥) في ط ، م ، ح١ ، ح٢ ، غ : حربياً .

(٦) في ط : بسكره .

(٧) في م : تظن .

(٨) في غ : مفسداته .

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش : وظهرت .

يشوش عليه صحته، ويبيح له ما فيه أعظم السقم؟ والمنصف يعلم أنه لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر[١] الشراب، وسقمها بسكر السماع. وكلامنا مع واجد لا فاقد، فهو المقصود بالخطاب.

وأعجب من هذا: استدلالهم[٢] علىٰ إباحة السماع - المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية - بغناء بنيتين صغيرتين دون البلوغ، عند امرأة صبية في يوم عيد وفرح، بأبيات من أبيات العرب، في وصف الشجاعة والحروب، ومكارم الأخلاق والشيم. فأين هذا من هذا؟

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم. فإن الصديق الأكبر - رضي الله عنه - سمىٰ ذلك: «مزمور[٣] الشيطان» وأقره رسول ﷺ علىٰ هذه التسمية. ورخص فيه لجويريتين غير مكلفتين[٤]، ولا مفسدة في إنشاده[٥]. ولا استماعه، أفيدل هذا علىٰ إباحة ما يعملونه[٦] ويعلمونه من السماع المشتمل علىٰ ما لا يخفىٰ؟ فيا سبحان الله! كيف ضلت العقول والأفهام؟

وأعجب من هذا كله: الاستدلال علىٰ إباحته بما سمعه رسول الله ﷺ، من

(١) في أ: بسقم.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: استدلالكم.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: من مزامير.

(٤) سبق تخريجه ص١٢٤٦.

(٥) في ط: إنشادهما ولا استماعهما.

(٦) في ط والجميع: تعملونه وتعلمونه.

الحداء المشتمل علىٰ الحق والتوحيد[1]. وهل حرم أحد مطلق الشعر، وقوله واستماعه؟ فكم [2] هذا التعلق ببيوت[3] العنكبوت؟

وأعجب من هذا: الاستدلال علىٰ إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة. وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقره: ٢٧٥]، وأين أصوات الطيور إلىٰ نغمات الغيد[4] الحسان، والأوتار والعَيَدان، وأصوات أشباه النساء من المردان، والغناء بما يحدو الأرواح والقلوب، إلىٰ مواصلة كل محبوبة و محبوب؟ وأين الفتنة بهذا إلىٰ الفتنة بصوت القمرىٰ والبلبل والهزار[5] ونحوها.

بل نقول: لو كانا سواء لكان اتخاذ هذا السماع قربة وطاعة، تستنزل به المعارف[6]، والأذواق، والمواجيد، وتحرك [7] به الأحوال بمنزلة التقرب إلىٰ

---

(١) انظر ما سبق تخريجه ص ١٢٤٧ وما رواه البخاري ١٠/ ٥٥٢ في كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل: ويلك، ح٦١٦١ عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ في سفر وكان معه غلام له أسود يقال له: أنجشة يحدو، فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا أنجشة، رويدك بالقوارير».

(٢) في ط زيادة: في.

(٣) في ش، ح١: بيت.

(٤) الغَيَد: النعومة، والغيداء: المراة المتثنية من اللين. انظر: لسان العرب ١٠/ ١٥٤ مادة: غَيد.

(٥) الهَزَارُ: طائر حسن الصوت (فارسي معرب) ويقال له: هزار دستان، لأنه يغني ألحاناً كثيرة وهزار في الفارسية بمعنىٰ الألف.
انظر المعجم الوسيط ٩٨٤. مادة: هَزَر.

(٦) في غ، ق: المعازف.

(٧) في الأصل والجميع سوىٰ ط: وتحك، وما أثبته من ط والسياق يقتضيه.

الله بأصوات الطيور ، ومعاذ الله أن يكونا سواء .

* * *

ثلاث قواعد تفصل النزاع في حكم السماع

والذي يفصل النزاع في حكم هذه المسألة : ثلاث قواعد . من أهم قواعد الإيمان والسلوك . فمن لم يبن عليها فبناؤه علىٰ شفا جرف هار .

القاعدة الأولى

القاعدة الأولىٰ : أن الذوق والحال والوجد : هل هو حاكم أو محكوم عليه؟ فيحكم(١) عليه بحاكم آخر ، ويتحاكم إليه (٢) .

فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة ، حيث جعلوه حاكماً فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع ، وفيما هو صحيح وفاسد . وجعلوه محكاً للحق والباطل ، فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص ، وحكّموا عليهما (٣) الأذواق ، والأحوال ، والمواجيد . فعَظُم الأمر ، وتفاقم الفساد(٤) ، وطُمستْ معالم الإيمان والسلوك المستقيم ، وانعكس السير ، وكان(٥) إلىٰ الله ، فصيروه إلىٰ النفوس . فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله ، وهؤلاء يعبدون نفوسهم .

---

(١) «فيحكم عليه» ساقط من د .

(٢) في ق : أو يتحاكم .

(٣) في الجميع : عليها وفي ط : فيها .

(٤) في ط زيادة : والشر .

(٥) في الجميع سوىٰ ش ، ط : فكان .

العجب[١] : أنهم دخلوا في أنواع من[٢] الرياضات والمجاهدات والزهد ، ليتجردوا عن شهوات النفوس وحظوظها . فانتقلوا من شهوات إلىٰ شهوات أكبر منها ، ومن حظوظ إلىٰ حظوظ أعظم[٣] منها[٤] . وكان حالهم في الشهوات[٥] التي انتقلوا عنها أكمل ، وحال أربابها خير من حال هؤلاء؛ لأنهم لم يعارضوا بها العلم ، ولا قدّموها علىٰ النصوص ، ولا جعلوها ديناً وقربة ، ولا ازدروا بها[٦] العلم وأهله . والشهوات التي انتقلوا إليها جعلوها أعلاماً[٧] يشمّرون إليها ، فهي قبلة قلوبهم . فهم[٨] واقفون مع حظوظهم من الله ، فَانُونَ بها عن مراد الله منهم . الناس يعبدون الله ، وهم يعبدون أنفسهم ، عاتبون[٩] لأهل[١٠] الحظوظ والشهوات ومُزْدَرون بهم[١١] . وهم أعظم الناس حظوظاً ،

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : ومن العصب .

(٢)«من» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٣) في ط : أحط .

(٤) في هامش الأصل زيادة : ومن كبر إلىٰ كبر أكبر منه وهلمّ جرّا فيا غربة الإسلام .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : في شهوات نفوسهم .

(٦) في ط : من أجلها .

(٧) في ط : أعلىٰ ما يشمرون .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : حولها عاكفون .

(٩) في ط والجميع : عائبون .

(١٠) في ط : علىٰ أهل .

(١١) في ط : لهم .

وإنما زهدوا في حظٍّ إلىٰ حظٍّ[1] أعلىٰ منه، وتركوا[2] شهوة لشهوة[3].

فليتدبر اللبيب هذا الموضع في نفسه وفي غيره. فكل ما خالف مراد الله الديني من العبد فهو حظه وشهوته، مالاً كان، أو رياسة، أو صورة، أو ذوقاً، أو وجداً، أو حالاً[4].

ثم من قدمه علىٰ مراد الله فهو أسوأ حالاً ممن عرف أنه نقص ومحنة. وأن مراد الله أولىٰ بالتقديم منه، فهو يتوب منه كل وقت إلىٰ الله.

ثم إنه وقع في[5] تحكيم الذوق من الفساد ما لا يعلمه إلا الله. فإن الأذواق مختلفة فىٰ نفسها[6]، كثيرة الألوان، متباينة أعظم التباين، فكل طائفة لهم أذواق وأحوال ومواجيد، بحسب معتقداتهم وسلوكهم. فالقائلون بوحدة الوجود[7] لهم

---

(١) «حظ» ساقطة من: غ.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: وإنما تركوا.

(٣) في ط زيادة: أحط.

(٤) في ط: أو حالاً، أو ذوقاً، أو وجداً.

(٥) في ط والجميع: من.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش: أنفسها.

(٧) وحدة الوجود: ينسب إلىٰ هذه الكلمة فرقة تسمىٰ الاتحادية، وقد قال عنهم ابن القيم بأنهم أكفر من اليهود والنصارىٰ، وهي في الأصل مذهب فلسفي غارق في الوجودية المغلقة مبني علىٰ أن الله هو الطبيعة وأبرز من أشهر هذا المذهب في المسلمين هو ابن عربي الصوفي. انظر: رسالة الحجج العقلية والنقلية لشيخ الإسلام ضمن مجموع الفتاوىٰ ٢/ ٢٩٣، ونشأة الفلسفة الصوفية د. عرفان فتاح ٣٦٧، والتعريفات ٩٢، وشرح العقيدة النونية لأحمد بن عيسىٰ ١/ ١٤٢-١٤٣.

ذوق وحال ووجد في معتقدهم بحسبه . والنصارىٰ[1] لهم ذوق في النصرانية ووجد[2] بحسب رياضتهم وعقائدهم . وكل من اعتقد شيئاً وسلك[3] سلوكاً حقاً كان أو باطلاً - فإنه إذا ارتاض وتجرّد ولزمه[4] ، وتمكن من قلبه ، بقي[5] له فيه حال وذوق ووجد . فبذوق من توزن الحقائق إذن ، ويعرف الحق من الباطل؟

وهذا سيد أهل الأذواق والمواجيد ، والكشوف والأحوال ، من هذه الأمة المحدَّث المكاشف[6][7] ، لا يلتفت إلىٰ ذوقه ووجده ومخاطباته في شيء من أمور

---

(١) النصارىٰ : جمع ، واحده نصراني ، وقيل : نصران بإسقاط الياء ، والأنثىٰ نصرانة ، سموا بذلك لقرية تسمىٰ ناصرة كان ينزلها عيسىٰ - عليه السلام - ، فنسب إليها فقيل عيسىٰ الناصري ، فلما نسب أصحابه إليه قيل : النصارىٰ . قال ابن عباس وقتادة : ونصران قرية بالشام ينسب إليها النصارىٰ ، ويقال : ناصرة ، وقيل سموا بذلك لنصرة بعضهم بعضاً .
والنصارىٰ وإن كانوا أهل كتاب إلا أن جماهيرهم وفرقهم يقولون بالتثليث ، فهم لا يقرون بالتوحيد ، وهم فرق عديدة حرفوا في كتابهم فضلُّوا وأضلُّوا . انظر : تفسير الطبري ٢/ ١٤٣-١٤٥ المحقق ، والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١/ ١٠٩ .

(٢) «ووجد» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : أو سلك . وفي غ : سلكه .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : لزمه .

(٥) في ط : وبقي .

(٦) يعني عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي قال عنه النبي ﷺ : «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون ، فإن يكُ في أمتي أحد فإنه عمر» رواه البخاري ٧/ ٤٢ في كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر ، ح٣٦٨٩ . والمُحدَّثُ : قيل: هو الملهم ، وقيل : الصادق الظن ، وقيل : من يجري الصواب علىٰ لسانه من غير قصد ، وقيل : المُفهّم ، وقيل : المكلّم أي تكلمه الملائكة من غير نبوة . انظر فتح الباري ٧/ ٥٠ .

(٧) في ط زيادة : عمر - رضي الله عنه - .

الدين ، حتىٰ ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب . فإذا أخبروه[1] عن رسول الله ﷺ بشيء لم يلتفت إلىٰ ذوقه ، ولا إلىٰ وجده وخطابه ، بل يقول : لو لم يُسمع[2] هذا لقضينا بغيره ويقول : «أيها الناس رجل أخطأ وامرأة أصابت»[3] ، فهذا فِعْل الناصحِ لنفسه وللأمة رضي الله عنه ، ليس كفعل من غشَّ نفسه، والدِّينَ والأمة.

القاعدة الثانية

القاعدة الثانية : أنه إذا وقع النزاع في حكم فعل[4] من الأفعال ، أو حال من الأحوال ، أو ذوق من الأذواق . هل هو صحيح أو فاسد؟ وحق أو باطل وجب الرجوع فيه إلىٰ الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين . وهو[5] وحيه الذي تُتَلَقّىٰ[6] أحكام النوازل والأحوال والواردات منه . وتعرض عليه وتوزن به ، فما زكَّاه منها ، وقبله ، ورجحه ، وصححه فهو المقبول . وما أبطله ورده ـ فهو الباطل المردود . ومن لم يبن علىٰ هذا الأصل علمه وسلوكه[7] ،

---

(١) في ب : فإن قالوا قال رسول الله .

(٢) في الجميع : نسمع هذا ، وفي ط : بهذا .

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره ٥/ ٩٩ ، ورواه البيهقي في السنن الكبرىٰ ٧/ ٣٨٠ في كتاب الصداق، باب لا وقت في الصداق كثر أو قل ، ح١٤٣٣٦ بلفظ «كل أحد أفقه من عمر ...». وذكره ابن كثير في تفسيره ٢/ ٢٣٠ من طريق أبي يعلىٰ ، وابن المنذر ، وذكره العجلوني في كشف الخفا ١/ ٣١٦ .

(٤) «فعل» ساقطة من غ ، ح١ ، أ ، ب .

(٥) في ط : وهي .

(٦) في ق ، ح١ ، ح٢ ، أ ، م : يتلقىٰ .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : عمله .

فليس علىٰ شيء[1] وإن وإن. وإنما معه خدع وغرور ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

القاعدة الثالثة

القاعدة الثالثة: إذا أشكل علىٰ الناظر أو السالك[2] حكم شيء هل هو الإباحة أو التحريم؟ فلينظر إلىٰ مفسدته وثمرته وغايته. فإن كان مشتملاً علىٰ مفسدة راجحة ظاهرة، فإنه يستحيل علىٰ الشارع الأمر به أو إباحته؛ بل العلم بتحريمه من شرعه قطعيّ.

ولا سيما إذا كان طريقاً مفضياً إلىٰ ما يبغضه[3] الله ورسوله، موصلاً إليه عن قرب[4]، وهو رقية له ورائد وبريد. فهذا لا يشك في تحريمه أولو البصائر[5]. فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر، لأنه[6] يسوق النفس إلىٰ السكر الذي يسوقها إلىٰ المحرمات، ثم يبيح ما هو أعظم[7] سوقاً للنفوس إلىٰ المحرم[8] بكثير؟ فإن الغناء - كما قال ابن مسعود رضي الله

---

(١) في ط زيادة: من الدين.

(٢) في غ والسالك.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش: يغضب.

(٤) في ش: قريب.

(٥) في غ: الأبصار.

(٦) في ش: الذي.

(٧) في ط زيادة: منه.

(٨) في ط، غ، أ، ح١: الحرام.

عنه - هو «رقية الزنا» [1] وقد شاهد[2] الناس : أنه ما عاناه صبيٌّ إلا وفسد[3] ، ولا امرأة إلا وبَغَتْ ، ولا شاب إلا وإلا ، ولا شيخ إلا وإلا ، والعيان من ذلك يغني عن البرهان ، ولا سيما إذا جمع هيئة تحدو النفوس أعظم حدو إلىٰ المعصية [والفجور ، بأن يكون علىٰ الوجه الذي ينبغي[4] من المكان والإمكان ، والعشراء والإخوان][5] ، وآلات المعازف ، من اليراع[6] ، والدف ، والأوتار والعيدان . وكان القوال[7] شادياً[8][9] شجي الصوت ، لطيف الشمائل من المردان أو النسوان[10] . وكان القول في العشق والوصال ، والصد والهجران.

---

(١) لم أقف علىٰ نسبته إلى ابن مسعود وإنما هو منسوب إلىٰ الفضيل بن عياض - رحمه الله - . انظر : الإحياء ٢/ ٣٨٦ ، وإغاثة اللهفان لابن القيم ١/ ٣٦٩ فقد قال : «وأما تسميته رقية الزنىٰ ، فهو اسم لمسماه ، ولفظ مطابق لمعناه . فليس في رقىٰ الزنىٰ أنجع منه ، وهذه التسمية معروفة عن الفضيل بن عياض» ثم ذكر رواية ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض .

(٢) في ب : شاهدناه .

(٣) في م ، ح٢ ، ح١ : إلا فسد .

(٤) في ط زيادة : لأهله .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من : أ .

(٦) اليراع : القصب ، واحدته يراعة ، وهي القصبة التي يزمر فيها الراعي . انظر : المعجم الوسيط ص١٠٦٣ مادة : يرع .

(٧) في ، م ، ح١ : القول .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق : شادناً ، وفي ش ، ق : شاذياً .

(٩) الشادي : هو المُغَنِّي . انظر : المعجم الوسيط ٤٧٦ مادة : شدا .

(١٠) في غ : والنسوان .

ودارتْ كؤوسُ الهوىٰ بينهم — فلسْتَ ترىٰ فيهمُ صاحيا
فكلٌّ علىٰ قدر مشروبه — وكلٌّ أجاب الهوىٰ الداعيا
فمالوا سُكارىٰ ولا سكر من — تناول أم الهوىٰ خاليا
وجارٍ علىٰ القوم ساقِيهمُ — ولم يؤثروا غيرَه ساقيا
فمزَّقَ منهمْ قلوبًا غدت — لباسا عليه يُرىٰ ضافيا[1]
فلم يستفيقوا إلىٰ أن أتىٰ — إليهم منادي اللِّقا داعيا
أجيبوا فكلُّ امرئ منكُم — علىٰ حاله ربَّه لاقيا
هنالك تَعْلمُ من حمأَةٍ — شربت مع القوم أم صافيا
وتالله[2] لا بدَّ قبل اللقا — ستعلمُ[3] ذا إن تك[4] واعيا
ولا بدَّ[5] تصحو فإمَّا هنا — وإما هناك فكُنْ راضيا[6]

* * *

---

(١) في ح٢، ح١، م، ب، أ: ضاحياً.

(٢) في ط، ق: وبالله.

(٣) في الأصل والجميع سوىٰ ط: تعلم.

(٤) في الأصل والجميع سوىٰ ط: تكن وما أثبته منه.

(٥) في الأصل والجميع: لا بد.

(٦) لم أقف لها علىٰ قائل ولعلها من نظم ابن القيم.

فصل

الرد على من أجاز السماع بالمحاكمة إلى الذوق الصحيح

وإذا[1] لم يكن بد من المحاكمة إلىٰ الذوق، فهلم نحاكمك إلىٰ ذوق لا ننكره نحن ولا أنت، غير هذه الأذواق التي ذكرناها.

فالقلب تعرض[2] له حالتان: حالة[3] حزن وأسف علىٰ مفقود، وحالة فرح وطرب[4] بموجود. وله بمقتضىٰ هاتين[5] الحالتين عبوديتان.

فله[6] بمقتضىٰ الحالة الأولىٰ: عبودية الرضاء، وهي للسابقين، والصبر، وهي لأصحاب اليمين.

وله بمقتضىٰ الحالة الثانية: عبودية الشكر. والشاكرون فيها أيضا نوعان: سابقون، وأصحاب يمين، فاقتطعته النفس والشيطان عن[7] هاتين العبوديتين بصوتين أحمقين فاجرين[8]، هما للشيطان لا للرحمن: صوت الندب والنياحة عند الحزن وفوات المحبوب، وصوت اللهو والمزمار والغناء عند

---

(١) في ح٢، م: وإن لم.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: يعرض.

(٣)«حالة» ساقطة من م.

(٤) في ط: رضىٰ.

(٥) في ش، ب، ح١، أ: هاذين.

(٦) في ط: وله.

(٧) في غ: عند.

(٨)«فاجرين» ساقطة من: ش.

الفرح وحصول المطلوب ، فعوضه الشيطان بهذين[1] الصوتين عن تلك[2] العبوديتين .

وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ هذا المعنىٰ بعينه في حديث أنس رضي الله عنه : **«إنما نهيت عن صوتين أحمقين ، فاجرين : صوت ويلٍ عند مصيبة ، وصوت مزمار عند نعمة»**[3] .

ووافق ذلك راحة من النفس وشهوة ولذة ، وسَرتْ فيها تلك الرقائق حتىٰ تعبَّدَ بها من قلَّ نصيبُه من النور النبوي ، وقل شربه[4] من العين المحمدية ، وانضاف ذلك إلىٰ صدق وطلب ، وإرادة مضادَّة[5] لأهل شهوات[6] الغيِّ ، وأهل البطالة . ورأوا قساوة قلوب المنكرين

---

(١) في ش : هاتين .

(٢) في ط : تينك .

(٣) لم أجد هذا اللفظ عن أنس وإنما هو بلفظ : «**صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة ، مزمار عند نعمة ، ورنة عند مصيبة**» ذكره المنذري في الترغيب ٤/ ٣٥٠ . وقال : رواه البزار ورواته ثقات ، وذكره الهيثمي في المجمع ٣/ ١٣ وقال : رواه البزار ورواته ثقات ، وصححه الألباني . انظر : الصحيحة ١/ ١٧٠ صحيح ، ح١٤٨ ، ورواه الترمذي في سننه ٣/ ١٣٩ بلفظ قريب مما ذكر ابن القيم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ ، في كتاب الجنائز ، باب ما جاء في الرخصة في البكاء علىٰ الميت ، ح١٠٠٥ ، وقال : حديث حسن .

(٤) في ط ، أ ، ح١ ، غ ، ح٢ ، ب ، م : مشربه .

(٥) في د ومضاده .

(٦) في ط : لشهوات أهل البغي .

لطريقتهم[1] ، وكثافة حجبهم وغلظة طباعهم ، وثقل أرواحهم . وصادف ذلك تحريكاً لسواكنهم ، وإيقاداً[2] للواعج الحب ، وإزعاجاً للنفوس إلىٰ أوطانها الأولىٰ ومعاهدها التي سبيت منها . والنفوس الطالبة المرتاضة السائرة، لا بد لها من محرك يحركها، وحادٍ يحدوها . وليس لها من حادي القرآن عوض عن حادي السماع .

فتركب من هذه الأمور : إيثار منهم للسماع ، ومحبة صادقة له . تزول الجبال عن أماكنها ولا تفارق قلوبهم . إذ هو مثير عزماتهم ، ومحرك سواكنهم، ومزعج بواطنهم .

فدواء مثل صاحب[3] هذه[4] الحال : أن ينقل بالتدريج إلىٰ سماع القرآن بالأصوات الطيبة ، مع الإمعان في تفهم معانيه ، وتدبر خطابه قليلاً قليلاً ، إلىٰ أن يخلع[5][6] قلبهُ محبة[7] سماع الأبيات ، ويلبس محبة سماع الآيات . ويصير ذوقه وشربه وحاله ووجده فيه ، فحينئذ يعلم هو من نفسه ، أنه لم يكن علىٰ

---

(١) في د : لطريقهم .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش وانقياداً .

(٣) في ط : صاحب مثل .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : هذا .

(٥) في ط : ينخلع .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : من .

(٧) «محبة» ساقطة من ط ، ح١ ، أ وفي ق : محبته .

شيء، ويتمثل[1] حينئذ بقول القائل:

وكنتُ أرىٰ أن قدْ تناهىٰ بِيَ الهوىٰ إلىٰ غايةٍ ما فوقها لِيَ مطْلبُ
فلما تلاقينا وعاينتُ حُسنَها تيقَّنتُ أني إنما كنتُ ألعبُ[2]

ومنافاة النوح للصبر، والغناء والمعازف[3] للشكر: أمر معلوم بالضرورة[4] من الدين[5]، لا يمتري فيه إلا أبعد الناس من العلم والإيمان. فإن الشكر هو الاشتغال بطاعة الله، لا بالصوت الأحمق الفاجر، الذي هو للشيطان[6]. وكذلك النوح ضد[7] الصبر، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ في النائحة - وقد ضربها حتىٰ بدا شعرها - وقال: «لا حرمة لها. إنها تأمر بالجزع، وقد نهىٰ الله عنه. وتنهىٰ عن الصبر، وقد أمر الله به، وتفتن الحي وتؤذي الميت، وتبيع عَبْرتَها. وتبكي بشَجْوِ[8]

---

(١) في ب: وتمثلت نفسه.

(٢) قال محمد بن أبي سليمان داود الظاهري ولبعض أهل هذا العصر:

وكنت أرىٰ أن قد تناهىٰ بي الهوى إلىٰ غاية ما بعدها لي مذهب
فلما تفرقنا تذكرت ما مضىٰ فأيقنت أني إنما كنت ألعب

انظر: كتاب الزهرة ٢٧٤.

(٣) «والمعازف» ساقطة من ط، ح١، أ، ب.

(٤) في ش: من الضرورة.

(٥) «من الدين» ساقط من أ.

(٦) في ش، غ: الشيطان.

(٧) في غ: عند.

(٨) في ط: شجو. والشجو: الهم والحزن. انظر: المعجم الوسيط ٧٤٧ مادة: شجىٰ.

غيرِها»[١] .

ومعلوم عند الخاصة والعامة : أن فتنة سماع الغناء والمعازف ، أعظم من فتنة النوح بكثير . والذي شاهدناه - نحن وغيرنا - وعرفناه بالتجارب : أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم وفشت فيهم ، واشتغلوا بها ، إلا سُلط[٢] عليهم العدو ، وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء . والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر ، والله المستعان .

ولا تستطل كلامنا في هذه المنزلة ، فإن لها عند القوم شأناً عظيماً .

الرد على من قال : إنكار السماع إنكار على أولياء الله

وأما قولهم : «من أنكر علىٰ أهله ، فقد أنكر علىٰ كذا وكذا ولي[٣]»[٤] فحجة عامية . نعم [إذا][٥] أنكر أولياء الله علىٰ أولياء الله كان ماذا؟ فقد أنكر عليهم من أولياء الله من هو أكثر منهم عدداً ، وأعظم عند الله وعند المؤمنين منهم قدراً ، وأقرب بالقرون[٦] المفضلة عهداً وليس من شرط ولي الله العصمة . وقد تقاتل

---

(١) روىٰ صدر هذا الأثر عبدالرزاق في مصنفه ٣/ ٥٥٧ رقم ٦٦٨٢ ، وانظر : مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزي ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : سلط الله .

(٣) في ط والجميع زيادة : لله .

(٤) انظر : قوت القلوب ٣/ ٢٣٨ حيث قال بعد تقسيم السماع : وإنما ذكرنا هذا لأنه كان طريقاً لبعض المحبين ، وحالاً لبعض المشتاقين ، فإن أنكرناه مجملاً فقد أنكرنا علىٰ تسعين صديقاً من خيار الأمة .

(٥) «إذا» ساقطة من الأصل وما أثبته من الجميع والسياق يقتضيه .

(٦) في ح٢ : إلىٰ القرون ، وفي م : القرون .

أولياء الله في صفين[1] بالسيوف ولما سار بعضهم إلىٰ بعض كان يقال : سار أهل الجنة إلىٰ أهل الجنة . وكون ولي الله يرتكب المحظور[2] والمكروه متأولاً أو عاصياً لا يمنع ذلك[3] الإنكار عليه ، ولا يخرجه عن أصل ولاية الله تعالىٰ ، وهيهات هيهات أن يكون أحد من أولياء الله المتقدمين[4] حضر هذا السماع المحدث[5][6] ، المشتمل علىٰ هذه الهيئة التي تفتن القلوب ، أعظم من فتنة المشروب ، حاشا[7] أولياء الله من ذلك[8] وإنما السماع الذي اختلف فيه مشايخ القوم: اجتماعهم في مكان خال من الأغيار[9] يذكرون الله ، ويتلون[10]

---

(١) صفين : موضع بقرب الرّقّة علىٰ شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس . انظر : معجم البلدان ٣/ ٤٧١ . ووقعة صفين كانت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما – وكان ذلك سنة ٣٧هـ . انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٧/ ٢٦٨ .

(٢) في الجميع سوىٰ ش ط : المحذور .

(٣) في ط زيادة : من .

(٤) في ش زيادة : مَن .

(٥) في ق : المحذور .

(٦) في ط زيادة : المبتدع .

(٧) في ط : وحاشا .

(٨) قال القشيري ـ رحمه الله ـ : «وليس كلامنا في هذا النوع من السماع ، فإن هذه الطائفة جلّت رتبتهم عن أن يستمتعوا بلهو ، أو يقعدوا للسماع بسهو ، أو يكونوا بقلوبهم مفكرين في مضمون لغو ، أو يستمعوا علىٰ صفة غير كفء» انظر : القشيرية ٣٣٧ .

(٩) في ق : الأعيان .

(١٠) في ب : ويقرؤون .

شيئاً من القرآن[1] . ثم يقوم بينهم قوَّال ينشدهم شيئاً من الأشعار المزهدة في الدنيا ، المرغبة في لقاء الله تعالىٰ و محبته ، وخوفه ورجائه ، والدار الآخرة ، وينبههم[2] علىٰ بعض أحوالهم من غَدْرة[3] ، أو غفلة ، أو بُعْد أو انقطاع[4] ، أو تأسف علىٰ فائت ، أو تدارك[5] لفارط ، أو وفاء بعهد ، أو تصديق بوعد ، أو ذكر قلق وشوق ، أو خوف فرقة ، أو صدّ ، وما جرىٰ هذا المجرىٰ .

فهذا السماع الذي اختلف فيه القوم . لا سماع المكاء والتصدية ، والمعازف والخماريات[6] ، وعشق الصور من المردان والنسوان ، وذكر محاسنها ووصالها وهجرانها . فهذا لو سئل عنه من سئل من أولي العقول لقضىٰ بتحريمه ، وعلم أن الشرع لا يأتي بإباحته ، وأنه ليس علىٰ الناس أضرُّ منه، ولا أفسد لعقولهم وقلوبهم وأديانهم وأموالهم وأولادهم وحريمهم منه[7] .

* * *

---

(١)«من القرآن» ساقط من ش .

(٢) في ش : وينبئهم .

(٣) في ط : يقظة .

(٤) في ح١ : وانقطاع .

(٥) في م ، ح٢ ، أ : وتدارك .

(٦) في ط ، ح٢ : الخمريات .

(٧)«منه» ساقطة من الأصل وش وما أثبته من باقي النسخ وبه تمام الكلام .

فصل

قال صاحب المنازل :

سماع العامة

«السَّمَاعُ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ : سَمَاعُ العَامَّةِ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَشيَاءَ : إِجَابَةُ زَجرِ الوَعِيدِ رَغْبَةً[1] ، وَإِجَابَةُ دَعوَةِ الوَعدِ جهداً ، وبُلُوغُ مُشَاهَدَةِ المِنَّةِ استِبصَاراً»[2] .

الوعيد : يكون علىٰ ترك المأمور وفعل المحظور ، فإجابة[3] داعيه : هو العمل بالطاعة .

وقوله : «رَغبَةً» يعني امتثالاً لكون[4] الله عز وجل أمر ونهىٰ وأوعد .

وحقيقة الرغبة[5] : الخوف والرجاء . فيفعل ما أمر به علىٰ نور الإيمان ، راجياً للثواب . ويترك ما نهىٰ عنه علىٰ نور الإيمان ، خائفاً من العقاب .

وفي الرغبة فائدة أخرىٰ ، وهي أن فعله يكون فعل راغب مختار ، لا فعل كاره[6] ، كأنما يساق إلىٰ الموت وهو ينظر[7] .

---

(١) في المنازل : رعة. والرِّعَةُ: التحرج والتوقي عن المحارم . انظر المعجم الوسيط ص١٠٢٥ . مادة ورع . وابن القيم -رحمه الله- أثبت رغبة وشرحها ، والرَّغبُ عن الشيء : تركه تعمداً والزهد فيه . انظر : المعجم الوسيط ٣٥٦ مادة : رَغِبَ .

(٢) انظر : المنازل ١٨ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : وإجابة .

(٤) في غ : بكون .

(٥) في ط : الرجاء .

(٦)«كاره» ساقطة من أ .

(٧)«وهو ينظر» ساقط من ق .

وأما إجابة الوعد جهداً : فهو امتثال الأمر طلباً للوصول إلىٰ الموعود به ، باذلاً جهده في ذلك ، مستفرغاً فيه قواه .

وأما بلوغ مشاهدة المنة استبصاراً : فهو تنبه[1] السامع في سماعه إلىٰ أن جميع ما وصله من خير فِمنْ منَّة الله عليه[2] ، وتفضّلِه[3] عليه ، من غير استحقاق منْه ، ولا بذل[4] عوض استوجب به ذلك . كما قال تعالىٰ : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات : ١٧] .

وكذلك يشهد أن ما زوي عنه[5] من الدنيا ، أو ما لحقه منها من ضرٍّ[6] وأذىٰ ، فهو منَّةٌ أيضاً من الله عليه من وجوه كثيرة ، يستخرجها[7] الفكر الصحيح . كما قال بعض السلف : «يا ابن آدم ، لا تدري أي النعمتين عليك أفضل : نعمته عليك[8] فيما أعطاك ، أو نعمته فيما زوىٰ عنك[9]»[10] .

---

(١) في ب ، ح٢ ، د ، م : تنبيه .

(٢) «عليه» ساقطة من ش .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : ويفضله .

(٤) في غ ، د ، ح١ ، أ ، ب : ولا بدل .

(٥) في ب : عليك .

(٦) في ط ، ح١ ، أ ، غ : ضرر .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق ، د : ويستخرجها .

(٨) «عليك» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٩) انظر : كتاب الشكر لابن أبي الدنيا ١٢٣ .

(١٠) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : لا أبالي علىٰ أي

إذا مسَّ[1] بالسراء أعقبَ شكرها وإن مسَّ بالضراء أعقبها الصبر[2]

وما منهما إلا له فيه نعمةٌ تضيقُ بها الأوهامُ والبرُّ والبحرُ[3]

فإن قلت : فهل يشهد منَّته فيما لحقه من المعصية والذنب؟

قلت : نعم . إذا اقترن بها التوبة النصوح ، والحسنات الماحية ، كانت من أعظم المِنَنِ عليه . كما تقدم تقريره[4] .



فصل

سماع الخاصة

قال : «وَسَماعُ الخَاصَّةِ ، ثَلاثَةُ أَشْياءَ : شُهُودُ المقصُودِ في كُلِّ رَمْزٍ ، وَالوُقُوفُ عَلَىٰ الغَايَةِ فِي كُلِّ حِينٍ ، وَالخَلاَصُ مِن التَّلَذُّذِ بِالتَّفَرُّقِ»[5] .

المقصود[6] في كل رمز[7] : هو الرب تبارك وتعالىٰ . فإن المسموع كله

حال أصبحت أو أمسيت إن كان الغنىٰ ، إن فيه للشكر . وإن كان الفقر ، إن فيه للصبر .

وقال بعض السلف : نعمته فيما زوىٰ عني من الدنيا ، أعظم من نعمته فيما بسط لي منها ، إني رأيته أعطاها قوماً فاغتروا بها .

(١) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق : عمَّ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : الأجر .

(٣) القائل : محمود الوراق . انظر : ديوانه ١٢١ .

(٤) انظر : المدارج ١/ ٢٩٧-٣٠٧ .

(٥) انظر : المنازل ١٨؛ ولكن قال : والوقوف علىٰ الغاية في كلِّ حس .

(٦) في ط ، غ : والمقصود .

(٧) في ش : حق .

يعرف به وبصفاته[١] وأسمائه، وأفعاله وأحكامه، ووعده ووعيده، وأمره ونهيه، وعدله وفضله . وهذا الشهود ينال بالسماع بالله ولله وفي الله ومن الله .

أما السماع به : فأن[٢] لا يسمع وفيه بقية من نفسه . فإن كانت فيه بقية قطعها كمال تعلقه بالمسموع[٣]، فيكون سماعه بقيوميته مجرداً من التفاته إلىٰ نفسه .

وأما السماع له[٤] : فأن يجرد النفس في السماع من كل إرادة تزاحم مراد الله منه ، ويجمع[٥] قوىٰ سمعه [علىٰ][٦] تحصيل مراد الله من المسموع .

وأما السماع فيه : فشأن آخر . وهو تجريد ما لا يليق نسبته إلىٰ الحق من وصف ، أو سِمَةٍ أو نعت ، أو فعل ، مما هو لائق[٧] بكماله . فيثبت له ما يليق بكماله من المسموع ، وينزهه عما لا يليق به .

وهذا الموضع لم يتخلص[٨] فيه إلا الراسخون في العلم والمعرفة بالله . وأضل الله عنه[٩] أهلَ التحريف والتعطيل ، وأهلَ[١٠] التشبيه والتمثيل ، و﴿هَدَى

---

(١) في ق : وبأسمائه وصفاته .

(٢) في ق : فإنه .

(٣) «بالمسموع» ساقطة من ش .

(٤) في ش : لله .

(٥) في ط والجميع : وتجمع .

(٦) «علىٰ» ساقطة من الأصل وش وما أثبته من ط وباقي النسخ والسياق يقتضيه .

(٧) في غ ، ح٢ ، م : لا يليق .

(٨) في م ، ح٢ : لا يتخلص .

(٩) في ش : عنهم .

(١٠) «أهل» ساقطة من: ط ، ب ، غ .

ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

وأما السماع منه : فإنما يتصور بواسطة ، فهو سماع مقيد . وأما المطلق : فلا مطمع فيه في عالم الفناء ، إلا لمن اختصه الله برسالاته[1] ، وبكلامه . ولكن السماع لكلامه كالسماع منه ، فإنه[2] كلامه الذي تكلم به حقاً ، فمن سمعه فليقدر نفسه كأنه يسمعه من الله[3] .

هذا هو السماع من الله . لا سماع أرباب الخيال ، ودعوىٰ المحال ، القائل أحدهم : «ناداني في سري ، وخاطبني ، وقال لي»[4] :

يا ليت شعري من المنادي لك؟ ومن المخاطب ، يا مخدوع يا مغرور؟ فما يدريك؟ أنداءٌ شيطاني أم رحماني؟ وما البرهان علىٰ أن المخاطب لك هو الرحمن؟

نعم نحن لا ننكر النداء والخطاب والحديث . وإنما الشأن في

---

(١) في ح٢ ، م : برسالته .

(٢) في غ : فإن .

(٣) قال أبو سعيد الخراز : «أول إلقاء السمع لاستماع القرآن هو أن تسمعه كأن النبي ﷺ يقرأه عليك ، ثم ترقىٰ عن ذلك ، فكأنك تسمعه من جبريل - عليه السلام - وقراءته علىٰ النبي ﷺ ثم ترقىٰ عن ذلك ، فكأنك تسمعه من الحق ، وذلك قول الله تعالىٰ : ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ [الإسراء : ٨٢] ، وقوله : ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ [الزمر :١] فكأنك تسمعه من الله» انظر : اللمع للطوسي ١١٤ .

(٤) ينسب مثل هذا القول لعدد من الصوفية كأبي يزيد البسطامي الذي قال : «رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي ... » . انظر اللمع ٤٦١ ، ٤٧٣ .

المنادي[1] المخاطب المحدث ، فههنا تسكب العبرات[2] .

وبالجملة فمن قرئ عليه القرآن فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به ، فإذا حصل له - مع ذلك - السماع به وله وفيه ، ازدحمت معانى المسموع ولطائفه وعجائبه على قلبه ، وازدلفت إليه بأيها[3] يبدأ ، فما شئت من علم وحكم[4] ، وتعرف وبصيرة ، وهداية وعبرة .

وأما الوقوف على الغاية في كل حين : فهو التطلب والسفر إلى الغاية المقصودة[5] بالمسموع الذي[6] جعل وسيلة[7] إليها ، وهو الحق سبحانه . فإنه غاية كل طلب[8] ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم :٤٢] ، وليس وراء الله مرمى ، ولا دونه مستقر ، ولا تقرُّ العين بغيره ألبتة . فكل[9] مطلوب سواه فظل زائل ، وخيال مفارق[10] ، وإن تمتع به صاحبه فمتاع الغرور .

وأما الخلاص من التلذذ بالتفرق : فالتفرق في معاني المسموع ، وتنقل

---

(١) في غ : في المنادي والمخاطب والمحدِّث .

(٢) انظر كلام ابن القيم عن مراتب الهداية الخاصة والعامة في المدارج ١/ ٣٧ وما بعدها .

(٣) في ط : بأيهما .

(٤) في ط : وحكمة .

(٥) في ق : المقصود .

(٦) في الأصل والجميع سوى ط : التي . ولا يستقيم السياق بها .

(٧) في غ : وسيلته .

(٨) في ط والجميع سوى ش : مطلب .

(٩) في ط والجميع سوى ش : وكل .

(١٠) في ط والجميع سوى ش زيادة : مائل .

القلب في منازلها يوجب له لذة ، كما هو المألوف في الانتقال . فيتخلص[١] من لذة تفرقه التي هي حظه ، إلىٰ الجمعية علىٰ المسموع به ومنه له[٢] .

ولم يقل الشيخ ـ رحمه الله ـ : «الخلاص[٣] من التفرق» فإن المسموع إنما يُدرك معناه ويُفهم بالتفرق لتنوّعه ، ولكن ليتخلص من لذته[٤] لا منه ، لئلا يكون مع حظِّه ، وهذا من ألطف[٥] أحوال السامعين المخلصين .



فصل

سماع خاصة الخاصة

قال : «وَسَمَاعُ خَاصَّةِ الخَاصَّةِ : سَمَاعٌ يَنفِي العِلَلَ عَنِ الكَشْفِ ، وَيَصلُ الأَبَدَ[٦] إِلىٰ الأَزَلِ[٧] ، وَيَردُّ النِّهَايَاتِ إِلىٰ الأَوَّلِ»[٨] .

تعريف الكشف

فالكشف : هو مكافحة[٩] القلب لحقيقة المسموع . وعلله أمران .

---

(١) في ط : فليتخلص .

(٢) في ط ، ق : به وله ومنه .

(٣) «الخلاص» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش ، وفي ش : الإخلاص .

(٤) في ح٢ ، م : لذاته .

(٥) في ط : لطف .

(٦) الأبد : مدة لا يتوهم انتهاؤها بالفكر والتأمل البتة ، والأبد هو الشيء الذي لا نهاية له ، وهو استمرار الوجود في أزمة مقدرة ، غير متناهية في جانب المستقبل ، والأبدي ما لا يكون منعدماً . انظر : التعريفات ١٨ .

(٧) الأزل: استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي. انظر: التعريفات ٢٧.

(٨) المنازل ١٨ وفيها : وسماع خاصة الخاصة : سماع يغسل العلل عن الكشف .

(٩) المكافحة : مواجهة الوجه بالوجه ، وكفح الشيء كشف عنه غطاءه . انظر لسان العرب

أحدهما : الشُّبه التي تنتفي بهذه المكافحة ، فلا يبقىٰ[١] معها شبهة . وهذا[٢] هو عين اليقين .

والثاني : نفي الوسائط بين السامع والمسموع . فيغيب بمسموعه عنها ، ويفنىٰ عن شهودها ، ويفنىٰ عن شهود فنائه عنها ، بحيث يشهده هو المسمع لا الواسطة[٣] . وهو البادي[٤] ، فمنه الإسماع ، ومنه الهداية ، ومنه الابتداء ، وإليه الانتهاء . وأما وصله الأبد إلىٰ الأزل : فهذا -إن أخذ علىٰ ظاهره- : فهو محال؛ لأن الأبد[٥] والأزل ، متقابلان تقابل التناقض ، فاتصال[٦] أحدهما بالآخر[٧] عين المحال . وإنما مراده : أن ما يكون في الأبد موجوداً مشهوداً فقد

١٢/ ١١٨ مادة كفح ، والنهاية في غريب الحديث ٤/ ١٨٥ .

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لجابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ : «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ » قال بلىٰ يا رسول الله . قال : ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب وكلم أباك كفاحاً . . . الحديث . رواه ابن ماجه ١/ ٦٨ في المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية ح١٩٠ والترمذي ٥/ ٢٣٠ في كتاب التفسير باب وفي سورة آل عمران ، ح٣٠١٠ وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه . وصححه الألباني . انظر : سنن ابن ماجه ١/ ٣٨ ح١٥٧ .

(١) في ط والجميع سوىٰ ش ، م ، د : تبقىٰ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : فهذا .

(٣) في غ : الواسط .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : الهادي .

(٥) «الأبد» ساقطة من ش .

(٦) في ط ، ح١ ، ح٢ ، غ ، أ : فإيصال .

(٧) في ط ح٢ ، غ ، م ، ح١ ، أ ، ب : في الآخر .

كان في الأزل معلوماً مقدراً ، فعاد حكم الأبد إلىٰ الأزل علماً وحقيقة ، وصار الأزليُّ أبديّاً ، كما كان الأبديُّ أزليّاً في العلم والحكم .

وإيضاح ذلك : أن الأبد ظهر فيه ما كان [1] في الأزل خافياً ، فانتهىٰ الأمر كله إلىٰ علمه وحكمه وحكمته ، وذلك أزلي . وهذا هو[2] رد النهايات إلىٰ الأول ، فتصير الخاتمة هي عين السابقة . والله تعالىٰ هو الأول والآخر . وكل ما كان ويكون آخراً فمردود إلىٰ سابق علمه وحكمه . فرجع الأبد إلىٰ الأزل ، والنهايات إلىٰ الأول . والله أعلم .

* * *

(١) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : كامناً .

(٢) «هو» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

فصل

منزلة الحزن

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الحزن»[1] .

وليست من المنازل المطلوبة ، ولا المأمور بنزولها ، وإن كان لا بد للسالك من نزولها . ولم يأت «الحزن» في القرآن إلا منهياً عنه ، أو منفياً[2] .

فالنهي[3] : كقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ [آل عمران :١٣٩] وقوله : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ١٢٧] في غير موضع وقوله : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] والمنفي كقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] .

وسر ذلك : أن «الحزن» موقف غير مسير ، ولا مصلحة فيه للقلب . وأحب شيء إلىٰ الشيطان ، أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره ، ويوقفه[4] عن سلوكه . قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [المجادلة: ١٠]

---

(١) الحزن عند الصوفية : هو توجع القلب لفائت ، أو تأسف علىٰ ممتنع ، وهو عند الصوفية تأسف علىٰ ما يفوت العبد من الكمالات وأسبابها ، وماهياتها ، وهو يتضمن الخوف ، الحزن ، الإشفاق ، الخشوع ، الإخبات . علىٰ حسب الدرجات في العامة والخاصة والمريد وهكذا ، ومنه قبض القلب عن التفرق في أودية الغفلة .

انظر : لطائف الإعلام ١/ ٤١٠ ، معجم مصطلحات الصوفية ٧٧ .

(٢) «أو منفياً» ساقطة من م .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش فالمنهي عنه .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : ويوقفه .

ونهىٰ النبي ﷺ الثلاثة «أن يتناجىٰ اثنان منهم دون الثالث؛ لأن ذلك يحزنه»[1] .

الحزن ليس مطلوباً ولا مقصوداً

فالحزن ليس بمطلوب ، ولا مقصود ، ولا فيه فائدة . وقد استعاذ منه النبي ﷺ فقال : «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن»[2] ، فهو قرين الهم .

والفرق بينهما : أن المكروه الذي يرد علىٰ القلب ، إن كان لما[3] يستقبل : أورثه الهم ، وإن كان لما مضىٰ : أورثه الحزن ، وكلاهما مضعف للقلب مفتر للعزم[4] .

ولكن نزول منزلته[5] ضرورية[6] بحسب الواقع . ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر : ٣٤] ، فهذا يدل علىٰ أنهم كان يصيبهم في الدنيا الحزن ، كما يصيبهم سائر المصائب التي تجري عليهم[7] بغير اختيارهم .

---

(١) رواه البخاري ١١/ ٨١ في كتاب الاستئذان ، باب لا يتناجىٰ اثنان دون الثالث ، ح٦٢٨٨ وفي باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس ، ح٦٢٩٠ ، ومسلم ٤/ ١٧١٨ في كتاب السلام ، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث ، ح٢١٨٤ ، وأحمد في مسنده ١/ ٤٢٥ .

(٢) جزء من حديث رواه البخاري ١١/ ١٧٣ في كتاب الدعوات ، باب التعوذ من غلبة الرجال ح٦٣٦٣ ، وأحمد في مسنده ٣/ ١٥٩ ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب في الاستعاذة ، ح١٥٥٥ ، والترمذي ٥/ ٥٢٠ في كتاب الدعوات ، باب ٧١ ، ح٣٤٨٤ .

(٣) في ش : لمستقبل .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : عن السير .

(٥) في د : منزلة .

(٦) في ط ضروري .

(٧) في ق : عليه .

وأما قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة : ٩٢] فلم يمدحوا علىٰ نفس الحزن ، وإنما مدحوا علىٰ ما دل عليه الحزن من قوة إيمانهم ، حيث تخلفوا عن رسول الله ﷺ لعجزهم عن النفقة . ففيه تَعْرِيض بالمنافقين الذين لم يحزنوا علىٰ تخلفهم[١] ، وغبطوا نفوسهم به .

وأما قوله ﷺ في الحديث الصحيح : «**ما يصيب المؤمن من هم ولا نصب ، ولا حزن إلا كفر الله به من خطاياه**»[٢] فهذا يدل علىٰ أنه[٣] مصيبة من الله يصيب بها العبد ، يكفر بها من سيئاته . لا يدل علىٰ أنه مقام ينبغي طلبه واستيطانه[٤] .

وأما حديث هند بن أبي هالة[٥] ، في صفة النبي ﷺ : «**إنه كان متواصل الأحزان**»[٦] . فحديث لا يثبت ، و في إسناده من لا يعرف .

---

(١) في ط : زيادة : بل .

(٢) رواه البخاري ١٠/ ١٠٣ في كتاب المرض ، باب ما جاء في كفارة المرض ، ح٥٦٤٠ ، ومسلم ٤/ ١٩٩٢ في كتاب البر والصلة ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن ح٢٥٧٣ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٠٣ .

(٣)«أنه» ساقطة من ش .

(٤) في ب : واستنزاله .

(٥) هند بن أبي هالة التميمي ، ربيب النبي ﷺ ، أمه خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ ، روىٰ عن النبي ﷺ صفته وحليته . قال ابن عبدالبر : كان هند فصيحاً بليغاً . وفاته بالبصرة ، وقيل إنه استشهد مع علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يوم الجمل . ترجمته في : أسد الغابة ٤/ ٦٤١ ، الإصابة ٣/ ٥٧٨ ، تهذيب التهذيب ١١/ ٩ .

(٦) هذا الحديث رواه الترمذي في الشمائل ص٢٢ج ٧ والطبراني في الكبير٢٢/ ١٥٥-١٥٩ ،

وكيف يكون متواصل الأحزان ، وقد صانه الله عن الحزن علىٰ الدنيا وأسبابها ، ونهاه عن الحزن علىٰ الكفار ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فمن أين يأتيه الحزن؟

بل كان دائم البشر ، ضحوك السن ، كما في صفته : «الضحوك القتال»[1] صلوات الله وسلامه عليه .

وأما الخبر المروي : «إن الله يحب كل قلب حزين»[2] فلا يعرف إسناده ،

وابن سعد في الطبقات ١/ ٣٢٤-٣٢٧ ، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٦/ ٣٣-٣٥ . قال الألباني في مختصر الشمائل ١٨ : إسناده ضعيف جداً وقال في الصحيحة ٥/ ٨٥ : وله علتان : الأولىٰ : جهالة أبي عبدالله التميمي . قال الحافظ وغيره : مجهول ، والثانية : ضعف جميع بن عمير واتهمه بعضهم .

(١) لم أجد حديثاً بهذه الألفاظ فيما وقفت عليه من مصادر ، لكن ذكر هذين الاسمين شيخ الإسلام ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل ٣/ ٣٣١ ، والإمام ابن القيم في زاد المعاد ١/ ٨٧ وقال في شرحهما :«وأما الضحوك القتال فاسمان مزدوجان لا يفرد أحدهما عن الآخر فإنه ضحوك في وجوه المؤمنين ، غير عابس ولا مقطب ، ولا غضوب ولا فظ ، قتال لأعداء الله لا تأخذه فيهم لومة لائم .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٥١ ح٧٨٨٤ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجه . وتعقبه الذهبي فقال : مع ضعف أبي بكر منقطع ، ورواه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٩٠ ، وذكره القشيري في القشيرية ١٣٨ ، وذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٨٧ ، وقال رواه الطبراني والقضاعي عن أبي الدرداء مرفوعاً .

قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٠٩-٣١٠ رواه البزار والطبراني وإسنادهما حسن ، وضعفه الألباني . انظر : الضعيفة ١/ ٤٩٣ ، ح٤٨٣ .

ولا من رواه ، ولا تعلم صحته .

وعلىٰ تقدير صحته : فالحزن مصيبة من المصائب ، التي يبتلي الله بها[1] عبده . فإذا ابتلىٰ به العبد فصبر عليه أحب صبره علىٰ بلائه .

وأما الأثر الآخر : «إذا أحب الله عبداً ، نصب في قلبه نائحة . وإذا أبغض عبداً ، جعل في قلبه مزماراً»[2] ، فأثر إسرائيلي . قيل : إنه فیٰ التوراة . وله معنىٰ صحيح . فإن المؤمن حزين علىٰ ذنوبه ، والفاجر لاهٍ لاعب ، مترنّم فرح . وأما قوله تعالىٰ عن نبيِّه إسرائيل : ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف : ٨٤] فهو إخبار عن حاله بمصابه بفقد ولده وحبيبه ، وأنه ابتلاه بذلك ، كما ابتلاه بالتفريق بينه وبينه .

وأجمع أرباب السلوك : علىٰ أن حزن الدنيا غير محمود إلا أبا عثمان الحيري[3] ، فإنه قال : الحزن بكل وجه فضيلة وزيادة للمؤمن ، ما لم يكن بسبب معصية . قال: لأنه إن لم يوجب تخصيصاً، فإنه[4] يوجب تمحيصاً[5] .

---

(١) في الجميع سوىٰ ش : به .

(٢) انظر الرسالة القشيرية ١٣٨ .

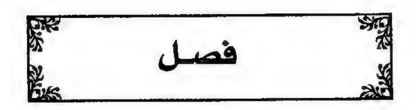
(٣) هو سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور ، أبو عثمان النيسابوري الحيري ، الواعظ الصوفي ، ولد بالري ونشأ بها ، ثم انتقل إلىٰ نيسابور فسكنها إلىٰ أن مات ، وكان يقال إنه مجاب الدعوة ، توفي سنة ٢٩٨هـ .

ترجمته في : طبقات الصوفية ١٧٠ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٤ ، السير ١٤/ ٦٢ .

(٤) «فإنه» ساقطة من د .

(٥) انظر : الرسالة القشيرية ١٣٩ ، وقد قال القشيري : والحزن من أوصاف أهل السلوك القشيرية ١٣٨ .

فيقال : لا ريب أنه محنة وبلاء من الله ، بمنزلة المرض والهم والغم[١] . وأما أنه من منازل الطريق : فلا .



فصل

تعريف الحزن

قال صاحب «المنازل» ـ رحمه الله ـ :

«الحزنُ : تَوَجُّعٌ لِفَائِتٍ[٢] ، وَتَأَسُّفٌ عَلَىٰ مُمْتَنِعٍ» [٣] .

يريد : أن ما يفوت الإنسان قد يكون مقدورا له ، وقد لا يكون . فإن كان مقدورا توجّعَ لفَوْته ، وإن كان غير مقدور تأسف لامتناعه [٤] .

حزن العامة

قال : «وَلَهُ ثَلاَثُ دَرَجَاتٍ : الأُولَىٰ : حُزْنُ العَامَّةِ . وَهُوَ حُزنٌ[٥] عَلَىٰ التَّفرِيطِ فِي الخِدمَةِ ، وَعَلَىٰ التَّوَرُّطِ فِي الجفَاءِ[٦] ، وَعَلَىٰ ضَيَاعِ الأَيَّامِ»[٧] .

التفريط في الخدمة عندهم: فوق التفريط في العمل وتضييعه؛ بل هذا[٨] الحزن يكون مع القيام بالعمل[٩] . فإن الخدمة – عندهم – من باب الأخلاق

---

(١) «الغم» ساقطة من ش .

(٢) في ح٢ ، م : للفائت .

(٣) انظر : المنازل ١٩ وفيها : أو تأسف علىٰ ممتنع .

(٤) في ب ، أ : علىٰ امتناعه .

(٥) في ش : الحزن .

(٦) في ق : التوريط في الخفي .

(٧) انظر : المنازل ١٩ .

(٨)«هذا» ساقطة من ب .

(٩) في ط : والعمل .

والآداب ، لا من باب الأفعال . وهي حق العبودية ، وأدبها[1] وواجبها ، وصاحب هذا الحزن بالأَوْلىٰ[2] ، أن يحزن لتضييع العمل .

وأما التورط في الجفاء : فهو أيضاً أخص من المعصية بارتكاب المحظور؛ لأنه قد يكون بفقد[3] أنس سابق مع الله تعالىٰ . فإذا توارىٰ عنه تورط في الجفوة . فإن الشيخ ذكر «الحزن» في قسم الأبواب . وهو عنده من قسم البدايات[4] .

وأما تضييع الأيام : فنوعان أيضاً . تضييعها بخلوِّها عن الطاعات ، وتضييعها بخلوِّها عن مواجيد الإيمان ، وذوق[5] حلاوته ، والأنس بالله ، وحسن الصحبة معه .

فكل واحد من[6] الثلاثة نوعان لأهل البداية ، وللسالكين المتوسطين . وكلامه يعم النوعين ، وإن كان بالثاني .

---

(١) في ح١ : وآدابها .

(٢) في ح٢ ، م : فالأولىٰ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : لفقد .

(٤) الهروي ـ رحمه الله ـ قسم كتابه المنازل إلىٰ عشرة أقسام ، القسم الأول منها : البدايات وينتهي هذا القسم بمنزلة السماع ، والقسم الثاني : الأبواب ، والحزن هو المنزلة الأولىٰ من قسم الأبواب لا من قسم البدايات كما يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ .

(٥) في الأصل و ش : وذلك وما أثبته من ط وباقي النسخ والسياق يقتضيه .

(٦) في ح١ زيادة : هذه .

حزن أهل الإرادة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيةُ : حُزنُ أَهلِ الإِرَادَةِ . وَهُوَ حُزنٌ عَلىٰ تَعَلُّقِ القَلبِ بالتَّفرِقَةِ ، وَعَلىٰ اشتِغَالِ النَّفسِ عَن الشُّهُودِ ، وَعَلىٰ التَّسلِّي عَن[1] الحُزْنِ»[2] .

تعلق القلب بالتفرقة : هو عدم الجمعية في الحضور مع الله ، وتشتيت الخواطر في أودية المرادات .

وأما اشتغال النفس عن الشهود فهو نوعان : اشتغالها عن الذكر الذي يوجب الشهود ويثمره بغيره .

والثاني : اشتغالها به[3] عن الشهود ، لضعف الذكر ، أو لضعف[4] القلب عن الشهود ، أو لمانع آخر . ولكن إذا قهر الشهود النفس لم تتمكن من التشاغل عنه ، إلا بقاهر يقهرها عنه .

وأما التسلي عن الحزن : يعني[5] أن وجود الحزن في القلب دليل علىٰ الإرادة والطلب . ففقْدُه والتسلّي عنه نقص . فيحزن علىٰ فَقْد [الحزن ، كما يبكي علىٰ فقد][6] البكاء . ويخاف من عدم الخوف ، وهذا فيه نظر . وإنما يحمد الحزن علىٰ فَقْد الحزن [أما إذا اشتغل بفرح مذموم][7] أما إذا اشتغل عن

---

(١) في ش : علىٰ .

(٢) انظر : المنازل ١٩ وفيها :«وهو حزن علىٰ تعلق الوقت بالتفرق . . .» .

(٣) به ساقطة من ط .

(٤) في غ ، ق : ولضعف .

(٥) في ط : فيعني .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من م .

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من ط ، والجميع سوىٰ ش ، د .

الحزن بفرح محمود - وهو الفرح بفضل الله ورحمته - فلا معنىٰ للحزن علىٰ فوات الحزن .

قال[1] : «وَلَيْسَت الخَاصّةُ مِن مَقَامِ الحُزنِ فِي شَيءٍ؛ لأَنَّ الحُزنَ فَقدٌ . وَالخَاصَّةُ أَهلُ وُجدَانٍ»[2] .

وهذا إن أراد به : أنه لا ينبغي لهم تعمد الحزن : فصحيح . وإن أراد : أنه[3] لا يعرض لهم حزن : فليس كذلك . والحزن من لوازم الطبيعة ، ولكنه[4] ليس[5] بمقام[6] .

حزن المعارضات

قال[7] : «وَلكِنَّ الدَّرجَةَ الثَّالِثَةَ مِن الحُزنِ : التَّحَزُّنُ لِلمُعَارَضَاتِ دُونَ الخَوَاطِرِ ، وَمُعَارَضَاتِ القُصُودِ[8] ، وَاعِترَاضَاتِ الأَحكَامِ»[9] .

هذه ثلاثة أمور ، بحسب الشهود والإرادة .

---

(١) في ط زيادة صاحب المنازل .

(٢) انظر : المنازل ص ١٩ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : به .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : ولكن .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : هو .

(٦) لكن قد يثاب الإنسان علىٰ الحزن إذا اقترن به ما يحمد عليه ، كالحزن علىٰ مصيبة في دينه وعلىٰ مصائب المسلمين عموماً ، فهذا يثاب علىٰ ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك . انظر : التحفة العراقية لابن تيمية ٣١٢ .

(٧)«ولكن» ساقطة من ط والجميع .

(٨) في ح٢ ، م ، غ : المقصود .

(٩) انظر : المنازل ٢٠ وفيها :«والاعتراضات علىٰ الأحكام» .

الأول : حزن المعارضات . فإن القلب يعترضه[1] وارد الرجاء مثلاً ، فلم ينشب[2] أن يعارضه وارد الخوف ، وبالعكس . ويعترضه وارد البسط ، فلم ينشب أن يعترضه وارد القبض . ويرد عليه وارد الأنس ، فيعترضه وارد الهيبة . فيوجب له اختلاف هذه المعارضات عليه حزناً لا محالة .

وليست هذه المعارضات من قبيل الخواطر ؛ بل[3] من قبيل الواردات الإلهية . فلذلك قال : «دُونَ الخَوَاطِرِ» فإن معارضات الخواطر غير هذا .

وعند القوم : هذا من آثار الأسماء والصفات ، واتصال أشعة أنوارها بالقلب ، وهو[4] المسمىٰ عندهم بالتجلي[5] .

وأما معارضات القصود[6] : فهو[7] أصعب ما علىٰ القوم ، وفيه يظهر اضطرارهم إلىٰ العلم فوق كل ضرورة. فإن الصادق يتحرىٰ في سلوكه كله[8]

---

(١) في ح٢ ، م : يعارضه .

(٢) ينشب : أي : يلبث . انظر : المعجم الوسيط ٩٢٠ مادة نشب .

(٣) في ط زيادة : هي .

(٤) في ح١ : وهي .

(٥) التجلّي عند الصوفية : هو إشراق أنوار إقبال الحق علىٰ قلوب المقبلين عليه ، وهو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب ، وهو علىٰ ثلاثة أحوال : تجلي ذاتي ، وتجلي شهودي ، وتجلي صفاتي . انظر : لطائف الإعلام ١/ ٣٠٠ ، معجم اصطلاحات الصوفية ٤٢ .

(٦) في ح٢ ، م : المقصود .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش ، د : فهي .

(٨) «كله» ساقطة من م .

أحب الطرق إلىٰ الله ، فإنه سالك به وإليه . فيعترضه طريقان لا يدري أيهما أرضىٰ لله وأحب[١] إليه . فمنهم من يحكم العلم بجهده استدلالاً فإن عجز فتقليداً ، فإن عجز عنهما سَكَنَ ينتظرُ ما يحكم له به القدرُ ، ويخلّي باطنه من المقاصد جملة .

ومنهم : من يلقي الكل علىٰ شيخه ، إن كان له شيخ .

ومنهم : من يلجأ إلىٰ الاستخارة[٢] والدعاء ، ثم ينتظر ما يجري به القدر .

وأصحاب العزائم يبذلون وسعهم في طلب الأرضىٰ علماً ومعرفة ، فإن أعجزهم قنعوا بالظن الغالب[٣] ، فإن تساوىٰ عندهم الأمران ، قدموا أرجحهما مصلحة .

ولترجيح المصالح رتب متفاوتة : فتارة يترجح[٤] بعموم النفع . وتارة يترجح[٥] بزيادة الإيمان. وتارة يترجح[٦] بمخالفة النفس . وتارة يترجح[٧] باستجلاب مصلحة أخرىٰ بها[٨] لا تحصل من غيرها . وتارة يترجح[٩] بأمنها

---

(١) في م ، ح١ ، أ : أحبه .

(٢) في ق : الاستجارة .

(٣) في ب : الراجح .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : تترجح .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : تترجح .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : تترجح .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : تترجح .

(٨) «بها» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش : تترجح .

من الخوف من مفسدة لا تُؤمَن[1] في غيرها .

فهذه خمس جهات من الترجيح . قل أن يعدم[2] واحدة منها .

فإن أعوزه ذلك كله تخلىٰ عن الخواطر جملة ، وانتظر ما يحركه[3] به محرك القدر . وافتقر إلىٰ ربه ، افتقار مستنزل ما يرضيه ويحبه . فإذا جاءته الحركة استخار الله ، وافتقر إليه افتقاراً ثانياً ، خشية أن تكون تلك الحركة نفسية أو شيطانية ، لعدم العصمة في حقه ، واستمرار المحنة بعدوه . ما دام في عالم الابتلاء والامتحان ، ثم أقدم علىٰ الفعل . فهذا نهاية ما في مقدور الصادقين .

ولأهل الجهاد في هذا من الهداية والكشف ما ليس لأهل المجاهدة[4] . ولهذا قال الأوزاعي[5] وابن المبارك : إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما عليه أهل الثغر»[6] يعني أهل الجهاد . فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا

---

(١) في ب«لا توجد» .

(٢) في ب : تقدم .

(٣) في أ : يحرك .

(٤) فرق الإمام ابن القيم بين أهل الجهاد في سبيل الله تعالىٰ وبين أهل مجاهدة النفس .

(٥) أبو عمرو عبدالرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي شيخ الإسلام وعالم أهل الشام ، ولد ببعلبك سنة ٨٨هـ ، ونشأ في البقاع وسكن بيروت وتوفي بها ، أثنىٰ عليه غير واحد من الأئمة . قال مالك : كان الأوزاعي إماماً يقتدىٰ به ، وقال سفيان بن عيينة وغيره : كان الأوزاعي إمام أهل زمانه ، توفي سنة ١٥٧هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٥/ ٣٢٦ ، حلية الأولياء ٦/ ١٣٥ ، السير ٧/ ١٠٧ ، البداية والنهاية ١٠/ ١١٨ .

(٦) انظر : تفسير البغوي ٣/ ٤٧٥ ، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٦٥ .

فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وأما اعتراضات الأحكام : فيجوز أن يريد[١] به الأحكام[٢] الكونية ، وهو أظهر . وأن يريد به[٣] الأحكام الدينية . فإن أرباب الأحوال يقع منهم اعتراضات [على الأحكام الجارية عليهم بخلاف ما يريدونه . فيحزنون عند إدراكهم لتلك الاعتراضات][٤] على ما صدر منهم من سوء الأدب . وتلك الاعتراضات هي إراداتهم[٥] خلاف ما جرى لهم به القدر . فيحزنون[٦] على عدم الموافقة ، وإرادة خلاف ما أريد بهم[٧] .

وإن كان المراد به : الأحكام الدينية ، فإنهم تعرض لهم أحوال لا يمكنهم الجمع بينها وبين أحكام الأمر -كما تقدم- فلا يجدون بدّاً من القيام بأحكام الأمر، ولابدّ أن يحدث[٨] لهم نوع[٩] اعتراض[١٠] خفيٍّ أو جليٍّ ، بحسب

---

(١) في ش : يراد .

(٢) في ط والجميع سوى ش : بالأحكام .

(٣) في ط : بها .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وموجود في هامشها .

(٥) في ط ، أ ، غ ، م : إرادتهم .

(٦) في الأصل والجميع سوى م ، ب ، ط : يحزن ، وما أثبته من ط ، ب ، م والسياق يقتضيه .

(٧) في الأصل والجميع : به . وما أثبته من ط والسياق يقتضيه .

(٨) في ط ، ب ، غ ، أ : يعرض وفي ح١ : يعترض .

(٩)«نوع» ساقطة من ط ، غ ، ب ، ح١ ، أ .

(١٠) في ح١ : اختلاف .

انقطاعهم عن الحال بالأمر ، فيحزنون لوجود هذه المعارضة . فإذا قاموا بأحكام الأمر ، ورأوا أن المصلحة في حقهم ذلك ، وحَمِدُوا عاقبَته : حزنوا علىٰ تسرّعهم إلىٰ[1] المعارضة . فالتسليم لداعي العلم واجب ، ومعارضة الحال[2] من قبيل الإرادات والعلل ، فيحزن علىٰ بقيّتها[3] فيه . والله أعلم .

* * *

(١) في ط ، ح١ ، ب ، م ، غ ، أ : علىٰ .

(٢) في ش : الأحوال .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق ، أ : نفيهما .



فصل

منزلة الخوف

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «**الخوف**»(١).

وهي من أجل منازلها(٢)، وأنفعها للقلب. وفرض(٣) علىٰ كل أحد. قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾(٤) [المائده: ٤٤]، ومدح أهله فىٰ كتابه وأثنىٰ عليهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ

---

(١) الخوف عند الصوفية: ما يحذر من المكروه في المستأنف، ويبلغ إلىٰ حد الانخلاع من طمأنينة الأمن خوفاً من العقوبة أو من المكر أو الهيبة. فخوف العامة من العقوبة تصديقاً بالوعيد، وأرباب المراقبة من المكر في جريان الأنفاس، والخاصة إجلالاً وهيبة.

والخوف من المقامات التي أفرد الصوفية لها صفحات، بل كتباً، ومن معاني الخوف عندهم: الخوف من المعاصي والمناهي والتألم فيها.

انظر: لطائف الإعلام ١/ ٤٥٦ - ٤٥٧، الإحياء ٤/ ٢٠٥، القشيرية ١٢٤، التعرف ١١٥، رشح الزلال ١٣٣، معجم مصطلحات الصوفية ٩٣.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: منازل الطريق.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش: وهي فرض.

(٤) في الأصل وش ذكر قوله تعالىٰ: ﴿وإياي فاتقون﴾[البقرة: ٤١]، وما أثبته من ط وباقي النسخ والسياق يقتضي ذلك.

يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[1] [المؤمنون : ٥٧-٦١] وفي المسند والترمذي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قلت يا رسول الله : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ، ويشرب الخمر ، ويسرق؟ قال : « **لا يا ابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ، ويخاف أن لا يقبل منه**»[2] . قال الحسن رضي الله عنه : عملوا والله بالطاعات ، واجتهدوا فيها ، وخافوا أن ترد عليهم . إن المؤمن جمع إحساناً وخشية ، والمنافق جمع إساءة وأمناً[3] .

تعريف الخوف

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة»[4] ألفاظ متقاربة غير مترادفة .

قال أبو القاسم الجنيد[5] : الخوف توقع العقوبة علىٰ مجاري الأنفاس[6] .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : الآيات غير مكملة .

(٢) رواه أحمد في مسنده ٦/ ٢٠٥ ، والترمذي ٥/ ٣٢٧ في كتاب التفسير ، باب ومن سورة المؤمنون ، ح٣١٧٥ ، وابن ماجه ٢/ ١٤٠٤ في كتاب الزهد ، باب التوقي في العمل ، ح٤١٩٨ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٢٧ ، ح٣٤٨٦ ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٤٧٧ . وصححه الألباني : انظر : الصحيحة ١/ ٩٥ ، ح١٦٢ .

(٣) انظر : تفسير البغوي ٣/ ٣١١ ، وحلية الأولياء ٢/ ١٤٤ .

(٤) في م ، د : الهيبة .

(٥) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي شيخ الصوفية وإمامهم ، أصله من نهاوند ، ولد ببغداد ونشأ بها ، توفي سنة ٢٩٧هـ .

ترجمته في : طبقات الصوفية ١٥٥ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٥٥ ، السير ١٤/ ٦٦ .

(٦) انظر : القشيرية ١٢٧ .

وقيل : الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف[1] .

وقيل : الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام[2] . وهذا سبب الخوف . لا أنه نفسه .

وقيل : الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره[3] .

الخشية أخص من الخوف

و«الخشية» أخص من الخوف ، فإن الخشية للعلماء بالله . قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر : ٢٨] ، فهي خوف مقرون بمعرفة.

وقال النبي ﷺ : «**إني أتقاكم لله ، وأشدكم له خشية**»[4] .

فالخوف[5] حركة . والخشية انجماع ، وانقباض ، وسكون . فإن الذي يرىٰ العدو والسيل ونحو ذلك : له حالتان .

إحداهما : حركته[6] للهرب منه ، وهي حالة الخوف .

---

(١) ورد في كلام الطوسي عن خوف العامة قوله : فخوفهم اضطراب قلوبهم مما عملوا من سطوة معبودهم . انظر : اللمع ٨٩ .

(٢) انظر : القشيرية ١٢٨ .

(٣) انظر : الإحياء ٤/ ٢٠٥-٢٠٦ .

(٤) رواه مسلم ٢/ ٧٧٩ في كتاب الصيام ، باب أن القبلة في الصوم ليست محرمة ، ح١١٠٨ عن عمر بن أبي سلمة بلفظ :«**إني لأتقاكم لله وأخشاكم له**» ورواه البخاري ٩/ ١٠٤ في كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح ح٥٠٦٣ عن أنس بلفظ«**والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**» والبيهقي في السنن الكبرىٰ ٧/ ١٢٣ في كتاب النكاح ، باب الرغبة في النكاح ، ح١٣٤٤٨ .

(٥) في ح٢ : والخوف .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : حركة .

والثانية: سكونه[١]، وقراره في مكان[٢] لا يصل إليه[٣]، وهي الخشية . ومنه : انخشىٰ الشيء[٤]، والمضاعف والمعتل أخوان، كتقضىٰ البازي وتقضض .

تعريف الرهبة

وأما «الرهبة» فهي الإمعان في الهرب[٥] من المكروه، وهي ضد «الرغبة» التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه .

وبين الرهب[٦] والهرب تناسب في اللفظ والمعنىٰ . يجمعهما الاشتقاق الأوسط[٧] الذي هو عقد تقاليب[٨] الكلمة علىٰ معنىٰ جامع .

---

(١) في ب : اجتماعه وفي هامشها : سكونه .

(٢) في م : مكانه .

(٣) في ط زيادة : فيه .

(٤) انخشَّ في الشيء : دخل فيه، ويقال : انخش في القوم، وفي الشجر . انظر : المعجم الوسيط ٢٣٥ مادة : خشَّ .

(٥) في ق : والهرب .

(٦) في ق : الرهبة .

(٧) الاشتقاق نزع لفظ آخر بشرط مناسبتهما معنىٰ وتركيباً، ومغايرتهما في الصيغة، والاشتقاق ثلاثة أنواع هي :

١ - الاشتقاق الصغير : وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في الحروف والترتيب، نحو ضرب، من الضرب .

٢ - الاشتقاق الكبير : وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في اللفظ والمعنىٰ دون الترتيب نحو جبذ من الجبذ . وهذا هو الذي سماه ابن القيم الاشتقاق الأوسط؛ وهو أوسط؛ لأنه يقع بين الصغير والأكبر .

٣ - الاشتقاق الأكبر : وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في المخرج، نحو : نعق، من النهق . انظر التعريفات ٣٧ .

(٨) في ح٢ : تراكيب وفي م : تكاليب .

وأما «الوجل» : فرجفان القلب ، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته ، أو لرؤيته .

تعريف الوجل

وأما «الهيبة» : فخوف مقارن للتعظيم والإجلال . وأكثر ما يكون مع المعرفة[1] والمحبة والإجلال ، تعظيم مقرون بالحب .

تعريف الهيبة

فالخوف لعامة المؤمنين ، والخشية للعلماء العارفين ، والهيبة للمحبين ، والإجلال للمقربين[2] . وعلىٰ قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية . كما قال ﷺ : «**إني لأعلمكم بالله . وأشدكم له خوفاً**[3]»[4] . وقال «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء علىٰ الفرش ، ولخرجتم إلىٰ الصعدات تجأرون إلىٰ الله تعالىٰ**»[5] .

---

(١) في ط : مع المحبة والمعرفة .

(٢) في غ : للمتقربين .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش«خشية» وفي رواية«خوفاً» .

(٤) رواه البخاري ١٠/ ٥١٣ في كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب ، ح٦١٠١ بلفظ: «إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» ، ومسلم ٤/ ١٨٢٩ في كتاب الفضائل ، باب علمه ﷺ بالله تعالىٰ وشدة خشيته ، ح٢٣٥٦ ، وأحمد في مسنده ٦/ ٤٥ .

(٥) رواه أحمد في مسنده ٥/ ١٧٣ ، والترمذي ٤/ ٥٥٦ في كتاب الزهد ، باب قول النبي ﷺ لو تعلمون ما أعلم ، ح٢٣١٢ وقال : حديث حسن غريب ، وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس ، ورواه ابن ماجه ٢/ ١٤٠٢ في كتاب الزهد باب الحزن والبكاء ، ح٤١٩٠ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥٤ ، ح٣٨٨٣ ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبي ، وحسنه الألباني . انظر : صحيح ابن ماجه ٢/ ٤٠٧ - ٤٠٨ ، ح٣٣٧٨ ، وانظر الصحيحة ٤/ ٢٩٩ ، ح١٧٢٢ .

فصاحب[1] الخوف : يلتجئ إلىٰ الهرب ، والإمساك . وصاحب الخشية : يلتجئ إلىٰ الاعتصام بالعلم . ومثلهما مثل[2] من لا علم له بالطب . ومثل الطبيب الحاذق ، فالأول يلتجئ إلىٰ الحمية والهرب . والطبيب يلتجئ إلىٰ معرفته بالأدوية والأدواء .

قال أبو حفص[3] : الخوف سوط الله ، يقوم به الشاردُ[4] عن بابه وقال : الخوف سراج في القلب ، به يبصر ما فيه من الخير والشر[5] . وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالىٰ ، فإنك إذ خفته هربت إليه[6] .

فالخائف هارب من ربه إلىٰ ربه .

قلت : قد روىٰ البخاري ومسلم جزءاً منه وهو قوله ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم قليلاً » ، البخاري ٢/ ٥٢٩ في كتاب الكسوف ، باب الصدقة في الكسوف ، ح١٠٤٤ ، ومسلم ٤/ ١٨٣٢ في كتاب الفضائل باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله ، ح٢٣٥٩ .

(١) في ش : وصاحب .

(٢) في ش : كمثل .

(٣) أبو حفص عمرو بن سَلَم وقيل: عمرو بن سلمة الحداد النيسابوري الصوفي ، شيخ خرسان ، وهو أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور ، توفي سنة ٢٦٤هـ .

ترجمته في : طبقات الصوفية ١١٥ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٢٩ ، السير ١٢/ ٥١٠ ، وانظر القشيرية ١٢٥ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : الشاردين .

(٥) انظر : الرسالة القشيرية ، ١٢٦ .

(٦) انظر : الرسالة القشيرية ٢٦ . وقد نسب هذا القول إلىٰ أبي القاسم الحكيم .

قال أبوسليمان - رحمه الله - : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب[١] .

وقال إبراهيم ابن شيبان [٢] : إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها ، وطرد الدنيا عنها[٣] .

وقال ذو النون ـ رحمه الله ـ : الناس علىٰ الطريق[٤] ما لم يَزُلْ عنهم الخوف . فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق [٥] .

وقال حاتم الأصم[٦] : لا تغترّ بمكان صالح . فلا مكان أصلح من الجنة ،

١(١) انظر : القشيرية ١٢٧ .

(٢) في الأصل والجميع : سفيان ، وفي هامش ش شيبان ، ولعل هذا هو الصحيح كما سيأتي في تخريج هذا القول . وهو أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان القرميسيني شيخ الصوفية وزاهد الجبل في وقته ، صحب إبراهيم الخواص ، ومحمد بن إسماعيل المغربي ، توفي سنة ٣٣٧هـ .

ترجمته في : طبقات الصوفية ٤٠٢ ، حلية الأولياء ١٠/ ٣٦١ ، السير ١٥/ ٣٩٢ .

(٣) انظر : القشيرية ١٢٨ ، وطبقات الصوفية للسلمي ص٤٠٤ ، وقد نسب هذا القول فيهما إلىٰ إبراهيم بن شيبان ، وهذا مما يرجح أن ما أثبته هو الصحيح وأن الذي في المخطوطات ، والمطبوع تصحيف .

(٤) في ح١ : طريق .

(٥) انظر : القشيرية ١٢٧ .

(٦) أبو عبدالرحمن حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي الأصم القدوة الزاهد ، الواعظ ، الناطق بالحكمة ، له كلام في الزهد والمواعظ والحكم ، كان يقال له : لقمان هذه الأمة روىٰ عن شقيق البلخي وصحبه ، توفي سنة ٢٣٧هـ . ترجمته في : طبقات الصوفية ٩١ ، حلية الأولياء ٨/ ٧٣ ، تاريخ بغداد ٨/ ٢٤١ ، السير ١١/ ٤٨٤ .

ولقي آدم فيها[1] ما لقي[2] ، ولا تغتَر بكثرة[3] العبادة ، فإن إبليس بعد طول العبادة لقي ما لقي[4] ، ولا تغتر بكثرة العلم ، فإن بلعام بن باعور[5] لقي ما لقي وكان يعرف الاسم الأعظم[6] ، ولا تغتر بلقاء الصالحين ورؤيتهم ، فلا شخص أصلح من النبي ﷺ ، ولم ينتفع بلقائه أعداؤه والمنافقون[7][8] .

---

(١) في ط ، ح١ ، غ ، أ : ولقي فيها آدم .

(٢) وذلك أن الله أهبطه من الجنة هو وزوجه بعد ما أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها ، وقد زين لهما الشيطان ذلك . قال تعالىٰ : ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلىٰ حين﴾ [البقرة : ٣٥ ، ٣٦] .

(٣) في ح١ : بكثر .

(٤) حيث طرده الله من رحمته وغضب عليه ولعنه ، لأنه تكبر عن أمره سبحانه فلم يسجد لآدم ، حين أُمرتُ الملائكةُ بالسجود له . قال تعالىٰ : ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبي أن يكون مع الساجدين﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلىٰ يوم الدين﴾ [الحجر : ٣٠-٣٥] .

(٥) بلعام بن باعور ، رجل من بني إسرائيل . وقد ذكر الطبري وابن كثير أن هذا هو الذي نزل فيه قول الله تعالىٰ : ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ الأعراف : ١٧٥ .

انظر : تفسير الطبري ١٣/ ٢٥٢ ، تاريخ الطبري ١/ ٤٣٧ ، تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥٠ .

(٦) في ب : وكان من أعلم الناس بالاسم الأعظم .

(٧) في ب زيادة : فإن أبا جهل الْتقىٰ بالنبي ﷺ ولم ينتفع بلقائه .

(٨) انظر : القشيرية ١٣٠ .

والخوف ليس مقصوداً لذاته؛ بل[1] مقصوداً لغيره قصد الوسائل . ولهذا يزول بزوال المخوف ، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

والخوف يتعلق بالأفعال . والمحبة تتعلق بالذات والصفات ، ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم ، ولا يلحقهم فيها خوف ، ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلىٰ وأرفع من منزلة الخوف ومقامه .

والخوف المحمود الصادق : ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط .

قال أبو عثمان - رضي الله عنه - : صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطناً[2] .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : الخوف المحمود ، ما حجزك عن محارم الله .

وقال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

تعريف الهروي للخوف

«الخَوفُ : هُوَ الانخِلاَعُ مِن طُمَأنِينَةِ الأَمنِ بمُطَالَعَةِ الخَبَرِ»[3] .

يعني الخروج عن سكون[4] الأمن ، باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد .

---

(١) في ط زيادة : هو .

(٢) انظر : الرسالة القشيرية ١٢٧ .

(٣) انظر : المنازل ٢٠ .

(٤) في ح٢ : سلوك .

درجات الخوف

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ[1] الأُولىٰ : الخَوفُ مِنَ العُقُوبةِ . وَهُوَ الخَوفُ الَّذِي يَصحُّ بِهِ الإِيمَانُ ، وَهُوَ خَوفُ العَامَّةِ . وَهُوَ يَتَوَلَّدُ مِن تَصدِيقِ الوَعِيدِ ، وَذِكرِ الجِنَايةِ ، وَمُرَاقَبَةِ العَاقِبةِ»[2] .

الدرجة الأولى الخوف من العقوبة

الخوف[3] مسبوق بالشعور والعلم ، فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به . وله متعلقان[4] :

أحدهما : نفس المكروه المحذور وقوعه .

والثاني : السبب والطريق المفضي إليه . فعلىٰ قدر شعوره بإفضاء السبب إلىٰ المخوف ، وبقدر المخوف : يكون خوفه ، وما نقص من شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه .

فمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضي إلىٰ محذور كذا ، لم يخف من ذلك السبب . ومن اعتقد أنه يفضي إلىٰ مكروه ما ، ولم يعرف قدره : لم يخف منه ذلك الخوف . فإذا عرف قَدْر المخوف[5] ، وتيقَّن إفضاءَ السبب[6] ، حصل له لخوف .

هذا معنىٰ تولده من تصديق الوعيد ، وذِكْر الجناية ، ومراقبة العاقبة .

---

(١) «الدرجة» ساقطة من ق .

(٢) انظر : المنازل ٢٠ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : والخوف .

(٤) في ش : مقامان .

(٥) في م : الخوف .

(٦) في ط زيادة : إليه .

وفي مراقبة العاقبة[١] : زيادة استحضار المخوف ، وجعْله نصْبَ عينه[٢] ، بحيث لا ينساه ، فإنه -وإن كان عالما به- لكن نسيانه وعدم مراقبته ، يحول بين القلب[٣] وبين الخوف . فلذلك كان الخوف علامة صحة الإيمان ، وترحُّله من القلب علامة ترحّلِ الإيمان [٤] .

فصل

الدرجة الثانية خوف المكر

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : خَوفُ المَكرِ فِي جَرَيَانِ الأَنفَاسِ المستَغرِقَةِ في اليَقَظَةِ ، المَشُوبَةِ بِالحَلاوَةِ»[٥] .

يريد : أن من حصلت له اليقظةُ بلا غفلة ، واستغرقت أنفاسه فيها ، واستحلىٰ[٦] ذلك . فإنه لا أحلىٰ من الحضور في اليقظة . فإنه ينبغي أن يخاف المكر ، وأن يسلب هذا الحضور ، واليقظة ، والحلاوة . فكم من مغبوط بحاله انعكس عليه الحال ، ورجع من حسن المعاملة إلىٰ قبيح[٧] الأعمال . فأصبح يقلب كفيه ، ويضرب باليمين علىٰ الشمال؟ بينما بدر أحواله مستنيراً في ليالي

---

(١) في م زيادة : قبله .

(٢) في ب ، م ، غ ، ح٢ : عينيه .

(٣) في الأصل زيادة : منه . ولا معنىٰ لها هنا .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : منه . والله أعلم .

(٥) انظر : المنازل ٢٠ .

(٦) في ط : استحلىٰ .

(٧) في د ، ق : أقبح .

التمام ، إذ أصابه الكسوف فدخل في الظلام . فبدل بالأنس وحشة ، وبالحضور غيبة ، وبالإقبال إعراضاً ، وبالتقريب[1] إبعاداً ، وبالجمع تفرقة . كما قيل :

أحسنت ظَّنك بالأيام إذ حَسُنتْ ولم تخَف سُوءَ ما يأتي به القدَرُ
وسالمتْك الليالي فاغترَرْتَ بها وعند صَفْوِ الليالي يحدثُ الكدَرُ[2]

قال[3] : «**وَلَيسَ فِي مَقَامِ أَهلِ الخُصُوصِ وَحشَةُ الخَوفِ ، إلَّا هَيبَة الجَلالِ . وَهِي أَقصَىٰ دَرَجَة يُشَارُ إلَيهَا فِي غَايةِ الخَوفِ**»[4] .

يعني أن وحشة الخوف إنما تكون مع الانقطاع والإساءة . وأهل الخصوص أهل وصول إلىٰ الله وقرب منه . فليس خوفهم خوف وحشة ، كخوف المسيئين المنقطعين؛ لأن الله عز وجل معهم بصفة الإقبال عليهم ، والمحبة لهم ، وهذا بخلاف هيبة الجلال ، فإنها متعلقة بذاته وصفاته . وكلما كان عبده به أعرف وإليه أقرب ، كانت هيبة[5] جلاله في قلبه أعظم[6] . وهي

---

(١) في ح١ : بالتقرب .

(٢) البيتان للإمام الشافعي . انظر ديوانه ٤٤ . وقد ذكر القشيري أنه سمع الأستاذ أبا علي الدقاق ينشد كثيراً هذين البيتين . انظر : القشيرية ١٢٩ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : الدرجة الثالثة : درجة الخاصة .

(٤) انظر : المنازل ٢٠ لكن فيها : هيبة الإجلال .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : هيبته وإجلاله .

(٦) قال أحمد بن أبي عاصم الأنطاكي :«من كان بالله أعرف كان من الله أخوف» .
انظر : تعظيم قدر الصلاة للمروزي ٢/ ٧٢٨ .

أعلىٰ من درجة خوف العامة .

قال : «وَهِيَ هَيبةٌ تُعَارِضُ المُكَاشِفَ أَوَقَاتَ المنُاَجَاةِ . وَتَصونُ المُشَاهِدَ[١] أَحيَانَ المُسَامَرَةِ ، وَتَفْصِمُ[٢] المعَاينَ بِصَدْمَةِ العِزَّةِ»[٣] .

يعني أنه[٤] أكثر ما تكون «الهيبة» أوقات المناجاة . وهي[٥] وقت تملق العبد ربه ، وتضرعه بين يديه ، واستعطافه ، والثناء عليه بآلائه وأسمائه وأوصافه أو مناجاته بكلامه . هذا هو مراد القوم بالمناجاة .

وهذه المناجاة : توجب كشف الغطاء بين القلب وبين الرب ، ورفع الحجاب المانع من مكافحة القلب لأنوار أسمائه وصفاته ، وتجليها عليه ، فتعارضه «الهيبة» في خلال هذه الأوقات . فتقبض[٦] من عنان مناجاته بحسب قوة واردها .

وأما صون المسامر أحيان المسامرة : فالمسامرة عندهم : أخص من المناجاة .

---

(١) في ط والجميع : المسافر .

(٢) في غ : تقصم .

(٣) المنازل ٢٠ وفيها «وتقصم المعاين» .

قلت : والفصم والقصم متقاربان في المعنىٰ ، ففصم الشيء كسره من غير أن يبين ، وقصم الشيء كسره حتىٰ يبين . انظر : مختار الصحاح ص٢١١ ، ٢٢٥ مادتي : فصم وقصم .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : أن .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش ، د : وهو .

(٦) في ط ، د ، ح٢ ، م ، ق : فيفيض .

وهي مخاطبة القلب للرب خطاب المحب لمحبوبه . فإن[١] لم تقارنها[٢] هيبة جلاله أخذت به في نوع[٣] الانبساط والإدلال . فتجيء الهيبة صائنة للمسامر في مسامرته من[٤] انخلاعه من أدب[٥] العبودية .

وأما فصمها[٦] المعاين بصدمة العزة : فإن «الفصم» هو[٧] : القطع . أي: تكاد تقتله ، وتمحقه بصدمة عزة الربوبية بمعانيها الثلاثة . وهي عزة الامتناع وعزة القوة والشدة ، وعزة السلطان والقهر ، فإذا صدمت المعاين كادت تفصمه[٨] وتمحق[٩] أثره ، إذ لا يقوم لعزة الربوبية شيء[١٠] .

* * *

(١) في ب : وإن .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : يقارنها .

(٣)«نوع» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٤) في ، غ ، ح١ ، ب ، أ : عن .

(٥) في ح٢ ، م : آداب .

(٦) في غ : قصمها .

(٧) (هو) ساقط من الأصل والجميع ، وما أثبته من ط والسياق يقتضيه .

(٨) في غ : تقصمه .

(٩) في ح٢ ، م : تمحو .

(١٠) في ط ، ق زيادة : والله أعلم .

فصل

القلب في سيره إلى الله بمنزلة الطائر

القلب في سيره إلىٰ الله تعالىٰ بمنزلة الطائر . فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه . فمتىٰ سلم الرأس والجناحان ، فالطير[١] جيد الطيران . ومتىٰ قطع الرأس ، مات الطائر . ومتىٰ عُدم[٢] الجناحان ، فهو عرضة لكل صائد وكاسر؛ لكن[٣] السلف استحبوا أن يقوىٰ في الصحة جناح الخوف علىٰ جناح الرجاء ، وعند الخروج من الدنيا ، يقوىٰ جناح الرجاء علىٰ جناح[٤] الخوف[٥] . هذه طريقة أبي سليمان وغيره[٦] .

قال : ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف ، فإنه إذا كان[٧] الغالب عليه الرجاء فسد[٨] .

وقال غيره : أكمل الأحوال ، اعتدال الرجاء والخوف ، وغلبة الحب . فالمحبة هي المركب، والرجاء حادٍ، والخوف سائق ، والله الموصِلُ بمنّه وكرمه.

---

(١) في ط : فالطائر .

(٢) في ط : فقد .

(٣) في ط والجميع : ولكن .

(٤)«جناح» ساقطة من م .

(٥) قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ : الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجل صحيحاً ، فإذا نزل به الموت ، فالرجاء أفضل . انظر : سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٣٢ .

(٦) في ب ، ق زيادة : فإنه .

(٧) في ط : فإن غلب عليه .

(٨) انظر : القشيرية ٢٨ .

فصل

منزلة الإشفاق

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الإشفاق»[1] .

قال الله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء : ٤٩] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٥-٢٧] .

«الإشفاق» رقة الخوف[2] . وهو خوف برحمة[3] من الخائف لمن يخاف عليه ، فنسبته إلىٰ الخوف نسبة الرأفة إلىٰ الرحمة، فإنها ألطف الرحمة وأرقها. ولهذا قال صاحب المنازل رحمه الله :

تعريف الإشفاق ودرجاته

«**الإِشفَاقُ : دَوَامُ الحَذَرِ ، مَقرُوناً بِالتَّرحُّم . وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَث دَرَجَاتٍ : الأُولىٰ : إِشفَاقٌ عَلَىٰ النَّفسِ أَن تجمَحَ إِلىٰ العِنَادِ**»[4] .

الدرجة الأولى

أي تسرع وتذهب إلىٰ طريق الهوىٰ والعصيان ، ومعاندة العبودية .

---

(١) الإشفاق عند الصوفية : هو دوام الحذر مقروناً بالترحم ، وعرفاً إشفاق العامة علىٰ أنفسهم تجنح إلىٰ المعاصي وتترك الطاعات ، وإشفاق المريد علىٰ وقته من تفرق قلبه عن الحضور مع ربه . انظر : لطائف الإعلام ١٠/ ٢٠٢ .

(٢) في د : القلب و في هامشها : الخوف .

(٣) أي خوف مقرون برحمة .

(٤) انظر : المنازل ٢١ .

«وإِشْفَاقٌ عَلىٰ العَمَلِ : أَنْ يَصيرَ إِلىٰ الضَّيَاعِ»[١] .

أي يخاف علىٰ عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله تعالىٰ فيها : ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان : ٢٣] وهي الأعمال التي كانت لغير الله ، وعلىٰ غير أمره[٢] وسنة رسوله ، ويخاف أيضاً أن يضيع عمله في المستقبل ، إما بتركه ، وإما بمعاصي[٣] تفرقه وتحبط به[٤] فيذهب ضائعاً . ويكون حال صاحبه كالحال التي قال الله تعالىٰ[٥] : ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ[٦] وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة :٢٦٦] ، قال عمر[٧] رضي الله عنه للصحابة رضي الله عنهم يوماً[٨] : «فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ فقالوا : الله أعلم ، فغضب عمر وقال : قولوا نعلم ، أو لا نعلم . فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين . قال : يا ابن أخي قل ، ولا تحقرن نفسك . قال ابن

---

(١) انظر : المنازل ٢١ .

(٢) في ح٢ ، م : مراده .

(٣) في ش : وإما بمعارض بفرقه .

(٤) في ط : وتخبطه وفي ش : يحيط به .

(٥) في ط زيادة : عن أصحابها .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش كتبت الآية إلىٰ قوله : ﴿كل الثمرات﴾ .

(٧) في ط ، ق زيادة : ابن الخطاب .

(٨) «يوماً» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

عباس - رضي الله عنهما - : ضربت مثلاً لعمل . قال عمر : أي عمل؟ قال ابن عباس : لعمل . قال عمر[١] : لرجل غني يعمل بطاعة الله ، فبعث الله له[٢] الشيطان . فعمل بالمعاصي حتىٰ أغرق[٣][٤] أعماله»[٥] .

قال : «وَإِشفَاقٌ عَلَىٰ الخَلِيقَةِ لِمَعْرِفَةِ[٦] مَعَاذِيرِهَا»[٧] .

هذا قد يوهم نوع تناقض . فإنه كيف يشفق مع معرفة العذر؟ وليس بمتناقض ، فإن الإشفاق -كما تقدم- خوف مقرون برحمة . فيشفق عليهم من جهة مخالفة الأمر والنهي ، مع نوع رحمة ، بملاحظة جريان القدر عليهم .

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : إِشْفَاقٌ عَلَىٰ الوَقتِ : أَن[٨] يَشُوبَهُ تَفَرُّقٌ»[٩] .

أي يحذر علىٰ وقته ، أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله عز وجل .

قال : «وَعَلَىٰ القَلبِ ، أَن يُزَاحِمَهُ عَارِضٌ»[١٠] .

---

(١) «قال عمر» ساقط من ح٢ .

(٢) في ط ، ح١ ، غ ، ب : إليه .

(٣) في ب ، أ : أحرق .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : جميع .

(٥) رواه البخاري ٨/ ٢٠١-٢٠٢ في كتاب التفسير باب ، قوله : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة... ﴾ الآية ، ح ٤٥٣٨ ، وانظر : تفسير الطبري ٣/ ٧٥ ، ٧٦ .

(٦) في ش : يفهم وفي هامشها : لمعرفة .

(٧) انظر : المنازل ٢١ .

(٨) في غ : أن لا يشوبه .

(٩) انظر : المنازل ٢١ .

(١٠) انظر : المنازل ٢١ .

والعارض المزاحم : إما فترة ، وإما شبهة ، وإما شهوة . وهو كل[1] سبب يعوق السالك .

قال : «وَعَلَىٰ اليَقِينِ : أَن يُدَاخِلَهُ سَبَبٌ» [2] .

هو الطمأنينة إلىٰ من الأسباب كلها بيديه[3] ، فمتىٰ داخل[4] يقينه ركونٌ إلىٰ سبب ، وتعلقٌ به ، وطمأنينة [5] إليه : قدح ذلك في يقينه . وليس المراد : قطع الأسباب عن أن تكون أسباباً، والإعراض عنها، فإن هذا زندقة وكفر و محال. فإن الرسول سبب في حصول الهداية والإيمان .

والأعمال الصالحة سبب لحصول النجاة [6] . والكفر سبب لدخول النار . والأسباب المشاهدة أسباب لمسبباتها؛ ولكن الذي يُريد[7] : أن يحذِّر من[8] إضافة يقينه إلىٰ سبب غير الله ، ولا يتعلق بالأسباب؛ بل يفنىٰ بالمسبب عنها .

والشيخ ـ رحمه الله ـ ممن يبالغ في إنكار الأسباب[9] ، ولا يرىٰ وراء الفناء

---

(١) في ط ، غ ، ب ، ح١ ، أ : وكل سبب .

(٢) انظر : المنازل ٢١ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش ، د : من بيده الأسباب كلها .

(٤) في م : دخل .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : واطمأن .

(٦) في ط زيادة : ودخول الجنة .

(٧) أي الهروي .

(٨) في ط : منه .

(٩) انظر : المدارج ٣/ ٣٩٤ وما بعدها ، ومسألة الأخذ بالأسباب أو تركها الناس فيها علىٰ أربعة أقسام :

=

= **القسم الأول** : من نفىٰ تأثير الأسباب بالكلية وهم الجبرية أتباع الجهم بن صفوان ، ومن قال بقوله من الأشاعرة . انظر : الإرشاد للجويني ص١٩٠-٢٠٣ ، ومدارج السالكين ٣/ ٣٩٥ ، وموقف شيخ الإسلام من الأشاعرة ٣/ ٣١٣ .

وقولهم هذا مبني علىٰ إنكارهم الحكم والتعليل ، ونفي الحسن والقبيح ، ولوازمه الفاسدة لا تحصىٰ ونتائجه القيمة غير مقبولة عقلاً؛ بل مردودة شرعاً ، فمحو الأسباب أن تكون أسباب نقص في العقل ، ومخالف لصريح العقل والحس والمشاهدة .

انظر : مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٣٥ ، ومدارج السالكين ٣/ ٤٩٩ ، وشرح الطحاوية ٤٥٧ ، ورد عليهم ابن القيم بأكثر من ستين وجهاً . انظر : مفتاح دار السعادة ٢/ ٣٨ ، طريق الهجرتين ص١٧٧-١٧٨ .

القسم الثاني : من يعتمد علىٰ الأسباب من غير نظر إلىٰ مسببها ، وهذا شرك في التوحيد كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية . انظر :مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٢٧٦ ، لأن هؤلاء نظروا إلىٰ الأسباب وعلىٰ أنها مستقلة بذاتها ، وهي الضارة والنافعة ، وهذا القول اشتهر به القدرية النفاة والماديون والعقلانيون ، وهذه مخالفة لنصوص الكتاب والسنة ، بل وللحس ، فإن الحس شاهد بأن الأسباب قد تنعقد ولا يحصل المراد . وقد فصّل الرد عليهم الإمام ابن القيم في مدارج السالكين ١/ ٩٢ ، وانظر قولهم هذا في : تهافت الفلاسفة للغزالي ١٦٩ ، والاستقامة لشيخ الإسلام ١/ ١٤٧ ، والمعتزلة وأصولهم الخمسة ١٥١ .

القسم الثالث : من يؤمن بالأسباب؛ لكنه يعرض عنها ويهمل الأخذ بها زعماً منهم أن الأخذ بالأسباب ينافي حقيقة التوكل ويقدح فيه ، وهذا عُرف به بعض الصوفية ، لذا جاءت عباراتهم مبهمة غامضة وتصرفاتهم واضحة في الإهمال . انظر : مدارج السالكين ٢/ ١١٧ ، وطبقات الصوفية للسلمي ٤١٤ ، والرسالة القشيرية ١٦٢ ، ومجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٣٥ ، ١٧١ .

ولما ذكر ابن القيم هذا الصنف من الناس قال : هؤلاء درجتهم ناقصة عن العارفين ، ومع هذا فلا يمكن بشراً البتة ترك الأسباب جملة ، وهذا موضع اشتباه بين الجهمية والأشاعرة وبين الصوفية ، فإن خلع الأسباب غير تعطيلها ، فالخلع نوع من عدم الاعتماد ، والتعطيل =

في توحيد الربوبية غاية . وكلامه في الدرجة الثالثة في معظم الأبواب ، يرجع إلىٰ هذين الأصلين . وقد عرفت ما فيهما ، وأن الصواب خلافهما ، وهو إثبات الأسباب والقُوىٰ . وأن الفناء في توحيد الربوبية ليس هو غاية الطريق؛ بل فوقه ما هو أجلّ منه وأعلىٰ وأشرف .

ومن هاتين القاعدتين عرض في كتابه من الأمور التي أُنكرت عليه ما عرض .

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : إِشفَاقٌ يَصُونُ سَعيَه عَنِ العُجْبِ ، وَيَكُفُّ صَاحِبَه عَن مُخَاصَمَةِ الخَلقِ ، وَيحمِلُ المُرِيدَ عَلىٰ حِفظِ الجِدِّ»[1] .

الأول : يتعلق بالعمل[2] . والثاني : بالخلق . والثالث : بالإرادة ، وكل منها له ما يفسده .

فالعجب : يفسد العمل كما يفسده الرياء ، فيشفق علىٰ سعيه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه .

للخلق : مفسدة للخلق ، فيشفق علىٰ خلقه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه .

= إلغاء يوصل إلىٰ الزندقة ، والتجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً . انظر : المدارج ٢/ ١٣٣ ، ١٢٤ ، ١٣٤ ، ١/ ٩٦-٩٧ .

القسم الرابع : من يأخذ بالأسباب ويعتمد علىٰ مسببها وهو الله سبحانه وتعالىٰ ، وهم أهل السنة والجماعة وهذا هو الذي تقتضيه الأدلة الشرعية والعقلية، وهو إثبات الأسباب وأثرها في مسبباتها ، بما أودعه الله فيها من القوىٰ المقتضية لآثارها . انظر المدارج ٣/ ٥٠٠ .

(١) المنازل ٢١ .

(٢) في ب : النفس ، وفي هامشها : العمل .

والإرادة : يفسدها عدم الجد . وهو الهزل واللعب ، فيشفق علىٰ إرادته مما يفسدها . فإذا صح له عمله وخلقه وإرادته ، استقام سلوكه وقلبه وحاله . والله المستعان[1] .

* * *

(١) بهذا انتهىٰ الجزء الأول من المخطوطة الأصل ويبدأ الجزء الثاني من منزلة الخشوع .

فصل

منزلة الخشوع

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «**الخشوع**»[1] .

قال تعالىٰ : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد : ١٦] . قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين»[2] .

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين . فعاتبهم علىٰ رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن»[3] . وقال تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون : ١-٢] .

تعريف الخشوع

و«الخشوع» في أصل اللغة : الانخفاض، والذل ، والسكون[4]، قال تعالىٰ : ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه : ١٠٨] أي سكنت وذلت ، وخضعت ،

---

(١) الخشوع عند الصوفية : عبارة عن خمود النفس وهمود الطباع ، وهو سكونها هيبة وتعظيمها لمن تخشىٰ سطوته وتتقىٰ نقمته ، وهو درجات : فهو للعامة رهبة من الوعيد وخوف من التهديد ، وللخاصة حفظ الحرمة وتجريد القصد . انظر : لطائف الإعلام ١/ ٤٤٣-٤٤٤ ، والتعريفات ١١٠ .

(٢) رواه مسلم ٤/ ٢٣١٩ في كتاب التفسير ، باب قول الله تعالىٰ : ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم﴾ رقم ٣٠٢٧ ، وذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٩٧ ، وابن كثير في تفسيره ٧/ ٥٥٨ .

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣٣٣٨ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٩٧ ، وابن كثير في تفسيره ٧/ ٥٥٨ .

(٤) انظر : لسان العرب ٤/ ١٠٠ مادة خشع .

ومنه وصف الأرض بالخشوع . وهو يبسها ، وانخفاضها ، وعدم ارتفاعها[(١)] بالري والنبات . قال تعالىٰ : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت : ٣٩] .

و «الخشوع» قيام القلب بين يدي[(٢)] الرب[(٣)] تعالىٰ بالخضوع والذلة[(٤)] والجمعية عليه .

وقيل : «الخشوع» الانقياد للحق[(٥)] . وهذا من موجبات الخشوع .

فمن علاماته : أن العبد إذا خولف ورد عليه بالحق ، استقبل ذلك بالقبول والانقياد .

وقيل : «الخشوع» خمود نيران الشهوة . وسكون دخان الصدر[(٦)] ، وإشراق نور التعظيم في القلب[(٧)] .

وقال الجنيد[(٨)] - رحمه الله - «الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب»[(٩)]

---

(١) في د : انتفاعها .

(٢) «يدي» ساقطة من ح١ .

(٣) في أ : الله .

(٤) في ط ، غ ، ب ، ح١ : الذل .

(٥) انظر : القشيرية ١٤٥ .

(٦) في الجميع سوىٰ ش ، ط : الصدور .

(٧) انظر : القشيرية ١٤٥ ، وقد نسب هذا القول لمحمد بن علي الترمذي - الحكيم الترمذي .

(٨) في غ : الجنيدي .

(٩) انظر : القشيرية ١٤٥ .

وأجمع العارفون علىٰ أن «الخشوع» محله القلب [١] . وثمرته علىٰ الجوارح ، فهي [٢] تظهره [٣] . و«**رأىٰ النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**» [٤][٥] . ورأىٰ بعضهم رجلاً خاشع المنكبين والبدن . فقال : يا فلان ، الخشوع هاهنا ، وأشار إلىٰ صدره . لا هاهنا . وأشار إلىٰ منكبيه [٦] .

وكان بعض الصحابة -رضي الله عنهم- وهو حذيفة ، يقول : «أعوذ بالله من خشوع النفاق [٧] . فقيل له : وما خشوع النفاق؟ فقال: أن يُرىٰ البدن خاشعاً

---

(١) انظر : المرجع السابق ١٤٥ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : وهي .

(٣) في ب : تظهر .

(٤) ذكره السيوطي في التفسير ٦/ ٨٥ عن الحكيم الترمذي ، وفي الجامع الصغير ٢/ ١٣٠ . وقال : رواه الحكيم الترمذي عن أبي هريرة ورمز له بالضعف ، ورواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة ١/ ١٩٤ عن حذيفة وابن المسيب ، وذكره ابن حجر في الفتح ٢/ ٢٢٥ ، وقال العراقي في المغني : ضعيف ، والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب ، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف وفيه رجل لم يسم . انظر : المغني عن حمل الأسفار - بهامش الإحياء - ١/ ٢١٢ ، وقال الألباني : الحديث موضوع مرفوعاً ، وضعيف موقوفاً؛ بل مقطوعاً . انظر : الضعيفة ١/ ١٤٤ .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وقال النبي ﷺ :«التقوىٰ هاهنا وأشار إلىٰ صدره ثلاث مرات» . وقال بعض العارفين : «حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن» .

(٦) انظر : القشيرية ١٤٥ .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : يقول :«إياكم وخشوع النفاق . . . » .

والقلب غير خاشع»[(١)(٢)] .

وقال الفضيل بن عياض : كان يكره أن يري الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه[(٣)] .

وقال حذيفة رضي الله عنه : «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع[(٤)] . ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترىٰ فيهم خاشعاً»[(٥)] .

وقال سهل ـ رحمه الله ـ : «من خشع قلبه لم يقرب[(٦)] منه الشيطان»[(٧)] .

---

(١) لم أجد هذا الأثر عن حذيفة وإنما وجدته عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ. انظر : الزهد للإمام أحمد ١٧٦ وفيه : «استعيذوا بالله من خشوع النفاق . . . » .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : ورأىٰ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة فقال : يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك . ليس الخشوع في الرقاب ، إنما الخشوع في القلوب . ورأت عائشة ـ رضي الله عنها ـ شباباً يمشون ويتماوتون في مشيتهم فقالت لأصحابها : من هؤلاء؟ فقالوا : نساك . فقالت : كان عمر بن الخطاب إذا مشىٰ أسرع . وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع ، وإذا أطعم أشبع ، وكان هو الناسك حقاً .

(٣) انظر : القشيرية ١٤٦ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : «وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة . وربَّ مصل لا خير فيه» .

(٥) روىٰ أول هذا الأثر الإمام أحمد في كتاب الزهد ٢٢٤ ، وذكره القشيري . انظر : القشيرية ، ١٤٥ .

(٦) في م ، ح٢ : يقربه .

(٧) انظر : القشيرية ١٤٥ .

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله - :

تعريف الهروي للخشوع

«الخُشُوعُ : خُمُودُ النَّفْس ، وَهُمُودُ الطِّبَاعِ لمتُعَاظِمٍ ، أَو مُفْزِعٍ»[1] .

يعني : انقباض النفس والطبع ، وهو - خمود قوىٰ النفس عن الانبساط لمن له في القلوب عظمة ومهابة ، أو لما يفزع منه القلب .

والحق : أن «الخشوع» معنىٰ يلتئم من التعظيم ، والمحبة ، والذل والانكسار .

درجات الخشوع

قال : «وَهُوَ عَلىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : التَّذَلُّلُ لِلأَمرِ ، وَالاستِسلاَمُ لِلحُكْمِ ، والاتِّضَاعُ لِنَظَرِ الحَقِّ»[2] .

الدرجة الأولى من درجات الخشوع

التذلل للأمر : تلقيه بذلة القبول والانقياد والامتثال[3] ، ومواطأة الظاهر الباطن ، مع إظهار الضعف ، والافتقار إلىٰ الهداية للأمر قبل الفعل ، والإعانة عليه حال الفعل ، وقبوله بعد الفعل .

وأما الاستسلام للحكم ، فيجوز أن يريد به : الحكمَ الدينيَّ الشرعيَّ فيكون معناه : عدم معارضته برأي أو شهوة . وأن يريد[4] به : الاستسلام للحكم القدريِّ ، وهو عدم تلقّيه بالتسخُّط والكراهة والاعتراض .

---

(١) انظر : المنازل ٢١ .

(٢) انظر : المنازل ٢١ ، ٢٢ .

(٣) في ب زيادة : وتسليم القلب .

(٤) في ح٢ ، م : أريد ، وفي ط : أن يريد .

والحق : أن « الخشوع » هو[1] الاستسلام للحكمين . وهو الانقياد بالمسكنة، والذلّ لأمره وقضائه[2] .

وأما الاتضاع لنظر الحق : فهو اتضاع القلب والجوارح [وانكسارها لنظر الرب إليها ، واطلاعه علىٰ تفاصيل ما في القلب والجوارح][3] . وهذا أحد التأويلين في قوله تعالىٰ : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] وقوله : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات : ٤٠] وهو مقام الرب علىٰ عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية .

فخوفه من هذا المقام : يوجب له خشوع القلب لا محالة . وكلما كان أشدَّ استحضاراً له كان أشدَّ خشوعاً ، وإنما يفارق القلب الخشوع[4] إذا غفل عن اطلاع الله تعالىٰ عليه ، ونظره إليه .

والتأويل الثاني : أنه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه[5] .

فعلىٰ الأول : يكون من باب إضافة المصدر إلىٰ الفاعل .

وعلىٰ الثاني : - وهو أليق بالآية - يكون[6] من باب إضافة المصدر إلىٰ

---

(١) «هو» ساقط من الأصل والجميع وما أثبته من ط والسياق يقتضيه .

(٢) في ط : لأمر الله .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ح٢ ، م ، وموجود في هامش م .

(٤) «الخشوع» ساقطة من ط ، ق .

(٥) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٢٧٣ ، وأضواء البيان للشنقيطي ٧/ ٧٥٦ .

(٦) «يكون» ساقطة من الجميع سوىٰ ش ، ط .

المخوف[١][٢] .

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : تَرَقُّبُ آفَاتِ النَّفْسِ وَالعَمَلِ ، وَرُؤْيَةُ فَضْلِ كُلِّ ذِي فَضلٍ عَلَيكَ ، وَتَنَسُّمُ نَسِيمِ الفَنَاءِ» [٣] .

يريد : انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك ، وعيوبهما لك . فإنه يجعل القلب خاشعاً لا محالة ، لمطالعة عيوب نفسه وأعمالها ونقائصهما[٤] : من الكبر والعجب ، والرياء ، وضعف الصدق ، وقلة اليقين ، وتشتت النية ، وعدم تجرد الباعث من هوىٰ نفساني[٥] ، [وعدم إيقاع العمل علىٰ الوجه الذي ترضاه لربك ، وغير ذلك من عيوب النفس][٦] ، ومفسدات الأعمال .

وأما رؤية فضل كل ذي فضل عليك. فهو[٧] أن تراعي حقوق الناس فتؤديها، ولا ترىٰ أن ما فعلوه[٨] معك[٩] من حقوقك عليهم، فلا تعاوضهم عليها، فإن

---

(١) في ح٢ : المفعول .

(٢) في ط ، ق زيادة : والله أعلم .

(٣) انظر : المنازل ٢٢ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : وأعماله ونقائصهما .

(٥) في ط : من الهوىٰ النفساني .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من م .

(٧) في ش : وهو .

(٨) في ب : يفعلوه .

(٩)«معك» ساقطة من ط .

هذا من رعونات النفس وحماقاتها ، ولا تطالبهم بحقوق نفسك . وتعترف بفضل ذي الفضل منهم ، وتنسىٰ فضل نفسك[١] .

وسمعت[٢] شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول : العارف لا يرىٰ له علىٰ أحد حقاً ، ولا يشهد له علىٰ غيره فضلاً . فلذلك[٣] لا يُعاتِبُ ، ولا يُطالبُ ، ولا يُضَارِبُ .

وأما تنسم نسيم الفناء : فلما كان الفناء عنده[٤] غاية ، جعل هذه الدرجة كالنسيم لرقّته . وعبّر عنها بالنسيم للُطْف موقعه من الروح ، وشدة تشبُّثها به . ولا ريب أن الخشوع سبب موصل إلىٰ الفناء ، فاضلهُ ومفضولهُ .

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : حِفظُ الحُرمَةِ عِندَ المُكَاشَفَةِ ، وَتَصفِيةُ الوَقتِ مِن مُرَاءَاةِ الخَلقِ ، وَتجَرِيدُ رُؤْيَةِ الفَضلِ**»[٥] .

أما حفظ الحرمة عند المكاشفة : فهو ضبط النفس بالذل والانكسار ، عن البسط والإدلال الذي تقتضيه المكاشفة. فإن المكاشفة توجب بسطاً[٦] .

---

(١) «فضل نفسك» ساقط من ب وهو في هامشها .

(٢) في ب : وكان .

(٣) في ط : ولذلك .

(٤)«عنده» ساقطة من ح١ ، غ ، ب ، أ .

(٥) انظر : المنازل ٢٢ .

(٦) البسط : التوسعة ، وبسط الشيء : نشره . انظر : لسان العرب ١/ ٤٠٨ مادة : بسط .

ويخاف منه شطح(١) ، إن لم يصحبه خشوع يحفظ الحرمة .

وأما تصفية الوقت من مراءاة الخلق : فلا يريد به أنه يصفي وقته عن الرياء ، فإن أصحاب هذه الدرجة أجل قدراً وأعلىٰ من ذلك .

وإنما المراد : أنه يخفي أحواله عن الخلق جهده كخشوعه وذله وانكساره ، لئلا يراها الناس فيعجبه اطلاعهم عليها ، ورؤيتهم لها . فيفسد عليه قلبه ووقته(٢) وحاله مع الله تعالىٰ . وكم قد اقتطع(٣) في هذه المفازة من سالك؟ والمعصوم من عصمه الله . فلا شيء أنفع(٤) للصادق(٥) من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل ، وأنه لا شيء ، وأنه ممن لم يصح له بعد الإسلام حتىٰ يدعي

والبسط عند الصوفية : عبارة عن كون النفس في ما هي بسبيله علىٰ نشاط وطرب وبهجة يتسع معها لقبول الواردات وهو ضد القبض .

انظر : لطائف الإعلام ١/ ٢٨٣ معجم مصطلحات الصوفية ٤٢ .

(١) الشطح : شَطَح في السير أو القول : تباعد واسترسل ، والشطحة : يقال: فلان الصوفي له أحوال وشطحات . انظر : المعجم الوسيط ١/ ٤٨٢ مادة شطح .

والشطح عند الصوفية : كلام يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوىٰ إلا أن يكون صاحبه مستلباً و محظوظاً ، وقيل : هو عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوىٰ ، تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب ، وهو من زلات المحققين ، فإنه دعوىٰ حتىٰ يفصح بها العارف، لكن من غير إذن إلهي. انظر : التعريفات ١٤٤، المعجم الصوفي ١٣٤ .

(٢) في ط ، ق : وقته وقلبه .

(٣) في ش ، ح٢ ، م : انقطع .

(٤) «أنفع» ساقطة من ق وهي في هامشها .

(٥) في ق : في الصادق .

الشرف [1] .

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره . وكان يقول كثيراً : ما لي شيء ، ولا مني شيء ، ولا في شيء . وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

أنا المكُدِّي وابن المُكدِّي [2] ... وهكذا كان أبي وجدِّي

وكان إذا أثنىٰ عليه في وجهه يقول : والله إني إلىٰ الآن أجدد إسلامي كل وقت . وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً .

وبعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه . وعلىٰ ظهرها أبيات بخطه من نظمه :

أنا الفقير إلىٰ ربِّ البريَّات [3] ... أنا المُسَيكين [4] في مجموع حالاتي

أنا الظَّلومُ لنفسي وهيَ ظالمتي ... والخيرُ إن جاءنا [5] من عنده يأتي

[لا أستطيعُ لنفسي جلبَ منفعة ... ولا عن النفس لىٰ دفعُ المضرَّات

---

(١) في ط زيادة : فيه .

(٢) كدت الأرض : أبطأ نباتها . وكدىٰ الرجل يَكْدي وأكدىٰ : قلل عطاءه ، وقيل : بخل وقلَّ خيره وفي التنزيل : ﴿وأعطىٰ قليلاً وأكدىٰ﴾ [النجم : ٣٤] وأكدىٰ الرجل : افتقر بعد غنىٰ .
انظر : لسان العرب ١٢/ ٤٩ ، المعجم الوسيط ٧٨٠ مادة : كدىٰ .

(٣) في ق : البرايا .

(٤) في ق ، ح١ ، أ ، م : المسكين .

(٥) في ط والجميع :يأتنا .

وليس لي دونه مولىٰ يدبِّرُني ولا شفيعٌ إلىٰ ربِّ السموات[1]

إلا بإذنٍ من الرحمن خالقِنا إلىٰ الشفيعِ كما قد جا بآيات[2]][3]

ولستُ أملك شيئاً دونه أبداً ولا شريكٌ أنا في بعض ذرات

ولا ظهيرٌ له كي يستعين به كما يكون لأرباب[4] الولايات

[والفقرُ لي وصفُ ذات لازمٌ أبداً كما الغنىٰ أبداً وصفٌ له ذاتي

وهذه الحالُ حالُ الخلق أجمعهم وكلُّهم عنده عبدٌ له آتي

فمن بَغَىٰ مطلباً من غير خالقه فهو الظَّلومُ[5] الجهولُ المشركُ العاتي][6]

والحمدُ لله ملءُ الكون أجمعُه ما كان منه وما من بعده[7][8] يأتي[9]

---

(١) في ق : إلىٰ رب البريات ، وفي ط والجميع : إذا حاطت خطيئاتي .

(٢) في ط والجميع : في الآيات . وفي العقود الدرية شطر البيت هكذا :

ورب السماء كما قد جاء في الآيات

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ش .

(٤) في ق : من أرباب .

(٥) في ط والجميع : فهو الجهول الظلوم . . .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من ش .

(٧) في ط : من بعد قد يأتي .

(٨) في ق : آتي .

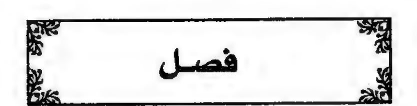
(٩) انظر : ديوان شيخ الإسلام ابن تيمية ص٧٤ ، وكذلك العقود الدرية لابن عبدالهادي ص٣٧٥

وقد جاء فيهما بيت بعد هذا الأخير قوله :

ثم الصلاة علىٰ المختار من مُضَرٍ خيرِ البرية من ماضي ومن آتي

وأما **تجريد رؤية الفضل** : فهو أن لا يرىٰ الفضل والإحسان إلا مِنَ الله . فهو المانُّ به بلا سبب منك ، ولا شفيع لك تقدم إليه بالشفاعة ، ولا وسيلة سبقت منك توسلت بها إلىٰ إحسانه .

والتجريد : هو تخليص شهود الفضل لوليه ، حتىٰ لا ينسبه إلىٰ غيره . وإلا فهو في نفسه مجرد عن النسبة إلىٰ سواه . وإنما الشأن في تجريده في الشهود ، ليطابق الشهود الحق في نفس الأمر . والله أعلم .



فصل

حكم صلاة من عَدِمَ الخشوع

فإن قيل : فما تقولون في صلاة من عدم الخشوع في صلاته[1] : هل يعتد له[2] بها أم لا؟

قيل[3] : أما الاعتداد بها في الثواب ، فلا يعتد له منها[4] . إلا بما عقل فيه[5] ، وخشع فيه لربه .

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها»[6] .

---

(١) «في صلاته» ساقط من ط .

(٢) «له» ساقطة من ط ، ح١ ، ب ، أ .

(٣) «قيل» ساقطة من د .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق ، د : فيها .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش ، غ زيادة : منها .

(٦) ذكره الغزالي في الإحياء ١/ ٢٢٤ مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ ، قال العراقي : لم أجده مرفوعاً .

وفي السنن[1] والمسند مرفوعاً : «**إن العبد ليصلي الصلاة ، ولم يكتب له إلا نصفها ، إلا[2] ثلثها ، إلا ربعها - حتىٰ بلغ عشرها**»[3] .

وقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم[4] ، فدل علىٰ أن من لم يخشع فيها[5] ، فليس من أهل الفلاح ، ولو اعتدّ له بها ثواباً لكان من المفلحين .

وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا ، وسقوط القضاء : فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها[6] اعتد بها إجماعاً . وكانت السنن ، والأذكار عقيبها جوابر ومكملات لنقصها .

وروىٰ محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلاً «لا يقبل الله من عبد عملاً حتىٰ يشهد قلبه مع بدنه» . ورواه أبو منصور الديلمي في مسنده الفردوس من حديث أبي بن كعب ، ولابن المبارك في الزهد موقوفاً علىٰ عمار: «لا يكتب للرجل من صلاته ما سها عنه» . انظر : المغني بهامش الإحياء ١/ ٢٢٤ .

(١) «السنن» ساقطة من ط .

(٢) في ط ، ش : أو .

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤/ ٤١٩ ، وابن حبان في صحيحه ٣/ ١٨٢ ، ح١٨٨٦ ، وأبو داود ١/ ٥٠٣ بلفظ « الرجل لينصرف وما كتب ... » ، في كتاب الصلاة ، باب ما جاء في نقصان الصلاة ، ح٧٩٦ ، والحميدي في المسند ١/ ٧٩-٨٠ ، ح١٤٥ ، قال العراقي : أخرجه أحمد بإسناد حسن ، انظر : المغني بهامش الإحياء ١/ ٢٤٠ ، وحسنه الألباني : صحيح سنن أبي داود ١/ ١٥١ ح٧١٤ .

(٤) قال تعالىٰ : ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ [المؤمنون: ١ ، ٢] .

(٥) « فيها» ساقطة من ط .

(٦) في د : وتعلقها .

وإن غلب عليه[١] عدم الخشوع فيها، وعدم تعقلها، فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها، فأوجبها[٢] أبو عبدالله بن حامد[٣] من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في إحيائه[٤] لا في وسيطه[٥] وبسيطه[٦].

واحتجوا بأنها صلاة لا يثاب عليها، ولم يضمن له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمته منها، ولم[٧] يسقط القضاء عنه كصلاة المرائي.

قالوا: ولأن الخشوع والعقل: روح الصلاة، ومقصودها ولبُّها، فكيف يعتدّ بصلاة فقدتْ روحَها ولبَّها، وبقيتْ صورتُها وظاهرُها؟

قالوا: ولو ترك العبد واجباً من واجباتها عمداً، لأبطلها تركه. وغايته[٨]: أن يكون بعضاً من أبعاضها بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المعتق في الكفارة، فكيف إذا عدمت روحها ولبّها ومقصودها؟ وصارت بمنزلة العبد

---

(١) في د، ق: عليها.

(٢) في د: فأوجب.

(٣) أبو عبدالله الحسن بن حامد بن علي بن مروان الوراق الحنبلي البغدادي شيخ الحنابلة ومفتيهم في زمانه، صنف كتاباً في الفقه وأصوله، له مكانة في النفوس، ومقدماً عند السلطان، كان شديد الزهد والورع، كثير الحج مات سنة ٤٠٣هـ.
ترجمته في: السير ١٧/ ٢٠٣، البداية والنهاية ١١/ ٣٧٣، شذرات الذهب ٣/ ١٦٦.

(٤) انظر: الإحياء ١/ ٢٢٤ وما بعدها.

(٥) يعني به كتاب الوسيط في المذهب وهو كتاب مطبوع.

(٦) البسيط للغزالي وهو مخطوط. انظر: الأعلام ٧/ ٢٢ ومقدمة كتاب الإحياء ١/ ٧.

(٧) في ط: ويسقط.

(٨) في الأصل: وغايتها، وما أثبته من الجميع.

الميت . فإذا[1] لم يعتد بالعبد المقطوع اليد ، بعتقه[2] تقرباً إلىٰ الله تعالىٰ في كفارة واجبة ، فكيف يعتد بالعبد الميت؟

ولهذا قال[3] بعض السلف : الصلاة كجارية تهدىٰ إلىٰ ملك من الملوك . فما الظن بمن يهدي إليه جارية شلاء ، أو عوراء ، أو عمياء ، أو مقطوعة اليد والرِّجل ، أو مريضة ، أو زَمِنَةً[4] ، أو قبيحة ، حتىٰ يهدي جارية[5] ميتة بلا روح أو جارية[6] قبيحة . فهكذا[7] الصلاة التي يهديها العبد ، ويتقرب بها إلىٰ ربه تعالىٰ . والله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وليس من العمل الطيب ، صلاة لا روح فيها . كما أنه ليس من العتق الطيب ، عتق عبد لا روح فيه .

قالوا[8] : وتعطيل القلب عن [عبودية الحضور والخشوع : تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته ، وعزل له عنها . فماذا تغني طاعة][9] الرعية وعبوديتها ،

---

(١) في ط : إذا .

(٢) في ط : يعتقه .

(٣) في ط ، وش : وقال .

(٤) في ط ، ش : ذميمة . والزَّمِنُ هو المريض مرضاً طويلاً ، والضعيف بكبر سنٍّ أو مطاولة علة .

انظر : المعجم الوسيط ٤٠١ مادة : زمن .

(٥) في ط زيادة : إليه .

(٦) في ط : وجارية .

(٧) في ط : فكيف .

(٨) في د : قال .

(٩) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وهو في هامشها .

وقد عُزل ملكَها وتعطَّل .

قالوا : والأعضاء تابعة للقلب ، تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده . فإذا لم يكن قائماً بعبوديته ، فالأعضاء أولىٰ أن لا يُعتدّ بعبوديتها ، وإذا فسدت عبوديتُه -بالغفلة والوسواس- فأنىٰ تصح عبوديةُ رعيّته وجنده ، ومادّتهم[١] منه ، وعن أمره يصدرون ، وبه يأتمرون[٢]؟

قالوا : وفي الترمذي وغيره مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ : **«إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل»** [٣] ، وهذا إما خاص بدعاء العبادة ، وإما عام له ولدعاء المسألة ، وإما خاص بدعاء المسألة الذي هو حق العبد [٤] فهو تنبيه علىٰ أنه دعاء العبادة الذي هو خالص[٥] حقه من قلب غافل .

---

(١) في د : ومادته .

(٢) في ق : وبه يأتمون وبأمره يأتمرون .

(٣) رواه الترمذي ٥/ ٥١٧-٥١٨ في كتاب الدعوات ، باب ٦٦ ح٣٤٧٩ وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . ورواه الحاكم في المستدرك ١/ ٦٧٠ - ٦٧١ ح١٨١٧ وقال : هذا حديث مستقيم الإسناد تفرد به صالح المري وهو أحد زهاد البصرة ولم يخرجاه ، ورده الذهبي بقوله : صالح متروك الحديث . وذكره المنذري في الترغيب ٢/ ٤٩١-٤٩٢ وقال : صالح المري لا شك في زهده لكن تركه أبو داود والنسائي ، وذكره الألباني في الصحيحة ٢/ ١٤٣ ح٥٩٤ وقال : لكن روي له شاهد بسند ضعيف رواه أحمد ٢/ ١٧٧ عن ابن عمرو . وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف ، وفي أول حديثه زيادة : **«القلوب أوعية بعضها أوعىٰ من بعض ، فإذا سألتم الله فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة . . .»** الحديث .

(٤) في ط : أبعد ، وفي ش : في العبد .

(٥) في ط : خاص .

قالوا : ولأن عبودية من غلبت[1] عليه الغفلة ، والسهو في الغالب لا تكون مصاحبة للإخلاص[2] . فإن الإخلاص قصد المعبود وحده بالتعبد . والغافل[3] لا قصدَ له ، فلا عبوديةَ له .

قالوا : وقد قال تعالىٰ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون :٤-٥] ، وليس السهو عنها تركها ، وإلا لم يكونوا مصلين ، وإنما هو السهو عن واجبها : إما[4] الوقت ، كما قال ابن مسعود وغيره . وإما[5] الحضور والخشوع[6] ، والصواب : أنه يعم النوعين . فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة، ووصفهم بالسهو عنها فهو السهو عن وقتها الواجب ، أو[7] إخلاصها وحضورها الواجب ، ولذلك وصفهم بالرياء . ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء . قالوا : ولو قدّرنا أنه السهو عن واجب الوقت[8] فقط ، فهو تنبيه علىٰ التوعد بالويل علىٰ سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولىٰ [لوجوه :

---

(١) في الأصل والجميع سوىٰ ط : غلب ، وما أثبته من ط وهو الذي يقتضيه السياق .

(٢) في الأصل والجميع سوىٰ ط ، د ، ق : الإخلاص ، وما أثبته منهما .

(٣) في ق ، د زيادة : الساهي .

(٤) في ط زيادة : عن .

(٥) في ط زيادة : عن .

(٦) انظر : تفسير الطبري ١٢/ ٧٠٦-٧٠٨ فقد ذكر هذين الرأيين وغيرهما ، وتفسير ابن كثير ٧/ ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٧) في ط زيادة : عن .

(٨) «الوقت» ساقطة من ط .

أحدها : أن الوقت يسقط في حال العذر ، وينتقل إلىٰ بدله . والإخلاص والحضور][1] لا يسقط بحال ، ولا بدل له .

الثاني : أن واجب الوقت يسقط لتكميل مصلحة الحضور . فيجوز الجمع بين الصلاتين للشغل المانع من فعل إحداهما في وقتها بلا قلب ولا حضور ، كالمسافر ، والمريض ، وذي الشغل الذي يحتاج معه إلىٰ الجمع ، كما نص عليه أحمد وغيره[2] .

فبالجملة : مصلحة الإخلاص والحضور ، وجمعية القلب علىٰ الله تعالىٰ في الصلاة؛ أرجح في نظر الشارع من مصلحة سائر واجباتها . فكيف يظن به أنه يبطلها بترك تكبيرة واحدة ، أو اعتدال في ركن ، أو ترك حرف ، أو شدة من القراءة[3] الواجبة ، أو ترك تسبيحة ، أو قول «سمع الله لمن حمده» ، أو[4] «ربنا ولك الحمد»، أو ذكر[5] رسوله[6] بالصلاة عليه. ثم يصححها مع فوات[7] لُبِّها ، ومقصودها الأعظم ، وروحها وسرها . فهذا ما احتجت به هذه الطائفة . وهي حجج - كما تراها - قوة وظهوراً .

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وهو في هامشها .

(٢) انظر : المغني ٣/ ١٣٥ .

(٣) في ط : القرآن .

(٤) في ط زيادة :قول .

(٥) في ق : وذكر .

(٦) في ط : رسول الله .

(٧) في ط : فَوْت .

قال أصحاب القول الآخر : : قد ثبت عن النبي [1] ﷺ في الصحيح أنه قال : «إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان ، وله ضراط [2] حتىٰ لا يسمع التأذين . فإذا قضىٰ التأذين أقبل . فإذا ثُوِّب [3] بالصلاة أدبر . فإذا قضىٰ التثويب أقبل حتىٰ يخطر بين المرء وبين نفسه ، فيذكره ما لم يكن يذكر . يقول [4] : اذكر كذا ، اذكر كذا [5] . لما لم يكن يذكر حتىٰ يظل الرجل أن [6] يدري كم صلىٰ . فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس» [7] .

قالوا : فأمره [8] ﷺ في هذه الصلاة التي قد أغفله الشيطان فيها ، حتىٰ لم يَدْرِ كم صلىٰ : بأن يسجد سجدتي السهو . ولم يأمره بإعادتها ، ولو كانت باطلة - كما زعمتم - لأمره بإعادتها .

---

(١) في د : رسول .

(٢) في د ، ق : حصاص .

(٣) التثويب هاهنا : إقامة الصلاة . والأصل في التثويب : أن يجيء الرجل مستصرخاً فيلوح بثوبه ليُرَىٰ ويشتهر ، فسمي الدعاء تثويباً لذلك . وكل داع مثوب ، وقيل : إنما سمي تثويباً من ثاب يثوب إذا رجع : فهو رجوع إلىٰ الأمر بالمبادرة إلىٰ الصلاة .

انظر : النهاية في غريب الحديث ١/ ٢٢٧ مادة : ثوب .

(٤) في ط : ويقول .

(٥) «كذا» ساقطة من الأصل وهي في هامشها .

(٦) في ط : لا يدري .

(٧) رواه البخاري ٣/ ١٠٣ في كتاب السهو ، باب إذا لم يدر كم صلى . . . ، ح١٢٣١ ، ومسلم ١/ ٣٩٨ في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، ح٣٨٩ .

(٨) في ط زيادة : النبي .

قالوا: وهذا هو السر في سجدتي السهو، ترغيماً للشيطان في وسوسته للعبد، وكونه حال بينه وبين الحضور في[1] الصلاة. ولهذا سماها[2] النبي ﷺ: «المُرغِمَتَيْن»[3] وأمر من سها بهما، ولم يُفَصّل في سهوه الذي صدر عنه موجب السجود بين القليل والكثير، والغالب والمغلوب[4]. وقال: «لكل سهو سجدتان»[5] ولم يستثن من ذلك السهو الغالب، [مع أنه الغالب][6].

---

(١) في ب زيادة: نفس.

(٢) في الجميع سوىٰ ش، ط: سماهما.

(٣) جاء هذا فيما رواه أبو داود عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ «سمىٰ سجدتي السهو المرغمتين» سنن أبي داود ١/ ٦٢٢، كتاب الصلاة، باب إذا صلىٰ خمساً ح١٠٢٥ وصححه الألباني. انظر: صحيح سنن أبي داود ١/ ١٩١ ح٩٠١.
قلت: ثبت عن النبي ﷺ أن سجدتي السهو تكونان ترغيماً للشيطان وذلك في الحديث الذي رواه مسلم ١/ ٤٠٠ في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة ح٥٧١، وأحمد في مسنده ٣/ ٨٣.
«ترغيماً للشيطان»: أي إغاظة له وإذلالاً، مأخوذ من الرّغام وهو التراب، ومنه أرغم الله أنفه. والمعنىٰ أن الشيطان لَبّسَ عليه صلاته وتعرض لإفسادها ونقصها، فجعل الله تعالىٰ للمصلي طريقاً إلىٰ جبر صلاته، وتدارك ما لبسه عليه، وإرغام الشيطان، ورده خاسئاً مبعداً عن مراده، وكملت صلاة ابن آدم. انظر: شرح صحيح مسلم للنووي ٥/ ٦٠.

(٤) في ش: المغلوبات.

(٥) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٢٨٠، وأبو داود ١/ ٦٣٠ في كتاب الصلاة، باب من نسي أن يتشهد وهو جالس، ح١٠٣٨، وابن ماجه ١/ ٣٨٥ في كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن سجدهما بعد السلام ح١٢١٩. وحسنه الألباني: انظر: صحيح سنن أبي داود ١/ ١٩٣ ح٩١٧، وانظر: الإرواء ٢/ ٤٧.

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من د.

قالوا : ولأن شرائع الإسلام علىٰ الأفعال الظاهرة . وأما حقائق الإيمان الباطنة ، فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب . فلله تعالىٰ حكمان :

حكم فىٰ الدنيا علىٰ الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح .

وحكم[١] الآخرة علىٰ الحقائق[٢] والبواطن .

ولهذا كان النبي ﷺ يقبل علانية المنافقين، وَيكِلُ سرائرهم[٣] إلىٰ الله تعالىٰ[٤] ، ويناكحون[٥] ، ويرثون ويورثون ، ويعتد بصلاتهم في أحكام الدنيا . فلا يكون حكمهم حكم تارك الصلاة ، إذ قد أتوا بصورتها الظاهرة ، وأحكام الثواب والعقاب ، ليس[٦] إلىٰ البشر؛ بل إلىٰ الله [٧] يتولاه في الدار الآخرة .

قالوا : فنحن في حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق والمرائي

---

(١) في ط زيادة : في .

(٢) في ط : الظواهر .

(٣) في ط ، ح١ ، ب ، غ ، أ ، م : أسرارهم وفي ح٢ : أمرهم .

(٤) يدل علىٰ هذا قول النبي ﷺ : « أُمرتُ أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله . فمن قال : لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه علىٰ الله» رواه مسلم ١/ ٥٠-٥١ في كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله . . . . ، ح٢٠ .

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « .. إني لم أُومر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم ..» الحديث رواه البخاري ٨/ ٦٧ في كتاب المغازي ، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلىٰ اليمن قبل حجة الوداع ، ح٤٣٥١ .

(٥) في ط : فيناكحون .

(٦) في ط : ليست .

(٧) في ط زيادة : والله .

مع أنها[1] لا تُسقط عنه العقاب ، ولا يحصل له الثواب ، فصلاة المسلم الغافل المبتلىٰ بالوسواس وغفلة القلب عن كمال حضوره أولىٰ بالصحة .

نعم : لا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلاً ولا آجلاً . فإن للصلاة مزيداً[2] عاجلاً في القلب من قوة إيمانه ، واستنارته ، وانشراحه ، وانفساحه ، ووجد[3] حلاوة العبادة ، والفرح والسرور ، واللذة التي تحصل لمن اجتمع قلبُه[4] وهمُّه علىٰ الله ، وحضر قلبه بين يديه ، كما يحصل لمن قرّبه السلطان منه ، وخصّه بمناجاته والإقبال عليه ، والله أعلىٰ وأجلّ .

وكذلك ما يحصل لهذا من الدرجات العلىٰ في الآخرة ، ومرافقة المقربين .

كل هذا يفوته بفوات الحضور والخشوع[5] . وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً ، وبين[6] صلاتيهما كما[7] بين السماء والأرض ، وليس كلامنا في هذا كله .

فإن أردتم بوجوب[8] الإعادة : لتحصل هذه الثمرات والفوائد ، فذاك إليه إن

---

(١) في ط ، ق ، ب ، غ ، ح١ ، ح٢ : أنه .

(٢) في ط : مزيد ثواب عاجل .

(٣) في ط ووجود .

(٤) في ط : همه وقلبه .

(٥) في ط : الخضوع .

(٦) في ب : وإن بين .

(٧) «كما» ساقطة من ش .

(٨) في ط : وجوب .

شاء أن يحصلها وإن شاء أن يفوتها علىٰ نفسه ، وإن أردتم بوجوب[1] الإعادة : أنا نلزمه بها ، ونعاقبه علىٰ تركها ، ونرتب[2] عليه أحكام تارك الصلاة فلا .

وهذا القول الثاني أرجح القولين . والله أعلم[3] .

* * *

(١) في ط ، ح٢ ، ب ، ح١ ، م ، ق : بوجوبها .

(٢) في غ : وترتب .

(٣) انتهىٰ الجزء الأول من مخطوطة ، ب ، غ ، أ ، ح١ ، ويبدأ الجزء الثاني من منزلة الإخبات إلىٰ ح١ ، فإن الجزء الثاني ناقص من أوله .

فصل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «الإخبات»[1].

منزلة الإخبات

قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤] ثم كشف عن معناهم. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٥][2]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود: ٢٣].

تعريف الإخبات

الخبت في أصل اللغة: المكان المنخفض من الأرض،[3] وبه[4] فسر[5] ابن عباس - رضي الله عنهما - وقتادة لفظ «المخبتين» وقالا: هم المتواضعون[6] فقال[7] مجاهد: المخبت المطمئن إلىٰ الله عز وجل. قال: والخبت: المكان

---

(١) الإخبات عند الصوفية: هو السكون إلىٰ الله تعالىٰ، وهو من بَدَوات الطمأنينة. وإخبات العوام الخلاص من الالتفات إلىٰ المخلوقات، لسكون النفس تحت ما يقتضيه أمر الحق.
وإخبات المتوسطين: الخلاص من تردد الخواطر بين الإقبال علىٰ الله والإدبار عنه.
وإخبات الخواص: أن يكون الإنسان ممن يستوي عنده المدح والذم، مع لائمته لنفسه.
انظر: لطائف الإعلام ١/ ١٨٠-١٨١، المعجم الصوفي ١٥.

(٢) الآية لم تكمل في: ح٢، م.

(٣) انظر: لسان العرب ٤/ ٩ مادة: خبت.

(٤) في د: وفيه.

(٥) في غ، ب: قرأ.

(٦) انظر: تفسير الطبري ٩/ ١٥١، وتفسير البغوي ٣/ ٢٨٧.

(٧) في ط، ق، ح٢، ب، أ، م، غ: قرأ.

المطمئن من الأرض[١] . وقال الأخفش[٢] : الخاشعون[٣] . وقال إبراهيم النخعي[٤] :[٥]المخلصون[٦] . وقال الكلبي : هم الرقيقة قلوبهم[٧] . وقال[٨] عمرو ابن أوس[٩] : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا[١٠] .

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٩/ ١٥١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٨٧ .

(٢) أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء ، البلخي ثم البصري المعروف بالأخفش الأوسط ، عالم باللغة والنحو ، أخذ العربية عن سيبويه ، قال أبو حاتم السجستاني : كان الأخفش قدرياً رجل سوء ، له مصنفات عدة . مات سنة ٢١٥هـ ، وقيل: ٢٢١هـ .

ترجمته في : السير ١٠/ ٢٠٦ ، بغية الوعاة ١/ ٥٩٠ ، شذرات الذهب ٢/ ٣٦ .

(٣) انظر : تفسير البغوي ٣/ ٢٨٧ .

(٤) أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي اليماني ثم الكوفي أحد الأئمة الأعلام ، كان واسع الرواية كبير الشأن ، ذكياً كثير المحاسن ، أدرك بعض الصحابة ولم يسمع منهم ، وكان بصيراً بعلم ابن مسعود ، توفي سنة ٩٦هـ .

ترجمته في : التاريخ الكبير ١/ ٣٣٣ ، حلية الأولياء ٤/ ٢١٩ ، السير ٤/ ٥٢٠ .

(٥) في ط ، والجمع سوى ش زيادة : المصلون .

(٦) انظر : تفسير البغوي ٣/ ٢٨٧ .

(٧) المرجع السابق ٣/ ٢٨٧ .

(٨) في أ ، غ ، ب : قال .

(٩) عمرو بن أوس بن أبي أوس الثقفي الطائفي ، تابعي روى عن أبيه وعبدالرحمن بن أبي بكر وعبدالله بن عمرو بن العاص وغيرهم . ذكره ابن حبان في الثقات . قال البخاري : مات قبل سعيد بن جبير . ترجمته في : التاريخ الكبير ٦/ ٣١٤ ، الكاشف للذهبي ٢/ ٢٨٠ ، تهذيب التهذيب ٨/ ٦ .

(١٠) انظر : تفسير الطبري ٩/ ١٥١ ، تفسير البغوي ٣/ ٢٨٧ .

وهذه الأقوال تدور علىٰ معنيين : التواضع، والسكون إلىٰ الله تعالىٰ ، ولذلك عُدِّي بإلىٰ ، تضمينا لمعنىٰ الطمأنينة ، والإنابة ، والسكون إلىٰ الله .

قال صاحب المنازل : «هُوَ مِن أَوَّلِ مَقَامَاتِ الطُّمَأْنِينَةِ»[1] . يعني[2] بمقامات الطمأنينة ، السكينة ، واليقين ، والثقة بالله تعالىٰ نحوها . فالإخبات : مقدمتها ومبدؤها .

قال : «وَهُوَ وُرُودُ المُسَافِرِ[3] مِن الرُّجُوعِ وَالتَّرَدُّدِ[4]»[5] .

لما كان «الإخبات» أول مقام يتخلص فيه السالك من التردد - الذي هو نوع [شك ، والرجوع الذي هو نوع][6] غفلة وإعراض - والسالك مسافر إلىٰ ربه ، سائر إليه علىٰ مدىٰ أنفاسه . لا ينتهي سيره[7] إليه ما دام نفسه يصحبه .

شبّه حصول الإخبات له بالماء العذب الذي يرده المسافر علىٰ ظمأ وحاجة فيٰ أول مناهله . فيرويه مورده ، ويزيل عنه خواطر تردده في إتمام[8] سفره ، أو

---

(١) انظر : المنازل ٢٢ .

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من : ط ، أ ، ب ، غ .

(٣) في ح٢ ، ب : فورد المسافر . وفي م : مراد المسافرين ، وفي أ ، غ : مراد المسافر ، وفي ط: ورود المآمن .

(٤) في ش : والشرود .

(٥) انظر : المنازل ٢٢ .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من : ط ، ح٢ ، أ ، ب ، غ ، م .

(٧) في ط ، ب ، د ، أ ، غ ، ق : مسيره .

(٨) في ش : أيام .

رجوعه إلىٰ وطنه لمشقة السفر . فإذا ورد ذلك الماء ، زال عنه التردد ، وخاطر الرجوع . كذلك السالك[1] إذا ورد مورد «الإخبات» تخلص[2] من التردد والرجوع ، ونزل أول منازل الطمأنينة لسفره[3] ، وجد في السير .

الدرجة الأولى من درجات الإخبات

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : أَن تَستَغرِقَ العِصمَةُ الشَّهوةَ ، وَتَستَدرِكَ الإِرَادَةُ الغَفلَةَ ، وَيستَهوِيَ الطَّلَبُ السَّلوةَ»[4] .

المريد السالك : تعرض له غفلة عن مراده ، تضعف[5] إرادته . وشهوة تعارض إرادته ، فتصده عن مراده . ورجوع عن مراده ، سلوة[6] عنه .

فهذه الدرجة من الإخبات تحميه عن هذه الثلاثة ، فتستغرق عصمته شهوته .

و«العصمة» هي الحماية والحفظ ، و«الشهوة» الميل إلىٰ مطالب النفس ، و«الاستغراق للشيء» الاحتواء عليه والإحاطة به .

يقول : تغلب عصمته[7] شهوته وتقهرها ، وتستوفي جميع أجزائها . فإذا استوفت العصمة جميع أجزاء الشهوة ، فذلك دليل علىٰ إخباته ودخوله في

---

(١) في د : الساير .

(٢) في ب : يتخلص .

(٣) في ط ، والجميع سوىٰ ش : بسفره .

(٤) انظر : المنازل ٢٢ .

(٥) في ش : يضعف .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق ، د : وسلوة .

(٧) في ش : شهوته عصمته .

مقام الطمأنينة ، ونزوله[1] منازلها ، وخَلاَصه في هذا المنزل من تردد الخواطر بين الإقبال والإدبار ، والرجوع والعزم ، إلىٰ الاستقامة والعزم الجازم ، والجد في السير ، وذلك علامة السكينة .

وتستدرك إرادتُه غفلتَه . و«الإرادة» عند القوم : هي اسم لأول منازل القاصدين إلىٰ الله[2] . و«المريد» هو الذي قد[3] خرج من وطن طبعه ونفسه . وأخذ في السير[4] إلىٰ الله ، والدار الآخرة . فإذا نزل في منزلة[5] «الإخبات» أحاطت إرادته بغفلته . فاستدركها ، واستدرك بها فارطها .

وأما «استهواء طلبه لسلوته» فهو قهر محبته لسلوته ، وغلبتها له بحيث تَهْوِي السلوة وتسقط ، كالذي يهوي في بئر . وهذا علامة المحبة الصادقة؛ أن يقهر[6] وارد السلوة ، ويدفنها[7] في هوة لا تحيا بعدها أبداً .

فالحاصل : أن عصمته وحمايته ، تقهر شهوته . وإرادته تقهر غفلته . ومحبته تقهر سلوته .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش ، ح٢ زيادة : أول .

(٢) انظر : القشيرية ٢٠١ حيث قال القشيري : والإرادة بدء طريق السالكين ، وهي اسم لأول منزلة القاصدين إلىٰ الله تعالىٰ .

(٣) «فقد» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : السفر .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : منزل .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق ، د : أن تقهر فيه .

(٧) في ط : وتدفنها .

الدرجة الثانية من درجات الإخبات

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : أَن لاَ يَنقُضَ[1] إِرَادَتَه سَبَبٌ[2] ، وَلاَ يُوحِشَ[3] قَلْبَه عَارِضٌ ، وَلاَ يَقْطَعَ عَلَيهِ الطَّرِيقَ فِتنةٌ»[4] .

هذه ثلاثة[5] أمور أخرىٰ[6] لصاحب[7] الإرادة : سبب يعرض له وينقض[8] عزمه وإرادته ، ووحشة تعرض له في طريق طلبه ، ولا سيما عند تفرده . وفتنة تخرج عليه ، تقصد قطع الطريق عليه .

فإذا تمكن من منزل «الإخبات» اندفعت[9] عنه هذه الآفات؛ لأن إرادته[10] وجدية السير[11] : لم ينقضها[12] سبب من أسباب التخلف .

و «النقض»[13] : هو الرجوع عن إرادته ، والعدول عن جهة سفره .

---

(١) في ش ، ح٢ : ينقص .

(٢) في د : بسبب .

(٣) في ق : ولا توحش .

(٤) المنازل : ٢٢ ، وفيها : «أن لا ينقص إرادته . . . ولا تقطع الطريق عليه فتنة» .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : تعرض .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : تعرض لصادق .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : تعرض لصادق .

(٨) في ط ، ش ، ح٢ : ينقض .

(٩) في غ ، ب : تدافعت .

(١٠) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : إذا قويت .

(١١) في ط والجميع سوىٰ ش : إذا جدَّ به السير .

(١٢) في ش ، د : ينقصها .

(١٣) في د ، ش : والنقص .

ولا يُوحش أُنسَه بالله في طريقه عارضٌ من العوارض . الشواغل للقلب ، والجواذب له عمن هو متوجه إليه .

و «العارض» هو المخالف ، كالشيء الذي يعترضك في طريقك ، فيجيء في عرضها . ومن أقوىٰ هذه العوارض ، عارض وحشة التفرد ، فلا يلتفت إليه ، كما قال بعض العارفين [١] : انفرادك في طريق طلبك ، دليل علىٰ صدق الطلب [٢] . وقال آخر : لا تستوحش في طريق الحق [٣] من قلة السالكين [٤] ولا يُغتر [٥] في الباطل [٦] بكثرة الهالكين .

وأما «الفتنة» التي تقطع عليه الطريق، فهي الواردات التي ترد علىٰ القلوب، تمنعها من مطالعة الحق وقصده . فإذا تمكن من منزل «الإخبات» وصحة الإرادة والطلب ، لم يطمع فيه عارض الفتنة .

وهذه العزائم لا تصح إلا لمن أشرقت [٧] علىٰ قلبه أنوار آثار الأسماء والصفات ، وتجلت عليه معانيها [٨] ، وكافح قلبه حقيقة اليقين بها .

---

(١) في ق : طريق .

(٢) في ط والجميع : الصادقين .

(٣) في ط ، ب ، غ : طريقك .

(٤) في م : السالك .

(٥) في ط والجميع : تَغْتَر .

(٦) «في الباطل» ساقط من ط ، غ ، أ ، ب .

(٧) في ط ، م ، ح٢ ، غ ، ب : أشرق .

(٨) في ق زيادة : وهذه العزائم .

وقد قيل : من أخذ العلم من عين العلم ثبت . ومن أخذه من جريانه أخذته أمواج الشبه ، ومالت به العبارات ، واختلفت عليه الأقوال .

الدرجة الثالثة من درجات الإخبات

قال: «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: أَن يَستَوِيَ عِنْدَهُ المَدحُ وَالذَّمُّ ، وَتَدُومَ[1] لائِمَتُهُ لِنَفْسِه، وَيَعمَىٰ عَن نُقصَانِ الخلقِ عَن دَرَجَتِهِ**»[2] .

[3] متىٰ استقرت قدم العبد في منزلة «الإخبات» وتمكن فيها، ارتفعت همته، وعلت نفسه عن خطفات المدح والذم ، فلا يفرح بمدح الناس ، ولا يحزن لذمهم هذا وصف من خرج عن حظ نفسه ، وتأهل للفناء في عبودية[4] ربه . وصار قلبه مُطَّرِحاً لأشعة أنوار الأسماء والصفات . وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه .

والوقوف عند مدح الناس وذمهم : علامة انقطاع القلب ، وخلوه من الله ، وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته ، ولم يذق[5] حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه .

قوله[6] : «**وَأَنْ تَدُومَ لائِمَتُه لِنَفسِهِ**» فهو أن صاحب هذا المنزل لا يرضىٰ عن

---

(١) في ق : تدوم .

(٢) انظر : المنازل ٢٣ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : اعلم أنه .

(٤) في ح٢ : عبوديته .

(٥) في ب : تذق .

(٦) في الجميع سوىٰ ش : وقوله ، وفي ط : وأما قوله .

نفسه، وهو مبغض لها متمنٍّ[1] لمفارقتها.

تعريف النفس عند الصوفية

والمراد بالنفس[2] عند القوم: ما كان معلولاً من أوصاف العبد، مذموماً من أخلاقه وأفعاله[3]، سواء كان ذلك كسبياً له[4]، أو خلقياً. فهو شديد اللائمة لها. وهذا أحد التأويلين في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] قال سعيد بن جبير وعكرمة[5]: تلوم علىٰ الخير والشر، ولا تصبر علىٰ السراء، ولا علىٰ الضراء[6].

وقال قتادة: اللوامة، هي الفاجرة[7].

وقال مجاهد: تندم علىٰ ما فات، وتقول: لو فعلت؟ ولو لم أفعل؟[8].

وقال الفراء[9]: ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت

---

(١) في ب: مشمر.

(٢) في الأصل: اليقين، وما أثبته من ط والجميع والسياق يقتضيه.

(٣) انظر: القشيرية ٨٧.

(٤) «له» ساقطة من ط، غ.

(٥) هو أبو عبدالله عكرمة القرشي مولاهم، العلامة الحافظ المفسر، تابعي، مشهور، روىٰ عن عدد من الصحابة، وكان ـ رحمه الله ـ من أعلم الناس بكتاب الله وتفسيره. توفي سنة ١٠٤هـ. ترجمته في: حلية الأولياء ٣/ ٣٢٦، السير ٥/ ١٢، تهذيب التهذيب ٧/ ٢٦٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري ١٢/ ٣٢٧، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢١.

(٧) انظر: تفسير الطبري ١٢/ ٣٢٧، تفسير البغوي ٤/ ٤٢١.

(٨) انظر: تفسير الطبري ١٢/ ٣٢٧، تفسير البغوي ٤/ ٤٢١.

(٩) أبوزكريا هو يحيىٰ بن زياد بن عبدالله الديلمي الكوفي، المعروف بالفراء، أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي، كان يقال له: أمير المؤمنين في النحو، ولد بالكوفة، له مؤلفات عدة،

عملت خيراً قالت : هلاّ زدت[١] ، وإن[٢] عملت شراً قالت : ليتني لم أفعل[٣] .

وقال الحسن : هي النفس المؤمنة . إن المؤمن - والله - ما تراه إلا يلوم نفسه ، ما أردت بكلامي[٤]؟ ما أردت بأكلتي[٥]؟ [٦] . وإن الفاجر يمضي قُدُماً قُدُماً[٧] ، ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها[٨] .

وقال مقاتل : هي النفس الكافرة . تلوم نفسها في الآخرة علىٰ ما فرَّطَتْ في أمر الله[٩][١٠] .

والقصد : أن من بذل نفسه لله بصدق كره بقاءه معها؛ لأنه يريد أن يتقبَّلَها من بُذِلتْ له؛ لأنه[١١] قد قرَّبها له قرباناً . ومن قرب قرباناً[١٢] فتقبل منه ، ليس

وكان يحب الكلام ويميل إلىٰ الاعتزال . توفي سنة ٢٠٧هـ .

ترجمته في: البداية والنهاية ١٠/ ٢٧٢ ، بغية الوعاة ٢/ ٣٣٣ ، طبقات المفسرين ٢/ ٣٦٧ .

(١) في ح٢ : ازددت .

(٢) «وإن» ساقطة من : د .

(٣) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٤٢١ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : بكلمة كذا .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : بأكلة كذا .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : ما أردت بكذا؟ وما أردت بكذا؟ .

(٧) «قدماً» ساقطة من ح٢ .

(٨) انظر : الزهد للإمام أحمد ٣٤٣ ، تفسير البغوي ٤/ ٤٢١ .

(٩) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٤٢١ .

(١٠) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : في الدنيا .

(١١) في ط والجميع سوىٰ ش : ولأنه .

(١٢) «قرباناً» ساقطة من : ب ، غ .

كمن رُدَّ عليه قربانُه . فبقاء نفسه معه دليلٌ (١) أنه لم يُتقَّبل قربانهُ .

وأيضاً فإنه من قواعد القوم المجمع عليها بينهم ، التي اتفقت كلمة أولهم وآخرهم ، ومحققهم ومُبطلهم عليها : أن النفس حجاب بين العبد وبين الله تعالىٰ(٢) ، وأنه لا يصل إلىٰ الله حتىٰ يقطع هذا الحجاب(٣) . كما قال أبو يزيد : رأيت رب العزة في المنام . فقلت : ربي(٤) كيف الطريق إليك؟ فقال : خل نفسك وتعال(٥) .

فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير(٦) إلىٰ الله . وكل سائر فلا طريق(٧) له إلا علىٰ ذلك(٨) الجبل . فلا بد أن ينتهي إليه (٩) .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش ، ح٢ زيادة : علىٰ .

(٢) في ح٢ : وبين ربه .

(٣) انظر : القشيرية ١٥١ وما بعدها ، فقد ذكر القشيري في باب مخالفة النفس أقوالاً كثيرة تفيد هذا المعنىٰ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ح٢ : يا رب .

(٥) انظر : القشيرية ١٠٢ .

(٦) في ق : السبل .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش ، ح٢ : لا طريق .

(٨) في د : هذا .

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : ولكن منهم من هو شاق عليه ، ومنهم من هو سهل عليه . وإنه ليسير علىٰ من يسره الله عليه . وفي ذلك الجبل أودية وشعوب ، وعقبات ووهود ، وشوك وعوسج ، وعُلَّيق وشبرق ، ولصوص يقطعون الطريق علىٰ السائرين . ولا سيما أهل الليل المدلجين . فإذا لم يكن معهم عدد الإيمان ، ومصابيح اليقين تتقد برتب الإخبات ، وإلا تعلقت بهم تلك الموانع . وتشبثت بهم تلك القواطع ، وحالت بينهم وبين السير .

وأكثر[١] السائرين منه[٢] رجعوا علىٰ أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقبته[٣][٤] ، والشيطان علىٰ قُلَّة[٥] الجبل . يحذر الناس من صعوده[٦] وارتقائه[٧] ، ويخوفهم منه . فيتفق مشقة ذلك الجبل[٨] ، وقعود ذلك المخوف علىٰ قُلَّتِه ، وضعف عزيمة السائر ونيته . فيتولد من ذلك ، الانقطاع والرجوع .

والمعصوم من عصمه الله .

وكلما[٩] رقىٰ السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع، وتحذيره وتخويفه. فإذا قطعه وبلغ قلَّته : فإذا[١٠] المخاوف كلهن أمان ، وحينئذ يسهل[١١] وتزول عنه عوارض الطريق ، ومشقة عقباتها[١٢] ، ويرىٰ طريقاً واسعاً آمنا[١٣] به[١٤] المنازل

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : فإن .

(٢) في ط : فيه .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : عقباته .

(٤) العقبة هي : المرقىٰ الصعب من الجبال . انظر : المعجم الوسيط ٦١٣ مادة : عقب .

(٥) في ط زيادة : ذلك .

(٦) في ق : صعوبته .

(٧) في ط ، ب ، غ ، د ، ق : وارتفاعه .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش : مشقة الصعود .

(٩) في ب : كلما .

(١٠) في ط والجميع سوىٰ ش : انقلبت تلك .

(١١) في ط زيادة : السير .

(١٢) في ط والجميع سوىٰ ش : عقباتها .

(١٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : يفضي .

(١٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : إلىٰ .

والمناهل ، وعليه الأعلام ، وفيه الإقامات ، نُزُلُ الرحمن[1] .

فبين العبد وبين السعادة والفلاح : قوة عزيمة ، وصبر ساعة ، وشجاعة نفس، وثبات[2] قلب. والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

فصل

وقوله[3] : «وَيعْمَىٰ عَن نُقصَانِ الخَلقِ عَن دَرَجَتِهِ» .

يعني: أنه - وإن كان أعلىٰ ممن[4] دونه من الناقصين عن درجته - إلا أنه[5] لاشتغاله بالله ، وامتلاء قلبه من محبته ومعرفته ، والإقبال عليه ، يشتغل[6] عن ملاحظة حال غيره ، وعن شهود النسبة بين حاله وأحوال الناس ويرىٰ اشتغاله بذلك والتفاته إليه نزولاً عن مقامه . وانحطاطاً عن درجته ، ورجوعاً علىٰ عقبه[7] . فإن هجم عليه ذلك - بغير استدعاء واختيار[8] - فليداوه بشهود المنة، وخوف المكر ، وعدم علمه بالعاقبة التي يوافي[9] عليها[10] . والله المستعان .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : قد أعدت لركب الرحمن .

(٢) في ح٢ ، م : ثبوت .

(٣) في ق : قوله .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : هو .

(٥) في غ ، ب : لأنه .

(٦) في ط زيادة : به .

(٧) في ط : عقبيه .

(٨) في م ، ح٢ : أو اختيار .

(٩) في ش : يتوفىٰ .

(١٠) في ح٢ ، م : إليها .

فصل

منزلة الزهد

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الزهد»[1] .

قال الله تعالىٰ : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل :٩٦] ، وقال : ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ[2] أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد :٢٠] ، وقال : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ[3] مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا

---

(١) الزهد في اللغة : ضد الرغبة . تقول زهد فيه ، وزهد عنه زهداً ، وزهادة : أعرض عنه وتركه .
انظر :مختار الصحاح ١١٧ ، المعجم الوسيط ٤٠٣ مادة زهد .
وهو عند الصوفية : إسقاط الرغبة في الشيء بالكلية؛ لأنهم لا يعدون مجرد الترك زهداً لاحتمال أن يترك الشيء بالجوارح ويتعلق به قلبه .
وهو درجات :
فهو للعامة : تنزه عن الشبهات بعد ترك الحرام .
ولأهل الإرادة : النزاهة عن الفضول بترك ما زاد عما تحصل به المسكة .
وخاصة الخاصة : إعراض عن كل ما سوىٰ الله من الأغراض .
انظر : لطائف الإعلام ١/ ٥١٠ ، التعرف ١٠٩ .

(٢) من قولهِ تعالىٰ: ﴿كمثل غيث﴾ إلىٰ قوله : ﴿ومغفرة من الله ورضواناً﴾ ساقط من: أ ، ب، غ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش الآية كتبت إلىٰ هنا .

حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس :٢٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف :٤٥-٤٦] ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء :٧٧] ، وقال : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلىٰ :١٦-١٧] ، وقال : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾[1] [طه :١٣١] ، وقال : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف :٧ ، ٨] ، وقال : ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف : ٣٣-٣٥] .

والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا ، والإخبار بخسّتها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها . والترغيب في الآخرة ، والإخبار بشرفها ودوامها وسرعة إقبالها[2] ، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً أقام في قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا

(١) هذه الآية ساقطة من م .

(٢) «وسرعة إقبالها» ساقط من ط ، ب ، غ ، أ .

والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أولىٰ بالإيثار .

وقد أكثر الناس في[1] الكلام في «الزهد» وكل أشار إلىٰ ذوقه، ونطق عن[2] حاله وشاهده . فإن غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم . والكلام بلسان العلم : أوسع من الكلام بلسان الذوق، وأقرب إلىٰ الحجة والبرهان .

تعريف الزهد

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه- يقول : الزهد ترك مالا ينفع في الآخرة، والورع : ترك ما تخاف[3] ضرره في الآخرة[4] .

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في «الزهد، والورع» وأجمعها .

وقال سفيان الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل . ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء[5] .

وقال الجنيد : سمعت سرياً[6] يقول : إن الله تعالىٰ سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده . لأنه لم يرضها لهم[7] .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش، ح١ : من .

(٢) «عن» ساقطة من د .

(٣) في ش، ح٢ : يخاف .

(٤) انظر : التحفة العراقية ٣٢٠ .

(٥) انظر : القشيرية ١١٥، وحلية الأولياء ٦/ ٣٨٦ .

(٦) أبوالحسن سرِي بن المُغَلِّس السقطي البغدادي من أئمة الصوفية، كان إمام البغداديين وشيخهم في وقته، وهو خال الجنيد وأستاذه، صحب معروفاً الكرخي، وهو من أجل أصحابه . مات سنة ٢٥٣ هـ . ترجمته في : طبقات الصوفية ٤٨، حلية الأولياء ١٠/ ١١٦، السير ١٢/ ١٨٥ .

(٧) انظر : القشيرية ص١١٥ - ١١٦ .

وقال[١] : الزهد في قوله تعالىٰ : ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد :٢٣] [٢] . فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود ، ولا يأسف منها علىٰ مفقود[٣] .

وقال يحيىٰ بن معاذ : الزهد يورث السخاء بالملك ، والحب يورث السخاء بالروح [٤] . وقال ابن الجلاء[٥] : الزهد هو النظر إلىٰ الدنيا بعين الزوال ، لتصغر[٦] في عينيك[٧] ، فيسهل عليك الإعراض عنها[٨] . وقال ابن خفيف[٩] :

---

(١) (وقال) ساقطة من الأصل ، ش ، ق ، د ، غ ، ح١ ، وما أثبته من ط ، أ ، ب ، ح٢ ، م .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش الآية مكملة .

(٣) انظر : القشيرية ١١٦ .

(٤) انظر : القشيرية ١١٦ .

(٥) أبو عبد الله أحمد بن يحيىٰ ابن الجلاء البغدادي ، من أكابر مشائخ الصوفية في وقته ، كان يقال : إن في الدنيا ثلاثة من أئمة الصوفية لا رابع لهم ، الجنيد ببغداد ، وأبو عثمان بنيسابور ، وأبوعبدالله بن الجلاء بالشام . مات سنة ٣٠٦هـ . ترجمته في : طبقات الصوفية ١٧٦ ، حلية الأولياء ١٠/ ٣١٤ ، السير ١٤/ ٢٥١ .

(٦) في ط : فتصغر .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ح٢ ، ق : عينك .

(٨) انظر : القشيرية ١١٦ .

(٩) أبو عبدالله محمد بن خفيف الضبي الفارسي الشيرازي أحد مشاهير الصوفية ، كان شيخ أقليم فارسي ، وهو من أولاد الأمراء ، تزهد وسافر في سياحات كثيرة ، وصنف كتباً . مات سنة ٣٧١هـ .

ترجمته في : القشيرية ص٤٢٠ ، السير ١٦/ ٣٤٢ ، البداية والنهاية ١١/ ٣١٩ .

علامة[1] الزهد وجود الراحة في الخروج من الملك .

وقال أيضاً: الزهد سلو القلب عن الأسباب، ونفض الأيدي من الأملاك[2] .

وقيل : هو عزوف[3] القلب عن الدنيا بلا تكلف[4] .

وقال الجنيد : الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد[5] .

وقال الإمام أحمد: الزهد في الدنيا قصر الأمل[6] .

وعنه رواية ثانية[7] : أنه عدم فرحه بإقبالها ولاحزنه[8] علىٰ إدبارها . فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار ، هل يكون زاهداً؟ فقال : نعم علىٰ شريطة أن لا يفرح إذا زادت ، ولا يحزن إذا نقصت[9] .

وقال عبد الله بن المبارك : هو الثقة بالله مع حب الفقر[10] .

---

(١) «علامة» ساقطة من ط ، ب ، ح٢ ، أ ، م ، غ .

(٢) انظر : القولين في القشيرية ص١١٦ .

(٣) في ح٢ ، أ ، ب ، غ ، م ، ش : عزوب .

(٤) انظر : القشيرية ١١٦ .

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٦) في طبقات الحنابلة ١/ ٣٩ سئل الإمام أحمد عن الزهد في الدنيا فقال : قصر الأمل والإياس مما في أيدي الناس . انظر: القشيرية ١١٦ .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : أخرىٰ .

(٨) في الأصل والجميع : وحزنه ، وما أثبته من ط .

(٩) انظر : ٤١٩ .

(١٠) انظر : القشيرية ١١٧ .

وهذا قول شقيق [١]، ويوسف بن أسباط [٢] [٣].

وقال عبدالواحد بن زيد [٤]: ترك الدينار والدرهم [٥].

وقال أبوسليمان الداراني: ترك ما يشغل عن الله [٦]. وهو قول الشبلي.

وسأل رويم [٧] الجنيد عن الزهد؟ فقال: استصغار الدنيا، ومحو آثارها من القلب [٨]. وقال مرة [٩]: هو خلّو اليد عن الملك، والقلب عن [١٠] التتبع [١١] [١٢].

---

(١) أبو علي شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي زاهدٌ صوفي، كان من كبار المجاهدين، استشهد في غزوة كولان سنة ١٩٤هـ. قال الذهبي عنه: من كبار الزهاد، منكر الحديث.
ترجمته في: حلية الأولياء ٨/ ٥٨، السير ٩/ ٣١٣، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٧٩.

(٢) يوسف بن أسباط الشيباني الزاهد الورع، له مواعظ وحكم. وثقه ابن معين، وقال أبو حاتم: لا يحتج به، وقال البخاري: دفن كتبه فكان حديثه يجيء كما لا ينبغي.
ترجمته في: التاريخ الكبير ٨/ ٣٨٥، حلية الأولياء ٨/ ٢٣٧، السير ٩/ ١٦٩.

(٣) انظر: القشيرية ١١٧.

(٤) انظر: القشيرية ١١٧.

(٥) في ط، ح٢، أ، غ، ق: الزهد: الزهد في الدنيا...

(٦) القشيرية ١١٧.

(٧) رويم بن أحمد وقيل: ابن محمد بن يزيد بن رويم بن يزيد البغدادي، أحد أئمة الصوفية، كان عالماً بالقرآن ومعانيه، تفقه على مذهب داود الظاهري. توفي سنة ٣٠٣هـ.
ترجمته في: طبقات الصوفية ص١٨٠، حلية الأولياء ١٠/ ٢٩٦، السير ١٤/ ٢٣٤.

(٨) انظر: القشيرية ١١٧.

(٩) في ح٢، م: مرة أخرى.

(١٠) في ح٢، م: من.

(١١) في م: التشيع.

(١٢) انظر: القشيرية ١١٧.

وقال يحيىٰ بن معاذ : لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتىٰ يكون فيه ثلاث[1] خصال : عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة .

وقال أيضاً : الزاهد يسعطك الخل والخردل ، والعارف يشمك المسك والعنبر[2] .

وقيل: حقيقة[3] الزهد هو : الزهد في النفس. وهذا قول ذي النون المصري[4] .

وقيل : الزهد[5] الإيثار عند الاستغناء ، والفتوة الإيثار عند الحاجة[6] . قال تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر :٩] .

وقال رجل ليحيىٰ بن معاذ : متىٰ أدخل حانوت التوكل ، وألبس رداء الزاهدين ، وأقعد معهم؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك إلىٰ حدٍ لو قطع الله الرزق عنك ثلاثة أيام لم تضعف نفسك . فأما ما لم تبلغ إلىٰ[7] هذه الدرجة فجلوسك علىٰ بساط الزاهدين جهل ، ثم لا آمن[8] أن تفتضح[9] .

---

(١) في الأصل : ثلاثة ، وما أثبته من الجميع وهو الصحيح .

(٢) القشيرية ١١٧ ، ١١٨ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : وقيل حقيقته هو الزهد في النفس .

(٤) انظر : القشيرية ١١٨ .

(٥) في ح٢ زيادة : هو .

(٦) هذا القول منسوب إلىٰ محمد بن الفضل الذي قال عن الزهد : إيثار الزهاد عند الاستغناء ، وإيثار الفتيان عند الحاجة ثم ذكر الآية . انظر : القشيرية ١١٨ .

(٧) «إلىٰ» ساقطة من أ ، ب .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : عليك .

(٩) انظر : القشيرية ١١٨ .

تعريف الإمام أحمد للزهد

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل : الزهد علىٰ ثلاثة أوجه :

[١] **ترك الحرام** ، وهو زهد العوام .

والثاني : **ترك الفضول من الحلال** ، وهو زهد الخواص .

والثالث : **ترك ما يشغل عن الله** ، وهو زهد العارفين[٢] .

وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي علىٰ جميع ما تقدم من كلام المشايخ - رضي الله عنهم - ، مع زيادة تفصيله وتَبْيين[٣] درجاته . وهو من أجمع[٤] الكلام . وهو يدل علىٰ أنه ـ رضي الله عنه ـ من هذا العلم بالمحل الأعلىٰ . وقد شهد له[٥] الشافعي ـ رحمه الله ـ بإمامته في ثمانية أشياء : «أحدها الزهد»[٦] .

والذي أجمع عليه العارفون : أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا ، وأخذه في منازل الآخرة . وعلىٰ هذا صنف المتقدمون كتب الزهد . كالزهد لعبد الله بن المبارك ، وللإمام أحمد ، ولوكيع[٧] ، ولهناد بن السري[٨] ، ولغيرهم .

---

(١) في ط زيادة : الأول .

(٢) انظر : القشيرية ١١٩ .

(٣) في ش : وترتيب .

(٤) في ب ، أ : جمع .

(٥) «له» ساقطة من ط .

(٦) أورد ذلك ابن أبي يعلىٰ في طبقات الحنابلة ١/ ٥ .

(٧) وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي ، الإمام الحافظ ، محدث العراق ، كان من بحور العلم ، عُرض عليه القضاء فامتنع ، وكان ذا عبادة . توفي سنة ١٩٧هـ .
ترجمته في : التاريخ الكبير ٨/ ١٧٩ ، حلية الأولياء ٨/ ٣٦٨ ، السير ٩/ ١٤٠ .

(٨) هناد بن السري بن مصعب التميمي الدارمي : الإمام الحجة ، المحدث الزاهد ، كان

ومتعلقه ستة أشياء ، لا يستحق العبد اسم «الزهد» حتىٰ يزهد فيها . وهي : المال ، والصور ، والرياسة ، والناس ، والنفس ، وكل ما دون الله .

وليس المراد رفضها من الملك . فقد كان سليمان وداود من أزهد أهل زمانهما ، ولهم من المال والنساء والملك[1] ما لهما . وكان نبينا ﷺ[2] أزهد البشر علىٰ الإطلاق ، وله تسع نسوة . وكان علي بن أبي طالب ، وعبدالرحمن ابن عوف ، والزبير[3] ، وعثمان[4] من الزهاد مع ما لهم من الأموال[5] .

شيخ الكوفة في عصره . ما تزوج ولا تسرىٰ ، وكان يقال له راهب الكوفة . توفي سنة ٢٤٣هـ .

ترجمته في: التاريخ الكبير ٨/ ٢٤٨، السير ١١/ ٤٦٥، شذرات الذهب ٢/ ٤٠ .

(١) في ط : من المال والملك والنساء .

(٢) في ط ، د زيادة : من .

(٣) أبوعبدالله الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي حواري رسول الله ﷺ وابن عمته صفية، وأحد العشرة المبشرون بالجنة ، وهو أول من سل سيفه في سبيل الله . قتل - رضي الله عنه - يوم وقعة الجمل سنة ٣٦هـ ، قتله ابن جرمز غيلة .

ترجمته في : حلية الأولياء ١/ ٨٩ ، السير ١/ ٤١ ، الإصابة ١/ ٥٢٦ .

(٤) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية القرشي ، ذو النورين ، أحد السابقين إلىٰ الإسلام ، ثالث الخلفاء الراشدين ، ومن العشرة المبشرين بالجنة ، كان في الجاهلية غنياً شريفاً ، وكان له في الإسلام أعمال عظيمة ونفقات كثيرة ، استشهد - رضي الله عنه - سنة ٣٥هـ .

ترجمته في : التاريخ الكبير ٦/ ٢٠٨ ، حلية الأولياء ١/ ٥٥ ، الإصابة ٢/ ٤٥٥ .

(٥) انظر : أسد الغابة ٣/ ٥٩٩ ، والطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٣/ ٥٦ ، والسير ١/ ٥٥-٥٧ ، ٧٦ ، ٨٠-٨١ ، ٩٢ .

وكان الحسن بن علي[1] - رضي الله عنهما - من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحاً لهن، وأغناهم[2]. وكان عبدالله بن المبارك من الأئمة الزهاد، مع مال كثير[3]. وكذلك الليث بن سعد[4] وسفيان[5] من أئمة الزهاد[6]. وكان له رأس مال يقول: لولا هو[7] لتمندل[8] بنا هؤلاء[9].

من أحسن ما قيل في الزهد

ومن أحسن ما قيل في الزهد، كلام الحسن أو غيره: ليس الزهد في الدنيا

---

(١) الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، سبط رسول الله ﷺ، أمير المؤمنين، صحب رسول الله ﷺ وحفظ عنه. هو وأخوه الحسين سيدا شباب أهل الجنة، مات - رضي الله عنه - سنة ٤٩هـ أو ٥٠هـ. ترجمته في: حلية الأولياء ٢/ ٣٥، السير ٣/ ٢٤٥، الإصابة ١/ ٣٢٨.

(٢) انظر: السير ٣/ ٢٦٧.

(٣) انظر: المرجع السابق ٨/ ٤٠٩.

(٤) أبو الحارث الليث بن سعد بن عبدالرحمن - الفهمي الإمام الحافظ، عالم الديار المصرية، كان فقيهاً مفتياً كثير العلم، صحيح الحديث، مع الورع والفضل والسيادة. توفي سنة ١٧٥هـ. ترجمته في: التاريخ الكبير ٧/ ٢٤٦، السير ٨/ ١٣٦، تهذيب التهذيب ٨/ ٤٥٩.

(٥) «وسفيان» ساقطة من ط.

(٦) انظر: السير ٨/ ١٤٨-١٤٩.

(٧) في م: هذا.

(٨) التمندل: التمسح. يقال: تمندلت بالمنديل أي: تمسحت به.

انظر: لسان العرب ١٤/ ٩٣ مادة: ندل.

(٩) انظر: الحلية ٦/ ٣٨١. ويعني بهم السلاطين ومن في حكمهم ممن يستذلون المرء بسبب المال.

بتحريم الحلال ، ولا [1] إضاعة المال ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة - إذا أصبت بها - أرغب منك فيها لو لم تصبك . فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه . وقد روي مرفوعاً [2] .



فصل

الخلاف في إمكانية الزهد في هذه الأزمنة

وقد اختلف الناس فى «الزهد» هل هو [3] ممكن في هذه الأزمنة؟

فقال أبو حفص [4] - رحمه الله - : الزهد لا يكون إلا في الحلال ، ولا [5] حلال في الدنيا ، فلا زهد [6] .

وخالفه الناس في هذا ، وقالوا : بل الحلال موجود فيها . وفيها الحرام كثيراً ، وعلىٰ تقدير : أن لا يكون فيها الحلال ، فهذا أدعىٰ إلىٰ الزهد فيها ،

---

(١) «ولا» ساقطة من : م ، ح٢ .

(٢) روي مرفوعاً عن أبي ذر - رضي الله عنه - . رواه الترمذي ٤/ ٥٧١ في كتاب الزهد ، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا (ح٢٣٤٠) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه... وعمرو بن واقد - أحد رجال السند - منكر الحديث . ، وابن ماجه ٢/ ١٣٧٣ في كتاب الزهد ، باب الزهد في الدنيا (ح٤١٠٠) . ضعفه الألباني . انظر : ضعيف سنن ابن ماجه ص٣٣٧ ح٨٩٣ ، ورواه الإمام أحمد في الزهد ص٢٥ موقوفاً علىٰ أبي مسلم الخولاني .

(٣) «هو» ساقطة من غ .

(٤) هو عمرو بن سالم الحداد . تقدمت ترجمته ص ١٣٠٤ .

(٥) في م : فلا

(٦) انظر : القشيرية ١١٧ .

وتناول ما يتناوله المضطر منها ، كتناوله للميتة والدم ولحم الخنزير[1][2] ثم اختلف هؤلاء في متعلق الزهد .

فقالت طائفة : الزهد إنما هو في الحلال؛ لأن ترك الحرام فريضة .

وقالت فرقة : بل الزهد لايكون إلا في الحرام . وأما الحلال : فنعمة من الله علىٰ عبده[3] ، والله يحب أن يرىٰ أثَرَ نعمتِه علىٰ عبده . فشكرهُ علىٰ نِعَمِه ، والاستعانةُ بها علىٰ طاعته ، واتخاذُها طريقاً إلىٰ جنّته : أفضل من الزهد فيها ، والتخلّي عنها ، ومجانبة أسبابها[4] .

والتحقيق : أنها إن شغلته عن الله ، فالزهد فيها أفضل . وإن لم تشغله[5] عن الله؛ بل كان شاكرا لله فيها ، فحاله أفضل . والزهد فيها تجرد[6] القلب عن

---

(١) قال وكيع - رحمه الله - : الدنيا عندنا حلال وحرام وشبهات ، فالحلال حساب ، والحرام عذاب ، والشبهات عتاب ، فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة ، خذ منها ما يقيمك ؛ فإن كانت حلالاً قد زهدت فيها ، وإن كانت حراماً كنت قد أخذت منها ما يقيمك؛ لأنه لا يحل لك من الميتة إلا قدر ما يقيمك ، وإن كانت شبهات كان فيها عتاب يسير . انظر : الحلية ٨/ ٣٧٠ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وقال يوسف بن أسباط : لو بلغني أن رجلاً بلغ في الزهد منزلة أبي ذر وأبي الدرداء وسلمان والمقداد ، وأشباههم من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ما قلت له زاهد؛ لأن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض . والحلال المحض لا يوجد في زماننا هذا . وأما الحرام فإن ارتكبته عذبك الله عز وجل .

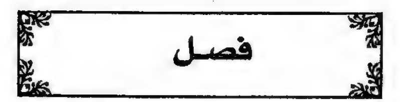
(٣) في ح٢ ، م : عباده .

(٤) انظر : بعض هذه الأقوال في القشيرية ص١١٥ ، ١١٦ ، وقوت القلوب ٣/ ١١١ وما بعدها .

(٥) في غ : تشغل .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : تجريد .

التعلق بها ، والطمأنينة إليها[1] .



فصل

تعريف الهروي للزهد

قال[2] صاحب المنازل - رحمه الله - : «الزُّهدُ : هُوَ إِسقَاطُ الرَّغبَةِ عَن الشَّيءِ بِالكُلِّيَّةِ»[3] .

يريد بالشيء المزهود فيه : ما سوىٰ الله تعالىٰ ، والإسقاط عنه : إزالة[4] تعلق الرغبة به[5] .

وقوله : «بالكلية» أي : بحيث لا يلتفت إليه ، ولا يتشوق إليه .

قال : «وَهُوَ للعَامَّة : قُرْبَةٌ . وَلِلمُرِيدِ : ضَرُورَةٌ . وَلِلخَاصَّةِ : خَشْيَةٌ»[6] .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق زيادة : والله أعلم .

(٢) في ق : وقال .

(٣) انظر : المنازل ٢٣ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : إزالته عن القلب وإسقاط تعلق . . .

(٥) في ش : فيه .

(٦) المنازل ٢٣ . لكن قال : «وللخاصة خسة» وابن القيم ـ رحمه الله ـ أثبتها «خشية» كما في نسخ المدارج ، ولعله اعتمد علىٰ نسخة أخرىٰ أثبتها خشية ، ولو قرأها «خسة» لاعترض عليه علىٰ عادته في تعقب مثل هذه العبارات عند الهروي .

انظر : المدارج ٣/ ١٥٤ .

وإذا أثبتنا لفظة المنازل «خسة» فهذا التعبير فيه ازدراء لمكانته ومنزلته في الدين ، وإن كان شراح المنازل ممن اعتمد هذا اللفظ ، فسرها بأن الزهد يدل علىٰ أن هناك مطالعة من الإنسان لشيء آخر غير الله ، ومن ثم زهد به ، فكان الأولىٰ أن لا يكون عنده

يعني : أن العامة تتقرب به إلىٰ الله تعالىٰ . و«القربة» ما تقرب[1] به المتقرب إلىٰ محبوبه .

وهو ضرورة للمريد؛ لأنه لا يحصل له التخلي بما هو بضدده ، إلا بإسقاط الرغبة فيما سوىٰ مطلوبه . فهو مضطر إلىٰ الزهد ، كضرورته إلىٰ الطعام والشراب . إذ التعلق[2] بسوىٰ مطلوبه لا يعدم منه حجاباً ، أو وقفة ، أو نكسة ، علىٰ حسب بُعْد ذلك الشيء من مطلوبه[3] ، وقوة تعلقه به وضعفه .

وإنما كان خشية للخاصة : لأنهم يخافون علىٰ ما حصل لهم من القرب والأنس بالله ، وقرة عيونهم به : أن يتكدر عليهم صفوه بالتفاتهم إلىٰ ما سوىٰ الله تعالىٰ فزهدهم خشية وخوف .

شيء يستحق الزهد .

انظر : شرح منازل السائرين للاسكندري ٤٧ .

ولعل مراد الهروي - حسب ما يذهب إليه - أن الزهد ليس من المقامات العليا التي يتصف بها الخاصة؛ لأن الدنيا في ذاتها هينة يسيره لا تستحق أن يزهد فيها؛ ولأن الاشتغال بها ، ولو بالزهد فيها يشغل عن الله ، ولهذا جعل الزهد من علل المقامات حيث جعله من مقامات العوام؛ لأن الزهد يتضمن تعظيمها ، ويخشىٰ علىٰ الزاهد انشغال الباطن بها ، علىٰ الرغم من الزهد الظاهر. انظر : كتاب شيخ الإسلام عبدالله الأنصاري الهروي لمحمد سعيد الأفغاني، ص٢٩١-٢٩٢ .

(١) في ط : ما يتقرب .

(٢) في ب ، غ ، أ : إذا تعلق .

(٣) «من مطلوبه» ساقط من د .

الدرجة الأولى من درجات الزهد

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : الزُّهدُ فِي الشُّبْهَةِ[1] . بَعدَ تَركِ الحَرَامِ بِالحَذَرِ مِن المَعْتَبَةِ ، وَالأَنَفَةِ مِنَ المنقَصَةِ ، وَكَرَاهَةِ مُشَارَكَةِ الفُسَّاقِ»[2] .

أما الزهد في الشبهة : فهو ترك ما يشتبه علىٰ العبد : هل هو حلال ، أو حرام؟ كما في حديث النعمان بن بشير[3] عن النبي ﷺ : «الحلال بيِّن . والحرام بيِّن . وبين ذلك أمور مشتبهات[4] لا يعلمهن كثير من الناس . فمن اتقىٰ الشبهات اتقىٰ الحرام . ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعىٰ حول الحمىٰ ، يوشك أن يرتع فيه . ألا وإن لكل ملك حمىٰ . ألا وإن حمىٰ الله محارمه . ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد . وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد . ألا وهي القلب»[5] .

---

(١) في م : الشبهات .

(٢) انظر : المنازل ٢٣ .

(٣) أبو عبد الله النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري الصحابي المشهور ، سكن الكوفة مدة ، وكان أميرها في عهد معاوية ، ثم خرج إلىٰ الشام ، وولي قضاء دمشق ، وقتل بحمص ، وكان عاملاً لابن الزبير علىٰ حمص سنة ٦٥هـ ، وقيل : قتل سنة ٦٦هـ .
ترجمته في : التاريخ الكبير ٨/ ٧٥ ، أسد الغابة ٤/ ٥٥٠ ، السير ٣/ ٤١١ ، تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٤٧ .

(٤) في الأصل وش «متشابهات» / وما أثبته من الجميع وهو الذي في الحديث .

(٥) رواه البخاري ١/ ١٢٦ في كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه (ح٥٢) ، ومسلم ٣/ ١٢١٩ ١٢٢٠ في كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ، (ح١٥٩٩) ، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٧٠) .

الشبهات برزخٌ بين الحلال والحرام

فالشبهات برزخ[1] بين الحلال والحرام . وقد جعل الله عز وجل بين كل متباينين برزخاً ، كما جعل الموت وما بعده برزخاً بين الدنيا والآخرة . وجعل المعاصي برزخاً بين الإيمان والكفر. وجعل الأعراف[2] برزخاً بين الجنة والنار.

وكذلك جعل بين كل مَشْعرَين من مشاعر المناسك برزخاً حاجزاً بينهما ليس من هذا ولا هذا[3] . فمُحسِّر[4] برزخ بين منىٰ ومزدلفة ، ليس من واحد

(١) البَرْزخ : الحاجز بين شيئين .
انظر : المعجم الوسيط ٤٩ ، مادة : (برزخ) .

(٢) الأعراف : جمع عُرْف وهو كل عالٍ مرتفع ، وعُرف الجبل ونحوه أعلاه ويطلق علىٰ السور .
انظر : لسان العرب ٩/ ١٥٦ ، والمعجم الوسيط ٥٩٥ مادة : (عرف) .
والمراد به في قول الله تعالىٰ : ﴿وبينهما حجاب وعلىٰ الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم﴾ الآية . [الأعراف : ٤٦] ، هو السور الذي بين الجنة والنار كما قال تعالىٰ : ﴿وضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . . . ﴾ الآية . [الحديد :١٣] . انظر : تفسير الطبري ٥/ ٤٩٧ ، وتفسير البغوي ٢/ ١٦٢ .

(٣) في ح٢ ، م : وهذا ، وفي ط : ولا من هذا .

(٤) مُحسِّر : بضم الميم وفتح الحاء وتشديد السين وكسرها : هو وادي المزدلفة ، وهو بينها وبين منىٰ . انظر : معجم البلدان ١/ ٣٣٥ . قال النووي - رحمه الله - : سمي بذلك لأن فيل أصحاب الفيل حسر فيه ، أي أعيا وكلَّ . انظر : شرح صحيح مسلم ٨/ ١٩٠ .
قلت : وكان من هديه ﷺ الإسراع في هذا الموضع كما في حديث جابر الطويل في وصف حجة النبي ﷺ . انظر : صحيح مسلم ٢/ ٨٨٦ ، كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ ح١٢١٨ ، وهذا إيذان منه ﷺ بأنه مكان عذاب .

منهما ، فلا يبيت به الحاج ليلة جمع ، ولا ليالي منىً . وبطن عرنة [١] ، برزخ بين عرفة وبين الحرم ، فليس من الحرم ولا من عرفة .

وكذلك ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس برزخ بين الليل والنهار ، فليس [٢] من الليل ، لتصرمه بطلوع الفجر ، ولا من النهار؛ لأنه من طلوع الشمس ، وإن دخل في اسم اليوم شرعاً .

وكذلك منازل السير : بين كل منزلتين منهما [٣] برزخ يعرفه السائر في تلك المنازل . وكثير من الأحوال والواردات تكون [٤] برازخ [٥] ، فيظنها صاحبها غاية . وهذا [٦] لم يتخلص منه إلا فقهاء الطريق [٧] ، والعلماء [٨] الأدلة فيها .

وقوله : «بَعدَ تَركِ الحَرَامِ» أي : ترك الشبهة لا يكون إلا بعد ترك الحرام .

قوله [٩] : «بِالحَذَرِ [١٠] مِن المَعتَبَةِ» يعني: أن يكون سبب تركه للشبهة : الحذر

---

(١) بطن عُرَنَة : وادٍ بحذاء عرفات كما قال الأزهري . وقال غيره : بطن عرنة مسجد عرفة ، والمسيل كله . انظر : معجم البلدان ٤/ ١٢٥ .

(٢) في ط : ليس ، وفي ح٢ ، م ، ب ، غ : وليس .

(٣) «منهما» ساقطة من ط ، أ ، غ ، ب .

(٤) في ش : يكون .

(٥) في أ ، غ ، ب ، م : برازخاً وهو خطأ .

(٦) في د : ولهذا .

(٧) في ب ، أ : الطريقة .

(٨) في أ ، ب ، ح٢ ، م ، د ، ق زيادة : هم ، وفي غ : وإن العلماء هم .

(٩) في ط ، ح٢ ، م : وقوله .

(١٠) في ش : بعد الحذر .

من توجه عتب الله عليه .

وقوله : «وَالأَنَفَةِ مِنَ النَّقِيصَةِ[١]» أي يأنف لنفسه من نقصه عند ربه ، وسقوطه من عينه[٢]، ولا أن أنفته من نقصه عند الناس، وسقوطه من عيونهم[٣]، وإن كان ذلك ليس مذموماً ، [بل هو][٤] محمود أيضاً . ولكن[٥] المذموم : أن تكون أنفته كلها من ذلك[٦][٧] .

وقوله : «وَكَرَاهَةُ مُشَارَكَةِ الفُسَّاقِ» يعني : أن الفساق يزدحمون على مواضع الرغبة في الدنيا ، ولتلك المواقف[٨]كظيظ[٩] من الزحام . فالزاهد يأنف من مشاركتهم في تلك المواقف. ويرفع نفسه عنها، لخسة شركائه فيها ، كما قيل لبعضهم : ما الذي زهدك في الدنيا؟ قال : قلةُ وفائها ، وكثرةُ جفائها ،

---

(١) في ط ، غ ، أ ، ب : المنقصة .

(٢) في ط ، ب ، غ ، أ : لا أنفته .

(٣) في ط ، أ ، ب ، غ : أعينهم .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وش ، وما أثبته من ط ، أ ، غ ، ب وفي د ، ح٢ ، م ، بل محموداً .

(٥) في ح٢ ، م : وإنما المذموم .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : من الناس .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة ولا يأنف من الله .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : بهم .

(٩) كَظَّ المسيل بالماء كظّاً : ضاق من كثرته ، وكظ الغيظ صدره : ملأه . واكتظَّ : امتلأ واشتد امتلاؤه ، يقال : اكتظ المكان بالناس ، واكتظَّ الوادي بالسيل ، واكتظَّ بطنه بالطعام . انظر : المعجم الوسيط ٧٨٩ مادة : كظَّ .

وخِسَّةُ شركائها[1] .

الدرجة الثانية من درجات الزهد

قـال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : الزُّهـدُ فِي الفُضُول . وَهِيَ[2] مَا زَادَ عَلَىٰ المُسْكَة[3] وَالبَلاَغِ مِنَ القُـوتِ ، بِاغِتنَام التَّفـرُّغ إِلَىٰ عَـمَارَةِ الوَقـتِ ، وَحَسمِ الجَـأشِ ، والتَّحَلي بِحليَةِ الأنبيَاءِ والصِّدِّيقينَ»[4] .

و«الفضول»[5] ما يفضل عن قدر الحاجة . و«المسكة» ما يمسك النفس من القوت والشراب ، واللباس والمسكن ، والمنكح إذا احتاج إليه . و«البلاغ» هو البلغة من ذلك ، الذي يتبلغ به[6] في منازل السفر كزاد[7] المسافر ، فيزهد فيما وراء ذلك ، اغتناما لتفرغه لعمارة وقته .

ولما كان الزهد لأهل الدرجة الأولىٰ : خوفاً من المعتبة ، وحذراً من المنقصة ، كان الزهد لأهل هذه الدرجة أعلىٰ وأرفع . وهو اغتنام الفراغ

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة أبيات هي :

إذا لم أترك الماء اتقـــاءً — تركتُ لكثرة الشركاء فيـه
إذا وقع الذباب علىٰ طعـام — رفعتُ يدي ونفسي تشتهيه
وتجنبتُ الأسود ورود مـاء — إذا كـان الكلاب يلغن فيه

(٢) في ط ، ح٢ ، ب ، أ ، م ، غ : وهو .

(٣) المُسْكَة : ما يتمسك به ، وما يمسك البدن من الطعام والشراب ، أو يبلغ به منهما . انظر : المعجم الوسيط ص٨٦٩٠ مادة : مسك .

(٤) انظر : المنازل ٢٣ .

(٥) في ط والجميع : الفضول .

(٦) في ط زيادة : المسافر .

(٧) في غ ، ب ، أ : كذا .

لعمارة أوقاتهم مع الله تعالىٰ؛ لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا ، فاته نصيبه من انتهاز فرصة الوقت . فالوقت سيف إن لم تقطعه [١] قطعك .

وعمارة الوقت : الاشتغال في جميع آنائه [٢] بما يقرب إلىٰ الله ، أو يعين علىٰ ذلك من مأكل ، أو مشرب ، أو منكح ، أو منام ، أو راحة . فإنه متىٰ أخذها بنية القوة علىٰ ما يحبه الله ، وتجنب ما يسخطه ، كانت من عمارة الوقت ، وإن كان له فيها أتم لذة ، فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات [٣] .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وإلا .

(٢) في ش : أيامه .

(٣) ذكر الغزالي - رحمه الله - أن ما تميل إليه النفس في الدنيا من الحظوظ والأغراض والشهوات ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما يصاحب الإنسان في الآخرة ، وتبقىٰ ثمرته بعد الموت. وهو العلم والعمل إذا كانا خالصين لله ، مقصوداً بهما وجهه سبحانه ، وهذان ليسا من الدنيا وإن حصلا فيها .

القسم الثاني : مقابل للقسم الأول وهو كل ما فيه حظ عاجل مما لا ثمرة له في الآخرة ، كالتلذذ بالمعاصي ونحوها مما يشغل الإنسان عن طاعة الله وعبادته ، وكالتلذذ بالمباحات الزائدة علىٰ قدر الحاجات .

القسم الثالث : وهو متوسط بين الطرفين ، وهو كل حظ في العاجل ، يعين علىٰ أمر الآخرة كقدر القوت من الطعام واللباس ، وكل ما لابد منه ليأتي للإنسان البقاء والصحة ، التي يتوصل بها إلىٰ العلم والعمل وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول؛ لأنه معين عليه ووسيلة إليه ، فإذا تناوله الإنسان قاصداً به الاستعانة علىٰ العلم والعمل ، لم يكن به متناولاً للدنيا ، ولم يصر به من أبناء الدنيا . وإن كان باعثه الحظ العاجل ، دون الاستعانة به علىٰ التقوىٰ ، التحق بالقسم الثاني وصار من الدنيا . انظر : الإحياء ٣/ ٢٨٣-٢٨٤ .

فالمحب الصادق ربما كان سيره القلبي في حال أكله وشربه ، وجماع أهله وراحته ، أقوىٰ من سيره البدني في بعض الأحيان .

وقد[1] حُكي عن بعضهم : أنه كان يرد عليه - وهو علىٰ بطن امرأته - حال لا يعهدها في غيرها .

ولهذا سبب صحيح . وهو اجتماع قوىٰ النفس[2] ، وعدم التفاتها حينئذ إلىٰ شيء ، مع ما يحصل لها من السرور والفرح واللذة[3] . والسرور يذكر بالسرور ، واللذة تذكر باللذة . فتنهض الروح من تلك الفرحة واللذة إلىٰ ما لا نسبة بينها وبينها بتلك الجمعية ، والقوة والنشاط ، وقطع أسباب الالتفات ، فيورثه ذلك حالا عجيبة .

ولا تعجل بالإنكار . وانظر إلىٰ قلبك عند هجوم أعظم محبوب له عليه[4] في هذه الحال ، كيف تراه؟ فهكذا حال غيرك .

ولا ريب أن النفس إذا نالت حظًا صالحًا من الدنيا قَوِيتْ به وسرت ، واستجمعت قواها وجمعيتها ، . وزال تشتُّتُها .

اللهم غفراً[5] . فقد طغىٰ القلم . وزاد الكلم ، فعياذا بك[6] من مقتك .

---

(١) «وقد» ساقطة من د .

(٢) في ح٢ : قوة النفوس .

(٣) «واللذة» ساقطة من ط .

(٤) «عليه» ساقطة من ق .

(٥) في ط ، أ ، ب ، غ : اغفر .

(٦) في ط ، ق ، أ ، م ، غ ، د زيادة : اللهم .

وأما «حَسمُ الجَأْشِ» فهو [١] اضطراب القلب ، بالتعلق [٢] بأسباب الدنيا ، رغبة ورهبة ، وحباً وبغضاً وسعياً . فلا يصح الزهد للعبد حتىٰ يقطع هذا الاضطراب من قلبه . بأن لا يلتفت إليها ، ولا يتعلق بها في حالتي مباشرته لها وتركه . فإن الزهد زهد القلب ، لا زهد [٣] الترك من اليد [٤] . فهو تخلي القلب عنها ، لا خلو اليد منها .

وأما « التحلي بحلية الأنبياء والصِّدِّيقين » فإنهم أهل الزهد في الدنيا حقاً ، إذ هم مشمرون [٥] إلى علم قد رفع لهم غيرها، فهم فيها [٦] زاهدن، وإن كانوا لها مباشرين .

فصل

الدرجة الثالثة من درجات الزهد

قال [٧] : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : الزُّهدُ فِي الزُّهد . وَهُوَ بِثَلاَثَة أَشْيَاءَ : بِاسْتِحقَارِ [٨] مَا زَهِدْتَ فِيهِ . واستِوَاءِ الحَالاَتِ فِيهِ عِندَكَ [٩] . وَالذَّهَابِ عَنِ [١٠] شُهُودِ الاكتِسَابِ ،

(١) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : قطع .

(٢) في ط : المتعلق .

(٣) في ش : لا هذا .

(٤) في ط ، أ ، ب ، ح٢ ، م زيادة : وسائر الأعضاء .

(٥) في م ، ح٢ : المشمرون .

(٦) «فيها» ساقطة من ط .

(٧) «قال» ساقطة من د .

(٨) في ط ، أ ، ب : استحقار .

(٩) «عندك» ساقطة من م .

(١٠) في : أ ، ب ، غ ، م : عند .

ناظِراً إِلىٰ وَادِي الحَقَائِقِ»[١] .

وقد فسر الشيخ مراده بالزهد في الزهد بثلاثة أشياء :

أحدها : احتقاره ما زهد فيه . فإنَّ مَن امتلأ قلبُه بمحبة[٢] الله وتعظيمه ، لا يرىٰ[٣] أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق[٤] أن يجعل قرباناً؛ لأن[٥] الدنيا بحذافيرها لا تساوي عند الله جناح بعوضة . فالعارف لا يرىٰ زهده فيها كبير أمر يعتد به ، ويحتفل[٦] به[٧] ، فيستحي من صح له الزهد أن يجعل لما تركه لله[٨] قدراً يلاحظ زهده فيه؛ بل يفنىٰ عن زهده فيه كما فنىٰ عنه . ويستحي من ذكره بلسانه ، وشهوده بقلبه .

وأما استواء الحالات فيه عنده[٩] : فهو أن يرىٰ أن[١٠] ترك ما زهد فيه وأخذه متساويان عنده؛ إذ ليس له عنده قدر ، وهذا من دقائق فقه الزهد . فيكون زاهداً

---

(١) انظر : المنازل ٢٤ .

(٢) في ش : محبة .

(٣) «لا يرىٰ» ساقطة من د .

(٤) «يستحق» ساقطة من ق .

(٥) في د ، ق : ليس .

(٦) في ق : ويحتقر .

(٧) «به» ساقطة من ب ، وفي ط : له .

(٨) «لله» ساقطة من م ، ح٢ .

(٩) «عنده» ساقطة من ش .

(١٠) «أن» ساقطة من ط ، ب ، أ ، غ .

في حال أخذه ، كما هو زاهد في حال تركه ، إذ همته أعلىٰ من[1] ملاحظته أخذاً وتركاً ، لصغره في عينه .

وأما «الذَّهَابُ عنَ شُهُودِ الاكتِسَابِ» فمعناه : أن من استصغر الدنيا بقلبه ، واستوت الحالات في أخذها وتركها عنده : لم ير أنه اكتسب بتركها عند الله درجة البتة؛ لأنها أصغر في عينه من أن يرىٰ أنه اكتسب بتركها الدرجات .

وفيه معنىٰ آخر : وهو أن يشاهد تفرد الله عز وجل بالعطاء والمنع . فلا[2] يرىٰ أنه ترك شيئاً ولا أخذ شيئاً . بل الله وحده هو المعطي المانع . فما أخذه فهو مجرىٰ لعطاء الله إياه ، كمجرىٰ الماء في النهر . وما تركه لله فالله هو الذي مَنَعَه مِنه . فيذهب بمشاهدة الفعال وحده عن شهود كسبه وتركه . فإذا نظر إلىٰ الأشياء بعين الجمع ، وسلك في وادي الحقيقة ، غاب عن شهود اكتسابه . وهو معنىٰ قوله : «نَاظِراً إلَىٰ وَادِي الحَقَائِقِ» وهذا أَلْيَقُ المعنيين بكلامه . فهذا زهد الخاصة . قال الشاعر :

إذا زهدتني في الهوىٰ خشية الردىٰ

جَلَت لي عن وجه[3] يُزهد في الزهد[4]

---

(١) في أ ، غ : عن .

(٢) في ح٢ : ولا .

(٣) في م : وجد .

(٤) البيت لأبي تمام . انظر : ديوانه بشرح الخطيب التبريزي ٢/ ٦٢ .



فصل

منزلة الورع

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الورع»[١] .

قال تعالىٰ[٢] : ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر : ٤] .

قال مجاهد وقتادة : نفسك فطهر من الذنب[٣] . فكنىٰ عن النفس بالثوب .

وهذا قول إبراهيم[٤]، والضحاك، والشعبي ، والزهري[٥][٦] ، والمحققين من

---

(١) الوَرَعُ في اللغة : التحرُّج والتوقِّي عن المحارم ، يقال: وَرَعَ يَرَعُ وَرْعاً ووَرَعاً ورِعَةً : تحرَّج وتوقَّىٰ عن المحارم ، ثم استعير للكف عن الحلال المباح . انظر : المعجم الوسيط ١٠٢٥ مادة : (ورع) .

والورع عند الصوفية : هو الاحتراز عن كل ما فيه شوب انحراف شرعي ، أو شبهة مضرة معنوية ، في كل ما يقوم به بصورة الإنسان الحسية ، أو المعنوية بحكم النشوة الدنيوية .

والورع يتضمن القناعة التي هي صورة التقوىٰ .

فورع الخاصة : الاحتراز عن كل داعية تدعو إلىٰ شتات الوقت ، والتعلق بالتفرق ، وعارض يعارض حال الجميع .

انظر : لطائف الإعلام ٢/ ٣٨٨ ، القشيرية ١٠٩ ، المعجم الصوفي ٢٥٩ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة آية وهو قوله تعالىٰ : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ [المؤمنون : ٥١] .

(٣) في أ ، ش ، ب : الذنوب .

(٤) في ط زيادة : النخعي .

(٥) في م : الأزهري .

(٦) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب الزهري تابعي من أهل المدينة ، أحد كبار الحفاظ والفقهاء ، وأول من دون الحديث . توفي سنة ١٢٤هـ .

ترجمته في : السير ٥/ ٣٢٦ ، البداية والنهاية ٩/ ٣٥٤ ، تهذيب التهذيب ٩/ ٤٤٥ .

أهل التفسير[١] . قال ابن عباس : لا تلبسها علىٰ معصية ولا غدر . ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي[٢] :

وإني بحمد الله لا ثوب غادر لبست ولا من غدرة أتقنَّعُ[٣]

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء : طاهر الثياب . وتقول للغادر والفاجر : دَنِس الثياب[٤] . وقال أبي بن كعب[٥] - رضي الله عنه - : لا تلبسها علىٰ غدر ولا ظلم ولا إثم[٦][٧] . البسها وأنت بر طاهر[٨] .

وقال الضحاك : عملك فأصلح . قال السدي : يقال للرجل ، إذا كان

---

(١) انظر : تفسير الطبري ١٢/ ٢٩٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤١٣ .

(٢) غيلان بن سلمة الثقفي ، أحد وجوه ثقيف ومقدمهم ، شاعر جاهلي ، أدرك الإسلام وأسلم بعد فتح الطائف ، كان تحته عشر نسوة في الجاهلية ، فأمره النبي ﷺ أن يتخيَّر منهن أربعاً ، توفىٰ في آخر خلافة عمر . ترجمته في : أسد الغابة ٤/ ٤٣ ، الإصابة ٣/ ١٨٦ ، الأعلام ٥/ ١٢٤ .

(٣) انظر : تفسير الطبري والإصابة ٣/ ١٨٨ ، والتذكرة الحمدونية لابن حمدون ٥٠٩ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١٢/ ٢٩٨ - ٢٩٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤١٣ .

(٥) أبو المنذر أبي بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصاري الخزرجي سيد القراء ، من فضلاء الصحابة ، شهد بدراً والمشاهد كلها ، ويُعد من أصحاب الفتيا ، وقد سماه عمر - رضي الله عنه - : سيد المسلمين ، توفي - رضي الله عنه - سنة ١٩هـ وقيل: ٣٠هـ .

ترجمته في : حلية الأولياء ١/ ٢٥٠ ، السير ١/ ٣٨٩ ، الإصابة ١/ ٣١ .

(٦) في ط ، أ ، ب ، غ : علىٰ الغدر والظلم والإثم .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : ولكن .

(٨) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٤١٣ .

صالحاً : إنه لطاهر الثياب . وإذا كان فاجراً : إنه لخبيث الثياب . وقال سعيد ابن جبير: وقلبك ونيتك[١] فطهر. وقال الحسن والقرظي[٢] : وخلقك فحسن .

وقال ابن سيرين[٣] وابن زيد[٤] : أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها؛ لأن المشركين كانوا لا يتطهرون ، ولا يطهرون ثيابهم . وقال طاوس : وثيابك فقصّر ، لأن تقصير[٥] الثياب طهرة لها[٦] . والقول الأول: أصح الأقوال . ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به ، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق؛ لأن نجاسة الظاهر تورث

---

(١) في ط ، غ ، أ ، ب : بيتك .

(٢) هو : محمد بن كعب بن سليم القرظي المدني - أبو حمزة وقيل أبو عبدالله - من حلفاء الأوس ، وكان أبوه كعب من سبي بني قريظة ، الإمام العلامة ، كان ثقة عالماً ورعاً كثير الحديث ، لكنه يرسل كثيراً ، فهو يروي عمن لم يلقهم ، توفي سنة ١٠٨ هـ .
ترجمته في : حلية الأولياء ٣/ ٢١٢ ، السير ٥/ ٦٥ ، البداية والنهاية ٩/ ٢٦٨ .

(٣) أبو بكر محمد بن سيرين الأنصاري مولىٰ أنس بن مالك ، الإمام شيخ الإسلام ، كان من أعلم أهل البصرة بالقضاء ، وكان ذا ورع وعبادة . توفي سنة ١١٠هـ .
ترجمته في : التاريخ الكبير ١/ ٩٠ ، السير ٤/ ٦٠٦ ، تهذيب التهذيب ٩/ ٢١٤ .

(٤) هو : عبدالرحمن بن زيد بن أسلم العُمري المدني ، حدث عن أبيه وابن المنكدر وفيه لين ، كان صاحب قرآن وتفسير ، له كتاب في تفسير القرآن ، وكتاب في الناسخ والمنسوخ . توفي سنة ١٨٢هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٥/ ٢٨٤ ، السير ٨/ ٣٤٩ ، معجم المؤلفين ٥/ ١٣٨ .

(٥) في غ : قصرة .

(٦) انظر : أقوالهم في تفسير الطبري ١٢/ ٢٩٩ - ٣٠٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤١٣ ، وتفسير القرطبي ١٩/ ٦٢-٦٦ .

نجاسة الباطن . ولذلك أُمر القائم بين يدي الله بإزالتها والبعد عنها .

والمقصود : أن الورع يطهر دنس القلب ونجاسته ، كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته . وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة ، ولذلك تدل ثياب المرء في المنام علىٰ قلبه وحاله ، ويؤثر كل منهما في الآخر . ولهذا نهىٰ عن لباس الحرير والذهب ، وجلود السباع [1] ، لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع . وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي ، يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها ، وبهجتها وكسفتها ، حتىٰ إن ثوب البر ليعرف من ثوب الفاجر ، وليسا عليهما [2] .

وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة . فقال : «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» [3] ، فهذا يعم الترك لما لا يعني : من الكلام ، والنظر ، والاستماع ، والبطش ، والمشي ، والفكر ، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة .

---

(١) كما في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده ٤/ ١٣٢ عن المقدام بن يعدي كرب قال : «**نهىٰ رسول الله ﷺ عن الحرير والذهب وعن ميائر النمور**» ورواه النسائي في سننه ٧/ ١٧٦ ح٤٢٥٤ ، وأبو داود مطولاً ٤/ ٣٧٣ في كتاب اللباس ، باب في جلود السباع والنمور ، (ح٤١٣١) . وصححه الألباني : انظر : صحيح سنن أبي داود ٢/ ٧٧٨ (ح٣٤٧٩) .

(٢) في أ : عليها .

(٣) رواه أحمد في مسنده ١/ ٢٠١ ، والترمذي ٤/ ٥٥٨ في كتاب الزهد ، باب (١١) (ح٢٣١٧) وقال : حديث غريب لا نعرفه من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه ، ورواه ابن ماجه ٢/ ١٣١٥ - ١٣١٦ في كتاب الفتن ، باب كف اللسان في الفتنة (ح٣٩٧٦) . وصححه الألباني . انظر : صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٦٠ (ح٣٢١١) .

فهذه الكلمة[١] شافية في الورع .

قال[٢] إبراهيم[٣] بن أدهم[٤] : « الورع ترك كل شبهة . وترك ما لا يعنيك ، هو ترك الفضلات »[٥] . وفي الترمذي مرفوعا إلىٰ النبي ﷺ : «يا أبا هريرة كن ورعاً ، تكن أعبد الناس»[٦] .

تعريف الورع

قال الشبلي ـ رحمه الله ـ : « الورع أن تتورع[٧] عن كل ما سوىٰ الله »[٨] .

وقال إسحاق بن خلف[٩] : الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة .

---

(١) في ط زيادة : كافية .

(٢) «قال» ساقطة من ق .

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد التميمي البلخي أحد مشاهير العباد ، وأكابر الزهاد ، كانت له همة عالية في ذلك ، وكان شديد الورع كثير التحري في طلب الحلال ، صحب سفيان الثوري ، والفضيل بن عياض بمكة . توفي سنة ١٦١هـ .

ترجمته في : طبقات الصوفية ٢٧ ، حلية الأولياء ٧/ ٣٦٧ ، السير ٧/ ٣٨٧ .

(٤) في ق : آدم .

(٥) انظر : القشيرية ١١٠ .

(٦) رواه الترمذي ٤/ ٥٥١ في كتاب الزهد ، باب من اتقىٰ المحارم فهو أعبد الناس ، (ح٢٣٠٥) بلفظ : «يا أبا هريرة اتق المحارم تكن أعبد الناس» وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان ، والحسن لم يسمع من أبي هريرة شيئاً ، ورواه ابن ماجه – وهو باللفظ الذي ذكره ابن القيم – ٢/ ١٤١٠ في كتاب الزهد ، باب الورع والتقىٰ (ح٤٢١٧) . وصححه الألباني . انظر : صحيح ابن ماجه ٢/ ٤١٢ (ح٣٣٩٨) .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش :يتورع .

(٨) انظر : القشيرية ١١٠ .

(٩) إسحاق بن خلف الزاهد ، صاحب الحسن بن صالح روىٰ عن حفص بن غياث ، وروىٰ عنه أحمد بن الحواري . ترجمته في : الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي ٢/ ٢١٩ .

والزهد في الرياسة : « أشد منه في الذهب والفضة؛ لأنهما يبذلان في طلب الرياسة »[١] .

وقال أبو سليمان الداراني : «الورع أول الزهد ، كما أن القناعة أول الرضا»[٢] .

وقال يحيىٰ بن معاذ : « الورع الوقوف علىٰ حد العلم من غير تأويل» .

وقال : « الورع علىٰ وجهين : ورع في[٣] الظاهر[٤] : أن لا يتحرك إلا لله ، وورع في[٥] الباطن : وهو[٦] أن لا يَدخُل[٧] قلبَك سواه» .

وقال : « من لم ينظر في الدقيق من الورع ، لم يصل إلىٰ الجليل من العطاء»[٨][٩] .

وقيل : « من دق في الدين[١٠] ورعه[١١] ، جلَّ في القيامة خطره»[١٢] .

---

(١) انظر : القشيرية ١١٠ .

(٢) القشيرية ١١٠ .

(٣) «في» ساقطة من د .

(٤) في ط ، أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ق زيادة : وورع في الباطن ، فورع الظاهر .

(٥) «في» ساقطة من ط ، د ، ق .

(٦) في ط : هو .

(٧) في ط ، غ ، ب ، أ ، م ، ق : تدخل .

(٨) انظر : القشيرية ١١٠-١١١ .

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وقيل: الورع الخروج من الشهوات ، وترك السيئات .

(١٠) في ط ، أ ، غ ، ب : الدنيا .

(١١) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : أو نظره .

(١٢) انظر : القشيرية ١١١ .

وقال يونس بن عبيد[١] : «الورع الخروج من كل شبهة ، ومحاسبة النفس مع[٢] كل طرفة »[٣][٤] .

وقال سفيان الثوري: «ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك تركته»[٥][٦] .

وقال سهل : «الحلال [٧] الذي لا يُعصىٰ الله فيه ، والصافي منه[٨] الذي لا ينسىٰ الله فيه[٩] . وسأل الحسن غلاماً . فقال[١٠] : «ما ملاك [الدين؟ قال:][١١] الورع . قال : فما آفتة؟ قال : الطمع . فعجب الحسن منه » [١٢] .

وقال الحسن - رضي الله عنه - : «مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال

---

(١) أبو عبد الله يونس بن عبيد بن دينار العبدي مولاهم البصري ، الإمام ، القدوة ، الحجة من صغار التابعين وفضلائهم . حدث عن الحسن ، وابن سيرين ، وعطاء ، وغيرهم . توفي سنة ١٣٩هـ . ترجمته في حلية الأولياء ٣/ ١٥ ، السير ٦/ ٢٨٨ ، تهذيب التهذيب ١١/ ٤٤٢ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : في .

(٣) في ط ، أ ، ب ، غ زيادة : عين .

(٤) انظر : القشيرية ١١١ .

(٥) في ط ، ب ، غ ، أ : فاتركه .

(٦) انظر : القشيرية ١١١ .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : هو .

(٨) في د ، ق زيادة : هو .

(٩) القشيرية ١١١ .

(١٠) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : له .

(١١) ما بين المعقوفين ساقط من : د .

(١٢) انظر : القشيرية ص١١١ .

من الصوم والصلاة »[١] .

وقال أبو هريرة - رضي الله عنه - : «جلساء الله غداً أهل الورع والزهد»[٢] .

وقال بعض السلف : «**لا يبلغ العبد حقيقة التقوىٰ حتىٰ يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس**[٣]»[٤] .

وقال بعض الصحابة - رضي الله عنهم - : « كنا ندع سبعين باباً من الحلال، مخافة أن نقع في باب من الحرام »[٥] .



فصل

تعريف الهروي للورع

قال صاحب المنازل رحمه الله :

«**الوَرَعُ : تَوَقٍّ مُسْتَقصىٰ عَلَىٰ حَذَرٍ ، وَتحَرُّجٌ[٦] عَلَىٰ تعظِيمٍ**»[٧] .

---

(١) انظر : المرجع السابق ص١١٢ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص١١٢ .

(٣) في ق : مما بأس به .

(٤) ليس هذا من قول أحد السلف ، وإنما هو حديث عن النبي ﷺ رواه الترمذي ٤/ ٦٣٤ في كتاب صفة القيامة ، باب (١٩) (ح٢٤٥١) وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، ورواه ابن ماجه ٢/ ١٤٠٩ في كتاب الزهد ، باب الورع والتقوىٰ ، (ح٤٢١٥) ، وذكره المنذري في الترغيب ٢/ ٥٥٩ وقال : رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد ، وذكره ابن حجر في الفتح ٤/ ٢٩٣ . وضعفه الألباني . انظر : غاية المرام ص١٣٠ (ح١٧٨) .

(٥) انظر : القشيرية ١١٠ ، وهو منسوب لأبي بكر - رضي الله عنه - .

(٦) في ق : أو تحرُّج .

(٧) انظر : المنازل ٢٤ وفيها «أو تحرج» .

يعني: أن يتوقىٰ الحرام والشبه، وما يخاف أن يضره؛ أقصىٰ ما يمكنه من التوقي. والتوقي[1] والحذر متقاربان، إلا أن «التوقي» فعل الجوارح، و«الحذر» فعل القلب. فقد يتوقىٰ العبد الشيء لا علىٰ وجه الحذر والخوف، ولكن لأمور أخرىٰ: من إظهار نزاهة، وعزة وتصون[2] أو أغراض[3] أخر، كتوقي الذين لا يؤمنون بمعاد، ولا جنة ولا نار، ما يتوقونه من الفواحش والدناءات[4] تصوناً عنها، ورغبة بنفوسهم عن مواقعتها، وطلباً للمحمدة، ونحو ذلك.

وقوله: «**أَو[5] تحَرُّجٌ عَلىٰ تَعظِيمٍ**» يعني أن الباعث علىٰ الورع عن المحارم والشبه، إما حذر حلول الوعيد، وإما تعظيم الرب جل جلاله، وإجلالاً له أن يتعرض لما نهىٰ عنه.

الورع[6] عن المعصية: إما لخوف[7]، أو تعظيم. واكتفىٰ بذكر التعظيم عن ذكر الحب الباعث علىٰ ترك معصية المحبوب، لأنه لا يكون إلا مع تعظيمه. وإلا فلو خلا القلب من تعظيمه، لم تستلزم محبته ترك مخالفته. كمحبة

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش: لأن التوقي.

(٢) في ط، أ، غ، ب: تصوف.

(٣) في ط، أ، غ، ب: اعتراض آخر.

(٤) في ط، أ، ب، م، ح٢: الدناءة.

(٥) في غ: وتحرج.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش: فالورع.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش: إما تخوف.

الإنسان ولده وعبده وأمته . فإذا قارنه التعظيم أوجب ترك المخالفة .

قال : «وَهُوَ آخِرُ مَقَامِ الزُّهدِ لِلعَامَّةِ ، وَأَوَّلُ مَقَامِ الزُّهدِ لِلمُرِيدِ» [١] .

يعني أن هذا التوقي والتحرج - بوصف الحذر والتعظيم - : هو نهاية لزهد العامة ، وبداية لزهد المريد . وإنما كان كذلك؛ لأن الورع - كما تقدم - هو أول الزهد ورديئه [٢] . وزهد المريد : فوق زهد العامة ، ونهاية العامة : هي بداية المريد . فنهاية مقام هذا، هي بداية مقام هذا. فإذا انتهىٰ ورع العامة صار زهداً، وهو أول ورع المريد .

درجات الورع
الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : تَجَنُّبُ القَبَائِحِ لِصَونِ النَّفْسِ ، وَتَوفِيرِ الحَسَنَاتِ ، وَصِيَانَةِ الإِيمَانِ» [٣] .

هذه ثلاث فوائد من فوائد تجنب القبائح .

توفير الحسنات من وجهين

أحدها [٤] : صون النفس . وهو حفظها وحمايتها عما يشينها ، ويعيبها ويزري بها عند الله وملائكته ، وعباده المؤمنين ، وسائر خلقه . فإن من كرمت عليه نفسه وكبرت عنده : صانها وحماها ، وزكاها وعلاها ، ووضعها في أعلىٰ المحال ، وزاحم بها أهل العزائم والكمالات . ومن هانت عليه نفسه وصغرت

---

(١) انظر : المنازل ٢٤ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : وركنه .

(٣) انظر : المنازل ٢٤ .

(٤) في ط : إحداها .

عنده ، ألقاها في الرذائل ، وأطلق شناقها[١] ، وحل زمامها[٢] ، ودساها[٣] ، ولم يصنها عن قبيح . فأقل ما في تجنب القبائح : صون النفس . وأما توفير الحسنات فمن وجهين :

أحدهما : توفير زمانه على اكتساب[٤] الحسنات . فإذا اشتغل بالقبائح ، نقصت عليه الحسنات التي[٥] كان مستعداً[٦] لتحصيلها .

والثاني : توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها ، بموازنة السيئات أو حبوطها[٧] ، كما تقدم في منزلة التوبة : أن السيئات قد تحبط الحسنات ، وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها . فلا بد أن تضعفها قطعاً[٨] ، فتجنبها يوفر[٩] ديوان الحسنات . وذلك بمنزلة من له مال حاصل . واستدان[١٠] عليه ، فإمّا أن

---

(١) الشِّناقُ : الحبل أو السير يشدُّ به الشيء ويعلق . انظر المعجم الوسيط ٤٩٦ مادة : (شنق) .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وأرخاه .

(٣) دسا ، دَسْوَةً : نقص وصغر ، ضد زكا . ودسا الرجل : استخفىٰ واستتر ، ودَسَّىٰ نفسه : أغواها وأفسدها ، وأخفاها وأخملها .

انظر : المعجم الوسيط ٢٨٤ ، مادة : دسا .

(٤) في ح٢ : اكتسابه .

(٥) في ق : إن .

(٦) في ق : مستوراً .

(٧) في ط ، غ ، أ ، ب ، ح٢ ، م : وحوطها .

(٨) انظر : المدارج ١/ ٢٧٧-٢٧٩ .

(٩) في الجميع سوىٰ ش ط : توفير .

(١٠) في ط ، غ ، ب ، أ : فإذا استدان .

يستغرقه الدين أو أكثره [١] أو ينقصه ، فهكذا الحسنات والسيئات [٢] .

وأما «صيانة الإيمان» فلأن الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[٣] . وقد حكاه الشافعي وغيره عن الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم[٤] . وإضعاف المعاصي للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود ، فإن العبد

---

(١) في ط : أو يكثره .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : سواء .

(٣) كما دلت علىٰ ذلك نصوص الكتاب والسنة قال تعالىٰ : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً . . . ﴾ [الأنفال :٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [آل عمران :١٧٣] .

وقال ﷺ : «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» رواه أحمد في مسنده ٢/ ٢٥٠ ، وأبو داود في سننه ٥/ ٦٠ في كتاب السنة ، باب الدليل علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه ، (ح٤٦٨٢) ، والترمذي في سننه ٣/ ٤٥٧ ، في كتاب الرضاع ، باب ما جاء في حق المرأة علىٰ زوجها ، (ح١١٦٢) ، وقال : حديث حسن صحيح .

وقوله ﷺ :«من رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم ١/ ٦٩ في كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ، (ح٤٩) .

(٤) انظر : السنة لعبدالله بن الإمام أحمد ١/ ٣١٤ وما بعدها والشريعة للآجري ١١١ وما بعدها . وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٥/ ٨٩٠ وما بعدها .

هذا وقد روىٰ اللالكائي بسنده عن البخاري أنه قال : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحداً منهم يختلف : في أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص .

انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ١٧٣ ، وانظر : فتح الباري ١/ ٤٧ .

وذكر ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ أن القول بزيادة الإيمان ونقصانه هو قول جماعة أهل الآثار

-كما جاء في الحديث- «إذا أذنب نكت[1] في قلبه نكتة سوداء . فإن تاب واستغفر صقل قلبه . وإن عاد فأذنب نكت فيه نكتة أخرىٰ ، حتىٰ تعلو قلبه . وذلك الران الذي قال الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين : ١٤]»[2] . فالقبائح تسود القلب ، وتطفىٰء نوره . والإيمان هو نور في القلب ، والقبائح تذهب به أو تقلله قطعاً .

فالحسنات تزيد نور القلب ، والسيئات تطفئ نور القلب . وقد أخبر تعالىٰ أن كسب القلوب ، سبب للران الذي يعلوها . وأخبر أنه أركس[3] المنافقين في

فقال : وأما سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر ، منهم مالك ابن أنس ، والليث بن سعد ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وداود بن علي ، وأبو جعفر الطبري ومن سلك سبيلهم ، فقالوا : الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي . انظر : التمهيد ٩/ ٢٤٣ .
وحكىٰ البغوي - رحمه الله - اتفاق الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم علىٰ أن الإيمان يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية . انظر : شرح السنة ١/ ٣٨-٣٩ .

(١) في د : نكتت .

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٢٩٧ ، والترمذي ٥/ ٤٣٤ في كتاب التفسير ، باب ومن سورة ويل للمطففين ، (ح٣٣٣٤) ، وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه ٢/ ١٤١٨ في كتاب الزهد ، باب ذكر الذنوب ، (ح٤٢٤٤) . والحاكم في المستدرك ١/ ٤٥ في كتاب الإيمان (ح٦) وقال : حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين ، وصححه الألباني . انظر : صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤١٧ (ح٣٤٢٢) .

(٣) الرَّكْسُ : قلب الشيء علىٰ رأسه ، أو ردُّ أوله علىٰ آخره ، يقال : أركسه في الشر ، وأركس الله العدو: رده إلىٰ الكفر. انظر : لسان العرب ٥/ ٣٠١ ، والمعجم الوسيط ٣٦٩ مادة : (ركس).

نفاقهم[١] بكسبهم[٢] فقال: ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ [النساء: ٨٨]، وأخبر أن نقض الميثاق الذي أخذه علىٰ عباده سبب لتقسية[٣] القلب. فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ [المائده: ١٣] فجعل ذنب النقض موجباً لشدة[٤] الآثار: من تقسية القلب، واللعنة، وتحريف الكلم، ونسيان العلم.

المعاصي للإيمان كالمرض والحمى للقوة

فالمعاصي للإيمان، كالمرض والحمىٰ للقوة، سواء بسواء. ولذلك قال السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمىٰ بريد الموت[٥].

فإيمان صاحب القبائح كقوة المريض علىٰ حسب قوة[٦] مرضه[٧] وضعفه.

وهذه الأمور الثلاثة - هي صون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان - هي[٨] أرفع من باعث العامة علىٰ الورع؛ لأن صاحبها أرفع همة، لأنه عامل علىٰ تزكية نفسه وصونها، وتأهيلها للوصول إلىٰ ربها. فهو يصونها عما

---

(١) «في نفاقهم» ساقط من ط والجمع سوىٰ ش.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: بما كسبوا.

(٣) في د: تقصية.

(٤) في ط والجميع: لهذه.

(٥) سبق في المشهد التاسع: مشهد زيادة الإيمان وشواهده ص١٠٩٣.

(٦) «قوة» ساقطة من: ش.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش: المرض.

(٨) في غ، ب: وهي.

يشينها عنده ، ويحجبه[١] عنها . ويصون حسناته عما يسقطها ويضعفها[٢] ، لأنه يسير بها إلىٰ ربه ، ويتطلب[٣] بها رضاه ، ويصون إيمانه بربه : من حبه له ، وتوحيده ومعرفته به ، ومراقبته إياه عما يطفئ نوره ، ويذهب بهجته ، ويوهي[٤] قوته .

قال الشيخ - رحمه الله - :

«وَهَـٰذِه الثَّلاثُ صِفَاتٍ[٥] : هِيَ فِي الدَّرَجَةِ الأُولَىٰ مِن وَرَعِ المُرِيدِينَ»[٦] .

يعني أن للمريدين درجتين أخريين[٧] من الورع فوق هذه . ثم ذكرهما فقال :

الدرجة الثانية

«الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : حِفظُ الحُدُودِ عِندَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ ، إِبقَاءً عَلَىٰ الصِّيَانَةِ وَالتَّقوَىٰ ، وَصُعُوداً عَنِ الدَّنَاءَةِ ، وَتخَلُّصاً عَن اقتِحَامِ الحُدُودِ»[٨] .

يقول : إن من صعد عن الدرجة الأولىٰ إلىٰ[٩] هذه الدرجة من الورع فهو[١٠]

---

(١) في ط ، أ ، غ ، ب ، ش : ويحجبها عنه .

(٢) في ط ، أ ، م ، ح٢ ، وفي غ ، ب: يضعها.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : ويطلب .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : ويوهن .

(٥) في ط : الصفات .

(٦) هذه العبارة ليست في كتاب المنازل المطبوع . انظر : المنازل ١٠٩٣ .

(٧) في ب ، د ، غ ، أ ، ح٢ : أخرتين .

(٨) انظر : المنازل ٢٤ .

(٩) في ش : من .

(١٠) «فهو» ساقطة من ط ، وفي أ ، ب ، ح٢ ، م ، غ ، ق : هو .

يترك كثيرا مما[1] لا بأس به من المباح ، إبقاء علىٰ صيانته وخوفاً عليها أن يتكدر صفوها ، ويطفأ نورها . فإن كثيراً من المباح يكدر صفو الصيانة ، ويذهب بهجتها ، ويطفئ نورها ، ويخلق حسنها وبهجتها .

وقال لي يوما شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في شيء من المباح : هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة أو نحو[2] هذا من الكلام .

فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاءً علىٰ صيانته ، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخاً بين الحلال والحرام . فإن بينهما برزخاً -كما تقدم- فتركه لصاحب هذه الدرجة[3] كالمتعين الذي لا بد منه لمنافاته لدرجته .

والفرق بين صاحب الدرجة الأولىٰ وصاحب هذه[4] : أن ذاك[5] يسعىٰ في تحصيل الصيانة . وهذا يسعىٰ في حفظ صفوها أن يتكدر ، ونورها[6] أن[7] يذهب ، وهو معنىٰ قوله : «إِبْقَاءً عَلَىٰ الصِّيَانَةِ» .

---

(١) في ق : فيهما .

(٢) في ش : أو نحوها ، وفي ب : أو نحواً من هذا .

(٣) في غ زيادة : الأولىٰ .

(٤) في أ زيادة : الدرجة .

(٥) في ط ، غ ، أ ، ب : ذلك .

(٦) في ش : تقررها .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : يُطفأ .

وأما الصعود عن الدناءة: فهو التَّرفُّع[1] عن طرقاتها وأفعالها.

و«أَمَّا التَّخَلُّصُ عَن اقتِحَامِ الحُدُودِ» فالحدود: هي النهايات. وهي مقاطع الحلال والحرام، فحيث ينقطع وينتهي فذلك حدُّه. فمن اقتحمه وقع في المعصية. وقد نهىٰ الله عن تعدي حدوده وعن[2] قربانها[3] فقال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقره: ١٨٧]. وقال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقره: ٢٢٩]، فإن الحدود يراد بها أواخر الحلال، [وأول الحرام. فحيث نهىٰ عن التعدي فالحدود هناك أواخر الحلال][4]، وحيث نهىٰ عن القربان فالحدود هناك: أوائل الحرام.

يقول سبحانه: لا تتعدوا ما أبحتُ لكم، ولا تقربوا ما حرمتُ عليكم. فالورع يخلص العبد من قربان هذه، وتعدي هذه. وهو اقتحام الحدود.

الدرجة الثالثة

وقال: «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: التَّوَرُّعُ عَن كُلِّ دَاعِيَةٍ تَدْعُو إِلَىٰ شَتَاتِ الوَقْتِ، وَالتَّعَلُّقِ بِالتَّفَرُّقِ، وَعَارِضٍ يُعَارِضُ حَالَ الجَمْعِ**»[5].

الفرق بين شتات الوقت، والتعلق بالتفرق: كالفرق بين السبب والمسبب. والنفي والإثبات. فإنه يتشتَّت وقته، فلا يجد بُدّاً من التعلق بما سوىٰ مطلوبه

---

(١) في ط، ق، ب، د، غ، أ: الرفع.

(٢) «عن» ساقطة من ط، غ، أ، ب.

(٣) في ط: وقربانه.

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من ط، أ، ب، غ، ح٢.

(٥) انظر: المنازل ٢٤.

الحق ، إذ لا تعطيل في النفس ولا في الإرادة . فمن لم يكن الله مراده ، أراد ما سواه . ومن لم يكن هو وحده معبوده ، عبد ما سواه . ومن لم يكن عمله لله ، فلا بد أن يعمل لغيره . وقد تقدم هذا .

فالمخلص يصونه الله بعبادته وحده ، وإرادة[1] وجهه وخشيته وحده ، ورجائه وحده ، والطلب منه ، والذل له ، والافتقار إليه[2] [عن عبادة غيره وإرادته ، وخشيته ورجائه ، والطلب منه ، والذل له ، والافتقار إليه][3] .

وإنما كان هذا أعلىٰ من الدرجة الثانية : لأن أربابها مشتغلون[4] بحفظ الصيانة من الكدر وملاحظتها . وذلك عند أهل الدرجة الثالثة ؛ تفرق عن الحق ، واشتغال عن مراقبته بحال نفوسهم . فأدب أهل هذه الدرجة[5] ، أدب حضور ، وأدب أولئك أدب غيبة .

وأما «الوَرَعُ عَن كُل حَالٍ يُعَارِضُ حَالَ الجَمْعِ» :

فمعناه : أن يستغرق العبد شهود فنائه في التوحيد ، وجمعيته علىٰ الله تعالىٰ فيه عن كل حال يعارض هذا الفناء والجمعية .

وهذا عند الشيخ لما كان هو الغاية التي ليس بعدها مطلب : جعل

---

(١) في د : وأراد توجهه .

(٢) في ط زيادة : وحده .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ط والجميع سوىٰ ش ، ق .

(٤) في ط ، غ ، أ ، ب ، ح٢ ، م : اشتغلوا .

(٥) «الدرجة» ساقطة من ط ، غ ، أ ، ب ، م ، ح٢ .

كل حال يعارضها ويقطع عنها ناقصاً بالنسبة إليها . فالرغبة عنه غير[١] ورع صاحبها . وقد عرفت ما فيه ، وأن فوق هذا مقام أرفع منه وأعلىٰ . وهو الورع عن كل حظ يزاحم مراده منك، ولو كان الحظ فناءً وجميعة[٢] ، أو كائنا ما كان. وبيَّنَّا أن «الفناء» و «الجمعية» حظ العبد ، وأن حق الرب وراء لك . وهو البقاء بمراده فرقاً وجمعاً به وله[٣] .

وعلىٰ هذا فالورع الخاص : الورع عن كل حال يعارض حال القيام بالأمر ، والبقاء به فرقاً وجمعاً . والله المستعان .

* * *

---

(١) في ق : عين .

(٢) في ق : أو جميعه .

(٣) انظر : المدارج ١/١٤٧-١٥٣ .

فصل

الخوف يثمر الورع والاستقامة

الخوف يثمر الورع والاستقامة[1] ، وقصر الأمل . وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد . والمعرفة تثمر المحبة[2] ، والخوف والرجاء . والقناعة تثمر الرضاء . والذكر يثمر حياة القلب . والإيمان بالقدر يثمر التوكل . ودوام تأمل الأسماء والصفات يثمر المعرفة . والورع يثمر الزهد أيضاً . والتوبة تثمر المحبة أيضاً ، ودوام الذكر يثمرها . والرضا يثمر الشكر . والعزيمة والصبر يثمران[3] جميع الأحوال والمقامات . والإخلاص والصدق كل منهما[4] يثمر الآخر ويقتضيه . والمعرفة تثمر حسن[5] الخلق . والفكر يثمر العزيمة . والمراقبة تثمر عمارة الوقت ، وحفظ الأيام والحياء ، والخشية والإنابة . وإماتة النفس وإذلالها وكسرها : يوجب حياة القلب وعزه[6] وجبره . ومعرفة النفس ومقتها يثمر[7] الحياء من الله تعالىٰ ، واستكثارَ ما مِنْه ، واستقلال ما منك من الطاعات .

---

(١) في ط ، غ ، أ ، د ، ح٢ ، م ، ق : والاستعانة .

(٢) «الخوف» ساقطة من ق .

(٣) في غ : يورثان .

(٤) في ق : منهم .

(٥) «حسن» ساقطة من ط ، أ ، غ ، ب .

(٦) في ب : وعزته .

(٧) في ط ، غ ، أ ، ب : يوجب ، وفي : ح٢ ، م : يورث .

ومحو أثر[١] الدعوىٰ من القلب واللسان وصحة البصيرة تثمر اليقين . وحسن التأمل لما ترىٰ وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة .

وملاك ذلك كله : أمران .

أحدهما : أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة ، ثم تقبل به كله علىٰ معاني القرآن واستجلائها[٢] وتدبرها . وفهم ما يراد منه[٣] ، وما نزل لأجله. وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، تنزيلها[٤] علىٰ أدواء[٥] قلبك .

فهذه طريق[٦] مختصرة قريبة سهلة . موصلة إلىٰ الرفيق الأعلىٰ . آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب[٧] ، ولا فيها آفة من آفات سائر الطرق[٨] البتة . وعليها من الله حارس وحافظ ، يكلأ السالكين فيها ويحميهم ، ويدفع عنهم . ولا يعرف قدر هذه[٩] الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها[١٠] وقطاعها . والله المستعان .

---

(١) في ب : آثار .

(٢) في الجميع سوىٰ ش ، ط : واستجلابها .

(٣) في أ ، ب : منها .

(٤) في ط ، أ ، ب ، غ : وتنزلها .

(٥) في ط ، أ ، ب ، غ : داء .

(٦) في : أ ، ب ، ق ، ح٢ ، م : طريقة .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : ولا جوع ولا عطش .

(٨) في أ ، ب ، غ : الطريق .

(٩) في د : هذا .

(١٠) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وآفاتها .

فصل

منزلة التبتل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «التبتل»[1].

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] و«التبتل» الانقطاع. وهو تفعُّل من البتل[2] وهو القطع[3]. وسميت مريم «البتول» لانقطاعها عن الأزواج، وعن[4] نظراء[5] زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفاً وفضلاً، وقطعت منهن. ومصدر «تبتل»[6] «تبتلا»[7] كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل - مصدر تفعل - لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكلف[8] والتعمل والتكثر والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على

تعريف التبتل

---

(١) التبتل عند الصوفية: هو الانقطاع إلى الله بالكلية وهو على ثلاث درجات:

الأولى: تبتل العامة وهو التجريد عن اللواحظ للناس.

الثانية: تبتل المريد وهو التجريد عن اللواحظ إلى ما تدعو إليه النفس.

الثالثة: تبتل الواصل وهو انقطاعه عما سوى الحق.

ومن معانيه عندهم: مجانبة الهوى، وشم الأنس، وشم الكيف.

انظر: لطائف الإعلام ١/ ٣٠٠، المعجم الصوفي ٤٧.

(٢) في ش، غ، أ: التبتل.

(٣) انظر: لسان العرب ١/ ٣١١، مادة: بتل.

(٤) في ط زيادة: أن يكون لها.

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة: من نساء.

(٦) في ط: بتَّل.

(٧) في أ، غ، ب زيادة: إليه.

(٨) في م، ح٢: التكليف.

أحدهما ، والمصدر[1] الدال علىٰ الآخر . فكأنه قيل : بتل[2] نفسك إليه[3] تبتيلاً ، [وتبتل أنت إليه[4] تبتلاً][5][6] ففهم المعنيان من الفعل ومصدره . وهذا كثير في القرآن ، وهو من أحسن الاختصار والإيجاز .

قال صاحب «المنازل» رحمه الله :

تعريف الهروي للتبتل

«التَّبَتُّلُ : الانقِطَاعُ إِلىٰ الله تَعَالىٰ بِالكُلِّيةِ . وَقَولُه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [الرعد : ١٤] أَي التَّجرِيدُ المحْضُ»[7] .

ومراده بالتجريد المحض : تجريد[8] التبتل عن ملاحظة الأعواض . بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الأجرة ، فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر ، بخلاف العبد . فإنه يخدم سيده[9] بمقتضىٰ عبوديته ، لا

---

(١) في ط : وبالمصدر .

(٢) في د : تبتل .

(٣) «إليه» ساقطة من غ ، وفي ط : إلى الله .

(٤) «أنت» ساقطة من ط .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من ش .

(٦) في ق : تبتيلاً .

(٧) انظر : المنازل ٢٥ ؛ لكن هنا يختلف عما في المنازل لأن الهروي قال : باب التبتل قال الله عز وجل : ﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾ [المزمل : ٨] ، التبتل الانقطاع بالكلية وقوله (إليه) دعوة إلى التجريد المحض . فابن القيم ذكر آية غير التي استدل بها الهروي ، وهذا يدل على أنه اعتمد نسخة أخرى للمنازل .

(٨) «تجريد» ساقطة من ط .

(٩) «سيده» ساقطة من ط .

للأجرة . فهو لا ينصرف عن بابه[١] إلا إذا كان آبقاً . والآبق قد خرج من شرف[٢] العبودية . ولم يحصل له إطلاق الحرية ، فصار بذلك موكوساً[٣][٤] عند سيده وعند عبيده . وغاية شرف النفس : دخولها تحت رق العبودية طوعاً واختياراً ومحبة ، لا كرهاً وقهراً . كما قيل :

شرفُ النفوس[٥] دخولها في رقهم والعبدُ يحوي الفخرَ بالتملك[٦][٧]

والذي حسن استشهاده بقوله : ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ في هذا الموضع : إرادة هذا المعنىٰ ، وأنه سبحانه صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته ، وإن لم يوجب لداعيه بها ثواباً . فإنه يستحقها لذاته . فهو أهل أن يعبد وحده ، ويدعىٰ وحده ، ويقصد ويشكر ويُحمد، ويُحب ويُرجىٰ ويُخاف ، ويُتوكَّلُ عليه ، ويُستعان به، ويُستجار به ، ويُلجأ إليه ، ويُصمد إليه . فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده . ومن قام بقلبه هذا - معرفة وذوقاً وحالاً - صح له مقام التبتل، والتجريد المحض.

تفسير السلف لدعوة الحق

وقد فسر السلف رضي الله عنهم «دعوة الحق» بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق ، ومرادهم : هذا المعنىٰ . فقال علي - رضي الله عنه - : «دعوة

---

(١) في ط ، أ : باب سيده .

(٢) في ق زيادة : رق .

(٣) في ط ، ب ، غ ، أ : مركوساً .

(٤) الوكس : النقص والغبن والخسران . انظر : المعجم الوسيط ١٠٥٤ ، مادة : (وكس) .

(٥) في د : النفس .

(٦) في ط والجميع سوى ش ، د : بالتمليك .

(٧) ذكره ابن رجب في اختيار الأولى في شرح أحاديث اختصام الملأ ص٣٤ ولم ينسبه لأحد .

الحق : التوحيد» .

وقال ابن عباس : «شهادة أن لا إله إلا الله» [١] . وقيل : الدعاء بالإخلاص ، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله [٢][٣] .

[ودعوة الحق[٤]] هي[٥] دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها .

درجات التبتل
الدرجة الأولى

قال : «**وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : تَجْرِيدُ الانقِطَاعِ عَنِ الحُظُوظِ وَاللُّحُوظِ إِلَىٰ العَالَمِ ، خَوفاً أَوْ رَجَاءً أَوْ مُبَالَاةً بِحَالٍ**» [٦] .

قلت : التبتل يجمع أمرين ، اتصالاً وانفصالاً لا يصح إلا بهما .

فالانفصال : انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه . وعن التفات قلبه إلىٰ ما سوىٰ الله ، خوفاً منه أو رغبة فيه ، أو مبالاة[٧] وفكراً[٨] فيه ، بحيث يشغل[٩] قلبه عن الله تعالىٰ .

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٧/ ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٢ .

(٢) في ش زيادة وحده .

(٣) انظر : تفسير البغوي ٣/ ١٢ .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من د .

(٥) «هي» ساقطة من الجميع ، ط سوى ش .

(٦) انظر : المنازل ٢٥ .

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة : به .

(٨) في ط والجميع سوى ش : أو فكراً .

(٩) في د ، م ، ح٢ : يشتغل .

والاتصال : لا يصح إلا[1] بعد هذا الانفصال . وهو اتصال القلب بالله ، وإقباله عليه ، وإقامة وجهه له ، حباً وخوفاً ورجاءً ، وإنابة وتوكلاً .

ثم ذكر الشيخ - رحمه الله - ما يعين علىٰ هذا التجريد، وبأي شيء يحصل .

فقال : «**بِحَسْمِ الرَّجاءِ بِالرِّضَا ، وَقَطْعِ الخَوْفِ بِالتَّسْلِيمِ ، وَرَفضِ المبالَاةِ بِشُهُودِ الحَقِيقَةِ**»[2] .

يقول : إن الذي يحسم مادة رجاء المخلوقين من قلبك : هو الرضا بحكم الله عز وجل وقسمه لك . ومن[3] رضي بحكم الله وقسمه ، لم يبق لرجاء الخلق في قلبه موضع .

والذي يحسم مادة الخوف : هو التسليم لله . فإن من سلم لله واستسلم له ، وعلم[4] أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضاً . فإن نفسه التي[5] يخاف عليها قد سلمها إلىٰ وليها ومولاها ، وعلم أنه لا[6] يصيبها إلا ما كُتب[7] لها ، وأن ما كتب لها لابد أن يصيبها ، فلا معنىٰ للخوف من غير الله بوجه . وفي

---

(١) «إلا» ساقطة من غ .

(٢) انظر : المنازل ٢٥ .

(٣) في ط والجميع سوى ش : فمن .

(٤) في غ ، أ ، ب : علم .

(٥) في الأصل ، وش ، ح٢ : الذي وما أثبته من ط وباقي النسخ والسياق يقتضيه .

(٦) في د ، ح٢ ، م ، ش : لن .

(٧) في ح٢ ، م زيادة : الله .

التسليم أيضا فائدة لطيفة ، وهي أنه إذا سَلّمها لله[1] فقد أودعها عنده ، وأحرزها في حرزه ، وجعلها تحت كنفه ، حيث لا تناله[2] يد[3] عاد ولا بغي باغ[4] .

والذي يحسم مادة المبالاة بالناس : شهود الحقيقة . وهو رؤية الأشياء كلها من الله ، وبالله ، وفي قبضته ، وتحت قهر سلطانه[5] . لا يتحرك منها[6] شيء إلا بحوله وقوته ، ولا ينفع ولا يضر[7] إلا بإذنه ومشيئته . فما وجه المبالاة بالخلق بعد هذا الشهود؟

الدرجة الثانية

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : تَجرِيدُ الانقِطَاعِ عَن التَّعرِيجِ عَلىٰ النَّفسِ بِمُجَانَبَةِ الهَوَىٰ ، وتَنَسُّمِ رَوحِ الأُنسِ ، وَشَيمِ[8] بَرقِ الكَشْفِ**»[9] .

الفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها : أن الأولىٰ انقطاع عن الخلق ، وهذه انقطاع عن النفس . وجعله بثلاثة أشياء .

---

(١) في ط : الله .

(٢) في ط والجميع سوى ش ، د : تنالها .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : عدو .

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة : عات .

(٥) في ط : قهره وسلطانه .

(٦) في د : منه .

(٧) في د ، ح٢ ، م ، ق : ويضر .

(٨) تقول شام البرق : أي: نظر إلى سحابته أين تمطر ، وشام مخايل الشيء : تَطَلّع نحوها ببصره منتظراً له . انظر : مختار الصحاح ١٤٨ ، مادة : (شيم) .

(٩) انظر : المنازل ٢٥ .

أولاها[١] : مجانبة الهوىٰ ومخالفته ، ونهي النفس[٢] عنه ؛ لأن اتباعه يصد عن التبتل .

وثانيها[٣] : - وهو بعد مخالفة الهوىٰ - تنسم روح الأنس[٤] ، والرُّوح كالرَّوْحَ للبدن ، فهو روحها وراحتها . وإنما حصل له هذا الروح لما أعرض عن هواه . فحينئذ تنسم روح الأنس بالله ، ووجد[٥] رائحته . إذ النفس لا بد لها من التعلق فلما انقطع تعلقها من هواها ، وجدت روح الأنس بالله ، وهبت عليها[٦] نسماته ، فريحتها وأحيتها .

وثالثها : شيم برق الكشف . وهو مطالعته واستشرافه ، والنظر إليه ، ليعلم به مواقع الغيث[٧] ، ومساقط الرحمة .

وليس مراده بالكشف هاهنا : الكشف الجزئي السفلي ، المشترك بين البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، كالكشف عن مخبآت الناس ومستورهم . وإنما هو الكشف[٨] عن ثلاثة أشياء ، هي[٩] منتهىٰ

---

(١) في ط ، ب ، غ ، أ : أولها .

(٢) في ط والجميع سوى ش ، ح٢ : نفسه .

(٣) في ح٢ ، م : وثانيهما .

(٤) في ط ، أ زيادة : بالله .

(٥) في ق : فوجد .

(٦) «عليها» ساقطة من م وفي غ ، أ ، ب : عليه .

(٧) في د : الغيب .

(٨) في غ : انكشف .

(٩) في ط ، ب ، غ ، أ : هن .

كشف[1] الصادقين أرباب البصائر .

أحدها : الكشف عن منازل السير .

والثاني : الكشف عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ومفسداتها.

والثالث : الكشف عن معاني الأسماء والصفات، وحقائق التوحيد والمعرفة.

وهذه الأبواب الثلاثة : هي مجامع علوم القوم ، وعليها يحومون[3] ، وإليها يشمرون . فمنهم من جل كلامِه ومعظمُه : في السير وصفة المنازل . ومنهم من جل كلامه : في الآفات والقواطع[4] . ومنهم من جل كلامِه : في التوحيد والمعرفة ، وحقائق الأسماء والصفات .

والصادق الذكي يأخذ من كل منهم ما عنده من الحق . فيستعين به علىٰ مطلبه . ولا يرد ما يجده عنده من الحق، لتقصيره في الحق الآخر، ويهدره به . فالكمال المطلق لله رب العالمين ، وما من العباد إلا من [5] له مقام معلوم .

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : تجَرِيدُ الانقِطَاعِ إلىٰ السَّبقِ بِتَصْحِيحِ الاستِقَامَةِ[6] وَالاستِغْرَاقُ فِي قَصْدِ الوُصُولِ ، وَالنَّظَرُ إلىٰ أَوَائِلِ الجَمْعِ»[7] .

لما جعل الدرجة الأولىٰ انقطاعاً عن الخلق ، والثانية انقطاعاً عن النفس ،

---

(١) «كشف» ساقطة من م .

(٢) في د : حقائق .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : وحولها يدندنون .

(٤) في د : القطاع .

(٥) «من» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٦) في غ ، م ، ح٢ ، أ ، ب : الإقامة .

(٧) انظر : المنازل ص٢٥ .

جعل الثالثة لطلب السبق[1] ، وجعله بتصحيح الاستقامة . وهي الإعراض عما سوىٰ الحق ، ولزوم الإقبال عليه ، والاشتغال بمحابِّه ، ثم بالاستغراق في قصد الوصول .

وهو أن يشغله طلب الوصول عن كل شيء ، بحيث يستغرق همومه وعزائمه وإراداته[2] ، أوقاته . وإنما يكون ذلك بعد بُدُوِّ برق الكشف المذكور له .

وأما النظر إلىٰ أوائل الجمع : فالجمع هو قيام الخلق كلهم بالحق وحده ، وقيامه عليهم بالربوبية والتدبير .

والنظر إلىٰ أوائل ذلك : [3] الالتفات إلىٰ مقدماته وبداياته ، وهي العقبة التي ينحدر منها علىٰ وادي الفناء .

وقد قيل : إنها وقفة تعترض [القاطع لأودية التفرقة قبل وصوله إلىٰ الجمع ومنها يشرف عليه .

وهذه الوقفة تعترض][4] كل طالب مجد في طلبه . فمنها يرجع علىٰ عقبه ، أو يصل إلىٰ مطلبه كما قيل :

لا بُدَّ للعاشق من وَقْفة   ما بين سلوان وبين غَرَامِ[5]

(١) في ط : طلباً للسبق .

(٢) في غ ، أ ، ب : وإرادته .

(٣) في ط زيادة : هو .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل ، م وهو في هامش الأصل .

(٥) في الأصل وش، د ، ح٢ ، ق : الغرام، وما أثبته من ط ، أ ، ب ، غ ، ووزن البيت يقتضي ذلك .

وعندها ينقُلُ أقدامَــه إما إلىٰ خلف[١] وإما أمام[٢]

والذي[٣] يظهر لي من كلامه : أن[٤] أوائل الجمع ، مباديه ولوائحه وبوارقه .

وبعد هذا درجة رابعة : وهي الانقطاع عن مراده من ربه ، والفناء عنه إلىٰ مراد ربه منه ، والفناء به . فلا يريد منه ؛ بل يريد ما يريده ، منقطعاً به عن كل إرادة . فينظر في أوائل الجمع في مراده الديني الأمري الذي يحبه ويرضاه .

وأكثر أرباب السلوك عندهم «إياك نعبد» فرق «وإياك نستعين» جمع .

ثم منهم من يرىٰ : أن[٥] ترك الفرق[٦] زندقة وكفر . فهو يعرض عن الجمع إلىٰ الفرق .

ومنهم من يرىٰ : أن مقام «التفرقة» مقام[٧] ناقص مرغوب عنه . ويرىٰ سوء حال أهله وتشتتهم . ويرغب[٨] عنه عاملاً علىٰ الجمع ، يتوجه[٩] معه حيث توجهت ركائبه .

---

(١) في غ : خلق .

(٢) لم أقف على من ذكر هذين البيتين .

(٣) في ش : وإن الذي .

(٤) في أ ، ب ، غ : إلى .

(٥) في ش زيادة : في .

(٦) في ط ، غ ، ب ، أ : الجمع .

(٧) «مقام» ساقطة من ط والجميع سوى ش ، د ، ق .

(٨) في ط والجميع سوى ش : فيرغب .

(٩) في ب : فيتوجه .

والمستقيمون منهم يقولون : لابد للعبد السالك من جمع وفرق ، وقيام العبودية بهما. فمن لا تفرقة له لا عبودية له. ومن لا جمع له لا معرفة له ولا حال.

ف «إياك نعبد» فرق . و «إياك نستعين» جمع .

والحق : أن كلا من مشهد[1] «إياك نعبد وإياك نستعين» [متضمن للفرق والجمع ، وكمال العبودية بالقيام بهما في كل مشهد .

ففرق «إياك نعبد»][2] تنوع ما يعبد به ، وكثرة تعلقاته وضروبه[3] .

وجمعه : توحيد المعبود بذلك كله ، وإرادة وجهه وحده ، والفناء[4] عن كل حظٍّ ومرادٍ يزاحم حقَّه ومرادَه .

فتضمن[5] هذا المشهد فرقاً في جمع ، وكثرة في وحدة . فصاحبه ينتقل[6] في منازل العبودية من عبادة إلىٰ عبادة ، ومعبوده واحد[7] .

وأما فرق «إياك نستعين» فشهود ما يستعين به عليه ، ومرتبته ومنزلته ، ومحله من النفع والضر ، وبدايته وعاقبته ، واتصاله[8] - بل وانفصاله - وما

---

(١) في ط والجميع سوى ش : مشهدي .

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من ق .

(٣) في غ ، ب ، ح٢ ، م : وضرورته .

(٤) في غ : الفناء .

(٥) في ق : وتضمن .

(٦) في ط : يتنقل .

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة : لا إله إلا الله .

(٨) في د ، ق : وإيصاله .

يترتب عليه من هذا الاتصال والانفصال .

فيشهد[١] - مع ذلك - فقر المستعين وحاجته ونقصه ، وضرورته إلىٰ كمالاته التي يستعين ربَّه في تحصيلها ، وآفاته التي يستعينه[٢] في دفعها . ويشهد حقيقة الاستعانة وكفاية المستعان به ، وهذا كله فرق يثمر عبودية هذا المشهد .

وأما جمعه : فشهود تفرده سبحانه بالأفعال ، وصدور الكائنات بأسرها عن مشيئته ، وتصريفها بإرادته[٣] وحكمه[٤] .

فغيبته بهذا المشهد عما قبله من الفرق[٥] : نقص في العبودية ، كما أن تفرقه في الذي قبله دون ملاحظته : نقص أيضاً . والكمال إعطاء الجمع والفرق[٦] حقهما في هذا المشهد والمشهد الأول .

فتبين تضمن[٧] «إياك نعبد وإياك نستعين» للجمع والفرق . وبالله المستعان .

* * *

---

(١) في ط ، غ ، ويشهد ، وفي أ ، ب ، د ، م ، ح٢ : وشهد .

(٢) في ح٢ ، ب ، أ ، غ : يستعين ، وفي ط : يستعين به .

(٣) في أ ، غ ، ب : بالإرادة .

(٤) في ط ، ح٢ : حكمته .

(٥) في أ ، ب ، غ : الفراق ، ومكتوب في هامشها : لعله الفروق .

(٦) في ط : الفرق والجمع .

(٧) في ح٢ ، م ، أ ، ب ، غ ، د : تضمين .



فصل

منزلة الرجاء

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الرجاء»(١) .

قال الله تعالىٰ : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء : ٥٧] فابتغاء الوسيلة إليه : طلب القرب منه بالعبودية والمحبة . فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه(٢) : الحب ، والخوف ، والرجاء . قال تعالىٰ : ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾[العنكبوت : ٥] . وقال : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا

---

(١) الرجاء في اللغة : من الأمل وهو نقيض اليأس ، ويأتي بمعنى الخوف ، والإرجاء : التأخير .

انظر : لسان العرب ٥/ ١٦٣ ، المعجم الوسيط ٣٣٣ ، مادة : (رجا) .

والرجاء عند الصوفية : الطمع في طول الأجل وبلوغ الأمل ، وهو حال الضعفاء من أهل السلوك ، فهو عندهم وقوف مع حظ النفس .

ومنه : رجاء المجازاة تحرياً لما ينتظره من لذة عاجلة أو آجلة ، ولولا هذا الأمل لما تحمل مرارة الترك والعمل ، ولهذا كان هذا الرجاء ضعيفاً .

ورجاء أرباب الرياضات هو : تصفية القلوب استعداداً للقاء المحبوب ، وتحمل المجاهدات وترك المألوفات ومع هذا كله فهو عندهم ضعيف ؛ لأنهم مشغولون بتطهير القلوب ، ولم يبلغوا بعد منزلة القرب .

ورجاء أرباب القلوب : هو لقاء المحبوب الحق وهو عندهم ضعيف أيضاً ؛ لأن الرجاء إنما يكون في وقت الغيبة ، والأمر عندهم ينبني على الحضور والمشاهدة .

انظر : لطائف الإعلام ١/ ٤٨٢ - ٤٨٤ ، القشيرية ١٣٢ .

(٢) في الجميع سوى ش ، ط : بناء .

يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[الكهف : ١١٠][1] .

وفي صحيح مسلم عن جابر[2] - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول - قبل موته بثلاث - : «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**»[3] ، وفي الصحيح عنه ﷺ : «**يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي[4] فليظن بي ما شاء**»[5] .

تعريف الرجاء

«الرجاء» حادٍ يحدو القلوب إلى[6] الله والدار الآخرة ، ويطيب لها السير .

---

(١) في ط والجميع سوى ش زيادة : وقال تعالى : ﴿أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ [البقرة : ٢١٨] .

(٢) جابر بن عبدالله بن حرام الأنصاري الخزرجي الصحابي الجليل ، والحافظ الفقيه ، من أهل بيعة الرضوان ، وكان مفتي المدينة في زمانه . توفي سنة ٧٨هـ .
ترجمته في : التاريخ الكبير ٢/ ٢٠٧ ، السير ٣/ ١٨٩ ، الإصابة ١/ ٢١٤ .

(٣) رواه مسلم ٤/ ٢٢٠٥ في كتاب صفة الجنة ، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت ، (ح٢٨٧٧) ، وأحمد في مسنده ٣/ ٢٩٣ ، وأبو داود ٣/ ٤٨٤ في كتاب الجنائز ، باب ما يستحب من حسن الظن بالله عند الموت ، (ح٣١١٣) .

(٤) في م زيادة : عبدي .

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٤٩١ ، ٤/ ١٠٦ ، والطبراني في الكبير ٢٢/ ٨٨ ، وابن حبان في صحيحه ٢/ ١٤-١٥ ح٦٣٢ ، والدارمي في سننه ٢/ ٢١٤-٢١٥ ح٢٧٣٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٦ ح١٠٠٦ ، وذكره الهيثمي في المجمع ٢/ ٣١٨ وقال : رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد ثقات ، وقال محققو مسند الإمام أحمد ٢٥/ ٣٩٨ إسناده صحيح .

(٦) في ط والجميع سوى ش ، زيادة : بلاد المحبوب وهو .

وقيل : هو الاستبشار بوجود فضل[1] الرب تعالىٰ ، [والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه[2] .

وقيل : هو الثقه بجود[3] الرب[4]][5] .

الفرق بين الرجاء والتمني

والفرق بينه وبين «التمني» أن «التمني» يكون مع الكسل . ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد . و «الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل[6] .

فالأول : كحال من يتمنىٰ أن يكون له أرض يبذرها ، ويأخذ زرعها .

والثاني : كحال[7] من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ، ويرجو طلوع الزرع .

ولهذا أجمع العارفون علىٰ أن «الرجاء» لا يصح إلا مع العمل .

قال شاه الكرماني[8] : علامة صحة الرجاء : حسن الطاعة[9] .

---

(١) في ط : بجود وفضل .

(٢) انظر : القشيرية ١٣٣ ، وقد نسب إلى أبي عبد الله بن خفيف .

(٣) في ق : بوجود .

(٤) انظر القشيرية ١٣٣ ؛ لكن بلفظ : الرجاء ثقة الجود من الكريم الودود .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من ش .

(٦) انظر : القشيرية ١٣٢ .

(٧) «كحال» ساقطة من : م ، ح٢ ، أ ، ب ، غ .

(٨) أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني كان من أبناء الملوك ، سلك طريق التصوف ، وصحب أبا تراب النخشبي ، وأبا عبدالله الذرّاع البصري وغيرهما ، مات قبل سنة ٣٠٠هـ .
ترجمته في : طبقات الصوفية ١٩٢ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٧ ، القشيرية ٤٢٨ .

(٩) انظر : القشيرية ١٣٢ .

أنواع الرجاء

والرجاء ثلاثة أنواع : نوعان محمودان ونوع غرور مذموم .

فالأولان[١] : رجاء رجل عمل بطاعة الله علىٰ نور من الله ، فهو راج لثوابه . ورجل أذنب ذنباً[٢] ثم تاب منه[٣] إلىٰ الله تعالىٰ[٤] ، فهو راج لمغفرته[٥][٦] .

والثالث : رجل مُتَمَادٍ في التفريط والخطايا ، يرجو رحمة[٧] الله بلا عمل . فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب[٨] .

وللسالك نظران : نظرٌ إلىٰ نفسه وعيوبه وآفات عمله ، يفتح عليه باب الخوف . ونظرٌ[٩] إلىٰ سعة[١٠] فضل ربه وكرمه وبره ،[١١] يفتح عليه باب الرجاء .

ولهذا قيل في حد «الرجاء» هو : النظر إلىٰ سعة رحمة الله[١٢] .

---

(١) في ح٢ ، م : فالأوليان .

(٢) في ط ، والجميع سوى ش : ذنوباً .

(٣) في ط والجميع سوى ش : منها .

(٤) «إلى الله تعالى» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٥) في ط والجميع سوى ش : لمغفرة الله تعالى .

(٦) في ط والجميع سوى ش : زيادة : وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه .

(٧) «رحمة» ساقطة من ق .

(٨) ورد هذا بمعناه في القشيرية ١٣٢ منسوباً إلى عبدالله بن خبيق .

(٩) «ونظرٌ» ساقطة من ط .

(١٠) في ح٢ ، م زيادة : رحمة الله .

(١١) في ط زيادة : ونظرٌ .

(١٢) انظر : القشيرية ١٣٢ .

وقال أبو علي الروذباري[١] - رحمه الله - : الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوىٰ الطير وتمَّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر[٢] في حدِّ الموت[٣].

وسئل أحمد بن عاصم[٤] : ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال : أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر ، راجياً لتمام النعمة من الله عليه[٥] في الدنيا[٦] ، وتمام عفوه عنه في الآخرة[٧] .

واختلفوا، أي الرجائين أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه. أو رجاء[٨]

---

(١) أبو علي أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور الروذباري ، شيخ الصوفية ، أصله من بغداد ، وسكن مصر ، صحب الجنيد وغيره ، سمع الحديث وحفظ منه كثيراً ، كان كثير الصدقة والبر للفقراء ، توفي سنة ٣٢٢هـ .

ترجمته في : طبقات الصوفية ٣٥٤ ، حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٦ ، السير ١٤/ ٥٣٥ .

(٢) في ح٢ : الطير .

(٣) انظر : القشيرية ١٣٢ .

(٤) أبوعبدالله أحمد بن عاصم الأنطاكي كان من أقران بشر بن الحارث ، والحارث المحاسبي ، ويقال إنه رأى الفضيل بن عياض ، كان صاحب مواعظ وزهد ، وكان يلقب بجاسوس القلوب لحدة فراسته ، توفي سنة ٢٣٩ . ترجمته في : طبقات الصوفية ص١٣٧ ، حلية الأولياء ٩/ ٢٨٠ ، السير ١٠/ ٤٨٧ .

(٥) «عليه» ساقطة من أ ، ب .

(٦) في ط والجميع سوى ش ، زيادة : الآخرة .

(٧) انظر : القشيرية ١٣٢ - ١٣٣ .

(٨) في ش : ورجاء .

المذنب[١] المسيء التائب مغفرة ربه وعفوه؟

فطائفة رجحت رجاء المحسن ، لقوة أسباب الرجاء معه . وطائفة رجحت رجاء[٢] المذنب ؛ لأن رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل ، مقرون بذلة رؤية الذنب .

قال يحيىٰ بن معاذ : يكاد رجائي لك[٣] مع الذنوب يغلب علىٰ[٤] رجائي لك مع الأعمال ؛ لأني أجدني أعتمد في الأعمال ؛ علىٰ الإخلاص ، وكيف[٥] أحرزها[٦]؟ وأنا بالآفات معروف . وأجدني في الذنوب أعتمد علىٰ عفوك ، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟[٧] .

وقال أيضاً : إلهي أحلىٰ العطايا في قلبي رجاؤك ، وأعذب الكلام علىٰ لساني ثناؤك ، وأحب الساعات إليَّ[٨] ساعة يكون فيها لقاؤك[٩] .

---

(١) «المذنب» ساقطة من ط ، غ ، ب ، أ .

(٢) في د : جانب .

(٣) «لك» ساقطة من غ ، ب .

(٤) «على» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة : أصفيها .

(٦) في م ، ح٢ : أحررها .

(٧) انظر : القشيرية ١٣٣ .

(٨) في م : لي .

(٩) انظر : القشيرية ١٣٣ .

فصل

الرجاء أضعف منازل المريدين عند الهروي

قال صاحب «المنازل» - رحمه الله - :

«الرَّجَاءُ : أَضعَفُ مَنَازِلِ المرِيدِ[1] ؛ لِأَنَّـهُ مُعَارَضَةٌ[2] مِن وَجْهٍ ، وَاعتِرَاضٌ مِن وَجْهٍ . وَهُوَ وُقُوعٌ فِي الرُّعُونَةِ فِي مَذهَبِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ . وَلِفَائِدَةٍ وَاحِدَةٍ نَطَقَ بِهِ[3] التَّنزِيلُ وَالسُّنَّةُ[4] ، وَتِلكَ الفَائِدَةُ : هِيَ كَونه يُبَرِّدُ حَرَارَةَ الخَوفِ ، حَتَّىٰ لَا يُفضِي بِصَاحِبِهِ[5] إِلَىٰ الإِيَاسِ»[6][7] .

شيخ الإسلام حبيب إلينا . والحق أحب إلينا منه . وكل من عدا المعصوم فمأخوذ من قوله ومتروك . ونحن نحمل كلامه علىٰ أحسن محامله ، ثم نبيِّن ما فيه .

أما قوله : «الرَّجَاءُ أَضعَفُ مَنَازِلِ المرِيدِ»[8] فيعني[9] بالنسبة إلىٰ ما فوقه من

---

(١) في ط ، ح٢ ، غ ، ب : المريدين .

(٢) في ح٢ ، م : معارض .

(٣) في ط : بها .

(٤) في ش زيادة : ودخل في مسالك المحققين .

(٥) في ح٢ ، م : بصاحبها .

(٦) في ط ، أ ، ب ، غ : اليأس .

(٧) انظر : المنازل ٢٦ لكن فيها : «إلا ما فيه من فائدة واحدة ، ولها نطق باسمه التنزيل والسنة ، ودخل في مسالك المحققين . . . » .

(٨) في ط ، ح٢ ، ب ، غ : المريدين .

(٩) «فيعني» ساقطة من ح٢ .

رد ابن القيم على الهروي في جعله الرجاء أضعف المنازل

المنازل ، كمنزلة[1] المعرفة والمحبة[2] ، والإخلاص ، والصدق ، والتوكل . لا أن مراده ضعف حال هذه المنزلة في نفسها ، وأنها منزلة ناقصة .

وأما قوله : «**لِأَنَّه مُعَارَضَةٌ مِن وَجْهٍ ، وَاعتِرَاضٌ مِن وَجْهٍ**» .

فلأنه تعلق بمراد العبد من ربه ، من الإحسان والثواب والإفضال . وقد يكون مراده تعالىٰ من عبده : استيفاءَ حقِّه ، ومعاملته بحكم عدله [3] ، لما له في ذلك من الحكمة . فإذا أراد العبد منه معاملته بحكم الفضل دخل في نوع[4] معارضة ، فكأن[5] الراجي تعلق قلبه بما يعارض تصرف المالك في ملكه . وذلك ينافي حكم استسلامه وانقياده ، وانطراحه بين يَدَي رَبِّه ، مستسلماً لما يحكم به فيه [6] . فرجاؤه معارضة[7] لحكمه وإرادته ، ووقوف مع مراده من سيده ، وذلك يعارض مرادَ سيِّدِه منه . والمحب الصادق من فني بمراد محبوبه عن مراده منه ، ولو كان فيه تعذيبه . وأما وجه الاعتراض : فهو أن القلب إذا تعلق بالرجاء ولم يظفر بمرجوِّه[8] : اعترض[9] حيث لم يحصل له مرجوُّه ، ولم يظفر به .

---

(١) في د : كمنزل .

(٢) «والمحبة» ساقطة من ح٢ ، م .

(٣) في ط ، غ ، ب ، أ ، م زيادة : له .

(٤) «نوع» ساقطة من : غ ، ب ، أ، وهي في هامش أ .

(٥) في ط والجميع سوى ش : وكأن .

(٦) «فيه» ساقطة من ح٢ ، م .

(٧) في ط : معارض .

(٨) في م : بموجوده .

(٩) في أ ، ب : اعتراض .

وإن ظفر به : اعترض حيث فات[1] غير[2] ذلك المرجو ؛ لأن كل أحد يرجو فضل الله ، ويحدث نفسه به[3] .

وفيه وجه آخر من الاعتراض : وهو أنه[4] يعترض على ربه بما يرجوه[5] منه ؛ لأن الراجي متمن لما يرجو[6] ، مؤثر له ، وذلك اعتراض على القدر ، مناف لكمال الاستسلام ، والرضا بما سبق به القضاء . فإذا تيقن[7] أنه قد[8] سبق القضاء بشيء وأنه[9] لا بد أن يناله ، فعلق قلبه برجاء شيء من الفضل، فقد اعترض على القضاء ، ولم يعرف للاستسلام للحكم حقه . وذلك وقوع في الرعونة، في مذهب السائرين على درب الفناء، الناظرين إلى عين الجمع . إذ الرعونة هي : الوقوف مع حظ النفس . والرجاء هو : الوقوف مع الحظ ، لأنه يتعلق بالحظوظ .

وأصحاب هذه الطريق[10] أول طريقهم : الخروج عن نفوسهم ، فضلا عن

---

(١) في ط ، أ ، ب ، غ : فاته .

(٢) في ق ، ح٢ ، م ، د : غيره .

(٣) «به» ساقطة من : غ ، أ ، ب .

(٤) في ط ، ح٢ ، ب : أن .

(٥) في ط ، ب ، غ ، أ ، م ، ح٢ : يرجو .

(٦) في ح٢ : يرجوه .

(٧) في ط زيادة : له .

(٨) «قد» ساقطة من : ط ، أ ، ب ، غ .

(٩) في ط ، أ ، ب ، غ ، ح٢ ، م : فإنه .

(١٠) في ط ، أ ، ب ، غ : الطريقة .

حظوظها[1] ؛ لأنهم عاملون علىٰ أن يكونوا بالله لا بنفوسهم . فغاية المحب : أن يـرضىٰ بأحكام محبوبـه عليـه ، ساءته أم سرتـه ، حتـىٰ يبلـغ [2] بأحـدهم هـذه[3] الحال إلىٰ أن ينشد :

أحبك لا أحبك للثـــواب ولكنـي أحبـك للعقـــاب

وكل مآربي قد نلت منهــا سوىٰ ملذوذ وجدي بالعذاب[4]

ولو كان نفس تلذذه[5] بالعذاب مقصوده من العذاب : لكان أيضاً واقفاً[6] مـع حظه ، ولكن أراد أن رضاه بمراد محبوبه منه - ولـو كـان عذابـه - لم يـدع فيـه للرجاء موضعاً ولا للخوف؛ بل يقول : أنا أحب ما تريده بي[7]، ولو أنه عـذابي.

وقد كشف بعض المغرورين عن هذا بقوله :

وتعذيبي مع الهجران عنـدي أحبُّ إليَّ من طِيبِ الوِصَال

لأني في الوِصَال عُبَيدُ حظِّي وفي الهُجْـرَان عَبدٌ للموالي[8]

---

(١) في ح٢ ، م : حظوظهم .

(٢) في ش : تبلغ .

(٣) في ط والجميع سوى ش : هذا .

(٤) ينسب مثل هذا للحلاج . انظر : ديوانه ١٠٩ . وقد نسب ابن عربي هذين البيتين إلى أبي يزيد البسطامي . انظر : الفتوحات المكية ١/ ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

(٥) في غ : ولو كان نفسٌ قد تلذذت بالعذاب .

(٦) «واقفاً» ساقطة من : غ ، ب ، أ .

(٧) «بي» ساقطة من ش ، وفي ب : في .

(٨) انظر : الفتوحات المكية لابن عربي ١٩٨١ .

فأخبر أن التعذيب بالهجران أحب إليه من طيب الوصال ، لكون الوصال فيه ما تشتهيه النفس . وأما التعذيب : فليس فيه للنفس[1] مقصود .

ثم أخبر[2] أنه لم يأت في القرآن والسنة إلا لفائدة واحدة ، وهي تبريده[3] لحرارة الخوف ، حتىٰ لا يفضي بصاحبه إلىٰ الإياس .

فهذا[4] وجه كلامه ، وحمله علىٰ أحسن محامله[5] .

فيقال : هذا ونحوه من الشطحات التي تُرجىٰ[6] مغفرتها بكثرة الحسنات . ويستغرقها كمال الصدق ، وصحة المعاملة ، وقوة الإخلاص ، وتجريد التوحيد ، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ .

الناس في حكمهم على الصوفية طرفان ووسط

وهذه الشطحات أوجبت فتنة علىٰ طائفتين من الناس :

إحداهما : حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم ، وصدق معاملتهم[7] ، فأهدروها لأجل هذه الشطحات ، وأنكروها غاية الإنكار ، وأساؤوا الظن بهم[8] وهذا عدوان وإسراف. فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك

---

(١) في ط والجميع : فليس للنفس فيه مقصود .

(٢) أي : الهروي .

(٣) في د : تبريد .

(٤) في ط : وهذا .

(٥) في ط والجميع سوى ش : المحامل .

(٦) في ش ، ح٢ ، ب ، أ ، ق ، غ : يُرجى ، وفي م : يرجو .

(٧) في ق : معاملاتهم .

(٨) في ش : بها .

جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات، والحكم، وتعطلت معالمها[1].

والطائفة الثانية: حجبوا بما رأوه من محاسن الطائفة[2]، وصفاء قلوبهم، وصحة[3] عزائمهم، وحسن معاملاتهم[4] عن رؤية عيوب شطحاتهم، ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأَجْروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم.

وهؤلاء أيضاً معتدون مفرِّطون.

[5] وأهل البصيرة[6] والإنصاف أعطوا كلَّ ذي حق حقه، وأنزلوا كلَّ ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح؛ بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح؛ بل قبلوا ما يقبل، وردوا ما يرد.

وهذه الشطحات ونحوها هي التي حذر منها سادات القوم، وذموا عاقبتها، وتبرؤوا منها. حتىٰ ذكر أبو القاسم القشيري في «رسالته»: أن أبا سليمان الداراني رُؤيَ بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وما كان شيء

---

(١) في ش: معارفها.

(٢) في ط والجميع سوى ش: القوم.

(٣) في ق: وقوة.

(٤) في د: معاملتهم.

(٥) في ط، غ، ح٢، ب، أ زيادة: والطائفة الثالثة وهم...

(٦) في ط: العدل.

أضر عليَّ من إشارات القوم[1] .

وقال أبو القاسم : سمعت أبا سعيد الشحام[2] يقول : رأيت الأستاذ[3] أبا سهل الصعلوكي[4] في المنام ، فقلت له : أيها الشيخ ، فقال : دع التشييخ . فقلت : وتلك الأحوال؟ فقال : لم تغن عنا[5] شيئاً ، فقلت : ما فعل الله بك؟ قال[6] : غفر لي بمسائل كانت تسأل عنها العُجَّز[7][8] .

وذكر عن الجريري[9] : أنه رأىٰ الجنيد في المنام بعد موته ، فقال : كيف حالك يا أبا القاسم؟ قال[10] : طاحت تلك الإشارات،

---

(١) انظر : القشيرية ص٣٧٦ .

(٢) لم أقف له على ترجمة .

(٣) «الأستاذ» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٤) أبو سهل محمد بن سليمان العجلي الحنفي النيسابوري الصعلوكي - شيخ الشافعية بخراسان، المتكلم الصوفي المفسر قال عنه الحاكم: أبو سهل الصعلوكي الشافعي اللغوي، المفسر النحوي المتكلم المفتي الصوفي ، حبر زمانه وبقية أقرانه ، توفي سنة ٣٦٩هـ .
ترجمته في : العبر ٢/ ١٣٢ ، السير ١٦/ ٢٣٥ ، طبقات المفسرين للداودي ٢/ ١٥٢ .

(٥) في د : عنها .

(٦) في ش ، ب : فقال .

(٧) في ط ، أ ، ب ، غ : العجائز .

(٨) انظر : القشيرية ص٣٧٣ .

(٩) أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري من كبار أصحاب الجنيد ، وكان الجنيد يكرمه ويجله ، وصحب سهلاً بن عبدالله التستري كذلك . توفي سنة ٣١١هـ .
ترجمته في : طبقات الصوفية ٢٥٩ ، حلية الأولياء ١٠/ ٣٤٧ ، تاريخ بغداد ٤/ ٤٣٠ .

(١٠) في ط ، ش ، ب ، غ ، أ : فقال .

وبادت[1] تلك العبارات ، وما نفعنا إلا تسبيحات كنا نقولها بالغدوات[2][3] .

الرجاء من أعلى المنازل وأشرفها

فأما قوله : «الرَّجَاءُ أَضعَفُ مَنَازِلِ المرِيدِينَ» فليس كذلك ؛ بل هو من أجل منازلهم، وأعلاها وأشرفها، وعليه وعلىٰ الحب والخوف مدار السير إلىٰ الله . وقد مدح الله أهله ، وأثنىٰ عليهم . فقال : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل : «ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك علىٰ ما كان منك ولا أبالي»[4] .

وقد[5] روىٰ الأعمش[6] عن أبي صالح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه، إذا ذكرني. فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي . وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير

---

(١) في ط والجميع سوى ش : وفنيت .

(٢) انظر : القشيرية ٣٧١ .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : وقال أبو سليمان الداراني : تُعرض عليَّ النكتة من نُكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل : الكتاب والسنة .

وقال الجنيد : مذهبنا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ، ويكتب الحديث ، لا يقتدى به في طريقنا ، هذا إلى غير ذلك من الأقوال التي وردت عنهم رضي الله عنهم .

(٤) سبق تخريجه ص ٨٧٧ .

(٥) «وقد» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٦) أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي مولاهم الكوفي الإمام الحافظ ، شيخ المقرئين والمحدثين ، كان رأساً في العلم والعمل ، توفي سنة ١٤٨هـ .

ترجمته في : حلية الأولياء ٥/ ٤٦ ، تاريخ بغداد ٩/ ٣ ، السير ٦/ ٢٢٦ .

منهم . وإن اقترب إلي شبراً ، اقتربت إليه ذراعاً . [وإن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعا][١] ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» رواه مسلم[٢] .

وقد أخبر تعالىٰ عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون [بهم][٣] إلىٰ الله : أنهم كانوا راجين له خائفين منه . فقال : ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[٤] [الإسراء : ٥٦-٥٧] .

يقول تعالىٰ : هؤلاء الذين تدعونهم[٥] من دوني : [هم عبادي ، يتقربون إلي بطاعتي ، ويرجون رحمتي ، ويخافون عذابي ، فلماذا تدعونهم[٦] [٧] دوني][٨] فأثنىٰ عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم[٩] : من الحب ، والخوف والرجاء .

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل ، ش .

(٢) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٦١ في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار وروى بعضه البخاري وتقدم وتخريجه ص١١٩٨ .

(٣) «بهم» ساقطة من الأصل ، وما أثبته من الجميع والسياق يقتضي ذلك .

(٤) الآية مكملة في ط ، ح٢ ، ق ، د ، م .

(٥) في ح٢ ، أ ، غ ، م ، ب : يدعونهم .

(٦) في ح٢ ، م ، أ ، ب : يدعونهم .

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة : من .

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من : ش .

(٩) «ومقاماتهم» ساقطة من أ .

قوله : «لأَنَّه مُعَارَضَةٌ مِن وَجْهٍ ، وَاعتِرَاضٌ مِن وَجْهٍ» .

يقال[١] : بل هو[٢] عبودية ، وتعلق بالله من حيث اسمه «المحسن البر» فذلك[٣] التعلق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة بالله: هو الذي أوجب له[٤] الرجاء، من حيث يدري ومن حيث لا يدري . فقوة الرجاء علىٰ حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ، وغلبت رحمته غضبه . ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح ، وهدمت صوامع ، وبيع ، [وصلوات ، ومساجد][٥] يذكر فيها[٦] اسم الله كثيراً . بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة . ولولا ريحه الطيبة[٧] لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات. ولي من الأبيات :

ولا التعلل[٨] بالرجاء تقطعت	نفس المحب تحسرا وتمزّقا
وكذاك لولا بَردُه لحرارة[٩] الـ	أكباد ذابت بالحجاب تحرّقا
أيكون قط حليف حب لا يرىٰ	برجائه لحبيبه متعلّقا
أم كلما قويت محبته له	قوي الرجاء فزاد فيه تشوّقا

---

(١) في ش : فيقال .

(٢) في ط ، أ ، د ، ب ، غ : وهو .

(٣) في د : فلذلك .

(٤) في ط : للعبد .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من ح٢ .

(٦) «فيها» ساقطة من م .

(٧) في ش : الطيب .

(٨) في ط والجميع سوى ش : التعلق .

(٩) في ط والجميع سوى ش : بحرارة .

لـولا الرجـا يحـدو المطـيَّ لمـا بحمولهـا لـديارهم ترجو اللّقـــا

على حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء

وعلىٰ حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء . وكل[١] محب راج خائف بالضرورة ، فهو أرجىٰ[٢] ما يكون لحبيبه أحب ما كان[٣] إليه . وكذلك خوفه ، فإنه يخاف سقوطه من عينه ، وطرد محبوبه له وإبعاده ، واحتجابه عنه . فخوفه أشد خوف ، ورجاؤه لمحبوبه[٤] ذاتي للمحبة . فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه . فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له ، لما[٥] يحصل[٦] به[٧] حياة روحه ، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه ، وبره وإقباله عليه ، ونظره إليه بعين الرضىٰ ، وتأهيله لمحبته[٨] وغير ذلك مما لا حياة للمحب ، ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه . فرجاؤه أعظم رجاء ، وأجلُّه وأتمه[٩] .

فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك علىٰ أسرار عظيمة من أسرار

---

(١) في ط والجميع سوى ش ، د : فكل .

(٢) في غ : راجٍ .

(٣) في ط والجميع سوى ش : يكون .

(٤) «لمحبوبه» ساقطة من ط .

(٥) «لما» ساقطة من ق .

(٦) في ط زيادة : له .

(٧) في ط ، ح٢ ، م ، ش زيادة : من .

(٨) في ط ، غ ، ب ، أ : في محبته .

(٩) «وأتمه» ساقطة من ح٢ .

الرجاء ضروري للسالك

العبودية والمحبة . فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء . وعلىٰ قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه ، لكن خوف المحب لا يصحبه[1] وحشه ، بخلاف خوف المسيء . ورجاء المحب[2] لا يصحبه[3] علة ، بخلاف رجاء الأجير. فأين[4] رجاء المحب من رجاء الأجير؟ وبينهما كما بين حاليهما .

وبالجملة : فالرجاء ضروري للمريد السالك ، والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد . فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه ، وعيب يرجو صلاحه[5] ، وعملٍ صالحٍ يرجو قبوله ، واستقامة يرجو حصولها أو دوامها[6] ، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها ، ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو عن[7] بعضها . فكيف يكون الرجاء من أضعف منازله[وهذا حاله؟

وأما حديث المعارضة والاعتراض فباطل. فإن الراجي][8] ليس معارضاً . ولا معترضاً[9]، بل راغباً راهباً . مؤملاً لفضل ربه . محسن[10] الظن به ،

(١) في ق ، ش : لا تصحبه .

(٢) في ب : المحبة .

(٣) في ش : لا تصحبه .

(٤) في ط ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، أ : واين وفي م : ولأن .

(٥) في ط والجميع سوى ش ، ق : إصلاحه .

(٦) في ط ، غ ، أ ، ب ، م «ودوامها» .

(٧) «عن» ساقط من ط ، والجميع سوى ش .

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من أ .

(٩) في الجميع سوى ش ، ط ، زيادة : متعرضاً .

(١٠) في ط والجميع سوى ش : حسن .

متعلق[1] الأمل ببره وجوده ، عابداً له بأسمائه[2] «المحسن ، البر ، المعطي ، الحليم ، الغفور ، العفو[3] ، الجواد ، الوهاب ، الرزاق» والله يحب من عبده أن يرجوه . ولذلك كان عند رجاء العبد له[4] ، وظنه به .

الرجاء من أقوى الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجو

و«الرجاء» من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه ؛ بل هو من أقوىٰ الأسباب . ولو تضمن معارضة واعتراضاً ، لكان ذلك في الدعاء والمسألة أولىٰ . فكان دعاء العبد ربه وسؤاله - أن يهديه ويوفقه ويسدده ، ويعينه علىٰ طاعته ويجنبه معصيته ، ويغفر ذنوبه ، ويدخله الجنة ، وينجيه من النار - معارضة واعتراضاً ؛ لأن الداعي راجٍ وطالب ، [فمعه رجاء ، وطلب][5] ما يرجوه . فهو[6] أولىٰ حينئذ بالمعارضة والاعتراض .

والذي أوجب للشيخ هذا القدر : الاسترسال في القدر ، والفناء في شهود الحقيقة الكونية . فإنه من الراسخين فيه الذين لا تأخذهم فيه لومة لائم . وهو شديد في إنكار الأسباب[7] . وهذا موضع زلت فيه أقدام أئمة أعلام .

---

(١) في د : يتعلق .

(٢) في الأصل باسمه ، وما أثبته من الجميع والسياق يقتضيه .

(٣) «العفو» ساقطة من ط ، أ ، ب ، غ .

(٤) «له» ساقطة من غ ، ب ، أ .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من ط .

(٦) في ق : فهذا .

(٧) انظر : ص١٣١٧ .

ولولا أن حق الحق أوجب من حق الخلق، لكان في الإمساك فسحة ومتسع.

وليس في «الرجاء» ولا في «الدعاء» معارضة لتصرف المالك في ملكه. فإنه إنما يرجو تصرفه في ملكه أيضا بما[1] هو أحب[2] الأمرين إليه. [فإن الفضل أحب إليه من العدل، والعفو أحب إليه][3] من الانتقام، والمسامحة أحب إليه من الاستقصاء، والترك أحب إليه من الاستيفاء، ورحمته غلبت غضبه.

فالراجي[4] علق رجاءه بتصرفه المحبوب له المرضي له، فلم يوجب رجاؤه خروجه عن تصرفه في ملكه؛ بل اقتضىٰ عبوديته، وحصول أحب[5] التصرفين إليه. وهو سبحانه لا ينتفع باستيفاء حقه وعقوبة عبده، حتىٰ يكون رجاؤه مبطلاً لذلك. وإنما العبد[6] استدعىٰ العقوبة، وأخذ الحق منه لشركه بالله وكفره به، واجتهاده في غضبه. ولغضبه موجبات وآثار ومقتضيات، والعبد مؤثر لها، ساع في تحصيلها، عاملٌ عليها بإيثاره وسعيه في أسبابها، فهو المهلك لنفسه. وربه يحذره ويبصره ويناديه: هلمَّ إليَّ أَحْمِكَ[7] وأَصُنك، وأنجك مما تحذر، وأؤمنك من كل ما تخاف. وهو يأبىٰ إلا شروداً عليه

---

(١) في أ، ب: لما.

(٢) في ط والجميع سوى ش: أولى وأحب.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وش وما أثبته من ط والجميع وبه تمام المعنى.

(٤) في ق: فإن الراجي.

(٥) في أ، ب: أحد.

(٦) «العبد» ساقطة من غ، ب.

(٧) في م: أرحمك.

ونفاراً عنه ، ومصالحة لعدوه ، ومظاهرة له علىٰ ربه ، ومتطلباً لمرضاة خلقه بمساخطه . رضا المخلوق آثر عنده من رضاه[1] ، وحقه آكد عنده من حقه ، وخوفه ورجاؤه وحبه في قلبه أعظم[2] . فلم يدع لفضل ربه وكرامته[3] وثوابه إليه طريقاً ؛ بل سد دونه طرق مجاريها بجهده ، وأعطىٰ بيده لعدوه[4] . فصالحه وسمع له وأطاع، وانقاد إلىٰ مرضاته. فجاء من الظلم بأقبحه وأشده.

فهو الذي عارض مراد ربه[5]منه ، بمراده وهواه وشهوته . واعترض[6] لمحابه ومراضيه بالدفع ، ولم[7] يأذن لها في الدخول عليه . فأضاع حظه[8] ، وبخس حقه ، وظلم نفسه ، وعادىٰ حبيبه ، ووالىٰ عدوه . وأسخط من حياته في رضاه[9] ، وأرضىٰ من حياته في سخطه ، وجاد بنفسه لعدوه ، وبخل بها عن حبيبه ووليه .

والرب تعالىٰ ليس له ثأر عند عبده فيدركه بعقوبته، ولا[10] يتشفىٰ بعقابه،

---

(١) في ط والجميع سوى ش : رضى خالقه .

(٢) في الجميع سوى ش زيادة : من خوفه من الله ورجائه وحبه .

(٣) «وكرامته» ساقطة من ش .

(٤) في ب : العدو ، وفي ق : ولعدوه .

(٥) في ط والجميع سوى ش : مراده به .

(٦) في غ : اعتراض .

(٧) في ش : فلم .

(٨) في ش : حقه .

(٩) في د ، ق : مرضاته .

(١٠) في م ، ح٢ : فلا .

ولا يزيد ذلك[1] في ملكه مثقال ذرة ، ولا ينقص مغفرته . لو غفر[2] لأهل الأرض كلهم[3] ، لما نقص مثقال ذرة من ملكه ، كيف والرحمة أوسع من العقوبة وأسبق من الغضب وأغلب له؟ وهو قد كتب علىٰ نفسه الرحمة[4] فرجاء العبد له لا ينقص شيئا من حكمته ، ولا ينقص ذرة من ملكه ، ولا يخرجه عن كمال تصرفه . ولا يوجب خلاف كمال ، ولا تعطيل أوصافه وأسمائه . ولولا أن العبد هو الذي سد علىٰ نفسه طرق الخيرات ، وأغلق دونها أبواب الرحمة بسوء اختياره لنفسه: لكان ربه له فوق رجائه ، وفوق أمله .

وأما استسلام العبد لربه ، واستسلامه وانطراحه[5] بين يديه ، ورضاه بمواقع[6] حكمه فيه : فما ذاك إلا رجاء منه أن يرحمه ، ويقيله عثرته[7] ، ويعفو عنه ، ويقبل

---

(١) في م ، ح٢ : بذلك .

(٢) في ط : ولو غفر .

(٣) «كلهم» ساقطة من : أ ، ب .

(٤) كما قال تعالى : ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة . . . ﴾ [الأنعام : ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ [الأعراف : ١٥٦] .
وقال النبي ﷺ : «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق : أن رحمتي سبقت غضبي فهو مكتوب عنده فوق العرش» رواه البخاري ١٣/ ٥٢٢ في كتاب التوحيد باب قول الله عز وجل : ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ ح٧٥٥٤ .

(٥) في ط : بانطراحه .

(٦) في ح٢ ، د ، ق : بجوامع .

(٧) في غ : عثراته .

حسناته مع عيوب أعماله وآفاتها ، ويتجاوز عن سيئاته . فقوة رجائه أوجبت له هذا الاستسلام والانقياد ، والانطراح بالباب . ولا يتصور هذا بدون الرجاء البتة . فالرجاء حياة (١) الطلب ، والإرادة روحها .

وأما رضاه بمراده منه وإن كان عذابه(٢) : فهذا هو الرعونة كل الرعونة . فإن مراده سبحانه نوعان : مراد يحبه ويرضاه ، ويمدح فاعله ويواليه . فموافقته في هذا المراد : [هي عين محبته ، وإرادة خلافه رعونة ومعارضة واعتراض . ومراد يبغضه ويكرهه ويمقت فاعله ويعاديه ، فموافقته في هذا المراد](٣) : عين مشاقَّته ومعاداته ومخالفته والتعرض لمقته وسخطه .

فهذا الموضع موضع فرقان . فالموافقة(٤) كل الموافقة معارضة هذا المراد ، واعتراضه بالدفع ، والرد بالمراد الآخر .

فالعبودية الحق : معارضة مراده بمراده ، ومزاحمة أحكامه بأحكامه .

فاستسلامه لهذا المراد المكروه المسخوط، وما يوجبه ويقتضيه: عين الرعونة. والخروج عن العبودية ، وهو عين الدعوىٰ الكاذبة . إذ لو كان مصدر ذلك الاستسلام والموافقة ، وترك الاعتراض والمعارضة ، لكان ذلك مخصوصاً بمحابه ومراضيه ، وأوامره التي الاستسلام لها والموافقة فيها ، وترك معارضتها ،

---

(١) «حياة» ساقطة من ب ، غ .

(٢) في ط ، ب ، أ ، غ : وإن عذبه .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ح٢ .

(٤) في د زيادة : هو .

والاعتراض عليها هو عين المحبة والموالاة[١].

وأما الفناء بمراد ربه عن مراده[٢] : فقد تقدم[٣] أن المحمود من[٤] ذلك : الفناء بمراده الديني الأمري ، لا الكوني القدري . فإن الكون كله مراده القدري خيره وشره .

وأما تعلق الرجاء بمراده دون مراد سيده : فهو إنما علقه بمراده[٥] المحبوب له ، هارباً من مراده المسخوط المكروه له . وعلىٰ تقدير أن يكون محبوباً له - إذا كان انتقاماً - فالعفو والفضل أحب إليه منه ، فهو إنما علق رجاءه بأحب المرادين[٦] إليه .

وأما كون الرجاء اعتراضاً علىٰ ما سبق به الحكم : فليس كذلك ؛ بل تعلقاً بما سبق به الحكم . فإنه إنما يرجو فضلاً وإحساناً ، ورحمة سبق بها القضاء والقدر ، وجعل الرجاء أحد أسباب حصولها . فليس الرجاء اعتراضاً علىٰ القدر ، ولا معارضة للقدر ، بل طلباً لما سبق به القدر .

وأما اعتراضه إذا لم يحصل له مرجوُّه : فهذا نقص في العبودية ، وجهل بحق الربوبية . فإن الراجي والداعي يرجو ويدعو فضلاً لا يستحقه ، ولا

---

(١) «والموالاة» ساقطة من م .

(٢) «عن مراده» ساقطة من ط ، غ ، ب ، أ .

(٣) انظر : المدارج ١/ ١٥٥-١٥٦ .

(٤) في ط زيادة : هو .

(٥) في د ، ق : مراد .

(٦) في ح٢ ، م : الأمرين .

يستوجبه بمعاوضة[١] ، فإن أعطيه[٢] فمحض المنة والصدقة عليه ، وإن مُنعه فلم يمنع[٣] حقا هو له ، فاعتراضه رعونة وجهالة . ولا يلزم من فوات المرجو ، وعدم[٤] حصول المدعو به في حق العبد الصادق ، معارضة ولا اعتراض .

وقد سأل رسول الله ﷺ ربه ثلاث خصال لأمته . فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة[٥] ، فرضي بما أعطاه . ولم يعترض فيما منعه ؛ بل رضي وسلم .

وأما كون الرجاء وقوفاً مع الحظ ، فأصحاب[٦] هذه الطريق[٧] قد خرجوا عن نفوسهم فكيف حظوظهم؟

فيا لله العجب! أي رعونة فيمن يجعل رجاءَ العبدِ ربَّه ، وطمعَه في بره وإحسانه وفضله ، وسؤاله ذلك بقلبه ولسانه؟ فإن الرجاء هو استشراف القلب لنيل ما يرجوه . فإذا كان العبد دائماً مستشرفاً بقلبه ، سائلا بلسانه ، طالباً لفضل ربه . فأي رعونة هاهنا؟ وهل الرعونة كل الرعونة إلا خلاف ذلك .

---

(١) في أ ، ب ، لمعاوضة وفي غ : بمعارضة .

(٢) في د : أعطاه .

(٣) في ش : يمنعه .

(٤) في ط ، غ ، أ : أو عدم .

(٥) كما في الحديث : «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة . سألت ربي أن لا يُهلك أمتي بالسنة فأعطانيها . وسألته أن لا يُهلك أمتي بالفرق فأعطانيها . وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» رواه مسلم ٤/ ٢٢١٦ في كتاب الفتن ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ، ح٢٨٩٠ ، وأحمد في مسنده ٥/ ٢٤٠ .

(٦) في ط والجميع سوى ش : وأصحاب .

(٧) في ط ، غ ، أ ، ب ، ش : الطريقة .

ومن العجب : دعواهم[1] خروجهم عن نفوسهم ، وهم أعظم الناس عبادة لنفوسهم . وليس الخارج عن نفسه إلا من جعلها حبسا علىٰ مراد الله الديني الأمري النبوي ، وبذلها لله في إقامة دينه ، وتنفيذه بين أهل العناد والمعارضة والبغي ، فانغمس فيهم يمزقون أديمه [2] ، ويرمونه بالعظائم ، ويخيفونه بأنواع المخاوف ، ويتطلبون[3] دمه[4] بجهدهم[5] ، لا تأخذه في جهادهم في الله لومة لائم . يصدع بالحق عند من يخافه ويرجوه ، قد زهد في مدحهم وثنائهم[6] ، وتعظيمهم وتشييخهم له ،[7] وتقبيل يده ، وقضاء حوائجه . يصيح فيهم بالنصائح جهاراً ، ويعلن لهم بها ، ويسر لهم إسراراً . وقد[8] تجرد عن الأوضاع والقيود والرسوم ، وتعلق بمراضي الحي القيوم . مقامه ساعة في جهاد أعداء الله . ورباطه ليلة علىٰ ثغر الإيمان ، آثر عنده وأحب إليه من فناء ومشاهدات[9] وأحوال هي أعظم عيش النفس ، وأعلىٰ قوتها ، وأوفر حظها .

---

(١) «دعواهم» ساقطة من ب .

(٢) الأديم : الجلد ، والأدمة باطن الجلد الذي يلي اللحم ، والبشرة ظاهره .
انظر : لسان العرب ١/ ٩٦ ، مادة : (أدم) .

(٣) في ب : ويطلبون .

(٤) في د : دينه .

(٥) في ق زيادة : وجدهم وحديدهم .

(٦) «وثنائهم» ساقطة من ق .

(٧) «له» ساقطة من ق .

(٨) في ط والجميع سوى ش : قد .

(٩) في ح٢ : أو مشاهدات .

ويزعم أنه قد خرج عن نفسه فكيف حظها؟ ولعله قد خرج عن مراد ربه من عبوديته إلىٰ عين[(١)] مراده هو[(٢)] ، وحظه . ولو فتش نفسه لرأىٰ ذلك فيها عياناً .

وهل الرعونة كل الرعونة إلا دعواه : أنه يحب ربه لعذابه لا لثوابه؟ وأنه إذا أحبه وأطاعه للثواب كان ذلك حظا وإيثاراً لمراد النفس بخلاف ما[(٣)] إذا أحبه وأطاعه ليعذبه ، فإنه لا حظ للنفس في ذلك؟ .

فوالله ليس في أنواع الرعونة والحماقة أقبح من هذا ولا أسمج . وماذا يلعب الشيطان بالنفوس؟ وإن نفساً وصل بها تلبيس الشيطان إلىٰ هذه الحالة ، لمحتاجة إلىٰ سؤال المعافاة .

فنزل[(٤)] أحوال الأنبياء والرسل والصديقين ، وسؤالهم ربهم ، علىٰ أحوال هؤلاء الغالطين[(٥)] . ثم قايس بينها[(٦)] ، وانظر التفاوت .

فأين هذا من دعاء النبي ﷺ : **«اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك[(٧)]»**[(٨)] .

---

(١) في ح٢ : غير ، وفي ق : غيره .

(٢) في ط : وهو حظه ، وفي الجميع : هو حظه .

(٣) «ما» ساقطة من الجميع سوى ش ، د ، ط .

(٤) في ط ، أ ، غ ، ب : فزن .

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة : الذين مرجت بهم نفوسهم .

(٦) في ط ، أ ، ب ، غ : بينهما .

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة في الحديث وهي : **«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»** .

(٨) رواه مسلم ١/ ٣٥٢ في كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود ، ح٤٨٦ ، وأحمد في مسنده ١/ ٩٦ .

وقوله لعمه[١] : «**يا عباس**[٢][٣] **، يا عم رسول الله ، سل الله العافية**»[٤] .

وقوله للصديق الأكبر وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته : «**قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً . ولا يغفر الذنوب إلا أنت . فاغفر لي مغفرة من عندك . وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[٥] .

وقوله لصدِّيقة النساء[٦] - وقد سألته دعاء تدعو به، إن[٧] وافقت ليلة القدر-

---

(١) في ط زيادة : العباس رضي الله عنه .

(٢) «يا عباس» ساقطة من ش .

(٣) أبو الفضل العباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام ، سديد الرأي ، واسع العقل ، أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه ، وأقام بمكة ، يكتب إلى رسول الله أخبار قريش ، ثم هاجر إلى المدينة ، شهد مع النبي ﷺ حنين ، وكان فيمن ثبت حين انهزم الناس ، وشهد فتح مكة ، وكان عمر رضي الله عنه يجله ويكرمه ، توفي رضي الله عنه سنة ٣٢هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٧/ ٢ ، السير ٢/ ٧٨ ، الإصابة ٢/ ٢٦٣ .

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد ص٢٤٥ ح٧٢٦ ، وأحمد في مسنده ١/ ٢٠٩ ، والترمذي ٥/ ٥٣٤ في كتاب الدعوات باب (٨٥) ح٣٥١٤ وقال : حديث صحيح ، وذكره الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٧٥ وقال : رواه الطبراني بأسانيد رجال بعضها رجال الصحيح غير يزيد بن أبي زياد وهو حسن الحديث ، وصححه الألباني . انظر : صحيح الأدب المفرد ص٢٦٩ ح٥٥٨ ، والصحيحة ٤/ ٢٨- ٢٩ .

(٥) رواه البخاري ٢/ ٣١٧ في كتاب الأذان ، باب الدعاء قبل السلام ، ح٨٣٤ ، ومسلم ٤/ ٢٠٨٧ في كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ، ح٢٧٠٥ .

(٦) يعني : أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

(٧) في د ، ق زيادة : هي .

فقال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»[1].

وقوله في دعائه الذي كان لا يدعه: وإن دعا بدعاء أردفه به[2]: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. وقنا عذاب النار»[3].

وقد أثنىٰ تعالىٰ علىٰ خاصته[4] أولي الألباب بأنهم سألوه: أن يقيهم عذاب النار. فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال ﷺ لأم حبيبة[5] - رضي الله عنها -: «لو سألت الله أن يجيرك من عذاب النار لكان خيراً لك»[6]، و«كان

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٦/ ١٧١، والترمذي ٥/ ٥٣٤ في كتاب الدعوات، باب (٨٥) ح٣٥١٣، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه ٢/ ١٢٦٥ في كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، ح٣٨٥٠ والحاكم في المستدرك ١/ ٧١٢ ح١٩٤٢ وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني. انظر: صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٢٨ ح٣١٠٥.

(٢) في ط والجميع سوى ش: إياه.

(٣) رواه البخاري ١١/ ١٩١ في كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة»، ح٦٣٨٩، ومسلم ٤/ ٢٠٧٠ في كتاب الدعاء والذكر، باب فضل الدعاء باللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة...، ح٢٦٩٠، وأحمد في مسنده ٣/ ١٠١.

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة: وهم.

(٥) هي أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية، هاجرت إلى الحبشة وعقد عليها النبي ﷺ وهي هناك وأصدقها عنه صاحب الحبشة أربعمائة دينار، توفيت رضي الله عنها سنة ٤٤هـ.

ترجمتها في: السير ٢/ ٢١٨، الإصابة ٤/ ٢٩٨، شذرات الذهب ١/ ١٠.

(٦) رواه مسلم ٤/ ٢٠٥٠-٢٠٥١ في كتاب القدر، باب بيان أن الآجال والأرزاق لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر، ح٢٦٦٣، وأحمد في مسنده ١/ ٣٩٠، وقد جاء في الحديث

يستعيذ كثيراً من عذاب النار ، و[1]"عذاب القبر"[2] ، و «أمر المسلمين : أن يستعيذوا في تشهدهم من عذاب النار، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال»[3] . حتىٰ قيل : إن هذا الدعاء واجب في الصلاة . لا تصح إلا به[4] . وهذا أعظم من أن نستقصيه[5] .

أن أم حبيبة ـ رضي الله عنها ـ قالت : اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية ، فقال لها النبي ﷺ : «قد سألتِ الله لآجال مضروبة وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة ، لن يعجل الله شيئاً قبل حله ، أو يؤخر شيئاً عن حله ، ولو كنت سألتِ الله أن يبعدك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل» .

(١) في ط والجميع سوى ش : ومن .

(٢) رواه البخاري ٢/ ٣١٧ في كتاب الأذان ، باب الدعاء قبل السلام ، ح٨٣٢ ، ومسلم ١/ ٤١٢ في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ، ح٥٨٩ ، وأحمد في مسنده ٢/ ١٨٥ .

(٣) رواه مسلم ١/ ٤١٢ في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ، ح٥٨٨ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٤٧٧ .

(٤) قال الإمام مسلم بعد أن ذكر روايات الحديث السابق بلغني أن طاوساً قال لابنه : أدعوت بها في صلاتك؟ فقال : لا . قال : أعد صلاتك ، لأن طاوساً رواه عن ثلاثة أو أربعة . أو كما قال . انظر : صحيح مسلم ١/ ٤١٣ .

قال النووي ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر قول طاوس لابنه ـ رحمه الله تعالى ـ أنه حمل الأمر به على الوجوب فأوجب إعادة الصلاة لفواته، وجمهور العلماء على أنه مستحب ليس بواجب. ولعل طاوساً أراد تأديب ابنه ، وتأكيد هذا الدعاء عنده ، لا أنه يعتقد وجوبه والله أعلم . انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ٥/ ٨٩ .

(٥) في ق : يستعصيه .

ودخل رسول الله ﷺ علىٰ مريض يعوده ، فرآه مثل الفرخ فقال : « **ما كنت تدعو به؟** » فقال : كنت أقول : اللهم[1] ما كنت معاقبني به في الآخرة فعاقبني به في الدنيا . فقال : « **سبحان الله إنك لا تطيق ذلك . ألا سألت الله العفو والعافية؟** »[2] .

وفي المسند عنه : «**ما سئل الله شيئا أحب إليه من سؤال العفو والعافية**»[3] . وقال لبعض أصحابه : «**ما تقول إذا صليت؟** » قال[4][5] : أسأل الله الجنة ، وأعوذ به من النار ، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة[6] معاذ . فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) «اللهم» ساقطة من د .

(٢) رواه مسلم ٤/ ٢٠٦٨ في كتاب الدعاء باب كراهية الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا ، ح٢٦٨٨ ، والترمذي ٥/ ٥٢١ في كتاب الدعوات ، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد ، ح٣٤٨٧ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٣) رواه الترمذي ٥/ ٥٥٢ في كتاب الدعوات ، باب (٨٥) ، ح٣٥١٥ وفي باب في دعاء النبي ﷺ ، ح٣٥٤٨ وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر القرشي ، وهو ضعيف في الحديث . ضعفه بعض أهل العلم من قبل حفظه . وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٢٧٢ في كتاب الجنائز ، باب الترغيب في سؤال العفو والعافية ، وقال : رواه الترمذي ، وقال : حديث غريب ، وابن أبي الدنيا ، والحاكم في حديث ، وقال : صحيح الإسناد .

(٤) في ط والجميع سوى ش ، م : فقال .

(٥) في أ ، ب زيادة : إني .

(٦) في ش : ودندنة . والدندنة : كلام الرجل بصوت يسمع ولا يفهم . انظر : المعجم الوسيط ٢٩٨ مادة : (دندن) .

«[١] حولها ندندن»[٢] .

فأين هذا من حال من قال : لا أحبك لثوابك ؛ لأنه عين حظي . وإنما أحبك لعقابك . لأنه لا حظ لي فيه[٣] . والرجاء عين الحظ . ونحن قد خرجنا عن نفوسنا ، فما لنا وللرجاء؟ فهذا وأمثاله أحسن ما يقال فيه[٤] : إنه شطح قد[٥] يعذر فيه صاحبه إذا كان مغلوباً علىٰ عقله ، كالسكران ونحوه . ولا تهدر محاسنه ومعاملاته وأحواله وزهده .

ولكن الذي ينكر[٦] كون هذا من الأحوال الصحيحة ، والمقامات العلية ، التي يتعاطاها العبد ، ويشمر إليها[٧] . فهذا الذي لا تلبس عليه الثياب ، ولا تصبر عليه نفوس العلماء . وحاشا سادات القوم وأئمتهم من هذه الرعونات ؛ بل هم أبعد الناس منها .

نعم قد يعرض لأحدهم حال يحدث نفسه فيه بأنه لو عذبه لكان راضياً بعذابه ، كرضا صاحب الثواب بثوابه . ويعزم علىٰ ذلك بقلبه ، ولكن هذا عزم وأمنية ، وعند الحقيقة لا يكون لذلك أثر البتة . ولو امتحنه بأدنىٰ محنة لصاح

---

(١) في ط والجميع سوى ش زيادة : إنا .

(٢) سبق تخريجه ص ١٢٢٧.

(٣) انظر : ما سبق ص١٤٤٠.

(٤) في ط : فيهم .

(٥) في د : وقد .

(٦) «ينكر» ساقطة من د ، وفي ش : تنكر .

(٧) في ق : إليه .

واستغاث ، وسأل العافية كما جرىٰ للقائل[1][2] .

وليس لي من هـواك بُدٌّ فكيفمـا شئتَ فامتحنِّي

فامتحنه بعسر البول . فطاحت هذه الدعوىٰ عنه ، واضمحل خيالها[3] ، وجعل يطوف علىٰ صبيان المكاتب ، ويقول : ادعوا لعمكم الكذاب[4] .

فالعزم علىٰ الرضا لون . وحقيقته لون آخر .

وأما قوله : «**أنَّ التَّنزيلَ نَطَقَ بِهِ**[5] **لِفَائِدَةٍ وَاحِدَةٍ**[6] ، **وَهِيَ كَونُه يُبَرِّدُ حَرَارَةَ الخَوفِ**» .

فيقال : بل لفوائد[7] كثيرة أخر سوىٰ هذه[8] .

منها : إظهار العبودية ، والفاقة ، والحاجة إلىٰ ما يرجوه من ربه . ويستشرفه

---

(١) القائل : سمنون بن حمزة الخواص - أبو الحسن - كان يسمى سمنون المحب وسمى نفسه سمنون الكذاب ، صحب سرياً السقطي ، وأبا أحمد القلانسي وغيرهما ، وهو من كبار مشايخ العراق ، مات بعد الجنيد وذلك سنة ٢٩٨هـ . ترجمته في : طبقات الصوفية ص١٩٥ حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٩ ، وتاريخ بغداد ٩/ ٢٣٤ ، البداية والنهاية ١١/ ١٢٣ .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : وهو سمنون .

(٣) «خيالها» ساقطة من غ ، ب ، أ وفي ط ، م : حالها .

(٤) انظر : الحلية ١٠/ ٣١٠ ، والقشيرية ٨٠ ، وجاء البيت فيهما : وليس لي في سواك حظ .

(٥) في ط والجميع سوى ش : وإنما نطق به التنزيل .

(٦) «واحدة» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٧) في غ : الفوائد .

(٨) في ط زيادة : مشاهدة .

من إحسانه ، وأنه لا يستغني عن فضله [1] طرفة عين .

ومنها : أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ، ويسألوه من فضله ؛ لأنه الملك الحق الجواد ، أجود من سئل ، وأوسع من أعطىٰ . وأحب ما إلىٰ الجواد : أن يرجىٰ ، ويؤمل ويسأل . وفي الحديث : «من لم يسأل الله يغضب عليه»[2] ، والسائل راجٍ وطالب . فمن لم يرج الله يغضب عليه .

فهذه فائدة أخرىٰ من فوائد الرجاء ، وهي التخلص به من غضب الله .

ومنها : أن الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلىٰ الله ، ويطيب له المسير ، ويحثه عليه ، ويبعثه علىٰ ملازمته . فلولا الرجاء لما سرىٰ[3] أحد . فإن الخوف وحده لا يحرك العبد ، وإنما يحركه الحب ، ويزعجه الخوف ، ويحدوه الرجاء .

ومنها : أن الرجاء يطرحه علىٰ عتبة المحبة ، ويلقيه في دهليزها[4] . فإنه كلما

---

(١) في ط ، أ ، ب ، غ زيادة : وإحسانه .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ص٢٢٤ ح٦٥٨ ، ورواه أحمد ٢/ ٤٤٣ بلفظ : «من لم يدع الله سبحانه غضب عليه»، وابن ماجه كذلك ٢/ ١٢٥٨ في كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، ح٣٨٢٧ ، والترمذي ٥/ ٤٥٦ في كتاب الدعوات ، باب (٢) ح٣٣٧٣ ، والحاكم في المستدرك ١/ ٦٦٨ ح١٨٠٧ ، وقال : حديث صحيح الإسناد ، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٣٥ ح١٠٩٩ وحسنه الألباني . انظر : الصحيحة ٦/ ٣٢٣ ح٢٦٥٤ .

(٣) في ط ، ب ، غ ، أ : سار .

(٤) في ش «على دهليزها» والدهليز: المدخل بين الباب والدار. انظر: المعجم الوسيط ص٣٠٠ .

اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ، ازداد حباً لله وشكراً له ، ورضاً عنه[١] .

ومنها : أنه يبعثه على أعلى المقامات ، وهو مقام الشكر ، الذي هو خلاصة العبودية . فإنه إذا حصل له مرجوه كان ذلك[٢] أدعى لشكره .

ومنها : أنه يوجب له المزيد من معرفته بأسمائه[٣] ومعانيها ، والتعلق بها . فإن الرجاء تعلق بأسماء الإحسان ، وتعبد بها ، ودعاء بها[٤] ، وقد[٥] قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠] فلا ينبغي أن يُعطل دعاؤه بأسماء الإحسان[٦] ، التي هي أعظم ما يدعوه بها الداعي . فالقدح في مقام الرجاء ، تعطيل لعبودية هذه الأسماء والدعاء بها[٧] .

ومنها : أن المحبة لا تنفك عن الرجاء - كما تقدم - فكل واحد منهما يمد[٨] الآخر ويقويه .

ومنها : أن الخوف مستلزم للرجاء ، والرجاء مستلزم للخوف . فكل راج خائف ، وكل خائف راج ؛ ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن

---

(١) في ط والجميع سوى ش : ورضاً به وعنه .

(٢) «ذلك» ساقطة من ط .

(٣) في ط والجميع سوى ش : معرفة الله وأسمائه .

(٤) في ط والجميع سوى ش : فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى متعبدٌ بها داع بها .

(٥) «قد» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٦) في ط ، غ ، أ ، ب ، ق : بأسمائه الحسنى ، وفي ح٢ ، د : بأسمائه الحسان .

(٧) في ط : وتعطيل للدعاء بها .

(٨) في أ ، ب : يمدح .

فيه وقوع الخوف[1] . قال الله تعالىٰ : ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح : ١٣] ، قال[2] كثير من المفسرين : المعنىٰ مالكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا : والرجاء بمعنىٰ الخوف[3] .

والتحقيق : أنه ملازم له ، فكل راج خائف من فوات مرجوه . والخوف بلا رجاء ، يأس[4] وقنوط . وقال تعالىٰ : ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثيه : ١٤] ، قالوا في تفسيرها : لا يخافون وقائع الله بهم ، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم[5] .

ومنها : أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه ، فأعطاه ما رجاه : كان ذلك ألطف موقعاً ، وأحلىٰ عند العبد ، وأبلغ من حصول ما لم يرجه . وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار ، فعلىٰ قدر

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : «الخشية أبداً متضمنة للرجاء ، ولولا ذلك لكانت قنوطاً ، كما أن الرجاء مستلزم للخوف ، ولولا ذلك لكان أمناً ، فأهل الخوف لله والرجاء له ، هم أهل العلم الذين مدحهم الله» . انظر : الإيمان ٢١ .

(٢) في م ، ح٢ : وقال .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٢/ ٢٤٩ - ٢٥٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٩٨ .

(٤) في م ، ح٢ : إياس .

(٥) انظر : تفسير الطبري ١١/ ٢٥٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٨ ، وفسرت أيام الله بنعمه كما في تفسير ابن كثير ٦/ ٢٦٦ ، وكما في تفسير الآية الخامسة من سورة إبراهيم وهي قوله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمـات إلى النور وذكرهم بأيام الله﴾ . انظر : تفسير الطبري ٧/ ٤١٧ - ٤١٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦ ، وتفسير ابن كثير ٤/ ١٠٩ .

رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة[1]، بحصول مرجوِّهم واندفاع مخُوفِهم .

ومنها : أن الله سبحانه وتعالىٰ يريد من عباده[2] تكميل مراتب عبوديته : [من الذل والانكسار ، والتوكل والاستعانة ، والخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، والرضا ، والإنابة وغيرها[3] . ولهذا قدر عليه الذنب وابتلاه به ، لتكميل[4] مراتب عبوديته][5] بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه ، فكذلك يكملها[6] بالرجاء والخوف .

ومنها : أن في الرجاء - من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله - ما يوجب تعلق القلب بذكره ، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته ، وتنقل[7] القلب في رياضها الأنيقة ، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة - كما تقدم بيانه[8]- فإذا فني عن ذلك وغاب عنه ، فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات .

---

(١) في ح٢ ، م ، ق زيادة : بخوفهم .

(٢) في ط : عبده .

(٣) في ب ، ح٢ ، م ، أ : وغيره .

(٤) في ط ، ق ، ش ، ب ، أ : لتكمل ، وفي م ، ح٢ : لتتكمل .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من غ .

(٦) في ط ، غ ، أ ، ب ، د ، ق : تكميلها .

(٧) في ق : ونقل ، وفي ش : وميل .

(٨) انظر : ص ١٠٨٢ .

إلىٰ فوائد أخرىٰ كثيرة يطالعها، من حسن[1] تأمله وتفكره[2] في استخراجها. وبالله التوفيق .

والله يشكر لشيخ الإسلام[3] سعيه ، ويعلي درجته ، ويجزيه أفضل جزائه ، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته . فلو وجد مريده[4] سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه لما فعل . كيف وقد نفعه الله بكلامه؟ وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه وهو أحد من كان علىٰ يديه فتحه يقظة ومناماً؟

وهذا غاية جهد المقل في هذا الموضع . فمن كان عنده فضل علم فليجد به، أو فليعذر[5] ، ولا يبادر إلىٰ الإنكار . فكم بين الهدهد وبين سليمان نبي الله[6] ﷺ ؟ وهو يقول[7] : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل : ٢٢] ، وليس[8] شيخ الإسلام أعلم من نبي الله ، ولا المعترض عليه بأجهل من هدهد . وبالله المستعان .

---

(١) في ط والجميع سوى غ ، ح٢ : أحسن .

(٢) في ق : وتفكر .

(٣) يعني: الهروي .

(٤) يعني ابن القيم بالمريد هنا نفسه .

(٥) في ش : وليعذر .

(٦) في ط والجميع سوى ش : ونبي الله سليمان .

(٧) في ط ، غ ، ب ، أ زيادة : له .

(٨) في م ، ح٢ : فليس .

فصـل

قال صاحب المنازل - رحمه الله - :

درجات الرجاء الدرجة الأولى

«وَالرَّجَاءُ عَلىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : رَجَاءٌ يَبعَثُ العَامِلَ عَلىٰ الاجتِهَادِ ، وَيُولِّدُ التَّلذُّذَ بِالخِدمَةِ ، وَيُوقِظُ الطِّبَاعَ للسَّمَاحَةِ بِتَركِ المنَاهِي»[1] .

أي ينشطه لبذل جهده لما يرجوه من ثواب ربه . فإن من عرف قدر مطلوبه ، هان عليه ما يبذل فيه .

وأما توليده للتلذذ[2] بالخدمة : فإنه كلما طالع قلبُه ثمرها[3] ، وحسن عاقبتها الْتَذَّ بها . وهذا كحال من يرجو الأرباح العظيمة في سفره ، ويقاسي مشاق السفر لأجلها . فكلما صورها لقلبه هانت عليه تلك المشاق والْتَذَّ بها . وكذلك المحب الصادق الساعي في مراضي محبوبه الشاقة عليه[4] ، كلما تأمل ثمرة رضاه عنه ، وقبوله سعيه ، وقربه منه : تلذذ بتلك المساعي . وكلما قوىٰ علم العبد بإفضاء ذلك السبب إلىٰ المسبب المطلوب ، وقوي علمه بقدر المسبب وقرب السبب منه : ازداد التذاذاً بتعاطيه .

وأما إيقاظ الطباع للسماحة بترك المناهي : فإن الطباع لها معلوم ورسوم

---

(١) انظر : المنازل ٢٦ .

(٢) في ب ، ح٢ : التذذ .

(٣) في ط والجميع سوى ش : ثمرتها .

(٤) « الشاقة عليه » : ساقط من د .

تتقاضاها من العبد ، ولا تسمح له بتركها إلا بعوض هو أحب إليها[1] من معلومها ورسومها ، وأجل عنده[2] منه ، وأنفع لها ، فإذا قوي تعلق الرجاء بهذا العوض الأفضل والأشرف[3] : سمحت الطباع بترك تلك الرسوم وذلك المعلوم . فإن النفس لا تترك محبوباً إلا لمحبوب هو أحب إليها منه ، أو حذراً من مخوف هو أعظم مفسدة لها من حصول مصلحتها بذلك المحبوب . وفي الحقيقة ففرارها من ذلك المخوف إيثار لضده المحبوب لها ، فما تركت محبوباً إلا لما هو أحب إليها منه . فإن من قدم إليه طعام [4] يضره ويوجب له السقم ، فإنما يتركه محبة للعافية ، التي هي أحب إليه من ذلك الطعام .

قال صاحب المنازل [5] :

الدرجة الثانية

« **الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : رَجَاءُ أَرْبَابِ الرِّيَاضَاتِ : أَن يَبْلُغُوا مَوقِفاً تَصْفُو فِيهِ هِمَمُهُم ، بِرَفضِ الملذُوذَاتِ ، وَلُزُومِ شُرُوطِ العِلمِ ، وَاستِقصَاءِ حُدُودِ الحَمِيَّةِ** »[6] .

أرباب الرياضات[7] : هم المجاهدون لأنفسهم بترك مألوفها[8] ، والاستبدال

---

(١) في ش : إليه .

(٢) في ط ، ح٢ ، ق ، د : عندها .

(٣) في ط ، أ ، ب ، غ ، ح٢ : الأشرف .

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة : لذيذ .

(٥) «صاحب المنازل» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٦) انظر : المنازل ٢٦ .

(٧) في د : البصائر .

(٨) في ط والجميع سوى ش : مألوفاتها .

بها مألوفات هي خير[١] وأكمل . فرجاؤهم أن يبلغوا مقصودهم بصفاء الوقت والهمة ، من تعلقها بالملذوذات . وتجريد الهم عن الالتفات إليها . وبلزوم[٢] شروط العلم ، وهو الوقوف عند حدود الأحكام الدينية . فإن رجاءهم متعلق بحصول ذلك لهم ، واستقصاء حدود الحمية .

و«الحمية» هي[٣] : العصمة والامتناع من تناول ما يخشىٰ ضرره آجلاً أو عاجلاً[٤] . ولها[٥] حدود متىٰ خرج العبد عنها انتقض عليه مطلوبه ، والوقوف علىٰ حدودها[٦] بلزوم شروط العلم .

والاستقصاء في تلك الحدود بأمرين : بذل الجهد في معرفتها علماً ، وأخذ النفس بالوقوف عندها طلباً وقصداً .

الدرجة الثالثة

قال : « **الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : رَجَاءُ أَربَابِ القُلُوبِ . وَهُوَ رَجَاءُ لِقَاءِ الحَقِّ**[٧] ، **البَاعِثُ عَلَىٰ الاشتِيَاقِ** ، [٨] **المنَغِّصُ لِلعَيشِ ، المزَهِّدُ فِي الخَلقِ**»[٩] .

---

(١) في ط والجميع زيادة : منها .

(٢) في ش : ولزوم .

(٣) «هي» ساقطة من ط .

(٤) انظر : لسان العرب ٣/ ٣٤٨ ، مادة : (حما) ، والمعجم الوسيط ٢٠١ .

(٥) في ط ، ب ، أ ، غ : وله .

(٦) في ح٢ : حدوده .

(٧) في ط والجميع سوى ش ، د ، ق : الخالق .

(٨) في ط والجميع سوى ش ، د زيادة : المبغض .

(٩) انظر : المنازل ٢٦ ، لكن قال : رجاء أرباب طيب القلوب .

هذا الرجاء أفضل أنواع الرجاء وأعلاها . قال تعالىٰ : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [1] [الكهف : ١١٠] ، وقال تعالىٰ : ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍۚ﴾ [العنكبوت : ٥] .

وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته ، وإليه شخصت أبصار المشتاقين . ولذلك سلاهم الله بإتيان أجل لقائه ، وضرب لهم أجلاً له[2] يسكن نفوسهم ويطمئنها .

و«الاشتياق» هو سفر القلب في طلب محبوبه .

واختلف المحبون : هل يبقىٰ عند لقاء المحبوب أم يزول؟ علىٰ قولين :

فقالت طائفة : يزول ؛ لأنه إنما يكون مع الغيبة . وهو سفر القلب إليه[3] ، فإذا انتهىٰ السفر[4] ، وضع[5] الاشتياق عن عاتقه ، وصار الاشتياق أنساً به ولذة بقربه[6] .

وقالت طائفة : بل يزيد ولا يزول[7] باللقاء[8] .

---

(١) في ط والجميع سوى ش الآية مكملة .

(٢) «له» ساقطة من ط .

(٣) في ط والجميع سوى ش : إلى المحبوب .

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة : واجتمع بمحبوبه .

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة : عصا .

(٦) انظر : القشيرية ٣٣١ .

(٧) في ب : فلا يزول .

(٨) انظر : القشيرية ٣٢٩ .

قالوا : لأن الحب يقوىٰ بمشاهدة جمال المحبوب أضعاف ما كان حال غيبته . وإنما يواري سلطانه فناؤه ودهشته بمعاينة محبوبه ، حتىٰ إذا تواريٰ عنه ظهر سلطان شوقه إليه ، ولهذا قيل :

وأعظمُ ما يكون الشَّوقُ يوماً إذا دَنَت الخيامُ مِن[1] الخيامِ[2]

وقد[3] ذكرنا هذه المسألة مستقصاة ، وتوابعها في كتابنا الكبير في المحبة[4] . وفي كتاب سفر الهجرتين[5] .

وسنعود إليها إذا انتهينا إلىٰ منزلتها إن شاء الله تعالىٰ[6] .

وقوله : «المَنَغِّصُ لِلعَيشِ» فلا ريب أن عيش المشتاق منغص حتىٰ يلقىٰ محبوبه ، فهناك تقر عينه ، ويزول عن عيشه تنغيصه . وكذلك يزهد في الخلق غاية التزهيد لأن صاحبه طالب للأنس بالله والقرب منه ، فهو أزهد شيء في الخلق ، إلا من أعانه علىٰ هذا المطلوب لقاه[7] منهم وأوصله إليه . فهو أحب

---

(١) في د : إلى .

(٢) ذكره ابن القيم في كتابه روضة المحبين ٣٢ ولم ينسبه إلى أحد ، وكذلك القشيري في الرسالة ٣٣٢ مبدوءاً بلفظ : وأبرح . لكن جاء عند ابن قتيبة في عيون الأخبار ١/ ١٤١ لفظ غريب منه منسوباً إلى إسحاق بن إبراهيم وهو قوله :

وكل مسافر يزداد شوقاً إذا دنت الديار من الديار

(٣) في ش : ولقد .

(٤) انظر : كتابه روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٣١-٣٢ .

(٥) انظر : كتابه : طريق الهجرتين ٥٣٥ وما بعدها .

(٦) انظر : المدارج ٣/ ٥١ وما بعدها .

(٧) «لقاه» ساقطة من ط ، ب ، غ ، أ .

خلق الله إليه ، ولا يأنس من الخلق بغيره ، ولا يسكن إلىٰ سواه . فعليك بطلب هذا الرفيق جهدك ، فإن لم تظفر به فاتخذ الله صاحباً ، ودع الناس كلهم جانباً .

مت بداء الهوىٰ وإلا فخاطر واطرق الحي والعيون نواظر

لا تخف وحشة الطريق إذا جئـ ـت وكن في خفارة الحب سائر

واصبر النفس ساعة عن سواهم فإذا لم تجب لصبر فصابر

وصم اليوم واجعل الفطر يوما فيه تلقىٰ الحبيب بالبشر شاكر

وافطم النفس عن سواه فكل[1] الـ ـعيش بعد الفطام نحوك صائر

وتأمل سريرة القلب واستحـ ـي من الله يوم تبلىٰ السرائر

واجعل الهم واحداً يكفك الله هموما شتىٰ فربك قادر

وانتظر يوم دعوة الخلق إلىٰ الله[2] ربهم من بطون المقابر

واستمع ما الذي به أنت تدعىٰ به[3] من صفات تلوح وسط المحاضر

وسمات تبدو علىٰ أوجه الخلـ ـق عيانا تجلىٰ علىٰ[4] كل ناظر

يا أخا اللب إنما السير عزم ثم صبر مؤيد بالبصائر

يا لها من[5] ثلاثة[6] من ينلها يرق يوم المزيد فوق المنابر

(١) في ق : وكل .

(٢) «الله» ساقط من الجميع سوى ش ، ط .

(٣) «به» ساقطة من ق

(٤) في د : عن .

(٥) «من» ساقطة من م ..

(٦) في ب ، أ ، غ : ثلاث ، وفي ش : بلية .

فاجتهد في الذي يقال لك الـ ... ـبشرىٰ بذا يوم ضرب البشائر

عمل خالص بميزان وحي ... مع سر هناك في القلب حاضر[1]

* * *

(١) لم أقف على قائل هذه الأبيات ولعلها من نظم ابن القيم.

فصل

منزلة الرغبة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الرغبة»[١] .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء : ٩٠] والفرق بين «الرجاء» و«الرغبة»[٢] ، أن الرجاء طمع ، والرغبة طلب ، فهي ثمرة الرجاء ، فإنه إذا رجا الشيء طلبه . والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف ، فمن رجا شيئا طلبه ورغب فيه ، ومن خاف شيئا هرب منه[٣] .

قال صاحب المنازل :

تعريف الهروي للرغبة

«الرَّغبَةُ : هِيَ مِنَ الرَّجَاءِ بِالحَقِيقَةِ ؛ لِأَنَّ الرَّجَاءَ طَمَعٌ يَحتَاجُ إِلَىٰ تَحقِيقٍ ، وَالرَّغبَةُ سُلُوكٌ عَلَىٰ التَّحقِيقِ»[٤] .

---

(١) الرغبة في اللغة : الحرص على الشيء والطمع فيه : انظر : المعجم الوسيط ٣٥٦ مادة : «رغب» .
وهي عند الصوفية : عبارة عن تحقيق السلوك ، وهي أحق من الرجاء ، لأن الرجاء طمع يحتاج إلى تحقيق ، وأما الرغبة في السلوك على التحقيق ، وهي أقسام :
الأول : رغبة النفس وهي : تحققها بالسلوك بسبب ما وعدت به من الثواب على أعمال البر .
الثاني : رغبة القلب وهي : التحقيق بالحقيقة ، فيصونه ذلك عن الالتفات إلى غير ما هو المقصود من وجوده .
الثالث : رغبة السر وهي : التحقق بالحق . انظر : لطائف الإعلام ١/ ٤٩٤ ، المعجم الصوفي ١٠٩ .

(٢) في ط والجميع سوى ش : بين الرغبة والرجاء .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : والمقصود أن الراجي طالب ، والخائف هارب .

(٤) انظر : المنازل ٢٧ ، لكن قال : «الرغبة ألحق بالحقيقة من الرجاء وهي فوق ؛ لأن الرجاء طمع يحتاج إلى تحقيق ، والرغبة سلوك على التحقيق» .

أي «الرغبة» تتولد من الرجاء، لكنه طمع. وهي سلوك وطلب.

وقوله: «**الرَّجَاءُ طَمَعٌ يحتَاجُ إلىٰ تحَقِيقٍ**» أي طمع في مغيب عنه مشكوك[1] في حصوله له[2]، وإن كان متحققا[3] في نفسه، كرجاء العبد دخول الجنة. فإن الجنة متحققة لا شك فيها، وإنما الشك في دخوله إليها، وهل[4] يوافي ربه بعمل يمنعه منها أم لا؟ بخلاف «الرغبة» فإنها لا تكون إلا بعد تحقيق[5] ما يرغب فيه. فالإيمان في الرغبة أقوىٰ منه في الرجاء، فلذلك قال «والرغبة سلوك علىٰ التحقيق».

هذا معنىٰ كلامه، وفيه نظر.

فإن «الرغبة» أيضا طلب مغيب، هو علىٰ شك من حصوله. فإن المؤمن[6] يرغب في الجنة وليس بجازم بدخولها[7]. فالفرق الصحيح: أن «الرجاء» طمع، و«الرغبة» طلب، فإذا قوي الطمع صار طلبا.

درجات الرغبة

الدرجة الأولى

قال: «**وَالرَّغبَةُ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولىٰ: رَغْبَةُ أَهلِ الخَبَرِ**»[8]

---

(١) في ق: زيادة: فيه.

(٢) «له» ساقطة من ط، م، غ، أ، ب.

(٣) في ش: محققاً.

(٤) في غ: وهو.

(٥) في ط والجميع: تحقق.

(٦) في ب: فالمؤمن.

(٧) في م: دخولها.

(٨) في ح٢، م: الخير.

تَتولَّدُ مِن العِلْمِ ، فَتَبعَثُ عَلىٰ الاجتِهَادِ المَنوُطِ بِالشُّهُودِ ، وَتَصونُ[1] السَّالِكَ عَن وَهنِ الفَتْرةِ ، وَتمنَعُ[2] صَاحِبَهاَ مِن الرُّجُوعِ إلىٰ غثَاثَةِ[3] الرُّخَصِ»[4] .

أراد «بالخبر»[5] ها هنا الإيمان[6] الصادر عن الأخبار ، ولهذا جعل تولدها من العلم . ولكن هذا الإيمان متصل بمنزل[7] «الإحسان» منه يشرف عليه ، ويصل إليه . ولهذا قال : «المنوط بالشهود» أي المقترن بالشهود ، وذلك الشهود : هو مشهد مقام الإحسان . وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، ولا مشهد للعبد في الدنيا أعلىٰ من هذا .

وعند كثير من الصوفية أن فوقه مشهداً أعلىٰ منه ، وهو شهود الحق مع غيبته عن كل ما سواه . وهو مقام الفناء ، وقد عرفت ما فيه .

ولو كان فوق[8] مقام «الإحسان» مقام آخر لذكره النبي ﷺ لجبريل .

---

(١) في ح٢ ، م : ويصون .

(٢) في ح٢ ، م : ويمنع .

(٣) الغَثُّ : الرديء من كل شيء . يقال : غَثَّ اللحم غثاثة وغُثُوثةً فسد ، وغثت الشاة : نحفت وهزلت ، وغث حديث القوم : رَدُؤ وفسد . انظر : لسان العرب ١٠/ ١٨ ، والمعجم الوسيط ٦٤٤ مادة : غَثَّ .

(٤) انظر : المنازل ٢٧ لكن قال : من وهن الفترة .

(٥) في ح٢ ، م : بالخير .

(٦) «الإيمان» ساقطة من ش .

(٧) في ط ، ح٢ ، م ، غ ، ق : منزله .

(٨) «فوق» ساقطة من غ .

ولسأله[1] عنه . فإنه جمع مقامات الدين كلها في الإسلام والإيمان والإحسان[2] .

تعريف الفناء المحمود

نعم الفناء المحمود : هو[3] تحقيق مقام الإحسان[4] ، أن يفنى بحبه وخوفه ورجائه ، والتوكل عليه وعبادته ، والتبتل إليه[5] عن[6] غيره . وليس فوق ذلك مقام يطلب إلا ما هو من عوارض الطريق .

قوله : «وَتَصُونُ[7] السَّالِكَ عَن وَهَنِ الفَتْرَةِ» أي: تحفظه[8] عن ضعف[9] فتوره وكسله ، الذي سببه عدم الرغبة أو قلتها .

وقوله : «وَتَمنَعُ[10] صَاحِبَهَا مِن الرُّجُوعِ إِلَىٰ غثَاثَة الرُّخَصِ» .

---

(١) في ش : وسأله وفي ط : ويسأله جبريل .

(٢) ففي الحديث الصحيح أن جبريل أتى النبي ﷺ يوماً في صورة رجل ، وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، وعن الساعة وأماراتها .

الحديث رواه البخاري ١/ ١١٤ في كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان . . . (ح٥٠) ، ومسلم ١/ ٣٦-٣٧ في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان . . . . (ح٨) .

(٣) «هو» ساقط من ش .

(٤) في ح٢ ، أ ، ب ، د ، م زيادة : هو ، وفي ط : وهو .

(٥) «إليه» ساقطة من : د .

(٦) في أ ، ح٢ ، م : من .

(٧) في الأصل والجميع سوى ط : ويصون ، وما أثبته منهما والسياق يقتضيه .

(٨) في الأصل والجميع سوى ط : يحفظ ، وما أثبته من ط .

(٩) في ط ، أ ، ب ، غ : وهن .

(١٠) في الأصل ، أ ، ق : يمنع ، وما أثبته من ط وباقي النسخ والسياق يقتضيه .

أهل العزائم بناء[1] أمرهم على الجد والصدق . والسكون[2] منهم إلى الرخص رجوع وبطالة .

وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل . ليس على إطلاقه . فإن الله عز وجل يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه ، وفي المسند مرفوعا إلى النبي ﷺ: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته»[3] . فجعل الأخذ بالرخص قبالة إتيان المعاصي ، وجعل حظ هذه[4] : المحبة . وحظ هذه[5] : الكراهية ، و«ما عرض للنبي ﷺ أمران إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثماً»[6] ،

---

(١) في د : بنوا .

(٢) في ط والجميع : فالسكون .

(٣) رواه أحمد في مسنده ٢/ ١٠٨ بلفظ : «إن الله يحب أن تؤتى . . . » والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٤٠٣ ح٣٨٩٠ ، وأورده الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٠/ ٣٤٧ ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه ٢/ ٧٣ ح٩٥٠ ، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٢٧٦ وذكره الهيثمي في المجمع ٣/ ١٦٢ وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

وصححه الألباني . انظر : صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٤٤٤ ح١٠٥١ ، وصححه محققو مسند الإمام أحمد (المسند ١٠/ ١١٢ ح٥٨٧٣) .

(٤) في ط والجميع : هذا .

(٥) في ط والجميع : هذا .

(٦) رواه البخاري ٦/ ٥٦٦ في كتاب المناقب ، باب صفة النبي ﷺ ، ح٣٥٦٠ ، ومسلم ٤/ ١٨١٣ في كتاب الفضائل ، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله ، ح٢٣٢٧ ، وأحمد في مسنده ٦/ ٣١-٣٢ .

والرخصة[١] أيسر من العزيمة[٢] ، وهكذا كانت[٣] حاله في فطره وفي سفره[٤] وجمعه[٥] بين الصلاتين ، والاقتصار من الرباعية على شطرها[٦] وغير ذلك .

الرخص نوعان

فنقول :

النوع الأول

الرخصة نوعان : أحدهما : الرخصة المستقرة المعلومة من الشرع نصاً ، كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، عند الضرورة وإن قيل لها : عزيمة باعتبار الأمر والوجوب ، فهي رخصة باعتبار الإذن والتوسعة . وكفطر المريض

---

(١) الرخصة في اللغة : مشتقة من الرخص وهو ضد الغلاء ، فهي عبارة عن اليسر والسهولة . انظر: لسان العرب ٥/ ١٧٨ مادة : (رخص) .

وفي الاصطلاح : تعددت عبارات الأصوليين في تعريفها ، قال الغزالي : هي عبارة عما وسع للمكلف في فعله لعذر ، وعجز عنه ، مع قيام السبب المحرم . انظر : المستصفى ١٠/ ٩٨ . وقال الآمدي : هي ما شرع من الأحكام لعذر مع قيام الدليل المحرم . انظر : الإحكام في أصول الأحكام ١/ ١٨٨ .

(٢) العزيمة في اللغة : مشتقة من العزم وهو الجد ، وما عقد عليه القلب من الأمر . انظر : لسان العرب ٩/ ١٩٣ . مادة : عزم .

وفي الاصطلاح : تعددت عبارات الأصوليين في تعريفها . قال الغزالي : هي ما لزم العباد بإيجاب الله تعالى . انظر : المستصفى ١/ ٩٨ .

وقال القرافي : هي طلب الفعل مع عدم اشتهار المانع الشرعي . انظر : شرح تنقيح الفصول للقرافي ص٨٧ .

(٣) في ط والجميع سوى ش : كان .

(٤) في ط ، غ ، أ ، ب : فطره وسفره .

(٥) في د : وفي جمعه .

(٦) في ط والجميع سوى ش ، ق ، د : ركعتين .

والمسافر ، وقصر الصلاة في السفر، وصلاة المريض إذا شق عليه القيام قاعداً، وفطر الحامل والمرضع خوفاً[1] علىٰ ولديهما ، ونكاح الأمة خوفاً من العنت ، ونحو ذلك . فليس في تعاطي هذه الرخص ما يوهن[2] رغبته ، ولا يرده[3] إلىٰ غثاثة ، ولا ينقص طلبه وإرادته البتة . فإن منها ما هو واجب ، كأكل الميتة عند الضرورة [4][5] . ومنها ما هو راجح المصلحة[6] ، كفطر المريض[7][8] ، وقصر المسافر وفطره[9] . ومنها ما مصلحته للمترخص وغيره ، ففيه مصلحتان قاصرة ومتعدية ، كفطر الحامل والمرضع [10] .

ففعل هذه الرخص أرجح وأفضل من تركها[11] .

---

(١) في ش : إذا خافتا .

(٢) في غ : مما يوهن .

(٣) في ط والجميع سوى ش : لا يرد .

(٤) في غ : الضرر .

(٥) هذا أحد الوجهين في مذهب أحمد وغيره ، وقيل: لا يجب . انظر : المغني ١٣/ ٣٣١ .

(٦) في ش : للمصلحة .

(٧) في ط ، غ ، د ، ب ، أ ، ق : الصائم المريض ، وفي ح٢ ، م : الصائم والمريض .

(٨) قال ابن قدامة : أجمع أهل العلم على إباحة الفطر للمريض في الجملة . انظر : المغني ٤/ ٤٠٣ .

(٩) انظر : المغني ٣/ ١٠٥ ، ١٢٥ و ٤/ ٤٠٦ .

(١٠) انظر : المرجع السابق ٤/ ٣٩٣ .

(١١) انظر : المرجع السابق ٣/ ١٢٥ و ٤/ ١٠٧ .

النوع الثاني

النوع الثاني : رخص التأويلات ، واختلاف المذاهب . فهذه تتبعُها حرام ينقص الرغبة ، ويوهن الطلب ، ويرجع بالمترخص إلىٰ غثاثة الرخص [1] .

فإن من ترخص بقول أهل مكة في الصرف [2] ، وأهل العراق في الأشربة [3] ،

---

(١) انظر : نماذج لهذه الرخص في كتاب الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٢) الصَّرْف : فضل الدرهم على الدرهم ، والدينار على الدينار ؛ لأن كل واحد منهما يصرف عن قيمة صاحبه . انظر : لسان العرب ٧/ ٣٢٩ مادة : (صرف) .

يعني : بقول أهل مكة في الصرف ، وهو قول ابن عباس ومن تبعه من المكيين في بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة متفاضلاً ، ومنعوه نسيئة .

وقد ذكر ابن رشد إجماع العلماء على أن بيع الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة لا يجوز إلا مثلاً بمثل يداً بيد ؛ لدلالة الأحاديث الصحيحة على ذلك إلا ما روي عن ابن عباس ، ومن تبعه من المكيين فإنهم أجازوا بيعه متفاضلاً ، إذا تم التقابض في المجلس ، ومنعوه نسيئة .

وكان اجتهاد ابن عباس - هنا - مستنداً إلى ما رواه عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ أنه قال : «لا ربا إلا في النسيئة» . والجمهور على تحريم التفاضل مقبوضاً أو نسيئة لدلالة الأحاديث الصريحة على ذلك . انظر : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٢/ ١٩٥-١٩٦ . وقد روى الطبراني أن ابن عباس رضي الله عنه رجع عن قوله في الصرف ونهى عنه . انظر : المعجم الكبير ١/ ١٧٦ باب (البيان في نسخ ذلك ورجوع ابن عباس عن الصرف ونهيه عنه رضي الله عنه) .

(٣) يعني بأهل العراق: قول إبراهيم النخعي ، وسفيان الثوري ، وابن أبي ليلى ، وشريك ، وابن شبرمة ، وأبي حنيفة ، وسائر فقهاء الكوفة ، وأكثر علماء البصرة .

قال ابن رشد : أما الخمر فإنهم اتفقوا على تحريم قليلها وكثيرها ، أعني التي هي من عصير العنب . وأما الأنبذة فإنهم اختلفوا في القليل منها الذي لا يسكر ، وأجمعوا على أن المسكر منها حرام ، فقال جمهور فقهاء الحجاز وجمهور المحدثين : قليل الأنبذة وكثيرها المسكرة حرام ، وقال العراقيون : إن المحرم من سائر الأنبذة المسكرة هو السكر نفسه لا العين . وسبب اختلافهم تعارض الآثار والأقيسة في هذا الباب . انظر : بداية المجتهد ١/ ٤٧١ .

وأهل المدينة في الأطعمة[1]، وأصحاب الحيل في المعاملات[2]، وقول ابن عباس في المتعة[3]، وإباحة

(١) يعني بأهل المدينة مالك بن أنس ومن تبعه . قال ابن قدامة : ما حرم الله في كتابه فهو حرام وما عدا هذا فما استطابته العرب ، فهو حلال ، وما استخبثه العرب فهو محرم . والذي تعتبر استطابتهم واستخباثهم هم أهل الحجاز من أهل الأمصار؛ لأنهم الذين نزل عليهم الكتاب، وخوطبوا به وبالسنة . . وما وُجد في أمصار المسلمين مما لا يعرفه أهل الحجاز ، رُدَّ إلى أقرب ما يشبهه في الحجاز ، فإن لم يشبه شيئاً منها ، فهو مباح ؛ لدخوله في عموم قوله تعالى : ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليَّ محرماً . . . ﴾ الآية [الأنعام : ١٤٥] إذا ثبت هذا ، فمن المستخبثات الحشرات ، كالديدان والجعلان ، وبنات وردان ، والخنافس ، والفأر ، والأوزاغ والحرباء ، والعظاة ، والجرذان ، والعقارب ، والحيات . وبهذا قال أبو حنيفة والشافعي . ورخص مالك ، وابن أبي ليلى ، والأوزاعي ، في ذلك كله ، إلا الأوزاغ ، فإن ابن عبدالبر قال : هو مجمع على تحريمه . وقال مالك : الحية حلال إذا ذكيت . واحتجوا بعموم الآية المبيحة . انظر : المغني ١٣/ ٣١٦ - ٣١٧ ، وانظر : تفسير القرطبي ٧/ ١١٥ - ١١٦ .

والأوزاغ : جمع وزغة ، وهي حيوان سام أبرص ، وسميت الوزغة بذلك لخفتها وسرعة حركاتها . انظر : القاموس المحيط ٣/ ١١٩ مادة : (وزغ) .

(٢) خصص ابن القيم -رحمه الله- جزءاً كبيراً من كتابه إعلام الموقعين للحديث عن الحيل . انظر : إعلام الموقعين ٣/ ١٧١ وما بعدها و ٤/ ١-٢٢٢ .

(٣) انظر تفسير الطبري ٤/ ١٤ . قال ابن رشد : إن الأخبار قد تواترت عن رسول الله ﷺ بتحريم نكاح المتعة ، وإن اختلف في الوقت الذي وقع فيه التحريم ، ففي بعض الروايات أنه حرمها يوم خيبر ، و في بعضها أن ذلك وقع يوم فتح مكة ، أو في غزوة تبوك ، أو في حجة الوداع ، أو عام أوطاس ، وأكثر الصحابة وفقهاء الأمصار على تحريمها ، واشتهر عن ابن عباس تحليلها ، وتبع ابن عباس على القول بها أصحابه من أهل مكة وأهل اليمن ، انظر : بداية المجتهد ٢/ ٥٨ ، وتفسير القرطبي ٥/ ١٢٩-١٣١ .

لحوم الحمر[1][2]، وقول من جوز نكاح البغايا المعروفات بالبغاء[3]، وجوّز أن يكون زوج قحبة[4]، وقول من أباح آلات اللهو والمعازف: من اليراع والطنبور[5]، والعود والطبل والمزمار. وقول من أباح الغناء[6]، [وقول من

وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- أن ابن عباس رضي الله عنه أفتى بجواز المتعة للضرورة، فلما توسع الناس فيها، ولم يقتصروا على موضع الضرورة أمسك عن فتياه، ورجع عنها. انظر: زاد المعاد ٣/ ٣٤٥، ٤٦١، وتفسير القرطبي ٥/ ١٣٢-١٣٣.

قلت: لكن الشيعة لا يرون في نكاح المتعة بأساً على الرغم من ثبوت نسخ هذا النوع من النكاح. انظر: الاستبصار فيما اختلف من الأخبار لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ٣/ ١٤١-١٥٤.

(١) في ط والجميع زيادة: الأهلية.

(٢) انظر: المغني ١٣/ ٣١٨، وتفسير القرطبي ٧/ ١١٧ قال ابن رشد: جمهور العلماء على تحريم لحوم الإنسية إلا ما روي عن ابن عباس وعائشة أنهما كانا يبيحانها، وعن مالك أنه كان يكرهها. ورواية ثانية له مثل قول الجمهور. انظر: بداية المجتهد ١/ ٤٦٩.

(٣) العجب أنه مع بعد هذا القول ومصادمته لقوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ [النور: ٣] إلا أنه قول لبعض أهل العلم. انظر: المغني ٩/ ٥٦٢، وزاد المعاد ٤/ ٧، ومحاسن التأويل ١٢/ ١٢٧-١٣١.

(٤) القَحْب: سعال الشيخ، وسعال الكلب. ومن أمراض الإبل القُحاب وهو السعال. والقحاب: فساد الجوف، وقيل للبغي قحبة: لأنها كانت في الجاهلية تؤذن طلابها بقحابها وهو سعالها. انظر: لسان العرب ١١/ ٤١ مادة: (قحب).

(٥)الطنبور: آلة من آلات اللعب واللهو والطرب، ذات عنق وأوتار. انظر: المعجم الوسيط ٥٦٧.

(٦) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٣- ١٤٩٤، ونيل الأوطار للشوكاني ٨/ ٢٦٠-

جوز استعارة الجواري الحسان للوطء[1]][2]، وقول من جوز للصائم أكل البرد. وقال: ليس بطعام ولاشراب[3]، وقول من جوز الأكل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس[4] للصائم[5]. وقول من صحح الصلاة بـ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن:

٢٧٢، وانظر كذلك رد ابن القيم على من أباحه في كتاب السماع، وفي المدارج ص٣٧٦ من هذا القسم المحقق.

(١) ما بين المعقوفين ساقط من: م، ح٢.

(٢) قال ابن قدامة: وإذا استأجر امرأة لعمل شيء، فزنى بها، أو استأجرها ليزني بها وفعل ذلك... فعليهما الحد. وبه قال أكثر أهل العلم. وقال أبو حنيفة: لا حد عليهما في هذه المواضع. انظر: المغني ١٢/ ٣٧٨، وبداية المجتهد ٢/ ٤٣٤.

(٣) قال ابن قدامة: وأجمع العلماء على الفطر بالأكل والشرب لما يتغذى به، فأما ما لا يتغذى به، فعامة أهل العلم على أن الفطر يحصل به، وقال الحسن بن صالح: لا يفطر بما ليس بطعام ولا شراب، وحكى عن أبي طلحة الأنصاري، أنه كان يأكل البرد في الصوم، ويقول: ليس بطعام ولا شراب.. ثم قال ابن قدامة: ولم يثبت عندنا من نقل عن أبي طلحة فلا يعد خلافاً. انظر: المغني ٤/ ٣٥٠.

(٤) في ش: الفجر.

(٥) الصيام: هو الإمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس لقوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل...﴾ [البقرة: ١٨٧].
واختلف أهل العلم في الحد الذي بتبينه يجب الإمساك، فقال الجمهور: ذلك الفجر المعترض في الأفق يمنة ويسرة، وبهذا جاءت الأخبار ومضت عليه الأمصار. وقال بعض أهل العلم: إن ذلك إنما يكون بعد طلوع الفجر وتبينه في الطرق والبيوت وعلى رؤوس الجبال، ورووا ذلك عن عمر وحذيفة، وابن عباس، وطلق بن علي، وعطاء بن أبي رباح،

٦٤] بالفارسية[1] وركع كلحمة[2] الطرف، ثم فصل كحد السيف[3]، ثم هوىٰ من غير اعتدال. [وفصل بين السجدتين بارتفاع[4] كحد السيف ولم يتشهد[5]][6]، ولم يصل علىٰ النبي ﷺ، وخرج من الصلاة بحبقة[7][8]، وقول من جوز وطء

والأعمش وغيرهم. وقال مسروق: لم يكونوا يعدون الفجر فجركم، إنما كانوا يعدون الفجر الذي يملأ البيوت. انظر لهذه المسألة: المغني ٤/ ٣٢٥، وتفسير الطبري ٢/ ١٧٧ - ١٨٣، وتفسير القرطبي ٢/ ٣١٨-٣٢١.

(١) قال ابن قدامة: ولا تجزئه القراءة بغير العربية، ولا إبدال لفظها بلفظ عربي، سواء أحسن قراءتها بالعربية أو لم يحسن. وبه قال الشافعي، وأبو يوسف، ومحمد، وقال أبو حنيفة: يجوز ذلك. وقال بعض أصحابه إنما يجوز ذلك لمن لم يحسن العربية. انظر: المغني ٢/ ١٥٨، وقال الكاساني الحنفي: إن في تعيين القدر المفروض الذي يتعلق به أصل الجواز عن أبي حنيفة ثلاث روايات: إحداها: أنه قدر أدنى المفروض بالآية التامة، طويلة كانت أو قصيرة كقوله تعالى: ﴿مدهآمتان﴾، وقوله: ﴿ثم نظر﴾ [المدثر: ٢١]، وقوله: ﴿ثم عبس وبسر﴾ [المدثر: ٢٢]، ثم قال: ثم الجواز كما يثبت بالقراءة العربية يثبت بالقراءة الفارسية عند أبي حنيفة، سواء كان يحسن العربية أو لا يحسن.... » انظر: بدائع الصنائع ١/ ١١٢.

(٢) في ط والجميع: كلخطة.

(٣) «ثم فصل كحد السيف» ساقط من ط.

(٤) «بارتفاع» ساقطة من ط، وفي ح٢، م: باعتدال.

(٥) «لم يتشهد» ساقط من ط.

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من: غ، أ، ب، وهو في هامش أ.

(٧) في غ، أ، ب: بحقبة.

(٨) الحِبِقَّةُ: القصير، والحِبِقَّى: السير السريع. والحَبَقَة: الضرطة. انظر: القاموس المحيط

النساء في أعجازهن[1] ، ونكاح بنته المخلوقة من مائه ، الخارجة من صلبه حقيقة[2] ، إذا كان ذلك الحمل من زنى[3][4] ، وأمثال ذلك من رخص المذاهب،

٣/ ٢٢٦ ، والمعجم الوسيط ص١٥٢-١٥٣ مادة : (حبق) .

ولعل مقصوده - والله أعلم - الانصراف عن الصلاة بوقت قصير وسرعة .

(١) الذي عليه جمهور الصحابة والتابعين وأئمة الفقهاء تحريم ذلك .

قال ابن قدامة : ولا يحل وطء الزوجة في الدبر ، في قول أكثر أهل العلم ، منهم علي ، وعبدالله ، وأبو الدرداء ، وابن عباس ، وعبدالله بن عمر ، وأبو هريرة . انظر : المغني ١٠/ ٢٢٦ . وقال القرطبي : وهذا هو الحق المتبع والصحيح في المسألة ، ولا ينبغي لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يعرج في هذه النازلة على زلة عالم بعد أن تصح عنه . . . ثم ذكر بعد ذلك أنه روي عن ابن عمر خلاف القول بالجواز ، وأن نافعاً كذَّب من أخبر عنه بذلك ، وأن مالكاً أنكر ذلك ، واستعظمه ، وكذب من نسب ذلك إليه . انظر : تفسير القرطبي ٣/ ٩١ وما بعدها .

وانظر لهذه المسألة كذلك : أحكام القرآن لابن العربي ١/ ١٧٣ ، وتفسير ابن كثير ١/ ٤٥٨ ، وزاد المعاد لابن القيم ٤/ ٢٥٦ ، ونيل الأوطار ٦/ ٢٢٥ .

(٢) «حقيقة» ساقطة من ش .

(٣) في ش : الزنى .

(٤) تحريم هذا النكاح قول عامة الفقهاء خلافاً لمالك والشافعي في المشهور من مذهبه .

قال ابن قدامة : «ويحرم على الرجل نكاح بنته من الزنى ... » وهو قول عامة الفقهاء .

وقال مالك ، والشافعي في المشهور من مذهبه : يجوز ذلك كله ؛ لأن الحرام لا يحرم الحلال ، ولأنها أجنبية منه ، ولا تنسب إليه شرعاً ولا يجري التوارث بينهما ولا تعتق عليه إذا ملكها ، ولا تلزمه نفقتها فلم تحرم كسائر الأجانب» المغني ٩/ ٥٢٩ . وانظر : تفسير القرطبي ٥/ ١١٤ .

وأقوال العلماء المرجوحة[١]، فهذا الذي ينقص[٢] ترخصه[٣] رغبته، ويوهن طلبه، ويلقيه في غثاثة الرخص. فهذا لون والأول لون.

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: رَغْبَةُ أَرْبَابِ[٤] الحَالِ. وَهِيَ رَغْبَةٌ لاَ تُبْقِي مِن المجهُودِ مَبْذُولاً، وَلاَ تَدَعُ لِلهِمَّةِ ذُبُولاً، وَلاَ تَترُكُ غيرَ المقْصُودِ[٥] مَأْمُولاً»[٦].

يعني: أن الرغبة الحاصلة لأرباب الحال: فوق رغبة أصحاب[٧] الخبر. لأن صاحب الحال كالمضطر إلىٰ رغبته وإرادته، فهو كالفراش الذي إذا رأىٰ النور ألقىٰ نفسه فيه، ولا يبالي ما أصابه. فرغبته لا تدع من مجهوده مقدورا له إلا بذله. ولا تدع لهمته[٨] وعزيمته فترة[٩] ولا خموداً، فهمته[١٠] وعزيمته في مزيد بعدد الأنفاس. ولا تترك في قلبه نصيباً لغير مقصوده، وذلك لغلبة سلطان الحال.

---

(١) «المرجوحة» ساقطة من ط، أ، ب، غ.

(٢) في الجميع سوى ش: تنقص.

(٣) في ط، أ، غ، د، ق: بترخصه، وفي ح٢: برخصه، وفي ش: برخصته.

(٤) في د: أصحاب.

(٥) في ط والجميع: القصد.

(٦) انظر: المنازل: ٢٧ لكن قال فيها: ... لا تبقى من المجهود إلا مبذولاً ...

(٧) في ش: أرباب.

(٨) في د: همته.

(٩) في ش: قوة.

(١٠) «فهمته» ساقطة من ط.

وصاحب هذه الحال لا يقاومه إلا حال مثل حاله أو أقوىٰ[1] منه . ومتىٰ لم تصادفه[2] حال تعارضه فله من النفوذ والتأثير بحسب حاله .

الدرجة الثالثة

قال[3] : « **الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : رَغْبَةُ أَهلِ الشُّهُودِ . وَهِيَ تَشَرُّفٌ تَصْحَبُهُ[4] تَقِيَّةٌ ، وَتحمِلُهُ[5] عَلَيهَا[6] همَّةٌ نَقِيَّةٌ . لاَ تُبقِي مَعَهُ مِن التَّفَرُّقِ بَقِيَّةٌ**»[7] .

يشير الشيخ -رحمه الله- بذلك إلىٰ حال[8] الفناء التي يحمله[9] عليها همة نقية من أدناس الالتفات إلىٰ ما سوىٰ الحق ، بحيث لا يبقىٰ معه بقية من تفرقة[10] . بل قد اجتمع شاهده كله وانحصر في مشهوده . وأراد بالشهود هاهنا شهود الحقيقة .

وقوله : «**تَشَرُّفٌ**» أي : استشراف[11] للغيبة[12] في الفناء .

---

(١) في الجميع سوى ش ، ط : وأقوى .

(٢) في ط والجميع سوى ش : يصادفه .

(٣) «قال» ساقطة من الجميع سوى ط .

(٤) في ط والجميع شوى ش ، د : يصحبه .

(٥) في ط والجميع سوى ش : تحمله .

(٦) في ش : على .

(٧) انظر : المنازل ٢٧ لكن قال فيها : . . . . وتحمله همة نقية . . . .

(٨) في ط والجميع سوى ش حاله .

(٩) في ش : الذي تحمله .

(١٠) في ش زيادة : كله .

(١١) في ط : استشرف .

(١٢) في ط والجميع سوى د ، ق : الغيبة .

ويحتمل أن يريد به تشرفا عن التفاته إلىٰ ما سوىٰ مشهوده .

و«التقية» التي تصحب هذا التشرف : يحتمل أن يريد [١] التقية من إظهار الناس علىٰ حاله ، وإطلاعهم عليها ، صيانة [٢] لها وغيرة عليها.

ويحتمل أن يريد بها[٣] الحذر من التفاته في شهوده إلىٰ ما سوىٰ حضرة مشهوده . فهو يتقي[٤] ذلك الالتفات ويحذره[٥] كل الحذر .

ثم ذكر الحامل له[٦] علىٰ هذه الرغبة[٧] . وهي اللطيفة المدركة المريدة التي قد تطهرت قبل وصولها إلىٰ[٨] هذه الغاية . وهي الهمة النقية . ولو لم يحصل لها كمال[٩] الطهارة لبقيت عليها بقية منها تمنعها من وصولها إلىٰ هذه الدرجة . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

* * *

(١) في الجميع زيادة : به وفي ط ، وق : بها .

(٢) في ب : وصيانة .

(٣) في الجميع سوى ط : به .

(٤) في ط ، م ، ب ، أ ، غ : فهي تتقي .

(٥) في ط ، م ، ب ، غ ، أ : تحذره ، وفي ش : ويحذر .

(٦) «له» ساقط من : غ ، أ .

(٧) في أ ، ب ، غ : الغاية .

(٨) «إلى» ساقط من غ ، ب ، م ، ح٢ .

(٩) في م : إكمال .

فصل

منزلة الرعاية

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الرعاية»[1] .

تعريف الرعاية

وهي مراعاة العلم ، وحفظه بالعمل . ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص ، وحفظه من المفسدات . ومراعاة الحال بالموافقة ، وحفظه بقطع التفرق[2] ، فالرعاية[3] ، صيانة وحفظ .

مراتب العلم والعمل

ومراتب العلم والعمل ثلاثة : «رواية» وهي مجرد النقل وحمل المروي . و«دراية» وهي فهمه وتعقّل معناه . و«رعاية» وهي العمل بموجب ما علمه ومقتضاه .

فالنقلة همتهم الرواية ، والعلماء همتهم الدراية ، والعارفون همتهم الرعاية .

---

(١) الرعاية في اللغة : الحفظ والملاحظة ، يقال : رعى لفلان عهده أو حرمته : لاحظها وحفظها .

انظر : المعجم الوسيط ٣٥٦ مادة : (رعى) .

وعند الصوفية : هي صون بالعناية ، وفي الدعاء : رعاك الله ، أي : اعتني بصونك عما فيه يشينك .

ورعاية الأعمال : سلامتها من النقص ، وذلك بتحقيرها ، إذ كان فيه توفيرها ، وألا يداخلك تيه يفسد عليك نيتك .

ورعاية الأحوال : سلامتها عن الاستحسان لها .

ورعاية الأوقات : الوقوف مع كل خطرة بتصحيحها ، والغياب عن حظ النفس : انظر : لطائف الإعلام ١/ ٤٩٢-٤٩٣ .

(٢) في ط : التفريق .

(٣) في ق : والرعاية .

وقد ذم الله تعالىٰ من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته . فقال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ[1] وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد : ٢٧]، و«رهبانية»[2] منصوب «بابتدعوها» علىٰ الاشتغال[3] . إما بنفس الفعل المذكور [علىٰ قول الكوفيين - وإما بمقدر محذوف مفسر بهذا المذكور][4] علىٰ قول البصريين - أي وابتدعوا رهبانية ، وليس منصوباً بوقوع الجعل عليه[5] . فالوقف التام عند[6] قوله : ﴿رَأْفَةً[7] وَرَحْمَةً﴾ ثم يبتدئ : ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي لم يشرعها[8] لهم . [بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم ولم يكتبها[9] عليهم][10]

---

(١) أول الآية ليس في ط والجميع سوى ش .

(٢) في ط ، ح٢ ، م ، أ ، غ : رهبانية .

(٣) انظر : إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧ ، والكشاف للزمخشري ٤/ ٦٧ .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من ب وهو في هامشها .

(٥) وهذا من الإمام ابن القيم ردٌّ على الزمخشري الذي أجاز أن تكون الرهبانية معطوفة على ما قبلها وهي قوله تعالى : ﴿رأفة ورحمة﴾ انظر الكشاف ٤/ ٦٨ .

(٦) في د : على .

(٧) «رأفة» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٨) في ط والجميع سوى ش : لم نشرعها .

(٩) في ط والجميع سوى ش : نكتبها .

(١٠) ما بين المعقوفين ساقط من غ ، ب ، أ وهو في هامش : أ .

وفي نصب قوله[١] : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ [ثلاثة أوجه .

أحدها : أنه مفعول له ، أي: لم يكتبها[٢] عليهم إلا لابتغاء رضوان الله][٣] [٤] .

وهذا فاسد . فإنه لم يكتبها عليهم سبحانه . كيف[٥] وقد أخبر : أنهم هم[٦] ابتدعوها؟ فهي مبتدعة غير مكتوبة . وأيضاً فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علة لفعل الفاعل المذكور معه. فيتحد السبب والغاية ، نحو : قمت إكراما له[٧]، فالقائم هو المكرم وفعل الفاعل المعلل هاهنا هو «الكتابة»و«ابتغاء رضوان الله» فعلهم ، لا فعل الله . فلا يصلح أن يكون علة لفعل الله لاختلاف الفاعل .

وقيل : هو [٨] بدل من مفعول «كتبناها» أي: ما كتبنا [٩] عليهم إلا ابتغاء رضوان الله [١٠] .

---

(١) «قوله» ساقطة من ح٢ ، م .

(٢) في الجميع سوى ش ، ط : نكتبها .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من م ، وهو في هامشها .

(٤) انظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ١٣٠

(٥) في م : فكيف .

(٦) «هم» ساقطة من ح ٢ .

(٧) «له» ساقطة من ط والجميع سوى ش ، د .

(٨) «هو» ساقطة من ط والجميع سوى ش ، د .

(٩) في ط والجميع سوى ش ، ق ، د : ما كتبناها .

(١٠) انظر : تفسير القرطبي ١٧/ ٢٦٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٨ .

وهو أيضاً فاسد[١] ، إذ ليس[٢] ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية ، فيكون[٣] بدل الشيء من الشيء . ولا بعضها فيكون[٤] بدل بعض من كل ولا أحدهما مشتمل علىٰ الآخر ، فيكون[٥] بدل اشتمال وليس ببدل[٦] غلط .

فالصواب : أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع[٧] . أي لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله . ودل علىٰ هذا قول[٨] «ابتدعوها» ثم ذكر الحامل لهم والباعث علىٰ ابتداع هذه الرهبانية ، وأنه طلب رضوانه تعالىٰ[٩] . ثم ذمهم بترك رعايتها ، إذ من التزم لله شيئا لم[١٠] يُلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه . حتىٰ ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها ، وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر . كما قاله[١١] : أبو حنيفة ،

---

(١) في ط : وهو فاسد أيضاً .

(٢) «ليس» ساقطة من غ ، ب .

(٣) في ط والجميع سوى ش ، د : فتكون .

(٤) في ط : فتكون .

(٥) في ط : فتكون .

(٦) في ط : بدل .

(٧) انظر : تفسير القرطبي ١٧/ ٣٦٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧ ، والكشاف للزمخشري ٤/ ٦٧ .

(٨) في ط والجميع سوى ش : قوله .

(٩) في ط والجميع سوى ش : وأنه هو طلب رضوان الله .

(١٠) في ب ، أ ، غ : ولم .

(١١) في ط والجميع سوى ش : قال .

ومالك، وأحمد في إحدىٰ الروايتين عنه[1]، وهو إجماع - أو كالإجماع - في أحد النسكين[2].

---

(١) اختلف أهل العلم في وجوب إتمام النوافل التي يشرع بها الإنسان. فبعضهم قال بوجوب إتمامها قياساً على النذر، وبعضهم جعل ذلك عائداً إلى الإنسان نفسه إن شاء أتمها، وإن شاء عدل عن إتمامها، وبعضهم جعل ذلك في بعض النوافل دون بعض، وقد ذكر الإمام النووي هذه الآراء عند شرحه لقوله ﷺ ذات يوم لعائشة - رضي الله عنها -: «هل عندكم شيء؟» فقالت لا. قال: «إني إذن صائم» ثم أتاها يوماً آخر فقالت له: يا رسول الله أهدي لنا حيس، فقال: «أرنيه فلقد أصبحت صائماً» قالت: فأكل.

قال - رحمه الله - في الرواية الثانية - يعني هذا الحديث - التصريح بالدلالة لمذهب الشافعي، وموافقته في أن صوم النافلة يجوز قطعه، والأكل في أثناء النهار، ويبطل الصوم لأنه نفل فهو إلى خيرة الإنسان في الابتداء، وكذا في الدوام. وممن قال بهذا جماعة من الصحابة، وأحمد، وإسحاق وآخرون، ولكنهم كلهم، والشافعي معهم متفقون على استحباب إتمامه. وقال أبو حنيفة ومالك: لا يجوز قطعه ويأثم بذلك، وبه قال الحسن البصري، ومكحول، والنخعي، وأوجبوا قضاءه على من أفطر بلا عذر.

انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ٨/ ٣٥، كتاب الصيام، باب جواز صوم النافلة بنية من النهار قبل الزوال، وجواز فطر الصائم نفلاً من غير عذر...

وقال ابن قدامة: «إن من دخل في صيام تطوع استحب له إتمامه، ولم يجب. فإن خرج منه فلا قضاء عليه: ثم ذكر أن ذلك مروي عن ابن عمر، وابن عباس، وابن مسعود، وأحمد والثوري، والشافعي، وإسحاق...، وذكر عن الإمام أحمد رواية أخرى تقول بوجوب إتمام صيام التطوع، إذا شرع فيه، فإذا أفطر من غير عذر فإن عليه أن يعيد يوماً مكانه. ثم قال بعد ذكره هذه الرواية: وهذا محمول على أنه استحب ذلك، أو نذره ليكون موافقاً لسائر الروايات عنه. انظر: المغني ٤/ ٤١٠.

(٢) قال ابن رشد: وأجمعوا - أي الفقهاء - على أن من دخل في الحج والعمرة متطوعاً، ثم خرج منهما أن عليه القضاء. بداية المجتهد ١/ ٣١٢، وقال ابن قدامة: وسائر النوافل من

قالوا : والالتزام بالشروع أقوىٰ من الالتزام[1] بالقول . فكما يجب عليه رعاية ما التزمه [بالنذر وفاء[2] ، يجب عليه رعاية ما التزمه][3] بالفعل إتماما .

وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة .

والقصد[4] : أن الله سبحانه ذم من لم يرع قربة ابتدعها لله حق رعايتها ، فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله ورضيها لعباده[5] .

فصل

درجات الرعاية

قال صاحب المنازل - رحمه الله - :

الدرجة الأولى

«الرِّعَايَةُ : صَونٌ بِالعِنَايَةِ ، وَهِيَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : رِعَايَةُ الأَعْمَالِ . وَالثَّانِيَةُ : رِعَايَةُ الأَحْوَالِ . وَالثَّالِثَةُ : رِعَايَةُ الأَوْقَاتِ .

الأعمال حكمها حكم الصيام ، في أنها لا تلزم بالشروع ، ولا يجب قضاؤها إذا خرج منها ، إلا الحج والعمرة ، فإنهما يخالفان سائر العبادات في هذا ، لتأكد إحرامهما . . . » انظر : المغني ٤/ ٤١٢ ، وتفسير القرطبي ٢/ ٣٦٥ .

(١) في د : بالالتزام .

(٢) قال النووي : أجمع المسلمون على صحة النذر ووجوب الوفاء به إذا كان الملتزم طاعة ، فإن نذر معصية أو مباحاً كدخول السوق ، لم ينعقد نذره ، ولا كفارة عليه عندنا ، وبه قال جمهور العلماء . وقال أحمد وطائفة : فيه كفارة يمين . انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ١١/ ٩٦ كتاب النذر .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من أ ، وهو في هامشها .

(٤) في م : المقصود .

(٥) في ط ، غ ، أ ، ب : شرعها الله لعباده وأذن بها وحث عليها ، وفي د ، م ، ح٢ : وأمر بها ورضيها وحث عليه .

فَأَمَّا رِعَايَةُ الأَعْمَالِ : فَتوفِيرُهَا[١] بِتَحقِيرِهَا ، وَالقِيَامُ بِهَا مِن غَيرِ نَظَرٍ إِلَيهَا ، وَإِجرَاؤُهَا عَلَىٰ[٢] مجرَىٰ العِلْمِ ، لاَ عَلَىٰ التَّزَيُّنِ بِهَا»[٣] .

أما قوله : «صَونٌ بِالعِنَايةِ» أي : حفظ بالاعتناء ، والقيام بحق الشيء الذي يرعاه ، ومنه راعي الغنم .

أما قوله[٤] : «رِعَايَةُ الأَعْمَالِ : فَتَوفِيرُهَا بِتَحْقِيرِهَا»[٥] ، فالتوفير[٦] : سلامةٌ من طرفي التفريط بالنقص ، والإفراط بالزيادة علىٰ الوجه المشروع في حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها .

وأما تحقيرها : فاستصغارها في عينه ، واستقلالها . وأن ما يليق بعظمة الله وجلاله[٧] وحقوق عبوديته أمر آخر ، وأنه لم[٨] يُوفِه حَقَّه ، وأنه لا يرضىٰ لربه بعمله ، ولا بشيء منه .

وقد قيل : علامة رضا الله عنك : سخطك[٩] علىٰ نفسك . وعلامة قبول

---

(١) في ح٢ ، م : فتوفرها .

(٢) «على» ساقطة من د .

(٣) انظر : المنازل ٢٨ لكن قال فيها : وإجراؤها مجرى العلم . . . .

(٤) في ط : وقوله : أما رعاية الأعمال .

(٥) في ح٢ ، م زيادة : من غير نظر إليها .

(٦) التوفير : الاستيفاء والتمام والكمال . انظر : لسان العرب ١٥/ ٣٥٤ مادة : (وفر) .

(٧) في م : وإجلاله .

(٨) «لم» ساقطة من ب .

(٩) في ط والجميع سوى ش : إعراضك عن نفسك .

عملك : احتقاره واستقلاله ، وصغره[1] في قلبك . حتىٰ إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعاته[2] ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر[3] ثلاثاً[4] ، وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج[5] ، ومدحهم علىٰ الاستغفار عقيب قيام الليل[6] بالأسحار[7] ، وشرع النبي ﷺ للأمة[8] عقيب الطهور التوبة والاستغفار[9] .

---

(١) «وصغره» ساقطة من أ ، وهو في هامشها .

(٢) في ط والجميع سوى ش ، د ، ق : طاعته .

(٣) في ط ، ح٢ ، م ، د ، ق زيادة : الله .

(٤) رواه مسلم ١/ ٤١٤ في كتاب الصلاة ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ، ح٥٩١ ، والترمذي ٢/ ٩٧-٩٨ في كتاب الصلاة ، باب ما يقول إذا سلم من الصلاة ، ح٣٠٠ وقال : حديث حسن صحيح .

(٥) كما قال تعالى : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ الآية [البقرة : ١٩٩] .

(٦) «بالأسحار» ساقطة من ط ، أ ، ب ، غ .

(٧) كما قال تعالى : ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾ [الذاريات : ١٧ ، ١٨] .

(٨) «للأمة» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٩) كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ سورة الكهف . . . ومن توضأ فقال : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . كتب له في رق ، ثم طبع بطابع فلم يكسر إلى القيامة» . رواه النسائي في عمل اليوم والليلة ص١٧٣ ح٨١ وقال: إنه موقوف ، ورواه الحاكم ١/ ٧٥٢-٧٥٣ وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب

فمن شهد واجب ربه ، ومقدار عمله ، وعيب نفسه : لم يجد بُدّاً من استغفار ربه منه[1] ، واحتقاره إياه واستصغاره .

وأما «القِيَامُ بِهَا» فهو توفية[2] حقها ، وجعلها قائمة كالشهادة القائمة ، والصلاة القائمة[3] ، والشجرة القائمة علىٰ ساقها التي ليست ساقطة[4] .

وقوله : «مِن غَيرِ نَظَرٍ إِلَيهَا» أي من غير أن يلتفت إليها ويعددها ويذكرها مخافة العجب والمنة بها . فيسقط من عين الله ، وتحبط أعماله[5] .

وقوله : «وَإِجرَاؤُهَا[6] عَلَىٰ مَجْرَىٰ العِلْمِ»[7] أن يكون العمل علىٰ مقتضىٰ

١/ ١٧٢ وقال : رواه الطبراني في الأوسط ورواته رواة الصحيح واللفظ له، ورواه النسائي. وذكره ابن القيم في زاد المعاد ١/ ١٩٦ وعزاه إلى النسائي في السنن ، وذكره الهيثمي في المجمع ١/ ٢٣٩ وقال : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٩٤ ح٢٢٠ وفي الصحيحة ٥/ ٤٣٨ ح٢٣٣٣ وقال : والخلاصة أن الحديث صحيح بمجموع طرقه المرفوعة ، والموقوف لا يخالفه ؛ لأنه لا يقال بمجرد الرأي كما قال الحافظ ، ولعله من أجل ذلك ساقه ابن القيم في زاد المعاد مساق المسلمات ، ولكن عزاه إلى سنن النسائي وهو وهم .

(١) «منه» ساقطة من ب وهو في هامشها .

(٢) في ط ، غ ، ب ، أ ، م : توفيتها ، وفي ح٢ : توفيها .

(٣) «والصلاة القائمة» ساقط من غ ، أ ، ب .

(٤) في ط والجميع سوى ش : بساقطة .

(٥) في ط ، أ ، غ ، ب : ويحبط عمله .

(٦) «وإجراؤها» ساقطة من ح٢ ، م .

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة : هو .

العلم المأخوذ من مشكاة النبوة، إخلاصاً[1]، وإرادة لوجهه، وطلبا لمرضاته، لا علىٰ وجه التزين بها عند الناس.

الدرجة الثانية

قال: «**وَأَمَّا رِعَايَةُ الأَحْوَالِ: فَهُوَ[2] أَن يَعُدَّ الاجتِهَادَ مُرَاءَاةً، وَاليَقِينَ تَشَبُّعاً، وَالحَالَ دَعْوَىٰ**»[3].

أي: يتهم نفسه في اجتهاده: أنه رياء للناس[4]، فلا يطغىٰ به، ولا يسكن إليه، ولا يعتد به.

وأما عده اليقين تشبعاً. [التشبع[5]: افتخار الإنسان بما لا يملكه، ومنه قول النبي ﷺ: «**المتشبع بما لم يعط كلابسِ ثوبي زور**»[6].

وعد اليقين تشبعاً][7]: يحتمل وجهين: أحدهما: أن ما حصل له من اليقين لم يكن به، ولا منه، ولا استحقه بعوض. وإنما هو فضل الله وعطاؤه،

---

(١) في ط والجميع سوى ش زيادة: لله.

(٢) في ش: فهي.

(٣) المنازل ٢٨، لكن قال: «والنفس تشبعاً» وفي بعض نسخ المنازل كما في هامشها: «واليقين» كما هي عند ابن القيم.

(٤) في ط والجميع سوى ش: راءى الناس.

(٥) في ط: فالتشبع.

(٦) رواه البخاري ٩/ ٣١٧ في كتاب النكاح، باب المتشبع بما لم ينل وما ينهى عنه من افتخار الضرة، ح٥٢١٩، ومسلم ٣/ ١٦٨١ في كتاب اللباس، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره، والتشبع بما لم يعط، ح٢١٢٩، وأحمد في مسنده ٦/ ١٦٧.

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من أ، ب، غ.

ووديعته عنده ، ومجرد منته عليه ، فهي[1] خلعة خلعها علىٰ عبده[2] . والعبد وخلعته[3] ، كل ملكه وله[4][5] . فما للعبد في اليقين[6] مدخل ، وإنما هو متشبع بما هو ملك لله ، وفضل منه ، [7] ومنته علىٰ عبده .

والوجه الثاني : أن يتهم يقينه[8] ، وأنه لم يحصل له اليقين علىٰ الوجه الذي ينبغي ؛ بل ما حصل له منه [9] كالعارية غير[10] الملك المستقر ، فهو متشبع به تزعم نفسه[11] أن اليقين ملكة له[12] ، وليس كذلك . وهذا لا يختص باليقين ، بل بسائر الأحوال. فالصادق يعد صدقه تشبعاً، وكذا[13] المخلص[14]، وكذا العالم،

---

(١) في ط والجميع سوى ش : فهو .

(٢) في الجميع سوى ش : عليه ، وفي ط : خلعها سيده عليه .

(٣) في أ ، غ : جعلته .

(٤) «وله» ساقط من م ، ح٢ .

(٥) في د زيادة : وعطاؤه ووديعته .

(٦) في الأصل ، ش، م، ق، د: البين ولا يستقيم المعنى بها، وما أثبته من ط والباقي وهو أقرب للمعنى.

(٧) في ط والجميع سوى ش : وفضله ومنته على عبده .

(٨) في د : نفسه .

(٩) في ط زيادة : هو .

(١٠) في ط ، أ : لا الملك المستقر ، وفي ب : والملك المستعير ، وفي ق : والملك المستقرض ، وفي غ د ، ح٢ : والملك المستقر .

(١١) في ط والجميع سوى ش : فهو متشبع بزعم نفسه .

(١٢) في ط والجميع سوى ش : ملكه وله .

(١٣) في ش : فكذا .

(١٤) في ط والجميع سوى ش ، د ، ق زيادة : يعد إخلاصه .

لاتهامه لصدقه وإخلاصه وعلمه[١] . وأنه لم ترسخ قدمه في ذلك ولم يحصل[٢] له فيه ملكة ، فهو كالمتشبع به[٣] .

ولما كان «اليقين» روح الأعمال وعمودها ، وذروة سنامها : خصه بالذكر ، تنبيها علىٰ ما دونه .

والحاصل : أنه يتهم نفسه في حصول اليقين ، فإذا حصل فليس[٤] به ، ولا منه ، ولا له فيه شيء . فهو يذم نفسه في عدم حصوله ، ولا يحمدها عند حصوله .

وأما عد الحال دعوىٰ أي : دعوىٰ كاذبة ، اتهاماً لنفسه ، وتطهيراً لها من رعونة الدعاوىٰ[٥] ، وتخليصا للقلب من نصيب الشيطان . [فإن الدعوىٰ من أنصباء [٦] الشيطان منه [٧]] [٨][٩] .

---

(١) في ش ، غ : وعمله .

(٢) «يحصل» ساقطة من ش .

(٣) «به» ساقطة من ش .

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة : حصوله .

(٥) في ط ، أ ، ب ، غ : الدعوى .

(٦) في ط والجميع سوى ش : نصيب .

(٧) «منه» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٨) في ط والجميع سوى ش زيادة : وكذلك القلب الساكن إلى الدعوى مأوى الشيطان أعاذنا الله من الدعوى ومن الشيطان .

(٩) ما بين المعقوفين ساقط من أ ، وهو في هامشها .

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «وَأَمَّا رِعَايَةَ الأَوقَاتِ : فَأَن يَقِفَ[١] مَعَ كُلِّ خُطْوةٍ . ثُمَّ أَنْ يَغِيبَ عَنْ خَطْوِهِ[٢] بِالصَّفَاءِ مِن رَسْمِهِ . ثُمَّ أَنْ يَذْهَبَ عَنْ شُهُودِ صَفْوِهِ[٣]»[٤] .

أي: يقف[٥] مع كل[٦] حركة ظاهرة وباطنة بمقدار ما يصححها[٧]، نية وقصداً وإخلاصا ومتابعة ، فلا يخطو همجاً[٨] ؛ بل يقف قبل الخطوة[٩] حتى يصحح الخطوة ، ثم ينقل قدم عزمه . فإذا صحت له ونقل قدمه انفصل عنها . وقد صحت بالغيبة[١٠] عن شهودها ورؤيتها ، فيغيب عن شهود تقدمه بنفسه . فإن رسمه هو نفسه . فإذا غاب عن شهوده[١١] نفسه [وتقدمه بها في كل خطوة[١٢] ،

(١) في ش : تقف .

(٢) في ط ، أ ، ب ، غ : حضوره .

(٣) في ط زيادة : عن شهود صفو صفوة .

(٤) انظر : المنازل ٢٩ ، لكن قال : أن يقف مع خطوة .

(٥) في ش : تقف .

(٦) «كل» ساقطة من ط ، غ ، ب ، أ .

(٧) في ط ، غ ، ب ، أ : تصحيحها .

(٨) في ط والجميع سوى ش : هجماً وهمجاً . والهَمَج : الحمقى والرعاع من الناس الذين لا نظام لهم . انظر : المعجم الوسيط ٩٩٣ ، مادة : همج ، مختار الصحاح ٢٩١ .

(٩) في ط ، د ، ح٢ ، م ، أ ، ب ، غ : قبل الخطو : وفي ش : قبل كل خطوة .

(١٠) في ط الغيبة .

(١١) في ط ، ح٢ ، م ، غ ، أ ، ب : شهود نفسه .

(١٢) «في كل خطوة» ساقط من أ ، ب ، غ .

فذلك عين الصفاء من رسمه الذي هو نفسه][١][٢] .

ولما كانت النفس محل الأكدار[٣] . سمي انفصاله عنها : صفاء . وهذه الأمور تستدعي لطف إدراك ، واستعداداً من العبد ، وذلك عين المنة عليه .

وأما ذهابه عن شهود صفوه : أي: لا يستحضر[٤] في قلبه ، ويشهد ذلك الصفو المطلوب[٥]، ويقف عنده. فإن ذلك من بقايا النفس وأحكامها، وهو نوع[٦] كدر[٧] . فإذا تخلص من الكدر[٨] ، لا ينبغي له الالتفات والرجوع إليه . فيصفو من الرسم ، ويغيب عن الصفو بمشاهدة المطلب الأعلىٰ ، والمقصد[٩] الأسنىٰ .

* * *

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ق .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : فعند ذلك يشاهد فضل ربه .

(٣) قال القشيري : «نَفْسُ الشيء في اللغة وجوده ، وعند القوم : ليس المراد من إطلاق لفظ النفس الوجود ولا القالب الموضوع ، إنما أرادوا بالنفس ما كان معلولاً من أوصاف العبد ، ومذموماً من أخلاقه وأفعاله» .

انظر : القشيرية ص٨٦-٨٧ ، وانظر : التعريفات ٢٧١ .

(٤) في ط ، م ، د ، ح٢ ، ق : يستحضره .

(٥) «المطلوب» ساقطة من م .

(٦) «نوع» ساقطة من ط .

(٧) «كدر» ساقطة من غ ، ب .

(٨) في ش : من كدر .

(٩) في ش : والمسند .

فصل

منزلة المراقبة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «المراقبة»[1] .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ ﴾ [البقره : ٢٣٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾ [الأحزاب : ٥٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد : ٤][2] .

وفي حديث جبريل ـ عليه السلام ـ : أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان؟ فقال[3] : « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[4] .

تعريف المراقبة

«المراقبة» دوام علم العبد[5] ، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه علىٰ ظاهره

---

(١) الرَّقِيبُ : الحفيظ ، ورَقَبَ الشيء يرقُبه وراقَبه مُرَاقَبَةً ورِقاباً : حرسه . انظر: لسان العرب ٥/ ٢٧٩ مادة : (رَقَب) .

والمراقبة عند الصوفية : دوام الملاحظة لما هو المقصود بالتوجه إلى الحق ظاهراً وباطناً .

فمراقبة العامة : محافظتهم على القيام بما فرض الله عليهم ، والوقوف عند حده لهم .

ومراقبة المريدين : هي دوام ملاحظة القلب بالحضور مع الرب .

ومراقبة الواصلين : حفظ الحق لهم عما يفرق جمعيتهم عليهم ، فهم يراقبونه به لا بهم .

انظر : لطائف الإعلام ٢/ ٢٨٦ ، ومعجم مصطلحات الصوفية ٢٤٠ .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : وقال تعالى : ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ [العلق : ١٤] ، وقال تعالى : ﴿فإنك بأعيننا﴾ [الطور : ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر : ١٩] إلى غير ذلك من الآيات .

(٣) في ط ، غ ، ب ، أ زيادة : له .

(٤) سبق تخريجه ص ١٤٦٢ .

(٥) في د ، ق : القلب .

وباطنه . فاستدامته لهذا العلم واليقين ، هي المراقبة . وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب[1] عليه ، ناظر إليه ، سامع لقوله[2] مطلع علىٰ عمله[3] كل وقت ، وكل لحظة[4] . والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات . فكيف بحال المريدين؟ فكيف[5] العارفين[6]؟

قال الجريري - رحمه الله - : من لم يحكم بينه وبين[7] الله التقوىٰ والمراقبة[8] لم يصل إلىٰ الكشف والمشاهدة[9] .

وقيل : من راقب الله في خواطره ، عصمه في[10] جوارحه[11] .

وقيل لبعضهم : متىٰ يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال : إذا علم أن عليه رقيباً[12] .

---

(١) «رقيب» ساقطة من غ ، ب ، أ وهي في هامش أ .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : وهو .

(٣) في أ ، ب ، د : علمه .

(٤) في ط ، ح٢ ، م ، غ د ، ق زيادة : وكل نفس وكل طرفة عين .

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة : حال .

(٦) انظر : القشيرية ١٨٩ .

(٧) «وبين» ساقطة من غ ، ب ، أ ، وهي في هامشها .

(٨) في ق : وبالمراقبة .

(٩) انظر : القشيرية ١٨٩ .

(١٠) في ط والجميع سوى ش زيادة : حركات .

(١١) انظر : القشيرية ١٩٠ .

(١٢) نسب هذا القول إلى أبي الحسين بن هند . انظر : القشيرية ١٩٠ .

قال الجنيد[١] : من تحقق في المراقبة، خاف علىٰ فوت حظه[٢] من ربه لا غير[٣] .

وقال ذو النون - رحمه الله - : علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله ، وتعظيم ما عظم الله[٤] ، وتصغير ما صغر الله[٥] .

وقيل : الرجاء يحركك[٦] إلىٰ الطاعة ، والخوف يبعدك[٧] عن المعاصي ، والمراقبة تؤديك إلىٰ طريق الحقائق[٨] .

وقيل : المراقبة : مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرة وخطوة[٩] .

قال[١٠] الجريري : أمرنا هذا مبني علىٰ فصلين : أن تلزم نفسك المراقبة لله ويكون[١١] العلم علىٰ ظاهرك قائماً[١٢] .

---

(١) في ط : وقال الجنيد .

(٢) في ط والجميع سوى ش : لحظه .

(٣) انظر : القشيرية ١٩١ .

(٤) لفظة «الله» ساقطة من د .

(٥) انظر : القشيرية ١٩١ .

(٦) في ط والجميع سوى ش : يحرك .

(٧) في ط والجميع سوى ش : يبعد .

(٨) ينسب هذا القول إلى إبراهيم النصر آباذي . انظر : القشيرية ١٩١ .

(٩) جاء في القشيرية ١٩١ سئل جعفر بن نصر عن المراقبة ، فقال : مراعاة السر لملاحظة الحق سبحانه مع كل خطرة .

(١٠) في ط : وقال .

(١١) في ط : وأن يكون .

(١٢) انظر : القشرية ١٩١ .

وقال إبراهيم الخواص [1] -رحمه الله- : المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل [2] .

وقيل : أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريق : المحاسبة والمراقبة ، وسياسة عمله بالعلم [3] .

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري رحمهما الله : إذا جلست للناس فكن واعظا لقلبك ونفسك . ولا يغرنك اجتماعهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك . والله يراقب باطنك [4] .

وأرباب الطريق مجمعون علىٰ أن مراقبة الله [5] في الخواطر : سبب لحفظه [6] في حركات الظواهر. فمن راقب الله في سره [7]، حفظه الله [8] في حركاته [9]

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص كان من أجل مشايخ الصوفية في وقته ، وهو من أقران الجنيد ، والنُّوري . له في السياحات والرياضات مقامات يطول شرحها كما يقول السلمي ، توفي سنة ٢٩١ . ترجمته في : طبقات الصوفية ٢٨٤ ، حلية الأولياء ١٠/ ٣٢٥ ، تاريخ بغداد ٦/ ٧ .

(٢) انظر : القشيرية ١٩١ .

(٣) نسب هذا القول إلى أبي عثمان المغربي . انظر : القشيرية ١٩٢ .

(٤) انظر : القشيرية ١٩٢ .

(٥) في م : مراقبته تعالى .

(٦) في ط والجميع سوى ش : حفظها .

(٧) في ش : سيره .

(٨) «الله» ساقطة من ش .

(٩) في ط والجميع سوى ش ، ق زيادة : في سره ، وفي ق : في حركاته وسره وعلانيته .

وعلانيته[1].

و«المراقبة» هي التعبد باسمه «الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير» فمن عقل هذه الأسماء، وتعبد بمقتضاها: حصلت له المراقبة.



فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله -:

درجات المراقبة

«المُرَاقَبَةُ: دَوَامُ[2] مُلاحَظَةِ المقْصُودِ، وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: مُرَاقَبَةُ الحَقِّ تَعَالَىٰ فِي السَّيرِ إِلَيهِ عَلَىٰ الدَّوَامِ، بَينَ تَعظِيمٍ مُذهِلٍ، وَمُدَانَاةٍ حَامِلَةٍ، وَسُرُورٍ بَاعِثٍ»[3].

الدرجة الأولى

فقوله: «دَوَامُ مُلاحَظَةِ المقْصُودِ» أي: دوام حضور القلب معه.

وقوله: «بَينَ تَعظِيمٍ مُذهِلٍ» وهو[4] امتلاء القلب من عظمته[5]، بحيث يذهله ذلك عن تعظيم غيره، وعن الالتفات إليه. فلا ينسىٰ هذا التعظيم عند حضور

---

(١) قال النبي ﷺ في وصيته لابن عمه عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما -: «يا غلام إني أُعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك...» الحديث رواه أحمد ١/ ٢٩٣، والترمذي ٤/ ٦٦٧ في كتاب: صفة القيامة باب (٥٩) ح٢٥١٦ وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: المنازل ٢٩.

(٣) «دوام» ساقطة من غ.

(٤) في ط: فهو.

(٥) في ط والجميع سوى ش: من عظمة الله عز وجل.

قلبه مع الله ، بل يستصحبه دائماً . فإن الحضور مع الله يوجب أُنساً ومحبة ، إن لم يقارنهما تعظيم ، أورثاه خروجا عن حق العبودية[1] ورعونة . فكل حب لا يقارنه تعظيم المحبوب : كان سبباً[2] للبعد عنه ، والسقوط من عينه .

فقد تضمن كلامه خمسة أمور : سير إلىٰ الله ، واستدامة للسير[3] ، وحضور القلب معه ، وتعظيمه ، والذهول بعظمته عن غيره .

وأما قوله : «وَمُدَانَاةٍ حَامِلَةٍ» يريد[4] دنوا وقربا حاملا علىٰ هذه الأمور الخمسة . وهذا الدنو يحمله علىٰ التعظيم الذي يذهله عن نفسه ، وعن غيره . فإنه كلما ازداد قربا من الحق ازداد تعظيماً له[5] ، وذهولاً عن سواه[6] ، وبعداً عن الخلق .

وأما «السُّرور الباعث» فهو الفرحة[7] ، واللذة التي يجدها في تلك المداناة، فإن سرور القرب من الله[8] وفرحه[9] ، وقرة العين به ، لا يشبهه شيء من نعيم

---

(١) في ط : حدود العبودية ، و في : غ ، ب : من حد العبودية .

(٢) في ط والجميع سوى ش : فهو سبب .

(٣) في ح٢ ، أ ، غ ، ب ، م : واستدامة السير ، وفي ط : واستدامة هذا السير .

(٤) في ط : فيريد .

(٥) في ط : ازداد له تعظيماً .

(٦) في ش : عما سواه .

(٧) في ط ، ح٢ ، غ ، ب ، أ ، م : التعظيم .

(٨) في ط ، م ، ب ، أ ، غ : فإن سرور القلب بالله ، وفي ش : سرور القلب مع الله .

(٩) في ط زيادة : به .

الدنيا البتة ، وليس له نظير يقاس[1] به . وهو حال من أحوال أهل الجنة . حتىٰ قال بعض العارفين : إنه[2] ليمر[3] بي أوقات أقول فيها[4] : إن كان أهل الجنة في مثل هذا ، إنهم لفي عيش طيب[5] .

ولا ريب أن هذا السرور ، يبعثه علىٰ دوام السير إلىٰ الله ، وبذل الجهد في طلبه ، وابتغاء مرضاته . ومن لم يجد هذا السرور ، ولا شيئاً منه ، فليتهم إيمانه وأعماله . فإن للإيمان حلاوة ، من لم يذقها فليرجع ، وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان .

وقد ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان ، ووجد حلاوته . فذكر الذوق والوجد ، وعلقه بالإيمان . فقال : **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولاً»**[6] . وقال : **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما**

---

(١) في د ، ح٢ ، م : يقايس .

(٢) «إنه» ساقطة من ش .

(٣) في ط والجميع : لتمر .

(٤) «فيها» ساقطة من د ، ب ، أ ، ح٢ ، غ ، م ، ق .

(٥) انظر : السلوك لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى ١٠/ ٦٤٧ .

(٦) رواه مسلم ١/ ٦٢ في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً ، ح٣٤ ، وأحمد في مسنده ١/ ٢٠٨ ، والترمذي ٥/ ١٤ في كتاب الإيمان بباب (١٠) ، ح٢٦٢٣ .

يكره أن يلقىٰ في النار»[1].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً، فاتهمه. فإن الرب تعالىٰ شكور. يعني أنه لابد أن يثيب العامل علىٰ عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه. وقوة وانشراح[2] وقرة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول. والقصد: أن السرور بالله وقربه وقرة العين به، تبعث علىٰ الازدياد من طاعته وتحث علىٰ السير إليه.

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيةُ: مُرَاقَبَةُ نَظَرِ الحَقِّ إِلَيكَ[3] بِرَفْضِ المعَارَضَةِ، بِالإِعرَاضِ[4] عَنِ الاعتِرَاضِ، وَنَقْضِ رُعُونَةِ التَّعَرُّضِ»[5].

هذه مراقبة لمراقبة الله لك. فهي مراقبة لصفة[6] خاصة معينة، وهي توجب صيانة الباطن والظاهر. فصيانة الظاهر: بحفظ[7] الحركات الظاهرة. وصيانة الباطن: بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة، التي منها رفض معارضة

---

(١) رواه البخاري ١/ ٦٠ في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ح١٦، ومسلم ١/ ٦٦ في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، ح٤٣، وأحمد في مسنده ٣/ ١٠٣.

(٢) في ط وش: وقوة انشراح.

(٣) «إليك» ساقطة من ط والجميع سوى ش.

(٤) في ح٢، د: بالاعتراض.

(٥) انظر: المنازل ٢٩.

(٦) في ش: لطيفة.

(٧) في ش: تحفظ.

أمره [وخبره فيتجرد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارض أمره][1] ، وإرادة[2] تعارض إرادته . ومن كل شبهة تعارض خبره[3] . ومن كل محبة تزاحم محبته . وهذا[4] حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتىٰ الله به[5][6] . وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين . وكل[7] تجريد سوىٰ هذا فناقص ، وهذا تجريد أرباب العزائم .

ثم بين الشيخ سبب المعارضة ، وبماذا يرفضها العبد . فقال : «بِالإِعرَاضِ[8] عَنِ الاعْتِرَاضِ» فإن المعارضة تتولد من الاعتراض .

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من غ ، ب ، أ ، وهو في هامش أ .

(٢) في ط : ومن كل إرادة .

(٣) أقسام الواردات على القلوب مرض شبهة ، ومرض شهوة .

قال ابن القيم : «وجماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات ، والقرآن شفاء للنوعين . ففيه من البينات والبراهين القطعية ما بُين الحق من الباطل ، فتزول أمراض الشبه ... وأما شفاؤه لمرض الشهوات ، فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب ، والتزهيد في الدنيا ، والترغيب في الآخرة ، والأمثال والقصص التي فيها أنواع الصبر والاستبصار . انظر : إغاثة اللهفان ١/ ٧٣-٧٥ .

(٤) في ط والجميع سوى ش : وهذه .

(٥) كما قال تعالى : ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء : ٨٨ ، ٨٩] .

(٦) «به» ساقطة من د .

(٧) في ح٢ ، م : فكل .

(٨) في د : بالاعتراض .

الاعتراض ثلاثة أنواع

و«الاعتراض» ثلاثة أنواع سارية[١] في الناس . والمعصوم من عصمه الله[٢] منها :

النوع الأول

النوع الأول : الاعتراض علىٰ أسمائه وصفاته بالشبه الباطلة ، التي يسميها أربابها قواطع عقلية . وهي في الحقيقة خيالات جهلية ، ومحالات ذهنية[٣] اعترضوا بها علىٰ أسمائه عز وجل وصفاته . وحكموا بها عليه ، ونفوا لأجلها ما أثبته لنفسه ، وأثبته[٤] له رسوله ﷺ ، وأثبتوا ما نفاه[٥] ووالوا بها أعداءه ، وعادوا بها أولياءه ، وحرفوا بها الكلم عن مواضعه . وتركوا لها[٦] نصيباً كثيراً مما ذُكّروا به[٧] ، وتقطعوا لها أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون .

---

(١) سارية في الناس : أي ماضية فيهم ، يقال: سرى يسري إذا مضى ، والسُّرَى : سير الليل كله أو عامته . انظر : لسان العرب ٦/ ٢٥٢ ، مادة : سرى .

(٢) «الله» ساقطة من ق .

(٣) كما هي شبه المعتزلة والأشاعرة التي ظنوها حججاً ، وقد رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك ، وجعل ذلك منهم مكابرة للقضايا البديهيات ، وجحداً للعلوم الضروريات .. فهم من أهل المجهولات المشبهة بالمعقولات ، يسفسطون في العقليات ، ويقرمطون في السمعيات . انظر : التدمرية ص١٧-١٩ .

(٤) في ش : وأثبتها .

(٥) مما أثبته هؤلاء أسماء محدثة ، وصفات تنافي كماله كالسلوب والنفي المحض . انظر : التدمرية ١٥ .

(٦) في ط : ونسبوا بها و في ش ، ب : وتركوا بها .

(٧) في ق : بها .

والعاصم من هذا الاعتراض : التسليم المحض[1] للوحي[2] . فإذا سلم له القلب[3] : رأىٰ صحة ما جاء به[4] ، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة . فاجتمع له السمع والعقل والفطرة ، وهذا أكمل الإيمان ، ليس كمن الحرب قائم بين سمعه وعقله وفطرته .

النوع الثاني

النوع الثاني : الاعتراض علىٰ شرعه وأمره ، وأهل هذا الاعتراض ، ثلاثة أنواع :

أحدها : المعترضون عليه بآرائهم وأقيستهم ، المتضمنة تحليل ما حرمه الله[5] ، وتحريم ما أباحه[6] ، وإسقاط ما أوجبه ، وإيجاب ما أسقطه ، وإبطال ما صححه ، وتصحيح ما أبطله ، واعتبار ما ألغاه ، وإلغاء ما اعتبره ، وتقييد ما أطلقه ، وإطلاق ما قيده .

وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبة علىٰ ذمها ، والتحذير منها . وصاحوا علىٰ أصحابها من أقطار الأرض . وحذروا عنهم[7][8] .

---

(١) في الجميع سوى ش ، ط : التسليم لمحض .

(٢) التسليم المحض : إشارة إلى عدم الاعتراض إذ تطلب العلل لما لم يكن له ، فيه نوع من التحكم والاعتراض .

(٣) في ط : فإذا سلم القلب له .

(٤) في ح٢ : ما جاؤوا به .

(٥) في ط ، أ ، ب ، أ ، ح٢ ، غ : ما حرم الله سبحانه وتعالى .

(٦) في ش : ما أباحه الله .

(٧) في ش : منهم ، وفي ط والباقي : وحذروا منهم ونفروا عنهم .

(٨) وهم : العقلانيون والمتكلمون ولقد تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في معرض

النوع الثاني[١] : الاعتراض علىٰ حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات ، والكشوفات الباطلة الشيطانية ، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله ، وإبطال دينه الذي شرعه علىٰ لسان رسوله ﷺ ، والتعوض[٢] عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان ، وحظوظ النفوس[٣][٤][٥] .

والعجب أن أربابها ينكرون علىٰ أهل الحظوظ . وكل ما هم فيه فحظ ، ولكن حظ[٦] تضمن مخالفة مراد الله ، والإعراض[٧] عن دينه ، واعتقاد أنه قربة إلىٰ الله . أين هذا من حظوظ أصحاب[٨] الشهوات، المعترفين بذمها[٩]

الرد على الطوائف التي انحرفت في باب الأسماء والصفات قائلاً : «فهذا اصطلاح اصطلحت عليه الفلاسفة المشاؤون ، والاصطلاحات اللفظية ليست دليلاً على نفي الحقائق العقلية» إلى أن قال : «وتسمية ذلك تشبيهاً وتجسيماً تمويه على الجهال . . . وبهذه الطريقة أفسدت الملاحدة على طوائف من الناس عقولهم ودينهم حتى أخرجوهم إلى أعظم الكفر والجهالة ، وأبلغ الغي والضلال» . انظر : التدمرية ص٣٧-٤٠ .

(١) في غ : النوع الثالث وهو خطأ .

(٢) في د : التعويض .

(٣) في ش ، ح٢ ، م ، د : النفس .

(٤) في ط زيادة : الجاهلة .

(٥) وهذا مسلك الصوفية الغلاة .

(٦) في ط والجميع سوى ش : حظهم متضمن ، وفي ش : حظ تضمنه .

(٧) في د : والاعتراض .

(٨) في ش : أرباب .

(٩) في ش : بذنبها .

المستغفرين منها، المقرين بنقصهم وعيبهم، وأنها منافية للدين؟

وهؤلاء في حظوظ اتخذوها دينا، وقدموها علىٰ شرع الله ودينه، واجتالوا[1] بها القلوب. واقتطعوها عن طريق الله. فتولد من معقول أولئك، وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة، وأذواق هؤلاء خراب العالم، وفساد الوجود، وهدم قواعد الدين، وتفاقم الأمر وكاد، لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به من يحفظه، ويبين معالمه، ويحميه من كيد من كاده[2].

النوع الثالث: الاعتراض علىٰ ذلك بالسياسات الجائرة، التي لأرباب الولايات التي قدموها علىٰ حكم الله ورسوله، وحكموا بها بين عباده، وعطلوا لها[3] شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل[4].

وقال الآخرون: إذا تعارض الأثر والقياس: قدمنا القياس[5].

---

(١) في ط، أ: واغتالوا.

(٢) في ط: من يكيد.

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة: وبها.

(٤) كالمعتزلة ومن وافقهم من الأشاعرة.

(٥) كأهل الكلام، ولقد ضل في هذا الباب خلق كثير ممن لم يؤتوا علماً. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن هذا الباب الشبه التي يضل بها بعض الناس، وهي ما يشتبه فيه الحق بالباطل... والقياس الفاسد إنما هو من باب الشبهات» إلى أن قال: «والقياس الفاسد لا ينضبط كما قال الإمام أحمد: أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس، فالتأويل في الأدلة السمعية والقياس في الأدلة العقلية». انظر: التدمرية ص١٠٦-١٠٧.

وقال أصحاب الذوق [١] : إذا تعارض الذوق والكشف والوجد ، وظاهر الشرع : قدمنا الذوق [٢] والكشف [٣] .

وقال أصحاب السياسة : إذا تعارضت السياسة والشرع ، قدمنا السياسة .

فجعلت [٤] كل طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتاً يتحاكمون إليه .

فهؤلاء يقولون : لكم النقل ، ولنا العقل . والآخرون يقولون : أنتم أصحاب أخبار وآثار ، ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار . وأولئك يقولون : أنتم أرباب الظاهر ، ونحن أهل الحقيقة [٥] . والآخرون يقولون : لكم الشرع ولنا السياسة . فيا لها [٦] من بلية ، عمت فأعمت ، ورزية رمت فأصمت ، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون ، وأهوية عصفت ، فصمت منها الآذان ، وعميت منها العيون . عطلت لها - والله - معالم الأحكام ، كما نفيت لها [٧] صفات ذي الجلال والإكرام . واستند لأجلها [٨] كل قوم إلىٰ ظلم [٩] آرائهم ،

---

(١) في ط والجميع سوى ش زيادة : والوجد .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : الوجد .

(٣) كالصوفية الغلاة .

(٤) في د ، ق : وجعل .

(٥) في ط والجميع سوى ش : الحقائق .

(٦) «من» ساقطة من الأصل والجميع ، وما أثبته من ط .

(٧) «لها» ساقطة من غ .

(٨) «لأجلها» ساقطة من ط ، ب ، غ ، وفي د ، ق ، أ ، ح٢ : لها .

(٩) في ط زيادة : وظلمات .

وحكموا علىٰ الله وبين[1] عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم . وصار لأجلها الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل ، والدين وقفا[2] علىٰ كل إفساد وتبديل .

النوع الثالث

النوع الثالث[3] : **الاعتراض علىٰ أفعاله وقضائه وقدره** . وهذا اعتراض الجهال .

وهو ما بين جلي وخفي ، وهو أنواع لا تحصىٰ ، وهو سار في النفوس سريان الحمىٰ في بدن المحموم . ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله ، لرأىٰ ذلك في قلبه عياناً . فكل نفس معترضة[4] علىٰ قدر الله وقسمه وأفعاله ، إلا نفساً قد اطمأنت إليه ، وعرفته حق المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها ، فتلك حظها التسليم والانقياد ، والرضا كل الرضاء[5] .

وأما «**نَقضُ رُعُونَةِ**[6] **التَّعَرُّضِ**» فيشير به إلىٰ معنىٰ آخر ، لا تتم المراقبة عنده إلا بنقضه ، وهو إحساس العبد بنفسه وخواطره وأفكاره حال المراقبة ،

---

(١) في الجميع سوى ش ، ط : بين .

(٢) في ح٢ ، م : واقفاً .

(٣) في ط ، ح٢ ، د ، ق : النوع الرابع وهو خطأ .

(٤) في د : متعرضة .

(٥) قال النبي ﷺ : «**قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه**» رواه مسلم ٢/ ٧٣٠ في كتاب الزكاة ، باب في الكفاف والقناعة ، ح١٠٥٤ ، وأحمد في مسنده ٢/ ١٦٨ .

(٦) الرعونة : الحمق والاسترخاء ، والرعونة عند الصوفية : هي الوقوف مع حظوظ النفس ومقتضى طباعها .

انظر : مختار الصحاح ١٠٤ مادة: رعن ، ومعجم مصطلحات الصوفية ، ١٠٩ .

والحضور[1] مع الله . فإن ذلك تعرض منه ، لحجاب الحق له عن كمال الشهود[2] ؛ لأن بقاء العبد مع مداركه[3] ، وحواسه ومشاعره ، وأفكاره وخواطره، عند الحضور[4] والمشاهدة[5] : هو تعرض للحجاب ، . فينبغي أن تتخلص[6] مراقبة[7] نظر الحق إليك من هذه الآفات . وذلك يحصل بالاستغراق في الذكر، فتذهل به عن نفسك وعما منك[8] ، لتكون بذلك

---

(١) في الأصل وش : الخضوع ولا يستقيم المعنى بها وما أثبته من ط وباقي النسخ .

(٢) الشهود : هو الحضور مع المشهود ، وهو بمعنى الإدراك وهو اجتماع الحواس الظاهرة ، والباطنة . والموجب لاتحادها ، نور من جناب المشهود محى ظلمة حجابها ، فيرى الحق بنوره ، ويعني كل ما سواه بظهوره ، وهو أيضاً : رؤية حظوظ النفس بالله لا بها .
انظر : لطائف الإعلام ٢/ ٤٢ ، والتعرف ١٣٧ .

(٣) في ق ، ح٢ ، غ ، أ ، ب : تداركه .

(٤) الحضور : هو حضور القلب بالحق في تجلياته الذاتية والوصفية والفعلية عند غيبته بالحق عن الخلق ، أو بالخلق عن الخلق ، وهو ناتج عن صفاء اليقين ، فهو كالحاضر عنده ، وإن كان غائباً عنه قال النوري : إذا تغيبت بَدَا ، وإن بدا غيبني .
انظر : القشيرية ٦٩ ، ورشح الزلال ٧٨ ، ومعجم مصطلحات الصوفية ٧٨ .

(٥) المشاهدة : هي المعاينة ، وعند الصوفية هي المحاضرة والمواناة ، وقيل هي رؤية الحق ببصر القلب من غير شبهة ، وتطلق على رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ، وتطلق بإزاء التوحيد ، وتطلق بإزاء رؤية الحق في الأشياء ، والمشاهدة حال تقتضي اليقين . انظر : لطائف الإعلام ٢/ ٣٠٦ ، ومعجم مصطلحات الصوفية ٢٣٢ .

(٦) في ش : تخلص .

(٧) أي : مراقبة المراقبة كما سبق .

(٨) في ق : وعن مأمنك .

متهيئاً[1] . مستعدًّا للفناء عن وجودك ، وعن وجود كل ما سوىٰ المذكور سبحانه .

وهذا التهيؤ والاستعداد : لا يكون إلا[2] بنقض تلك الرعونة . والذكر يوجب الغيبة عن الحس . فمن كان ذاكراً لنظر الحق إليه من إقباله عليه ، ثم أحس[3] بشيء من حديث نفسه وخواطره وأفكاره : فقد تعرض واستدعىٰ عوالم نفسه ، واحتجاب المذكور عنه ؛ لأن حضرة الحق سبحانه[4] لا يكون فيها غيره .

وهذه الدرجة لا يقدر عليها العبد إلا بملكة قوية من الذكر ، وجمع القلب فيه بكليته علىٰ الله عز وجل .



فصل

الدرجة الثالثة

قال : « الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : مُرَاقَبَةُ الأَزَلِ[5] ، بِمُطَالَعَةِ عَيْنِ السَّبْقِ ، استِقْبَالاً لِعَلَمِ التَّوحِيدِ، وَمُرَاقَبَةُ ظُهُورِ إِشَارَاتِ الأَزَلِ عَلَىٰ أَحَايِينِ الأَبَدِ[6]، وَمُرَاقَبَةُ الإِخْلَاصِ[7]

(١) في د : منتهياً .

(٢) «إلا» ساقطة من ق .

(٣) في ح٢ ، م : ثم حسن شيئاً ، وفي د : ثم حسن .

(٤) «حضرة الحق» كلمة محتملة يحسن أن يقال : استحضار عظمة الله .

(٥) الأزل : سبق ص١٢٨٢ .

(٦) الأبد : سبق ص١٢٨٢ .

(٧) في ش : الخلاص .

مِن وَرْطَةِ[1] المُـرَاقَبَةِ»[2] .

قوله : «مُرَاقَبَةُ الأَزَلِ» أي شهود معنىٰ الأزل ، وهو : القدم الذي لا أول لـه . «بمطالعة عين السبق» أي بشهود سبق الحق تعالىٰ لكل ما سواه . إذ هـو الأول الذي ليس قبله شيء . فمتىٰ طالع القلب[3] عين هذا السبق، شهد معنىٰ «الأزل» وعرف حقيقته ، فبدا له حينئذ علم التوحيد ، فاستقبله كما تستقبل[4] أعلام البلد ، وأعلام الجيش . ورفع له فَشَمَّر[5] إليـه . وهـو شـهوده[6] انفـراد الحـق بأزليته وحده ، وأنه كان ولم يكن شيء غيره البتة[7] ، فكل[8] ما سواه فكائن بعد عدمه[9] . فـإذا عـدمت الكائنـات مـن شـهوده[10] كـما كانـت معدومـة في الأزل .

---

(١) الورطة : الهلكة . يقال : أَوْرَطَه في كذا أي: أوقعه فيما لا خلاص له منه . انظر : لسان العرب ١٥/ ٢٧١ مادة : (ورط) .

(٢) انظر : المنازل ٢٩ لكن قال : من ربطة وفي أحد نسخها : ورطة . كما هو في الهامش .

(٣) في ط والجميع سوى ش : العبد .

(٤) في ط والجميع : يستقبل .

(٥) شَمَّر ، التَّشْمير : الجدُّ والاجتهاد ، والإرسال . انظر : لسان العرب ٧/ ١٩٠ مادة : شمر .

(٦) في ط والجميع سوى ش : شهود .

(٧) كما في الحديث الصحيح : «كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ...» الحديث رواه البخاري ١٣/ ٤٠٣ في كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم ، ح٧٤١٨ .

(٨) في ط ، د ، ب ، أ ، غ : وكل .

(٩) في الجميع سوى ش : فكائن بتكوينه ، وفي ط : فكائن بعد عدمه بتكوينه .

(١٠) إشارة إلى النوع الثاني من أنواع الفناء ، وهو الفناء عن شهود السوى وهو مذموم .

فطالع[1] عين السبق ، وفني بشهود من لم يزل عن شهود من لم يكن ، فقد استقبل علم التوحيد .

وأما «مُرَاقَبَةُ ظُهُورِ إِشَارَاتِ الأَزَلِ عَلَىٰ أَحَايِينِ الأَبَدِ» فقد تقدم أن ما يظهر في الأبد : هو عين ما كان معلوماً في الأزل ، وأنه إنما تجددت[2] أحايينه ، وهي أوقات ظهوره . فقد ظهرت إشارات الأزل ، وهي ما يشير إليه العقل بالأزلية من المقدرات[3] العلمية علىٰ أحايين الأبد . هذا معناه الصحيح عندي . والقوم يريدون به معنىٰ آخر : وهو اتصال الأبد بالأزل في الشهود . وذلك بأن يطوىٰ بساط الكائنات عن شهوده طياً كلياً . ويشهد استمرار وجود الحق سبحانه وحده ، مجردا عن كل ما سواه ، فيتصل[4] - بهذا الشهود - الأزل بالأبد . ويصيران شيئا واحداً ، وهو دوام وجوده سبحانه ، بقطع النظر عن كل حادث[5] .

---

(١) في ب ، غ ، أ : طالع ، وفي د ، ح٢ ، م ، ق : وطالع .

(٢) في الجميع سوى ش ، د ، ط : اتحدت .

(٣) في ش ، م : المقدورات .

(٤) في ط ، ب ، ح٢ ، أ : فيصل ، وفي م : ليصل .

(٥) هذا الكلام يشعر بالقول بوحدة الوجود ، وهو أن يرى وجود الله في كل شيء فما ثم إلا الله ، حيث تلاشى وجود كل شيء بوجوده .

والشهود الأول أكمل وأتم . وهو متعلق بأسمائه وصفاته ، وتقدم علمه بالأشياء ، ووقوعها في الأبد مطابقة لعلمه الأزلي . فهذا الشهود يعطي إيماناً ومعرفة ، وإثباتاً للعلم والقدرة ، والفعل والقضاء والقدر [1] .

وأما الشهود الثاني : فلا يعطي صاحبه معرفة ولا إيماناً ، ولا إثباتاً لاسم ولا صفة ، ولا عبودية نافعة . وهو أمر مشترك ، يشهده كل من أقر بالصانع ، من مسلم وكافر . فإذا استغرق في شهود أزليته ، وتفرده بالقدم ، وغاب عن الكائنات : اتصل في شهوده الأزل بالأبد ، فأي كبير أمر في هذا؟ وأي إيمان ويقين يحصل به؟ ونحن لا ننكر ذوقه [2] ، ولا نقدح في وجوده . وإنما نقدح في مرتبته وتفضيله علىٰ ما قبله من المراقبة ، بحيث يكون لخاصة الخاصة [3] . وما قبله لمن هم دونهم ، فهذا عين الوهم . والله الموفق .

فإذا اتصل في شهود الشاهد : الأزل الذي لا بداية له ، بالأزمنة التي تُعقل [4] لها بداية -وهي أزمنة الحوادث - ثم اتصل ذلك بما لا نهاية له ، بحيث صارت الأزمنة الثلاثة واحداً . لا ماضي فيه ، ولا حاضر ، ولا مستقبل ، وذلك لا يكون إلا إذا شهد فناء الحوادث فناءً مطلقاً [5] ، وعدمها عدما كليا . وذلك

(١) في ق : القدرة .

(٢) الذوق : سبق ص ١٢٢١ .

(٣) في ب ، أ ، غ : للخاصة .

(٤) في ط والجميع سوى ش ، د : يعقل .

(٥) وهذا هو الفناء عن وجود السوى وهو أقبح أنواع الفناء .

تقدير وهميٌّ مخالف للواقع . وهو تجريد خياليٌّ ، يوقعه[1] في بحر طامس لا ساحل له ، وليل دامس لا فجر له .

فأين هذا من مشهد تنوع الأسماء والصفات وتعلقها بأنواع الكائنات ، وارتباطها بجميع الحادثات وإعطاء كل اسم منها وكل[2] صفة حقها من الشهود والعبودية والنظر إلىٰ سريان آثارها في الخلق والأمر ، والعالم العلوي والسفلي ، والظاهر والباطن ، ودار الدنيا ودار الآخرة؟ وقيامه بالفرق[3] والجمع[4] في ذلك علماً ومعرفة وحالاً؟ والله المستعان .

قوله : « **وَمُرَاقَبَةُ الإِخْلاَصِ[5] مِن وَرْطَةِ المُرَاقَبَةِ** » .

يشير إلىٰ فناء شهود المراقب[6] نفسه وما منها[7] ، وأنه يفني بمن يراقبه عن نفسه وما منها . فإذا كان باقياً بشهود مراقبته: فهو في ورطتها لم يتخلص منها ؛ لأن شهود المراقبة لا يكون إلا مع بقائه[8] ، والمقصود : إنما هو الفناء

---

(١) في ط والجميع سوى ش : يوقع صاحبه .

(٢) «كل» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٣) الفرق : سبق ص ١٢٢٠ .

(٤) الجمع : سبق ص ١٢٢٠ .

(٥) في ش : الخلاص .

(٦) في ط ، ب ، أ ، غ زيادة : من .

(٧) إشارة إلى رؤية العامل عمله وغفلته عن فضل الله عليه فيه ، وهو الذي أشار إليه بقوله : (مع بقائه) أي : بنفسه لا بربه .

(٨) في ش : بعد فائه .

والتخلص من نفسه ومن صفاتها وما منها .

وقد عرفت أن فوق هذا درجة أعلىٰ منها[١] ، وأرفع وأشرف . وهي مراقبة مواقع[٢] رضىٰ الرب ، ومساخطه في كل حركة . والفناء عما يسخطه بما يحب ، والتفرق له وبه وفيه ، ناظراً إلىٰ عين جمع[٣] العبودية ، فانياً عن مراده من ربه[٤] - ولو علا[٥] - بمراد ربه منه .

* * *

---

(١) في ط والجميع سوى ش : منه .

(٢) في د : مواضع .

(٣) في ش : عين الجمع .

(٤) إشارة إلى عدم التطلع إلى العوض والجزاء وهذا غير ممكن .

(٥) في ط : مهما علا .

فصل

منزلة تعظيم حرمات الله

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «تعظيم حرمات الله»(١) .

قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج : ٣٠] قال جماعة من المفسرين - رحمهم الله - : «حرمات الله» هاهنا معاصيه(٢) وما نهىٰ عنه ، و«تعظيمها» ترك ملابستها(٣) . قال الليث - رحمه الله - : حرمات الله : ما لا يحل انتهاكها(٤)(٥) . وقال قوم: الحرمات : هي الأمر والنهي(٦) وقال

تعريف الحرمات

---

(١) تعظيم الحرمات : التعظيم في اللغة : مصدر عظَّمَ ، يُقَالُ : عَظَّم فلان الأمر تعظيماً بمعنى فَخَّمَه وكبَّره ، وبَجَّلَه . انظر: لسان العرب ٩/ ٢٧٩، والمعجم الوسيط ٦١٠ مادة : (عظم) .
والحرمات : في اللغة جمع حرمة، وهي ما لا يحل انتهاكه. وهي مأخوذة من مادة: (حرم) . التي هي المنع والشدة . انظر: معجم مقاييس اللغة ١/ ٢٨٥، ولسان العرب ٣/ ١٣٦ مادة: (حرم) .
وتعظيم الحرمات عند الصوفية : يطلق ويراد به معرفة عظمة الحق مع التذلل لها ، بحيث لا تعصيه في أمره ، ولا تنازعه في قضائه .
فتعظيم العامة للحرمات : الوقوف عند المراسم ، رغبة في الوعد ، وهبة من الوعيد .
وهو للمتوسطين : حياءً من الله تعالى لا طلباً للمثوبة ، ولا رهبة من العقوبة .
وهو للخاصة : أن يحفظهم الله في أوقات المشاهدة عن الخروج عن حد الأدب .
انظر : لطائف الإعلام ١/ ٣٣٥ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٩/ ١٤٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٨٥-٢٨٦ .

(٣) في ط ، أ ، ب ، غ : مغاضبه .

(٤) في د : انتهاء كلها ، ولعله تصحيف .

(٥) انظر : تفسير البغوي ٣/ ٢٨٦ .

(٦) انظر : تفسير القرطبي ١٢/ ٥٤ .

الزجاج[١] : الحرمة ما وجب القيام به ، وحرم التفريط فيه[٢] . وقال قوم : الحرمات هاهنا المناسك ، ومشاعر الحج زماناً ومكاناً[٣] .

والصواب : أن «الحرمات» تعم هذا كله . وهي جمع «حرمة» وهي ما يجب احترامه ، وحفظه : من الحقوق ، والأشخاص ، والأزمنة ، والأماكن . فتعظيمها : توفيتها حقها ، وحفظها من الإضاعة .

تعريف الهروي للحرمة

قال صاحب المنازل - رحمه الله - :

«**الحُرمَةُ : هِيَ التَّحَرُّجُ عَن[٤] المُخَالَفَاتِ وَالمجَاسَرَاتِ**»[٥] .

«التحرج» الخروج من حرج المخالفة[٦] . وبناء تفعُّل يكون للدخول في الشيء[٧] ، كتمنَّى إذا دخل في الأمنية ، وتولَّج في الأمر[٨] ونحوه . وللخروج

---

(١) أبو إسحاق هو إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي ، الإمام ، نحوي زمانه ، له مؤلفات جمة ، وكان من ندماء المعتضد ، ومن أهل الأدب والفضل والدين ، توفي سنة ٣١١هـ .

انظر ترجمته في : السير ١٤/ ٣٦٠ ، بغية الوعاة ١/ ٤١١ .

(٢) انظر : معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٤ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٩/ ١٤٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٨٦ .

(٤) في ح٢ ، م : من .

(٥) انظر : المنازل ٣٠ .

(٦) «المخالفة» : ساقطة من ب ، غ ، أ ، وفي ش : المخالفات .

(٧) «في الشيء» ساقط من غ .

(٨) في ط زيادة : دخل فيه .

منه، كتحرج[١] وتحوب وتأثم . إذا أراد الخروج من الحرج ، والحوب[٢] والإثم[٣] .

أراد أن الحرمة هي الخروج من حرج المخالفة ، وجسارة الإقدام عليها .

ولما كان المخالف قسمين جاسرا وهائبا ، قال عن المخالفات والمجاسرات .

درجات الحرمة

قال[٤] : «وَهُوَ[٥] عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ :

الدرجة الأولى

الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : تَعظِيمُ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ . لاَ خَوفاً مِن العُقُوبَةِ ، فَيَكُونُ[٦] خُصُومَةً لِلنَّفسِ . وَلاَ طَلَباً لِلْمَثُوبَةِ ، فَيَكُونُ مُستَشْرِفاً لِلأُجْرَةِ ، وَلاَ مُشَاهِداً لِأَحَدٍ ، فَيَكُونُ مُتَزَيِّناً بِالمرَاءَاةِ ، فَإِنَّ هَذِهِ[٧] الأَوصَافَ كُلَّهَا شُعَبٌ مِن عِبَادَةِ النَّفْسِ[٨]»[٩] .

---

(١) في أ ، ب ، غ : التحرج .

(٢) الحُوب : بضم الحاء هو : الإثم . قال تعالى : ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً﴾ [النساء : ٢] .

أما الحَوب بفتح الحاء وسكون الواو فهو : الوحشة والحاجة والمسكنة . انظر : المعجم الوسيط ، ٢٠٤ مادة : (حوب) .

(٣) في ط ، والجميع سوى ش ، ق : هو الإثم .

(٤) «قال» ساقطة من د ، ب ، أ ، غ .

(٥) في ط والجميع سوى ش ، ق : وهي .

(٦) في ط والجميع سوى ش : فتكون .

(٧) في ق : فهذه .

(٨) في ط ، أ ، ب : من شعب عبادة النفس .

(٩) انظر : المنازل ص٣٠ لكن قال : «ولا شاهداً للجد» ، وفي بعض نسخ المنازل : لأحد .

هذا الموضع يكثر في كلام القوم . والناس بين معظم له ولأصحابه ، معتقد أن هذا أرفع درجات العبودية : أن لا يعبد[١] الله ، ويقوم بأمره ونهيه ، خوفاً[٢] من عقابه ، ولا طمعا في ثوابه .

فإن هذا[٣] واقف[٤] مع غرضه وحظ نفسه ، وأن المحبة تأبىٰ ذلك ، فإن المحب لا حظ له مع محبوبه . فوقوفُه مع حظِّه علةٌ في محبته ، وأن طمعه في الثواب : تطلع إلىٰ أنه يستحق بعمله علىٰ الله أجرة . ففي هذا آفتان : تطلعه إلىٰ الأجرة ، وإحسان ظنه بعمله . إذ[٥] تطلعه إلىٰ استحقاق[٦] الأجر[٧] ، وخوفه من العقاب : خصومة للنفس ، فإنه لا يزال يخاصمها إذا خالفت[٨] . ويقول : أما تخافين النار ، وعذابها ، وما أعد الله لأهلها؟ فلا تزال الخصومة بذلك بينه وبين نفسه .

---

(١) في ، أ ، ب ، غ : أن لا يعبد إلا الله .

(٢) في أ ، ب ، غ : لا خوفاً .

(٣) الإشارة هنا إلى من يعبد الله خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه ، وهذا - عند بعض الصوفية والزهاد - واقف مع غرضه وحظ نفسه . وقد رد ابن القيم على قول الهروي : «الرجاء أضعف منازل المريدين» ص١٤٢٠ .

(٤) في أ ، ب : وقف .

(٥) في ق : إذا .

(٦) في ط : استحقاقه .

(٧) في ق زيادة : به .

(٨) في ش : خافته .

ومن وجه آخر أيضاً : وهو أنه كالمخاصم عن نفسه ، المدافع[١] عنها خصمه الذي يريد هلاكه . وهو عين الاهتمام بالنفس ، والالتفات إلىٰ حظوظها ، مخاصمة لها واستدعاء ما تلتذ به[٢] .

ولا يخلصه من هذه المخاصمة ، وذلك الاستشراف : إلا تجريد القيام بالأمر والنهي من كل علة ، بل يقوم به تعظيماً[٣] للآمر الناهي . وأنه أهل أن يعبد ، وتعظم حرماته[٤] ولو لم يخلق جنة ولا ناراً ، [فهو يستحق العبادة[٥] ، والتعظيم والإجلال لذاته ، كما في الأثر الإسرائيلي : «لو لم أخلق جنة ولا نارا ، أما كنت أهلاً أن أعبد»][٦] .

ومنه قول القائل :

هب البعث لم تأتنا رسله وجاحمة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحـ ـق علىٰ ذي الورىٰ الشكر للمنعم[٧][٨]

---

(١) في ط : الدافع .

(٢) في ط : مخاصمة عنها واستدعاء لما تلتذ به .

(٣) «تعظيماً» ساقط من ط .

(٤) «ولو لم يخلق جنة ولا ناراً» ساقطة من ط .

(٥) «العبادة» ساقطة من ح٢ ، م .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من غ ، أ ، ب .

(٧) في أ ، ب ، غ جاء الشطر الثاني بلفظ : حياء العباد من المنعم .

(٨) ذكرهما الثعالبي في يتيمة الدهر ٥٢٧ ، ولم ينسبهما لأحد ، وذكر البطليوسي في شرحه لهذين البيتين قوله : وقد قال بعض المحدثين في نحو من هذا المعنى :

فالنفوس العليّة الزكية تعبده ، لأنه أهل أن يعبد ، ويُجَلَّ ويحب ويعظم . فهو لذاته مستحق للعبادة . قالوا[١] : ولا يكون العبد كأجير السوء ، إن أُعطي أجره عمل ، وإلا لم يعمل [٢] ، فهذا عبد الأجرة لا عبد المحبة والإرادة .

قالوا : والعمال شاخصون إلىٰ منزلتين : منزلة الأجرة[٣] ، ومنزلة [٤] القرب من المطاع .

تفسير «الزيادة» بالنظر إلى وجه الله

قال تعالىٰ في حق نبيه داود ﷺ : ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص : ٢٥] فالزلفىٰ[٥] منزلة القرب ، وحسن المآب : حسن الثواب والجزاء ، وقال تعالىٰ : ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس : ٢٦] ، فـ«الحسنىٰ» الجزاء ، و«الزيادة» منزلة [٦] القرب[٧] . ولهذا فُسرت بالنظر إلىٰ وجه الله عز وجل[٨]

هب البعث لم يأت نذر به | وجاحمة النار لم تضرم
أليس بكاف لذي نهية | حياء المسيء من المنعم

انظر : شرح المختار من لزوميات أبي العلاء المعري . القسم الأول ص٢٦٦ .

(١) «قالوا» ساقطة من ح٢ ، م ، ب ، أ ، غ .

(٢) في ط والجميع سوى ش : وإن لم يعط لم يعمل .

(٣) في ط ، أ ، ب ، غ : الآخرة .

(٤) «ومنزلة» ساقطة من م .

(٥) في ش : والزلفى .

(٦) «منزلة» ساقطة من غ .

(٧) في د : القربة .

(٨) تفسير «الزيادة» : بالنظر إلى وجه الله تعالى هو الذي فسرها به رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، والتابعون لهم بإحسان ، فقد روى مسلم في صحيحه عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ

وهذان[1] هما اللذان[2] وعدهما فرعون للسحرة إن غلبوا موسىٰ ، فقالوا له : ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝﴾ [الأعراف : ١١٣ ، ١١٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة : ٧٢] .

قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» وفي رواية أخرى عند مسلم وزاد : ثم تلا هذه الآية : ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ . انظر : صحيح مسلم ١/ ١٦٣ ، كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم ، ح١٨١ . وانظر : تفسير السلف لها بهذا في تفسير الطبري ٦/ ٥٤٩ ، والشريعة للآجري ص٢٥٧ ، والسنة لعبدالله بن الإمام أحمد ١/ ٢٥٦ ، والتوحيد لابن خزيمة ١/ ٤٤٤ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٥١ .

قلت : وفسرت الزيادة كذلك بأنها تضعيف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وقيل إنها المغفرة والرضوان ، وقيل : هي غرفة من لؤلؤة لها أربعة أبواب ، وقيل : هي ما أعطاهم الله في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة . انظر : تفسير الطبري ٦/ ٥٥٢ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٥١ وتفسير القرطبي ٨/ ٣٣٠ . وقد أورد الشوكاني في تفسيره ٢/ ٤٤١ عدداً من الأحاديث والآثار التي تدل على أن الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى ، ثم قال : وقد روي عن التابعين ومن بعدهم روايات تفسر الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه الله ، وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله ﷺ فلم يبق حينئذ لقائل مقال .

(١) في ش : وهذا .

(٢) في ط : اللذان .

قالوا : والعارفون عملهم علىٰ المنزلة والدرجة ، والعمال عملهم علىٰ الثواب والأجرة[1] ، وشتان ما بينهما .



فصل

وطائفة ثانية تجعل[2] هذا الكلام من شطحات القوم ورعوناتهم . وتحتج بأحوال الأنبياء والرسل[3] والصديقين ، ودعائهم وسؤالهم[4] ، والثناء عليهم[5] بخوفهم من النار ، ورجائهم للجنة[6] ، كما قال تعالىٰ في حق خواص عباده الذين عبدهم المشركون : إنهم : «يرجون رحمته ويخافون عذابه»[7]- كما تقدم[8][9] - وقال عن أنبيائه ورسله : ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾

---

(١) في أ ، ب : الآخرة .

(٢) في ق : تجُلُّ .

(٣) «الرسل» ساقطة من غ ، أ ، ب ، وفي ش : المرسلين .

(٤) «وسؤالهم» ساقطة من غ ، ب ، أ .

(٥) «والثناء عليهم» ساقط من د .

(٦) في ح٢ : الجنة .

(٧) قال تعالى : ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ [الإسراء : ٥٧] .

(٨) «كما تقدم» ساقط من ش .

(٩) انظر : ص١٤١٤ (منزلة الرجاء) .

[الأنبياء: ٨٩-٩٠]، أي: رغباً فيما عندنا، ورهبا من عذابنا. والضمير في قوله: «إنهم» عائد علىٰ الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين[1].

و«الرغب والرهب» رجاء الرحمة والخوف من النار عندهم أجمعين[2].

وذكر سبحانه عباده الذين هم خواصه[3]، وأثنىٰ عليهم بأحسن أعمالهم، وجعل منها: استعاذتهم به من النار، فقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦] وأخبر عنهم: أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار [فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦] فجعلوا أعظم وسائلهم إليه، وسيلة الإيمان أن ينجيهم من النار.

وأخبر تعالىٰ عن[4] العارفين أولي الألباب والفكر[5]: أنهم كانوا يسألونه[6]

---

(١) انظر: تفسير البغوي ٣/ ٢٦٧، وتفسير الشوكاني ٣/ ٤٢٥ وذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير راجع إلى زكريا وامرأته ويحيى. انظر: تفسير الطبري ٩/ ٧٩، وتفسير الشوكاني ٣/ ٤٢٥.

(٢) وذكر بعض المفسرين معاني أخرى للرغب والرهب كالتضرع إلى الله في حال الرخاء وحال الشدة، وقيل: الرغب رفع بطون الأكف إلى السماء، والرهب رفع ظهورها ... انظر: تفسير القرطبي ١١/ ٣٣٦.

(٣) في ط والجميع سوى ش: خواص خلقه.

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة: سادات.

(٥) «والفكر» ساقطة من ط والجميع سوى ش.

(٦) في ح٢: يسألون.

جنته . ويتعوذون به من ناره][1] فقال تعالىٰ : ﴿[2]إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾ [آل عمران : ١٩٠-١٩٤] ، ولا خلاف أن الموعود به علىٰ لسان[3] رسله : الذين سألوه هو الجنة[4] .

وقال عن خليله إبراهيم ﷺ : ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧)﴾ [الشعراء : ٨٢-٨٧][5] ، فسأل الله الجنة واستعاذ به من خزي يوم البعث[6] .

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من أ ، ب ، غ .

(٢) في ط والجميع سوى ش : الآيات لم تكمل .

(٣) في ط والجميع سوى ش : ألسنة .

(٤) في ط والجميع سوى ش : هي الجنة التي سألوها .

(٥) في ط والجميع سوى ش الآيات إلى قوله : ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ .

(٦) في ط والجميع سوى ش : من النار وهو الخزي يوم البعث .

وأخبر[1] سبحانه عن الجنة : أنها كانت[2] وعداً عليه مسئولاً[3] ، أي يسأله إياها عباده وأولياؤه .

وأمر النبي ﷺ أمته[4] : أن يسألوا له في وقت الإجابة - عقيب الأذان- أعلىٰ منزلة في الجنة . وأخبرهم[5] : أن من سألها له[6] «حلت عليه شفاعته»[7] .

---

(١) في ط : وأخبرنا .

(٢) في ش : أنه كان .

(٣) قال تعالى : ﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً * لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعداً مسئولاً﴾ [الفرقان : ١٥ ، ١٦] .

(٤) «أمته» ناقصة من ق .

(٥) في ط والجميع سوى ش : وأخبر .

(٦) في م : حالت .

(٧) روى مسلم بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول : «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول . ثم صلوا عليَّ . فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة . فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو . فمن سأل الوسيلة حلت له الشفاعة» .

انظر : صحيح مسلم ١/ ٢٨٨-٢٨٩ كتاب الصلاة ، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ، ح٣٨٤ ، ورواه البخاري ١/ ٩٤ في كتاب الأذان ، باب الدعاء عند النداء ، ح٦١٤ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ بلفظ : «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة» .

ورواه أحمد في مسنده كذلك ٣/ ٣٥٤ .

وقال له سليم الأنصاري[١] : أمَا إني[٢] أسأل الله الجنة وأعوذ به[٣] من النار ، لا[٤] أحسن دندنتك ولا دندنة[٥] معاذ ، فقال : « أنا ومعاذ حولها ندندن»[٦] .

وفي الصحيح - في[٧] حديث الملائكة السيارة[٨] الفُضّل عن كتاب الناس: «إن الله تعالىٰ يسألهم عن عباده[٩] ، فيقولون[١٠] : أتيناك من عند عباد لك[١١] يهللونك ، ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجدونك . فيقول عز وجل : وهل رأوني؟ فيقولون : لا يا رب ، ما رأوك . فيقول عز وجل : فكيف[١٢] لو رأوني؟ فيقولون : لو رأوك لكانوا أشد تمجيداً . قالوا : يا رب . ويسألونك جنتك .

---

(١) سليم بن الحارث بن ثعلبة السلمي الأنصاري شهد بدراً ، وهو الذي اشتكى معاذاً عند النبي ﷺ ، بأنه يطول عليهم الصلاة . قتل شهيداً يوم أحد.

ترجمته في : أسد الغابة ٢/ ٢٩١ ، والإصابة ٢/ ٧٢ .

(٢) في ق : أنا .

(٣) في ط والجميع سوى ش : وأستعيذه .

(٤) في غ ، أ : ولا .

(٥) في ش : ودندنة .

(٦) سبق تخريجه ص١٢٢٧ .

(٧) في ش : من .

(٨) «السيارة» ساقطة من م ، وفي ح٢ : السارة .

(٩) في ط ، غ ، أ ، ب زيادة : وهو أعلم تبارك وتعالى .

(١٠) «فيقولون» ساقطة من د .

(١١) في ح٢ ، م ، غ : عبادك .

(١٢) في ط والجميع سوى ش : كيف .

فيقول : هل رأوها؟ فيقولون : لا . وعزتك ما رأوها . فيقول : فكيف لو رأوها؟ فيقولون : لو رأوها لكانوا لها أشد طلباً . قالوا : ويستعيذونك[١] من النار ، فيقول عز وجل : وهل رأوها؟ فيقولون : لا وعزتك ما رأوها فيقول : فكيف[٢] لو رأوها؟ فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد منها هرباً . فيقول أشهدكم أني[٣] قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا ، وأعذتهم مما استعاذوا منه»[٤] .

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء علىٰ عباده وأوليائه بسؤاله[٥] الجنة ورجائها ، والاستعاذة من النار ، والخوف منها .

قالوا[٦] : وقد قال النبي ﷺ لأصحابه : «استعيذوا بالله من النار»[٧] ، وقال لمن سأله مرافقته في الجنة : «أعني علىٰ نفسك بكثرة السجود»[٨] .

---

(١) في ط والجميع سوى ش : يستعيذون بك .

(٢) في ح٢ : وكيف .

(٣) في ط ، أ ، ب : إني أشهدكم .

(٤) رواه البخاري ١١/ ٢٠٨ -٢٠٩ في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل ، ح٦٤٠٨، ومسلم ٤/ ٢٠٦٩-٢٠٧٠ في كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل مجالس الذكر ، ح٢٦٨٩ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٥١ .

(٥) في ط والجميع : بسؤال .

(٦) «قالوا» ساقطة من ش .

(٧) سبق تخريجه ص ١٤٤٣ .

(٨) رواه مسلم ١/ ٣٥٣ في كتاب الصلاة ، باب فضل السجود ، ح٤٨٩ ، وأحمد في مسنده ٤/ ٥٩ ، وأبو داود ٢/ ٧٨ في كتاب الصلاة ، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل ، ح ١٣٢٠ ،

قالوا : والعمل علىٰ طلب الجنة والنجاة من النار مقصود للشارع[١] من أمته، ليكونا دائما علىٰ ذكر منهم فلا ينسونهما[٢] ، ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة. والعمل علىٰ حصول الجنة والنجاة من النار: هو محض الإيمان[٣].

قالوا : وقد حض النبي ﷺ عليها أصحابه وأمته ، بوصفها[٤] . وجلّاها لهم ليخطبوها ، وقال : **«ألا مشمر للجنة؟ فإنها - ورب الكعبة - نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وزوجة حسناء ، وفاكهة نضيجة ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد»** الحديث - فقال الصحابة - رضي الله عنهم - : يا رسول الله : نحن المشمرون[٥] لها ، فقال : **«قولوا : إن شاء الله»**[٦] .

والنسائي ٢/ ٢٢٧-٢٢٨ في كتاب الافتتاح ، باب فضل السجود ، ١١٣٨ ، والسائل هو : ربيعة بن كعب السلمي رضي الله عنه .

(١) في ط والجميع سوى د : الشارع .

(٢) في ش : فلا ينسوهما وفي د : فلا ينسوها .

(٣) «هو محض الإيمان» ساقط من ش وهو في هامشها .

(٤) في ط والجميع سوى ش : فوصفها .

(٥) في د : مشمرون .

(٦) رواه ابن ماجه ٢/ ١٤٤٨ في كتاب الزهد ، باب صفة الجنة ، ح٤٣٣٢ ، وابن حبان في صحيحه ٩/ ٢٣٨ ح٧٣٣٧ ، والطبراني مختصراً في الكبير ١/ ١٦٢-١٦٣ ح٣٨٨ ، والبغوي في شرح السنة ١٥/ ٢٢٣ ح٤٣٨٦ وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٥١٤ ، قال البوصيري : إسناده فيه مقال ، والضحاك المعافري ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الذهبي عنه مجهول ، وسليمان بن موسى مختلف فيه ، وباقي رجال الإسناد ثقات . انظر : مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ٤/ ٢٦٥ ، وقال المنذري : الضحاك لم يخرج له من أصحاب الكتب الستة

ولو ذهبنا نذكر ما في السنة من قوله : «**من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة**» تحريضا علىٰ عمله لأجلها[١] ، وأن تكون هي الباعثة علىٰ العمل ، لطال ذلك جدا ، وذلك في جميع الأعمال .

قالوا : فكيف يكون العمل لأجل الثواب ، وخوف العقاب معلولاً؟ ورسول الله ﷺ يحرض عليه ، ويقول : «**من فعل كذا فتحت له أبواب الجنة الثمانية**»[٢] . و«**من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة**»[٣] ،

غير ابن ماجه ولم أقف له على جرح ولا تعديل لغير ابن حبان ، بل هو في عداد المجهولين . انظر : الترغيب والترهيب ٤/ ٥١٥ والحديث ضعفه الألباني . انظر : الضعيفة ٧/ ٣٧٠ ح٣٣٥٨ .

(١) في ط والجميع سوى ش : لها .

(٢) ورد ذلك في أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبدالله وابن أمته ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء**» .
انظر : صحيح مسلم ١/ ٥٧ ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، ح٢٨ . وما رواه مسلم كذلك عن عقبة بن عامر عن عمر بن الخطاب ﷺ عن النبي ﷺ قال : «**ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**» انظر : صحيح مسلم ١/ ٢٠٩-٢١٠ ، كتاب الطهارة ، باب الذكر المستحب عقب الوضوء ، ح٢٣٤ ، وغير ذلك من الأحاديث .

(٣) رواه الترمذي ٥/ ٥١١ في كتاب الدعوات ، باب (٦٠) ، ح٣٤٦٤ بلفظ : «**من قال: سبحان الله العظيم وبحمده . . .**» وقال : حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي الزبير عن

و «من كسا مسلما علىٰ عري كساه الله من حلل الجنة»[1]، و«عائد المريض في خرفة[2] الجنة»[3]. والحديث مملوء من ذلك؟ أفتراه يحرض الأمة[4] علىٰ

جابر، ورواه وابن حبان في صحيحه ٢/ ٩٦-٩٧ ح٨٣٢، والحاكم في المستدرك ١/ ٦٨٠ ح١٨٤٧ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي لكن قال: على شرط البخاري. وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٤٢٢ وقال: رواه الترمذي وحسنه واللفظ له والنسائي إلا أنه قال: «غرست له شجرة في الجنة» وابن حبان في صحيحه، والحاكم في موضعين بإسنادين قال في أحدهما: على شرط مسلم وقال في الآخر على شرط البخاري، وذكره أيضاً عن عبدالله بن عمرو وقال: رواه البراز بإسناد جيد. والحديث صححه الألباني انظر: الصحيحة ١/ ٩٥ ح٦٤.

(١) رواه أبو داود ٢/ ٣١٤ في كتاب الزكاة، باب في فضل سقي الماء، ح١٦٨٢ بلفظ: «أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عري كساه الله من خضر الجنة...» ورواه الترمذي ٤/ ٦٣٣ في كتاب صفة القيامة، باب (١٨)، ح٢٤٤٩ بلفظ: «... وأيما مؤمن كسا مؤمناً على عري كساه الله من خضر الجنة» وقال: حديث غريب وقد روي هذا عن عطية عن أبي سعيد موقوف، وهو أصح عندنا وأشبه.

ورواه أحمد ٣/ ١٣-١٤ كذلك عن أبي سعيد الخدري وقال: أراه قد رفعه إلى النبي ﷺ، وذكره التبريزي في مشكاة المصابيح ١/ ٥٩٧، وضعف الألباني إسناده. وقال محققو المسند ١٧/ ١٦٧: إسناده ضعيف لضعف عطية بن سعد العوفي.

(٢) في د، ق: غرفة.

(٣) رواه مسلم ٤/ ١٩٨٩ في كتاب البر والصلة، باب فضل عيادة المريض، ح٢٥٦٨، وأحمد في مسنده ٥/ ٢٧٦، والترمذي ٣/ ٢٩٩ في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عيادة المريض، ح٩٦٧ وقال: حسن صحيح.

(٤) في ط والجميع سوى ش: المؤمنين.

مطلب معلول ناقص ، ويدع المطلب العالي البريء من شوائب العلل لا يحرضهم عليه؟

قالوا : وأيضا فإنه[1] سبحانه يحب من عباده أن يسألوه جنته . ويستعيذوا به[2] من ناره . فإنه يحب أن يسأل . ومن لم يسأله يغضب عليه[3] . وأعظم ما سئل[4] «الجنة» وأعظم ما استعيذ به منه «النار»[5] .

فالعمل لطلب الجنة محبوب للرب ، مرضي له . وطلبها عبودية للرب ، والقيام بعبوديته كلها أولىٰ من تعطيل بعضها .

قالوا : وإذا خلا العامل[6] ملاحظة الجنة والنار ، وطلب الجنة ورجائها[7] فترت عزائمه ، وضعفت همته ، ووهىٰ باعثه . وكلما كان أشد طلباً للجنة ، وعملاً لها ، كان الباعث له أقوىٰ ، والهمة أشد ، والسعي أتم ، وهذا أمر معلوم بالذوق .

قالوا : ولو[8] لم يكن هذا مطلوبا للشارع ، لما وصف الجنة للعباد ، وزينها

(١) في ط والجميع سوى ش : فالله .

(٢) في ش : ويستعيذونه وفي باقي النسخ : ويستعيذون به .

(٣) سبق تخريجه ص١٤٤٧.

(٤) في م : سُئله .

(٥) في ط والجميع سوى د ، ق : من النار .

(٦) في ط والجميع سوى ش : خلال القلب من ، وفي ش : خلا العامل عن .

(٧) في ط والجميع سوى ش : ورجاء هذه والهرب من هذه .

(٨) في ش : لو .

لهم ، وعرضها عليهم ، وأخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم منها ، وما عداه ، أخبرهم به مجملاً . كل هذا تشويقاً لهم إليها ، وحثاً لهم علىٰ السعي لها سعيها .

قالوا : وقد قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[يونس : ٢٥] وهذا حث علىٰ إجابة هذه الدعوة ، والمبادرة إليها ، والمسارعة في الإجابة .

والتحقيق أن يقال : الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه ، والطعام والشراب ، والحور العين ، والأنهار والقصور ، وأكثر الناس يغلطون في مسمىٰ الجنة . فإن «الجنة» اسم لدار النعيم المطلق الكامل . ومن أعظم نعيم الجنة التمتع بالنظر إلىٰ وجه الرب(١) الكريم ، وسماع كلامه ، وقرة العين بالقرب منه ورضوانه(٢) . فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور ، إلىٰ هذه اللذة أبداً . فأيسر يسير من رضوانه : أكبر من الجنان وما فيها من ذلك . كما قال تعالىٰ : ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة : ٧٢] ، وأتىٰ به منكراً في سياق الإثبات . أي(٣) : أي شيء كان من رضاه عن عبده : فهو أكبر من الجنة .

قليل منك يقنعني ولكن قليلك لا يقال له قليل(٤)

---

(١) في ط والجميع سوى ش : الله .

(٢) في ط : وبرضوانه .

(٣) (أي) ساقطة من الجميع سوى ش ، د ، ط .

(٤) ذكره السبكي في طبقات الشافعية ٥/ ٩١ في ترجمة العز بن عبدالسلام .

وفي الحديث الصحيح - حديث الرؤية - : «فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلىٰ وجهه»(١) . وفي حديث آخر : «أنه سبحانه إذا تجلىٰ

---

(١) رواه مسلم ١/ ٦٧ في كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ، ح١٨١ ، وأحمد في مسنده ٦/ ١٥-١٦ ، والترمذي ٤/ ٦٨٧ في كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى ، ح٢٥٥٢ ، وابن ماجه ١/ ٦٧ في المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية ، ح١٨٧ .

قلت : مذهب أهل السنة والجماعة إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة ، كما دلت على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢ ، ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ [المطففين : ١٥] لما حجب أعداءه فلم يروه ، دل على أن أولياءه -وهم المؤمنون- يرونه . قال الشافعي -رحمه الله- : لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه في الرضا ، وقال تعالى : ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ فالحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الله عز وجل وغير ذلك من الآيات .

وأما الأحاديث : فقد بلغت حد التواتر . يقول الإمام الدارمي - رحمه الله - بعد أن ساق بضعة وعشرين حديثاً وأثراً : فهذه الأحاديث كلها وأكثر منها قد رويت في الرؤية . على تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه ، والبصر من مشايخنا ، ولم يزل المسلمون قديماً وحديثاً يروونها ويؤمنون بها ، لايستنكرونها ولا ينكرونها . انظر : الرد على الجهمية للدارمي ص٦٣ .

وقال ابن أبي العز : وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة ، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن . . وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً، ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها . انظر : شرح الطحاوية ص٢٠٩-٢١٠ فمن هذه الأحاديث :

١ - ما رواه البخاري عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : «إنكم سترون =

= ربكم عياناً».

انظر: صحيح البخاري ١٣/ ٤١٩ كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ ح٧٤٣٥.

٢ - ومنها: ما رواه البخاري عن جرير أيضاً قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تُضامُّون في رؤيته ...»

انظر: صحيح البخاري ١٣/ ٤١٩، كتاب التوحيد، باب قول الله عز وجل: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، ح٧٤٣٤.

٣ - ومنها: ما رواه البخاري كذلك عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في القمر ليلة البدر؟». قالوا: لا يا رسول الله؟ قال: «فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه كذلك...» الحديث. انظر: صحيح البخاري ١٣/ ٤١٩، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، ح٣٤٣٧، ورواه مسلم كذلك ١/ ١٦٣ -١٦٤، في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، ح١٨٢ وغير ذلك من الأحاديث.

وقد أنكر رؤية الله عز وجل: الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والرافضة. انظر: الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد ص٨٥، ومقالات الإسلاميين للأشعري، ص١٥٧ وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص٢٣٢، ومنهاج السنة، ٣/ ٣٤٠، وشرح الطحاوية ص٢٠٤.

ولا شك أن قولهم باطل مخالف لنصوص الكتاب والسنة، وما أجمع عليه سلف الأمة، ولقد كفر السلف من أنكر الرؤية وردوا عليهم. روى الآجري عن الفضل بن زياد قال: سمعت أبا عبدالله أحمد بن حنبل وبلغه عن رجل أنه قال: إن الله عز وجل لا يُرى في الآخرة، فغضب غضباً شديداً ثم قال: من قال: إن الله عز وجل لا يُرى في الآخرة فقد كفر، عليه لعنة الله وغضبه، من كان من الناس ... انظر: كتاب التصديق بالنظر إلى وجه الله عز وجل ضمن =

لهم . ورأوا وجهه عياناً : نسوا ما هم فيه من النعيم ، وذهلوا عنه ، ولم يلتفتوا إليه »[١] . ولا ريب أن الأمر هكذا ، وهو أجل مما يخطر بالبال ، أو يدور[٢] في الخيال» . ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة ، فإن المرء مع من أحب . ولا تخصيص في هذا الحكم ، بل هو ثابت شاهداً وغائباً .

فأي نعيم ، وأي لذة ، وأي قرة عين ، وأي فوز يداني نعيم تلك المعية ولذتها ، وقرة العين بها؟

وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب ، الذي لا شيء أجَلَّ منه ، ولا أكمل ولا أجمل : قرة[٣] البتة؟

= كتاب الشريعة ص٢٥٤ ، وانظر : لهذه المسألة كتاب السنة لعبدالله بن الإمام أحمد ١/ ٢٢٩ ، والتوحيد لابن خزيمة ١/ ٤٣٧ ، والسنة لابن أبي عاصم ١/ ١٩٣ ، وشرح أصول السنة للالكائي ٢/ ٤٥٤ ، وكتاب التصديق بالنظر إلى الله عز وجل للآجري ضمن كتاب الشريعة ص٢٥١ ، وحادي الأرواح لابن القيم ص٢٦٧ ، وفتح الباري لابن حجر ١٣/ ٤١٩ ، وشرح الطحاوية لابن أبي العز ٢٠٤ .

(١) لم أجد حديثاً بهذا اللفظ فيما وقفت عليه من مصادر ، لكن وجدته موقوفاً على الحسن رواه الآجري بسنده عن الحسن ، قال : إن الله عز وجل ليتجلى لأهل الجنة ، فإذا رآه أهل الجنة نسوا نعيم الجنة» . انظر : كتاب التصديق بالنظر إلى وجه الله عز وجل ضمن كتاب الشريعة ص٢٥٣ . وقد عزاه ابن القيم في كتاب حادي الأرواح ص٣١١-٣١٢ إلى هشام ابن حسان، لا إلى الحسن . قال الدكتور عبدالله الدميجي - محقق كتاب الشريعة - إسناده ضعيف . انظر : كتاب الشريعة ٢/ ٩٨٢ .

(٢) في ح٢ ، م ، غ : ويدور .

(٣) في ط : قرة عين .

وهذا - والله - هو العلم الذي شمَّر إليه المحبون ، واللواء الذي أمه العارفون[١] ، وهو روح مسمىٰ «الجنة» وحياتها . وبه طابت الجنة ، وعليه قامت .

فكيف يقال : لا يعبد الله طلباً لجنته ، ولا خوفا من ناره؟

وكذلك «النار»[٢] ، فإن ما لأربابها[٣] من عذاب الحجاب عن الله وإهانته ، وغضبه وسخطه ، والبعد عنه : أعظم من [التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم][٤] ؛ بل التهاب هذه النار في قلوبهم[٥] : هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم ، ومنها سرت إليها[٦] .

فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين ، والشهداء والصالحين : هو الجنة ، وهربهم[٧] : من النار . والله المستعان ، وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا به[٨] ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ومقصد القوم : أن العبد يعبد ربه بحق العبودية . والعبد إذا طلب من سيده

---

(١) في ط : العافون .

(٢) في ط ، أ ، ب ، غ زيادة : أعاذنا الله منها .

(٣) في ط والجميع سوى ش : فإن لأربابها .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من د ، وهو في هامشها .

(٥) «في قلوبهم» ساقط من غ ، أ ، ب .

(٦) في ب : إليهم .

(٧) في ط والجميع سوى ش : ومهربهم .

(٨) في ط والجميع سوى ش ، د : ولا قوة إلا بالله وحسبنا الله .

أجرة علىٰ خدمته له كان أحمق، ساقطاً من عين سيده، إن لم يستوجب عقوبته. إذ عبوديته تقتضي خدمته له. وإنما يخدم بالأجرة من لا عبودية للمخدوم عليه. إما أن يكون حراً في نفسه، أو عبدا لغيره. وأما من[1] الخلق عبيده حقاً[2]، وملكه علىٰ الحقيقة، ليس فيهم حر ولا عبد لغيره: فخدمتهم له بحق العبودية. فاقتضاؤهم للأجرة خروج عن محض العبودية.

وهذا[3] لا ينكر علىٰ الإطلاق، ولا يقبل علىٰ الإطلاق، وهو موضع تفصيل وتمييز.

وقد تقدم في أول الكتاب: ذكر طرق الخلق في هذا الموضع[4]. وبينا طريقة[5] أهل[6] الاستقامة[7].

فالناس[8] أربعة أقسام:

أحدهم: من لا يريد ربه ولا يريد ثوابه، فهؤلاء أعداؤه حقاً، وهم أهل العذاب الدائم. وعدم إرادتهم لثوابه: إما لعدم تصديقهم به، وإما لإيثار

---

(١) «مَنْ» ساقطة من د.

(٢) في ح٢، م: حقه.

(٣) في ق: وهكذا.

(٤) «الموضع» ساقطة من ش.

(٥) في ط والجميع سوى ش: طريق.

(٦) «أهل» ساقطة من ب، وهي في هامشها.

(٧) انظر: ص٢١٤، ٢١٥، ٣٧١، ٣٧٧.

(٨) في ط والجميع سوى ش زيادة: في هذا المقام.

العاجل عليه ، ولو كان فيه سخطه .

والقسم الثاني : من يريده ويريد ثوابه ، وهؤلاء خواص خلقه . قال تعالىٰ : ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٢٩] ، فهذا خطابه[1] لخير نساء العالم[2] أزواج نبيه . وقال تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء : ١٩] فأخبر أن السعي المشكور : سعي من أراد الآخرة .

وأصرح من هذا[3] قوله لخواص أوليائه - وهم أصحاب نبيه ﷺ في يوم أحد : ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فقسمهم إلىٰ هذين القسمين اللذين لا ثالث لهما .

وقد غلط من قال : فأين من يريد الله؟ فإن إرادة الآخرة عبارة عن إرادة الله وثوابه ، فإرادة الثواب لا تنافي إرادة الله .

والقسم الثالث : من يريد من الله ، ولا يريد الله ، فهذا ناقص غاية النقص . وهو حال الجاهل[4] بربه ، الذي سمع أن ثم[5] جنة وناراً . فليس في قلبه غير

---

(١) في ش : خطاب .

(٢) في ط : العالمين .

(٣) في ط والجميع سوى ش : منها ، وفي ح٢ : منه .

(٤) في غ : الجهل .

(٥) في د : ثمة .

إرادة نعيم الجنة المخلوقة[1] ، ولا يخطر[2] بباله سواه البتة ؛ بل هذا حال أكثر المتكلمين ، المنكرين رؤية الله [والتلذذ بالنظر إلىٰ وجهه في الآخرة ، وسماع كلامه وحبه . والمنكرين علىٰ من يزعم أنه يحب الله ، وهم عبيد الأجرة المحضة ، فهؤلاء لا يريدون الله تعالىٰ][3] .

ومنهم من يصرح بأن إرادة الله محال .

قالوا[4] : لأن الإرادة إنما تتعلق بالحادث . فالقديم لا يراد . فهؤلاء منكرون لإرادة الله غاية الإنكار . وأعلىٰ الإرادة عندهم : إرادة الأكل والشرب والنكاح واللباس في الجنة ، وتوابع ذلك . فهؤلاء في شق ، وأولئك - الذين قالوا : لم نعبده طلبا لجنته ، ولا هربا من ناره - في شق . وهم[5] طرفا نقيض ، بينهما أعظم من بعد المشرقين . وهؤلاء من أكثف[6] الناس[7] حجاباً ، وأغلظهم[8] طباعاً ، وأقساهم قلوباً[9] ، وأبعدهم عن روح المحبة والتأله ، ونعيم الأرواح

---

(١) في ط والجميع سوى ش : المخلوق .

(٢) في ط والجميع ش : لا يخطر .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من أ ، ب ، غ .

(٤) في غ ، ب ، أ ، د ، ق : قال .

(٥) في ط : وهما .

(٦) كَثُف الشيء كثافةً : غَلُظ وثَخُن ، وكَثُر . انظر : المعجم الوسيط ص٧٧٧ ، مادة : كثف .

(٧) «الناس» ساقطة من د .

(٨) في ق : وأغلظ .

(٩) في ش : وأقسى الناس قلوباً .

والقلوب . وهم يكفرون أصحاب المحبة ، والشوق إلىٰ الله ، والتلذذ بحبه ، والتصديق بلذة النظر إلىٰ وجهه ، وسماع كلامه منه بلا واسطة .

وأولئك لا يعدونهم من البشر إلا بالصورة ، ومرتبتهم عندهم قريبة من مرتبة الجماد والحيوان البهيم . وهم عندهم في حجاب كثيف عن معرفة نفوسهم وكمالها ، ومعرفة معبودهم ، وسر عبوديته .

وحال الطائفتين عجب لمن اطلع عليه .

والقسم الرابع – وهو محال – : أن يريد الله ، ولا يريد منه . فهذا هو الذي يزعم هؤلاء : أنه[1] مطلوبهم ، وأن من لم يصل إليه ففي[2] سيره علة ، وأن العارف ينتهي إلىٰ هذا المقام :[3] أن يكون الله مراده ، ولا يريد منه شيئا ، كما يحكىٰ عن أبي يزيد – رضي الله عنه – أنه قال : قيل لي : ما تريد؟ فقلت : أريد ألا[4] أريد[5] .

وهذا في التحقيق عين المحال الممتنع : عقلاً وفطرة ، وحساً وشرعاً . فإن الإرادة من لوازم الحي . وإنما يعرض له التجرد عنها بالغيبة عن عقله وحسه ، كالسكر والإغماء والنوم . فنحن لا ننكر التجريد عن إرادة ما سواه من

---

(١) في ب ، غ : وأنه .

(٢) في ق : في .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : وهو .

(٤) في : أن لا .

(٥) انظر : ص١١٩٣.

المخلوقات التي تزاحم إرادتها إرادته . أفليس[١] صاحب هذه الحال[٢] مريدًا لقربه[٣] ورضاه ، ودوام مراقبته ، والحضور معه؟ وأي إرادة فوق هذه؟

نعم : قد زهد في مراد لمراد[٤] أجلّ منه وأعلىٰ ، فما خرج[٥] عن الإرادة . وإنما انتقل من[٦] إرادة إلىٰ إرادة ، ومن مراد إلىٰ مراد . وأما خلوه عن[٧] صفة الإرادة بالكلية ، مع حضور عقله وحسه : فمحال . وإن حاكمنا في ذلك محاكم إلىٰ ذوق مصطلم[٨] مأخوذ عن نفسه ، فانٍ عن عوالمها : لم[٩] ننكر

---

(١) في ح٢ ، م ، غ : فليس .

(٢) في ط والجميع سوى ش : هذا المقام .

(٣) في ح٢ ، م : يريد القربة .

(٤) في ط ، أ ، ب ، غ زيادة : هو .

(٥) في ط ، ب ، غ ، أ : فلم يخرج .

(٦) في ش : عن .

(٧) في أ ، ب ، غ : من .

(٨) الاصطلام في اللغة : الاستئصال . يُقال صلمه صلماً : قطعه واستأصله . واصْطُلِم القوم : أبيدوا ، من الصلم وهو القطع . انظر : لسان العرب ٧/ ٣٩٥ ، والمعجم الوسيط ص٥٢١ مادة : (صلم) .

ومعناه عند الصوفية : هو نعت ولهٍ يرد على القلب ، فيسكن القلب تحت غلبته وسلطانه ، وهو قريب من الهيمان . وهو عندهم ولهٌ يسلب النفس والحس ، فهو بهذه الحالة ممحو الآثار ، لا تجري عليه أحكام التكليف .

انظر : لطائف الإعلام ٢/ ٢٠٩ ، المعجم الصوفي ص٣٤ ، رشح الزلال ص١١٣ .

(٩) «لم» ساقطة من م .

ذلك ، لكن هذه حال عارضة غير دائمة ، ولا هي غايةٌ مطلوبة للسالكين ، ولا مقدورة للبشر ، ولا مأمور بها ، ولا هي[1] أعلىٰ المقامات ، فيؤمر باكتساب أسبابها . فهذا فصل الخطاب في هذا الموضع . والله أعلم .



فصل

قوله[2] : «وَلاَ مُشَاهِداً لِأَحَدٍ . فَيَكُونُ مُتَزَيِّناً بِالمُرَاءَاةِ» .

المشاهدة في العمل لغير الله نوعان

هذا فيه تفصيل أيضاً . وهو أن المشاهدة في العمل لغير الله نوعان :

مشاهدة تبعث عليه ، أو تقوي[3] باعثه . فهذه مراءاة خالصة أو مشوبة . كما أن المشاهدة القاطعة عنه أيضاً من الآفات والحجب .

ومشاهدة لا تبعث عليه ولا تعين الباعث ؛ بل لا فرق عنده بين وجودها وعدمها ، فهذه لا تدخله في التزين بالمراءاة . ولا سيما عند المصلحة الراجحة في هذه المشاهدة :

إما حفظاً له[4] ورعاية ، كمشاهدة مريض ، أو مشرف علىٰ هلكة يخاف وقوعه فيها ، أو مشاهدة عدو يخاف هجومه كصلاة الخوف عند المواجهة ، أو مشاهدة ناظر إليك يريد أن يتعلم منك ، فتكون محسناً إليه بالتعليم ، وإلىٰ نفسك بالإخلاص . أو قصدا منك للاقتداء ، وتعريف الجاهل .

---

(١) «هي» ساقطة من ش ، د .

(٢) في غ ، أ ، ب : قال .

(٣) في م : وتقوي .

(٤) «له» ساقطة من ط ، غ ، ب ، أ .

فهذا رياء محمود ، والله عند نية القلب وقصده .

فالرياء المذموم : أن يكون الباعث : قصد التعظيم والمدح ، والرغبة فيما عند من يرائيه[١] ، أو الرهبة[٢] منه . وأما ما ذكرنا - من قصد رعايته ، أو تعليمه ، أو إظهار السنة ، وملاحظة[٣] هجوم العدو . ونحو ذلك - : فليس في هذه المشاهدة[٤] رياء ؛ بل قد يتصدق العبد رياءً مثلاً وتكون صدقته فوق صدقة صاحب السر .

مثال ذلك : رجل مضرور سأل قوماً ما هو محتاج إليه ، فعلم رجل منهم : أنه إن أعطاه سراً ، حيث لا يراه أحد : لم يقتد به أحد ، ولم يحصل له سوىٰ تلك العطية ، وأنه[٥] إن أعطاه جهراً : اقتدي به واتبع ، وأنف الحاضرون من تفرده عنهم بالعطية ، فجهر له بالعطاء فكان[٦] الباعث له علىٰ الجهر : إرادة سعة العطاء عليه من الحاضرين ، فهذه مراءاة محمودة . حيث لم يكن الباعث عليها قصد التعظيم والثناء ، وصاحبها جدير بأن يحصل له مثل أجور أولئك المعطين[٧] .

---

(١) في ط والجميع سوى ش : ترائية .

(٢) في م : أو لرهبة .

(٣) في أ ، ب ، غ : أو ملاحظة .

(٤) في م : المشاهد .

(٥) «وأنه» ساقطة من ش .

(٦) في ط والجميع : وكان .

(٧) يدل لذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن جرير بن عبدالله أنه قال : أتى إلى النبي ﷺ قوم

قوله : «فَإِنَّ هَذِهِ الأَوصَافَ كُلَّهَا مِن شُعَبِ عِبَادَةِ النَّفْسِ» .

يعني أن الخائف مشتغل[1] بحفظ نفسه من العذاب . ففيه عبادة لنفسه . إذ هو متوجه إليها ، وطالب المثوبة[2] . متوجه إلىٰ طلب حظ نفسه ، وذلك شعبة من عبوديتها . والمشاهد للناس في عبادته ، فيه شعبة من عبودية نفسه ، إذ هو طالب لتعظيمهم ، وثنائهم ومدحهم . فهذه شعب[3] من شعب عبادة[4] النفس . والأصل الذي هذه الشعب فروعه ، هي النفس . فإذا ماتت بالمجاهدة ، والإقبال علىٰ الله ، والاشتغال به ، ودوام المراقبة له : ماتت هذه الشعب .

حفاة عراة ، فتمعَّر وجهُ رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة . فأمر بلالاً فأذن وأقام ، فصلى ثم خطب الناس وحثهم على الصدقة ، حتى قال : «ولو بشق تمرة» . قال : فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادَتْ كفُّه تعجز عنها . بل قد عجزت قال : ثم تتابع الناس ، حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة . فقال رسول الله ﷺ : «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ...» الحديث .

انظر : صحيح مسلم ٢/ ٧٠٤-٧٠٥ ، كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ، ح١٠١٧ ، والنسائي ٥/ ٧٥-٧٦ في كتاب الزكاة ، باب التحريض على الصدقة ، ح٢٥٥٤ .

(١) في ط ، ب ، غ ، أ : يشتغل .

(٢) في ش : التوبة .

(٣) في ش : شعبة .

(٤) في ط والجميع سوى ش : عبودية .

فلا جرم أن[١] بناء أمر هذه الطائفة علىٰ ترك[٢] النفس .

وقد علمت أن الخوف وطلب الثواب ، ليس من عبادة النفس في شيء .

نعم : التزين بالمراءاة عين عبادة النفس والناس[٣] . والكلام في أمر أرفع من هذا[٤] . فإن حال المرائي أخس ، ونفسه أسقط ، وهمته أدنىٰ من أن يدخل في شأن[٥] الصادقين[٦] .

فصل

الدرجة الثانية

قال[٧] : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : إِجْرَاءُ الخَبَرِ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ ، وَهُوَ أَن تَبْقَىٰ أَعْلاَمُ تَوحِيدِ العَامَّةِ الخَبَرِيَّةِ عَلَىٰ ظَوَاهِرِهَا[٨] . وَلاَ يَتَحَمَّلُ البَحْثَ عَنهَا تَعَسُّفاً . وَلاَ يَتكَلَّفُ لهَا تَأوِيلاً . وَلاَ يَتجَاوَزُ ظَوَاهِرَهَا تمثِيلاً . وِلاَ يَدَّعِي عَلَيهَا إِدْرَاكاً أَوْ تَوَهُّماً»[٩] .

---

(١) «أن» ساقطة من الأصل وش وما أثبته من ط والجميع .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : عبادة .

(٣) «والناس» ساقطة من ط ، د .

(٤) في ق : هذه .

(٥) في م ، ح٢ : ثناء .

(٦) في ط والجميع سوى ش زيادة : ويذكر مع الصالحين ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(٧) في ط والجميع : قال صاحب المنازل .

(٨) في ح٢ ، م : ظاهرها .

(٩) انظر : المنازل ص٣٠ لكن قال : أن يبقي أعلام التوحيد لا يتحمل البحث عنها .

يشير الشيخ - رحمه الله - بذلك إلىٰ أن حفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات ، بإجراء أخبارها علىٰ ظواهرها . وهو اعتقاد مفهومها المتبادر إلىٰ أذهان[1] العامة ، ولا يعني بالعامة الجهال ؛ بل عامة الأمة ، كما قال مالك - رحمه الله- وقد سئل عن : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] «كيف استوىٰ[2]؟ فأطرق مالك . حتىٰ علاه الرحضاء[3] . ثم قال : الاستواء معلوم ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة[4] .

فَرْق[5] بين المعنىٰ المعلوم من هذه اللفظة . وبين « الكيف » الذي لا يعقله البشر . وهذا الجواب من مالك - رحمه الله - شاف عام في جميع مسائل الصفات .

---

(١) في ش : أفهام .

(٢) «كيف استوى» ساقطة من م وهو في هامشها .

(٣) الرَّحْضُ : الغسل ، ورُحِضَ الرجل رحضاً : عرق حتى كأنه غسل جسده ، والرحضاء : عرق يغسل الجسد لكثرته ، أو : العرق من أثر الحُمَّى .

انظر : لسان العرب ٥/ ١٦٨ ، والمعجم الوسيط ص٣٣٤ مادة : رحض .

(٤) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/ ٣٩٨ ، والأصفهاني في الحلية ٦/ ٣٢٥-٣٢٦ ، والبيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ١٥٠-١٥١ بسندين ، وقد جود ابن حجر في الفتح ١٣/ ٤٠٦-٤٠٧ طريق ابن وهب حيث قال : وأخرج البيهقي بسند جيد عن عبدالله بن وهب فذكره .

قلت : وروي هذا القول أيضاً عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ ، وربيعة - شيخ الإمام مالك - باختلاف يسير بينهما . انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/ ٣٩٧ ، والأسماء والصفات للبيهقي ٢/ ١٥١ .

(٥) في ط والجميع سوى ش : ففرق .

فمن سأل عن قوله : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] كيف يسمع ويرىٰ؟ أجيب بهذا الجواب بعينه . فقيل له : السمع والبصر معلوم ، والكيف غير معقول .

وكذلك من سأل عن العلم ، والحياة ، والقدرة ، والإرادة ، والنزول ، والغضب ، والرضا ، والرحمة ، والضحك ، وغير ذلك . فمعانيها كلها مفهومة[1] ، وأما كيفيتها ، فغير معقولة ، إذ تعقل الكيف[2] ، فرع العلم[3] بكيفية الذات وكنهها . فإذا كان ذلك[4] غير معقول للبشر ، فكيف تعقل[5] لهم كيفية الصفات[6]؟

---

(١) في ش : معلومة .

(٢) في ط ، ق ، ح٢ : الكيفية .

(٣) في ب ، م ، د ، أ ، غ : إذ لا يُعقل فرع العلم .

(٤) «ذلك» ساقطة من ب .

(٥) في ط والجميع سوى ش : يعقل .

(٦) هذا هو مذهب السلف وهو إثبات نصوص الصفات وإمرارها كما جاءت بلا كيف ، قال الإمام الترمذي - رحمه الله- بعد ذكر أحاديث فيها إثبات صفات الله عز وجل : وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبه هذا من الروايات من الصفات . ونزول الرب تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا . قالوا : قد تثبت الروايات في هذا ، ويؤمن بها ولا يتوهم ، ولا يقال : كيف؟ هكذا روي عن مالك ، وسفيان بن عيينة ، وعبدالله بن المبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث : أمروها بلا كيف ، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة .

انظر : سنن الترمذي ٣/ ٤١-٤٢ ، كتاب الزكاة ، باب ما جاء في فضل الصدقة .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : فقولهم ـ رضي الله عنهم ـ أمروها كما جاءت : ردّ

والعصمة النافعة في هذا الباب : أن نصف[1] الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف[2] ولا تمثيل . بل تثبت[3] له الأسماء والصفات . وينفى[4] عنه مشابهة المخلوقات . فيكون إثباتك منزها عن التشبيه ، ونفيك منزها عن التعطيل . فمن نفى حقيقة «الاستواء» فهو معطل ، ومن شبهه[5] باستواء المخلوق على المخلوق[6] فهو ممثل[7] ، ومن قال

على المعطلة وقولهم : بلا كيف ، رد على الممثلة .

وأيضاً : فقولهم : أمروها كما جاءت يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه ، فإنها جاءت ألفاظ دالة على معاني ، فلو كانت دلالتها منتفية لكان الواجب أن يقال : أمروا لفظها ، مع اعتقاد أن الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقة ، وحينئذ فلا تكون قد أمرت كما جاءت ، ولا يقال حينئذ بلا كيف ، إذ نفي الكيف عما ليس بثابت لغو من القول .

انظر : الفتوى الحموية ضمن مجموع الفتاوى ٥/ ٣٩ و ٤١-٤٢ .

(١) في ط والجميع سوى ش : يوصف .

(٢) التكييف: هو تعيين كنه الصفة ، يقال : كيَّف الشيء، أي: جعل له كيفية معلومة . وكيفية الشيء: صفته وحاله . فالتكييف تعيين كنه الصفة وكيفيتها ، وهذا مما استأثر الله به ، فلا سبيل إلى الوصول إليه ، إذ الصفة تابعة للموصوف ، فكما لا يعلم كيف هو إلا هو ، فكذلك صفاته ، فالصفات يحذى فيها حذو الذات . انظر : التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية للرشيد ص٢٤ .

(٣) في أ ، ب ، غ : يثبت .

(٤) في ط ، ح٢ ، م : وتنفى .

(٥) في ح٢ ، غ : شبه .

(٦) «على المخلوق» ساقط من م ، د .

(٧) في ق : متمثل .

هو[١] استواء ليس كمثله شيء، فهو الموحد المنزه.

وهكذا الكلام في السمع، والبصر، والحياة، والإرادة، والعلم[٢]، والقدرة، واليد، والوجه، والرضا، والغضب، والنزول والضحك، وسائر ما وصف[٣] به نفسه.

والمنحرفون في هذا الباب وقد[٤] أشار الشيخ إليهم بقوله: «**لاَ يَتَحَمَّلُ**[٥] **البَحْثَ عَنهَا تَعَسُّفاً**» أي: لا يتكلف التعسف عن البحث عن كيفياتها[٦].

و«التعسف» سلوك غير الطريق. يقال: ركب فلان التعاسيف في سيره، إذا كان يسير يميناً وشمالاً، حائراً[٧] عن الطريق.

«**وَلاَ يَتَكَلَّفُ لهَا تَأوِيلاً**»، أراد[٨] بالتأويل هاهنا: التأويل الاصطلاحي: وهو صرف اللفظ عن ظاهره عن[٩] المعنىٰ الراجح إلىٰ المفهوم[١٠]

---

(١) «هو» ساقطة من ط.

(٢) «والعلم» ساقط من ط.

(٣) في ط زيادة: الله.

(٤) في ط والجميع سوى ق: قد.

(٥) في أ: يحتمل.

(٦) في ش: كيفيتها.

(٧) في ط والجميع: جائراً.

(٨) في ح٢، م: وأراد.

(٩) في ط: وعن.

(١٠) في ط، د: المعنى.

المرجوح[1].

وقد حكىٰ غير واحد من العلماء: إجماع السلف علىٰ تركه.

وممن حكاه البغوي[2]، وأبو المعالي الجويني[3] في رسالته «النظامية»[4]، بخلاف ما سلكه في «شامله» و«إرشاده»[5]. وممن حكاه: سعد بن علي

---

(١) هذا التأويل هو الذي قال به المتأخرون الذين خالفوا مذهب السلف، وهو تأويل باطل، وقد رد عليهم أهل السنة والجماعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: وأما التأويل بمعنى صرف اللفظ عن مفهومه إلى غير مفهومه، فهذا لم يكن هو المراد بلفظ التأويل في كلام السلف، اللهم إلا أنه إذا عُلم أن المتكلم أراد المعنى الذي يقال: إنه خلاف الظاهر جعلوه من التأويل الذي هو التفسير، لكونه تفسيراً للكلام، وبياناً لمراد المتكلم به، أو جعلوه من النوع الآخر الذي هو الحقيقة الثابتة في نفس الأمر التي استأثر الله بعلمها لكونه مندرجاً في ذلك لا لكونه مخالفاً للظاهر.

وكان السلف ينكرون التأويلات التي تخرج الكلام عن مراد الله ورسوله، التي هي من نوع تحريف الكلم عن مواضعه، فكانوا ينكرون التأويل الباطل الذي هو التفسير الباطل، كما ننكر قول من فسر كلام المتكلم بخلاف مراده.

انظر: الصفدية ١/ ٢٩١.

(٢) انظر: تفسير البغوي ٢/ ١٦٥.

(٣) أبو المعالي عبدالملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، ركن الدين الملقب بإمام الحرمين، من أئمة أهل الكلام، ولد في جوين - من نواحي نيسابور - سنة ٤١٩هـ، وتوفي سنة ٤٧٨ هـ.

ترجمته في: ذيل تاريخ بغداد ١٦/ ٨٥، السير ١٨/ ٤٦٨، العبر ٢/ ٣٣٩.

(٤) انظر: العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية ص٣٢-٣٤.

(٥) انظر: الشامل للجويني ١/ ٥٤٣-٥٧٠، والإرشاد ص٤٠-٤٢ و ١٥٥-١٦٤.

الزنجاني[1].

وقبل هؤلاء خلائق من العلماء لا يحصيهم إلا الله[2].

«وألا[3] يتجاوز[4] ظواهرها[5]»[6] [تمثيلاً» أي: لا يمثلها بصفات المخلوقين. وفي قوله: «لا يَتَجَاوَزُ ظَوَاهِرَهَا»[7]] إشارة لطيفة. وهي[8] أن ظواهرها لا تقتضي التمثيل، كما يظنه[9] المعطلة النفاة، وأن التمثيل تجاوز[10] لظواهرها

---

(١) أبو القاسم سعد بن علي بن محمد بن علي بن الحسين الزنجاني العالم العابد، الصوفي، جاور بمكة مدة، صار شيخ الحرم، وكان ثقة حافظاً زاهداً، توفي سنة ٤٧١هـ.
ترجمته في: السير ١٨/ ٣٨٥، البداية والنهاية ١٢/ ١٢٧، شذرات الذهب ٣/ ٣٣٩.

(٢) أشار إلى عدد منهم الترمذي في سننه ٣/ ٤١-٤٢، في كتاب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة، وفي كتاب التفسير، تفسير سورة المائدة ٥/ ٢٥١، وابن عبدالبر في التمهيد ٧/ ١٤٨-١٤٩، كما ذكر عدداً كبيراً منهم ونقل نصوصهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كثير من كتبه ورسائله. ومنها: الفتوى الحموية، وكذلك ابن القيم في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، وكتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

(٣) في الجميع سوى ش، د: ولا.

(٤) في ح٢: يتجاوزه.

(٥) في ط والجميع سوى ش، د: ظاهرها.

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من أ، ب، غ.

(٧) في ش: ظاهرها.

(٨) في ح٢، م: وهو.

(٩) في ط والجميع سوى ش: تظنه.

(١٠) في أ، ب، غ، ح٢، م: تجوُّز.

إلىٰ مـا لا تقتـضيه[1] ، كـما أن تأويلهـا[2] تكلّـفٌ ، وحمـلٌ لهـا عـلىٰ مـا لا تقتضيه[3] ، فهي لا تقتضي ظواهرها تمثيلاً ، ولا تحتمل[4] تأويلاً ، بل إجراء[5] علىٰ ظاهرها[6] بلا تأويل ولا تمثيل[7] . فهذه طريقة السالكين بها سواء السبيل .

وأما قولـه : « وَلاَ يَدَّعِي عَلَيهَا إِدرَاكاً » أي: لا يدعىٰ عليها استدراكاً ولا فهماً، ولا معنىٰ غير فهم العامة ، كما يدعيه أرباب الكلام الباطل ، المذموم بإجماع السلف[8] .

وقوله : «وَلاَ تَوَهُّماً» أي : لا يعدل عن ظواهرها إلىٰ التوهم .

أنواع التوهم

و«التوهم» نوعان : توهم كيفية . لا يدل[9] عليه ظواهرها ، أو توهم[10] معنىٰ

---

(١) في الجميع سوى ش ، ط : تقتضي .

(٢) في د : التأويل .

(٣) في ب : ما يقتضيه .

(٤) في الجميع سوى ط : لا تحمل .

(٥) في ش : إجراؤها .

(٦) في ط والجميع سوى ش ، ح٢ : ظواهرها .

(٧) كما قال تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى : ١١] .

(٨) ذكر اللالكائي آثاراً كثيرة عن السلف في ذم أهل الكلام .

انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ١٢٧ وما بعدها .

(٩) في ط والجميع سوى ش : لا تدل .

(١٠) في غ : وتوهم .

غير ما تقتضيه ظواهرها . وكلاهما[1] توهم باطل . وهما توهم تشبيه وتمثيل ، أو تحريف وتعطيل .

وهذا الكلام من شيخ الإسلام يبين مرتبته من السنة ، ومقداره في العلم ، وأنه بريء مما رماه به أعداؤه[2] الجهمية من التشبيه والتمثيل ، علىٰ عادتهم في رمي أهل الحديث والسنة بذلك . كرمي الرافضة لهم بأنهم نواصب[3] ، والمعتزلة بأنهم نوابت حشوية[4] . وذلك

---

(١) في أ ، ب ، غ : فكلاهما .

(٢) في أ : من الجهمية .

(٣) النواصب أو الناصبة : قوم يتدينون ببغض عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ، وقد خرج عليه الخوارج وناصبوه العداء ، كما في موقعة الجمل ، وصفين .
وسموا نواصب ؛ لأنهم نصبوا له أي: عادوه وأظهروا له الخلاف ، وبالجملة فكل من يؤذي أهل البيت بقول أو عمل فهو منهم .
انظر : مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ٣/ ١٥٤ ، وشرح الطحاوية ٥٤٩ .

(٤) هذه ألقاب يطلقها أهل البدع على أهل السنة والحديث تشويهاً وتنفيراً عن مذهب الحق .
كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية . انظر: الفتاوى الكبرى ٥/ ١٤٩ ، ودرء تعارض العقل والنقل ٤/ ١٤٨ .
والنوابت في اللغة : من نبت . والنابت من كل شيء الطري حين ينبت صغيراً ، والنوابت من الأحداث : الأغمار ، ويقال : إن بني فلان لنابتة شر .
انظر : لسان العرب ١٤/ ١٢ مادة : (نبت) .
والحشوية : الحشو من الكلام والناس : الفَضْلُ الذي لا يُعتمد عليه ، وحشوة الناس : رُذَالتُهم . انظر : لسان العرب ٣/ ١٩٤ . مادة : (حشا) .

ميراث[1] من أعداء رسول الله ﷺ . في رميه ورمي أصحابه بأنهم صبأة[2] . قد ابتدعوا ديناً محدثاً . وميراث لأهل الحديث والسنة من نبيهم وأصحابه[3] ، بتلقيب أهل الباطل لهم بالألقاب المذمومة . وقدس الله روح الشافعي ، حيث يقول ، وقد نسب إلىٰ الرفض :

إن كان رفضاً حب آل محمــد   فليشهد الثقلان أني رافضي[4]

ورضي الله عن شيخنا أبي العباس[5] بن تيمية حيث يقول :

---

(١) «ميرات» : ساقطة من ش .

(٢) الصابىء في اللغة : من خرج ومال من دِينٍ إلى دِينٍ آخر ، ولهذا كان المشركون يسمون النبي ﷺ ، ومن أسلم معه من أصحابه بهذا الاسم ؛ لأنهم خالفوا دين الآباء والأجداد . والصابئون سُمُّوا بذلك ؛ لأنهم فارقوا دين التوحيد وعبدوا النجوم وعظموها ، ولما بعث إبراهيم كان الناس على دين الصابئة .

وهم يقولون : إن مدبر العالم وخالقه هذه الكواكب السبعة والنجوم ، وهم أقدم من عباد الأصنام ؛ لأنهم كانوا يعبدون النجوم عند ظهورها ، ولما أرادوا أن يعبدوها عند غروبها لم يكن لهم بد من أن يصوروا الكواكب صوراً ، فصنعوا أصناماً واشتغلوا بعبادتها ، فظهرت من هنا عبادة الأصنام .

انظر : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ١٤٣ ، الملل والنحل ٢/ ٩٥ ، البرهان في عقائد أهل الأديان للسكسكي ٥٩ .

(٣) «وأصحابه» ساقطة من ش .

(٤) انظر : ديوان الشافعي ص٥٥ .

(٥) في الأصل ، ش ، ق ، ح٢ ، د : أبو عبدالله ، وما أثبته من ط وباقي النسخ ولم أقف على من كنى شيخ الإسلام بأبي عبدالله .

إن كان نصباً حب صحب محمد ... فليشهد الثقلان : أني ناصبي [1]

وعفا الله عن الثالث حيث[2] يقول :

فإن كان تجسيما ثبوت صفاته ... وتنزيهها عن كل تأويل مفتري

فإني بحمد الله ربي مجسم ... هلموا شهوداً واملئوا كل محضر [3]

* * *

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٤٠ .

(٢) «حيث» ساقطة من د ، ق .

(٣) ذكر ابن القيم قريباً منها في مقدمة القصيدة النونية ص٧ ، ولم ينسبها لأحد .

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : صِيَانَةُ الانبِسَاطِ : أَن تَشُوبَهُ[1] جُرأَةٌ .

وَصِيَانَةُ السُّرُورِ : أَنْ يُدَاخِلَهُ أَمْنٌ .

وَصِيَانَةُ الشُّهُودِ : أَنْ يُعَارِضَهُ سَبَبٌ»[2] .

لما كانت هذه الدرجة عنده مختصة بأهل المشاهدة - والغالب عليهم الانبساط والسرور ، فإن صاحبها متعلق باسمه «الباسط» - حَذَّره[3] من شائبة الجرأة . وهي[4] ما يخرج به[5] عن أدب العبودية ، ويدخله في الشطح ، كشطح من قال «سبحاني»[6] ونحو ذلك من الشطحات المعروفة المخرجة عن أدب العبودية ، التي نهاية صاحبها : أن يعذر بزوال عقله ، وغلبة سكر الحال عليه . فلا بد من مقارنة التعظيم والإجلال ، لبسط المشاهدة ، وإلا وقع في الجرأة ولا بد ، فالمراقبة تصونه عن ذلك .

قوله : «وَصِيَانَةُ السُّرُورِ : أَنْ يُدَاخِلَهُ أَمْنٌ » .

---

(١) في ش : يشوبه .

(٢) انظر : المنازل ٣٠ .

(٣) أي : الهروي .

(٤) في ح٢ ، م : وهو .

(٥) في ط والجميع سوى ش : ما يخرجه .

(٦) ينسب مثل هذا القول لأبي يزيد البسطامي . انظر : اللمع ص٣٩٠ .

يعني: أن صاحب الانبساط والمشاهدة يداخله[1] سرور لا يشبهه سرور البتة. فينبغي له[2] أن لا يأمن في هذه[3] الحال المكر، بل يصون سروره وفرحه[4] بخوف العاقبة، المطوي عنه[5] علم غيبها، ولا يغتر[6].

وأما «وَصِيَانَةُ الشُّهُودِ: [أَنْ يُعَارِضَهُ سَبَبٌ» يريد[7]: أن صاحب][8] الشهود؛ قد يكون ضعيفا في شهود حقيقة التوحيد، فيتوهم أنه قد حصل له ما حصل بسبب الاجتهاد التام، والعبادة الخاصة[9]. فينسب حصول ما حصل له من الشهود إلىٰ سبب منه، وذلك نقص في توحيده ومعرفته؛ لأن الشهود لا يكون إلا موهبة، ليس كسبيًّا ولو كان[10] كسبيًّا، فشهود سببه نقص في التوحيد، وغيبة عن شهود الحقيقة.

---

(١) في د: يدخله.

(٢) «له» ساقطة من ش.

(٣) في ط والجميع سوى ش: هذا.

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة: عن خطفات المكر.

(٥) في أ، ب: عنها.

(٦) «ولا يغتر» ساقطة من: م.

(٧) في ط: فيريد.

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من م وهو في هامشها.

(٩) في ط والجميع سوى ش: الخالصة.

(١٠) في ط والجميع زيادة: هو.

ويحتمل أن يريد بالسبب[1] المعارض[2] للشهود: ورود خاطر علىٰ الشاهد، يكدر عليه صفو[3] شهوده ، فيصونه عن ورود سبب يعارضه : إما معارض إرادة، وإما معارض[4] شبهة ، وقد يعم كلامه الأمرين . والله أعلم .

* * *

(١) في ح٢ ، م : السبب .

(٢) في ح٢ : العارض .

(٣) في د : صفوة .

(٤) في ط ، ب ، غ ، أ : أو معارض .

فصل

منزلة الإخلاص

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : الإخلاص»(١) .

قال الله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر ٢ ، ٣] ، وقال(٢) : ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ [الزمر : ١٤ ، ١٥] ، وقال له : (٣) ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ

---

(١) الإخلاص لغة : مصدر أَخْلَص يُخْلص ، وهو مأخوذ من مادة: (خَلَصَ) التي تدل على تنقية الشيء وتهذيبه ، والإخلاص لله في الطاعة : ترك الرياء .
انظر : معجم مقاييس اللغة ١/ ٣٧٣ ، ولسان العرب ٤/ ١٧٣ مادة : (خلص) .
وفي الاصطلاح : هو تصفية العمل بصالح النية عن جمع شوائب الشرك .
انظر : معارج القبول للحكمي ١/ ٣٨٢ .
وعند الصوفية : هو تصفية كل عمل قلبي أو قالبي من كل شوب ، بحيث يكون العمل لله وحده ، من غير تزين للناس ، أو طلب محمدة أو جاه وحرمة ، وهذا إخلاص العوام .
ثم إخلاص الخواص فهو : إخراج رؤية العمل من العمل ، فلا تفتخر به ، ولا تعتقد أنك تستحق ثواباً عليه ، ولا تراه لائقاً بجناب العزيز تعالى ، بل هو منة وهبة منه لك ، وبهذا خلاص من طلب الأعواض .
ثم إخلاص خاصة الخاصة هو: الخلاص من رؤية الإخلاص، إذ هي علة تحتاج إلى خلاص منها . انظر : لطائف الإعلام ١/ ١٧٨ ـ ١٨٠ ، والتعرف ١١٧ ، المعجم الصوفي ١٦ .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : لنبيه ﷺ .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : له .

وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. قال الفضيل ابن عياض - رضي الله عنه -: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صوابا: لم يقبل وإذا[1] كان صوابا ولم يكن خالصا: لم يقبل، حتىٰ يكون خالصا[2] صوابا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون علىٰ السنة[3].

ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، فإسلام الوجه لله تعالىٰ[4]: إخلاص القصد والعمل له[5]. والإحسان فيه[6]: متابعة رسوله[7] وسنته، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهي الأعمال التي كانت علىٰ غير السنة، أو أريد بها غير وجه الله. وقال[8]

---

(١) في ب: وإن.

(٢) «خالصا» ساقطة من د.

(٣) انظر: تفسير البغوي ٤/ ٣٦٩، وجامع العلوم والحكم ١/ ٧٢.

(٤) «لله تعالى» ساقطة من ط والجميع سوى ش.

(٥) في ط، أ، ب، غ: لله.

(٦) في ش: منه.

(٧) في ح٢، م: رسول الله.

(٨) في ط والجميع سوى ش، د: قال.

النبي[١] ﷺ لسعد[٢][٣] : **« إنك لن تخلف ، فتعمل عملا تبتغي به وجه الله إلا ازددت به[٤] درجة ورفعة »**[٥] .

وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« ثلاث لا يغل[٦] عليهن قلب مسلم ، إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين . فإن دعوتهم تحيط من ورائهم »**[٧] .

---

(١) «النبي» ساقطة من م ، ح٢ .

(٢) في ط : لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٣) سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي ـ أبو إسحاق بن أبي وقاص ـ ، أحد العشرة المبشرين بالجنة وآخرهم موتاً ، كان كثير الرواية مجاب الدعوة ، وهو أول من رمى السهم في سبيل الله ، توفي رضي الله عنه سنة ٥٦ هـ . ترجمته في : حلية الأولياء ١/ ٩٢ ، السير ١/ ٩٢ ، الإصابة ٢/ ٣٠ .

(٤) في ط ، أ ، د ، ق زيادة : خيراً .

(٥) رواه البخاري ٣/ ١٦٤ في كتاب الجنائز ، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، ح ١٢٩٥ بلفظ: «تعمل عملاً صالحاً» رواه مسلم ٣/ ١٢٥٠-١٢٥١ في كتاب الوصية ، باب الوصية بالثلث، ح ١٦٢٨ ، وأحمد في مسنده ١/ ١٧٦ .

(٦) الغِلُّ بالكسر ، والغليل : الغش والعداوة والضِّغْنُ ، والحقد والحسد .
انظر : لسان العرب ١٠/ ١٠٦ مادة : (غلل) .

(٧) جزء من حديث رواه أحمد في مسنده ٤/ ٨٠ و ٥ / ١٨٣ ، والترمذي ٥/ ٣٤ ـ ٣٥ في كتاب العلم ، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ، ح ٢٦٥٨ ، وابن ماجه ١/ ٨٤ في المقدمة باب من بلغ علماً ، ح ٢٣٠ ، وابن حبان في صحيحه ١/ ١٤٣ ح ٦٧ و ٢/ ٣٥ ح ٦٧٩ ، والبغوي في شرح السنة ١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ، والطبراني في الكبير ٧/ ٣٥٩ ، وابن عبد البر في

أي: لا يبقىٰ فيه غل ، لا يحمل [١] الغل مع هذه الثلاثة ؛ بل ينفي [٢] عنه غله [٣] ويخرجه . فإن القلب يغل علىٰ الشرك أعظم غل . وكذلك يغل علىٰ الغش ، وعلىٰ خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة . فهذه الثلاثة تملؤه [٤] غِلاً ودغلاً [٥]. ودواء هذا الغل ، واستفراغ [٦] أخلاطه ، بتجريد الإخلاص والنصح ، ومتابعة السنة .

وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل : يقاتل رياء ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل

جامع بيان العلم وفضله ١/ ٤٠-٤٢ ، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ١٠٩ وقال: رواه أحمد وابن ماجه والطبراني في الكبير مختصراً ومطولاً ، ورووه كلهم عن محمد بن إسحاق عن عبد السلام عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ، وله عند أحمد طريق عن صالح بن كيسان عن الزهري وإسناده حسن . وذكره الهيثمي في المجمع ١/ ١٣٩ ، وقال : رواه ابن ماجه باختصار ، ورواه الطبراني في الكبير ، وأحمد وفي إسناده ابن إسحاق عن الزهري وهو مدلس وله طريق عن صالح عن الزهري ورجالها موثوقون ، وصححه الألباني . انظر : الصحيحة ١/ ١٤٥ .

(١) في ق : ولا عمل إلا الغل .

(٢) في ط والجميع سوى ش : تنفي .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : وتنقيه منه وتخرجه عنه ، وفي ط : وتخرجه منه .

(٤) «تملؤه» ساقطة من د ، وفي م : تملأ القلب .

(٥) الدَّغَلُ بالتحريك : الفساد ، مثل الدَّخَل . والدَّغَل : دَخَلٌ في الأمرِ مفسد ، يقال : أدغل الأمر ، وفيه : أفسده ، أو أدخل فيه ما يفسده ويخالفه ، وأصل الدغل الشجر الملتف الذي يكمن أهل الفساد فيه . انظر : لسان العرب ٤/ ٣٦٥ ، والمعجم الوسيط ٢٢٨ مادة : دغل .

(٦) في ط ، أ ، ب ، د ، م ، غ ، ح٢ : واستخراج .

حمية : فأي[١] ذلك في سبيل الله؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[٢] .

وأخبر عن أول ثلاثة تسعر بهم النار : قارئ القرآن ، والمجاهد ، والمتصدق بماله ، الذين[٣] فعلوا ذلك ليقال : فلان قارئ[٤] ، وشجاع ، ومتصدق ، لم تكن أعمالهم لله[٥] .

وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله عز وجل : «أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء»[٦] .

---

(١) في ب ، غ : أي .

(٢) رواه البخاري ٦/ ٢٧ ـ ٢٨ في كتاب الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، ح ٢٨١٠ ، ومسلم ٣/ ١٥١٢ ـ ١٥١٣ في كتاب الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، ح ١٩٠٤ ، وأحمد في مسنده ٤/ ٣٩٧ .

(٣) في د ، ق : الذي .

(٤) في ط والجميع سوى ش : فلان شجاع وفلان متصدق .

(٥) رواه مسلم ٣/ ١٥١٣ ـ ١٥١٤ في كتاب الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار : ح ١٩٠٥ ، والترمذي ٤/ ٥٩١ ـ ٥٩٣ في كتاب الزهد ، باب ما جاء في الرياء والسمعة ، ح ٢٣٨٢ ، والنسائي في سننه ٦/ ٢٣-٢٤ في كتاب الجهاد ، باب من قاتل ليقال : فلان جريء، ح ٣١٣٧ .

(٦) رواه مسلم ٤/ ٢٢٨٩ في كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله ، ح ٢٩٨٥ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٠٤ ، وابن ماجه ٢/ ١٤٠٥ ـ ١٤٠٦ في كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة ، ح ٤٢٠٢ .

وفي أثر آخر: يقول له يوم القيامة: «**اذهب فخذ أجرك ممن عملت له. لا أجر لك عندنا**»[1].

وفي الصحيح عنه: «**إن الله لا ينظر إلىٰ أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن**[2] **ينظر إلىٰ قلوبكم**»[3]. وقال تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]. وفي أثر مروي إلهي: «**الإخلاص سر من سري، استودعته قلب من أحببته من عبادي**»[4].

---

(١) جاء بمعناه عند الإمام أحمد ٣/ ٤٦٦ عن أبي سعيد بن أبي فضالة أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ، من كان أشرك في عمل عمله لله تبارك وتعالى أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير الله عز وجل، فإن الله عز وجل أغنى الشركاء عن الشرك**» ورواه الترمذي ٥/ ٣١٤ في كتاب التفسير، باب ومن سورة الكهف، ح ٣١٥٤، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن بكر، ورواه ابن ماجه ٢/ ١٤٠٦ في كتاب الزهد، باب (الرياء والسمعة)، ح ٤٢٠٣، وابن حبان في صحيحه ١/ ٣١٠ ـ ٣١١، ح ٤٠٥، والطبراني في الكبير ٢٢/ ٣٠٧، ح ٧٧٨، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٣٣٠، ح ٦٨١٧. وحسنه الألباني. انظر: صحيح الترغيب ص ١٨، ح ٣٠، وقال محققو المسند ٢٥/ ١٦١ صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن.

(٢) في د: وإنما.

(٣) رواه مسلم ٤/ ١٩٨٦ - ١٩٨٧ في كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره...، ح ٢٥٦٤، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥، وابن ماجه ٢/ ١٣٨٨ في كتاب الزهد، باب القناعة، ح ٤١٤٣.

(٤) ذكره القشيري في الرسالة ٢٠٨، والغزالي في الإحياء ٤/ ٤٩٧ عن الحسن. قال العراقي: حديث الحسن مرسل رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً يقول كل واحد من

تعريف الإخلاص

وقد تنوعت عبارتهم في «الإخلاص[١]» والقصد واحد .

فقيل : هو إفراد الحق[٢] سبحانه بالقصد في الطاعة[٣] .

وقيل : تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين[٤] .

وقيل : التوقي من[٥] ملاحظة الخلق[٦] و «الصدق» التنقي[٧] من مطالعة النفس . فالمخلص لا رياء له ، والصادق لا إعجاب له[٨] . ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق ، ولا الصدق إلا بالإخلاص ، ولا يَتِمَّان إلا بالصبر .

وقيل : من شهد في إخلاصه الإخلاص، احتاج إخلاصه[٩] إلىٰ إخلاص[١٠].

رواته : سألت فلاناً عن الإخلاص ، وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة ، عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى ، وأحمد بن عطاء ، وعبد الواحد كلاهما متروك ، وهما من الزهاد ، ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف . انظر : المغني عن حمل الأسفار بهامش الإحياء ٤/ ٤٩٧ ، وضعفه الألباني : ضعيف . انظر : الضعيفة ٢/ ٩٢ ح ٦٣٠ .

(١) في ط ، د : زيادة والصدق .

(٢) في ق : الخالق .

(٣) انظر : القشيرية ٢٠٧ .

(٤) القشيرية ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

(٥) في أ ، غ : عن .

(٦) في ط والجميع سوى ش زيادة : حتى عن نفسك .

(٧) في ش المتنفي .

(٨) ينسب لأبي علي الدقاق . انظر : القشيرية ٢٠٨ .

(٩) في ق : إخلاص .

(١٠) ينسب لأبي يعقوب السوسي . انظر : القشيرية ٢٠٨ .

فنقصان كل مخلص في إخلاصه :[1] رؤية إخلاصه . فإذا سقط[2] عن نفسه رؤية إخلاصه[3] ، صار مخلِصاً مخْلَصاً .

وقيل : الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن[4] . والرياء : أن يكون ظاهره خيراً من باطنه . والصدق في الإخلاص : أن يكون باطنه أعمر من ظاهره .

وقيل : الإخلاص نسيان رؤية الخلق [بدوام النظر إلىٰ الخالق][5][6] . ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله[7] .

ومن كلام الفضيل ـ رحمه الله ـ : ترك العمل من أجل الناس : رياء . والعمل من أجل الناس : شرك . والإخلاص : أن يعافيك الله منهما[8] .

وقال[9] الجنيد ـ رضي الله عنه ـ : الإخلاص[10] سر بين الله وبين العبد ، لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوىً فيميله[11] .

---

(١) في ط والجميع سوى ش زيادة : بقدر .

(٢) في ق : أسقط .

(٣) في ط والجميع سوى ش : الإخلاص .

(٤) ينسب لحذيفة المرعشي . انظر : القشيرية ٢٠٩ .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من غ ، ب ، أ .

(٦) ينسب لأبي عثمان الحيري . انظر : القشيرية ٢٠٩ .

(٧) هذا الكلام ينسب للسري السقطي . انظر : القشيرية ٢٠٩ .

(٨) انظر : القشيرية ٢٠٩ ، والبداية والنهاية ١٠/ ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٩) في ط : قال .

(١٠) «الإخلاص» ساقطة من م .

(١١) انظر : القشيرية ٢٠٩ .

وقيل لسهل : أي شيء أشد علىٰ النفس؟ فقال : الإخلاص ؛ لأنه ليس لها فيه نصيب[1] .

وقال بعضهم : الإخلاص أن لا تطلب علىٰ عملك شاهداً غير الله ، ولا مجازياً سواه[2] .

وقال مكحول [3] : ما أخلص عبد قط أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قبله علىٰ لسانه [4] .

وقال يوسف بن الحسين[5] : أعز شيء في الدنيا : الإخلاص . وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي ، فكأنه ينبت[6] علىٰ[7] لون آخر[8] .

---

(١) المرجع السابق ٢٠٩ .

(٢) في القشيرية ٢٠٩ وسئل بعضهم عن الإخلاص فقال : أن لا تشهد على عملك غير الله عز وجل .

(٣) أبوعبدالله مكحول بن أبي مسلم شهراب بن شاذل الهذلي بالولاء، أصله من فارس، التابعي ، المحدث ، فقيه الشام في عصره ، توفي سنة ١١٢ هـ . ترجمته في: التاريخ الكبير ٨/ ٢١ ، حلية الأولياء ٥/ ١٧٧ ، السير ٥/ ١٥٥ .

(٤) انظر : القشيرية ٢١٠ .

(٥) أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي شيخ الري والجبل في وقته ، زاهد صوفي ، صحب ذا النون المصري ، اتهم بالزندقة ، توفي سنة ٣٠٤ . ترجمته في : طبقات الصوفية ١٨٥ ، حلية الأولياء ١٠/٢٣٨ ، والبداية والنهاية ١١/ ١٣٥ .

(٦) في أ : يثبت .

(٧) في ش : له .

(٨) انظر : القشيرية ٢١٠ .

وقال أبو سليمان الداراني : إذا أخلص العبد انقطع[1] عنه كثرة الوساوس والرياء[2] .



فصل

تعريف الهروي للإخلاص

قال صاحب المنازل - رحمه الله - :

«الإِخلاصُ : تَصفِيَةُ العَمَلِ مِن كُلِّ شَوبٍ» [3] .

أي لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات[4] النفس : إما طلب[5] التزين في قلوب الخلق ، وإما طلب مدحهم ، والهرب من ذمهم ، أو طلب تعظيمهم ، أو طلب أموالهم ، أو خدمتهم ، وقضائهم حوائجه أو طلب محبتهم له[6] ، أو غير ذلك من العلل والشوائب ، التي عقْد متفرقاتها : هو إرادة ما سوىٰ الله بعمله ، كائناً ما كان .

درجات الإخلاص

الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : إِخرَاجُ رُؤْيَةِ العَمَلِ مِنَ[7] العَمَلِ ، وَالخَلَاصُ مِن طَلَبِ العِوَضِ عَلَىٰ العَمَلِ ، وَالنُّزُولُ عَنِ الرِّضَا

---

(١) في ط والجميع سوى ش : انقطعت .

(٢) انظر : القشيرية ٢١٠ .

(٣) انظر : المنازل ٣١ .

(٤) في ح٢ ، م : إرادة .

(٥) في ق : لطلب .

(٦) في ط والجميع : أو خدمتهم و محبتهم ، وقضائهم حوائجه .

(٧) في ط ، أ ، ب ، غ : عن .

بِالعَمَلِ»[١] .

يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات : رؤيته وملاحظته ، وطلب العوض عليه ، ورضاه به[٢] وسكونه إليه .

ففي هذه[٣] الدرجة يتخلص من هذه الثلاثة[٤]. فالذي يخلصه من رؤية عمله: مشاهدته لمِنَّة الله عليه ، وفضله وتوفيقه له . وأنه بالله لا بنفسه ، وأنه إنما أوجب عمله ومشيئة الله لا مشيئته هو[٥] ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٦] [التكوير : ٢٩] .

فها هنا[٧] ينفعه شهــود الجبر[٨][٩] ، وأنه آلة محضة ، وأن فعله كحركات

---

(١) انظر : المنازل ٣١ .

(٢) «به» ساقطة من م .

(٣) «هذه» ساقطة من د .

(٤) في ط والجميع سوى ش : البلية .

(٥) في ح٢ ، د ، ق : وهو .

(٦) الآية في ط مكملة .

(٧) في ط والجميع سوى د : فهنا .

(٨) في ش : الخبر .

(٩) لابد أن يعلم الفرق بين هذا الشهود للجبر ، وبين مشهد أصحاب الجبر الذين يقولون إنهم مجبورون على أفعالهم ، فالكفر والشرك ، وسائر الذنوب والمعاصي كلها قد أجبروا عليها .
انظر : ما سبق عن مشهد أصحاب الجبر ٢٩٢ .
أما الشهود هنا فهو شهود أهل الإيمان الذين يجتهدون في عبادة ربهم ، ثم ينسبون الفضل فيها إليه سبحانه فإنه لولا فضل الله سبحانه ، وتوفيقه للعبد لما قام بهذه العبادة . انظر : ما سبق عن مشهد العجز والضعف ٣٣٩ .

الأشجار، وهبوب الرياح، وأن المحرك[1][2] غيره، والفاعل فيه سواه، وأنه ميت ـ والميت لا يفعل شيئاً ـ وأنه لو خلي ونفسه، لم يكن من فعله الصالح شيء البتة. فإن النفس جاهلة ظالمة، طبعها الكسل وإيثار الشهوات والبطالة. وهي منبع كل شر، ومأوىٰ كل سوء. وما كان هكذا لم يصدر منه خير، ولا هو من شأنه.

فالخير الذي صدر[3] منها: إنما هو من الله تعالىٰ وبه، لا من العبد، ولا به. كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[4] [الأعراف: ٤٣]، وقال تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[5] [الحجرات: ٧].

فكل[6] خير في العبد فهو[7] مجرد فضل الله ومنته، وإحسانه ونعمته، وهو

---

(١) في ش: والمحرك.

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة: له.

(٣) في ط، أ، ب، م، غ، ح٢: يصدر.

(٤) في ط الآية إلى قوله: ﴿هدانا لهذا﴾.

(٥) في ط والجميع سوى ش الآية إلى قوله: ﴿وزينة في قلوبكم﴾.

(٦) في ح٢، م: وكل.

(٧) في ش: هو.

المحمود عليه . فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة ، كرؤيته[1] لصفاته الخلقية[2] : من سمعه وبصره ، وإدراكه وقوته ؛ بل من صحته ، وسلامة أعضائه ، ونحو ذلك . فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله .

فالذي[3] يخلص العبد من هذه الآفة : معرفة ربه ، ومعرفة نفسه .

والذي يخلصه من طلب العوض علىٰ العمل : علمه بأنه عبد محض ، والعبد لا يستحق علىٰ خدمته لسيده عوضا ولا أجرة . إذ هو يخدمه بمقتضىٰ عبوديته ، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه ، وإحسان إليه[4] وإنعام عليه ، لا معاوضة[5] . إذ الأجرة إنما يستحقها الحر ، أو عبدالغير . فأما عبده[6] نفسه فلا .

والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه : أمران :

أحدهما : مطالعة عيوبه وآفاته ، وتقصيره فيه ، وما فيه من حظ النفس ، ونصيب الشيطان . فقلَّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قل ، وللنفس فيه حظ . سئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال : «هو

---

(١) في ش : كرؤية العبد .

(٢) في أ ، ب : الخليقة .

(٣) في ح٢ ، م : والذي .

(٤) في ش : عليه .

(٥) في ب ، أ ، غ : ولا معاوضة .

(٦) في ط والجميع سوى ق : عبد نفسه .

اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»[1].

فإذا كان هذا التفات طرفه ولحظه[2]، فكيف التفات قلبه إلىٰ ما سوىٰ الله؟ هذا[3] أعظم نصيب الشيطان من العبودية.

وقال[4] ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «لا يجعل أحدكم للشيطان حظًّا من صلاته، يرىٰ أن حقا عليه: أن لا ينصرف إلا عن يمينه»[5]، فجعل هذا القدر اليسير النزر[6] حظًّا ونصيباً للشيطان من صلاة العبد، فما الظن بما فوقه؟

وأما حظ النفس من العمل: فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله: من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن[7] يوفيها

---

(١) رواه البخاري ٢/ ٢٣٤ في كتاب الأذان، باب الالتفات في الصلاة، ح ٧٥١، وأحمد في مسنده ٦/ ١٠٦، وأبو داود ١/ ٢٣٧ في كتاب الصلاة، باب الالتفات في الصلاة، ح ٩١٠، والنسائي في سننه ٣/ ٨ في كتاب السهو، باب التشديد في الالتفات في الصلاة، ح ١١٩٦.

(٢) في ط والجميع سوى ش، ق: أو لحظه.

(٣) في د: وهذا.

(٤) في غ، أ، ب: قال.

(٥) رواه البخاري ٢/ ٣٣٧ في كتاب الأذان، باب الانفتال والانصراف عن اليمين والشمال، ح ٨٥٢، ومسلم ١/ ٤٩١ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز الانصراف من الصلاة عن اليمين والشمال، ح ٧٠٧.

(٦) في أ: الترك.

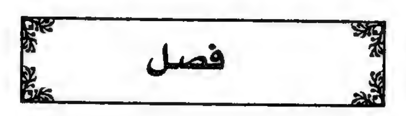
(٧) «أن» ساقطة من غ.

حقها[1] ، وأن يرضىٰ بها لربه . فالعارف لا يرضىٰ بشيء من عمله لربه ، ولا يرضىٰ نفسه لله تعالىٰ طرفة عين ، ويستحيي من مقابلة الله بعمله .

فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها ، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلىٰ الله : يحول بينه وبين الرضا بعمله ، والرضا عن نفسه .

وكان بعض السلف يصلي في اليوم والليلة أربعمائة ركعة ، ثم يقبض علىٰ لحيته ويهزها ، ويقول[2] : يا مأوىٰ كل سوء ؛ وهل رضيتك لله طرفة عين؟[3] .

وقال بعضهم : آفة العبد رضاه عن نفسه ، ومن نظر إلىٰ نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها ، ومن لم يتهم نفسه علىٰ دوام الأوقات فهو مغرور[4] .



فصل

قال[5] :

الدرجة الثانية

«الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : الخَجَلُ مِنَ العَمَلِ ، مَعَ بَذْلِ المَجْهُودِ . وَتَوْفِيرِ[6] الجُهْدِ بِالاحْتِمَاءِ مِنَ الشُّهُودِ . وَرُؤْيَةِ العَمَلِ في نُورِ[7] التَّوفِيقِ مِنْ عَيْنِ الجُودِ»[8] .

---

(١) في ط : حقاً .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : لنفسه .

(٣) انظر : الحلية ٦/ ٢١١ .

(٤) ذكره ابن القيم في الإغاثة ١/ ١٤٠ عن أبي حفص .

(٥) في ط زيادة : صاحب المنازل .

(٦) في ح٢ ، م : وتوفر .

(٧) في ش : بنور .

(٨) انظر : المنازل ٣١ .

هذه ثلاثة أمور : خجله من عمله . وهو شدة حيائه من الله ، إذ لم ير ذلك العمل صالحا له [١] ، مع بذل مجهوده فيه . قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون : ٦٠] ، قال النبي ﷺ : «هو [٢] الرجل يصوم ، ويصلي ، ويتصدق ، ويخاف أن لا يقبل منه» [٣] [٤] ، فالمؤمن : جمع إحسانا في مخافة ، وسوء ظن بنفسه ، والمغرور : حسن الظن [٥] بنفسه مع إساءته .

الثاني : توفير الجهد باحتمائه من الشهود ، أي يأتي بجهد الطاقة في تصحيح العمل ، محتمياً عن شهوده منك وبك .

الثالث : أن يحتمي [٦] بنور التوفيق الذي ينور الله به بصيرة العبد . فترىٰ في ضوء [٧] ذلك النور : أن عملك من عين جوده لا بك ، ولا منك .

فقد اشتملت هذه الدرجة علىٰ خمسة أشياء: عمل، واجتهاد فيه ، وخجل ،

---

(١) «له» ساقطة من أ ، ب ، ح٢ .

(٢) «هو» ساقطة من غ .

(٣) سبق تخريجه ١٣٠٠ .

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة : وقال بعضهم : إني لأصلي ركعتين فأقوم عنهما بمنزلة السارق أو الزاني ، الذي يراه الناس ، حياءً من الله عز وجل .

قلت : ذكر القشيري في الرسالة ٢١٨ نحوه منسوباً لأبي بكر الوراق .

(٥) «الظن» ساقط من د .

(٦) في ط ، أ ، ب ، غ : تحتمي .

(٧) ««ضوء» ساقطة من م وهي في هامشها .

وحياء من الله فيه[١]، وصيانة عن شهوده منك، ورؤيته من عين جود الله ومنته[٢].

الدرجة الثالثة

[٣] الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : «إِخلاصُ العَمَلِ بِالخَلَاصِ مِن العَمَلِ ، تَدَعُه [٤] يَسِيرُ سَيرَ العِلمِ [٥] . وَتَسِيرُ أَنتَ مُشَاهِداً لِلْحُكمِ ، حُرًّا مِن رِقِّ الرَّسْمِ»[٦] .

قد فسر[٧][٨] مراده بإخلاص العمل من العمل بقوله : « تَدَعُه[٩] يَسِيرُ سَيرَ العِلمِ، وَتَسِيرُ أَنتَ مُشَاهِداً لِلْحُكمِ» .

ومعنىٰ كلامه : أنك تجعل عملك تابعا للعلم، موافقاً له ، مؤتماً به[١٠] . تسير بسيره ، وتقف بوقوفه ، وتتحرك بحركته . نازلاً منازله ، مرتوياً من موارده ، فتكون[١١] ناظرا إلىٰ الحكم الديني الأمري ، متقيِّدًا [١٢] به فعلاً وتركاً وطلبا وهربا ، ناظرا إلىٰ ترتب الثواب والعقاب عليه سبباً وكسباً . ومع ذلك فتسير

---

(١) «فيه» ساقطة من ط ، أ ، ب ، غ .

(٢) في ط ، ح٢ ، م ، د ، ق : من عين جود الله ومنه .

(٣) في ط زيادة : قال .

(٤) في ش : يدعه .

(٥) في م : العمل .

(٦) انظر : المنازل ٣١ لكن قال : تدعه يسير مسير العلم .

(٧) في ش : فسروا .

(٨) في ط ، أ ، ب ، غ زيادة : الشيخ .

(٩) في ش : يدعه .

(١٠) «به» ساقطة من د .

(١١) «فتكون» ساقطة من ط .

(١٢) في ش ، ق : مقيداً

أنت بقلبك ، مشاهداً [١] للحكم الكوني القضائي ، الذي ينطوي [٢] فيه الأسباب والمسببات ، والحركات والسكنات ، ولا يبقىٰ هناك غير محض المشيئة وتفرد الرب وحده بالأفعال ، ومصدرها عن إرادته ومشيئته . فتكون [٣] قائما بالأمر والنهي [٤] : فعلاً وتركاً ، سائراً بسيره . وبالقضاء والقدر : إيمانا وشهودا وحقيقة ، فهو ناظر إلىٰ الحقيقة ، قائم بالشريعة .

وهذان الأمران هما عبودية هاتين الآيتين : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٨ ، ٢٩] ، وقال : ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الإنسان : ٢٩ : ٣٠] .

فترك [٥] العمل يسير سير العلم : مشهد «لمن شاء منكم أن يستقيم» وسير صاحبه مشاهدا للحكم : مشهد «وما تشاءون إلا أن يشاء الله»[٦] .

وأما قوله : « **حُرًّا مِن رِقِّ الرَّسْمِ** » الحرية[٧] التي يشيرون[٨] إليها :

---

(١) في م ، ح٢ : شاهداً .

(٢) في ط والجميع سوى ش : تنطوي .

(٣) في ط ، د : فيكون .

(٤) «والنهي» ساقطة من أ ، ب .

(٥) في م ، ب : فترى .

(٦) في ط والجميع زيادة : رب العالمين .

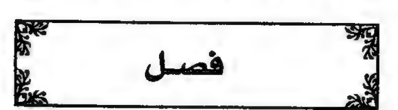
(٧) في ط : فالحرية .

(٨) في أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ق : يشير .

[1] عدم الدخول تحت عبودية الخلق والنفس ، والدخول تحت رق عبودية الحق وحده .

ومرادهم بالرسم[2] : ما سوىٰ الله فكله رسوم ، فإن الرسوم هي الآثار . ورسوم المنازل والديار : هي الآثار التي[3] تبقىٰ بعد سكانها . والمخلوقات بأسرها ـ في منزل الحقيقة ـ رسوم[4] وآثار للقدرة . أي فتخلص نفسك من عبودية كل ما سوىٰ الله . وتكون بقلبك مع القادر الحق وحده ، لا مع آثار قدرته التي هي رسوم . فلا تشتغل بغيره انشغالاً[5] بعبوديته ، ولا تطلب بعبوديتك له حالا ولا مقاما ، ولا مكاشفة ، ولا شيئا سواه .

فهذه أربعة أمور : بذل الجهد ، وتحكيم العلم ، والنظر إلىٰ الحقيقة ، والتخلص من الالتفات إلىٰ غيره . والله الموفق[6] .



فصل

حقيقة الإخلاص والصدق

«الإخلاص»[7] عدم انقسام المطلوب . و«الصدق» عدم انقسام الطلب . فحقيقة الإخلاص: توحيد المطلوب. وحقيقة الصدق: توحيد الطلب والإرادة

---

(١) في ط زيادة : هي .

(٢) سبق ص ١٢٠٠.

(٣) «التي» ساقطة من ق .

(٤) في ط : ورسوم .

(٥) في ط : لتشغلها .

(٦) في ق ، ط زيادة : المعين .

(٧) «الإخلاص» ساقطة من ح٢ .

ولا يثمران إلا بالاستسلام المحض للمتابعة .

فهذه الأركان الثلاثة : هي أركان السير ، وأصول الطريق التي من لم يبن عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع . وإن ظن أنه سائر ، فسيره إما إلىٰ[1] عكس جهة مقصوده ، وإما سير المقعد والمقيد[2] .

فإن عدم الإخلاص والمتابعة : انعكس سيره إلىٰ خلف . وإن لم يبذل جهدَه ويوحِّد طلبَه : سار سير المقيد .

وإن اجتمعت له الثلاثة : فذلك الذي لا يجارىٰ في مضمار سيره . و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة : ٤] .

* * *

---

(١) في ش : على .

(٢) في ط ، والجميع سوى ش زيادة «وإما سير صاحب الدابة الجموح . كلما مشت خطوة إلى قُدَّام رجعت عشرة إلى خلف» .

فصل

منزلة التهذيب والتصفية

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «التهذيب[1] ، والتصفية»[2] وهو سبك العبودية في كير[3][4] الامتحان ، طلبا لإخراج ما فيها من الخبث والغش .

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

تعريف الهروي للتهذيب

«التَّهذِيبُ : محِنَةُ أَربَابِ البِدَايَاتِ . وَهُوَ شَرِيعَةٌ[5] مِن شَرَائِعِ الرِّيَاضَةِ»[6] .

---

(١) التهذيب : مصدر هذب ، وهو من الرجال المُخَلَّصُ النقي من العيوب ، ورجل مُهذَّب أي : مطهر الأخلاق . انظر : لسان العرب ١٥/ ٦٣ مادة : هذب .
والتصفية : مصدر صفا والصفا نقيض الكدر . وصفو كل شيء : خالصه . انظر : لسان العرب ٧/ ٣٧٠ . مادة : صفا .
وعند الصوفية التهذيب هو : الإصلاح ، ويقال التطهير ، والتصفية ، يقصد بها تارة تهذيب القصد ، وأخرى الخدمة ، وأخرى الحال ، وأخرى التحقيق فيهذبها في القصد من كدر الإكراه .
وبالخدمة : أن لا تكون عن جهل ، أو عادة ، أو وقوف عند همة .
وبالحال : أن لا تجنح إلى علم ؛ بل إلى حال وذوق ووجدان .
وبالحقيقة : أن يرى شيئاً بغير الله . انظر : لطائف الإعلام ١/ ٣٥١ـ٣٥٢ .

(٢) «والتصفية» ساقطة من أ ، ب .

(٣) في ق : كبر .

(٤) الكير بالكسر : كير الحداد ، وهو زق أو جلد غليظ ذو حافات ينفخ فيه النار . انظر : لسان العرب ١٢/ ٢٠٠ مادة : كير .

(٥) «شريعة» ساقطة من أ ، غ ، ب .

(٦) انظر : المنازل ٣١ ، لكن قال : محنة أهل البدايات .

يريد : أنه صعب علىٰ المبتدي ، فهو له كالمحنة . وطريقة للمرتاض الذي قد مرَّن نفسه حتىٰ اعتادتْ قبوله ، وانقادتْ إليه .

درجات التهذيب

قال : « وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَـاتٍ :

الدرجة الأولى

الأُولَىٰ[1] : **تَهذِيبُ الخِدْمَةِ ، أَن لَا يُخَالِجها جَهَالَةٌ ، ولا تَشُوبَها**[2] **عَادَةٌ ، وَلَا تَقِفَ**[3] **عِندَهَا هِمَّةٌ**»[4] .

أي : تخليص العبودية ، وتصفيتها[5] من هذه الأنواع الثلاثة . وهي : مخالجة الجهالة[6] ، وشوب العادة ، ووقوف همة[7] الطالب عندها .

[8] فإن الجهالة متىٰ خالطت[9] العبودية ، أوردها العبد غير موردها . ووضعها في غير موضعها . وفعلها في غير مستحقها . وفعل أفعالا يعتقد أنها صلاح ، وهي إفساد لخدمته وعبوديته ، بأن[10] يتحرك في موضع السكون ، أو

---

(١) في أ ، ب : الدرجة الأولى .

(٢) في ط ، د : يشوبها .

(٣) في ط ، ح٢ ، م ، غ : يقف .

(٤) انظر : المنازل ص ٣١ - ٣٢ .

(٥) في ق : وتصفيها .

(٦) في أ ، ب : الجهال .

(٧) في أ ، ب ، غ : هذا .

(٨) في ط زيادة : النوع الأول : مخالطة الجهال .

(٩) في د ، ق : خالطه .

(١٠) في م : أن .

يسكن في موضع الحركة[1] ، أو يفرق في موضع جمع ، أو يجمع في موضع فرق[2] أو يطير في موضع سفون[3] ، أو يُسفن[4] في موضع طيران ، أو يقدم في موضع إحجام ، أو يحجم في موضع إقدام ، أو يتقدم في موضع وقوف ، أو يقف في موضع تقدم . ونحو ذلك من الحركات ، التي هي في حق الخدمة : كحركات الثقيل البغيض في حقوق الناس .

فالخدمة ما لم يصحبها[5] علم ثان بآدابها[6] وحقوقها ، غير العلم بها نفسها ، كانت في مظنة أن تُبعدَ صاحبَها ، وإن كان مرادُه بها التقربَ . ولا يلزم حبوط ثوابها وأجرها ، فهي إن لم تبعده عن الأجر والثواب ، أبعدته عن المنزلة والقربة[7]. ولا تنفصل مسائل هذه الجملة إلا بمعرفة خاصة بالله وأمره ، ومحبة تامة له ، ومعرفة بالنفس وما منها .

---

(١) في ط والجميع سوى ش : التحرك .

(٢) في ق : تفرق .

(٣) السَّفْنُ هو القشر ، ومنه الالتصاق بالأرض ، كحال الصياد حين يحبو على الأرض لئلا ينفر منه الصيد ، ومنه السفينة سميت بذلك ؛ لأنها تسفن الرمل إذا قل الماء . وقيل : لأنها تسفن على وجه الأرض ، أي تلزق بها .

انظر : لسان العرب ٦/ ٢٨٦ مادة : (سفن) .

(٤) في ط والجميع سوى ش : في موضع سفون أو يُسِّفُ .

(٥) في ق : لم يصحبها وفي أ ، ب : ما لم يصلحها .

(٦) في أ ، ب ، غ : بأدائها .

(٧) في أ ، ب ، غ : القرب .

النوع الثاني : شوب العادة . وهو أن يمازج [١] العبودية حكم من أحكام عوائد [٢] النفس، تكون منفذة لها، مُعِينة عليها. وصاحبها يعتقدها قربة وطاعة، كم اعتاد الصوم ـ مثلاً ـ وتمرن عليه . فأَلِفَتْه النفس ، وصار لها عادة تتقاضاها أتم[٣] اقتضاء . فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية ، وإنما هو تقاضي العادة . وعلامة هذا : أنه إذا عرض عليها طاعة دون ذلك ، وأيسر منه ، وأتم مصلحة : لم تؤثرها[٤] ، إيثاراً [٥] لما اعتادته[٦] وأَلِفَتْه . كما يحكىٰ[٧] عن بعض الصوفية[٨] قال : حججت كذا وكذا حجة علىٰ التجريد[٩] ، فبان لي أن جميع ذلك كان مشوبا بحظي . وذلك : أن والدتي سألتني أن أستقي لها جرعة[١٠] ماء ، فثقل

---

(١) في الجميع سوى ش ، د ، ط : تمازج .

(٢) «عوائد» ساقطة من غ ، أ ، ب .

(٣) في ط ، د : أشد .

(٤) في غ ، ب ، أ ، ش : يؤثرها .

(٥) في ط والجميع سوى ش : إيثارها .

(٦) في أ ، ب : اعتادها وفي ق : اعتاده .

(٧) في ط والجميع سوى ش : حكي .

(٨) في ط والجميع سوى ش : عن بعض الصالحين من الصوفية .

(٩) التجريد : يريد بذلك ما دل عليه السياق بعده من ترك الأخذ بالأسباب حيث قال : «إن والدتي سألتني أن أستقي لها جرعة ماء «إذ ترك التزود بالماء تجرداً من فعل الأسباب ، ومما يدل على ذلك قول أبي سهل محمد بن سليمان عندما سئل عن قول أبي بكر حينما أتى بماله كله للرسول ﷺ فقال له الرسول : « ماذا أبقيت لأهلك» ، قال : أبقيت لهم الله ورسوله».

قال أبو سهل : هو التجريد لله بالكلية . انظر : شعب الإيمان ٢/ ١٠٦ .

(١٠) في ح٢ : جرة .

ذلك علىٰ نفسي . فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحجات كان بحظ[١] نفسي وإرادتها. إذ لو كانت نفسي فانية لم[٢] يصعب عليها ما هو يحق [٣] في الشرع [٤].

الثالث[٥] : وقوف همته عند الخدمة . وذلك علامة ضعفها وقصورها . فإن العبد المحض لا تقف همته عند خدمته [٦] ؛ بل همته أعلىٰ من ذلك ، إذ هي طالبة لرضا مخدومه . فهو دائما مستصغر خدمته له ، ليس واقفا عندها . والقناعة تحمد من صاحبها إلا في هذا الموضع ، فإنها عين الحرمان . فالمحب لا يقنع [٧] بشيء دون محبوبه . فوقوف همة العبد مع خدمته وأجرتها: سقوط فيها وحرمان .

الدرجة الثانية

قال : « **الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : تَهذِيبُ الحَالِ . وَهُوَ أَن لَا يَجْنَحَ الحَالُ إِلَىٰ عِلمٍ ، وَلَا يَخضَعَ لِرَسمٍ ، وَلَا يَلتَفِتَ إِلَىٰ حظٍّ** »[٨] .

أما «**جنوح الحال إلىٰ العلم**» فهو نوعان : ممدوح [٩] ، ومذموم .

---

(١) في ش : كانت لحظ .

(٢) في ش زيادة : بالله .

(٣) في ش : لحق وفي ط والباقي : حق .

(٤) انظر : القشيرية ٩٩ ، لأبي محمد المرتعشي .

(٥) في ط : النوع الثالث .

(٦) في ش الخدمة ، وفي : أ ، ب ، غ : خدمة .

(٧) في غ : فالمحب يقنع .

(٨) انظر : المنازل ٢٢ .

(٩) «ممدوح ومذموم» ساقط من ب .

فالممدوح : التفاته إليه ، وإصغاؤه إلىٰ ما يأمر به ، وتحكيمه عليه . فمتىٰ لم يجنح إلىٰ [١] هذا الجنوح كان حالا مذموماً ، ناقصاً ، مُبعِداً عن الله تعالىٰ . فإن كل حال لا يصحبه علم ؛ يُخاف عليه أن يكون من[٢] خدع الشيطان . وهذا القدر هو الذي أفسد علىٰ أرباب[٣] الأحوال أحوالهم[٤] ، وشردهم عن الله كل مشرد ، وطردهم عنه كل مطرد . حيث لم يحكموا عليه العلم ، وأعرضوا عنه صفحا ، حتىٰ قادهم إلىٰ الانسلاخ من حقائق الإيمان ، وشرائع الإسلام .

وهم[٥] الذين قال فيهم سيد الطائفة الجنيد بن محمد - رحمه الله - لما قيل له : أهل المعرفة يصلون إلىٰ ترك [٦] الحركات من باب البر والتقرب إلىٰ الله تعالىٰ فقال الجنيد ـ رحمه الله ـ : «[٧] هذا كلام قوم تكلموا بإسقاط الأعمال[٨] وهو عندي عظيمة . والذي يسرق ويزني[٩] ، أحسن حالاً من الذي يقول هذا . فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإليه رجعوا فيها . ولو بقيت ألف

---

(١) في ط والجميع سوى ش : إليه .

(٢) في أ ، ب : مع .

(٣) في غ ، أ ، ب ، ح٢ : أصحاب .

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة : وعلى أهل الثغور ثغورهم .

(٥) «وهم» ساقطة من م .

(٦) في ق : تلك .

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة : إن .

(٨) في ط والجميع سوى ش زيادة : عن الجوارح .

(٩) في ط والجميع سوى ش : والذي يزني ويسرق .

عام لم أنقص من أعمال البر ذرة ، إلا أن يحال بي دونها »[١] .

وقال : الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا [٢] من اقتفى أثر الرسول ﷺ[٣].

وقال : من لم يحفظ القرآن ، ويكتب الحديث : لا يقتدى به في هذا الأمر[٤]؛ لأن علمنا [٥] مقيد بالكتاب والسنة [٦] .

وقال : علمنا هذا مشيد [٧] بحديث رسول الله ﷺ [٨] .

والبلية التي عرضت لهؤلاء : أن أحكام العلم تتعلق بالعمل [٩] ، وتدعو إليه وأحكام الحال تتعلق بالكشف . وصاحب الحال ترد عليه أمور ليست في طور العلم . فإن أقام عليها ميزان العلم ومعياره ، تعارض[١٠] عنده العلم والحال .

فلم يجد بُدًّا من الحكم على أحدهما بالإبطال . فمن حصلت له أحوال

---

(١) ذكره السلمي في الطبقات بسنده إلى الجنيد ١٥٩ ، وأبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٧٨ ، والقشيري في الرسالة ٤٣٠ .

(٢) في الجميع سوى ش زيادة : على .

(٣) انظر : القشيرية ٤٣٠ .

(٤) في ط والجميع سوى ش : في طريقنا هذا .

(٥) «علمنا» ساقطة من ح٢ ، م ، وفي د ، غ ، ق : لأن طريقنا وعلمنا وفي أ ، ب : لأن طريقنا وعملنا .

(٦) انظر : القشيرية ٤٣١ .

(٧) في ش : مشبك .

(٨) انظر : القشيرية ٤٣١ .

(٩) في ط : بالعلم .

(١٠) في ق : وتعارض .

الكشف ، ثم جنح إلىٰ أحكام [١] العلم ، فقد رجع القهقرى ، وتأخّر في سيره إلىٰ وراء .

فتأمل هذا الوارد ، وهذه الشبهة التي هي سُمٌّ ناقع : تخرج [٢] صاحبَها من المعرفة والدين ، كإخراج [٣] الشعرة من العجين .

واعلم أن المعرفة الصحيحة : هي روح العلم . [والحال الصحيح : هو روح العمل المستقيم . فكل حال لا يكون نتيجة العمل المستقيم مطابقاً للعلم][٤] فهو بمنزلة الروح الخبيثة الفاجرة . ولا ننكر [٥] أن تكون لهذه الروح أحوال ، لكن الشأن في مرتبة تلك الأحوال ومنازلها . ومتىٰ [٦] عارض الحال حكم من أحكام العلم ، فذلك الحال إما فاسد وإما ناقص ، ولا يكون مستقيما أبداً .

فالعلم [الصحيح ، والعمل][٧] المستقيم هما [٨] ميزان [٩] المعرفة الصحيحة ، والحال الصحيح ، وهما كالبدنين لروحيهما .

---

(١) في أ ، ب ، غ : أحوال .

(٢) في غ زيادة : عن .

(٣) في ق : كإجناح و في أ : كما تخرج .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من غ .

(٥) في ط والجميع سوى ش : ولا ينكر أن يكون .

(٦) في ط : فمتى .

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من أ وهو في هامشها .

(٨) في أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ق : فهما .

(٩) في ش : ميدان .

فأحسن ما يحمل عليه قوله : «**أَن لا يَجنحَ الحَالُ إِلىٰ عِلمٍ**[١]» أن العلم يدعو إلىٰ الفرقة دائماً ، والحال يدعو إلىٰ الجمعية ، والقلب بين هذين الداعيين . فهو بحسب[٢] هذا مرة وهذا مرة .

فتهذيب الحال وتصفيته : أن يجيب داعي الحال لا داعي العلم . ولا يلزم من هذا ، إعراضه عن العلم، وعدم تحكيمه والتسليم له ؛ بل هو متعبد بالعلم ، محكم له ، مستسلم له ، غير مجيب لداعيه من التفرقة ؛ بل هو مجيب لداعي الحال والجمعية ، آخذ من العلم ما يصحح له حاله وجمعيته ، غير مستغرق فيه استغراق من هو مَطْرح[٣] همته ، وغاية مقصده ، لا مطلوب له سواه ، ولا مراد له إلا إياه. فالعلم عنده آلة ووسيلة ، وطريق توصله إلىٰ مقصده ومطلوبه. فهو كالدليل بين يديه . يدعوه إلىٰ الطريق ويدلُّه عليها ، فهو يجيب داعية للدلالة[٤] ومعرفة الطريق . وما في قلبه من ملاحظة مقصده ومطلبه ، من سيره وسفره وباعث همته علىٰ الخروج من أوطانه ومرباه ، ومن بين أصحابه وخلطائه . الحامل له علىٰ الاغتراب ، والتفرد في طريق الطلب ، هو[٥] المسير له ، والمحرك والباعث . فلا يجنح عن داعيه إلىٰ اشتغاله

---

(١) في ط والجميع سوى ش : العلم .

(٢) في ط والجميع سوى ش : يجيب .

(٣) مطرح : اسم مكان من طرحه ، ومنه قيل للمسكن والمجلس مَطْرح . انظر : المعجم الوسيط ٥٥٣ مادة : (طرح) .

(٤) في الجميع سوى ش ، ط : داعية الدلالة .

(٥) في ق : وهو ، وفي أ : فهو .

بجزئيات[١] أو أحوال[٢] الدليل ، وما هو خارج عن دلالته علىٰ طريقه .

فهذا مقصد شيخ الإسلام ـ إن شاء الله ـ لا الوجه الأول والله أعلم .

فصل

شرح قول الهروي «ولا يخضع لرسم»

وأما قوله : «وَلَا يَخْضَعَ[٣] لِرَسْمٍ» أي لا يستولي علىٰ قلبه شيء من الكائنات ، بحيث يخضع [٤] له قلبه . فإن صاحب الحال : إنما يطلب الحي القيوم لا يقف [٥] عند المعاهد والرسوم .

وأما قوله: «وَلَا يَلْتَفِتَ إِلىٰ حَظٍّ» أي إذا حصل له الحال التام: لم يشتغل بفرحه به، وحظه منه واستلذاذه . فإن ذلك حظٌّ من حظوظ النفس، وبقيّةٌ من بقاياها.

---

(١) في ق : بجزيات ، وفي أ : بحركات .

(٢) في ط والجميع ش : وأحوال .

(٣) في ش : لا يخضع .

(٤) في ح٢ ، م : يضع .

(٥) في ط والجميع سوى ش : فلا ينبغي له أن يقف .

فصل

قال[1] :

«الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : تَهذِيبُ القَصْدِ . وَهُوَ[2] تَصفِيَتُه مِن ذُلِّ الإكرَاهِ ، وَتحَفُّظُه مِن مَرَضِ الفُتُورِ ، وَنُصرَتُه عَلَىٰ مُنَازَعَاتِ العِلْمِ»[3] .

الدرجة الثالثة

هذه[4] أيضاً ثلاثة أشياء ، تهذب قصده وتصفيه .

أحدها : تصفيته من ذلك الإكراه . أي لا يسوق نفسه إلىٰ الله كرهاً ، كالأجير المسخر المكلف ؛ بل تكون دواعي قلبه وجواذبه منساقة إلىٰ الله طوعاً ، و محبة وإيثاراً ، كجريان الماء في منحدره ، وهذه حال المحبين الصادقين . فإن عبادتهم طوعاً و محبةً ورضًا . ففيها قرة عيونهم ، وسرور قلوبهم ، ولذة أرواحهم . كما قال[5] ﷺ : «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[6] .

---

(١) في ط زيادة : صاحب المنازل .

(٢) في أ ، ب : وهي .

(٣) انظر : المنازل ٣٢ .

(٤) في ش : هذا .

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة : النبي .

(٦) رواه أحمد في مسنده ٣/ ١٢٨ ، والنسائي في سننه ٧/ ٦١ في كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء ح ٣٩٣٩ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ١٧٤ ، ح ٢٦٧٦ ، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٧٨ ، والطبراني في الكبير ٢٠/ ٤٢٠ ، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة ١/ ٣٣١ . قال العراقي : إسناده جيد .

وكان يقول : «يا بلال[1] أرحنا بالصلاة»[2] .

فقرة عين المحب ولذته ، ونعيم روحه : في طاعة محبوبه . بخلاف المطيع كرهاً ، المتحمل للخدمة ثقلاً .

وفي قوله : « ذُلّ الإِكرَاهِ » لطيفة . وهي أن المطيع كرها يرىٰ أنه لولا ذل قهره ، وعقوبة سيده له لما أطاعه . فهو يتحمل طاعته كالمكره الذي قد أَذَلَّه مكرِهُه وقاهرُه . بخلاف المحب الذي يعد طاعة محبوبه قوتاً ونعيماً ، ولذة وسروراً ، فهذا ليس الحامل له ذل الإكراه .

الثاني[3] : تحفظه من مرض الفتور . أي: توقيه من مرض فتور قصده ،

انظر : المغني بهامش الإحياء ٢/ ٤٤ ، وقال ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٤٥ : «رواه النسائي وغيره بسند صحيح ، وصححه الألباني . انظر : صحيح الجامع الصغير ٣/ ٨٧ .

(١) أبو عبد الله بلال بن رباح الحبشي مؤذن رسول الله ﷺ ، وخازنه على بيت المال ، أحد السابقين إلى الإسلام ، وممن عذبوا في الله ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبشره بالجنة ، توفي - رضي الله عنه - سنة ٢٠ هـ .

ترجمته في : حلية الأولياء ٢/ ١٠٦ ، أسد الغابة ١/ ٢٤٣ ، السير ١/ ١٤٧ .

(٢) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٣٦٤ ، والطبراني في الكبير ٦/ ٢٧٧ ، وذكره الهيثمي في المجمع ١/ ١٤٥ ، ورواه أبو داود ٤/ ٢٩٦ في كتاب الأدب ، باب في صلاة العتمة ، ح ٤٩٨٥ بلفظ: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها» ، والطبراني في الكبير كذلك ٦/ ٢٧٦ - ٢٧٧ .

قال العراقي في المغني - بهامش الإحياء ١/ ٢٣٢ - : إسناده صحيح وذكره التبريزي في المشكاة ١/ ٣٩٣ وقال الألباني : صحيح .

(٣) في ط والجميع سوى ش : والثاني .

وخمود نار طلبه . فإن العزم هو روح القلب[١] ونشاطه ، كالصحة له . وفتوره مرض من أمراضه . فتهذيب قصده وتصفيته بحميته[٢] من أسباب هذا المرض ، الذي هو[٣] فتوره . وإنما يتحفظ منه بالحمية من أسبابه . وهي[٤] أن يلهو عن الفضول من كل شيء ، ويحرص علىٰ ترك ما لا يعنيه . ولا يتكلم إلا[٥] فيما يرجو فيه زيادة إيمانه وحاله مع الله تعالىٰ ، ولا يصحب إلا من يعينه علىٰ ذلك فإن بُلِيَ بِمَنْ[٦] لا يعينه فليدرأه عنه ما استطاع ، ويدفعه دفع الصائل .

الثالث : نصرة قصده علىٰ منازعات العلم . ومعنىٰ ذلك : نصرة[٧] خاطر العبودية المحصنة والجمعية فيها ، والإقبال علىٰ الله فيها بكلية القلب ، علىٰ حوادث[٨] العلم ، والفكرة في دقائقه ، وتفاريع مسائله وفضلاته . أو أن[٩] العلمَ يطلبُ من العبد العملَ للرغبة[١٠] والرهبة ، والثواب وخوف العقاب .

---

(١) في ط والجميع سوى ش ، د ، ق : القصد .

(٢) في ش ، م : تحميه .

(٣) «هو» ساقط من م .

(٤) في ط والجميع سوى ش : وهو .

(٥) «إلا» ساقطة من ع .

(٦) في ق : بما .

(٧) في أ ، ب : نصر .

(٨) في ط والجميع سوى ش ، د ، ق : جواذب .

(٩) في ب ، غ ، أ : وأن العلم .

(١٠) (للرغبة) ساقطة من الأصل ، ش ، وما أثبته في ط وباقي النسخ والسياق يقتضيه .

فتهذيب القصد [١] : تصفيته من ملاحظة ذلك . وتجريده : أن يكون قصده وعبوديته محبة لله [٢] بلا علة ، وأن لا يحب الله لما يعطيه ويحميه منه . فتكون محبته لله [٣] محبة الوسائل ، ومحبته بالقصد الأول : لما يناله من الثواب المخلوق ، فهو المحبوب له بالذات . بحيث إذا حصل له محبوبه تسلىّٰ [٤] به عن محبة من أعطاه إياه . فإن من أحبك لأَمْرٍ وَلىّٰ [٥] عند حصوله ، وملّك عند انقضائه .

فالمحب [٦] الصادق يخاف أن تكون محبته لغرض من الأغراض ، فتنقضي محبته عند انقضاء ذلك الغرض . وإنما مراده : أن محبته تدوم ولا [٧] تنقضي أبدا ، وأن لا يجعل محبوبه وسيلة له إلىٰ غيره ؛ بل يجعل ما سواه وسيلة له إلىٰ محبوبه .

وهذا القدر هو الذي حام عليه القوم [٨] ، وتكلموا فيه ، وشمّروا إليه .

---

(١) في م ، ح٢ ، أ : القلب .

(٢) في ش : ربه .

(٣) «لله» ساقطة من ش .

(٤) في د : لسلي .

(٥) في ط ، ح٢ ، م : والاك .

(٦) في ط والجميع سوى ش : والمحب .

(٧) في ش : وألا تنقضي ، وفي ق : فتنقضي .

(٨) في ط والجميع سوى ش زيادة : وداروا حوله .

فمنهم من أحسن التعبيرَ عنه .

ومنهم من أساء العبارةَ ، وقصدُه وصدقُه يصلح فسادَ عبارتِه .

ومن الناس : من لم يفهم هذا كما ينبغي ، فلم يجد له ملجأً غير الإنكار .

والله يغفر لكل من قصده الحق واتباع مرضاته . فإنه واسع المغفرة .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده ، وبعد :

لقد كانت فرصة قيمة منَّ الله بها عليَّ في هذه الفترة الزمنية من العمر ، لتقديم خدمة لبعض ميراث عَلَم من أعلام أهل السنة ، كانت نافذة لي للاطلاع علىٰ عدد من المصادر والمراجع ، ومجالاً لاستخلاص عددٍ من النتائج سواء فيما يخص الدراسة أو النص المحقق أجملتها فيما يلي :

١ - تبين من خلال الدراسة أن الحكم علىٰ الصوفية لابد أن يسبق بمعرفة أقسام الصوفية ودرجاتها ، لاختلاف الحكم تبعاً لذلك .

٢ - تأثر أقسام الصوفية بالمواقف الفردية ، والسير الذاتية ، فأحياناً يأخذ الحكم الشمول علىٰ الفرقة أو الخصوص علىٰ الفرد .

٣ - أن سبب الانحراف عند الصوفية يرجع إلىٰ الخلل في مصادر التلقي عندهم .

٤ - أن القول الفصل في مسألة تقسيم الذنوب ، أنها صغائر وكبائر .

٥ - أهمية التوازن بين الخوف والرجاء في حياة المسلم ، وأن ما دخل علىٰ الصوفية من الخلل في هاتين المنزلتين إنما هو بسبب التصور الفاسد .

٦ - تميز ابن القيم -رحمه الله- بالاستيعاب لمعظم مسائل الدين في العقيدة والمعاملة والسلوك ، مع قوة فائقة، وحجة حاضرة في الرد والمناظرة .

٧ - كان لابن القيم منهج فريد في الاعتذار عما يقتضيه المقام ، وموقف

حازم مما لا يحتمل الاعتذار علىٰ كل حال .

٨ - تضمن كتاب المدارج الرد علىٰ من شرح المنازل من غلاة الصوفية كعفيف الدين التلمساني وغيره ، وفي هذا تبرئة للهروي ممن يدعيه منهم .

٩ - أن عامة ضلال الناس من الألفاظ الموهمة أو المبهمة ، ففيها مداخل لمريد الباطل ، ويصعب قبولها لمن يريد الحق .

١٠ - أنه ما من خلل في الاعتقاد إلا ويتبعه خلل في السلوك ، يتجلىٰ ذلك في موقف الصوفية من الأسباب وشهود الحقيقة الكونية .

١١ - ظهور التحكم في ترتيب المقامات ، والتكلف في الاستدلال عند الصوفية في رسم معالم الطريق للسالكين .

١٢ - أنه ليس بالضرورة كون النسخ الخطية متعددة قوةً للتحقيق ، إذ يرجع معظمها إلىٰ نسخة واحدة ، فتكون أخطاء النُّسَّاخ عبئاً يضاف علىٰ المحقق .

وفي الختام أسأل الله عز وجل أن يحسن لنا الختام ، وأن يرزقنا خشيته وتقواه ، ويمنّ علينا برحمته ورضاه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلىٰ الله وبارك علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

* * *

